



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية أصول الدين

قسم القرآن وعلومه

الشجر والثمر في القرآن الكريم

دلالاته ، ومقاصده

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه

إعداد :

أسماء بنت عبدالرحمن الحمد

إشراف :

فضيلة الدكتور : شريف بن علي أبو بكر

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

العام الجامعي ١٤٣٢ - ١٤٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ذي الأفضال المتواليه ، والنعم المتتالية ، الحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، وجعلنا من أمة خير الناس ، وأنزل لنا أعظم كتاب أنزل للناس ، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن ، فبينه لنا أتم بيان ، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره وسار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا القرآن العظيم هو مصدر هداية الأمة : منه تستقي أفكارها ، وتبني عقائدها ، وتؤسس عليه حضارتها ، ومن آيات القرآن الباهرة أن علماء الأمة أولوه عنايةً فائقةً : تعليماً وتفسيراً واستنباطاً ، وتتابعوا على ذلك جيلاً بعد جيل ، ومع ذلك ظل لطالب الهداية غضاً طرياً لا تنقضي عجائبه ، ولا تفي روائعه ، ولا يسبر غوره .

وهذا البحث الذي أنا بصدده أرجو الله - تعالى - أن يكون جزءاً من هذه السلسلة المنيرة التي تبحث في فرائد القرآن ودرره ، فهو محاولة لقراءة مقاصد وحكم تناول القرآن للأشجار والثمر على وجه التفصيل ، فإن القرآن العظيم تناول هذا المكون الهام للإنسان في آيات كثيرة ومناسبات متعددة : في المكي منه والمدني ، مرة على سبيل الإجمال ، ومرة بالنص على أنواع معينة من الشجر والثمر ، ومرة بذكر نوع واحد ، ومرة يقرنه بوعدده ، ومرة بوعيدده ، وغير ذلك من الأساليب ، مما يستدعي قراءة استقرائية لهذا الموضوع لاستخراج حكمه ، واستنباط عبره ، والاستفادة من طريقة القرآن في تربية الإنسان ، وتوجيه فكره ، وتقوية إيمانه .

هذا وأسأل الله - تبارك وتعالى - أن يكون هذا البحث مساهمة وإضافة مفيدة في بابه ، وكما أسأله أن يجعل هذا العمل لخدمة كتاب الله خالصاً لوجهه الكريم .

أهمية الموضوع :

١ - شرف هذا الموضوع لكونه متعلقاً بالقرآن الكريم وتفسيره .

٢ - أن هذا الموضوع يسلط الضوء على وجه من أوجه عظمة كتاب الله تعالى ؛ إذ بعد النظر والتدقيق في الآيات الواردة في الشجر والثمر تحقق لي أنها لم تكن في سياق واحد ، بل ظهر أن القرآن ذكرها في سياقات كثيرة ومتنوعة ، وقد وظفها كماً ونوعاً ؛ لتحقيق أهداف ومقاصد عظيمة ومتنوعة ، فدراسة هذا الجانب تكشف ذلك وتقربه للدارسين .

٣ - عدم وجود دراسة علمية تتناول هذا الجانب .

٤ - الإسهام بخدمة هذا الكتاب العظيم .

٥ - إضافة لبنة للمكتبة القرآنية بدراسة هذا الجانب دراسة علمية .

أهداف الموضوع :

- ١ - خدمة كتاب الله الكريم بتسليط الضوء على جانب مهم من جوانب عظيمته.
- ٢ - رصد تناول القرآن الكريم لهذا المكون الرئيس في حياة الإنسان وسياقاته في الآيات.
- ٣ - توضيح المقاصد والمجالات التي وظفت الشجر والثمر فيها في كتاب الله .
- ٤ - إبراز جزء من معالم القرآن الكريم في الاستدلال ، وذكر البرهان .
- ٥ - استخلاص الدروس والعبر من خلال تتبع ذكر الشجر ، والثمر ، وتوظيفها في القرآن الكريم .

الدراسات السابقة :

بعد البحث في فهارس الرسائل الجامعية ، والمجلات العلمية ، والمكتبات العامة ، لم أقف على من تطرق لهذا الموضوع يبحث قرآني موضوعي مستقل يتوجه بشكل رئيس لدراسة دلالات ومقاصد آيات النبات في القرآن الكريم . واستقصى جميع جوانبه . وأكثر الدراسات والمقالات التي تطرقت لآيات النبات تناولته من منظور علم الأحياء ، أو النواحي الإعجازية في آيات النبات .
وهنا تفصيل تلك الدراسات :

- ١ - النبات والشجر في القرآن د . أسعد جواد يوسف أستاذ اللغة العربية . جامعة القادسية في محافظة الديوانية بالعراق ١٤١٩ . وهو غير مطبوع . وقد بحثت كثيراً للوصول لهذا البحث ، وراست العديد من المهتمين فلم أستطع الوصول لأي معلومة عن البحث .

٢ - أحكام النبات والشجر في الفقه الإسلامي ، د . صالح بن أحمد الوشيل ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية الشريعة عام ١٤١٧ هـ وهي دراسة تتوجه للأحكام الفقهية للنبات والشجر .

٣ - الثروة النباتية في السنة النبوية المطهرة ، د . عبدالرحمن بن جارالله الزهراني ، رسالة دكتوراه في قسم السنة وعلومها ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٣١ . وهي دراسة للنبات في السنة المطهرة وحدها .

٤ - النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، د . جواهر محمد سرور باسلوم ، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى عام ١٤١٧ . وبالاطلاع على خطة هذه الرسالة وجدت أن ما يمكن أن يكون مشتركاً مع بحثي هي ثمانية مطالب ، وبحثي فيه ثمانية وثلاثون مطلباً . وقد أكثرت الدراسة في الجانب العلمي والفقه للنباتات .

٥ - آيات النبات في القرآن الكريم ، أ.د. زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية ، وفسر فيه أربعاً وعشرين آية تفسيراً علمياً إعجازياً .

٦ - أسرار عالم النبات ، عالم النبات بين العلم والقرآن ، أ.د. محمد غسان سلوم ، دار المكتبي ، وهو كتاب علمي تناول بعض الآيات وليس فيه تفسير .

٧ - إعجاز النبات في القرآن الكريم ، د. نظمي خليل أبو العطا ، جامعة عين شمس ، مكتبة النور ، وهو كتاب صغير يتناول النباتات الواردة في القرآن من منطلق علمي يندر أن يرجع للتفسير فيه .

٨ - عظمة الله في النبات ، أ.د. عبدالله بن مساعد بن خلف الفالح ، أستاذ علم الأحياء . طباعة مكتبة الرشد بالرياض ، تناول بعض الآيات من منطلق علم الأحياء .

حدود البحث :

الآيات التي ورد فيها ذكر الشجر والثمر بتحديد الجنس ، أو بطريق الإجمال .

خطة البحث :

تتكون خطة البحث من : مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة ، وفهارس . على النحو التالي :

المقدمة :

وتتضمن أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وأهدافه ، والدراسات السابقة ، وحدود البحث ، ومنهج البحث وطريقة العمل فيه .

التمهيد :

الشجر والتمر في القرآن الكريم ، وفيه : ذكر أسماء الشجر والتمر التي وردت في القرآن الكريم .

الفصل الأول : دلالات الشجر ، والتمر في حق الخالق . جل وعلا .

المبحث الأول : دلالاتها على التوحيد :

المطلب الأول : دلالاتها على توحيد الربوبية .

المطلب الثاني : دلالاتها على توحيد الألوهية .

المطلب الثالث : سجودها لله . تعالى . .

المطلب الرابع : سياقها في عموم علم الله . تعالى . .

المطلب الخامس : دلالاتها على تقدير الخلق .

المبحث الثاني : دلالاتها على البعث :

المطلب الأول : دلالاتها في قدرة الله . تعالى . على البعث .

المطلب الثاني : تقرير البعث بإحياء البذرة الميتة .

المطلب الثالث : تقرير البعث بإحياء الأرض .

الفصل الثاني : دلالات الشجر والتمر في حق المخلوق :

المبحث الأول : الامتنان على الخلق :

المطلب الأول : الامتنان بإيجادها .

المطلب الثاني : الامتنان بتنوعها ، ومنافعها .

المطلب الثالث : الامتنان برعي الأنعام ، وسومها .

- المطلب الرابع : الامتحان على موسى ، ويونس ، ومريم . عليهم السلام . .
- المطلب الخامس : الامتحان على أهل مكة خاصة .
- المطلب السادس : الامتحان بجعل الشجر والثمر جمالاً ، وزينة .
- المطلب السابع : الامتحان بتزيين الأرض بالنبات .

المبحث الثاني : دلالتها على التفكير :

- المطلب الأول : التفكير في الملكوت ، وما خلق الله من شيء .
- المطلب الثاني : التفاضل في الأكل مع الاشتراك في الأصل .
- المطلب الثالث : في كل النباتات زوجان اثنان .
- المطلب الرابع : التفكير في تنوعها .
- المطلب الخامس : من الشجر الأخضر نار .
- المطلب السادس : شجرة تخرج في أصل الجحيم .

المبحث الثالث : سياقها في مجال ضرب المثل :

- المطلب الأول : التمثيل بها للحث على الإنفاق في سبيل الله .
- المطلب الثاني : التمثيل بها للزجر عن الرياء ، وما يجبط العمل .
- المطلب الثالث : التمثيل بها للحث على شكر النعمة ، وعدم كفرها .
- المطلب الرابع : التمثيل بها لتقريب الأمر الغيبي .
- المطلب الخامس : التمثيل بها للإشادة بالممدوح .
- المطلب السادس : التمثيل بها لبيان حقيقة الدنيا .
- المطلب السابع : التمثيل بها للحث على الكلمة الطيبة .

المبحث الرابع : الابتلاء بالشجر والثمر ، والامتحان بهما في القرآن الكريم :

- المطلب الأول : ابتلاء المؤمنين بنقص الثمرات .
- المطلب الثاني : عذاب الكفار بنقص الثمرات .

- المطلب الثالث : ابتلاء المؤمنين بركة الحبوب .
 المطلب الرابع : توظيفها في الترهيب من الذنوب .
 المطلب الخامس : ابتلاء آدم وحواء . عليهما السلام في منعهما من الأكل من الشجر .

المبحث الخامس : الثمر في الجنة :

- المطلب الأول : كثرة ثمر الجنة .
 المطلب الثاني : في الجنة ما تشتهيهِ الأنفس من الثمر .
 المطلب الثالث : دوام ثمر الجنة .
 المطلب الرابع : تشابه المظهر واختلاف الحقيقة .

الخاتمة :

وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

الفهارس :

وتحوي تسعة فهارس شاملة ومتنوعة .

منهجي في البحث وطريقة العمل فيه :

- سرت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي الموضوعي وطريقي في كتابة البحث كالاتي:
 ١ - جمعت الآيات المتعلقة في الشجر والثمر في كتاب الله - تعالى - .
 ٢ - صنفت الآيات حسب المباحث اللصقية بها ، ملتزمة في ذلك ما جاء في مخطط البحث .
 ٣ - سرت في تناول الآيات على النحو التالي :
 أ - أكتب توطئة لكل مبحث ، أوضح فيها المراد منه ، وبعض ما يتعلق به .
 ب - أشرح ما في الآية من كلمات غريبة .
 ج - أذكر مجمل ما ظهر لي من تفسير الآية ، مستشهداً بأقوال أئمة التفسير . (ولم أكتب في آية إلا وقد قرأت تفسيرها فيما لا يقل عن عشرين تفسيراً ؛ لأستبين رأي الأئمة في معنى الآية)

- د - إذا كان في الآية خلاف رجعت لكل ما توافر لدي من مصادر لتفسيرها ، للخروج بتصوير واضح للمسألة ، ثم أخص الأقوال فيها مع ذكر ما وقفت عليه من أدلة لكل قول ، وأجتهد في بيان الراجح مع دليله ما استطعت .
- ٤ - تطرقت لما رأيته ملاصقاً لمطالب البحث من الإعجاز العلمي حسب ما يقتضيه سياق البحث ، ورجعت في ذلك للموسوعات العلمية المتخصصة في هذا الفن .
- ٥ - اجتهدت أن أضع عنوانات فرعية في كثير من المطالب ؛ زيادة في ترتيب المطلب ، وتحديد معلمه ، وتسهيل الوصول إلى فوائده .
- ٦ - إذا كان للآية أكثر من دلالة في مطالب مختلفة ، أذكرها في المواضع اللصيقة بها مع بيان صلتها بالمطلب التي ذكرتها فيه .
- ٧ - جمعت في آخر كل مطلب ما تلخص لي من فوائد قرآنية ، ولطائف بيانية أو بلاغية دلّت عليها مجمل آيات المطلب ، وجعلتها تحت عنوان (من هدايات الآيات) .
- ٨ - أحرص على توثيق الأقوال بالرجوع لمصادرها الأصلية .
- ٩ - ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث ، وأترجم للعلم حين وروده أول مرة . مراعية الرجوع للكتب الأصلية في تراجم أصحاب الفن الذي برز فيه العلم . وأحرص أن تكون مصادر الترجمة ثلاثة فأكثر .
- ١١ - كتبت الآيات بالرسم العثماني ، وعزوتها إلى مواضعها في كتاب الله - تعالى - بذكر السورة ، ورقم الآية . سواء كانت الآية كاملة ، أو جزء منها .
- ١٢ - خرجت الأحاديث بعزوها إلى مصادرها الأصلية بذكر الكتاب والباب ورقم الجزء والصفحة ورقم الحديث إن وجد . وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فأكتفي بالعزو لهما غالباً ، وإن كان في غيرهما ، خرجته منها ، مع نقل أحكام أهل العلم عليه .
- ١٣ - في ذكر المراجع والمصادر أسير على الترتيب الزمني لوفاة مؤلفيها في الجملة .
- ١٤ - اعتمدت في شرح الألفاظ الغريبة على كتب الغريب والمعاني ومعاجم اللغة الأصلية . وأذكر مادة الكلمة التي أبحثها ، وإذا اتحدت في المعاجم اكتفي بذكرها في عند المصدر الأول .
- ١٥ - نسبت الأبيات الشعرية لقائلها ، وإن لم أستطع معرفة قائلها فأعزوه لناقله .

١٦ - راعيت علامات الترقيم قدر الجهد ، وما اصطلح عليه في كتابة البحوث العلمية فيما يتعلق بالرجوع للمصادر الأصيلة ، والنقل والعزو .

التمهيد :

الشجر والثمر في القرآن الكريم : وفيه ذكر أسماء الشجر ، والثمر التي وردت في القرآن الكريم :

نعم الله - تعالى - لا تعد ولا تحصى ، فأين اتجه بك بصرك رأيت ألواناً من النعم ، ومنها هذا التنوع الكبير في عالم النبات الزاخر بالأنواع والأشكال والطعوم والروائح المختلفة ، والتي تتكامل فيما بينها ؛ لتشكل للإنسان القوت الضروري له ، والفاكهة التي يتلذذ بها ، والدواء الذي يتداوى به ، وهي غذاء لأنعامه كذلك ، إلى غير ذلك من الفوائد .

و حين نستعرض كتاب الله - جل وعلا - نجده جاء موضحاً في آيات كثيرة عظم فضله ومنتته على عباده في مواضع مختلفة ، وهذا التوضيح يأتي أحياناً مجملاً تحت لفظ عام : كالفواكه ، أو الثمرات ونحوها ، ومنها ما جاء منصوصاً على تسميته ، وهذا حصر لها ولمواضع ورودها في كتاب الله - جل وعلا - وقد آثرت أن يكون على شكل جدول .

أولاً : أسماء الأشجار التي وردت باسمها في القرآن الكريم :

وردت أسماء بعض الأشجار في القرآن الكريم بالنص على اسمها ، ومنها : الأثل ، والحمط ، والريحان ، والزقوم ، والزنجبيل ، والسدر ، والكافور ، والنخل ، والوردة .

التفصيل	عدد مرات ورودها	اسم الشجرة	
- وردت بلفظ (النخل) في سورة الأنعام الآية ٩٩ ، ١٤١ ، وفي سورة طه الآية ٧١ ، وفي سورة ق الآية ١٠ ، وفي سورة الرحمن الآية ١١	عشرين مرة	النخل	١
- وردت بلفظ (بنخل) في سورة الكهف الآية ٣٢ - وردت بلفظ (نخل) سورة الشعراء الآية ١٤٨ ، وفي سورة القمر الآية ٢٠ ، وفي سورة الرحمن الآية ٦٨ ، وفي سورة الحاقة الآية ٧			
- وردت بلفظ (نخلأ) في سورة عبس الآية ٢٩			

<p>- وردت بلفظ (النخلة) في سورة مريم الآية ٢٣ ، ٢٥</p> <p>- وردت بلفظ (نخيل) في سورة البقرة الآية ٢٦٦ ، وسورة الرعد الآية ٤ ، وسورة الإسراء الآية ٩١ ، وسورة المؤمنون الآية ١٩ ، وسورة يس الآية ٣٤</p> <p>- وردت بلفظ (النخيل) في سورة النحل الآية ١١ ٦٧ ،</p>		النخل	
<p>وردت بلفظ (سدر) في سورة سبأ الآية ١٦ ، وفي سورة الواقعة في الآية ٢٨</p> <p>وردت بلفظ (سدره) في سورة النجم الآية ١٤ ، ١٦</p>	أربع مرات	السدر	٢
<p>وردت بلفظ (الزقوم) في سورة الصافات الآية ٦٢ ، وسورة الدخان الآية ٤٣ .</p> <p>- وردت بلفظ (زقوم) في سورة الواقعة الآية ٥٢</p>	ثلاث مرات	الزقوم	٣
<p>وردت بلفظ (الريحان) في سورة الرحمن الآية ١٢ ، وبلفظ (ريحان) في سورة الواقعة الآية ٨٩</p>	مرتان	الريحان	٤
<p>وردت بلفظ (أثل) في سورة سبأ الآية ١٦</p>	مرة واحدة	الأثل	٥
<p>وردت بلفظ (خمط) في سورة سبأ الآية ١٦</p>	مرة واحدة	الخمط	٦
<p>وردت بلفظ (زنجبيل) في سورة ١٧</p>	مرة واحدة	الزنجبيل	٧
<p>وردت بلفظ (كافورا) في سورة الإنسان الآية ٥</p>	مرة واحدة	الكافور	٨
<p>وردت بلفظ (وردة) في سورة الرحمن الآية ٣٧</p>	مرة واحدة	الورد	٩

ثانيًا: أسماء الثمار التي وردت باسمها في القرآن الكريم :

ووردت ثمار بالنص على اسمها في القرآن الكريم ، وهي :

البصل ، البقل ، التين ، الحب ، الخردل ، الزيتون ، الرطب ، الرمان ، الزيتون ، الطلح ، العدس ، العنب ، الفوم ، القثاء ، اليقطين .

	اسم الشجرة	عدد مرات ورودها	التفصيل
١	الحب	اثنا عشر مرة	<p>- وردت بلفظ (الحب) في سورة الأنعام الآية ٩٥ ، وفي سورة الرحمن الآية ١٢ .</p> <p>- وردت بلفظ (حب) في سورة ق الآية ٩</p> <p>- وردت بلفظ (حبًّا) : في سورة الأنعام الآية ٩٩ و سورة يس الآية ٣٣ ، و سورة النبأ الآية ١٥ ، وسورة عبس الآية ٢٧ .</p> <p>- وردت بلفظ (حبة) : في سورة البقرة الآية ٢٦١ مرتين ، وفي سورة الأنعام الآية ٥٩ ، وسورة الأنبياء الآية ٤٧ ، وسورة لقمان الآية ١٦</p>
٢	العنب	أحد عشر مرة	<p>- وردت بلفظ (عنب) في سورة الإسراء الآية ٩١</p> <p>- وردت بلفظ (عنبًا) في سورة عبس الآية ٢٨ .</p> <p>- وردت بلفظ (أعناب) في سورة البقرة الآية ٢٦٦ وفي سورة الأنعام الآية ٩٩ ، وسورة الرعد الآية ٤ ، وسورة النحل الآية ١١ ، ٦٧ ، وفي سورة الكهف الآية ٣٢ ، وسورة المؤمنون الآية ١٩ ، وسورة يس الآية ٣٤ .</p> <p>- وردت بلفظ (أعنابًا) في سورة النبأ الآية ٣٢</p>

٣	الزيتون	ست مرات	وردت بلفظ (الزيتون) في سورة الأنعام الآية ٩٩ ، ١٤١ ، و سورة النحل الآية ١١ ، و سورة التين الآية الأولى . ووردت بلفظ (زيتوناً) في سورة عبس الآية ٢٩ . ووردت بلفظ (زيتونة) في سورة النور الآية ٣٥
٤	الرمان	ثلاث مرات	وردت بلفظ (الرمان) في سورة الأنعام الآية ٩٩ ، والآية ١٤١ ، و بلفظ (رمان) في سورة الرحمن
٥	الخردل	مرتان	وردت بلفظ (خردل) في سورة الأنبياء الآية ٤٧ ، وسورة لقمان الآية ١٦
٦	البصل	مرة واحدة	وردت بلفظ (بصلها) في سورة البقرة الآية ٦١
٧	البقل	مرة واحدة	ورد بلفظ (بقلها) في سورة البقرة الآية ٦١
٨	التين	مرة واحدة	وردت بلفظ (التين) في سورة التين الآية الأولى
٩	الرطب	مرة واحدة	وردت بلفظ (رطباً) في سورة مريم الآية ٢٥
١٠	الفوم	مرة واحدة	وردت بلفظ (فومها) في سورة البقرة الآية ٦١
١١	القثاء	مرة واحدة	وردت بلفظ (قثائها) في سورة البقرة الآية ٦١
١٢	الطلح	مرة واحدة	وردت بلفظ (طلح) في سورة الواقعة الآية ٢٩
١٣	اليقطين	مرة واحدة	وردت بلفظ (يقطين) في سورة الصافات الآية ١٤٦

الفصل الأول : دلالات الشجر ، والثمر في حق الخالق _ جل وعلا _ :

حق الله _ سبحانه وتعالى _ أعظم المسائل ، وأكد الحقوق ، وأهمها ، وأنفعها ، وأوضحها ، و هو أول وأهم ما دعت إليه الرسل أمهم ، وأول ما دعوا إليه أقوامهم . قال - تعالى - ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) فقد اتفقت عليه الشرائع وجميع الرسل ، فهم يذكروهم بخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ، ويذكرون لهم أسماءه وصفاته وآلاءه ، ودلالات قدرته وبراهين عظمته ، وهي ظاهرة وواضحة لكل عاقل منصف .

والسنة مملوءة بتقرير هذا الحق وتوضيحه ومن الأحاديث الدالة على ذلك ، ومنها قول النبي _ صلى الله عليه وسلم _ لمعاذ بن جبل (٢) - رضي الله عنه - : " أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حقهم عليه ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : ألا يعذبهم " (٣) فحقه - تعالى - على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا إذا خلصت من الشرك ، أما إذا خالطها شرك فإنه يُبطل العبادة ، ولا يصحُّ معه عمل ، مهما كلف الإنسان نفسه بالعبادات فإنها تكون هباءً منثوراً .

ومن فضل الله - تعالى - على الإنسان أنه خلقه في أحسن تقويم ، وسخر جميع ما في الكون له . قال - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٤) ، وألهمه كيفية استغلال خيراته على أوسع نطاق ؛ لتأمين حياته ورفاهيتها ، وخلق الكائنات الحية الأخرى ؛ ليستمد منها مقوماته الحياتية من غذاء ودواء وكساء ، وهي تقوم بدورها المرسوم في تسبيح خالقها - سبحانه - وفي مساعدة الإنسان في تعمير الكون وإصلاحه ، ولتؤدي الدور الحيوي الذي تقوم

(١) - سورة الأعراف جزء من الآية ٦٥

(٢) - هو : معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل ، أعلم الأمة بعلم الحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث ، وعده أنس بن مالك فيمن جمع القرآن على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومناقبه كثيرة جداً ، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ١٧ ، وقيل غير ذلك . ينظر : صفة الصفوة ١ / ٣٦١ ، أسد الغابة ٥/٢٠٤-٢٠٦ ، الإصابة ٦/١٠٦-١٠٧ ،

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التوحيد ، باب : ما جاء في دعاء النبي _ صلى الله عليه وسلم _ أمته إلى توحيد الله _ تبارك وتعالى _ ح ٧٣٧٣ ص ٦١٤ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، ح ١٤٥ ، ص ٦٨٦ ، كلاهما عن معاذ بن جبل _ رضي الله عنه _ .

(٤) - سورة البقرة جزء من الآية ٢٩

به مع باقي الكائنات في الدورة الحياتية والذي يحفظ التوازن البيئي ؛ ويصنع حياةً طيبةً ؛ لتطيب بها الحياة ، ويعيش الإنسان الفترة المقررة له على هذه الأرض والاستعداد لدار المعاد .
ومن الكائنات الحية التي تقوم بهذا الدور :

الأشجار والثمار والنباتات المختلفة ؛ لذلك أولها القرآن الكريم عنايةً خاصةً ؛ لأنها تحقق الضروريات والحاجيات ، وتزيد من جمال الكون ، وتحافظ عليه من الغازات الضارة ، وتنتج الأكسجين الذي يتنفسه الجميع ، ولن يتحقق مقصد تعمير الكون إلا بالعناية بهذه الكائنات .

وعند تأمل الآيات الكريمة التي تحدثت عنها نلاحظ ما يلي :

- كثرة الآيات الكريمة التي تتحدث عن عالم النبات حيث جاوزت ثلاثمائة آية .
- تنوع المقاصد القرآنية ، والدلالات منها .
- تنوع أساليب عرضها وإيرادها .
- مدى العناية بها .

وجاء ذكرها لمقاصد كثيرة ، ودلالات متنوعة ، ومن أهم هذه المقاصد أنها جاءت ضمن المخلوقات التي خلقها الله والتي تشهد بوحدانيته ، وربوبيته ، وألوهيته - سبحانه - .

المبحث الأول : دلالتها على التوحيد :

تمهيد :

تعريف التوحيد وأقسامه ، والعلاقة بينها ، والفرق بين توحيد الربوبية والألوهية ، وأهمية الدعوة إلى التوحيد في القرآن الكريم :

التوحيد على وزن التفعيل ، وهو مصدر وحدته توحيداً ، وذكر علماء اللغة له عدة معاني منها : الوحدة الانفراد ، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له ألبة ، وهو الحكم بأن الشيء واحد والعلم بأنه واحد ، والتوحيد : الإيمان بالله وحده . والله الأوحُد والمتوحد : ذو الوجدانية (١)

واصطلاحاً :

عرفه الجرجاني (٢) : " اصطلاح أهل الحقيقة تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان . والتوحيد ثلاثة أشياء : معرفة الله تعالى بالربوبية ، والإفراد بالوجدانية ، ونفي الأنداد عنه جملة " (٣)

هو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية ، مكتسب من أدلتها النقلية والعقلية (٤) .
التوحيد شرعاً : هو إفراد الله - تعالى - بالعبادة (٥) .

وعرفه السفاريني (١) : هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ، ولا تشبه صفاته الصفات ولا تنفك عن الذات ، ولا يدخل أفعاله الاشتراك فهو الخالق دون من سواه (٢)

(١) - مجمل اللغة ١/٩١٨ ، مادة (وحد) ، مفردات غريب القرآن ١ / ٥١٤ ، الحجة في بيان المحجة ١ / ٣٠٥ _

٣٠٦ ، التعريفات ص ٦٩ ، القاموس المحيط ١ / ٤١٤ ، المعجم الوسيط ٢ / ١٠١٦

(٢) - هو : علي بن محمد المعروف بالشريف الجرجاني : فيلسوف ، من كبار العلماء بالعربية ، ولد في تاكو (قرب استراباد) سنة ٧٤٠ ودرس في شيراز . ولما دخلها تيمور سنة ٧٨٩ هـ فر الجرجاني إلى سمرقند ، ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور ، فأقام إلى أن توفي . له نحو خمسين مصنفاً توفي سنة ٨١٦ . ينظر : بغية الوعاة ٢ / ١٩٦ ، طبقات المفسرين للدواودي ١ / ٤٣٢ ،

الشفائق النعمانية ١ / ٢٩ ، الأعلام ٥ / ٧

(٣) - التعريفات ص ٦٩

(٤) - تطهير الجنان والأركان ، هامش ص ١٧

(٥) - إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ١ / ١٩

وقد عرّفه ابن عثيمين (٣) بقوله : " مصدر وحد يوحد، أي جعل الشيء واحداً ، وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات ، نفي الحكم عما سوى الموحّد ، وإثباته له " (٤)

فهو : الإقرار بالقلب واللسان بأن الله رب كل شيء ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه الخالق لكل شيء ، وأنه له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ فلا رب غيره ولا إله سواه ولا شريك ولا ند له ، ثم إفراده بالعبادة ، وذلك بصرف جميع أنواع العبادة له وإخلاص الدين له ، فهذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل بكل جوانبه ظاهراً وباطناً علماً وعملاً (٥)

أقسام التوحيد :

قسم أهل العلم التوحيد إلى أقسام :

فمن العلماء من قسمه إلى نوعين وهما :

١- التوحيد في المعرفة والإثبات .

٢- التوحيد في القصد والطلب .

يقول ابن القيم (٦) : وأما التوحيد، الذي دعت إليه الرسل ، وأنزلت به الكتب ، فهو نوعان :

(١) - هو : شمس الدين، أبو العون محمد السفاريني الحنبلي عالم بالحديث ، والأصول ، والأدب ، محقق ، ولد بسفارين من قرى نابلس بفلسطين ، ونشأ بها ، ثم رحل إلى دمشق ، وتوفي بمدينة نابلس سنة ١١٨٨ . ينظر : سلك الدرر ٣١/٤ ، الأعلام ١٤/٦ ، معجم المؤلفين ٦٦/٣

(٢) - لوامع الأنوار البهية ٥٧/١

(٣) - هو : محمد بن صالح آل عثيمين ، ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٤٧هـ في عنيزة ، وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد ، وكان يدرّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في المواسم منذ عام ١٤٠٢هـ ، حتى وفاته - رحمه الله تعالى - وللشيخ - رحمه الله - أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه ، تُوفي - رحمه الله - سنة ١٤٢١هـ . ينظر : كتاب الدر الثمين ، وتعريف اللجنة العلمية في موقع الشيخ الرسمي ، ووفات في حياة الشيخ ابن عثيمين .

(٤) - مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١٧/١

(٥) - أصول الدين عند أبي حنيفة ٢٠٧/١

(٦) - هو : محمد بن أبي بكر الدمشقي ، ولد سنة ٦٩١ ، أحد كبار العلماء ، مولده ووفاته في دمشق ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه . وهو الذي هدّب كتبه ، ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، طيف به على جمل مضروباً بالعصى، وأطلق بعد موت ابن تيمية =

توحيد في المعرفة، والإثبات ؛ وتوحيد في الطلب والقصد (١).

ومنهم من قسمه إلى ثلاثة أنواع هي:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

ولا منافاة بين الطريقتين في التقسيم ، فمن جعله ثنائياً فقد أجمل ، ومن جعله ثلاثياً فقد

فصل (٢)

وتقسيم التوحيد إلى هذه الأنواع الثلاثة مأخوذ من الكتاب والسنة ، وقد دلّ استقراء القرآن

العظيم على ذلك (٣) .

فالآيات التي تتحدث عن أفعال الله وأسمائه وصفاته هي في توحيد الربوبية . والآيات التي تتحدث

عن عبادة الله، وترك ما سواه ، هي في توحيد الألوهية .

المراد بأنواع التوحيد :

أولاً : توحيد الربوبية: هو الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لشؤون

خلقه كلها لا شريك له في ذلك .

ثانياً : توحيد الألوهية : إفراد الله وحده بالخضوع والذل والمحبة والخشوع وسائر أنواع العبادة

لا شريك له.

ثالثاً : توحيد الأسماء والصفات: الإيمان الجازم بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة ،

وإثباتها دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل (٤)

= ألف تصانيف كثيرة ، وكتب بخطه الحسن شيعاً كثيراً منها ، توفي سنة ٧٥١ . ينظر : البداية والنهاية ١٨/٥٢٣ ، شذرات

الذهب ١٦٨/٦ ، الأعلام للزركلي ٥٦/٦ ، ابن القيم حياته وآثاره ص ١٧ وما بعدها .

(١) - مدارج السالكين ٣ / ٤٤٩ ، الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٣ / ٣٥٩ ، مجموع فتاوى ابن باز ٢ / ٧٠ ، إعانة

المستفيد بشرح كتاب التوحيد ٢ / ١٣٩ ، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد ١ / ٢٠

(٢) - أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ١ / ٢٠٨

(٣) - إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ١ / ٢٤ ، أضواء البيان ٣ / ٤١٠ ، القول السديد في الرد على من أنكر

التوحيد ١٦/١

(٤) - شرح الطحاوية ٣١/١ ، لوامع الأنوار البهية ١٢٨/١-١٢٩ ، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد

١٦/١

والربوبية والألوهية تارة يذكران معا ؛ فيفترقان في المعنى، ويكون أحدهما قسيماً للآخر؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ (١) فيكون معنى الرب هو : المالك المتصرف في الخلق ، ويكون معنى الإله : أنه المعبود بحق المستحق للعبادة وحده .

وتارة يذكر أحدهما مفرداً عن الآخر، فيجتمعان في المعنى ؛ كما في قول الملكين للميت في القبر: من ربك ؟ ومعناه: من إلهك وخالقك؟ وكما في قوله - تعالى - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢) فالربوبية في هذه الآية هي الإلهية (٣).

علاقة أنواع التوحيد مع بعضها :

أنواع التوحيد الثلاثة مترابطة ومتلازمة يكمل بعضها بعضاً، ولا يمكن الاستغناء ببعضها عن الآخر وفيما يلي يتضح هذا الترابط بينها :

١ - توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ؛ بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية ؛ فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره، وقد دعاه هذا الخالق إلى عبادته وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له .

٢ - توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية بمعنى أن توحيد الربوبية يدخل ضمناً في توحيد الألوهية، فمن عبد الله وحده لا شريك له فلا بد أن يكون معتقداً أنه ربه وخالقه ورازقه ؛ إذ لا يعبد إلا من بيده النفع والضرر، وله الخلق والأمر.

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً " (٤)

٣ - الربوبية عمل قلبي لا يتعدى القلب ، ولذا سمي توحيد المعرفة والإثبات ، أو التوحيد العلمي.

(١) - سورة الناس الآيات ١-٣

(٢) - سورة فصلت الآية ٣٠

(٣) - الإرشاد ص ٣٥

(٤) - شرح الطحاوية ٣٩/١ ، وينظر : العبودية ص ٧٢

أما الألوهية فهو عمل قلبي وبدني ، فلا يكفي فيه عمل القلب ، بل يتعداه إلى السلوك والعمل قصداً لله وحده لا شريك له .

٤- أن توحيد الربوبية لا يكفي ولا ينجي من النار ؛ لأنه هو توحيد مشركي العرب ومع ذلك دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - للتوحيد وقتلهم على ذلك . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله " (١)

٥ - أن إقرار الناس بالربوبية أسبق من إقرارهم بتوحيد الألوهية .

٦ - توحيد الألوهية هو الذي جاءت به الرسل ، وهو الذي حصل به النزاع بين الرسل -عليهم السلام - وبين أممهم ، كما قال كفار قريش لما أمروا بإفراد الله بالعبادة: ﴿ أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٢)

أما توحيد الربوبية فإنهم لم ينكروه ، بل إن إبليس لم ينكره ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣)

٧- توحيد الأسماء والصفات : من جنس توحيد الربوبية، قد أقر به الكفار وعرفوه، بل توحيد الربوبية يستلزمه ؛ لأن من كان هو الخلاق الرزاق والمالك لكل شيء فهو المستحق لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى (٤)

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : { فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم } ، ح ٢٥ ، ص ٤ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحققها ، ووكلت سريره إلى الله تعالى . قتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام ، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام ، ح ١٢٩ ، ص ٦٨٥ بلفظ " إلا بحققها " ، كلاهما عن ابن عمر - رضي الله عنهما - .

(٢) - سورة ص الآية ٥

(٣) - سورة الحجر الآية ٣٩

(٤) الإرشاد ٢٤ - ٢٥ ، عقيدة التوحيد ص ١٢٢ - ١٢٥ ، معتقد أهل السنة والجماعة ١ / ٤١ - ٤٢ ، المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ١١٣

أهمية الدعوة إلى التوحيد في القرآن الكريم :

التوحيد أصل الدين ، ورأس العلوم ، و هو من أعظم القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم ، وأقام عليه أعظم الشواهد ، ونصب له أكبر الآيات ، واحتج له بأبلغ الحجج ، وجعل سائر الموجودات شاهدةً عليه ، وهو ضروري لانتظام حياة الفرد والجماعة ، وكيف تختلف حياة الفرد بين كونه موحدًا ومشركًا ، وبه يتحقق الإنسان من معرفته لربه ، ويغذي روحه التي تحتاج إلى غذاء كما يحتاج الجسم إلى غذاء .

وقال الإمام ابن أبي العز (١) مؤكدًا أهمية شأن العقيدة عامة والتوحيد خاصة :

أما بعد : فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم ، إذ شرف العلوم من شرف المعلوم وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة - رحمة الله عليه - ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين : الفقه الأكبر ، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف معبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه " (٢)

يقول ابن القيم بعد أن ذكر تناول جل آيات الله - سبحانه وتعالى - لهذا الموضوع : " بل نقول قولاً كلياً إن كل آية في القرآن فهي : متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه ؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع كل ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره ، فهي حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيدته وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيدته... " (٣)

(١) - هو : علي بن علي بن محمد بن أبي العز ، الحنفي الدمشقي ولد سنة ٧٣١ ، كان قاضي القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، من الفقهاء ، امتحن بسبب اعتراضه على قصيدة لابن أبيك الدمشقي ، توفي سنة ٧٩٢ .

ينظر : الدرر الكامنة ٤/١٠٣ ، الأعلام ٤/٣١٣ ، معجم المؤلفين ٢/٤٨٠

(٢) - جهود العلماء الحنفية ١/٦٥-٦٦

(٣) - مدارج السالكين ٣/٤٥٠ ، وينظر : شرح العقيدة الطحاوية ١/٤١ ، تجريد التوحيد المفيد ص ١٧

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم لشرف متعلقه ولهذا سماه أهل العلم (الفقه الأكبر) قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (١) وأول ما يدخل في ذلك وأولاه علم التوحيد والعقيدة (٢)

وفيه سرور القلوب ولذتها كما يقول شيخ الإسلام (٣) "وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهي ملة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وسائر الأنبياء والمرسلين - صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين -" (٤)

ونظرًا لأهميته الكبرى في حياة البشر في الدارين فقد كان هو الذي دعا إليه كل الأنبياء فهو ملتقى دعواتهم جميعًا ، وليس هو فقط ما دعا إليه الأنبياء فإن لهم أصولًا أخرى يدعون إليها : كالإيمان بالملائكة والكتب السماوية والأنبياء جميعًا ، وغير ذلك من الأصول لكن المحور الأساسي لدعوتهم هو توحيد الله وإفراده بالعبادة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا

اللَّهِ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۗ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ (٥) ففي التوحيد صلاح دين الأنام وديانهم ، وفيه سعادتهم فيهما والله - سبحانه وتعالى - غني عنا وعن عبادتنا ، فهو الخالق العظيم الذي خلقنا وأوجدنا من العدم وأنعم علينا بالنعم الجليلة .

ومن الأمور الغريبة أن نرى أناسًا يتوجهون بالعبادة لغير الله - تعالى - فمنهم من يعبد البقر ومنهم من يعبد الحجر ، ومنهم من يعبد نبيًا أو وليًا ؛ ولذلك جاءت رسالة الإسلام للناس كافة

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ح ٧١ ، ص ٨

(٢) - مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢٦ / ١٦٤ - ١٦٥

(٣) - هو : تقي الدين أبو العباس أحمد ، ولد سنة ٦٦١ ، كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد ، آية في التفسير والأصول ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاثمائة مجلد ، امتحن وأوذي مرات وحبس مرات ، توفي بقلعة دمشق معتقلاً سنة ٧٢٨ فخرجت دمشق كلها في جنازته . ينظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٩٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٢٨٨ ، ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ١ / ٢٢ ، البداية والنهاية ١٨ / ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، البدر الطالع ١ / ٩٤

(٤) - مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٢

(٥) - سورة النحل الآية ٣٦

، تأمرهم بعبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره ، وجاء القرآن مليئاً بآثار ما خلق الله في هذا الكون الفسيح والتي تشهد بوحدانيته _ سبحانه _ وأنه الخالق المالك المتصرف المستحق للعبادة ، ومن تلك الآثار : عالم النبات الواسع والذي جاء كثيراً في القرآن الكريم ، وبأساليب متنوعة كثيرة ، وأهم تلك الدلائل التي يدل عليها دلالتها على توحيد الربوبية ، والذي سيكون مدار هذا المبحث _ بإذن الله تعالى _ .

المبحث الأول : دلالتها على توحيد الربوبية :

معنى توحيد الربوبية :

الرب في اللغة : الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام . ولغة ترجع لعدة معاني منها : مالك الشيء وصاحبه ، والسيد المطاع ، والمصلح للشيء المدبر له القائم على تربيته^(١)

فالرب مصدر ربّ يربُّ فهو رابُّ ، فمعنى قوله رب العالمين : أي رابهم ، وهو الرب . يقول ابن الأثير^(٢) : " الرب يطلق في اللغة على : المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والقيم والمنعم ، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله _ تعالى _ وإذا أطلق على غيره أضيف ، فيقال : رب (كذا) " ^(٣)

ويبين ابن القيم معنى رب العالمين فيقول :

قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه وتدييره له ونفاذ أمره كل وقت فيه وكونه معه كل ساعة في شأن يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويخفض ويرفع ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه " ^(٤)

(١) - مفردات غريب القرآن ١ / ١٨٤ ، لسان العرب ١ / مادة (رب) ٣٩٩ ، تاج العروس ٢ / ٤٥٩

(٢) - هو : المبارك بن محمد الجزري ، مجد الدين أبو السعادات ، ابن الأثير ، المحدث اللغوي الاصولي ، ولد سنة ٥٤٤ ، ونشأ في جزيرة ابن عمر . وانتقل إلى الموصل ، وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه ، ولازمه هذا المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل ، قيل : إن تصانيفه كلها ، ألّفها في زمن مرضه ، إملأ على طلبته ، وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة ، توفي سنة ٦٠٦ . ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٦٦ ، البداية والنهاية ١٧ / ٨ ، سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٨٨ ،

طبقات الشافعية لابن أبي شهبه ١ / ٤١٢ ، شذرات الذهب ٥ / ٢٢

(٣) - النهاية ٢ / ١٧٩

(٤) - الصواعق المرسله ٤ / ١٢٢٣

قال ابن منظور (١): " الرب هو الله عز وجل هو رب كل شيء أي مالكة وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك " (٢)

هو الإقرار بأن الله رب كل شيء ومالكة وخالقه ورازقه، وأنه هو المحيي والمميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله وبيده الخير كله، القادر على كل شيء ليس له في ذلك شريك (٣).

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد جد الإفصاح ، ولا تكاد تخلو سورة من سوره من ذكره أو الإشارة إليه ، فهو كالأساس بالنسبة للأنواع الأخرى (٤)

ولما للتوحيد من أهمية بالغة فقد سلك القرآن الكريم منهجاً فريداً ، وأسلوباً متنوعاً في إثبات الوحدانية للخالق _ سبحانه _ يلحظ ذلك كل من قرأ آيات الله لاسيما الآيات المكية ، فقد كانت مكة وأهلها نقطة البداية و تربة خصبة للشرك بالله _ سبحانه وتعالى _ ، فاحتاج الرسول الكريم _ صلى الله عليه وسلم _ إلى جهد عظيم وتحمل صنوف الأذى منهم هو ومن آمن معه ؛ فقد قابله مشركوا مكة بكل صلف وغرور وتجبر وتكبر فكيف يدعوهم لترك ما كان يعبد آباءهم وأسلافهم ، وكيف يقول أن لا إله إلا الله وحده ، ولا معبود بحق إلا هو فهذه العقيدة يتحرر الناس وعقولهم من سيطرة الكبراء ولذا كان كبراء مكة وسادتها يتقون هذه العقيدة ويبدلون الغالي والنفيس ؛ ليبقى زمام السيطرة على عقول وشخصيات الأتباع والعامه في أيديهم .

فكانت مواجهة قاسية بين الكفر والإيمان فقد أطبق ليل الجهل و ظلام الشرك عليهم ولعله لم يتلى أحد من الرسل _ عليهم السلام _ قدر ابتلاء الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ في الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك والأصنام ، حتى إننا نجد حياته كلها قضاها للدعوة للتوحيد فقد بقي في مكة ثلاثة عشر عاماً كلها لإقرار التوحيد والعقيدة الصحيحة وتشبيتها في النفوس ولم ينزل

(١) - هو : محمد بن مكرم بن علي ابن منظور ،الإمام اللغوى الحجة ، ولد بمصر سنة ٦٣٠ ، وقيل في طرابلس الغرب ، وخدم في ديوان الانشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس.وعاد إلى مصر فتوفي فيها، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره ، توفي سنة ٧١١ . ينظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٦ / ١٥ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٦ ، هدية العارفين ١٤٢/٢ ، الأعلام ٧ / ١٠٨

(٢) - لسان العرب ١ / ٣٩٩

(٣) - أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ١ / ٢١٥ ، إعانة المستفيد ١ / ٢٠ ، لوامع الأنوار البهية ١ / ١٢٨

(٤) - الإيمان : أركانه ، حقيقته ، نواقضه ص ٧

أي من أركان الإسلام تلك الفترة إلا الصلاة ، وهذا الأمر العظيم الذي قضى فيه نبي الرحمة _ عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم _ هذه السنوات أمر احتاج لعمل دائم ، وصبر عظيم ، وجهاد طويل ، وأساليب متنوعة ، ووسائل مختلفة ؛ ليصحح عقيدتهم ، ويجذبهم إلى حظيرة الإيمان .

ومن معجزات كتاب الله الخالد أنه يحرك الوجدان والقلب ، ويربطهما بكل ما في الكون بدءاً بنفس خلق الإنسان ، ثم الانتقال لما حوله من مخلوقات ، وهذا الربط يأتي بطريقة سهلة فريدة بديهية واقعية حية تمس القلب والوجدان فتؤثر عليهما تأثيراً مباشراً فتجعل كل ما يشاهده الإنسان معرضاً لقدرة الله الباهرة وتزيد إيمان الإنسان بربه وخالقه وترجعه إلى عقيدة التوحيد .

والملاحظ عند تأمل غالب الآيات التي أوردتها القرآن الكريم على أنها من دلائل الربوبية فإنها جاءت في صورة التنبيه والتذكير وإثارة الفطرة السليمة ، والعقل وذلك لأن معرفة الخالق والإقرار بوجوده كامن في أعماق نفس الإنسان ، وهذه الدلائل إنما هي لإثارتها من مكنها ، وفي تنوع الوسائل لاجتذاب الناس للتوحيد الصحيح دلالة على رحمة الله _ سبحانه وتعالى _ بخلقه ، ودلالة على هذا الكتاب المعجز .

ومن هذه الوسائل ما يناجي العقل الذي به تميز الإنسان عن غيره ، ومنها : الفطرة التي فطر الله _ سبحانه وتعالى _ الناس عليها ، وكذلك الدلالات التي يراها الإنسان حوله في نفسه أولاً ، ثم في المخلوقات من حوله .

وسأقف في المسائل التالية وقفات في دلالة النبات على وحدانية الخالق _ سبحانه _ :

المسألة الأولى : الاستدلال بالفطرة والعقل على وحدانية الله _ سبحانه وتعالى _ وضرب الأمثال :

جعل كل شيء من خلقه دليل يشهد له بالوحدانية _ سبحانه جل شأنه _ وتتابع الحجج والبراهين في الدلالة عليه : فالفطرة السليمة ، والعقول والمخلوقات كلها من إنسان وحيوان وجماد ونبات تشهد له بشهادة التوحيد وتدل على وحدانيته وألوهيته ، وهي كثيرة ومتنوعة وسهلة وواضحة ؛ لأن الناس أحوج ما يكونون إلى معرفة ربهم وخالقهم ، وحاجتهم إلى معرفته أشد من حاجتهم للماء والهواء والطعام والشراب .

- الاستدلال بالفطرة :

دين الإسلام هو دين الفطرة ، وهذه الفطرة من صنع الله _ تعالى _ ، ولذلك لا نعجب من دخول أمم بأسرها في الدين الإسلامي وذلك راجع إلى واقعية الدين وبساطته ، وما فطر الناس عليه ،

بالنسبة لكفار قريش فلم ينازعوا النبي _ صلى الله عليه وسلم _ بربوبية الله _ سبحانه وتعالى _ فكلهم يوقنون بها ويعترفون بذلك وجاء ذلك في آيات كثيرة منها قوله _ تعالى _ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) وقوله _ سبحانه _ في موضع آخر ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فتوحيد الله _ تعالى _ مركز في فطر الناس . وهذه الهبة منه _ سبحانه _ لم تنشأ عن نظر أو فكر أو تدريب أو تعليم من الغير ، بل هي أسبق وأبلغ ، وهي الفطرة الصحيحة ، ملة الحق ، التي فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها ، وهي ملة إبراهيم _ عليه السلام _ وهي الفطرة السليمة القابلة للتوحيد فلو ترك الشخص لما اختار غير دين الإسلام لأنه دين الفطرة والطبيعة ، دين يخاطب العقل ، ويسير مع حاجات النفوس السليمة في كل أحكامه وضوابطه .

والفطرة : من الفطر ، وأصل الفطر : الشق طولاً ، وفطر الله الخلق : هو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال ، والفطرة : الابتداء والاختراع ، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان (٣)

ومعنى الفطرة اصطلاحاً : الجبلة المتهيئة لقبول الدين (٤) والفطرة عند ابن تيمية ، هي : السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة (٥)

(١) - سورة العنكبوت الآية ٦١

(٢) - سورة لقمان الآية ٢٥

(٣) - الصحاح ٧٨١/٢ مادة (فطر) ، المفردات في غريب القرآن ٣٨٢/١ ، لسان العرب ٥٥/٥ ، تاج العروس

١٥٠/١٣ ، معجم الفرائد ص ١٥٠

(٤) - التعريفات ٢١٥/١

(٥) - مجموع الفتاوى ٤/٢٤٥

وفطرة الإنسان هي الشعور بعظمة الله _ سبحانه وتعالى _ والحاجة إليه في وقت الشدة والعلم بأنه هو القادر على الغوث والإنباء قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾ (١) فإن كل إنسان يحس في قرارة نفسه بأن له ربا خالقًا رازقًا ، ويشعر بالحاجة إليه في وقت الشدة وهذا الشعور مع الإنسان في مختلف مراحل حياته ما لم يتأثر بغيره وتنتكس فطرته .

وفي الحديث القدسي (٢): " وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأتتهم الشياطين، فاجتالتهم (٣) عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " (٤)

وروى البخاري (٥) عن أبي هريرة (٦) أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة

(١) - سورة يونس من الآية ١٢

(٢) - لغة : القُدسيُّ نسبة إلى " القُدس " أي الطُّهر، أي الحديث المنسوب إلى الذات القدسية . وهو الله سبحانه وتعالى ، والتقدیس : التطهير .

اصطلاحاً : هو ما نُقِلَ إلينا عن النبي صلي الله عليه وسلم مع إسناده إياه إلى ربه عز وجل . ينظر : معجم مقاييس اللغة ٦٣/٥ ، مادة (قدس) ، تاج العروس ٣٥٥/١٦ ، مادة (قدس) تيسير مصطلح الحديث ٦٧/١

(٣) - يقال : اجتال الرجل الشيء : إذا ذهب به وساقه ، واجتالهم الشيطان حولهم عن القصد واستخفهم فجالوا معه في الضلالة ينظر : شرح السنة للبعوي ٤٠٨/١٤ ، لسان العرب ١٣٠/١١ ، مادة (جول) تاج العروس ٢٤٩/٢٨ ، مادة (جول) ، المعجم الوسيط ١٤٨/١ ، مادة (اجتال)

(٤) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، ح ٧٢٠٧ ، ص ١١٧٤ .

(٥) - هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبدالله . الإمام الحافظ صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري . ولد في بخارى سنة ١٩٤ ، ونشأ يتيمًا . قام برحلة طويلة في طلب العلم . وكان آية في الحفظ وسعة العلم والذكاء . قالوا : لم تخرج خراسان مثله . جمع البخاري في الجامع الصحيح نحو ستمائة ألف حديث اختار منها ما وثق برواته . وهو أول من وضع في الإسلام كتابًا على هذا النحو . وهو أوثق كتب الحديث السنّة . وذكر أنه صنّفه في ست عشرة سنة . توفي - رحمه الله - سنة ٢٥٦ . ينظر : تذكرة الحفاظ ١٠٤/٢ ، تهذيب التهذيب ٤١/٩ ، الفوائد الدراري في ترجمة الإمام البخاري .

(٦) - هو : عبدالرحمن بن صخر الدوسي صحابي جليل ، أسلم وقدم على النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - عام خيبر في السنة السابعة ، لازم النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - وخدمه ، ومن أهل الصفة ، روى ٥٣٧٤ حديثًا ، وهو من المكثرين من رواية الحديث ، توفي سنة ٥٧ وقيل ٥٨ . ينظر ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣٢٥ ، الأنساب ٢ / ٥٠٧ ، الإصابة

جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة _ رضي الله عنه _ : "فطرة الله التي فطر الناس عليها .. " الآية (١)

فالكون بأجمعه يشهد ، والفطرة تنطق بما تعرفه وتقر من حاجة الخلق إلى خالق ، وافتقار البرية إلى باري مصور عالم بحاجات وضرورات خلقه _ جل في علاه _ .

وهذه الفطرة لم يستطع الكفار دفعها وإن جحدتها ألسنتهم ظلماً وعلواً كما قال _ سبحانه _

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) بل

إن فرعون (٣) الطاغية الذي كان يقول كما حكى القرآن عنه ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٤)

ولكنه كان في باطن الأمر يعترف بأنه مخلوق وأن له خالقاً وعندما أدركه الغرق التجأ إلى الله وآمن

_ حين لا ينفع الإيمان _ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ

بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٥) ، ويقول الله _ تعالى _ في حقه حاكياً عن موسى

_ عليه السلام _ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي

لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَثْبُورًا ﴾ (٦)

ومن دلائل الفطرة الهبات والعطايا التي يهبها الله _ سبحانه وتعالى _ لمن أطاعه واتباعه ،

والعقوبات المعجلة لكل من ظلم وتجر وأشرك بالله _ سبحانه وتعالى _ كما حدث مع صاحب

الجنيتين (٧)

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ؟ وهل يعرض على

الصبي الإسلام ؟ ، ح ١٣٥٩ ، ص ١٠٦ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ،

وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، ح ٦٧٥٥ ، ص ١١٤١

(٢) - سورة النمل الآية ١٤

(٣) - قيل : اسمه الوليد بن مصعب بن معاوية ، كان فرعون مصر زمن موسى _ عليه السلام _ . وادعى الربوبية ، وعمّر

أربع مائة سنة ، أهلكه الله بالغرق . ينظر : تاريخ الطبري ١/٣٦٨ ، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٤٩

(٤) - سورة النازعات الآية ٢٤

(٥) - سورة يونس الآية ٩٠

(٦) - سورة الإسراء الآية ١٠٢

(٧) - وردت قصته كاملةً في سورة الكهف الآيات ٣٢-٤٤ ، وسيرد شرحها في مطلب لاحق - بإذن الله تعالى - .

وفي سورة الروم بعد أن أقام - سبحانه - الأدلة المتعددة على وحدانيته وقدرته ، أتبع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وأمرهم - سبحانه - بأن يلزموا الحلقة التي خلقهم عليها قال - تعالى - : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١)

فالإنسان في قرارة نفسه يعرف أن لهذا الكون خالق ويعرف أن هذه المخلوقات التي يستفيد منها في كل أمور حياته قد أوجدها رب خالق مبدع - جل في علاه - .

٢ - الاستدلال بالعقل :

إن كل شيء يدل على وجود الله - سبحانه وتعالى - فما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته - سبحانه - وقد نبه القرآن الكريم إلى دلالة كل شيء على الله تعالى وأنه هو خالق كل شيء ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٢) وقال - سبحانه - : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣)

فيا عجبًا كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد (٤).

وقد أجاب أعرابي عندما سئل ، كيف عرفت ربك ؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وجبال وأنهار، أفلا يدل ذلك على السميع البصير؟ (٥)

فهذا الأعرابي أجاب بفطرته السليمة ، وعقله هذه الإجابة التي يعلمها الجميع ولا يكابر فيها إلا من ضل عقله ونكست فطرته .

فالله - سبحانه وتعالى - هو من أمدنا بالنعم والعقل والفهم ، وأعدنا للانتفاع بذلك وقبوله .

(١) - سورة الروم من الآية ٣٠

(٢) - سورة الزمر الآية ٦٢

(٣) - سورة الأنعام من الآية ١٦٤

(٤) - ديوان أبي العتاهية ١٢٢/١ ، ونسب ابن كثير الأبيات لابن المعتز . ينظر: تفسير القرآن العظيم ١٣٣/١ - ١٩٨/١

١٩٨/١

(٥) - إثبات الحق على الخلق ص ١٧٣

قال - تعالى - ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

فباختصار يقال لهؤلاء الجهلاء : أن أي عاقل لا يقبل أن يكون أي فعل بدون فاعل له ، ولا أثر دون مؤثر ، ولا شيء بدون صانع وخالق له .

حتى أصغر شيء في الكون لا بد أن يكون له خالق ، ومؤثر فكيف بهذا الكون الفسيح الذي يبهر بدقة صنعه ، وبديع إتقانه ونظامه وتدييره ، فهل يقول عاقل أنه وُجد بدون موجد له .

فكل هذه الآثار العظيمة التي يراها الإنسان حوله ، ويستفيد منها في مأكله ومشربه وملبسه وأيضاً الهواء الذي يتنفسه والتي أبدعها الباري - سبحانه - ونوعها لوناً ، وشكلاً ، وطعمًا وحجمًا ، لا يمكن أن تخرج في خلقها وإبداعها عن ثلاثة احتمالات ، كسائر المخلوقات الأخرى:

١ - إما أن تُخلق هذه الكائنات من غير خالق وهذا محال ، فالعاقل يعرف أن لا بد للموجود من مُوجد .

٢ - إما أن تكون خلقت نفسها وهذا ممتنع أيضاً فالشيء لا يحدث نفسه .

٣ - أنها خلقت بيد رب عظيم قادر مالك كل شيء

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدث لا بد له من محدث، والموجد لا بد له من موجد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل.

وهذه من القضايا البديهية الجلية التي لا ينكرها إلا من محتل العقل .

قيل لبعضهم : بأي شيء يعرف الله ؟ قال : بانتظام الأسباب ثم بتحويله الأسباب ومنع مسيبتها وإيجاد الأشياء بغير أسباب يعقلها الخلق .

وهذا صحيح كما قال ابن سعدي (٢) : " فإنه - سبحانه - أجرى الأمور على أسبابها ومسبباتها قدرًا وشرعًا في حكمة بالغة ومنع بعض الأسباب من ترتيب آثارها عليها كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وكلها دليل على وحدانية الخالق وربوبيته " (٣)

(١) - سورة النحل الآية ٧٨

(٢) - هو : عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ، ولد سنة ١٣٠٧هـ في عنبزة ، تربى يتيماً ، نشأ نشأةً صالحة وحفظ القرآن الكريم وعمره إحدى عشرة سنة، وأخذ العلم من علماء البلدة، كان متفتح الذهن واسع الاطلاع، يملك أدوات الاجتهاد، ووسائل الترجيح، ويستوعب قضايا العصر، ويعيش مشكلات الناس ، وغيرها من الصفات توفي سنة ١٣٧٦هـ ، ينظر : تراجم لتسعة من الأعلام ص ٢٢٥ ، مقدمة كتاب : المواهب الربانية ص ٩ ، و من الموقع الرسمي للشيخ عبدالرحمن ابن سعدي ، للشيخ عبدالله العقيل - رحمهما الله تعالى - .

(٣) - الرياض الناضرة لابن سعدي ص ٢٢٦

فدلالة الأسباب على خالقها من أعظم الدلائل العقلية على توحيد الربوبية ، وآيات القرآن كثيرة جدًا في بيان هذا المنهج العقلي في الاستدلال على وجود الخالق وعظمته واستحقاقه للعبادة وحده

دون سواه كقوله - تعالى - ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۗ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآتَىٰ تُوْفِكُونَ ۗ ﴾ (١) ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَىٰ تُوْفِكُونَ ۗ ﴾ (٢)

فالق : أى شاق ، والفلق هو الشق ، الفلق شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض يقال فلقتة فانفلق أي الذي يشق حبة الطعام ونوى التمر للإنبات (٣) وقيل فلق بمعنى خلق ، وأنكر هذا المعنى الطبري (٤) وقال ليس في كلام العرب (٥)

حب : الحب والحبة ، وهو ما ليس له نوى كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات (٦) والنوى : جمع نواة وهو الموجود في داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والمشمش والخوخ وغيرها (٧) عدّد الله تعالى في هذه الآيات بعض مظاهر قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، بخلق بعض عجائب هذا الكون ومصنوعاته ، ومنها خلق السماوات والأرض وخلق الناس وخلق الحب بقدرته وخروج النبات الأخضر منها على اختلاف أصناف الحبوب والنباتات والثمار وذلك عن طريق ربط الأسباب بمسبباتها ببذر الحب والنوى في التراب ، ثم سقي الأرض بالمطر ، وذلك يدل على كمال

(١) - سورة الأنعام الآية ٩٥

(٢) - سورة فاطر الآية ٣

(٣) - المفردات في غريب القرآن ٣٨٥/١ ، النهاية في غريب الأثر ٩٢١/٣ ، لسان العرب ٣٠٩/١٠ ، مادة (فلق) ،

تاج العروس ٣٠٨/٢٦

(٤) - هو : أبو جعفر محمد بن جرير ، رأس المفسرين على الإطلاق وإمامهم . ولد بطبرستان سنة ٢٢٤ ، وبدأ في طلب

العلم في السادسة عشرة من عمره ، ثم رحل إلى بغداد واستقر فيها ، أثنى العلماء على الطبري كثيرًا ، ترك عدة مؤلفات نافعة أبرزها : تفسيره الكبير (جامع البيان) ، وهو أول تفسير كامل وصل إلينا ، أفاد منه كل من جاء بعده ، وهو صاحب التاريخ والمصنفات الكثيرة ، توفي في بغداد سنة ٣١٠ . ينظر : تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ٢ / ٦٣٩ ، سير أعلام النبلاء

٢٦٧/١٤ ، طبقات الفقهاء ٩٣/١ ، طبقات المفسرين ٤٨/١

(٥) - جامع البيان ٥٥٢/١١ ، وينظر : البحر المحيط ١٨٨/٤

(٦) - المفردات في غريب القرآن ١ / ١٠٥ ، لسان العرب ٢٨٩/١ ، مادة (حبب)

(٧) - معجم مقاييس اللغة ٥ / ٣٦٦ ، مادة (نوي) ، الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٤٤ ، البحر المحيط ٤ / ١٨٨ ، تاج

العروس ٤٠ / ١٤١ ، مادة (نبي)

قدرته، وبديع حكمته ، وأنه المنفرد _ سبحانه _ بالعبودية والألوهية فلا يحق أن يعبد غيره أو يشرك به _ جل في علاه _ .

يقول الطبري : " وهذا تنبيه من الله - جل ثناؤه - لهؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم ، وتعريف من لهم خطأ ما هم عليه مقيمون ، من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه . يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله الذي فلق الحب ، يعني: شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع ، " والنوى" ، من كل ما يغرس مما له نواة ، فأخرج منه الشجر " (١)

فهاهو عالم النبات على كثرة أنواعه واختلاف أحجامه وتنوع ثماره وأفراده لا يخرج عن السنة الكونية التي خلقه الله عليها ، فالنباتات مفتقرة إلى عناصر شتى كالماء والترية والبذور والضوء (٢) ومن المحال أن تستطيع توفيرها لنفسها فهي دورة كونية وسنة سنها الله _ سبحانه وتعالى _ في

خلقه قال - تعالى - ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٣)

وبما أن العقل يدل على أن الله هو الخالق للمخلوقات وصفاتها وأفعالها ، فكل ما فيها من صفات الكمال : كالقوة والشدة والحياة ، فالله أقوى وأشد وأحكم وأعلم ، وهو الحي الذي لا يموت _ سبحانه _ .

وهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف بقسميه العلوي والسفلي ، يكشف عن حقيقة كبرى لا مجال لإنكارها أو تجاهلها ، وهي : النظام العجيب الذي يربط بين كل جزء من أجزائه فيما بينها

(١) - جامع البيان ٥٥٠/١١

(٢) - تتكون التربة الخصيبة من مواد معدنية ، ولكن بما فوق ذلك بعض المواد العضوية التي ترجع في أصلها إلى أجسام الحيوانات والنباتات الأخرى ، وتتعرض هذه المادة العضوية لعمليات التحلل ، ومع ذلك ففي أثناء هذه العمليات تنبثق حياة كثير من النباتات والحيوانات . ويفضل هذه العناصر مجتمعة مع الهواء والماء تستمر العمليات الحيوية داخل أجسام الكائنات

الحيية . ينظر : الله يتجلى في عصر العلم ص ١٢٢

(٣) - سورة البقرة من الآية ١٦٤

من أصغر ما في الكون إلى أكبر ما فيه ، والذي يحيل العقل وجوده عن طريق الصدفة أو العشوائية أو التفاعلات الكيميائية ، فكل هذا محال وباطل .

وكلما تقدم العلم وتعمق الإنسان فيه ، أشار إلى حقيقة تزداد وضوحًا : وهذه الحقيقة تقول : " إن جزئيات هذا الكون على كثرتها مرتبطة ببعضها ارتباطًا محكمًا ، يبدو الكون من خلالها كالجسم الواحد لكل جزء من أجزائه وظيفة لها دخل في وظيفة المجموع كله ، وإن التعمق في علم الكواكب وأوضاعها وفي علم أعضاء الإنسان ووظائفها وحاجتها إلى ما حولها وفي علم الحيوان والنبات وعلم العناصر والكهرباء وعلم الذرة وأسرارها ودقائقها... يجعلنا ندرك وحدة هذا الكون وحدة تنادي بأفصح لسان : ألا إني صنع لرب واحد وخلق الخالق واحد عظيم ماجد " (١)

وقد أشاد القرآن الكريم بالعقل واهتم به وذكره في آيات كثيرة ، ونبه في ثناياها إلى أهميته والثناء على ذوي العقول ، ووصف الكفار والمشركين بعدم التعقل وأنهم لا يعقلون ولا يفقهون .

وجميع الأدلة التي جاءت بالقرآن الكريم والتي تدل على وحدانية الله من آيات كونية دالة على قدرته ووصف نظام الكون والامتنان بالنعم العظيمة عليهم ، وكذلك الأمثال القرآنية ، كلها للعقل نصيب منها ، فبه يمكن تدبرها وفهمها والتفكير فيها ، وله دور كبير في تنظيم الحقائق والمقدمات والنتائج ، وكذلك لأن من له عقل سليم فلن يرضى بأن يعبد غير إله قادر منعم متفضل واحد أحد _ سبحانه _ ، فتكون أدلة سمعية عقلية ، وهكذا في سائر الدلائل القرآنية ، فما على الإنسان إلا أن يطلق سمعه وبصره ويعمل عقله ليرى الدلائل الباهرة من حوله _ فتبارك الله أحسن الخالقين _ .

والدلائل التي تتحدث عن إحداث الله للكون بعد أن كان عدمًا كثيرة ؛ لذا لا بد لهذه المحدثات من محدث أبداع فيما خلق ونظم وأتقن _ سبحانه _ ولا بد أن يكون هذا المحدث موجودًا ، وذا قدرة وعلم وإتقان وتديير وحكمة ، وبهذا القانون العقلي ثبت وجود الله _ سبحانه وتعالى _ عقلاً .

" ولو خلقي الإنسان وعقله دون أن يقوم بينهما أي حاجز من الميول النفسية أو الأغراض الدنيوية أو وسوسة الشياطين من الإنس والجن لما عاقه أي شئ عن الإيمان بالله ولوجد الكون كله

مشحوناً بالبراهين الناطقة بوجوده ، ثم لوجد في القرآن وحده المرقاة إلى أعلى درجات اليمين واليقين ؛ فما كان يحتاج عندئذ إلى حجة ونقاش وبرهان وجدال ... " (١)

يقول عالم طبيعي وفيلسوف غربي : " إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله _ سبحانه _ ويدل على قدرته وعظمته . وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار آيادي الله وعظمته ... وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته " (٢)

٣ - ضرب الأمثال للاستدلال على وحدانية الله _ سبحانه وتعالى _ :

تنوعت الأمثال القرآنية في القرآن الكريم ، وجاءت لدلالات وأغراض كثيرة ، ومن هذه الأغراض : أن يأتي المثل بذكر محاسن الحق والترغيب في اتباعه ، وذكر مساوئ الباطل والتنفير منه والحث على اجتنابه .

وقد ذكر الحق _ سبحانه _ في القرآن الكريم مثلين من مقاصدهما الدعوة إلى التوحيد ، والترغيب فيه وإثارة الرغبة في اتباعه لتكون حاله كحال الموحد آمناً مطمئناً ثابتاً على الصراط المستقيم ، بعكس الكافر الذي يكون حيراناً أسفاً ، يتخبط في الظلمات ويسقط في الفتن والمهلكات .

وقد استخدم القرآن الكريم الأشجار والثمار في هذين المثلين في سورة إبراهيم والأعراف .

وهي تنبه العقول وتوضح البراهين العقلية على وحدانية الله وتوحيده ، وعلى صدق رسوله وصحة ما جاء به ، وتوحيد الله بربوبيته أقر به الكفار واعترفوا به كما جاء ذلك في آيات كثيرة منها قوله

تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) فمن رحمة الله بعباده أن بعث لهم النبيين مبشرين ومنذرين وعلى رأسهم خاتم

الأنبياء والمرسلين الذي حمل لواء الدعوة لدين الله وقام به خير قيام .

(١) - كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١

(٢) - الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٠

(٣) - سورة العنكبوت الآية ٦١

فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل القلوب البشرية مفتاحه ، ذلك القفل الذي أعيا فتحه جميع المصلحين ، وكل من حاول فتحه بغير مفتاحه فدعا إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو الطريق الذي يتم به إصلاح النفس البشرية وتقويمها ، فإذا استقر هذا الأمر بالنفوس سهّل بعد ذلك زرع ما يراد منها وطاب الغرس .

المثل الأول : ضرب المثل لقلب المؤمن الموحد بالبلد الطيب والمشارك بالبلد الخبيث :

قال - تعالى - ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١)

طيب: يقال طاب الشيء يطيب طيباً فهو طيب والطيب وصف على وزن فَعِيلٌ وهي صيغة تدلّ على قوّة الوصف في الموصوف مثل : قيّم ، وهو المتّصف بالطيب (٢)

خبث: المخبث والخبيث ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً ، وأصله الرديء الدخلة الجارى مجرى خبث الحديد الخبيث ضد الطيب من الرزق والولد والناس (٣) والبلد الطيب الأرض الموصوفة بالطيب ، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النّبات الصّالح وللزّرع والغرس النّافع وهي الأرض النّقيّة (٤)

والمعنى : كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهدى من خلقت فطرته طيبة قابلة للهدى كالبلد الطيب ينتفع بالمطر ، ويحرم من الانتفاع بالهدى من خلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتاً نافعاً ، فالمقصود من هذه الآية التّمثيل ، وليس المقصود مجرد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر وهذا مثل للمؤمن والكافر وهو قول ابن عباس فقلب يقبل الوعظ وقلب يرده (٥)

(١) - سورة الأعراف الآية ٥٨

(٢) - الصحاح ١٧٣/١ ، مادة (طيب) ، مفردات غريب القرآن ٣٠٨/١ ، التحرير والتنوير ١٨٤/٨

(٣) - مفردات غريب القرآن ١٤١/١ ، لسان العرب ١٤١/٢ ، مادة (خبث)

(٤) - التحرير والتنوير ١٨٥/٨

(٥) - معالم التنزيل ٢٣٩/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٣١/٧ ، البحر المحيط ٣٢٢/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٣٠/٣

قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فكلاهما ينزل القرآن عليهما والموعظة الحسنة والآيات لكن الأثر يختلف عليهما : فالمؤمن إذا سمع القرآن انتفع به وظهر على أعماله قبوله ، فشبهه بالبلد الطيب الذي ينمو ويخصب ويحسن أثر المطر عليه ، وعكسه الكافر ، فاختلاف النبات كاختلاف الاستعداد لكل من المؤمن والكافر للإيمان والهدى والرشاد والغي .
 أما الكافر فلا ينتفع به ، و القلب والتربة كلاهما منبت زرع ، ومأتى ثمر (١) واستظهر أبو حيان خلاف ذلك (٢) .

يقول ابن القيم : " وشبه القلوب بالأرض ، إذ هي محل الأعمال ، كما أن الأرض محل النبات ، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ، ولا يزكو عليه ، ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ، ولا تخرج نباتها به إلا قليلا ، لا ينفع . وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه ، وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر .

فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله ، وتدبره بان أثره عليه ، فشبهه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ، ويحسن أثر المطر عليه ، فنبتت من كل زوج كريم ، والمعرض عن الوحي عكسه " (٣)
 وقد ورد مثل هذا المثل عن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فقد روى البخاري قول رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكأا والعشب الكثير ، وكانت منها ... إلى نهاية الحديث " (٤)

(١) - جامع البيان ٤٩٦/١٢-٤٩٧ ، معالم التنزيل ٢٣٩/٣ ، التفسير الكبير ٢٩١/١٤ ، البحر المحيط ٣٢٢/٤ نظم الدرر ٤٦/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٣٤/٣ ، فتح القدير ٢١٤/٢ ، التحرير والتنوير ١٨٥/٨ ، تفسير القرآن بالقرآن والسنة ٢ / ٣٩١-٣٩٢

(٢) - البحر المحيط ٣٢٢/٤ فقال : " والأظهر ما قدمناه من أن المقصود التعريف بعبادة الله تعالى في إخراج النبات في الأرض الطيبة والأرض الخبيثة دون قصد إلى التمثيل بشيء مما ذكروا "

(٣) - تفسير القرآن الكريم لابن القيم ٢٨٧/١ ، وينظر : المواهب الربانية ص ٩٣

(٤) - صحيح البخاري ، كتاب : العلم ، باب : فضل من علم وعلم ، ح ٧٩ ، ص ٩ عن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ .

المثل الثاني : ضرب المثل المثل للإيمان والتوحيد بالشجرة الطيبة :

قال - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ (١)

ضرب المثل : سوقه وعرضه ، والمثل : عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر ، بينهما مشابهة ؛ ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور . وقيل : هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر (٢) والمثل هو أعم الألفاظ في اللغة الموضوعية للمشابهة (٣)

فالاستفهام في الآية يعني : انظر بقلبك أيها الناظر _ نظر تفكر عميق ، وتدبر دقيق ، كيف ضرب الله مثلاً : أي شبهاً بين أمرين وهما : الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة .

الكلمة الطيبة هي : شهادة التوحيد (٤) كما قال ابن عباس ، وما يتفرع عن هذه الكلمة : كالدعوة إلى الله ، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة التعليمية والتربوية وغيرها فهي مجمع كل كلمة طيبة .

أما الشجرة الطيبة فهي أية شجرة يحصل منها الخلق النفع في كل جزء منها ، ويتصل عطاؤها ، ويقل الجهد المبذول من أجلها .

وفائدة الاستفهام هنا : هو الإلفات إلى هذا المثل ، وتدبره وتأمله ، والعرب قديماً جعلت الأمثال عيون كلامها ، وشاعت بينهم ؛ لما فيها من التأثير على النفوس والعقول . والشجرة الطيبة هي النخلة ، وقد رجح الطبري ذلك ؛ لصحة الخبر عن رسول الله _ صلى الله

(١) - سورة إبراهيم الآيات ٢٤-٢٧

(٢) - مفردات غريب القرآن ١/٤٦٢ ، الكشاف ١/٧٢ ، مدارك التنزيل ١/٤٤ ، لباب التأويل ٤/٤٠ ، نظم الدرر ١٨٣/٤

(٣) - مفردات غريب القرآن ١/٤٦٢

(٤) - الأسماء والصفات ١/٢٧٣

عليه وسلم _ (١)

قال العلماء : ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه ، منها : أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض.

وأن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر ، وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت ، ولا تحمل حتى تلحق بطلع الذكر.

والشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل ثابت ، وفرع قائم ، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان " وغير ذلك من الوجوه (٢)

والشبه بين الكلمة والشجرة شبه حقيقي في طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة ، وما فيهما من حياة ونماء ؛ فالكلمة تنمو وتمتد وتثمر ، كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر سواء بسواء .

ثم ذكر الله تعالى مثال حال كلمة الكفر، فقال _ سبحانه _ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٣)

معنى الكلمة الخيثة : هي كلمة الشرك الخبيثة وفروعها كأنواع السلوك المنحرف عن صراط الله المستقيم ، وكالغيبة والنميمة ، وكالكلمة المضلة وغيرها .

أما الشجرة الخبيثة فكل شجرة خبيثة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والثوم ، والكشوت ونحو ذلك (٤)

فكلمة الشرك تشبه شجرة الحنظل التي وصفها الله _ سبحانه وتعالى _ بأنها خبيثة ، فلا فائدة منها ؛ لذا تستأصل وتقطع من فوق الأرض ؛ لقرب جذورها من الأرض ، وعدم ثباتها ، فلا خير فيها أبداً ، وهذه صفات في غاية الكمال ، فالخبيث وصف للمضار ، والاجتثاث وعدم القرار

(١) - جامع البيان ٥٧٣/١٦

(٢) - لباب التأويل ٤١/٤

(٣) - سورة إبراهيم الآية ٢٦

(٤) - تفسير البداية إلى بلوغ النهاية ٣٨١١/٥ ، الكشاف ٥٢٠/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢/٩ ، إرشاد العقل

وصف للخلو عن المنافع. فكذلك الكلمة الخبيثة ليس لها أصل ثابت في قلب الكافر ؛ لأنها لا تعتمد على دليل ولا حجة صحيحة ولا ثبات ولا قوة فلا خير فيها .

يقول ابن تيمية : " وقد ضرب الله مثل الإيمان الذي هو كلمة طيبة بشجرة طيبة ، ومثل الشرك الذي هو كلمة خبيثة بشجرة خبيثة، فهذا أصله كلمة طيبة في قلبه وهي كلمة التوحيد، وهذا أصله كلمة خبيثة في قلبه وهي كلمة الشرك؛ فهذا يتغذى بهذه الكلمة الطيبة، وهذا يتغذى بهذه الكلمة الخبيثة، كما تتغذى الأبدان بالطيب والخبيث " (١)

وفي نهاية المثل بين الله _ سبحانه _ الفرق بين كلمتي الحق والباطل ، فكلمة الحق وهي كلمة التوحيد والإيمان قوية ثابتة نافعة للناس ، وكلمة الباطل وهي كلمة الشرك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات.

والمثال الثاني : يضربه الله تعالى لأعمال الكفار والمنافقين الذين يعملونها في هذه الحياة الدنيا فلا تنفعهم لأنهم عدموا كلمة الإخلاص ، فلا تفهم نفقتهم ولا سائر أعمالهم ، قال - تعالى -

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢)

الصر بالكسر : شدة البرد ، وقيل : هو البرد عامة ، وقيل : البرد الذي يضرب النبات ويجسسه (٣) في هذه الآية الكريمة شبه الله _ سبحانه _ نفقة الكفار في الدنيا التي أنفقوها في غير مرضاة الله ولم يطلبوا بها رضاه كهيئة الزرع إذا أصابته ريح باردة عاتية شديدة أتت على نبات مزروع ، فأحرقته وأهلكته فلم يبق منه شيء، وأعقب على صاحبه الحسرة والندامة ، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف ، فكذلك هؤلاء الكفار .

يقول ابن كثير (٤) : " فكذلك الكفار يحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب

(١) - جامع المسائل ١/١٣٣

(٢) - سورة آل عمران الآية ١١٧

(٣) - معجم مقاييس اللغة ٣/٢٨٣ ، مادة (صر) ، الصحاح ٢/٧١٢ ، مادة (صرر) ، لسان العرب ٤/٤٥٠ ، تاج العروس ١٢/٣٠٢

(٤) - هو : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ، من بيت علم وأدب ، تتلمذ على كبار علماء عصره ، فنشأ عالماً محققاً ثقة متقناً ، وكان غزير العلم واسع الاطلاع ، إماماً في التفسير والحديث والتاريخ ، ترك مؤلفات كثيرة قيمة أبرزها : (البداية والنهاية في التاريخ) ، و (كتاب تفسير القرآن العظيم) توفي بدمشق سنة ٧٧٤ . ينظر : تذكرة الحفاظ ٤/٢٠١ ، الدرر الكامنة ١ / ٤٤٥ ، إنباء الغمر ١ / ٤٥ ، طبقات المفسرين للأدنوي ١ / ٢٦٠

ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وعظة وتصوير للمعاني ؛ لأن تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة يرسخ المعاني، ويزيل الخفاء والشك فيها، ويجعلها كالأشياء الملموسة ؛ فيكون للمثل وقع بليغ في النفس .

٤ - الاستدلال بالكون وما فيه من مخلوقات ومنها النباتات والأشجار :

قال بعض العلماء أن الآيات الكونية التي تعرج بالإنسان للوصول إلى معرفة الله تعالى وهي الطريقة الشرعية البرهانية التي نبه القرآن عليها ، وهي لا تخرج عن دالتين :

الأولى : دلالة الخلق والاختراع والحدوث :

ومعناه : حدوث الحياة في المخلوقات بعد أن لم تكن حية .

خلاصته : أن الله تعالى قد أعطى كل فرد وكل نوع وجوداً خاصاً هو منشأ آثاره المخصوصة ومنبع كمالته الاتقمة (٢)

وهي بعبارة أخرى : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، مثل : اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل (٣).

وقد نص ابن تيمية على أن المعرفة عن طريق دلالة الاختراع واجب على العبد إذا أراد معرفة ربه _ سبحانه _ تمام المعرفة فيقول : " وكذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله _ تعالى _ حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع " (٤)

الثانية : دلالة العناية بالمخلوقات :

وهو ظهور آثار الكمال في الخلق والتي تتجلى في إتقان نظام الكون ، وتدبيره ، وربط بعضه مع بعض بروابط كونية قدرية تدل على أن هذه المخلوقات لا خلل في خلقها ولا نظامها .

(١) - تفسير القرآن العظيم ١٠٦/٢ ، وينظر : معالم التنزيل ٩٤/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧٧/٤

(٢) - صيقل الإسلام ص ١٢٣ _ ١٢٤

(٣) - مناهج الأدلة ص ٨٠

(٤) - بيان تلبيس الجهمية ١٧٣/١ ، درء تعارض العقل والنقل ٣٢٦/٩

ويسمى برهان الغاية و "هو في لبابه نمط موسع من برهان الخلق مع تصرف فيه زيادة عليه ، لأنه يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق ، ويزيد على ذلك أن هذه المخلوقات تدل على قصد في تكوينها ، وحكمة في تسييرها وتديبرها " (١) .

قال - تعالى - ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (٢) وقال - سبحانه - ﴿ وَتَرَىٰ الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا شَيْءٌ إِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

فجميع الآيات التي تعدد منافع الأشياء تومئ إلى هذا الدليل ، وتنظم هذا البرهان ، وفيها تأكيد على رعاية المصالح ، والحكم في نظام العالم الأكمل مما يثبت قصد الصانع وحكمته _ سبحانه _ وينفي وهم المصادفة .

يقول أحد علماء الغرب : " إن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله حكيم خبير ، وتصميم خالق علوي ، يعد تفسيراً مرضياً للنفوس ومقنعاً للعقول ، إنني أرى في كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة ، إنني ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم " (٤)

ويندرج تحت هاتين الدالتين مجموعة من الدلالات الأخرى الضمنية .

والآيات الكريمة التي تقرر عقيدة التوحيد لا تخرج عن الآتي :

١ _ إما أن تبين دلالة الاختراع .

٢ _ أو تبين دلالة العناية .

٣ _ أو تجمع بين الدالتين وهذه الأكثر في الآيات القرآنية التي تقرر التوحيد على العباد .

وبتتبع الأدلة وجدت صعوبة اختيار آيات تدل على إحدى الدالتين فقط دون الأخرى فهما _ والله أعلم _ متلازمتان متكاملتان ، فالآيات الدالة على قدرة الله على الخلق ، تتضمن كذلك عنايته وحكمته وإتقانه لخلقه ، والآيات التي تتحدث عن إتقان الكون وإبداعه وحكمته تتضمن الخلق في الأساس وهكذا .

(١) - في نشأة العقيدة الإلهية ص ٢١٤

(٢) - سورة الملك الآية ٣

(٣) - سورة النمل الآية ٨٨

(٤) - الله يتجلى في عصر العلم ص ٤٥

يقول الغزالي (١) " اعلم رحمك الله أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منصوبة كالمصاييح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شئ من ذلك معد مهياً لشأنه، والإنسان كالمملك للبيت المخول لما فيه، فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات مصرفة في مصالحه، فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها، ولو كانت أشعة وأنواراً لأضرت الناظر إليها، فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة لا سيما إذا انفطرت بنجومها وظهر نور قمرها" (٢)

ويمكن تقسيم دلالة النبات على وحدانية الله إلى مسألتين تجمعهما :

الأولى : الاستدلال بالنبات على الخلق ، وعلى البعث والجزاء .

الثانية : الاستدلال بالنبات على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته وإبداعه وصفاته .

المسألة الأولى : الاستدلال بالنبات على الخلق والإيجاد ، وعلى البعث والجزاء .

أولاً _ الخلق والإيجاد :

وأصل الخلق : التقدير السليم ، ويستعمل في إبداع الشئ من غير أصل سابق ولا احتذاء ، ويستعمل في إيجاد الشئ من الشئ ، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله _ تعالى _ وخلقها :

(١) - هو : محمد بن محمد ، أبو حامد الغزالي ، ولد سنة ٤٥٠ ، تفقه على إمام الحرمين ، وبرع في علوم كثيرة ، له مصنفات منتشرة في فنون متعددة بلغت نحو مئتي مصنف ، فكان من أذكى العالم في كل ما يتكلم فيه مولده ووفاته في الطابان بخراسان ، توفي سنة ٥٠٥ . ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ٤/٨٧ ، سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢ البداية والنهاية

٢١٣/١٦ ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٤ / الأعلام ٧/٢٢

(٢) - أسرار الحكمة ١/١٥ _ ١٦

إيجادها واختراعها ، أو خلقها وتركيب أجرامها وائتلاف أجزائها (١)
لفظ الخلق في القرآن الكريم يأتي لمعنيين :

الأول: إبداع الشيء من غير أصل ، ولا احتذاء .

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ (٢)

والمعنى في هذه الآية : أن الله أبداع السماوات والأرض وما بينهما ، واخترعهما من العدم على غير
مثال سابق .

الثاني: إيجاد الشيء من الشيء ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مُوقَدُونَ ﴾ (٣)

معنى الآية : أن الله أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة ، مع
تضادها وشدة تخالفهما .

فدليل الخلق من أعظم الأدلة على وحدانية الخالق - سبحانه - فالله هو خالق كل شئ

﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٤)

وعند تأمل الآيات القرآنية الدالة على توحيد الربوبية يلاحظ ندرتها في الدلالة على وجود الله
وعلى وحدانيته فقط دون أن تتضمن الدلالة على توحيد الألوهية ، أو البعث .

وما في القرآن الكريم من آيات و دلائل توحيد العبادة والبعث والمعاد فهي تدل على توحيد
الربوبية من طريق التضمن وهذه الآيات كثيرة جدًا .

وفي سورة النور يعرض الله - سبحانه وتعالى - منظرًا من مناظر قدرته وهي مراحل تكون
السحاب ثم نزول المطر ثم حياة الأرض به فيقول - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ
يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ
فِيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ

(١) - معجم مقاييس اللغة ٢/٢١٣ ، مادة (خلق) ، مفردات غريب القرآن ١/١٥٧ ، النهاية في غريب الأثر ٢/١٤٤ ،

تاج العروس ٢٥/٢٥١

(٢) - سورة إبراهيم من الآية ٣٢

(٣) - سورة يس الآية ٨٠

(٤) - سورة الزمر الآية ٦٢

وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١﴾

يزجي : يسوق إلى حيث يشاء ، وزجى الشيء ، وأزجاه ساقه ودفعه (٢) .

تأليف السحاب : جمعه بين متفرقها وألفت بينهم تأليفا إذا جمعت بينهم بعد تفرق وألفت الشيء تأليفاً إذا وصلت بعضه ببعض ومنه تأليف الكتب و هو جمع بينها بعد تفرق ، ووصلها (٣) ركائماً: مشتق من الركم . والرکم : الجمع والضم الرکم : جمع شيء فوق آخر ، حتى يصير ركائماً مركوماً كركام الرمل ، متراكباً بعضه على بعض (٤) .

الودق : هو المطر كما قال ذلك أكثر المفسرين ، وقيل : البرق (٥)

أي: ألم تشاهد ببصرک، عظیم قدرة الله كيف ينشئ السحب المتفرقة ، وكيف يجمعها حتى تكون متراكبة بعضها فوق بعض كالجبال ! فمن الذي أنشأها ؟ ومن سيّرها وحدّد مسارها ؟ ومن أوقفها عند الغاية المطلوبة ؟ ثم بينّ - سبحانه - الآثار المترتبة على هذا السوق الرفيق ، والتجمع الدقيق فنرى المطر يخرج من خلالها متفرقاً ؛ ليصيب برحمته من يشاء ويصرفه عن من يشاء بحكمته وتدبيره - سبحانه وتعالى - فتنتفع الأرض والإنسان بهذا المطر وتنبت الأرض كل زوج كريم ، وتخزن في باطنها منه كالعيون والآبار .

قال ابن عاشور (٦) عند شرح هذه الآية : " أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيراً لا يتغير ، فهي بذلك أهدي من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى

(١) - سورة النور الآيات ٤٣ - ٤٤

(٢) - مفردات غريب القرآن ٢١٢/١ ، مادة (زجا) ، لسان العرب ٣٥٥/١٤ ، تاج العروس ٢١١/٣٨ مادة (زجو) .

(٣) - لسان العرب ٩/٩ ، مادة (ألفت) ، تاج العروس ٣٣/٢٣

(٤) - مفردات غريب القرآن ٢٠٣/١ ، النهاية في غريب الأثر ٦٣٢/٢ ، تاج العروس ٢٨٠/٣٢ مادة (ركم)

(٥) - معجم مقاييس ٩٦/٦ ، مادة (ودق) ، مفردات غريب القرآن ٥١٧/١ ، معالم التنزيل ٥٤/٦ ، المعجم الوسيط

١٠٢١/٢

(٦) - هو : محمد الطاهر عاشور ، ولد في ضاحية المرسى في تونس سنة ١٢٩٦ ، شب في أسرة علمية ، حفظ القرآن وبعض المتون صغيراً ، كان ذا عقل جبار وذا تدفق وتدفع في العلم ، وكان ذا أسلوب محكم النسخ ، وهو لغوي فقيه أصولي ذا علم بالمنطق والفلاسفة . توفي سنة ١٣٩٣ . ينظر : الموسوعة الميسرة ٣ / ٢٥٦٥ ، تراجم لتسعة من الأعلام ص ١٥٣

معرفة الله تعالى والنظر في أدلتها ، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحداية التصرف (١)

ووصف الله _ سبحانه وتعالى _ ضوء برق ذلك السحاب ، من شدته يكاد يذهب بالأبصار وفي وصف ضوء البرق بهذه الصفة : تنبيه للعقول ؛ لتدبر هذه التغيرات فظهور البرق يشعر به الناس أكثر من تجمع السحاب ونزول المطر الذين يغفل الناس عنها لكثرة حدوثها فإن أصحاب الأبصار التي حركها خفق البرق يتذكرون تلك الحالة العجيبة الدالة على القدرة . ولهذا النكتة خصصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر (٢)

قال الخازن (٣) عند شرحه لقول الله - تعالى - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي : دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده (٤).

وفي سورة الجاثية نصب الله دلائل على وحدانيته وتفردته بالخلق والإبداع فيقول _ سبحانه _ ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ يرشد الله _ سبحانه وتعالى _ في هذه الآيات الخلق إلى التفكير في آيات الله التي يرونها ، وآلاته عليهم الدالة على وحدانيته (٦)

(١) - التحرير والتنوير ٢٦٠/١٨

(٢) - المصدر السابق ٢٦٢/١٨

(٣) - هو : علي بن محمد عُرف بالخازن ؛ لأنه كان أميناً لمكتبة في دمشق ، وقيل لأنه كان خازناً للخلفاء ، أصله من حلب ، وُلد في بغداد سنة ٦٧٨ ، ثم سكن دمشق وسمع بعض علمائها ، فاشتغل بالعلم والتأليف ، ويسر له عمله في المكتبة سبل التعلم والكتابة ، فترك مصنفات كثيرة ، توفي بحلب سنة ٧٤١ . ينظر : سير أعلام النبلاء ١١/١٤٥ ، طبقات المفسرين للأدزوي ٢٦٧/١ ، الأعلام ٥ / ٥

(٤) - لباب التأويل ٨٣ / ٥

(٥) - سورة الجاثية الآيات ٣ _ ٦

(٦) - بحر العلوم ٢٦٢/٣

ومن هذه الآيات : خلق السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات مختلفة كالملائكة والإنس والجن وعالم الحيوان وعالم النبات فكلها دلائل على اتصافه بالوحدانية والكمال ، وهذه الدلائل للناس كلهم ، ولكن لا ينتفع منها إلا الذين آمنوا فآمنوا بوحدانيته وأنه الإله القادر ، ثم إذا أمعنوا النظر وتأملوا ازدادوا يقيناً ، وزال عنهم اللبس والشك ، فإذا وصلوا لهذه المرحلة فقد دخلوا ضمن زمرة العقلاء الذين عقلوا مراد الله من آياته السمعية والعقلية .

وقد تناول المفسرون وجه الترتيب في قوله - تعالى - ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿آيَاتُ الْقَوْمِ﴾

يُوقِنُونَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالشرح والتأمل فكان مما قالوه : أن خلق السماوات والأرض الكل معترف بأن لا خالق لها إلا الله - سبحانه وتعالى - فيدخلون ضمن دائرة الإيمان ، ثم بعد ذلك انتقل - سبحانه - لدلالة أدق وأعلى مرتبة وهي خلق الإنسان ومراحل تطور حياته ، وخلق الدواب التي لا يعلم جنسها ولا أنواعها ولا يخصيها إلا الله - سبحانه وتعالى - والنظر في هذا الأمر يحتاج لدقة أكثر وشمول في البحث والملاحظة وعند ذلك يكون المتأمل ضمن مرتبة الموقنين ، وأدق من هاتين المرحلتين وهي الدخول ضمن العقلاء وذلك بالنظر لأحوال الليل والنهار وتأمل الماء النازل من السماء وأثره على الأرض وإحيائها ، وتصريف الرياح وتقلبها وتحوله من حال إلى حال فمن الذي قام بتلك الأعمال ؟ ومن الذي يدبر هذا الكون الفسيح ومخلوقاته ؟ ومن الذي سخر هذا كله ؟ لا شك أن كل عاقل بعد النظر والتأمل سيقول إن هذه الأفعال والدلائل من أفعال الله العلي القدير الواحد الأحد ، ولذا قال الحق - سبحانه وتعالى - ﴿آيَاتُ الْقَوْمِ﴾

يَعْقِلُونَ ﴿١﴾

وقال - تعالى - ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢﴾

وإنما ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ؛ ليتبين أن هذه القضية التي استدلت بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس ، لا يمكن إنكارها ، فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون محدث أحدثه ، ولا يمكنه أن يقول : هو أحدث نفسه .

(١) - المحرر الوجيز ٧٩/٥ ، باب التأويل ١٥٠/٦ - ١٥١ ، التفسير الواضح ٣ / ٤٢٤

(٢) - سورة الطور الآيات ٣٥ - ٣٦

وهذه الحقيقة لا يمكنهم إنكارها مطلقاً ، فهل هم من خلقهم ؟ وإجابة السؤال لا تخرج عن إجابات ثلاث : فإما أن يكونوا خلقوا من غير شئ ، أو أن يكونوا خلقوا أنفسهم ، وذلك في البطلان أشد ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ وكلا الأمرين تنكرهما الفطرة والعقل والحس ، فإذا كان الأمران باطلين فإن الحجة تقوم عليهم ، وتكون الإجابة البديهية الفطرية التي لا يمكن إنكارها وهي : أن للإنسان خالقاً له ولجميع المخلوقات التي في الكون وإذا تعين ذلك ، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده ، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له _ تعالى _ .

وإذا عجزوا عن خلق أنفسهم فهل هم من خلق السماوات والأرض ، ولم ينتظر الله _ سبحانه وتعالى _ إجابته بل حكم عليهم بأنهم ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ أي : لا يتدبرون في الآيات كي يعلموا خالقهم وخالق السماوات والأرض وما فيهما من أسرار وعجائب ، وهم في الواقع لا يستطيعون قول ذلك وأيضا لا يوقنون به بالفعل وإلا لآمنوا به وحده _ سبحانه وتعالى _ .

ولقد كانت هذه الآيات سبباً في إسلام الصحابي الجليل : جبير بن مطعم (١) _ رضي الله عنه _ فقد أخرج البخاري في صحيحه قوله : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب

بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾ ، كاد قلبي أن

يطير (٢) . وكان جبير بن مطعم مشركاً حين هذه الحادثة ، وقدم على النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في فداء أسرى بدر وأسلم بعدها ؛ لتأثير هذه الحجة الدامغة عليه والتي لم يستطع دفعها فوقر الإيمان في قلبه _ رضي الله عنه _ منذ سماعها ، و لقد عبر عن ذلك بقوله : كاد قلبي أن يطير يعني : رغبة في الإسلام .

وفي سورة النبأ تعداد لمظاهر كثيرة من نعم الله على الإنسان ، وكلها تظهر عنايته به _ سبحانه وتعالى _ قال - تعالى - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥)

(١) - هو : جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل القرشي ، أبو عدي: صحابي ، كان من علماء قريش وحلمائهم وسادتهم.

توفي بالمدينة ، وكان _ رضي الله عنه _ من أكابر وعلماء النسب ، وتوفي في المدينة في خلافة معاوية _ رضي الله عنه _ .

ينظر : أسد الغابة ١/ ٣٩٧ ، الإصابة ١/ ٢٣٥ ، تهذيب التهذيب ٢ / ٥٦

(٢) - أخرج البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : سورة (والطور) ح ٤٨٥٤ ، ص ٤١٥ ، وينظر :

وَجَنَّتِ الْفَأْفَأُ (١)

والمعصرات : - بضم الميم وكسر الصاد - هي السحب والغيوم التي حان لها أن تعصر الماء ، فيسقط منها . تَجَّاجاً أي مطراً صَبَابًا كثير الهطول (٢) وهو قول ابن عباس (٣) في رواية عنه ، وفي أخرى أنها الرياح (٤) ، وقيل السماوات .

والسحاب أولى الأقوال عند الطبري ، وأصحها عند القرطبي (٥) واستظهر القول ابن كثير (٦) تَجَّاجاً : يقال يقال ثَج الماء وأتى الوادي بشجيجه ، وهو المندفع بقوة وكثرة ، فيكون صباباً مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً (٧)

وفي إنزال المطر من السماء وخروج النبات للناس والحب لأنعامهم ، والحدائق ملتفة الأغصان نعم لا تعد ، ففي الآيات : دمج للامتنان وشكر الصانع _ سبحانه وتعالى _ وإيماء للبعث والحكمة من إنزال المطر من السحاب ؛ للجمع بين الامتنان والإيماء إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصانع .

وجيء بالإخراج بدل الانبات لنخرج ؛ لأن المقصود الإيماء إلى تصوير كيفية بعث الناس من

(١) - سورة النبأ الآيات ١٤-١٦

(٢) - معجم مقاييس اللغة ١ / ٣٦٧ ، مادة (ثج) ، لسان العرب ٢ / ٢٢١ ، مادة (ثجج) ، تاج العروس ٥ / ٤٤٥ ، مادة (ثجج)

(٣) - هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله وكان يسمى البحر لسعة علمه ويسمى حبر الأمة ولد بمكة . ونشأ في بدء عصر النبوة ، فلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر من الرواية عنه - عليه الصلاة والسلام - ، دعا له النبي _ صلى الله عليه وسلم _ بالحكمة ، وشهد مع علي - رضي الله عنهما - الحمل وصفين . سكن الطائف ، وتوفي بها . له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً . ينظر أسد الغابة ٣ / ٢٩٥ الرياض المستطابة ص ١٩٨ ، صحابة رسول الله ص ١٣٨

(٤) - جامع البيان ٢٤ / ١٥٣-١٥٤ ، تفسير ابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٩٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٧٢ ، تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٠٣

(٥) - محمد بن أحمد الخزرجي المالكي الأندلسي ، القرطبي ، من كبار المفسرين ، صالح متعبد ، من أهل قرطبة ، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط ، بمصر) وتوفي فيها سنة ٦٧١ . ينظر : الديباج المذهب ٢ / ٣٠٨ ، طبقات المفسرين للسيوطي ١ / ٧٩ ، طبقات المفسرين للأدنوي ١ / ٢٤٦ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٣٥

(٦) - جامع البيان ٢٤ / ١٥٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٧٢ ، تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٠٣

(٧) - المفردات في غريب القرآن ١ / ٧٩ ، المعجم الوسيط ١ / ٩٤

الأرض إذ ذلك المقصد في هذه الآيات (١) .

وفي هذه الآيات دلالات أخرى : كالإتقان والإبداع والتصيير .

وبهذا يتبين أن خلق الله _ تعالى _ للكون وما فيه من أبين الأدلة وأظهرها على وجود الخالق _ جل وعلا _ وتفرد به بالخلق والملك ، وقد ذكره الله _ سبحانه وتعالى _ في آيات كثيرة ، ومواقع مختلفة من الذكر الحكيم ؛ لارتباط هذا الدليل باعتراف الكفار بتوحيد الربوبية ، ومنها قوله

- تعالى - ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ (٢)

في هذه الآيات : تقرير للربوبية ، ولفت النظر إلى آيات الله الكونية ، وتوبيخ للكفار على سفه عقولهم باتخاذهم الأنداد وهم يعلمون أنها عاجزة بإقرارهم ، ولكن علمهم هذا ليس تاماً فلو أيقنوا بذلك حقاً لما عرضوا عن عبادته وحده لا شريك له .

والإنسان يرى كيف تدب الحياة في الكائنات ، فيرى بعض مظاهرها ، ويعرف بعض أحوالها ، لكنه يقف عاجزاً متحيراً هو وجميع آلاته ومخترعاته في نفس عملية الخلق وبث الحياة التي لا يقدر عليها سوى الخالق الخبير .

ثانياً _ دلالتها على البعث والجزاء :

يقوم الدين الإسلامي على مقصدين مهمين جداً ، ومنهما وعليهما تنبني الفروع ، فالأول : توحيد الله واتصافه بصفات الكمال ، والثاني : إثبات البعث والجزاء ، ولذا تكرر إثباتهما كثيراً في القرآن الكريم ، وتكرر الاستدلال عليهما بالآيات الكونية ، ومنها : الاستدلال بالنبات ، وسأتناول هذا هذا المبحث بالتفصيل لاحقاً _ بإذن الله تعالى _ وهنا سأشير إلى بعض الآيات التي استدلت بها الله _ سبحانه وتعالى _ على وحدانيته وانفراده بالقدرة والملك والإحياء والإماتة وسائر خصائص الربوبية .

وتنوع الاستدلال بالنبات وعرض الله _ سبحانه وتعالى _ له : فتارةً يتهمكم ويتعجب _ سبحانه _ من كفر المشركين مع ما يرونه من عظيم القدرة ، ودقيق الصنعة ، وعظيم المنة ، وتارةً بالنبات يستدل على إحياء الأرض بعد موتها ، ومنها ما يدل على مراحل نمو النبات من إنزال

(١) - التحرير والتنوير ٢٦/٣٠

(٢) - سورة المؤمنون الآية ٨٤ - ٨٥

المطر ، وشق الأرض بالنبات ، وتعهدا بالرعاية والحفظ لتنمو وتنتج أنواع الثمار والأشجار المختلفة المتنوعة ، وتارةً أخرى يستدل القرآن الكريم بتبدل أحوال النبات من حياة إلى موت فحياة ، وغير ذلك من أنواع الاستدلال ، كلها دلائل تشير بكل وضوح إلى وحدانية الله _

سبحانه وتعالى _ ومنها قول الحق _ جل وعلا _ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ

أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿١﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين يتعجب الله _ سبحانه وتعالى _ من كفر الكفار به ؛ فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض ، فيذكرهم بالنعمة التي غمرهم بها من مبدأ خلقهم إلى منتهاه فهو _ سبحانه _ من خلقهم أولاً وأوجدهم من العدم ، ثم إذا انتهى أجلهم يميتهم ، ثم يرجعهم ليوم البعث ؛ ليحاسب كل على عمله ، ثم يذكرهم _ سبحانه _ بعنايته الخاصة بالبشر فقد خلق كل ما في الأرض من كائنات وجمادات من أجل انتفاعهم ، ولتعينهم على طاعته _ سبحانه _ ، ثم انتقل _ سبحانه _ من الاستدلال بخلق الأرض إلى خلق ما هو أعظم من خلقها ، وهو خلق السماوات السبع فخلقهن باستقامة وانتظام لا خلل فيه ولا اضطراب وهو _ سبحانه _ بكل شئ عليم .

وجاء في سورة آل عمران تقرير ملك الله _ جل شأنه _ للكون وما فيه ، وأنه مالك الملك العزيز

المذل القادر القاهر الرازق ، فيقول الحق _ جل و علا _ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي

الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

(١) - سورة البقرة الآيات ٢٨ - ٢٩

(٢) - سورة آل عمران الآيات ٢٦-٢٧

في هذه الآيات الكريمة تسلية لنبي الرحمة _ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم _ وطلب منه أن يلجأ إلى ربه مالك الملك ، المتصرف بشؤون خلقه ، صاحب السلطان المطلق في تدبير الكون ، قيوم السماوات والأرض ، من بيده الخير كله ، يحيي ويميت ، يخرج الحي من الميت والعكس .

وظهور الحياة على الأرض سواء أكانت حياة نباتية أو حيوانية من أظهر البراهين على وجوده ووحدانيته _ سبحانه _ فإن الحي لا يتولد إلا من حي بأوصاف مباينة لنظام المادة (١)

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : " تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء " (٢) فمن حقه عليكم أن تفردوه بالعبادة والخضوع ، تبارك الله رب العالمين .

وفي سورتي الحج وفصلت يستدل _ سبحانه وتعالى _ بقدرته على إحياء الأرض بعد موتها في مثالين واضحين ، فيقول _ تبارك وتعالى _ ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾

ونظير الآية قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخَيِّ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

في الآيتين استدلال على عظمة الله _ سبحانه وتعالى _ وقدرته بما يروونه ويشاهدونه بأبصارهم وهو رؤيتهم للأرض الميتة اليابسة كيف يحييها الله _ سبحانه وتعالى _ بالمطر ، وكيف تهتز ثم تربو (٥) ثم كيف تتحول بقدرته _ تعالى _ إلى جنات حسنة المنظر ، مختلفة الألوان والأشكال .

(١) - دلائل التوحيد ص ٥٠

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٩ ، وينظر : معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٥ ، تفسير القرآن لابن المنذر ١/ ١٦١ ، معالم التنزيل ٢/ ٢٤ ، الكشف ٤/ ٢٠١ ، رموز الكنوز ١/ ١٤٩ ، التفسير الكبير ٨/ ١٩١ ، الفتح الرباني ٢/ ٧٦

(٣) - سورة الحج الآيات ٥ - ٧

(٤) - سورة فصلت الآية ٣٩

(٥) - إن حبيبات التربة عند اختلاطها في الماء تهتز وتتحرك جزئيات منها غير محددة لاتجاه معين ، ويعني ذلك أن الأرض (اهتزت) وعملية ترسيب الماء بين طبقاتها يزيد من سمك وحجم الحبيبة ، وبالتالي كل الحبيبات ، وهذا يعطي معنى (ربت) =

وعبرَ - سبحانه وتعالى - عن موت الأرض بلفظين غاية في الجمال هما : هامة ، وخاشعة ؛ لأنهما يمثلان الأرض في حالة القحط والجذب أصدق تمثيل ، فلفظ : هامة وخاشعة والخشوع هو التذلل " لما ظهر بها من القحط وعدم النبات وسوء العيش عنها ، بخلاف أن تكون معشبة وأشجاراً مزهرة ومثمرة ، فذلك هو حياتها (١) والهمود : قريب من الخمود ، فهمود الأرض جفافها وزوال نبتها (٢)

ثم بينَ - سبحانه - ما يدل على وحدانيته في الآيتين بقوله - تعالى - في الآية الأولى ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفي الآية الثانية ، قال - سبحانه - ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والآيات : الدلائل ، وإضافتها يعود إلى الله ؛ لأنها دليل على وحدانيته وعلى وجوده (٣) وفي هذا الدليل الواضح برهان قاطع على أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذي يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ؛ لأنه هو وحده الخالق لكل شيء ، ولأنه هو وحده الذي يعيد الموتى إلى الحياة ولا يعجزه شيء .

يقول ابن سعدي : " يا عجباً ؛ لنفوس تنكر الرب والبعث ؛ ما أضلَّها وأعمَّها ! كيف لا تعترف بهذه القضية التي هي أعظم القضايا وأوضحها وأجلاها ! إله عظيم لم يزل إلهاً ، ومملك كبير مُلكه لا يتناهى ، شمل العالمين برحمته ورزقه فلا يترك ذرةً ولا ينساها " (٤) - سبحانه وتعالى .

وتتابع الآيات الكريمة فيقول - سبحانه و تعالى - ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا

= وانتفخت لتخزين الماء اللازم لإحياء الأرض فتشرب البذور وغيرها وينبت الجنين تحت سطح التربة بيزوغ الجذير الريشة ، وبدا تكون الأرض قد (أنبتت) ، ثم يظهر النبات فوق سطح التربة ويكبر ويثمر معطيًا رزقًا للعباد . ينظر : الإعجاز العلمي في الأرض من موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة ص ٢١٢

(١) - البحر المحيط ٧/٤٧٧

(٢) - الكشف والبيان ٨/٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٢ ، التحرير والتنوير ٢٠٣/١٧

(٣) - التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٤

(٤) - البراهين العقلية لابن سعدي ص ٧٤

فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ

الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

فأحياء الأرض بعد موتها ، وخلق الجنات فيها من نخيل وأعناب وتفجير العيون كلها دلائل اختراع
ثم أتبعها _ سبحانه _ بدلالة العناية بالإنسان

أحييناها باختراع النبات فيها ، أو بإعادته بسبب المطر كما كان بعد موته واضمحلاله .

وأنشأ _ سبحانه _ لهم في هذه الأرض التي أحيها بساتين من نخيل وأعناب ، وجعل فيها أنهاراً
وعيوناً ؛ ليأكلوا من ثمر الجنات ، ومما عملت أيديهم من الغرس والسقي إلى أن أينع الثمر
فاستفادوا منه في الأكل والعصر ، وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم وعنايته بخلقه _ جل في علاه
_ لا بسعيهم ولا بجهلهم ولا بقوتهم (٢) فالله _ سبحانه _ هو من خلق لهم ما يأكلون وأوجده
من العدم ، وزودهم بالفهم وهداهم لكيفية الانتفاع منه .

وكل حي يهدده الموت والفناء متى ما جاءت أسبابه ، لكن خالق الأسباب لا تضره الأسباب

فهو الحي الدائم قيوم السماوات والأرض . يقول - تعالى - ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا

يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴾ (٣)

المسألة الثانية : الاستدلال بالنبات على وحدانية الله _ تعالى _ وقدرته وإبداعه وصفاته :

تبه القرآن الكريم إلى دلالة كل شئ على الله _ سبحانه وتعالى _ وعلى ربوبيته ، فإن الربوبية

تتضمن الخلق والملك والتدبير وغير ذلك ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْخَذُ وَلِيًّا

فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْمُ وَلَا

تَكُونَتَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤)

﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَزَرَ

(١) - سورة يس الآيات ٣٣- ٣٦

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٥٧٥/٥

(٣) - سورة الفرقان الآية ٥٨

(٤) - سورة الأنعام الآية ١٤

أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾
 ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 وَكِيلٌ ﴿٢﴾

والآيات القرآنية الدالة على خصائص الربوبية كثيرة جدًا ، وهي تثبت مدى عناية الله _ تعالى _ بالمخلوقات عمومًا ، والإنسان خصوصًا ، وكلها تثبت قدرة الله _ جل في علاه _ وإتقانه لما خلق وتسويته لكل خلقه وتدييره وملكه وعلمه الشامل للغيب ، فتكون جامعةً لدلالات الخلق والعناية كأغلب الآيات الكونية الواردة في القرآن سواء كانت بالأنفس أو الآفاق ، وهذه الآيات تدل على دلالات متعددة ، وكلها تدل على وحدانية الخالق وأحققته بالعبادة وحده ، ومن هذه الدلالات غير دلالة الخلق والإيجاد : دلالة الملك ، والرزق ، ودلالة النظام ووحدة الكون والتقدير في الخلق والتدبير والتسخير .

أولاً _ دلالة الرزق :

الرزق : بالكسر : ما يُنتفع به ، والجمع : أرزاق ، وقيل : هو الحظ ، وهو ما يسوقه الله إلى الحيوان للتغذي ، ويسمى المطر رزقًا ، وهو عطاء الله جلّ ثناؤه أي من المال ، والجاه ، والعلم (٣)

والرزق عند الجمهور : اسم عام جامع لكل ما صلح الانتفاع به حلالًا كان أو حرامًا ، وهو اسم لكل ما ينتفع به من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته وينال بها ما يلائمه ، سواء كان ماديًا كالأموال ، أو معنويًا كالمعارف ، والعلوم ، وحسن الخلق ، وغيرها (٤)

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على إحدى خصائص ربوبية الخالق وهي تفرد الرزق ، والمشركون كلهم معترفون أن الرزق هو الله ، وأن أصنامهم لا تستطيع رزق نفسها فضلًا عن غيرها وهذا الاعتراف يستلزم منهم توحيد العبادة لله وإفراده بالألوهية والعبادة .

(١) - سورة الأنعام الآية ١٦٤

(٢) - سورة الأنعام الآية ١٠٢

(٣) - الصحاح ٤/١٤٨١ ، مادة (رزق) ، معجم مقاييس اللغة ٢/٣٨٨ ، مفردات غريب القرآن ١/١٩٤ ، تاج العروس ٢٥/٣٣٥ ، مادة ، المعجم الوسيط ١/٣٤٢ .

(٤) - الكشف والبيان ١/١٤٨ ، معالم التنزيل ١/٦٣ ، المحرر الوجيز ١/٨٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١/١٧٧ ، لباب التأويل ١/٣٠ ، السراج المنير ١/٢٢ ، التحرير والتنوير ١/٢٣٤

ومن هذه الآيات الكريمة قوله _ تعالى _ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ (١)

افتتح الله _ سبحانه وتعالى _ هذه الآية بلفظ الجلالة لما في ذلك من تربية المهابة ، ومن لفت أنظار المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه (٢) .

ثم ساق بعدها _ سبحانه _ ألواناً من ألوان عنايته بالبشر من النعم التي ليس بإمكانهم إنكارها لشدة حاجتهم لها .

فجيء في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لا يستطيع إنكارها ، إلا أنها محتاجة للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله - سبحانه وتعالى - .

فبدأ _ سبحانه _ بخلق السماوات والأرض ، وخلقهما دليل على ربوبية وألوهية خالقهما ، فهما من أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار ، وفي ذكرهما إجمالاً تمهيد لألوان النعم المودعة فيهما ، فمن السماء ينزل المطر فتخرج أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع ، مختلفة الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح والمنافع ، وكلها رزق لكم من رب كريم واسع العطاء .

وذلل لكم البحر ؛ لتستفيدوا منه في المنافع المتنوعة في الأسفار والتجارة والتعارف بين الشعوب إلى غير ذلك من المنافع ، وعلمكم بهدايته كيف تصنعون السفن التي تشق البحر وهذا من أجلكم ، وكذلك سخر لكم الأنهار العذبة التي تشربون منها وتسقون مزروعاتكم ومواشيكم ، وغير ذلك من المنافع المتعددة منه ؛ ولهذا ذكّر العباد بنعمة تسخيرهم لهم .

يقول الخازن : " ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب أيضاً ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار ، وتفجير العيون لأجل هذه الحاجة ، فهو من أعظم نعم الله على عباده " (٣)

(١) - سورة إبراهيم الآية ٣٢

(٢) - التفسير الوسيط ٧/٥٥٩

(٣) - لباب التأويل ٤/٤٥

و هذه النعم والتي تلتها كلها تستوجب شكر الواهب _ سبحانه _ وطاعته وعبادته وحده كما تدل على كمال قدرته وفضله _ سبحانه _ .

وفي سورة فاطر يذكر _ سبحانه _ الناس جميعًا بمدى كمال خالقيته وتنزهه عن النقص _ سبحانه _ ويناديهم . قال _ تعالى _ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذِنُوا لَهُ فَنُفِثَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) في هذه الآية الكريمة يخاطب الله _ سبحانه _ وتعالى _ الناس جميعًا بآثار رحمته الخاصة بهم والعامة لجميع المخلوقات ، ويدعوهم للنظر والتأمل في دليل الوحدانية والقدرة والفضل ، ومن ثم شكر المنعم المتفضل وعبادته وحده والاعتراف أنها منه فإن تذكر النعم يقود إلى شكرها .

وصف الله _ سبحانه _ وتعالى _ النعمة بـ ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ لأن المقصود من التذكر التذكر الذي يترتب عليه الشكر ، وليس المراد مطلق التذكر بمعنى الاعتبار والنظر في بديع فضل الله (٢)

وينبهم _ سبحانه _ أنه هو المستحق أن يعبد وحده ؛ لتفرده وحده بالخلق والرزق ، فهو من خلقهم وتكفل برزقهم الذي يأتيهم من السماء والأرض ، وليس من أحدهما فقط ، فييده مفاتيح الأشياء كلها وخزائنها بيده _ سبحانه _ ومغالق ذلك كله ، وليس لمن أشركتم معه حول ولا قوة ولهذا وحد نفسه _ سبحانه _ بقوله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ _ سبحانه _ ولا معبود بحق إلا هو

_ جل شأنه _ فهل بعد ذلك برهان أو بيان ؟ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾

(أفك) فلان أفكًا وإفكًا وأفوكًا كذب وافتري ، والإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، والأمر عن وجهه قلبه وصرفه عنه ، فأى وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضرركم تصرفون (٣)

(١) - سورة فاطر الآية ٣

(٢) - التحرير والتنوير ٢٥٤/٢٢

(٣) - مفردات غريب القرآن ١٩/١ ، لسان العرب ٣٩٠/١٠ ، مادة (أفك) ، تاج العروس ٤٤/٢٧ ، المعجم

والفناء في قوله - تعالى - ﴿ فَأَنزَلْنَا نُؤْفِكُونَ ﴾ " لترتيب إنكار عدوهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها ، كأنه قيل : وإذا تبين تفردہ تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك " (١)

فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية .

وفي سورة غافر يبين لنا الله - سبحانه وتعالى - آياته وحججه وبراهينه على وحدانيته التي لا يتذكرها إلا من يوحد الله بربوبيته وألوهيته ، فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

الآيات هي دلائل وجود الله - سبحانه وتعالى - ووحدانيته ، وهي ما يشاهده الناس أمامهم من مظاهر عظيمة أبداع فيها الخالق وسؤى ، وإنزال المطر من السماء آية ، وهو في نفسه آية فكل هذه الآيات مجتمعة حجج من الخالق للعباد ؛ ليوحده ، ولكن هذه الحجج لا ينتفع منها إلا المنيون إليه - سبحانه - المؤمنون به ، أما المشركون فقد صدهم عن عبادته جهلهم وقصر نظرهم وتكبرهم .

وفي قوله تعالى ﴿ مَن يُنِيبُ ﴾ بصيغة المضارع دلالة على تجدد هذه الإنابة وتكررها ، وبربطها بالتذكر دلالة على الملازمة بين التذكر والإنابة .

وبما أن التذكر خاص بمن ينيب فادعوا الله وأخلصوا الدعاء له وداوموا عليه ولا تلتفتوا للمشركين وخالفوهم في مسلكهم واحذروا منهم أن يصرفوكم عن دينكم لكراهيتهم لكم ولما تعملون .

(١) - إرشاد العقل السليم ١٤٣/٧

(٢) - سورة غافر الآيات ١٣-١٤

وفي صحيح مسلم (١) كان ابن الزبير (٢) يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : " لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهليل بهن دبر كل صلاة" (٣)

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٤﴾

تكفرون : الكفر ، بالضم : ضد الإيمان ؛ لأنه تغطية الحق ، وجحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة ، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا ، والكفر في الدين أكثر والكفور فيهما جميعا (٥) الأنداد : جمع نَدَّ بكسر النون ، والمراد به: المثل ، والشبيه ، والتظير ، والتدبير مثله ، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوىء (٦) ولام لَتَكْفُرُونَ لتأكيد الإنكار

- (١) - هو : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ، ولد بنيسابور سنة ٢٠٦ ، من أئمة المحدثين ، وكتابه (صحيح مسلم) ثاني كتابين هما أصح الكتب المصنفة جمع فيه حوالي ١٢٠٠٠ حديث ، توفي سنة ٢٦١ . ينظر : المنتظم ٥ / ٣٢ ، التقييد لمعرفة رواية السنن والمسائيد ١ / ٤٤٦ ، سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٥٧ ، طبقات الحفاظ ١ / ٢٦٤
- (٢) - هو : عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ولد عام الهجرة وحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير وهو أحد العبادة وأحد الشجعان من الصحابة وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة وحنكه النبي - صلى الله عليه وسلم - وسماه باسم جده وكانه بكنته ، قتل سنة ثلاث وسبعين من الهجرة . ينظر : تاريخ الصحابة ص ١٥٠ ، أسد الغابة ٣ / ٢٤٥ ، الاصابة ٤ / ٦٩
- (٣) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ، ومواضع الصلاة ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفتها ، ح ١٣٤٣ ، ص ٧٧٠
- (٤) - سورة فصلت الآيات ١٠ / ٩
- (٥) - معجم مقاييس اللغة ٥ / ١٩١ ، مادة (كفر) ، مفردات غريب القرآن ١ / ٤٣٤ ، تاج العروس ١٤ / ٥٠
- (٦) - لسان العرب ٣ / ٤١٣ ، مادة (ندد) ، المصباح المنير ٢ / ٧٣٠ ، القاموس المحيط ١ / ٤١١

فالاستفهام في الآية استفهام استنكاريّ ، فما كان لكم أن تكفروا بمن هذه قدرته ، وتلك آثاره ، والتي تثبت وحدانيته ، وكفرهم بالله يتمثل في إلحادهم في ذاته وإنكارهم لوصفه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، وإنكارهم قدرته على البعث وإرسال الرسل ، وغير ذلك من عقائد الكفار . فكيف يسوغ لكم اتخاذ الأنداد والشركاء وهي عاجزة عن هذا الخلق والتدبير والتقدير ، مالك جميع الكائنات ومربيها ، والذي خلق لكم الأرض وبارك فيها أقواتها : بالأشجار والشمار والحبوب والأنهار ، وقسمها في أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان ، فتعالى الله رب العالمين .

قوله - تعالى - ﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

إن النظر في شواهد السماوات والأرض لدلائل قاطعة على وجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة التي تزيد من إيمان أولي النظر وتجعلهم موقنين بدون أدنى شك . ومن هذه الشواهد الرزق الذي ينزله الله - سبحانه وتعالى - من السماء ، والآثار التي يتركها على الأرض الميتة من حياة ونضرة ونماء ، وكذلك في تقليب الرياح وتغيير أحوالها كل ذلك آيات ناطقة على وجود الله وقدرته ووحدانيته .

ولن تتجلى هذه النظرة السليمة إلا لأولى النهى والعقول السليمة ، الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ثم ينتهي بهم التفكير إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، وتفردته بالخلق والأمر والرزق - سبحانه - .

يقول ابن القيم : " فتأمل كيف يسوقه - سبحانه - رزقاً للعباد والدواب والطيور والذر والنمل يسوقه للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل في شدة الحاجة والعطش وفي وقت كذا وكذا ثم كيف أودعه في الأرض فأخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات " (٢) وما سبق من دلائل وآيات ودعوة للنظر والتوحيد وإخلاص العبادة ، كلها حاجة البشر إلى الخالق - سبحانه - جل في علاه فأعمالهم لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع أنفسهم ، والله غني عنهم، وعن

أعمالهم ، ومن غناه ورحمته بهم أنه أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراتهم ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾

(١) - سورة الجاثية الآية ٥

(٢) - مفتاح دار السعادة ٢٠٢/١

وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿١﴾

ثانياً : دلالتها على التسوية والإتقان ، والتقدير :

أ _ دلالتها على التسوية ، والإتقان :

تسوية الشيء إتقانه وإحسان خلقه وإكمال صنعته حسب الحكمة التي خلقه الله لأجلها ، فيكون مستويًا معتدلاً .

ويُعبّر القرآن الكريم عن التسوية بعبارات مُختلفة الألفاظ وإن كانت مُتقاربة الدلالة ، كالإتقان والإحسان ، ونفي التفاوت ونحوها .

الإتقان : من مادة (تقن) ، و هو الإحكام ، وأتقن الشيء أحكمه وإتقانه إحكامه (٢) .
فالإنسان لا يرى ترتيباً متقناً محكماً في أي مركب من المركبات من الأمور الجزئية ، إلا جزم أن هناك من أتقنه ورتبه وأوجده بهذا الشكل الجميل ، فكيف الأمر به إذا نظر نظرة شاملة إلى الكون الفسيح (٣)

والأمثلة على هذه الدلالة كثيرة جداً ، منها : قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وإنما وصفت بمجاورات ؛ لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة

(١) - سورة الذاريات الآيات ٥٧ - ٥٨

(٢) - لسان العرب ٧٢/١٣ ، مادة (تقن) ، تاج العروس ٣١٦/٣٤ ، غرائب التفسير ٨٥٩ / ٢

(٣) - الإيمان بالله ص ٢٦ - ٢٧

(٤) - سورة الرعد الآيات ٣ - ٤

في هذه الآيات الكريمة بين الله _ سبحانه وتعالى _ بعض ما في الأرض من دلائل كثيرة على وحدانيته _ سبحانه _ منها :

١ _ مد الأرض وتثبيتها بالجبال ، وخلق الأنهار ، وتنوع أنواع الثمار .
 ٢ _ اختلاف جودة ونوع التربة مع تجاورها وتلاصقهما ، وهذا التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة ، وهذا كقوله - تعالى - ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبٌ سُوْدٌ ﴾ (١)

وفي هذه الآية تقرير لقدرة الله العجيبة في خلقه ، وتأكيده لعدم تأثير الكواكب والمؤثرات الخارجية على الخلق إلا بإذن الله - تعالى - وهذا الدليل في شيئين :
 الأول : وجود الأرض المتجاورة المتدانية ومع ذلك فهي مختلفة ، فمنها : الصلبة ، والمنبته ، والرخوة ، والحجرية وغيرها (٢) .

الثاني : مع اتحاد الثمار بالعوامل الخارجية كالماء الواحد ومع هذا تأتي الثمار مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية ، واختلاف النبات مع اتحاد المصدر كالتربة والماء والضوء وغيرها من العوامل الخارجية ومع هذا تتفاضل الثمار في الأكل بقدرته الله _ تعالى _ وإرادته ، وحكمته ، فهو القادر المريد _ سبحانه _ .

يشير _ سبحانه _ في الآيات إلى الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وكل ما فيها ، فإن هذا الاختلاف مع الاتحاد في الأصول والأسباب يدل دلالة أكيدة على قادر مبدع قدر في خلقه وفاوت بين ما خلق .

وقد دلَّ _ سبحانه وتعالى _ بهذه الآية على نفسه ولطفه ووحدانيته ؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة فقط لوجب بالقياس ألا تختلف الطعوم ، وألا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد وسقي بماء واحد لكنه صنع اللطيف الخبير (٣) .

(١) - سورة فاطر الآية ٢٧

(٢) - ومن العجيب أنه لا بد لنمو النبات من وجود الضوء والماء والكربون والأكسجين والهيدروجين والفوسفور وغيرها من العناصر التي تتغذى عليها النباتات ، ومع هذا فتنبت الأرض التفاح الحلو والحنظل المر والقطن الناعم ، والصبان الشائك ، عناصر واحدة وماء واحد وبذور تنامت في الصغر تخرج منها آلاف الأنواع وعديد الأشكال ومختلف الروائح والمذاق ، إن في ذلك لآية لأولي الألباب . باختصار ، جهاز النبات الغذائي (الجدور) من الإعجاز العلمي في الأرض ص ٢٨١

(٣) - تأويل مشكل القرآن ٥/١ ، وينظر : المحرر الوجيز ٣/٢٩٤ ، البحر المحيط ٥/٣٥٦

ثم يخرج النبات في الأرض الواحدة والذي يخالف صاحبه في كل شيء ، في الشكل والطعم واللون والنوع ، فبعضه يكون قوياً ، وبعضه فاكهة وأحياناً دواء وأحياناً أخرى يكون علفاً لسائر البهائم .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ۗ ﴿٣٢﴾ ﴿١﴾

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى في خلق الإنسان والكون من حوله ، أردف ذلك بالأمر بتدبر الطعام الذي يتناوله ، وأسند _ سبحانه _ الصب والشق والإنبات إلى ضمير الجلالة فهو _ سبحانه _ مقدر الأسباب ومنظمها ، وعند التنصيص على أن المقصود إسناد الإنبات إليه لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء لأن التذكير بالمنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه _ سبحانه _ ﴿٢﴾

فانظروا نظر اعتبار وتفكر ، كيف يدبره له الله سبحانه وتعالى له وكيف قدره ويسره ، وما هي المراحل التي يتم بها خلقه وما هي الأسباب والآثار المترتبة عليه ، فالبداية بإنزال المطر من السماء ثم شق الأرض بالنبات ، ثم ذكر الله _ سبحانه وتعالى _ ثمانية أنواع من النبات ، فمنها الحب الذي يقتات منه الإنسان وأنعامه ومنه ما يعصره وما يدخره ، ومنها الجنات وما تحويه من الفواكه المثمرة المتنوعة ، ففيه منفعة وأي منفعة فتدبروا هذه النعم الجليلة الناطقة ببدیع صنعته ، وباهر حكمته ، وربوبيته التامة _ سبحانه جل شأنه _ .

فهذا الإتيان البديع وهذه الأشجار والثمار المختلفة الأنواع ، والألوان ، والأشكال ، والطعوم ، والروائح ، ولا يكاد يخلو منها جزء لا يفيد منه الإنسان في شتى أمور حياته ، فليتأمل وليتدبر فسبحان الذي خلق وأبدع .

ولا يقتصر الإتيان والإبداع في الشكل الخارجي بل يتعداه إلى كل جزء من النبتة فالاختلاف بينها موجود .

(١) _ سورة عبس الآية ٢٤-٣٢

(٢) - التحرير والتنوير ١١/٢٠

كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبداع نظام ، مخططة أجمل تخطيط ، تخطيط وإبداع تجده يقلد ولا يصنع ، وأروع ما يكون في الأزهار ، بتصميماتها وألوانها الموزعة ، بشكل يحافظ كل زهر معه على جماله وتناسق ألوانه ، وتجده في كل زهرة إحساساً جديداً في الجمال كلها إبداع عجيب : منفردة أو مجتمعة أو موصولة أو مقطوعة (١)

وفي هذه الآيات بالإضافة إلى إفحام المشركين ومنكري التوحيد ، بل فيها توجيه للنظر والتأمل في الكون ، وما فيه من عظيم القدرة ودليل الصنعة _ فسبحان الذي خلق فأبداع _

ب _ دلالتها على التقدير :

تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والإتقان ، ويقال قدر الإله كذا تقديرًا وإذا وافق الشيء الشيء (٢)

قال الرازي عند شرح معنى قدر : " وتفصيل هذه الجملة مما لا يفني بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، تفسير هذه الآية. وتفصيل هذه الجملة " (٣) .

والآيات التي تتحدث عن تقدير الله لخلقه كثيرة منها قوله _ تعالى _ ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٤) وقوله - تعالى - ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (٥)

لو تأمل الإنسان الكون الفسيح أمامه لرأى كل المخلوقات تشهد بقدرة خالقها ، الذي أوجدها من العدم ، وخط لها خط سير لا تحيد عنه ولا تميل ، ففي هذا النظر الدقيق تتجلى وحدة الخالق ووحدة النظام ، والإتقان والإبداع في كل المخلوقات ، وتظهر عناية الله _ سبحانه وتعالى _ بمن خلق وسوى وهدى ، وكيف سخر للإنسان الكائنات ، فتشهد الفطرة والعقل السليمان بوحدة الخالق المدبر مالك الملك العزيز المحيي المميت الواحد الأحد الفرد الصمد ، ومن الآيات الدالة على تدبير الله _ سبحانه وتعالى _ لخلقه وتقديره لهم ، ومدى الترابط بين هذه المخلوقات ،

(١) - الله جل جلاله ص ٧٩

(٢) - المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ ، لسان العرب ٥ / ٧٤ ، مادة (قدر) .

(٣) - التفسير الكبير ٣١ / ١٢٩

(٤) - سورة النمل من الآية ٨٨

(٥) - سورة السجدة من الآية ٧

ووحدة النظام ، قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝٢٠ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢ وَإِنَّا لَنَحْنُ مُخِيءٌ وَنَمِيتٌ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝٢٣ ﴾ (١)

ذكر الله _ سبحانه وتعالى _ في هذه الآيات ألواناً من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وعلى سابغ نعمه وفضله على عباده _ سبحانه جل شأنه _ :

فمنها :

١ _ أنه _ سبحانه وتعالى _ مدّ الأرض ووسعها وجعلها صالحةً للانتفاع بها والسير عليها والتناول من أرزاقها وسائر ضروب الانتفاع منها كما قرر هذه النعم في آيات كثيرة ، منها :

قوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٢)

وهذا لا يعني نفي كون الأرض كروية ولكن الناظر لها يراها مستوية ، وهذا دليل واضح على كمال قدرة الله - تعالى - وعظمته لأن الإنسان المنتفع بها يراها منبسطة رغم تكويرها، ثابتة رغم تحركها. وقدر _ سبحانه _ خلقها (٣) وكل ما فيها من مخلوقات .

٢ _ ثبتها _ سبحانه _ بالجبال الرواسي التي تحفظها فلا تميد بمن عليها (١)

(١) - سورة الحجر الآيات ١٩-٢٣

(٢) - سورة طه الآية ٥٣

(٣) - إنه لو زاد سمك الطبقة العليا من الأرض بضعة كيلو مترات لاستهلك الأكسجين الموجود الآن كله في تكوين الزيادة في قشرة الأرض، وإذا لما وجد نبات أو حيوان أو ثاني أكسيد الكربون. كما أن الأكسجين يكون ٨ و ٨٨% من وزن الإنسان في العالم ، والباقي أيدروجين ، فلو أن كمية الأيدروجين زادت الضعف عند انفصال الأرض لما وجد إذن أكسجين، ولكان الماء غامراً الآن كل نقطة في الأرض . ينظر : توحيد الخالق للزنداني ، ص ، كتاب الكتلوني ، التصميم في الطبيعة

٣ _ أنبت فيها من كل شيء موزون (٢)

والوزن معرفة قدر الشيء، يقال وزنته وزناً ووزناً ، ومقدر بمقدار معين وبجد معلوم وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معاني الجمال والتناسق (٣) حتى يعتدل ميزان الحياة ، وينتفع الناس منها ، ولو اختل هذا الميزان ، بزيادة أو نقص ، لما صلحت الحياة على هذه الأرض أبداً . قال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤).

والتعبير في الآية الكريمة بموزون تعبير في غاية من الإعجاز العلمي يشير إلى أن كل صنف من النبات سواء كان نجماً أو شجراً أو عشباً قد جعل الله لعناصره وجزئياته التي يتركب منها نسباً وزنية مقدرة موزونة بأدق من ميزان الجواهر ، ألا ما أروع كلمة موزون ، وما أعظم الوزن ، وما أدق الميزان ، وما أروع الموزون (٥)

٤ _ جعل _ سبحانه _ في الأرض معاش ، والمعاش : والمعاش : جمع معيشة ، وهي في الأصل مصدر عاش يعيش عيشاً وعيشةً ومعاشاً ، ومعيشةً ، إذا صار ذا حياة. ثم استعمل هذا اللفظ فيما يعاش به ، أو فيما يتوصل به إلى العيش من المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، والحرث

(١) - جميع جبال الدنيا تمتد عمقاً في الغلاف الصخري للأرض، ويبلغ عمق هذه الجذور عشرات الكيلو مترات، وعمق جذر الجبل يزيد على ارتفاعه فوق سطح الأرض بأكثر من عشرة أضعاف ، وهذا ما نجد في الوتد. فالوتد من الناحية الهندسية وحتى يؤدي مهمته في التثبيت يجب أن يغوص في الأرض لعدة أضعاف الجزء البارز منه. فسبحان الذي سمى الجبال (أوتاداً) وهذا التشبيه أفضل تشبيه من الناحية العلمية.

ثم إن جميع العلماء يؤكدون اليوم بأن الجبال لها أوتاد تمتد في الأرض وتغوص لعشرات الكيلو مترات ، فالقرآن يصرح بأن الجبال هي أوتاد ، والعلماء يقولون إن للجبال جذوراً تثبت الأرض وتعمل على توازنها ، وهنالكَ علم قائم بذاته يدرس هذا التوازن الأرضي، فسبحان الذي خلق فسوى .

ينظر : بتصرف يسير ، مقالة بعنوان الجبال والتوازن الأرضي ، موقع المهندس عبد الدائم الكحيل ، أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، وينظر : الله والكون ص ٢١٩

(٢) - كان الناس جميعاً يجهلون الاختلاف في تكوين النباتات المختلفة حتى تقدمت العلوم في هذا العصر وكشفت أن جميع النباتات تتكون من مواد أساسية واحدة (كربون . أكسجين . أيديروجين . نيتروجين ، كبريت أو فسفور) وبعض المواد الضئيلة الأخرى ، غير أن سبب اختلافها يرجع إلى اختلاف أوزان المواد في كل منها ، وأن جذر كل نبات لا يمتص من مواد الأرض إلا مقادير موزونة محددة . ينظر : توحيد الخالق ص ٢٠٤

(٣) - جامع البيان ٧٩/١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٠ ، لباب التأويل ٦١/٤

(٤) - سورة القمر الآية ٤٩

(٥) - من لطائف التفسير ٢ / ١٩٠

ومن أنواع المكاسب وغيرها ، واحدها معيشة (١) وهذه المعاييش لكم ، ولمن لستم له بمطعمين كالخدم والعبيد والأنعام والوحوش وكلّ حيّ يشارك الإنسان الحياة على هذه الأرض ، فالله تكفل بأرزاقها ، ولكم المنفعة والتسخير منها ، وفي هذا امتنان بما عليهم .

٥ _ أنه _ سبحانه _ بيده خزائن كل شئ من أرزاق الخلق ، وأنه من ينزل المطر بقدر معلوم . قال ابن عباس رضي الله عنه : يريد : قدر الكفاية ، لكل أرض حدّ مقدر ، وذلك من رحمته بعباده وحكمته البالغة ، كما قال _ سبحانه وتعالى _ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢)

٦ _ ثم يتحدث سبحانه عن مراحل نزول المطر ، فهو من يرسل الرياح (٣) فينزل المطر ، وتلقح الشجر فتنتج الثمر . وجاءت الرياح بصيغة الجمع ؛ ليكون منها الإنتاج بعكس الريح .
٧ _ ثم أثبت _ سبحانه _ لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة .

ومن مظاهر العناية بالخلق والقدرة الإلهية الدالة على الوحدانية قوله - تعالى - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ ﴿٤﴾

يلفت الله _ سبحانه وتعالى _ نظر الناس إلى ما يشاهدونه حولهم من أحوال بعض المخلوقات ، فمنها :

_ الأرض وما فيها من قدرة وعظمة وإيجاد للمخلوقات بعد العدم وإحياء بعد الموت ، فأيات الأرض جبالها ، واختلاف نباتها وبحارها وأنهارها والكائنات التي تعيش عليها ، وتسخير كل ما فيها للإنسان بفضل من الله _ تعالى _ ومنة .

(١) - الصحاح ١٠١٣/٣ ، مادة (عيش) ، مفردات غريب القرآن ٣٥٣/١ ، المصباح المنير ٢٢٧/١

(٢) - سورة الشورى الآية ٢٧

(٣) - أثبت علماء الأرصاد أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر منها هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان واحد حيث يشاء الله ثم تسوقها إلى حيث أراد الله لها نفع العباد ، وبالتالي عملية إطلاق الرياح ومراقبتها وتوجيهها بتقديم النفع أو الضرر يختص بإرادة عليا لا نتيجة مصادفة عمياء فالله على كل شئ قدير . آيات الله للأميري ٥٥/١

(٤) - سورة الذاريات الآيات ٢٠-٢٣

— خلق أنفسكم كيف خلقكم؟ وانظروا العجائب في خلقكم؟ وكيف كل جهاز في الجسم ملائم لما خُلق له، فهو سبحانه كما خلقكم قادر على بعثكم. قال قتادة^(١): من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة^(٢)

— إنزال المطر الذي هو سبب الأرزاق وبه حياة الأرض ومن عليها.

ثم أقسم — سبحانه — برب السماء والأرض: إن ما توعدون من البعث والجزاء حق لا شك فيه كما لا شك في نطقكم حين تنطقون.

فكل ذرة في الكون يُستدل بها على وجود الصانع وعلمه وقدرته ووحدته وإرادته وحكمته ورحمته. وهذه الآيات وأمثالها تلفت نظر الإنسان إلى هذا الخلق المقدر المسوي المنضبط، والذي لم ولن يكون بهذه الصورة من دون ربِّ للعالمين.

ثالثاً - دلالة النظام والتسخير والتدبير والحكمة :

من مظاهر وحدة النظام في الكون وحدة القوانين التي تسيره مثل "مثل قانون الجاذبية الذي يحكم أجزاء الذرة، كما نجد نفس القانون يحكم أجزاء المجرة، وهكذا القوانين الحرارية والقوانين الإشعاعية وغيرها، وحتى تلك القوانين المختلفة المتعددة فإنها جميعاً قد كمل بعضها بعضاً؛ لإيجاد نظام شامل وقانون موحد، سار الكون كله به في نظام محكم الأجزاء بتوازن دقيق."^(٣)

يقول عالم بروفيسور في جامعة أمريكية: " لو تأملت المجرات والنجوم والكواكب... فإنك ستكتشف بأم عينك أنها تسبح وفق نظام محدد دقيق سليم وثابت حتى أضحى بإمكاننا أن نتنبأ وقبل مئات السنين بموعد الخسوف... وغير ذلك من الظواهر العجيبة باليوم والساعة والدقيقة والثانية فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه "^(٤)

(١) - هو: قتادة بن دعامة السدوسي عالم أهل البصرة ولد سنة ٦١، يقول عن نفسه: ما قلت لمحدث قط أعد على. وهو أبو الخطاب الضرير الأكمه مفسر الكتاب إماماً في النسب رأساً في العربية واللغة وأيام العرب وكان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، توفي بالطاعون بواسط سنة ١١٨. ينظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥، تذكرة الحفاظ ٩٢/١، وفيات الأعيان ٤/٨٥، شذرات الذهب ١/١٥٣.

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٧/٤١٩

(٣) - كتاب التوحيد ص ٢٣٩

(٤) - الإسلام يتصدى للغرب الملحد ص ٢٧٣

وخلق الله _ سبحانه وتعالى _ الأرض ومهداها وذلّلها وقدر فيها أوقاتها ، وجعل فيها قوانين ونواميس توفر الضرورات والحاجات والمحسنات وليست للإنسان وحده بل لكائنات أخرى مسخرة للإنسان تدل على تدبيره وحكمته في خلقه ، ومن هذه القوانين قانون التكامل الذي ينبثق من التسخير ، وهذا التكامل يحقق الاستمرار في الحياة وتلبية الرغبات المختلفة فمثلا : يجد الإنسان ما يريده من مأكّل ومشرب وملبس ودواء وسكن ونحوه بمساعدة آخرين وهو يقدم بدوره مساعدات من نوع آخر ، وليس هذا التكامل والتعاون بين الإنسان فقط بل بين الكائنات الحية كلها فلكل مخلوق دور يسير فيه ، وفي هذا مصداق لقوله _ صلى الله عليه وسلم _ : " كل ميسر لما خلق له " (١)(٢)

يصور القرآن الكريم هدايته وتسخيره للنحلة ؛ لإنتاج العسل الغني اللذيذ . يقول _ سبحانه وتعالى _ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٣)

في الآيات تظهر عناية الله بالمخلوقات ، وصنع الدواء لهم ففيه شفاء للناس . ولولا هداية الله (٤) لها لما جاء هذا الشراب العجيب في مكوناته وأصله .

(١) - صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب : قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، ح ٧٥٥١ ، ص ٦٣٠

(٢) - لابن القيم كلام نفيس في إتقان خلق الكائنات الحية والحكمة منها . ينظر : مفتاح دار السعادة ٢٠٣/١ ، وكتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالي .

(٣) - سورة النحل الآيات ٦٨ _ ٦٩

(٤) - اكتشف العلماء أن النحلة تستطيع تمييز وجوه البشر وتنطبع هذه الوجوه في ذاكرتها ولا تنساها ، هذا اكتشاف علمي جديد يؤكد القدرات الخارقة لدى هذا المخلوق ، ولولا هذه الظاهرة لم يتمكن الإنسان من "ترويض" النحل والاستفادة منه في صنع العسل، كذلك فإن النحلة لديها سرعة أكبر بكثير من الإنسان في اختيار ما هو مناسب لها دون الاعتماد على قدراته أو دماغه ، بل بوحى خاص من الله عز وجل ، وهذا ما يحير العلماء .

والنحلة أثناء طيرانها فإن أعينها تعمل بطريقة فريدة حيث تعالج المعلومات بسرعة كبيرة لا تتناسب مع حجم دماغها الصغير جداً ، فهي تميز الزهور وهي تطير بسرعة كبيرة، وتميز العواقق وتختار أفضل الطرق التي تسلكها وزود الله تعالى هذه النحلة =

وفي هداية الله _ سبحانه وتعالى _ للنحلة وقطعها تلك المسافات الهائلة وارتباطها بأنواع الزهور المختلفة التي تمتص رحيقها ثم تخرج الشهد من بطونها لآيات لمن ينظر ويتفكر في مخلوقات الله وآثار إبداع وإتقان الخالق لما خلق .

ونجد هداية الله _ سبحانه وتعالى _ في جواب موسى - عليه السلام - لفرعون عندما سأله عن

ربه فأجابه موسى - عليه السلام - ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ۝ (١) ﴾

وعلق الزمخشري (٢) على إجابة موسى _ عليه السلام _ بقوله : " ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه ، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبًا للحق " (٣)

وهذه الدلالة هي التي وردت في سورة الأعلى ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ (٢) ﴾

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ (٤) ﴾

"إن التعقيد الهائل في ظاهرة الحياة ، والانسجام الهائل فيها ، ووضع كل شيء في محله ، يدل دلالةً

واضحةً على علم وإرادة وقدرة وراءها بشكل غريب عند الأمي ، وعلمي عند العليم " (٥)

فكل ما يحيط بالإنسان من المخلوقات دلالة على بارئها ، ففيها أوضح مظاهر النظام التام الدقيق والذي لا يمكن وجوده دون خالق حكيم مدبر رب للعالمين جميعًا .

فالذي خلق السموات والأرض ، بما فيها من المخلوقات، وأبدعها وأتقن صنعها ، لا ينكره إلا من فسدت فطرته عقله .

= بقدرات عجيبة منها تمييز الزهور والنباتات بسرعة تتفوق على الإنسان، واختيار النوع المناسب من الزهور... ولا نملك إلا أن نشهد بأن هذا القرآن هو الحق من عند الله تعالى. مقالة بعنوان : النحل يتفوق على البشر! موقع المهندس عبد الدائم الكحيل ، أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

(١) - سورة طه الآية ٥٠

(٢) - هو : جار الله ، أبو القاسم محمود الخوارزمي ، ولد سنة ٤٦٧ ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، وكان داعيةً إلى الاعتزال ، وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله ، وتنقل في البلدان ، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها سنة ٥٣٨ . ينظر : البداية والنهاية ١٦/٣٣٥ ، البلغة في تراجم أئمة النحو ١ / ٢٩٠ ، شذرات

الذهب ١١٨/٤ ، الجواهر المضئية في طبقات الحنفية ٣ / ٤٤٧ - ٤٤٨

(٣) _ الكشاف ٦٧/٣

(٤) - سورة الأعلى الآية ١-٣

(٥) - الله جل جلاله ص ٥٨

ولو تأمل الإنسان النبات مثلاً لوجد مدى ارتباطه بغيره من مخلوقات الله ، فالنبات مرتبط بالتربة وما تحويه من غذاء له به ينمو ويكبر ، وهذه التربة مرتبطة بالماء النازل من السماء الذي يسقيها ويرويها ، والمطر مرتبط بالرياح التي تسوق السحاب وهكذا نجد هذا الترابط العجيب وكله يشهد بإرادة الخالق _ سبحانه _ ومدى عنايته بمخلقه .

ودورة الحياة سلسلة من التعاون والتكامل بين جميع الكائنات فالملطر يروي الأرض المسخرة المذلة الجامدة ، فتخرج ألوان من النباتات المختلفة المتنوعة : منها ماهو للإنسان فقط سواء أكله أو زينته ، أو غذاء لبعض الطيور والحيوانات والتي يأخذ منها الإنسان حاجته للأكل وغيره ، وهذه الحيوانات والطيور بدورها غذاء للحيوانات المفترسة ، والتي يستفيد منها الإنسان كذلك ألوان من الفوائد .

ويقدم الوجود كله شهادة بأنه من صنع الواحد الأحد ، فأنت ترى أن غذاءك يتوقف على عمل المعدة التي بدورها تتوقف على الدماء ، وهذه الدماء يتوقف دورها على الهواء وحركة التنفس ، والهواء يعتمد على التمثيل الضوئي للنبات ، الذي يعتمد على عناصر منها الشمس ، التي تعتمد بدورها على حركة الكواكب الأخرى ، وهكذا نجد : أن كل شئ يعتمد في وجوده وعمله على غيره من الأشياء ، وذلك يشهد أن الجميع من صنع رب واحد (١)

ولحكمة الله البالغة جعل هناك قوانين أخرى : منها : التكاثر ، الذي يحافظ على بقاء النوع ، ويعوّض ما يؤكل أو يستخدم أو يستهلك ، والتوازن . وكل هذه القوانين وغيرها مجتمعة تدل على تسخير الله وحكمته وتدييره _ جل في علاه _ وتدعو الإنسان إلى النظر والتفكر فيها ؛ فيوقن ويوحده عبادته لخالقه _ سبحانه _ الذي أنعم عليه نعمًا لا تعد ولا تحصى .

فإذا أحكم الإنسان فكره وبصره لرأى الحكمة في المخلوقات حوله ، ولرأى ضآلة حجمه أمام الكون الواسع الضخم ، فيكون استعمال الكون لصالحه فيكون وسيلة حسية ومعنوية للاستدلال على وحدانية الله تعالى واستحقاقه للعبادة فهو _ سبحانه _ المدبر والقادر والذي له مقاليد السماوات والأرض ، كما قال _ سبحانه _ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

بِعَايَنَتِ اللَّهِ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾، وقوله - تعالى - ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾

فهو الصانع الخبير الحكيم المدبر من بيده ملكوت كل شيء ، قال - تعالى - ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٣﴾

وهذا الخلق خلق لحكمة يعلمها الله - سبحانه وتعالى - وقصد منه ، فالخلق واضح جلي دال

على قدرة وإبداع وإتقان وتدبير خالقه - جل في علاه - ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٤﴾

وجميع الآيات الكونية كلها براهين قاطعة على عدة أمور أهمها :

- وحدانية الله - تعالى - وإفراده في الخلق والرزق وجميع خصائص الربوبية ، وليس كمثلته شيء

وهو السميع البصير .

- أنه هو وحده - سبحانه - المستحق للعبادة لا شريك له .

- سعة حجم الكون وضخامته ، ومع ذلك كله خاضع لله - تعالى - وإرادته الحكيمة .

- تسخير الكون بما فيه للإنسان بإرادة الله - تعالى - وفضله ورحمته بهم .

ومن الآيات الدالة على الرب المدبر مالك الملك - سبحانه - قوله - تعالى - ﴿قُلِ اللَّهُمَّ

مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ

بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ

الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥﴾

(١) - سورة الزمر الآية ٦٣

(٢) - سورة الشورى الآية ١٢

(٣) - سورة الملك الآيات ١٤-١٥

(٤) - سورة الحجر الآية ٨٥

(٥) - سورة آل عمران الآيات ٢٦-٢٧

ففي هذه الآيات يأمر الله _ سبحانه وتعالى _ النبي _ صلى الله عليه وسلم _ بإعلان انفراد الله بربوبيته ، وأنه من بيده تصريف الأمور كلها ، وتدبير العالمين العلوي والسفلي بالحكمة التي يقتضيها خلقه لهم ، وأن الملك التام والسلطان المطلق له وحده لا شريك له ، وأنه يعز ويذل من يشاء بيده الخير كله ، ويرزق من يشاء بغير حد ولا مقدار ، فالأمر أمره والتدبير تدبيره والكون كله له لا إله إلا هو وحده المعبود بحق لا شريك له . وهو المتصرف بأحوال الدنيا وتقلباتها فهو _ سبحانه _ مقلب الليل والنهار والأعوام ؛ لتستقيم أمور ومصالح العباد ، وهو _ سبحانه _ من يخرج الحي كأصناف الزروع المختلفة من البذور الميتة وغيرها كما يخرج الميت كنوى الأشجار من الثمار ، والبيضة من الطائر والعكس .

يقول ابن سعدي عن العلماء: "فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبرّ للأمور كلها، وربطوا الأسباب بقضائه وقدره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم يضع الأمور مواضعها ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سبباً ووسيلةً وطريقاً يوصل إليه، ولذلك نتيجة وثمره بحسب قوة الأسباب وضعفها وبحسب قوة العامل بها وضعفه، ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقدر الله وقضائه ، لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لثم علمهم وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه " (١)

وقد استنكر الهدهد على أهل سبأ (٢) سجودهم للشمس من دون الله _ سبحانه وتعالى _ مستدلاً على وحدانيته وأنه المستحق للعبادة بعلمه الشامل للغيب وإحاطته بكل ما في الكون ،

قال الله _ تعالى _ عنه ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٣)

(١) - الدلائل القرآنية ص ٤٧

(٢) - سيأتي الحديث عنهم لاحقاً - إن شاء الله تعالى - ٤٨٧

(٣) - سورة النمل الآية ٢٥

والخبء هو : الخفي من الأمور وهو من خبأت الشيء ، ويقال خبء السموات المطر ، وخبء الأرض النبات ، وقيل : الخبء الغيب ، فيكون الله تعالى يعلم غيب السماوات والأرض (١) فهو يشمل كل ما احتوته السماوات والأرض مما يبرزه الله للخلق لمنفعتهم ، فتشاهده العيون ، مثل : المطر والنبات ، أو تدركه العقول مثل بدائع الخلق ودقائق الصنعة ، ومنه ما يكشفه الله لعلماء الأكوان من أسرار الخلق عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية فيأتون بما فيه نفع العباد ورقي العمران " (٢)

إن هذه المشاهد العظيمة التي احتشدت في هذه الآيات كلها مشاهد واقعية محسنة تتمثل فيها القدرة والإرادة والعلم أكمل ما تكون سما وإعجازا ، كلها مشاهد تجتليها العين وتتملاها النفس فتعمل عملها في القلوب والمشاعر ، وهي صورة حية نابضة بالحس ، لا تلبث أن تحرك النفس من الباطن ، وتثير فيها حوافز التأمل ، وتستجيش القلب فتدفعه إلى الإيمان ، وهو إيمان يصدر عن اقتناع ويقين ؛ لأن حوافزه واقعية مشاهدة " (٣)

فكل ما في الكون يدل على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ، والقدرة والعظمة والحكمة التي بها أتقن وأبدع وسوى ونظم ، والعلم الذي هدى الخلق به ودلهم على مصالحهم وحاجاتهم وفي هذه الصفات أبلغ دليل على الكمال ، واستحقاق العبادة .

(١) - جامع البيان ٤٤٨/١٩ ، الوسيط للواحدى ٣٧٥/٣ ، المحرر الوجيز ٢٥٧/٤ ، تفسير القرآن العظيم ١٨٧/٦ ، مختصر الصواعق المرسله ١/٣٤٠ ، عمدة القاري ١٠/١٠٣ .

(٢) - مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ٢٤٣/٢

(٣) - واقعية المنهج القرآني ص ٩١

المطلب الثاني :

دلالتها على توحيد الألوهية :

معنى توحيد الألوهية :

الألوهية مشتقة من الإله ، والإله لغةً : هو الله ، قيل أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالبارى تعالى فالإله على هذا هو المعبود، وقيل هو من أله أي تحير . وتسميته بذلك : أن العبد إذا تفكر في صفاته تحير فيها .

وقيل أصله ولاه ، فأبدل من الواو همزة ، وتسميته بذلك ؛ لكون كل مخلوق والهًا نحوه ، إما بالتسخير فقط كالجُمادات والحيوانات ، وإما بالتسخير والإرادة معًا ، وقيل أصله من لاه يلوه لياها أي احتجب ، إلى غير ذلك من الأقوال .

وإله حقه أن لا يجمع إذ لا معبود بحق سواه لكن العرب لاعتقادهم أن هاهنا معبودات جمعه فقالوا الآلهة (الإله) كل ما اتخذ معبودًا ، و أله بالفتح إلهة، أي عبد عبادة (١)

اصطلاحًا : الإله هو المعبود الحق ، أي لا معبود بحق في الوجود إلا الله (٢)

فمن ما سبق يتضح الفرق بين الرب والإله عند أهل اللغة فمعنى الرب غير معنى الإله. فالأول يدل على الإحاطة والخلق والإيجاد والتربية، والثاني يدل على المعبود سواء كان بحق أو باطل .

قال ابن تيمية : "والإله المألوه الذي تأله القلوب ، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال ، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو ، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل ، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد " (٣)

معنى توحيد الألوهية شرعًا :

هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية على خلقه أجمعين ، وإفراده وحده بالعبادة كلها بأن لا يُعبد إلا الله سبحانه وتعالى لا يُصَلَّى ، ولا يُدعى ، ولا يُذبح ، ولا يُنذر ، ولا يُحج ، ولا يُعتمر ،

(١) - الصحاح ٦/٢٢٢٣ ، مادة (أله) ، مفردات غريب القرآن ١/٢١ ، تاج العروس ٣٦/٣٢٢-٣٢٤ ، المعجم الوسيط ١/٢٥٠ .

(٢) - الفتاوى الكبرى ٥/٢٢٨ ، وينظر : المجموع الثمين ٢/١٨

(٣) - اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٣٨٧

إلى غير ذلك من العبادات ، إلا الله سبحانه وتعالى ، يتغنى بذلك وجه الله - سبحانه وتعالى (١) ويسمى كذلك بتوحيد العبادة ، فإذا قيل توحيد الألوهية : فباعتبار الخالق عز وجل وإذا قيل توحيد العبادة فباعتبار المخلوق .

يقول الله - تعالى ﴿ يُزِلُّ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) ويقول - سبحانه - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣)

فهذا التوحيد هو الذي اتفقت عليه جميع الشرائع ، ودعا إليه جميع الأنبياء - عليهم السلام - ودافعوا عنه ، وسجل القرآن عنهم محاوراتهم مع أقوامهم ودعوتهم له ، وقد جاءت دعوتهم - عليهم السلام - في القرآن الكريم بصيغتين لهما نفس المدلول ، فالأولى : الأمر بعبادة الله - تعالى - وحده ، يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤)

وفي السورة نفسها يتحدث - سبحانه وتعالى - عن دعوة هود - عليه السلام - لقومه ، فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٥)

الثانية : النهي عن اتخاذ الأنداد والشركاء ، يقول - سبحانه - ﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٦) ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

(١) - مجموع الفتاوى ١٠/٦٦٩ ، تجريد التوحيد المفيد ص ٢٥ ، تطهير الاعتقاد ص ١٩٠ ، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ١/٢٤٥ ، دعوة التوحيد ص ٣٣ ، إغاثة المستفيد ١/٢٠ ، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات ١/٣٧

(٢) - سورة النحل الآية ٢

(٣) - سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٤) - سورة الأعراف الآية ٥٩

(٥) - سورة الأعراف الآية ٦٥

(٦) - سورة هود الآية ٢

خَلْفِهِ ۚ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ فهو مفتاح دعوة الرسل
 — عليهم السلام — فجميع الأمم لم يرسل إليهم الرسل إلا لطلب توحيد الألوهية ، وليس لتوحيد
 الربوبية فهم مقرون به كما مر سابقاً ،

ولهذا ترد الآيات بصورة استفهام تقريرى كقوله تعالى ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢)

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا ﴾ (٣) ويسمى هذا
 التوحيد أيضاً : بتوحيد الإرادة ، والتوحيد الطلبي ، وتوحيد العمل .
 قال ابن تيمية مبيناً أهمية توحيد الألوهية : " وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له
 التي خلق الخلق لها " (٤)

والعبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال ، والأعمال الباطنة والظاهرة ؛
 فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ،
 والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى
 الجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ،
 وأمثال ذلك من العبادة . وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين
 له... إلى غير ذلك من العبادات (٥) فكلها يجب أن تكون لله وحده .

ووصف الله — سبحانه وتعالى — أنبياءه بالعبودية ، وفي وصفه لهم بها تشریف وأي تشریف ،
 يقول الحق — جل وعلا — ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ (٦) فالله — سبحانه
 وتعالى — هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وقد أخطأ من خلط بين معنى الرب والإله
 وظن الترادف بينهما ، وفهم أن إقراره بأن القادر على الخلق والرزق وغيرهما من معاني الربوبية هو

(١) - سورة الأحقاف الآية ٢١

(٢) - سورة فاطر من الآية ٣

(٣) - سورة فاطر من الآية ٤٠ .

(٤) - العبودية ٤٤/١

(٥) - الفتاوى الكبرى ١٥٥/٥ ، العبودية ٤٤/١ ، الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة ص ١٧ ، معارج الألباب ص ١٨٩

(٦) - سورة الكهف من الآية الأولى

الله - تعالى - ، وأنه قد أصبح بذلك موحدًا فهذا الأمر غير صحيح بل إن الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد دون غيره فوقوا في الشرك ووسائله (١)

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم : "يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع، ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقولون بأن الله خالق كل شيء حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر وهم مع هذا مشركون" (٢)

لأن معناها كما لا يشتهبه أن يعبد الله ولا يشرك به

وليس معناها كما قد زعما مجرد النطق بلفظها فما

إذ لو أريد اللفظ قط لسهل على قريش قولها وما ثقل (٣)

ونظرًا لأهمية هذا التوحيد ؛ ركزت دعوات الرسل عليه ، وخصوصًا نبينا محمد _ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم _ فكان يدعو قومه بكل وسيلة ، ويطلبهم بالإقرار بالشهادة قولاً وعملاً ، فكانوا يؤذونه ويصدون الناس عنه ، ويسخرون من قوله ، ويحكي القرآن الكريم كلام المشركين

الذين كانوا يقولون ﴿ أَجْعَلُ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ ﴾ (٤)

وهذا النوع من التوحيد يتضمن في حقيقته نوعي التوحيد الآخرين : فيتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وليس العكس ، فليس من آمن بتوحيد الربوبية مقراً بربوبية الله _ تعالى _ ولا يقر بما تدل عليه من وحدانية في الألوهية ؛ فيشرك به غيره .

ومن هنا كانت شهادة التوحيد متضمنة لجميع أنواع التوحيد ، فتوحيد الألوهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين . فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٥)

(١) - اقتضاء الصراط المستقيم ٣٨٦/٢ ، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ٢١٢/١

(٢) _ بيان تلبيس الجهمية ٤٨٠/١ مجموع الفتاوى ٩٨/٣ ، اقتضاء الصراط المستقيم ٣٨٦/٢ ، درء تعارض العقل والنقل ٣٧٧/٩

(٣) - ديوان ابن مشرف ص ١٦

(٤) - سورة ص الآية ٥

(٥) - مجموع الفتاوى ٣٨٠/١٤

وهذا النوع من التوحيد هو معنى لا إله إلا الله ، والشهادتان أول ركن من أركان هذا الدين ، والمراد بها : لا معبود بحق إلا الله، فهي تنفي العبادة بجميع أنواعها من غير الله، وتثبتها بجميع

أنواعها لله وحده. قال تعالى ﴿وَاللَّهُكَرَّ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١)

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ (٢)

ولهذا لما وجد بين الناس من يسوي بين الخالق - سبحانه - والمخلوق بشئ من العبادة لم يتركهم سدى بل أرسل لهم الرسل والكتب ومعهم الدلائل والبراهين والمعجزات ، فاستحقوا الجزاء بعده إن خيراً فخير وإن شراً فشر يقول الحق - تعالى - ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ

فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَزَرَّ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٣)

واحتج عليهم - سبحانه - بربوبيته ، وحرك فطرتهم وخاطب عقولهم لإعادتهم إلى صوابهم رحمةً بهم وفضلاً منه - سبحانه - وإلا فهو الغني عنهم . يقول - تعالى - ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا

أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ (٤)

ولما كانت الأشجار والثمار من آيات الله - سبحانه وتعالى - ، ومن الدلائل على ألوهيته ، تكرر ذكرها كثيراً في القرآن الكريم ؛ للدلالة على توحيد الله - سبحانه - ، وقد جاء عرض الدلالات بصورة متنوعة ، فمرةً يخاطب الله عقولهم وفطرتهم ، وتارةً يريهم آياته الكونية وقدرته على بعثهم ، ويتضمن ذلك تعداد نعمه عليهم التي تستوجب منهم الشكر وإخلاص العبادة له من أصحاب العقول النيرة ، ذوي البصائر السليمة ، أما الذين عموا وطمسوا فلن يستفيدوا شيئاً .

فالعقل السليم يُستدل به على هذا النوع من التوحيد ، وكذلك الفطرة تشهد عليه كسائر أنواع التوحيد ، فالعقل به تميز الإنسان على سائر المخلوقات ، وأكرمه به ، فهو يميز به بين الحسن والقبيح في كل الأمور ، وعليه فإن العقل يدرك حسن عبادة الله - تعالى - لاتصافه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن كل نقص ، فيدرك حسن التوحيد ، ويرغب في الأجر ، فنفسه البشرية تميل

(١) - سورة البقرة الآية ١٦٣

(٢) - سورة المائدة من الآية ٧٣

(٣) - سورة الإسراء الآية ١٥

(٤) - سورة الذاريات الآية ٥٧

إلى من ينفعها ، ويعرف كذلك قبح الشرك ، فكل ما هو دون الله فهو من خلق الله _ تعالى _ فكيف يعبد من دون الله ويساوى به وهو دونه ؟ يقول المقرئزي (١): " واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوما بالعقل مستقرا في الفطر ، فلا وثوق بشئ من قضايا العقل ، فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر " (٢) وكذلك الفطرة فالإنسان في قرارة نفسه يعلم ويقر أن له ربًّا خالقًا رازقًا منعمًا قادرًا قاهرًا " والطريق الفطري لإثبات توحيد الإلهية الاستدلال عليه بتوحيد الربوبية . فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ومنشأ نفعه وضره ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الوسائل التي تقربه إليه وترضيه عنه وتوثق الصلات بينه وبينه فتوحيد الربوبية باب لتوحيد الألوهية " (٣)

سُئل بعض الفقهاء عن دلائل وجود الصانع _ سبحانه _ فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنعومات .

وكذلك القصة المشهورة التي تروى عن أبي حنيفة (٤) وهي : أن بعض الزنادقة سأله عن وجود البارئ - تعالى - فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يجرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ، فقال : ويحكم هذه الموجودات بما

(١) - هو : تقي الدين المقرئزي ، مؤرخ الديار المصرية ، أصله من بعلبك ، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه) ولد ونشأ ومات في القاهرة ، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة ، توفي سنة ٨٤٥ . ينظر : التبر المسبوك ص ٢١ ، الضوء اللامع ٢١/٢ ، الأعلام ١٧٧/١

(٢) - تجريد التوحيد المفيد ص ٢٤

(٣) - مذكرة التوحيد ص ٢٩

(٤) - هو : النعمان بن ثابت ، الفقيه المحدث ، صاحب المذهب . ولد بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان ، وعاش بما أكثر حياته كان ذكياً فطناً سريع البديهة قوي الحجة حسن الهيئة والمنطق كريماً مواسياً لإخوانه زاهداً متعبداً . ويعتبر أبو حنيفة من التابعين حيث لقي بعض الصحابة من الصحابة: كأنس بن مالك ، وروى عنهم الكثير ، ذلك أكثر حياته ، توفي ببغداد سنة ١٥٠ .

الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ١٢٢/١ سير أعلام النبلاء ٣٩٠/٦ ، تاج التراجم ص ٤٨ ، أخبار أبي حنيفة ٥١/١ ، معجم الفقهاء ص ٥

فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فهبت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه (١).

ومن دلائل الفطرة : التجاء جميع الكائنات لله _ سبحانه وتعالى _ في وقت الشدة والضيقة ، فالإنسان في هذا الوقت يرجع له عقله وفطرته ، فيدرك أن الآلهة لا تنفعه ولا تضره ، ومع ذلك يساويها مع الله بشئ من العبادة .

حتى فرعون آمن بالله لما أدركه الغرق ، فعلم أنه لا ملجأ منه إلا إليه _ سبحانه _ مع أنه كان يعبد من دون الله _ تعالى _ .

والآيات التي تبين التجاء الناس إلى الله في وقت الضرر كثيرة ، منها : قوله - تعالى - ﴿ وَإِذَا

مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ

يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وقوله - تعالى -

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ

الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

ومن أبرز الأساليب القرآنية في الاستدلال على توحيد الألوهية هو : دلالة تفرده _ سبحانه _ بالربوبية ؛ فعليه ينبغي تفرده كذلك بالألوهية ، والاحتجاج بذلك عليهم ، وكل الأساليب القرآنية التي تثبت توحيد الربوبية هي كذلك دليل على توحيد الألوهية .

وبالإضافة إلى مخاطبة العقل والفطرة ، وإثارتها ، ومسح ما ران على الفطرة من أدران ، يستشهد _ سبحانه _ بما في الكون من آيات دالة تشهد على قدرته _ سبحانه _ ، ومخاطبة الكفار تارةً بالتسفيه ، وأخرى بالتعجيز لهم وآلهتهم ، ومرات بتزيين التوحيد والتنفير من الشرك ، والآيات التي تخاطب العقول ، وتأمّر بالتدبير والنظر كثيرة ، قال ابن تيمية : " وهذا كثير في القرآن : يأمر

(١) - تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٧ ، التفسير الكبير ٢/ ٣٣٤

(٢) - سورة يونس الآية ١٢

(٣) - سورة النحل الآيات ٥٣ _ ٥٤

ويمدح التفكير والتدبر والتذكر ، والنظر والاعتبار والفقہ والعلم والعقل ، والسمع والبصر والنطق ، ونحو ذلك من أنواع العلم وأسبابه وكماله ، ويذم أضداد ذلك " (١) فللعقل ثمرات ، منها : " أنه من دل على الإله ، وأمر بطاعته ، وامتنال أمره ، وثبت معجزات الرسل وأمر بطاعتهم ، وتلمح العواقب فاعتبرها فراقبها وعمل بمقتضى مصالحها ... " (٢)

دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية :

المقصود من هذه الدلالة هو : التوضيح بضرب الأمثلة كيفية اعتبار توحيد الربوبية ، وإقراره به دليلاً على توحيد الله وإفراده بالعبادة . وقد جاءت آيات كثيرة بذكر لفظ الربوبية أو النص على بعض خصائصها : كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير وغيرها . وسأتناول بإذن الله ما استقرت من الآيات الكريمة التي تتعلق بموضوع البحث . وقبل البدء بها أشير إلى التشابه الشديد في الآيات ، ودلالاتها ، فدليل الربوبية يصح أن يكون دليلاً على الألوهية .

والكلام عن هذه الدلالة سيكون في مسائل ثلاث :

المسألة الأولى : آيات جاءت للاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، وفيها :

أ _ تعريف الخلق بخالقهم ، وآثاره التي يرونها حولهم .

ب _ انفراده بصفات الربوبية والكمال المطلق _ سبحانه وتعالى _ .

ج _ تعجيز آلهتهم المزعومة .

المسألة الثانية : الاستدلال بالكون ، وتشمل :

أ _ وحدة النظام في الكون .

ب _ عرض لبعض آيات القدرة والنعمة عليهم .

ج _ تسخير المخلوقات لأداء وظائفها ، والقيام بخصائصها .

المسألة الثالثة : أساليب أخرى استدلت بها القرآن على جهلهم وشركهم .

(١) - الاستقامة ١٥٩/٢

(٢) - ذم الهوى ص ١٠

المسألة الأولى : آيات جاءت للاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية :

جاءت في القرآن الكريم الدعوة لتوحيد الربوبية ، وأنه مستلزم لتوحيد الألوهية ، في آيات كثيرة جداً وكثيراً ما يسوقها الله _ سبحانه وتعالى _ لدلائلها على أنه _ سبحانه _ الخالق والرازق والمحيي والمميت ، وغيرها من خصائص الربوبية :

أ _ تعريف الخلق بخالقهم ، وآثاره ونعمه عليهم :

وتعتمد هذا الأدلة على إثارة العقل والوجدان للتعرف على الخالق _ سبحانه وتعالى _ والاستدلال بهذه المخلوقات على وحدانية الله _ تعالى _ فكل مخلوق لا بد له من خالق ؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من دون خالق فيعرض القرآن الكريم هذه الحقيقة بطريقة تصويرية شاملة متكاملة ، ويطوف بالمخاطب في مجالات كثيرة علوية وسفلية ، والعلاقة بينها ، ثم يبرز النتيجة الحتمية لهذه القدرة ويوجه العقل والوجدان للنتيجة ومن ثم الاقتناع بها .

وفي حديث القرآن الكريم عن توحيد الربوبية يسوق _ سبحانه _ الأدلة في الأنفس ، وفي الكون حولهم ، والتي تبين بجلاء خلقه لما في الكون كله ، إضافةً إلى مدى عنايته _ سبحانه _ بخلقه وتكفله برزقهم وتدبير معيشتهم ، وتسخير ما في الكون لهم ، فجميعها تدل على ربوبيته ووحدانيته ومن ثم يقرّر الكفار بهذه الحقيقة ، ويواجههم بها ، ويبيّن مدى جهلهم وضلالهم . فالمشركون عموماً مقرون ومعتزفون بأن الله _ سبحانه وتعالى _ هو ربهم وهو من خلقهم ورزقهم ، ولكنهم جعلوا معه شركاء في العبادة .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

الأنداد : جمع ند ، وهم الشركاء . قال العلماء : هذا أول نداء في المصحف الشريف للناس يدعوهم لعبادة الله وحده ، وإخلاصها له _ سبحانه وتعالى _ حتى لا تبطل عبادتهم بالإشراك مع الله _ سبحانه وتعالى _ ، فذكر _ سبحانه وتعالى _ أنه من خلقهم ، وخلق من قبلهم ، فلعلّ تذكرهم هذا يعينهم على تقواه _ سبحانه وتعالى _ ، والآيات التي تتحدث عن خلق الله للكون

كثيرة جدًا ؛ لأن فيها الدلالة القاطعة على ألوهيته فمن يخلق غيره و هو المعبود وحده ، ومن لا يخلق شيئًا لا يصح أن يعبد .

وذكر ابن كثير احتمالين عند تفسير قول الرسل لأممهم الكافرة في قوله - تعالى - ﴿ قَالَتْ

رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١)

أحدهما: أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به .

والثاني : أفي إلهيته وتفردته بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات (٢)

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا " ومن كثرة الآيات القرآنية ، الدالة على إقامة هذا البرهان ، القاطع المذكور ، على توحيده جلّ وعلا ، علم من استقراء القرآن ، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ، وبين من لا يستحقها ، هي كونه خالقًا لغيره ، فمن كان خالقًا لغيره ، فهو المعبود بحق ، ومن كان لا يقدر على خلق شيء ، فهو مخلوق محتاج ، لا يصح أن يعبد بحال" (٣) ثم بدأ _ سبحانه _ بتعداد نعم أخرى غير الخلق ، تثبت وحدانيته واستحقاقه العبادة وحده ومنها :

١ _ أنه _ سبحانه _ هو الذي جعل لهم الأرض كالفراش ممهدة ، ميسرة لهم ، وسهل لهم السير فيها وطلب المعاش، وجعلها كالفراش أخص أحوال الاستقرار (٤) وقد ينسون هذا الفراش لاعتيادهم عليه ، ولعدم تذكّره لهم فنبههم الله _ سبحانه وتعالى _ عليه وذكّرهم بفضله عليهم بتسخير الأرض ومن عليها لهم ، وتيسير وسائل الانتفاع منها ، ولولا كونها كالفراش لهم ، وتسخير المخلوقات الأخرى لهم ، وخلقها بقدر وتوازن لما استطاع البشر العيش عليها .

وبدأ بها قبل السماء ؛ لقرّبها منهم ولأنهم يرونها حولهم .

(١) - سورة إبراهيم من الآية ١٠

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٨٢

(٣) - أضواء البيان ٧ / ٣٦٦

(٤) - التحرير والتنوير ١ / ٣٣١

٢ _ وهو _ جل في علاه _ من جعل السماء لهم كالبناء (١) ، والمراد بالسماء هنا إطلاقها العربي عند العرب وهو ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض ، ففي هذا البناء متانة ووقاية للأرض من أخطار الشهب وغيرها ، وتعين الناس على العيش على الأرض ، وخلقها عجيب يشي بقدرة الخالق _ سبحانه _ فلا غرو أن ذكرت مع الأرض في معرض سوق الأدلة على استحقاق الخالق للعبادة ، وامتنانه على عباده _ سبحانه _ .

٣ _ ثم تحدث _ سبحانه _ عن دليل آخر وهو : إنزال المطر من السماء ، و هذا الإنزال يتردد كثيراً في الآيات القرآنية ، فهذا الإنزال يدل دلالة قوية على قدرة الله - سبحانه وتعالى - وعلى عظم نعمه على الناس ، ففي هذا الماء حياة لكل شئ سواء أنبت الزرع مباشرةً ، أو تكونت منه مياه الآبار والعيون والأنهار ، فعليه تتوقف الحياة ، فهو مادتها ففيه كل شئ حي .

٤ _ ونتيجة لهذا الماء النازل من السماء تخرج الثمرات من باطن الأرض والثمرات : جمع ثمرة ، ثم مثل شجر وفيها الخير كل الخير للإنسان ، فهو من ينتفع منها سواء كان بطريقة مباشرة ككونها غذاء ودواء وسائر المنافع التي ينتفع منها ، أو كونها غذاء لأنعامه ومواشيه التي يعود نفعها عليه مرةً أخرى ، فهل يبقى للإنسان بعد هذه الدلائل شك في استحقاق الله للعبادة ؟ والعياذ بالله من الشرك وأهله .

فيحتج عليهم _ سبحانه _ بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .
وبين الزمخشري سبب تعداد تلك النعم بقوله : " ليكون لهم ذلك معتبراً ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ، ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم ، وإن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلهما حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً" (٢)

(١) - من آيات حفظ الله _ سبحانه وتعالى _ أن جعل السماء والحزام الجوي حول الأرض كالسقف يحفظ الأرض من المخاطر والمهالك العظيمة ، ومن النيازك ، والشهب المحرقة ، ومن الانفجارات الفضائية بين الشهب وأصواتها الرهيبة التي تودي بحياة الإنسان ، ومن أشعة الشمس المميتة حيث تعكسها وتبقي منها الجزء اليسير ليصل إلى الأرض ويقدم النفع للحياة فالإشعاعات الكهرومغناطيسية التي مصدرها الشمس وأهمها السينية وفوق البنفسجية الفتاكة تفقد طاقتها لتأمينها بالغلاف الجوي للأرض عند اختراقها له وتحدث غلافاً من البلازما يحيط بالأرض ... ، ينظر : آيات الله للأميري ٤٠٣/١

(٢) - الكشف ١٢٤/١

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (١) - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله ، أي الذنب أعظم؟ قال: " أن تجعل لله نداً ، وهو خلقك " (٢) فإن في خلق الله لك أيها الإنسان دليل على استحقاقه الأفراد بالعبادة ، ونبذ الأنداد .

وعلق ابن القيم عند تفسيره ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بقوله : وضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته ؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه ، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا ، وكل ذرة من العبد ، فمملوكه له ملكاً خالصاً حقيقياً ، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ، ولهذا قال : اعبدوا ربكم ، ولم يقل إلهكم والرب : هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح ، والله - تعالى - هو الرب بهذه الاعتبارات كلها ، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له .

ثم قال الذي خلقكم فنبه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده ، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم (٣) وفي هذا النداء الخالد تبرز حقيقتان هما :

وحدة الخالق لجميع المخلوقات ، ووحدة النظام الذي يسير عليه الكون ، والفضل في هذا كله لله - سبحانه وتعالى - فوحدوه وأخلصوا العبادة له ، ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِدَّ له - سبحانه وتعالى - ولا شبيهه ولا مثيل ، وأنه واحد متفرد في خلقه وتدبيره وإبداعه لهذا الكون .

(١) - هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أحد السابقين الأولين ، أسلم قديماً ، وهاجر المجرتين ، وشهد بدرًا ، والمشاهد بعدها ، ولازم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان صاحب نعليه ، ومن كبار البدرين ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين ، وحفظ من في رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سبعين سورة ، وتسمع عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة وهو يدعو فقال: سل تعطه، وقال: "من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة بن أم عبد" توفي سنة ٣٢ .

أسد الغابة ٢٩٤/٣ ، الإصابة ١٢٩/٤ ، تذكرة الحفاظ ١٧_١٦/١

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : { فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون } ، ح ٤٤٧٧ ، ص ٣٦٧ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ، ح ٢٥٧ ،

ص ٦٩٣

(٣) - بدائع الفوائد ٩٥٣/٤

وفسر ابن عباس الأنداد في هذه الآية بالشرك فقال : "الأنداد هو الشرك" (١) ، أخفى من ديب النمل على صفاء سوداء في ظلمة الليل. وسياق هذه الآية في الشرك الأكبر وهي عامة في الأصغر والأكبر كما ذكره ابن عباس ، وغيره .

ونلاحظ في الآية الكريمة السابقة أن الله _ سبحانه وتعالى _ جمع بين دليلي الاختراع والعناية ، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية _ يقول _ رحمه الله _ : جميع الموجودات خلقت من أجل الإنسان وهذه دلالة العناية ، أما ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجمادات فهذه دلالة الاختراع .

ودلالة العناية تبني على أصلين : أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان .

والثاني : أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد .

أما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله والنبات والسموات .

وهذه الدلالة كذلك مبنية على أصلين موجودين في فطر الناس .

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات ومسخر للإنسان ، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة .

والثاني : أن كل فلك يحرك ويؤثر في غيره (٢) وذكر ابن القيم تضمن هذه الآية لهذين الدليلين (٣)

وكل شيء في هذه الدنيا يدل على كون الله _ سبحانه وتعالى _ الخالق وذلك من أربعة أوجه :

١ _ وجود هذه الأشياء وتكوينها يدل على كون الصانع .

٢ _ استقامتها يدل على توحيدده وهو استقامة الليل والنهار والشتاء والصيف وخروج الثمرات وحدوث كل شيء في وقته لأن المدبر لو كان اثنين لم تكن على الاستقامة .

٣ _ تجانسها يدل على أن الخالق واحد عالم حيث خلق الأشياء أجناسًا مختلفةً .

٤ _ وتماثل الأشياء يدل على أن خالقها قديم قادر (٤)

يقول ابن كثير : " فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها

(١) - تفسير القرآن العظيم ١ / ١٩٦ ، فتح القدير ١ / ٥٢ ، قرّة عيون الموحدين ص ٢٠٤

(٢) - درء تعارض العقل والنقل ٩ / ٣٢١ - ٣٢٣

(٣) - بدائع الفوائد ٤ / ٩٤٤

(٤) - بحر العلوم ١ / ٦٠

وطباعتها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه " (١)

وجاء ترتيب تلك الدلائل بطريقة التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقيًا إلى الأخصى فالأخصى ، فالاستدلال بنفس الإنسان مقدم على غيره ؛ لأن اطلاع الإنسان على نفسه أتم من الاطلاع على غيره ، وقدّم _ سبحانه الاستدلال بالأرض على السماء ؛ لأن الإنسان أعرف بحال الأرض منه من السماء وهكذا (٢)

واحتوى القرآن الكثير من الآيات التي تقرر توحيد الربوبية وتجعله ملزم لتوحيد العبادة ومنها الآية

الكريمة الأخرى في نفس السورة وهي قوله - تعالى - ﴿ وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

وفي هذه الآيات الكريمة يقرر _ سبحانه _ أنه هو إله واحد وهو المستحق للعبادة ، ثم يستدل _ سبحانه وتعالى _ بهذا الخلق الغريب والبناء العجيب للكون استدلالاً بالأثر على المؤثر ، وبالصنعة على الصانع ، وعرفهم طريق النظر والتفكير ، فبدأ أولاً بذكر العالم العلوي بخلق السموات وما فيها من عوالم وأفلاك كل يجري إلى أجل مسمى في مداره ، ومع هذا نظمت تنظيمًا دقيقًا بقدرته وعظمته ، ثم الأرض ، ثم أشار _ سبحانه _ لنعمة اختلاف الليل والنهار ، وما في الضياء من الفوائد للناس ، وما في الظلمة كذلك ؛ لحصول راحتهم وسكونهم . وهذه السفن الشراعية والبخارية التي تجرى على الماء ، وقد دُئل لها البحر ؛ لتنفع الناس في تنقلاتهم وتجارتهم ، فلا بد لها من قوة صادرة من حكيم خبير واحد رحمن رحيم بعباده .

(١) - تفسير القرآن العظيم ١/١٩٧

(٢) - التفسير الكبير ٢/٣٣٦ ، عجائب القرآن ص ٢٨ ، نظم الدرر ١/٥٦

(٣) - سورة البقرة الآيات ١٦٣ - ١٦٤

ومن بديع هذا الخلق أن جعله الله - تعالى - يمد بعضه بعضاً بما يحتاجه ، فلا ينقص من الممدّ شيء ، لأنه يُمدّه غيره بما يُخلف له ما نقص ، وهكذا نجد الموجودات متفاعلة (١) وختم الله - سبحانه وتعالى - الآية منبهاً للإنسان إلى نعمة العقل التي ميزه بها على سائر المخلوقات فيطلب منه إعمال فكره وعقله في بدائع صنع الله ، وجميل خلقه ؛ ليستدل العاقل بالأثر على المؤثر ، وبالصنعة على عظمة الخالق الحكيم .

ودلالة هذه المخلوقات على رحمة الله - سبحانه وتعالى - ظاهرة جلية ، وفيها تذكير للمشركين بأن لا ملجأ لهم من الله - تعالى - إلا إليه ، فليؤمنوا به وليرجعوا إليه فهو الواحد الرحيم - سبحانه - .

وهذه الآية وأمثالها تفتح بصائر الناس إلى مافي الكون من عجائب ومنن ، تدل على وحدانية الخالق والتي قد ينساها البشر ؛ لأنهم ألفوا وجودها ، أو لعدم تدبرهم وتفكرهم فيها .

فمن خلق هذه المخلوقات بهذه الأوصاف البديعة ، وعلى هذا النظام العجيب ، والخلق الكامل ، والإحكام والحسن والتسوية ، هو المتفرد بالربوبية والألوهية ، ومن كان هذا شأنه فهو الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له ، ويشكر ويذكر ، وهي دليل على سعة رحمته ، وعموم فضله و، كرمه وجوده وإحسانه .

ومن دلائل قدرته وآثاره التي يراها الإنسان ما جاء في قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

تحدث هذه الآيات عن بعض دلائل قدرة الله العظيمة ، وعنايته بمخلوقاته ، فهذا الماء النازل من السماء يؤثر على الأرض تأثيراً عجيباً ، فعليه قوام حياة الإنسان والحيوان ، فيخرج منه الخضر ، وهو : الزرع الأخضر ، وفي هذه الآية إشارة إلى معجزة باهرة وهي دور النبات الأخضر في

(١) - التحرير والتنوير ٧٨/٢

(٢) - سورة الأنعام الآية ٩٩

عمليات التمثيل الضوئي^(١) ، ونمو النبات والأوراق وظهور الثمار ، فمن هذا الخضر يخرج أنواع الأشجار والنباتات فمنها : الحب المتراكب الذي يركب بعضه بعضاً ، كسنبال القمح والشعير ونحوهما ، ومنه : النخيل الباسقة ، والجنت المختلفة من الأعناب والأشجار المختلفة ، والتي تبدو متشابهة في أوراقها وأشكالها ، ولكنها مختلفة الطعم واللون .

وفي ختام الآية أمر للناس بالتفكير والنظر إلى الثمرة وكيفية تكونها في النبات من البذرة حتى أصبحت ثمرةً يانعةً ، وانظروا إلى ألوانها وأحجامها وأنواعها .

وفي النظر إثارة للعقل والوجدان مما يؤدي إلى معرفة الله الحق ومن ثم إفراده بالعبادة ؛ لذلك ذم

الله _ سبحانه وتعالى _ المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال _ سبحانه _ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ

شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ

﴿ ١٠٠ ﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِيبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ٢ ﴾

وهذه الأشجار المختلفة سواء كانت صغيرة أم كبيرة ، وإن بدت أفراد جنسها في شكلها وثمارها متشابهة ، إلا أنها في الحقيقة غير متشابهة ، ففيها فروق كثيرة دقيقة ، وهذا من بديع الخلق .

قال الطبري عند تفسير هذه الآية : " أيها الناس ، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره ، وعند ينعه وانتهائه ، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه ، علمتم أن له مدبراً ليس كمثلته

شيء ، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد ، وكان فيه حجج وبرهان وبيان لقوم يؤمنون " (٣)

(١) - هذه العملية من أهم العمليات ولا زال العلماء لا يعرفون طريقة لهذا التمثيل في تحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية ، وهذه العملية يأخذ النبات نسباً مقدرة من الماء _ بواسطة امتصاصه من التربة _ مع مقدار من ثاني أكسيد الكربون _ من الهواء _ عن طريق مسامات الورقة مع مقادير من المادة الخضراء فيه بالإضافة إلى مساعدة ضوء الشمس ويتبع هذا بضع عمليات كيميائية ينتج منها مواد سكرية ، وأوكسجين ، ومواد حيوية كالبروتينات والدهون وهي من المواد غير العضوية الثابتة دون مساعدة مواد أخرى غير ضوء الشمس . ينظر : آيات الله للأميري ٢٤٥/١ ، علم العقاقير والنباتات الطبية ص ٥٣ _ ٥٦

(٢) - سورة الأنعام الآيات ١٠٠ _ ١٠١

(٣) - جامع البيان ٥٨٢/١١ وينظر : البحر المحيط ٤/١٩٥ ، نظم الدرر ٢/٦٨٤ ، إرشاد العقل السليم ٣/١٦٧

وفي سورة النحل بينَ - سبحانه - فحوى ما أرسل به الرسل وأنهم مبشرون ومنذرون ، فقال - سبحانه - ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (١) دَلَّلَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ - سبحانه - بِمَخْلُقِ جَمَلَةٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَخَلَقِ الْإِنْسَانَ ، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي فِيهَا مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ، ثُمَّ قَالَ - سبحانه - عَنْ نِعْمَةِ مَا تَفْتَأُ تَتَرَدَّدُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهِيَ نِعْمَةُ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا مِنْ حَيَاةِ الْأَرْضِ ، وَمِنْ ثَمِّ حَيَاةِ الْبَشَرِ وَأَنْعَامِهِمْ ، وَتَسْخِيرِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا لَهُمْ قَالَ - سبحانه - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

ثم ختم الآيات - سبحانه - بالنص على وحدانيته ، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له كما بدأها - سبحانه - بذكرها فقال - تعالى - ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣)

وفي نفس السورة الكريمة كالمثال السابق فبعد أن نهي الحق - سبحانه وتعالى - عن اتخاذ آلهة فهو الإله الواحد الأحد وله كل ما في السماء والأرض ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنَّتَى فَاَرْهَبُونَ ﴾ (٤) دَلَّلَ بَعْدَهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بِآيَاتٍ وَدَلَائِلَ كُونِيَّةٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْ

(١) - سورة النحل الآية ٢

(٢) - سورة النحل الآيات ١٠-١٣

(٣) - سورة النحل الآيات ٢٠-٢٢

(٤) - سورة النحل الآية ٥١

ضمناها : نعمة الأشجار والثمار التي فيها الرزق للإنسان ، قال _ جل شأنه _ ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾

فهو _ سبحانه _ من أنزل الماء من السماء ، فأحيا به الأرض الميتة ، فأنبت الأنواع المختلفة الألوان والطعوم والأشكال والأحجام ، وهو القادر الذي يخرج اللبن الصافي من بين فرث ودم ، وكل هذه الدلائل آيات وعلامات لمن يستخدم عقله ويتدبر هذه الآيات من حوله ، وغيرها التي ذكرها الله _ سبحانه وتعالى _ بعدها ، إلى أن قال _ سبحانه _ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَتَّبِعُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ ﴿٢﴾

في هذه الآيات امتداد لبيان نعم الله على خلقه ، وتعداد آيات الله على عباده بعد ما ثبت أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ، وفي هذا تنفير من الشرك وغرس لبذور التوحيد ، وكشف لمظاهر قدرة الله ونعمه علينا ، وهذه النعم الوافرة والقدرة التي لا يحدها حد هم يعرفونها ، ولكنهم يعرضون عنها إنكاراً ومكابرةً ، فلا يشكرون المنعم _ سبحانه _ فإن النعمة تقتضي أن يشكر المنعم عليه بها من أنعم عليه ؛ فلما عبدوا ما لا ينعم عليهم ، وليس له حول ولا قوة ، فكأنهم أنكروا نعمته _ سبحانه _ فليس عليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ الواضح وقد أدبت الرسالة وبلغت الأمانة ولكن نفوس الكفار والمشركين مظلمة ضالة .

وفي سورة الزخرف يقرر الحق _ جل في علاه _ كما في الآيات السابقة اعتراف المشركين بالربوبية وخلق الكون وما فيه فيكون قولهم هذا حجة عليهم فكيف يشركون معه شركاء ، وكيف يناقضون

أنفسهم ويحجدون نعم الله _ تعالى _ عليهم فيقول _ سبحانه _ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا

(١) - سورة النحل الآيات ٦٥ - ٦٧

(٢) - سورة النحل الآيات ٨٢ - ٨٣

بِهِ بَلَدَةٌ مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا
سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا
لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ
بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴿١﴾

في الآيات الكريمة استدلال على بعض مظاهر عناية الله بخلقه بعد خلقهم وإيجادهم ، ومنها :
تمهيد الأرض وتذليلها للانتفاع بها في السير والتنقلات والعمل والراحة لعلكم تهتدون أيها البشر .
وحقيقة الهداية هي : الدلالة على المكان المقصود ، ومنه سمي الدال على الطرائق هادياً ، وتطلق
على تعريف الحقائق المطلوبة .

ومن أسماء الله _ سبحانه وتعالى _ الهادي ، والهدى : خلاف الضلالة ، وهو : الرشاد
والدلالة (٢)

ومقصود الهداية في هذه الآية : رجاء حصول علمكم بوحداية الله ، وبما يجب له ، فالله
- سبحانه وتعالى - هو الهادي ، و هو - سبحانه - الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته ،
حتى أقروا بربوبيته ، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده .

ثم يعدد _ سبحانه _ بعض مظاهر رزقه لهم ، ومن هذه المظاهر : إنزال الماء من السماء بقدر
معلوم محدد اقتضته حكمة الخلق ، وتدبير حياتهم فلا يكون مغرقاً لهم وأراضيهم ، ولا يكون
شحيحاً بل بقدر موزون تحيا به الأرض الميتة ، كما قال _ سبحانه _ في آية أخرى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٣﴾

فانظروا إلى هذه القدرة والعظمة نظرة اعتبار ؛ لأنكم ستخرجون للبعث والحساب كما تخرج النبتة
بالمطر .

(١) - سورة الزخرف الآيات ٩-١٦

(٢) - الصحاح ٦/٢٥٣٣ ، مادة (هدى) ، معجم مقاييس اللغة ٦/٤٢ ، مادة (هدي) ، مفردات غريب

القرآن ١/٥٣٨ ، لسان العرب ١٥/٣٥٣

(٣) - سورة المؤمنون الآية ١٨

و بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالربوبية و بالألوهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث ، وإبطال إحالتهم إياه ، ذكرهم بأنهم سيخرجون من قبورهم للحساب كما يخرج النبات بالماء .

وفي التعبير عن إخراج النبات بالانشار الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج فيه : تفخيم الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وفي ذلك من الرد على منكريه ما فيه (١) ثم استدل بقدرته _ سبحانه _ وحكمته في تنوع المخلوقات كلها ، وجعل لكل فرد زوجًا من جنسه أو من نوعه ، فهما يتكاملان في السير بنواميس هذا الكون : كالذكر والأنثى ، وكالسالب والموجب في الكهرباء والذرات .

وبتسخير الأنعام للإنسان لعلمهم يتذكرون حال ركوبها نعمة الله عليهم ، فيشكرونه ويعترفون بفضلها ويقولون : جلَّ شأنه ، وتنزه عن الشريك والمثيل ، فهو _ سبحانه _ من أقدرنا على ركوبه والانتفاع به وجعله منقادًا لنا طائعًا فلسنا بقادرين لذلك ولا مطيقين ، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ، وهو المعبود المستحق للعبادة وحده دون شريك . وفي هذه الآيات مجتمعة عدَّد الله الخيرات والمنافع من آثار رحمته وقدرته عليهم فهو استدلال على ربوبيته وألوهيته مشوب بالامتنان ، كما عدَّدها عليهم في مواضع أخرى ، منها :

قوله _ تعالى _ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفِكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ نَّزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ (٢)

في هذه الآيات الكريمة يذكر الله _ سبحانه وتعالى _ اعتراف المشركين بربوبيته للخلق وأنه من يرزقهم ويرزق غيرهم من الدواب ، وأنه _ سبحانه _ المستقل بخلق السماوات والأرض وأنه من ذلل الشمس والقمر ، وسخر الليل والنهار لمنافع الناس ، وتخصيص تسخير الشمس والقمر

(١) - روح المعاني ٦ / ٢٩٤

(٢) - سورة العنكبوت الآيات ٦٠ - ٦٣

بالذكر من بين مظاهر خلق السماوات والأرض لما في حركتهما من دلالة على عظيم القدرة ، مع ما في ذلك من المنة على الناس إذ حركتهما متعلقة بأوقات النهار والليل واختلاف فصول السنة . وعند سؤال المشركين عن الخالق لها فلن يترددوا بالإجابة فسيقولون : الله - تعالى - هو الذي فعل ذلك بقدرته وهو من ييسر الرزق بإرادته وحكمته ، فكيف يصرفون عن عبادة الله ، وفي قوله تعالى لهم إنكار وتعجيب من فعلهم وتناقضهم ومن انحراف تفكيرهم وتركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم ، وأمر رسوله بالحمد له تعالى ؛ لأنه هو _ سبحانه _ مستحق الحمد والثناء وفي إقرارهم توحيد الله بالإبداع ونفي الشركاء عنه حجة عليهم ، حيث أسندوا ذلك إلى الله وعبدوا الأصنام فأكثرهم لا يعقلون .

ب _ انفراده بصفات الربوبية والكمال المطلق _ سبحانه وتعالى _ .

وفي سورة يونس آيات كثيرة تخاطب فطرة الإنسان وتستجيش وجدانه بلغة مفهومة سهلة ؛ لتقرير حقيقة ربوبية الله _ سبحانه وتعالى والتي كانوا مقرين بها كما ورد في آيات كثيرة ، وهذا الإقرار يستلزم منهم كذلك توحيد العبادة ، وجاء هذا التقرير بصيغة الاستفهام التقريري والحوار فقال

تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ

اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنْتَ تَصْرَفُونَ ﴿١﴾

في هذه الآية أيضاً تقرير للكفار بما هم مقرين به وهو ربوبية الله _ سبحانه وتعالى _ واحتجاج عليهم بصيغة السؤال وطلب الجواب عن خمسة أمور هي :

١ _ من يهبهم الرزق الوفير الواسع الذي لا يأتيهم من الأرض فقط بل من السماء والأرض ؛ ليفيض عليهم نعمته وواسع رحمته ، فهذه الأرزاق التي يحصلون عليها بأسباب سماوية كالمطر وحرارة الشمس الملائمة ، وغير ذلك ، وأرضية : كترية ونباتات متنوعة ، وحيوانات مختلفة وغيرها . الرزق : مصدر رزق يرزق رزقاً ورزقاً ، فالرزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ، والرزق : العطاء. وقيل الشكر ، وقد يسمى المطر رزقاً ، و يقال للعطاء الجارى : الرزق سواء كان دنيوياً أم أخروياً ، وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة ، يقال أعطى

السلطان رزق الجند، ورزقت علما ، والرزق ما يَنْتَفِع به الإنسان فيطلق على الطعام والثمار ، ويطلق على أعمّ من ذلك ممّا يَنْتَفِع به (١)

٢ _ وهذه الحواس التي يتمتعون بها من وهبهم إياها وحفظها من الآفات والأخطار ، وخص _ سبحانه _ هاتين الحاستين بالذكر ؛ لأنهما اشتملتا في تركيبهما على ما بهر العقول ، من عجيب صنعه _ تعالى _ في خلقه ، فعليهما مدار حياة الحيوان ، وكمال حياة الإنسان ، ولهما أعظم الأثر في حياة الإنسان (٢)

٣ _ ويسألهم أيضًا عن المدبر لهذا الكون ، الذي ينظم عملية تكاثر الكائنات والذي به بقاء النوع لكل المخلوقات ، فمن غير الله _ تعالى _ يملك القدرة على إخراج النبات الحي من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حي من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .

٤ _ ومن يدبر نظام هذا الكون من إحياء وإماتة ، وتعاقب السنين ، والأجيال ، ومن يدير الكواكب في السماء ، ومن يقلب أحوال العباد ، وهذا السؤال من باب التعميم بعد التخصيص لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .

فكلها هبات من الله وهم كانوا يعلمون أن جميع ما ذكر لا يفعله إلا الله _ سبحانه وتعالى _ ولذا لا يملكون إلا الإجابة على هذه الأسئلة الخمسة : بأن واهبها هو الله _ تعالى _ فهم لم يكونوا ينسبون هذه الأفعال لأصنامهم . وهذا مقام تعديد النعم و تقرير الاستدلال فلذلك قامت عليهم الحجة ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تتقون عقابه لكم عن شرككم وعبادتكم لغيره ، مما لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضررًا فكيف يملك لكم ؟ فالله ربكم هو الذي يفعل تلك الأفعال ، هو الحق _ سبحانه وتعالى _ الثابت بذاته ، الحي القيوم ، لا إله غيره ولا معبود بحق سواه .

وإذا كان _ سبحانه _ هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه المستحق للعبادة دون سواه ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ؟ وعن السعادة إلى الشقاء ؟

(١) - مفردات غريب القرآن ١/١٩٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١/١٧٨ ، لسان العرب ١٠/١١٥ ، مادة (رزق) ، تاج

العروس ٢٥/٣٣٦

(٢) - الكشف ٢/٣٤٥ ، إرشاد العقل السليم ٤/١٤١ ، تفسير المراغي ١١/٩٩

وفي سورة المؤمنون يتبين كذلك أن المشركين لا ينكرون حقيقة ربوبية الله _ سبحانه وتعالى _
 فيذكر لهم الدلائل على وحدانيته ؛ ليقروا بتوحيد الألوهية ، فيكون إقرارهم بربوبيته حجة عليهم
 فقال _ سبحانه _ ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا
 يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ
 بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ
 إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ (١)

في بداية الآيات بين _ سبحانه وتعالى _ اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية ، واعترافهم بأن الأرض
 وما فيها من الحيوانات والنباتات والثمار ، وسائر صنوف المخلوقات ، والسموات خلق الله
 _ سبحانه وتعالى _ وأنها تحت ملكه ، فإن أجابوا بأنها خلق الله وحده وأنها ملكه ، فقل لهم
 أفلا تتذكرون وتخافون عذابه إذا عبدتم غيره فاتقوه واحذروا عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم
 به مع علمكم بأن خزائن الأرض والسموات بيده _ سبحانه _ وأنه لا عاصم لأحد ، ولا ملجأ
 من الله إلا إليه ، وأنه المدبر لهذا الكون كامل الأسماء والصفات ، وأنه لا سعادة ولا صلاح
 للبشرية جمعاء إلا بعبادته وحده لا شريك له ، فكلكم مفتقرون إليه في سائر أمور حياتكم ،
 وكلكم يعلم أنه هو وحده القادر على بعثكم بعد موتكم ، وهو _ سبحانه _ العالم بما كان وما
 سيكون فتعالى _ سبحانه _ عما أشرك معه في العبادة ممن لا علم له ولا قدرة .

وأنه القادر على بعثكم بعد موتكم ، فإن كنتم تعلمون ذلك فكيف زاغت قلوبكم وأبصاركم ؟
 وكيف خدعتم أنفسكم وظلمتموها باتخاذكم الشركاء مع الله _ سبحانه وتعالى _ وأنتم تعلمون
 أنه لا إله إلا الله ، وأنه _ سبحانه _ أقام الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ،
 وإنكم لكاذبون في عبادتكم غير الله ، وليس لكم دليل ولا حجة بينة .

ثم وبخهم - سبحانه - على قولهم إن لله ولدًا وشريكًا ، وأنه - سبحانه - منزه عن الولد وعن الشريك في ربوبيته وألوهيته فهو - سبحانه - الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .

ولو كان الأمر كما يزعمون بوجود إلهين لاستقل كل إله بفعل وذهب بما خلق وعند الاختلاف فيما بينهم يفسد الكون ؛ ولهذا نبه تعالى بالدليل العقلي ، على امتناع إلهين وهو ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع وهو قانون النظام والإحكام ، ومعناه : أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما فيما أن يحصل مرادهما وهذا ممتنع ، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين ، وإما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الإله والآخر عاجز فكيف يكون إلهًا ، أو لا يحصل مرادهما جميعًا فهذا ممتنع أيضًا .

فلا يتصور أحد وجود إلهين ، والكون بهذا النظام المتقن المحكم لدرجة تثير العقول وتدهشها ، وتملأ النفس إيمانًا بخالقها وخالق ومالك ورازق المخلوقات كلها ، وجميعها تجري على نظام واحد منذ خلقها .

يقول ابن كثير : " لو قدر تعدد الآلهة ، لانفرد كل منهم بما يخلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض ، في غاية الكمال " (١)

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ تنزه - سبحانه - وتقديس عما يصفه به هؤلاء الجاهلون وما أشركوا معه من آلهة أخرى لا تضر ولا تنفع : ولا تملك لهم موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

كما يستنكر الله - سبحانه - على المشركين ويحقر آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، وتكرر ذلك في آيات كثيرة : منها الآية التي يستدل فيها الهدهد على توحيد الألوهية بأن الله هو من يخرج الخبء

في السماء والأرض . قال - تعالى - ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢)

وكذلك استدل بعلم الله الشامل لما يسرون وما يعلنون .

(١) - تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٥

(٢) - سورة النمل الآيات ٢٥-٢٦

وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة ؛ تحقيقاً للعمل بمقتضى قوله - تعالى - ﴿ **أَلَّا** **يَسْجُدُوا لِلَّهِ** .

ج _ تعجيز آلهتهم المزعومة :

يستنكر الله _ سبحانه وتعالى _ ويذم المشركين في آيات كثيرة ؛ لأنهم يعبدون آلهة أخرى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن أن تملكه لهم ، ولا تملك شيئا من خصائص الآلهة . وهذا التعجيز لهم من طريقين :

الأول _ الاستدلال على وجوب عبادته وحده بكونه المتصف بخصائص الربوبية من خلق ورزق ونفع وضر وغيرها :

يتحدى الله _ سبحانه وتعالى _ في سورة النمل المشركين بالدلائل الكونية المنصوبة أمامهم ، ويلفت الأنظار إلى عظمته _ سبحانه _ وماله في عبادته من آيات عن طريق الاستفهام الاستنكاري والتوبيخ ، ويرى المؤمنون والمشركون جميعا ما تحمل كلمات الله ، من بيان ، ووضوح تتجلى فيه نعم الله عليهم ، ويبين منها فضله الذي أفاضه على هذا الوجود ومع هذا يوجد من يشرك به شركاء فيقول _ سبحانه وتعالى _ قل يا أيها الرسول : الحمد لله ، والثناء عليه

_ سبحانه _ ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ** ﴿٥٩﴾

أَمْ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْنَا لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ خُلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ

اللَّهِ قُلُوبٌ هَاثِرُونَ بِرُفْعِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾

في هذه الآيات أمر الله _ سبحانه وتعالى _ نبيه _ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم _ أن يتلو هذه الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله الباهرة ووحدانيته المطلقة وذلك بعد الاستفتاح بحمد الله والثناء عليه ، وسلام منه _ سبحانه _ وأمنة على عباده الذين اصطفاهم لرسالته _ عليهم الصلاة والسلام _ وقد أخذ بهذا الأدب الحسن الخطباء وتوارث ذلك العلماء والوعاظ والكتاب وبعد الحمد والثناء اسأل مشركي قومك هل الله _ سبحانه وتعالى _ خير أم هذه الآلهة التي يعبدونها من دونه وهي لا تملك نفعاً ولا ضرراً ، والاستفهام هنا للإنكار والتفريع ، والألف منقلبة عن همزة الاستفهام .

ثم ساق _ سبحانه _ خمس آيات متتابعة كل آية منها ناطقة بالبرهان على وحدانيته وقدرته وعلمه الشامل ، ومباينة واجب الوجود وهو الله - تعالى - والأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدوها .

(أم) في الآيات كلها منقطعة بمعنى (بل) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها لأن (أم) لا تفارق معنى الاستفهام (٢) ومعنى السياق في الآيات (أمَّنْ يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها) وهذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر .

وفي الإخبار عن المشركين بالمضارع في الآيات الخمسة ؛ لإفادة استمرارهم على شركهم وعدم إقلاعهم عن الشرك حتى بعد سوق دلائل الوحدانية .

وأول هذه الآيات تتحدثهم بخلق السماوات والأرض ، وقد ربطت الآية غيرها من الآيات السابقة بين الماء والإنبات في إعجاز مذهل لدلائل القدرة الإلهية الكثيرة .

فلولا الإنبات ما كان في الدنيا نبات، ولولا النبات ما كان على الأرض حياة .

معنى الحديقة : البستان الذي عليه حائط من الإحداق وهو الإحاطة ، وجمعها حدائق ، وهي البستان والجنة التي فيها نخل وعنب . سميت حديقة ؛ لأنهم كانوا يحدقون بها حائطاً يمنع الداخل

(١) - سورة النمل الآيات ٥٩ - ٦٤

(٢) - التحرير والتنوير ١٠/٢٠

إليها صوتاً للعب لأنه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره لارتفاع شجره فهي بمعنى : محقق بها. ولا تطلق الحديقة إلا على ذلك (١) والبهجة المنظر الحسن يهيج به من رآه .

وزيادة في توبيخهم امتن عليهم سبحانه بأنه خلق هذا النبات لأجلهم مع إشراكهم به شركاء وفي العدول عن ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم المعظم ذاته نكتة بلاغية بديعة ذكرها المفسرون وهي : عدول الله سبحانه وتعالى من الغيبة إلى التكلم ؛ لتأكيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده ، وللإعلام بأن إنبات هذه الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع روعتها وبهاؤها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه - (٢).

ولذا أتبع - عز وجل - هذه الجملة بقوله : ﴿ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ ومعنى الكينونة : الانبغاء ، أراد - سبحانه - أن تأتي ذلك محال من غيره ، فما كان في إمكانكم - أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه الحدائق ، فضلا عن إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود ، وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة وحده .

وفي الآية الثانية : ذكر - سبحانه - بعض مظاهر عنايته ورحمته بخلقه ومنها : جعل الأرض قراراً (٣) أي مستقرة ممهدة مذلة مثبتة بالجبال الشاخنة ؛ لئلا تميد بهم ، وجعل الأنهار تسير من خلالها لانتفاع الخلق بها ، وجعل بين البحرين حاجزاً (٤) معنوياً وهذا الحاجز من بديع الحكمة

(١) - مفردات غريب القرآن ١١٠/١ ، لسان العرب ٣٨/١٠ ، مادة (ح د ق) ، تاج العروس ٣٨/١٠ .

(٢) - غرائب القرآن ٣١٣/٥ ، الكشاف ٣٧٦/٣ ، التفسير الكبير ١٧٧/٢٤ ، إرشاد العقل السليم ٢٩٤/٦ ، التحرير والتنوير ١٠/٢٠ .

(٣) - عرف العلماء في العصر الحديث دوران الأرض ومقدار سرعتها أثناء دورانها وهو بمعدل ألف ميل في الساعة بحيث لو زادت أو نقصت لحدث اختلال في نظام الحياة وأدى إلى إهلاك النبات واحتراقه أو تجمده ، وأثناء دورانها لا تصطدم بغيرها من الكواكب وكونها كروية مسطحة يمكن من السير عليها وزراعتها والعيش عليها ويؤكد أنها خلقت بيد باهر قاهر متقن لخلقه ولا شك أن العقل السليم يرفض أن يكون للمصادفة يد في إبداعها . باختصار ، آيات الله للأميري ٦٠/١ ، الظاهرة القرآنية ص ٢٨٦

(٤) - كشف العلم الحديث أن كل بحر من بحار الدنيا يغاير الآخر في صفاته الكيماوية ودرجة ملوحته ، وهذا يدعو إلى عدم بغى أحدهما على الآخر ، كما إن كائنات كل بحر لا تستطيع العيش إلا فيه ، كأسمك البحر الأحمر وكائناته الحية لا =

وإتقان الصنعة . فكل ذلك يجري لحكمة ومصلحة الخلق ، والعلاقة بين المائين علاقة تفاعل وإمداد وتواصل : فالماء المالح يغمر ثلاثة أرباع الأرض ، فيمد الأرض بالمياه العذبة عن طريق التبخر والمطر ، والمياه العذبة تصب في البحار ، وتخزن في الأرض ، فسبحان من خلق فأتقن الخلق .

والحاجز حاصل من دفع كلا المائين : أحدهما عن الاختلاط بالآخر ، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء المالح والماء العذب . فالحاجز حاجز من طبعهما وليس جسماً آخر فاصلاً بينهما (١) .

وهذا الجعل كناية عن خلق البحرين أيضاً ؛ لأن الحاجز بينهما يقتضي خلقهما وخلق الملوحة والعذوبة فيهما وهو من أكبر الأدلة وأعظمها على قدرة الله - تعالى - وعلى أن لهذا الكون إلهاً صانعاً حكيمًا مدبرًا ، وأن كل شيء في هذا الكون يسير بنظام معلوم ، وبنسق مرسوم ولهذا قال

— سبحانه — ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ يعبد بل أكثرهم لا يعلمون في عبادتهم غيره .

ثم انتقل — سبحانه وتعالى — في الآية الثالثة للاستدلال بدليل النوائب التي تصيب الإنسان فيلجأ بفطرته السليمة إلى خالقه يطلبه المدد والعون فهو — سبحانه — المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل .

وأحوال الناس في الدنيا التي لا تخرج عن ثلاث : حالة الاحتياج ، وحالة البؤس ، وحالة الانتفاع وكل هذه الحالات يسيرها الله — سبحانه وتعالى — فيستفهم الله — سبحانه وتعالى — بعدها استفهاماً استنكارياً ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ وقد علم الإنسان أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ولكن ما أقل تذكره وتدبره للأمور التي تعينه على الرجوع للهدى والصراط المستقيم ، ولأنه ينسى - إلا من عصم الله - أن يذكر الله وقت الرخاء كما ذكره وقت الشدة .

وفي الآية الرابعة يتحدث الله — سبحانه وتعالى — عن هدايته الناس ودلالتهم على الطريق المستقيم و(بل) في هذه الآية لإضراب الانتقال من دلائل القدرة في التصرف بأحوال الناس إلى دلائل القدرة في إعانة المسافرين للسير في الطريق المطلوب ؛ بأن ذكر هدايته لهم بظلمات البر

= تعيش في مياه البحر الأبيض وهي تغاير أسماكها ، وإذا حدث مد أو ريح فإن يسيرا من مياه البحرين يطفو على الآخر ولا يلبث بعدها أن يعود هو وكائناته كل في مكانه . آيات الله للأميري ١/١٢٤-١٢٥ ، المعجزات القرآنية ص ٤٦

(١) - التحرير والتنوير ٢٠/١٣

والبحر ، فهو _ سبحانه _ من خلق النجوم صالحةً لهداية الناس ، وهداهم إلى الانتفاع منها ، ومعرفة سيرها ، وكذلك هداهم لمعرفة هبوب الرياح وأحوالها ، ومتى تكون مبشرةً برحمة الله وهي المطر بعد أن أصابهم اليأس والقنوط .

أما الآية الخامسة فقد قررهـم فيها بأنه وحده من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولا يقدر على البدء والإعادة إلا هو _ سبحانه _ ومن يرزقكم من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغيره ، وله الخلق والأمر ، فهو من أنعم عليكم بالنعم التي لا تحصى أهو خير أم الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضر ، والتي يعبدها المشركون من دون الله - تعالى - بل أيعقل أن يكون مع الله إله آخر يفعل هذا ، فهاتوا حجتكم وبرهانكم على هذا إن كنتم صادقين في دعواكم فإن كل من عنده عقل ، لا يشك في أن المستحق للعبادة والطاعة ، هو الله رب العالمين .

فختم تلك الدلائل بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد والتي من ضمنها التمكـن من كل ما في الكون علويه وسفليه بعد أن أجملها في بداية الآيات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيها الاستدلال بأحقية الله تعالى للألوهية وحده .

وفي سورة فاطر يذكر الله _ سبحانه وتعالى _ أدلةً تثبت وجوده وعلمه وشمول قدرته ، وينعي على الكفار جهلهم بعجز آلهتهم . يقول _ سبحانه وتعالى _ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (١)

في الآيات السابقة والآيات التي قبلها من هذه السورة الكريمة دلائل قدرته في السماء والأرض والشمس والقمر وأقامتهما على هذا النظام المحكم الدقيق الذي لا يدخل عليه أي اضطراب أو خلل ، ومن خلال هذا الاستدلال فيه أيضًا إدماج للمنة ، وتذكير لهم بخالقهم الذي أوجد

المخلوقات على هذا النظام البديع ، وسخرها لكم ، وتأکید على أنه المالك للكون المتصرف فيه لا ينازعه منازع - سبحانه - .

ثم بيّن - سبحانه - مدى جهل وضلال من أشرك مع الله إلهًا آخر ، وبيّن كذلك عجز الآلهة عن القطمير وعن خلقه .

والقطمير هو : شق النواة ، أو القشرة التي فيها ، أو القشرة الرقيقة التي في النواة و يضرب مثلاً لأقل شيء وأحقره (١)

فالذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - لا يملكون معه - سبحانه - شيئاً ، ولو كان هذا الشيء في نهاية القلة والحقارة والصغر ، كقشرة النواة ، ثم قرر - سبحانه - هذا المعنى فهذه الآلهة عاجزة عن نفعكم وعن إغاثتكم وعونكم ودفع الضرر عنكم ، وعلى افتراض سماعها لكم ، أو كان فيهم من يسمع . فعلا . كالملائكة والجنّ ، وغيرهم ممن يعبدهم المشركون فهي عاجزة عن القدرة فلا تملك من أمرها شيئاً فكيف بكم ، ولا تنسوا الحسرة التي ستصيبكم عند الحساب ، فستتبرأ منكم ومن شرككم ، ولا يخبرك بهذه الحقائق التي لا تقبل الشك أو الريب إلا من يعلم غيب السماوات والأرض ، وهذا يقتضي تصديق هذه الأخبار ، والعمل بها ، والاعتبار مما جاء فيها .

في الآيات الكريمة التالية كذلك بيان لقدرة الله - تعالى - وأنه الخالق الرازق المحيي المميت مالك النفع والضرر - سبحانه - فكيف يشركون به من تعجز عن هذه الأفعال . يقول الحق

- سبحانه - ﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا

أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿ (٢) وقوله - سبحانه - ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا

يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٣) وقوله - سبحانه - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ

(١) - مفردات غريب القرآن ١ / ٤٠٨ ، القاموس المحيط ص ٥٩٧ ، تاج العروس ١٣ / ٤٥١ ، مادة (قطمر) ، رياض

البيان ص ٣٠٢

(٢) - سورة الأعراف ١٩١ - ١٩٢

(٣) - سورة الإسراء الآية ٥٦

رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ
رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿٢﴾

الثاني : مطالبة المشركين بإحضار الأدلة العقلية أو السمعية أو هما معا والتي تجيز لهم
الإشراك في العبادة :

وفي سورة لقمان استدل الله _ سبحانه وتعالى _ بأربعة دلائل دالة على قدرته ووحدانيته
_ سبحانه وتعالى _ فيقول _ عز جلاله _ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ نَوْعٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٣﴾

في هذه الآيات يتحدى الله _ سبحانه وتعالى _ الكفار والمشركين بأربع ظواهر كونية ظاهرة
للعيان دالة على قدرته _ تعالى _ وحكمته وهي :

- ١ _ خلق السماوات ورفعها بدون أعمدة .
- ٢ _ إلقاء الرواسي الشاخخة من الجبال ؛ لتثبيت الأرض وتمنعها من الاضطراب
- ٣ _ نشر وتفريق الأصناف من الدواب من خلقه _ سبحانه وتعالى _ .
- ٤ _ إنزال المطر من السماء ، ومن ثم إنبات الأشجار المختلفة التي ينتج بعضها الثمار المتنوعة ،
بهيبة المنظر ، بديعة التكوين ، منافعها جمة سواء كانت هذه الأشجار مثمرة ، أو غير مثمرة ، فهي

(١) - سورة الروم الآية ٤٠

(٢) - سورة الزمر الآية ٣٨

(٣) - الآيات ١٠ - ١١

تزيد الأنس والبهجة ، وتريح النفس ، وتصير ظلاً للناس ، فهي جامعة للصفات النافعة المحمودة كل على حسب صنفه .

وبعدها قال لهم الله - تعالى - : إنه هو من خلق ما سبق ، وهذه بعض آثاره الدالة عليه كما تشاهدونها بأعينكم ، وتلاحظونها بعقولكم فما الذي خلقتة آهتكم التي تعبدونها من دون الله ؟ والاستفهام : تعجبي من ضلالهم وعماهم بحيث يتبعون أهواءهم ولا يستجيبون لداعي الفطرة والعقل ، ولهذا وصفهم _ سبحانه _ بما يترتب على فعلهم وهو الضلال والخسران .

وفي الآية الكريمة التالية : مطالبة المشركين بالدليل العقلي وكذلك السمعي على شركهم وفيهما التعجيز الكامل لهم يقول - تعالى - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذُ الْأَعْمَىٰ عَنْ رَبِّهِمْ يَذُوبُ لَوْلَا إِذْ سَأَلْتَهُمْ لَظَنُّوا أَنَّهُم كَانُوا فِي آيَاتِنَا مُحْسِنِينَ ۚ ﴾ (١)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَئِنُونِي

بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢)

في الآيات تأكيد على أن العقل يعلم بطلان تعدد الآلهة ، وصرف شئ من العبادة لغير الله ، وأنهم سيعجزون عن إحضار الدليل السمعي ، ولما تقرر نفي أنواع الحجج في ذلك وعجزهم التام بيّن لهم سبب ضلالهم وهو تغرير الرؤساء ، والطاعة العمياء من الأتباع .

(١) - سورة فاطر الآية ٤٠

(٢) - سورة الأحقاف الآية ٤

المسألة الثانية : الاستدلال بالكون وتشمل :

أ _ وحدة النظام في الكون :

يبين الله _ سبحانه وتعالى _ بالدليل العقلي القاطع وحدانيته في الألوهية ، فيقول _ سبحانه جل

في علاه _ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) لَا

يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١﴾

فارتباط العوالم واستمداها يدل دلالة واضحة على أن مدبرها واحد لا شريك له (٢)

يعقب الله _ سبحانه وتعالى _ على اتخاذ المشركين الآلهة وهو من بيده ملكوت السماوات

والأرض ، ومن فيهما ، وهو _ سبحانه _ المتصرف فيمن فيهما ، ومع ذلك فمن سفه المشركين

وضلالهم اتخذوا آلهة يعبدونهم من دون الله ، فيبين _ سبحانه _ في هذه الآية مقدار جهلهم

وضلالهم وسوء تقديرهم لصفات الكمال التي ينبغي أن تكون للإله الواحد فقط ، فلو شاركه غيره

بشيء من الأمر والتدبير لما كان له هذا التفرد بالربوبية والألوهية ، ولو كان الأمر كما يزعمون

بوجود إلهين لاستقل كل إله بفعل وذهب بما خلق وعند الاختلاف فيما بينهم يفسد الكون ؛ ولا

يستقيم أمره ، وهذا ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع : وهو قانون النظام والإحكام .

قال ابن القيم : " ولهذا قال - تعالى - لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب

العرش عما يصفون ، ولم يقل - سبحانه - لما وجدنا ولكانتا معدومتين ، ولا قال لعدمنا ؛ إذ هو

- سبحانه - قادر على أن يقيهما على وجه الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون على وجه

الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده ، وهو معبود لهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما فلو

كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فإن كل إله يطلب مغالبه الآخر والعلو عليه وتفرد

دون إلهيته ، إذ الشرك نقص في كمال الإلهية ، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون ناقصا " (٣)

فلا يتصور أحد وجود إلهين والكون بهذا النظام المتقن المحكم لدرجة تثير العقول وتدهشها وتملأ

النفس إيماناً بخالقها وخالق ومالك ورازق المخلوقات كلها ، وجميعها تجري على نظام واحد منذ

خلقها .

(١) - سورة الأنبياء الآيات ٢٢-٢٣

(٢) - تفسير الدجوي ١ / ١٠٨

(٣) - كتاب الجواب الكافي ص ١٤٣

وفي الآيات استدلال على بطلان عقيدة المشركين بزعمهم وجود شركاء مع الله _ تعالى عما يقولون علوًّا كبيراً _ فهذه الآية مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين ، ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك ، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم (١)

والفساد : خروج الشيء عن الاعتدال ، وهو نقيض الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة ، وهو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء ، ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام فيبطل الانتفاع بما فيهما (٢) والمشاهد بالسماء صلاحها وانتظام كواكبها ، وانضباط مواقيتها وتقلبها ، وكذلك الأرض فهي صالحة مهيأة مسخرة للانتفاع بكل ما فيها .

وبناء عليه يكون جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المخلوقات دليل وحدانية الله تعالى . والآية دليل على أمرين :

١ _ وجوب أن لا يكون مدبر السماوات والأرض إلا واحدًا .

٢ _ وجوب أن لا يكون هذا المدبر الواحد إلا الله _ سبحانه وتعالى _ .

ونظير هذه الآية هي قوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ

إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) فقولته تعالى ﴿ إِذًا

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ تضمنت جملةً من صفات التنزيه للخالق

_ سبحانه - وإثبات توحيد الربوبية والألوهية ؛ فإن الله بعد ما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله ثان

معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة والدليل العقلي (٤)

ثم نزه الله _ سبحانه وتعالى _ نفسه عما يقولون من الشريك والولد ، وأكد على هذا التنزيه بأنه

لا يسأل عن أفعاله فهو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد ، وفي هذا دليل

على عدل الله تعالى المطلق ومجازاته كل على عمله .

(١) - التحرير والتنوير ٣٩/١٧

(٢) - مفردات غريب القرآن ٣٧٩/١ ، لسان العرب ٣/٣٣٥ ، مادة (فسد)

(٣) - سورة المؤمنون الآية ٩١

(٤) - شرح العقيدة الواسطية ص ٨٢ ، وينظر : مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص ٧٥

وكذلك قوله - تعالى - ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْنَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٤٣)

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ (١)

ومن أدلة وجوب إفراد الله بالعبادة ، هذه الآيات الكونية الشاهدة بقدرته وعظمته وإتقانه ومدى جوده وإحسانه ، هذا الكون كله علويه وسفليه يسبح لخالقه - تعالى - ويمجده ، ويسجد له

كلها تسبح الله ، يقول الله تعالى ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) ويقول سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣) ، وأنت أيها الإنسان الضعيف الذي مُيزت بالعقل ومع ذلك اتخذت

شركاء وأنادًا لله في العبادة ، أفلا تسلك مسلك المخلوقات الأخرى .

ساق الله - سبحانه وتعالى - آيات كريمة لتقرير أصل التوحيد والدعوة إليه وهذه الآيات من

أوضح الدلائل على عزة الله التي هي كمال القدرة ، والحكمة ، فيقول الله - سبحانه وتعالى -

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ

حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ (٤) يقرر الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات وحدة الصانع

المدير - سبحانه - فما يروونه من كون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد ، فيه

دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال .

وإذا كان لهذا الاختلاف أسباب عرفها العلماء - بفضل الله وهدايته سبحانه - فإن الذي خلق

الأسباب هو الله الواحد - جل شأنه - .

(١) - سورة الإسراء الآيات ٤٢-٤٣

(٢) - سورة الإسراء الآية ٤٤

(٣) - سورة الحج الآية ١٨

(٤) - سورة يس الآيات ٣٨-٤٠

ب _ عرض لبعض آيات القدرة والنعمة عليهم :

يجب أن نعرف توحيد الألوهية من هذه الآيات الكثيرة حولنا ، فهو _ سبحانه _ المعبود بحق ، وهو دعوة جميع الأنبياء .

في سورة الأنبياء بعد أن عدد _ سبحانه _ عددًا من قصص الأنبياء قال _ سبحانه _ ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) وقوله - تعالى - ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢)

وهناك آيات كثيرة من آيات القدرة ومظاهر الحياة والموت والملك التام والإتقان سبق ذكرها في توحيد الربوبية وأوردتها هنا لمناسبتها أيضا لتوحيد الألوهية .

ومن الآيات الكونية التي يستدل بها على أحقية توحيد العبادة لمن خلق وأبدع _ سبحانه _ قوله

_ تعالى - ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ (٣٢)

وقوله - تعالى - ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٦١) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ

الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤)

(١) - سورة الأنبياء الآية ٩٢

(٢) - سورة المؤمنون الآية ٥٢

(٣) - سورة إبراهيم الآيات ٣١-٣٢

(٤) - سورة الحج الآيات ٦١-٦٣

في الآيات السابقة تقرير وتأكيد على وحدة الألوهية الواحدة التي لا تتعدد ، فهو الإله ، المنعم ، المالك لكل ما في الكون ، ثم يذكر _ سبحانه _ بعض دلائل قدرته النافذة البديعة في كل مخلوقاته والتي يكرر ذكرها _ سبحانه _ ؛ ليستدلوا بها على وحدانيته ، ومنها :

_ خلق السماوات والأرض وتنظيمهما وإحكامهما ، وتنظيم سير جميع المخلوقات السماوية والأرضية فلا يوجد خلل ولا قصور فيهما .

_ آثار رحمة الله _ تعالى _ لخلقه ، وسعة جوده ومنتته وفضله ، بإنزال المطر من السماء ، ومن ثم حياة الأرض واخضرارها فهو اللطيف الخبير بما ينفع مخلوقاته _ وهو الحق _ سبحانه _ وعبادة غيره باطلة .

وفي سورة النحل بعد أن أثبت خضوع الكون وما فيه وسجودها له والذي يدل بصورة قاطعة على وحدانيته وأنه الإله الواحد المعبود بحق نهي الكفار عن اتخاذ الآلهة ، فيقول _ جل شأنه _

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

فليس إله إلا هو _ سبحانه _ فارهبوه وخافوه ، فهو مالك لهذا الكون الواسع ، وجميع من فيه منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - وكل ما سواه واقع في ملكه وتحت تصرفه ، وأنه غني عن الكل فلا تشركوا معه آلهة ؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه .

قال الألوسي (٢): وفي إظهار الفاعل وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر ؛ للإيدان بأنه تعالى متعين الألوهية (٣).

وفي الآيات التي بعدها : يبين _ سبحانه _ نعمه التي غمر بها عباده فهو المنعم _ سبحانه _ بصنوف النعم ومنها قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١) - سورة النحل الآيات ٥١-٥٢

(٢) - هو : محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، شهاب الدين ، أبو الشاء ، مفسر ، محدث ، أديب ، من المجتهدين ، من أهل بغداد ، ولد سنة ١٢١٧ ، وتوفي بها . كان سلفي الاعتقاد ، مجتهداً . تقلد الافتاء ببلده ثم عزل ، فانقطع للعلم ، سافر في عدة رحلات ، وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته ، فاستمر إلى أن توفي سنة ١٢٧٠ .

ينظر : الأعلام ١٧٦/٧ ، معجم المؤلفين ٣/٨١٥ ، الموسوعة الميسرة ٣ / ٢٥٩٥

(٣) - روح المعاني ٧/٤٠١

لَايَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُورِنَاهُ مِنْ بَيْنِ فَرثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾

عاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه ذلك من التذكير بالنعم . فإنزال المطر من المنن ، وعبرة من العبر ، وحجة من الحجج المتفرعة عن التذكير بنعم الله ، والاعتبار بعجيب صنعه ، وجمعاً عجيباً بين الاستدلال ووصلاً للكلام المفارقة (٢) وعندما ينزل المطر تحي الأرض ، والإنزال نفسه نعمة فضلاً عن آثاره من نباتات مختلفة تغذي البدن وتسعد الروح ، وأنه سخر الأنعام والتي بدورها تعتمد على هذا المطر ، وأنه القادر الذي يخرج من بين الفرث وأخرج اللبن الأبيض السائغ الطعم ، وجعل سبحانه من ثمرات النخيل والأعناب جنات ، وكلها تدل على عنايته بخلقه سبحانه وعلى شمول رحمته وإحسانه وأنه الواحد في ملكه ، الواحد في ألوهيته ، الواحد في إسباغ نعمه سبحانه .

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن ينكر على الكفار كفرهم ، فيقول سبحانه ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِئِذٍ ﴿٣﴾

أن يقول للكفار على سبيل الإنكار لأفعالهم المؤكد باللام : أنكم لتكفرون بمن خلق الأرض في يومين وتشركون معه الأنداد ، وهو الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب الأرباب ، وخالق الأسباب ، ذلك رب العالمين الذي خلق الأرض ومهدا وسواها ، وأرساها بالجبال ، وبارك في

(١) - سورة النحل الآيات ٦٥ - ٦٩

(٢) - التحرير والتنوير ١٤ / ١٩٧

(٣) - سورة فصلت الآية ٩ - ١٠

الأرض التي تعيشون عليها ، ومن بركتها كما قال ابن القيم : " الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها ومن بركاتها انك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان ومن بركاتها انما تحمل الأذى علي ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مريح ... " (١)

وجعل الكون يسير بنظام وقوانين تحكمه وتسيره وهذا النظام ليستقيم أمر الكون ولأجل المخلوق الذي كرمه الله على جميع الخلق ومع ذلك فمنهم جهلة يتخذون الأنداد والشركاء متناسين فاطرهم ورازقهم وهاديتهم للانتفاع بكل ما سخره لهم _ سبحانه _ .

وفي سورة ق و الذاريات دعوة للنظر والتفكير فيقول _ سبحانه _ ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

﴿ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴾ (٣)

يلفت الله _ سبحانه وتعالى _ نظر الناس إلى ما يشاهدونه حولهم من أحوال بعض المخلوقات ، الدالة على وحدانية الصانع _ سبحانه _ فمنها :

_ الأرض وما فيها من قدرة وعظمة وإيجاد للمخلوقات بعد العدم وإحياء بعد الموت ، فأيات الأرض جبالها ، واختلاف نباتها وبحارها وأنهارها والكائنات التي تعيش عليها ، وتسخير كل ما فيها للإنسان بفضل من الله _ تعالى _ ومنة .

(١) - الفوائد ١٧/١

(٢) - سورة ق الآيات ٦-١١

(٣) - الذاريات الآيات ٢٠-٢٣

— خلق أنفسكم كيف خلقكم وانظروا العجائب في خلقكم وكيف كل جهاز في الجسم ملائم لما خلق له ، فهو سبحانه كما خلقكم قادر على بعثكم . قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة (١)

— إنزال المطر الذي هو سبب الأرزاق وبه حياة الأرض ومن عليها .

ثم بين — سبحانه — من الذي يستفيد من هذه الآيات الباهرة ، فالمستفيد هو العبد المنيب الذي يتقي الله تعالى ، الرجاء إليه بالتوبة ، ففي الآيات تبصرة وذكرى له ولغيره بوحدة الإله المنعم القادر — سبحانه — مما يدفعه لتعظيمه وشكره وعبادته على الوجه الذي يرضيه عنه — جعلنا الله من عباده الأوابين — .

فهذه الآيات وغيرها في موضعها يُستدل بها على أن الله وحده هو خالق هذا الكون ، ومدبره — سبحانه وتعالى — بالقدرة والعلم والحكمة والعظمة والجلال سبحانه وتعالى وهو وحده المستحق أن يوحد و يعبد .

وهي كذلك دليل على البعث يستدل بها أيضاً على قدرته سبحانه وتعالى على البعث، فالذي خلق هذه الأكوان وهذه الموجودات العظيمة من السموات والأرضين والجبال والبحار والنباتات وغيرها قادر على أن يبعث هؤلاء الموتى ، كما بدأ خلقهم بل البعث أهون عليه من البدء ، كما

قال — سبحانه وتعالى — ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٢)

ثم أقسم — سبحانه — برب السماء والأرض في سورة الذاريات وجواب القسم : إن ما توعدون من البعث والجزاء حق لا شك فيه ، كما لا شك في نطقكم حين تنطقون .

فكل ذرة في الكون يُستدل بها على وجود الصانع وعلمه وقدرته ووحدته وإرادته وحكمته ورحمته .

وفي سورة الواقعة يقول — سبحانه — ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ

﴿ ٦٤ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿ ٦٥ ﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿ ٦٦ ﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿ ٦٧ ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ

الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ۖ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿ ٦٩ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا

(١) - تفسير القرآن العظيم ٧ / ٤١٩

(٢) - سورة الروم من الآية ٢٧

تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَتًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾

في هذه الآيات دلالات عظيمة على عجائب القدرة وغرائب الصنعة وجزيل النعمة من الرب الواحد المعبود _ سبحانه _ وجاءت هذه الضروب مرتبةً ترتيباً حسناً كما ذكر الخازن فيقول : " لما ذكر الله تعالى ابتداء الخلق وما فيه من دلائل الوحدانية ذكر بعده الرزق ؛ لأن به البقاء وذكر أموراً ثلاثة : المأكول والمشروب وما به إصلاح المأكول والمشروب ورتبه ترتيباً حسناً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب لأن به الاستمرار ثم النار التي بها الإصلاء وذكر من أنواع المأكول الحب ؛ لأنه هو الأصل ، ومن المشروب الماء ؛ لأنه أيضاً هو الأصل ، وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية " (٢)

هذه الأربعة أمور هي من أمور خلقهم ، وما به قوام عيشهم من الطعام والشراب ، فأخبروني أيها الناس عن أمور هي من أهم الموجودات لحياتكم :

هذه الأرض التي تحرثونها بزعمكم أنتم من يحافظ على النبات فيها من الآفات ؟
أنتم من يزرع الزرع ؟ لو نشاء بعظمتنا لجعلناه يابساً متكسراً ، وأخبروني كذلك عن الماء الذي تشربونه ؟ هل أنتم من أنزله من السحاب ؟ ومن الذي جعله عذبا زلالا نافعا ؟ وهذه النار التي تستفيدون منها في سفركم وحضركم ؟ من أوقد شجرتها ومن بقدرته أشعلها وأخرجها من الشجر الأخضر ؟ أفلا تستفيدون منها في تذكر نار الآخرة ؟ وكل هذه الدلائل ألا تدللكم على وحدانية الله _ تعالى _ ؟

ثم يقول _ سبحانه _ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي : نزه الله العظيم الذي ملأ الأكوان كلها عظمة عما لا يليق بذاته وصفاته عن النقائص ؛ لما علمت من أخبار علمه وقدرته وآثاره العظيمة ؛ إذ من هذه أفعاله تدل على عظيمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإنشاء والقدرة على البعث والجزاء .

(١) - سورة الواقعة الآيات ٦٣-٧٤

(٢) - لباب التأويل ٢٣/٧ ، وينظر : التفسير الكبير ٤٢٠/٢٩

يقول أبو السعود^(١) : " فسيح باسم ربك العظيم ؛ لترتيب ما بعده على ما عدد من بدائع صنعه تعالى وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى إما تنزيها له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها أو تعجبا من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة مع جلاله قدرها وظهور أمرها أو شكرا على تلك النعم السابقة " ^(٢)

يقول عالم متخصص في المحافظة على التربة بمقالة له بعنوان (التربة والنبات) : " من الذي قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثه الصفات وفي نمو النبات ؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيدا وأكبر عمقا ، وهو من أين جاءت النباتات الأولى ؟ أو بعبارة أخرى ، كيف خلق النبات الأول ؟ ... إلى أن قال بنهاية المقال : " لقد نشأ كل شئ بقدرته سبحانه وتعالى وهو الذي قدر لكل شئ طريقه ثم هدى . وكلما ازددت دراسة وتعمقا في دراسة طبيعة التربة والنباتات ، ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجابا وتقديسا " ^(٣)

وفي تعداد النعم وتعداد الآيات بعدة طرق زيادة في الطرق المؤدية إلى معرفة الله تعالى ووحدانيته وألوهيته ، ولولا أن الفكر والاعتبار في كل شئ في هذه المخلوقات طريق إلى معرفة الله لم يكن لتعدادها وجه بحال ، ومحال أن يكون العارف بالله من جميع هذه الطرق كالعارف من طريق واحد وطريقين ؛ ولذلك يفرق الله _ سبحانه وتعالى _ في أصناف أدلته وفواصل الآيات فتارة لقوم يتفكرون ، وأحيانا لقوم يعقلون ، ولقوم يسمعون وغيرها ^(٤)

(١) - هو : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، مفتي ومفسر ، ذاع صيته لعلمه وفضله ولد في إحدى ضواحي القسطنطينية في بيت علم وفضل ، تولى القضاء والإفتاء ، من مصنفاته : (إرشاد العقل السليم) ، و (تحفة الطلاب) ، توفي سنة ٩٨٢ . ينظر : طبقات المفسرين للأدزوي ١ / ٣٩٨ ، الأعلام ٧ / ٥٩ ، معجم المؤلفين ٣ / ٦٩٣

(٢) - إرشاد العقل السليم ١٩٩/٨

(٣) - الله يتجلى في عصر العلم ، مقالة ص ١٢٤-١٢٥

(٤) - مسائل الإيمان ص ٤١٢-٤١٤

ج _ تسخيرُ المخلوقاتِ لأداء وظائفها، والقيام بخصائصها :

خلق الله _ سبحانه وتعالى _ جميع المخلوقات ، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ؛ المناسب للتكيف بيئته التي يعيش فيه ، وجعل _ سبحانه وتعالى _ جميع الكائنات مسخرة للإنسان مع ضآلة حجمه بالنسبة لبعضها ومع هذا فهي تنقاد طائعة ذليلة له .

وجعل _ سبحانه _ صفات كل مخلوق تناسبه : من كبر الجسم وصغره ، ثم هداه للانتفاع بما في الأرض ، وحماية نفسه من الأخطار ، وهذه الهداية هي هداية الدلالة والإلهام وهي الهداية المشاهدة في جميع المخلوقات .

والجميع مفطورون على الإقرار بالخالق _ سبحانه _ ، يقول ابن تيمية : " بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون قانتون مضطرون من وجوه . منها : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه . ومنها : دعائهم إياه عند الاضطرار . ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيتته . ومنها : انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء (١)

فليس هناك مخلوق يمتنع عن أداء المهمة التي خلقه الله لأجلها وهداه إليها ، وهذه الهداية هي التي استدل بها موسى _ عليه السلام _ حين أجاب فرعون عن ربه _ سبحانه وتعالى _ يقول الله

تعالى حكاية عن موسى ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٢)

والهداية في عالم النبات لا تقل عنها في عالم الحيوان ، ومن الأمثلة على هدايته _ سبحانه وتعالى _ :

- اتجاه الجذر للأسفل ؛ ليمتص الماء والغذاء ، والساق للأعلى فكل لما خلق له .

_ توزع أوراق الشجر على الساق ، أو الأغصان ، فورقة من جهة ، والأخرى من الجهة الثانية .

_ هداية النباتات المتجاورة مع بعضها ، فمع اتحاد مصادر الغذاء لها من ماء وتربة وضوء ، ومع

هذا نجد الاختلاف العجيب في الإنتاج والأنواع ، ولا تأخذ نبتة غير النسبة المطلوبة لحياتها فكل

نبات يمتص بها الصالح له من مواد الأرض وبنسبة معينة .

(١) - مجموع الفتاوى ١/٤٥

(٢) - سورة طه الآية ٥٠

يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ وَرَزَعٍ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

- في فصل الشتاء تتوقف عملية التمثيل الضوئي ثم تسحب مادة اليخضور من أجزاء النبات ، ويصبح لونها أحمر ، ثم تسقط أوراقها وذلك لتحافظ النباتات على حياتها في المناطق الباردة ، وهذه الأوراق الساقطة يعلمها الله - سبحانه وتعالى - بعلمه الشامل وإحاطته بخلقه كما يقول تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) - تسلق بعض النباتات للأشجار العالية ؛ لتصل لضوء الشمس .

فهذه الأمثلة وغيرها من هداية الهادي - سبحانه - ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ ﴾

فجميع الكائنات خاضعة لله - سبحانه وتعالى - منقادة له ، وله أسلم من في السماوات والأرض ، وهم مدينون له بوجودهم وتديير أمورهم وليس لهم خروج عما يشاؤه - سبحانه - " وما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور فقير محتاج معبد مقهور وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور " (٤)

وهذه الهداية والتسخير برهان قاطع على وحدانية الرب - سبحانه وتعالى - وعلى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

(١) - سورة الرعد الآية ٤

(٢) - سورة الأنعام الآية ٥٩

(٣) - سورة الأعلى الآيات ٢ - ٣

(٤) - العبودية ١/١٠٤ ، الفتاوى الكبرى ٥/١٩٤

المسألة الثالثة : أساليب أخرى استدل بها القرآن على توحيد الألوهية :

أ _ تذكيرهم بما حدث للأمم السابقة ، وبيان مصير من لم يوحدده _ سبحانه _ :
يتردد ضرب الأمثال في القرآن الكريم كثيرا لما لها من دور في إثارة العقل ، وتقريب البعيد ، ترتيب الحقائق ، واستخلاص النتائج ، ومن هذه الأمثلة قصة المؤمن والكافر في سورة الكهف ففيها عظة وعبرة ، يقول _ سبحانه وتعالى _ ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِتَابًا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ (١)

يضرب الله _ سبحانه وتعالى _ في هذه السورة مثلا فحواه : أن الله _ سبحانه وتعالى _ أنعم على رجل بنعم وافرة ومنها تنوع محاصيل جنتيه تنوعا وفيرا ، ففيها الجنات المختلفة من الأعناب والفواكه والزروع المختلفة وتحفها أشجار النخيل ، ومع هذه النعم لم يشكر الله تعالى عليها ولم يوحدده في عبادته و له صاحب مؤمن لم يتركه بل نصحه وذكره بالله ، وبدلائل الإيمان ، وبأصل نشأته وأنه كان ترابًا ، ولولا أن الله _ سبحانه وتعالى _ سواه رجلاً لبقى ترابًا أو شيئًا حقيرًا ،

ولعلمه أن الله هو خالقه ؛ لذا فهو لا يشرك به أحداً ، فأصر الآخر على ضلاله وكفره فأخذه الله بذنبه وأتلف ماله وأهلك جنتيه وزروعه وسلبت أمواله ، ثم يصور القرآن الكريم تصويراً بديعاً حسرته وندامته بتقليبه يديه على ما جناه في حق نفسه من ظلمها بالإشراك به _ سبحانه وتعالى _ وكفر النعمة وهو يقول : ياليتني لم أشرك بربي أحداً .

ومن هذه الآيات التي تبين سنن الله في معاملة العباد ومجازاتهم على أفعالهم إن خيراً أو شراً ، قوله - تعالى - ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١)

وفحوى المثل عن قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها الرزق الوفير ، فكفرت بأنعم الله تعالى وكذبت برسوله إليهم فأذاقها الله _ تعالى _ لباس الجوع والخوف عقوبة لهم وعبرة لغيرهم .
وقيل في تحديد هذه القرية أقوال منها : أنها مكة وهو قول ابن عباس وغيره ورجحه بعض المفسرين (٢) ومما يرجح قولهم أن سياق الآيات قبلها للحديث عن كفار قريش ، وقيل إنها المدينة المنورة ، وقيل إنها غير محددة .

ويقول - تعالى - متحدثاً عن أهل مكة ، ومذكراً لهم بأحوال من سبقهم من الأمم ﴿ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣)

يذكر الله _ سبحانه وتعالى _ المشركين بصدق ما جاء به نبيهم _ عليه الصلاة والسلام _ من آيات ومعجزات تؤيد دعوته ، وينبئهم ويحذرهم من مصير الأمم المكذبة برسالتها والذين امتازوا بالقوة والمنعة والحضارة أكثر من أهل مكة فإنهم أهل واد غير ذي زرع فقد أثاروا الأرض ،

(١) - سورة النحل الآية ١١٢

(٢) - جامع البيان ٣٠٩/١٧ ، بحر العلوم ٢٩٤/٢ ، معالم التنزيل ٤٨/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٦٠٧/٤

(٣) - سورة الروم الآية ٩

وإثارتها : تقلبيها وحرثها للزراعة (١) ، ودلّوها وتصرفوا فيها بالحفر و الغرس والبناء ونحت الجبال فلا تغتروا بدنياكم كما اغتروا فتظلموا أنفسكم فما كان الله - تعالى _ ليظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم فحل بهم العذاب الأليم .

ومن الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم للدلالة على وحدانية الخالق وألوهيته قسمه - سبحانه - بمخلوقاته ، فقد أقسم - سبحانه - في كتابه العزيز بكل خلق من مخلوقاته ، في

قوله - ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) ، كما أقسم على بعضها ، ومما أقسم عليه من مخلوقاته : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، التين والزيتون ، وغيرها .

وفي قسم الله - تعالى - بمخلوقاته دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته ، و الثناء عليه - سبحانه - بما تقتضيه دلالتها من عظمة وقدرة ، وفيه تنبيه للإنسان على النظر فيما أودعها من أسرار أهلتها للقسم بها ، وإشارة إلى أنها - كلها - دلائل وعلامات يستتير بها أولوا الأبواب ويستدلون بها على وجود الصانع البارئ العظيم - سبحانه - .

وجاء القسم بالتين والزيتون في قوله - تعالى - ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ (٣)

وفي المراد من القسم بالتين والزيتون خلاف ، فهذا النوع من الأقسام يحتمل أكثر من معنى بسبب الاشتراك (٤)

فمن المفسرين من رجح أن المراد منها الثمر المعروف ؛ لأنه الأقرب والأشهر والمتفق على إطلاق اللفظين عليهما ، وهو قول ابن عباس وبعض السلف .

وقيل : إنها لمكانين ، فالتين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وقيل : لمسجدين ، وغير ذلك من الأقوال (٥)

(١) - جامع البيان ٧٨/٢٠ ، بحر العلوم ٦/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٥٣/١ ، البحر المحيط ١٥٩/٧

(٢) - سورة الحاقة الآيات ٣٨ - ٣٩

(٣) - سورة التين الآية ١

(٤) - القسم في اللغة وفي القرآن ص ١٠٥

(٥) - جامع البيان ٥٠١/٢٤-٥٠٣ ، الكشف والبيان ٢٣٨/١٠ ، بحر العلوم ٥٧١/٣ ، المحرر الوجيز ٤٩٩/٥ ، زاد المسير ١٦٨/٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١١٠/٢٠ ، لباب التأويل ٢٦٥/٧ ، تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨ ، عيون

وصوب الطبري القول الأول (١) ، وصححه القرطبي ، وقال : " أصح هذه الأقوال الأول ؛ لأنه الحقيقة ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل " (٢) ، وهو قول أكثر المفسرين كما ذكر الواحدي (٣)

وقال عنه ابن القيم إنه قول حق ، ثم قال : إن القسم قد تناول الشجرتين ومنبتهما (٤) وسواء أريد به النبات المعروف بكثرة فوائده وقوة شجره الضارب في الأرض ، أم أريد به مكان منبتها فكلا الأمرين فيه دلالة واضحة على عظيم قدرة الله - تعالى - ودقة صنعه (٥) و ذكر المفسرون منافع عظيمة لهاتين الشجرتين ، فمما قالوا : التين فاكهة طيبة ، وغذاء لطيف ، سريع الهضم ، ودواء كثير النفع ، ينفع الرئة والكلى ، إلى غير ذلك من الفوائد (٦) والزيتون فاكهة وإدام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها لكفى به فضلاً (٧) وشجرته هي الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل في قوله

- تعالى - ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ (٨)

والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، أما البشر فلا يقسمون إلا به - سبحانه وتعالى - قال ابن تيمية : " فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته ؛ لأنها آياته ومخلوقاته ، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشئئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته فهو سبحانه يقسم بها ؛ لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه . ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع " (٩) .

(١) - جامع البيان ٥٠٣/٢٤ ، وينظر : المحتسب لابن جني ٣٠٨/٢

(٢) - الجامع لأحكام القرآن ١١١/٢٠

(٣) - الوسيط للواحدي ٤ / ٥٢٣

(٤) - التبيان في أقسام القرآن ١١٠/١-١١١ ، وينظر : البحر المحيط ٤٨٥/٨

(٥) - التفسير الموضوعي لسور القرآن ٢٣٩/٩ ، وينظر : دراسات في علوم القرآن ٤٠٣/١

(٦) - التفسير الكبير ٢١٠/٣٢ ، اللباب ٢٠ / ٤٠٥ ، نظم الدرر ٨ / ٤٧٠ ، وللمزيد من فوائده ، ينظر : الطب

النبي لابن القيم ٢٢٥/١ ، من علم الطب القرآني ص ٢١٦ ،

(٧) - معالم التنزيل ٨ / ٤٦٨ ، مدارك التنزيل ٤ / ٢٨٠ ، لباب التأويل ٧ / ٢٦٥ ، إرشاد العقل السليم ٩ / ١٧٤ ،

الطب النبوي ١ / ٢٤٤

(٨) - سورة النور من الآية ٣٥

(٩) - مجموع الفتاوى لابن تيمية ١ / ٢٩٠ ، وينظر : نظم الدرر ٤/٧ ، دقائق التفسير ٣ / ٢٧٤ ، مجموع فتاوى ورسائل

ابن عثيمين ٧٩٨/١٠ ، تيسير العزيز الحميد ٥٢٦/١

بعد هذا التطواف والتأمل في هذه الآيات الكريمة ، و الأدلة الكونية يتضح أنها تدل على توحيد الخالق - عز وجل - وتشهد له بالربوبية ، والألوهية ، واتصافه بصفات الكمال والجلال التي لا تليق إلا به - سبحانه - .

وهذه الصفات والخصائص تقدم الأدلة الدالة على أنه بكل شيء قدير وأنه المتصف بصفات الكمال والقدرة والعظمة والتدبير والتسخير ، وهذا الإتقان والترابط ، والتناسق والترابط والتكامل بين أجزاء الكون ومخلوقاته يهدي إلى الواحد المعبود - سبحانه - ، و يزداد الإنسان إيماناً و يقيناً ويكون إيمانه راسخاً رسوخ الجبال ، لا تؤثر فيه الفتن ولا تحركه الشبهات ، فكل الدلائل تدل على التوحيد ، فالخالق الرازق المحيي المميت المدبر من له ملك السماوات والأرض - وغيرها من الخصائص - هو الرب - سبحانه - ومن كانت تلك صفاته فهو الأولى بالعبادة وحده لا شريك له .

من هداية الآيات :

— أهمية دراسة علم التوحيد ، فهو أصل الدين ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، وبتحقيقه بصورة صحيحة يتم الإيمان بالله — تعالى — .

— يحتاج الإنسان في هذه الحياة إلى غذاء لجسمه كالأكل والشرب ، وغذاء لروحه بالتوحيد والإيمان .

— أن تقسيم العلماء للتوحيد مستقراً من كتاب الله تعالى .

— هناك فرق في المعنى بين الرب والإله ، فالرب : يدل على الإحاطة والخلق والإيجاد والتربية، والثاني يدل على المعبود سواء كان بحق أو باطل .

— يعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما مصدرا التشريع الإسلامي ، ومصدر الهداية للطريق المستقيم ، والذي لا يتصادم مع الفطرة والعقل فما وافقهما أخذنا به ، وما عارضهما نبذناه .

— ضرورة توحيد الله وإخلاص العبادة له — سبحانه وتعالى — لاستقامة الحياة الإنسانية وصلاحها وفلاحها في الدارين .

— غنى الله — سبحانه وتعالى — عن عبادة خلقه ، وأنه — سبحانه — عاملهم الناس معاملة المشفق الرحيم بهم ، الحريص على هدايتهم فأرسل الرسل تلو الرسل ، وأقام الدليل تلو الآخر ، واستخدم الأساليب المختلفة المتنوعة لدعوتهم للدخول في الإيمان وترك الأصنام وكل ما يعبد من دون الله .

— شكر الله — تعالى — على النعم التي وهبنا إياها يكون باستعمالها في طاعته — سبحانه وتعالى — والحذر من معصيته ، والاعتراف بأنها من الله — تعالى — والحذر من إضافتها أو نسبتها لغيره ولو كان من أسبابها ، فيؤمن بأن الله مسببها وهو من أقامها وأنعم بها فهي منه بكل الوجوه .

— أن المسلمين المؤمنين وحدهم من عرف الله حق المعرفة وهذه المعرفة قائمة على العلم والعقل والفطرة وذلك دليل على أن هذا الإسلام دين الله الناسخ للأديان والشرائع السماوية فالحمد لله على أن جعلنا من المسلمين .

— ينبغي الاهتمام بالقضايا الفكرية والعقائدية المستجدة ، ودراستها دراسةً وافيةً ، والاستفادة من التطور الهائل في العلم ، وعرضها على النصوص الشرعية الصحيحة .

__ تنوع الدلالات من الآية الواحدة والتي تصب كلها للدعوة إلى التوحيد ، مما يعطي الأدلة قوةً وتأكيدًا وترابطًا .

__ تشابه الآيات الكونية الناطقة بقدرة الله _ تعالى _ ووحدانيته ، وهذا التشابه دليل على علاقة السور القرآنية مع بعضها وتكاملها .

__ تنوع الألفاظ القرآنية وإيجازها ، فلا يعني تكرار المنظر أو الدلالة تكرارها بحذافيرها بل هناك لمسات بيانية بلاغية وإظهار لجوانب أخرى من الدلالة والإعجاز قد لا تكون ظاهرة في العرض الأول .

__ لا ينتفع بالآيات الكونية أو السمعية إلا أصحاب العقول الرشيدة والفطر السليمة .
__ أمرنا الله _ سبحانه وتعالى _ بالنظر في الكون وتأمله ، وكذلك النظر في خلق أنفسنا ، والطعام الذي نتناوله وهو من الأمثلة القريبة لنا ؛ فالله _ سبحانه _ قد جعل في كل أمر وكل صغير وكبير في خلقه دلالات وعلامات تعرفنا ببعض صفاته _ جل في علاه _ .

__ التوحيد ووحداية الخالق نعمة تستحق الشكر . فالله واحد أحد _ سبحانه _ وكل ما يجري في الكون من وجود وعدم وتغيرات وانتظام الكل في السير وفق ما رسمه الله له ، وكل ما يجري على الإنسان من مقادير فمن الله وحده ، وهي مقدره عليه قبل أن يخلق فلا يجزع ، ويشعر بالعزة ؛ لأنه عبد لهذا الخالق العزيز _ سبحانه _ فكل ما في الكون جار بتصرف الله _ سبحانه وتعالى _ وتديره فلا يملك أحد غيره _ سبحانه _ النفع والضرر .

__ سار المؤمنون منذ الأزل في طريق واحد ، يقوده رسل كرام ، داعين بحقيقة واحدة ، وسائرين على منهج واحد ، كلهم يدعو إلى رب واحد وإله واحد ، فلم تتبدل هذه الدعوة أبدا في أي دين من الأديان السماوية الأخرى .

__ رحمة الله بعباده وفضله الواسع عليهم وتفضيله _ سبحانه _ الجنس البشري على سائر المخلوقات ، فيجب عليهم شكره وعبادته وحده لا شريك له .

__ ضرب الأمثال في القرآن ؛ لما لها من تأثير على قلب وفكر المتأمل فيها .
__ في هذا المثل المضروب لقلب المؤمن الموحد : تنبيه إلى أن القلب هو أصل فروع شجرة الإيمان في قلب المؤمن ، فكلما ازداد إيمان المرء وثبت في قلبه ورسخ كلما علا فرعه ، ونما ثمره وكثرت أعماله الطيبة .

__ ليس لمن أقر بتوحيد الربوبية مدح أو ثناء من الله ؛ لأن عدو البشر الأول إبليس يعترف بذلك

ويقر به ، وفرعون الطاغية ، ولكن الفوز والنجاة في العمل بمقتضى هذا الإقرار .

— من طرق التعليم الحوار والاستفهام مما يراد رسوخه وهو من القواعد العلمية التي لها وقع في نفس المتلقي أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب .

— كتاب الله الكريم زاخر بالآيات الكثيرة التي تدل على عظمة الخالق ، وإبداعه ، وإتقانه لما خلق لذا فهو يرشد العقول ويحثها على دوام النظر والتأمل والملاحظة ودراسة الكون مما يهدي الحائر وينير سبيل السالكين ويأخذ بأيديهم إلى توحيد رب العالمين وإفراده بالعبادة وهذه الهداية من أجل النعم على الإنسان لو تدبر وتأمل .

— الدلالة على البعث والجزاء وثبات ذلك في الآيات القرآنية الكريمة وهو دليل كذلك على كمال عدل الله — سبحانه وتعالى — .

— انفراد الله تعالى بالملك والسلطان وتصريف أمور الخلق والرزق والإحياء والإماتة .

— أن الخير كله بيد الله تعالى .

— أن في خلق جميع المخلوقات حكمة يعلمها الله — سبحانه وتعالى — وأعلم الناس بعضها ؛ ليريهم آياته في الكون .

— تركيز القرآن الكريم على توحيد الألوهية ؛ وكثرة الآيات التي تؤكد وتدل عليه ؛ نظرا لأهميته البالغة في حياة البشر ، فقد صرح الله تعالى : **بَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِي سَبْعَةِ ثَلَاثِينَ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَصَرَحَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي مَوْضِعَيْنِ فَقَطْ، وَهَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، وقوله تعالى في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢)**

— تنوع الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، فكلها تخاطب الفطرة الكامنة في باطن الإنسان ، وعقله ، بطريقة واقعية سهلة لا غموض فيها ولا تعقيد .

ومن هذه الأساليب :

— من دلائل الفطرة التجاء جميع الكائنات لله في وقت الضيق والشدة ؛ لعلمها من بيده كشف الضر عنها ، وفي القرآن آيات تبين التجاء الكفار لله — تعالى — وقت الشدة والضيق ، وإذا كشف الله عنهم عادوا لشركهم وظلمهم .

(١) - سورة البقرة من الآية ١٦٣

(٢) - التفسير الكبير ١٣٠/٢٢ - ٤٤٣/٢٦ ، التفسير المنير ٣٩/١٧

- __ الاستدلال بتوحيد الربوبية ليكون حجة عليهم لتوحيد العبادة .
- __ الاستدلال على وجوب عبادته بتعدد نعمه على خلقه التي يعلمونها ويدركونها ، والتي لا يعلمون بها .
- __ الاستدلال ببديع خلقه ، وإتقان صنعه ، وحكمته في تدييره __ سبحانه وتعالى .
- __ أن خاصية الخلق من أعظم الدلائل لأحقية المعبود ، فالخالق هو المعبود وحده __ جلّ في علاه .
- __ الاستدلال بعجز الآلهة عن الخلق والرزق والنفع والضرر ، وفي هذا التعجيز تسفيه لعقولهم التي تعبد ما لا ينفع ولا يضر نفسه ولا غيره من باب أولى .
- التوحيد الخالص سبب الرقي الصحيح ، فهو الذي يحقق كرامة الإنسان ويمنحه الحرية الحقيقية ، والتوحيد الحق ساعد البشرية في استغلال الموارد الطبيعية ، والتحرر من النظر إلى الأرض و مظاهر الطبيعة كآلهة فعرف الإنسان أن كل شئ من مخلوقات الله - تعالى - وبذلك تهيأ للإنسان تسخير الأرض واستغلالها (١)
- عالج القرآن الكريم النفس الإنسانية في مواقفها من نفسها ومجتمعها وعالمها ومن الرسل ، ومن دعوة الحق والإيمان ، وهذه المواقف تكشف حقيقة الإنسان ، فالمؤمن يتسم موقفه بموافقته للفطرة فتكون استجابته طبيعية ، أما الكافر المكابر فموقفه يعارض الفطرة ويناقض المعقول (٢)
- __ من السنن الكونية في الأمم معاقبة الظلمة المشركين ، ونصرة الموحدين .

(١) - دلائل النبوة المحمدية ص ٧٥٠

(٢) - دراسات من التفسير الموضوعي ص ١٠٣ - ١٠٤

المطلب الثالث : - سجودها لله تعالى - :

خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان لغاية واحدة معلومة وهي عبادته - سبحانه وتعالى - وهو الغني عنهم ، يقول الحق - تعالى - في سورة الذاريات ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ (١) ، ولأجل تحقيق هذه الغاية بعث الله - سبحانه وتعالى - الأنبياء مبشرين ومنذرين ؛ ليدلوا الناس على الطريق المستقيم ، وهو : الدعوة لإفراد العبادة لله وحده ، ونفي استحقاق غيره للعبادة - سبحانه وتعالى - فهو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر مالك الملك - سبحانه وتعالى - ولذلك فالكل عبيده ، وفي هذه العبودية تشریف الإنسان وتكريمه ، وأي تشریف وتكريم بأعظم من إظهار كمال عبوديته لله - تعالى - وحده ، فلا شيء أشرف للإنسان من أن يكون عبداً لله تعالى وحده ، يسير على صراطه المستقيم ، لا نصيب لغير الله تعالى فيه ، فروحه وعقله وبدنه محرر من قيود عبادته لغيره من المخلوقات بعبوديته لله وحده .

فالإيمان بوحداية الله المعبود يحرر الإنسان من مهانة العبودية لغير الخالق ، ويرفع عنه إصرها والأغلال (٢)

يقول الله - تعالى - ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وكرم الله - سبحانه وتعالى - بني البشر ، وجعل أباهم آدم - عليه السلام - خليفة الله في الأرض ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا أجمعين طاعةً لأمر الله - تعالى - يقول الله - تعالى - في ذكر هذا السجود ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) وقوله - تعالى - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

(١) - سورة الذاريات ٥٦-٥٨

(٢) - القرآن وقضايا الإنسان ص ٤٠٨

(٣) - سورة الزمر من الآية ٢٩

(٤) - سورة البقرة الآية ٣٤

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١﴾ وفي هذا السجود تكريم لجنس البشر وفيه تأكيد على أنه لا يليق بمن كرمه الله وجعله خليفة له في الأرض ، وأسجد له الملائكة الأبرار وسخر له ما في الكون أن يعصيه ويتخذ معه الأنداد ، فعبادته وحده لا شريك له حق له عليهم . وجاء القرآن بحقيقة غيبية أخرى لم يكن أحد يعلمها غير سجود الملائكة لآدم - عليه السلام - وهذه الحقيقة هي أن الإنسان ليس الوحيد الذي يعبد الله ويسبحه ، ويسجد له بل الكون بأسره يتحد معه في الغاية التي خُلق من أجلها ، فجميع الكائنات من أصغرها إلى أكبرها تؤدي عبوديتها لخالقها - جل في علاه - وتسبحه وتمجده - سبحانه - .

والآيات في ذلك كثيرة ، ومن الآيات التي جاء فيها ذكر السجود لله - تعالى - ﴿ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ (٢)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤)

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (٥)

في الآيات الكريمة السابقة يتبين أن الله - سبحانه وتعالى - ذكر سجود جميع الكائنات له وحده عموماً ، ونصّ على بعض الكائنات على وجه الخصوص .

(١) - سورة الإسراء الآية ٦١

(٢) - سورة الرعد الآية ١٥

(٣) - سورة النحل الآيات ٤٨-٥٠

(٤) - سورة الحج الآية ١٨

(٥) - سورة الرحمن الآية ٦

وقبل التعرف على كيفية سجود الكائنات لله - تعالى - أقف عند معنى السجود في اللغة والشرع.
السجود في اللغة :

سجد : السين والجيم والبدال أصلٌ واحدٌ مطّرد يدلّ على تطامنٍ وذللّ ، يقال : سجد يسجد سُجوداً ، إذا تطامنَ . وكلُّ ما ذلّ فقد سجد ، وهو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات ومنه سجود الصلاة ، وهو وضع الجبهة على الأرض ، ولا خضوع أعظم منه (١) .

قال الطبري : " أصل "السجود" الانحناء لمن سُجد له معظماً بذلك. فكل منحنٍ لشيءٍ تعظيماً له فهو ساجد " (٢)

قال الأعشى (٣) :

فلما أتانا بُعِدَ الكرى سجدنا له وخلعنا العِمَارا (٤)

وحقيقة السجود طأطأة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهد بالعيان كالسجود للملك والسيد والسجود للكواكب (٥)

والسجود في الكل يجمعه معنى واحد وهو الانقياد (٦)

والسجود شرعاً : عبارة عن هيئة مخصوصة ، والسجود في الصلاة الحُرور على الأرض بالجبهة واليدين والرجلين ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول - سبحانه - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (٧)

(١) _ الصحاح ٤٨٤/٢ ، مادة (سجد) ، معجم مقاييس اللغة ١٣٣/٣ ، المخصص ٣٣٣/٣ ، مفردات غريب القرآن ٢٢٣/١ ، تاج العروس ١٧٢/٨ .

(٢) _ جامع البيان ١٠٤/٢

(٣) _ هو : ميمون بن قيس بن جندل، أبو بصير، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، فسمي (صناجة العرب). عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم. ولقب بالأعشى لضعف بصره. وعمي في أواخر عمره . توفي سنة ٧ . ينظر : البداية والنهاية ٢٥٣/٤ ، الأعلام ٣٤١/٧ ، طبقات فحول الشعراء ٥٢/١

(٤) _ ديوان الأعشى ص ٣٩ ، التحرير والتنوير ٤٢١/١ ، والعمارة : التحية ، أي رفعنا له أصواتنا بالدعاء وقيل وضعناها عن رؤوسنا إعظاماً له .

(٥) _ التحرير والتنوير ٤٢١/١

(٦) _ البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٢١

(٧) - سورة الإسراء من الآية ١٠٧

وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن _
يعني سجود التلاوة - وسجود الشكر، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله: (وأدبار السجود) أي أدبار
الصلاة ويسمون صلاة الضحى سبحة الضحى وسجود الضحى (١)
والسجود نوعان :

النوع الأول : سجود العبادة : ولا يكون إلا لله وحده ، في جميع الشرائع السماوية ، ويكون
لتعظيم الخالق - سبحانه - والتقرب منه . وله مظهران : إما السجود المعتاد في الصلاة ، وإما
الانقياد والخضوع لإرادته - سبحانه - وترك الامتناع .

أما النوع الثاني : فهو سجود التحية والتكريم ، وهذا كسجود الملائكة لآدم عليه السلام عندما
أمرهم الله بالسجود له ، وسجود أبوي يوسف وإخوته ، وقد كان جائزاً في شريعتهم ، أما في
ديننا الإسلام فلا يجوز السجود لغير الله إطلاقاً .

وسجود المخلوقات عموماً - لله تعالى - قسمان :

١ - سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن
وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره .

٢ - سجود اختيار يختص بأوليائه ، وعباده المؤمنين من الملائكة ، وغيرهم من المخلوقات.

الآيات الواردة في سجود عالم النبات لله - تعالى - :

أثبتت النصوص الشرعية أن عالم النبات كغيره من العوالم (٢) الأخرى كلها تقوم بعبادة الله
- تعالى - وتمجده وتسبحه وتسجد له ، فهذه الكائنات التي سخرها الله - سبحانه وتعالى -
للشعر ، ينتفعون منها في كل شؤون حياتهم من غذاء ودواء ولباس وسكن ونحوها كلها تسجد لله
- تعالى - وتسبحه ، وتخضع له خضوعاً تاماً .

وسجود عالم النبات جاء في آيات كثيرة وسأتناولها في مسائل ثلاث :

المسألة الأولى : سجودها لله تعالى ، وفيها :

(١) _ مفردات غريب القرآن ٢٢٤/١

(٢) - والعالم الخلق والجمع العوالم ، وعالمون وعالمين وجمع جمع المذكر السالم العاقل تغليياً والمراد به جميع الكائنات ، ولذلك
أدرجه النحاة فيما ألحق بجمع المذكر فهو اسم جمع وليس جمعاً ، وهو ما سوى الله ، من كل مجموع متجانس من المخلوقات
كعالم الحيوان، وعالم النبات . ينظر : مختار الصحاح ٤٥٢/١ ، لسان العرب ١٢/١٦٦ ، مادة (علم) ، شرح شذور
الذهب ٢٠٢/١ ، النحو الوافي ١٤٨/١ ، جامع الدروس العربية ١٤/٢

- ١ - سجودها مع عموم الكائنات .
 - ٢ - ما نص القرآن على ذكر السجود منها .
- المسألة الثانية : تسييحها لله تعالى وعبادتها له .
- المسألة الثالثة : كيفية سجود ما نصت عليه الآية .

المسألة الأولى : سجودها لله تعالى ، وفيها :

١ - سجودها مع عموم الكائنات :

من الآيات التي جاء بها سجود الكائنات على العموم ، قوله - تعالى - في سورة الرعد ﴿ وَرَبِّهِ

يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ (١)

طَوْعًا : الطوع الانقياد وبيضاده الكره ، طاعه يطوعه وطاوعه أي انقاد له (٢) والمراد بالطوع

الانسياق من النفس تقرّباً وُزُفَى لمحض التعظيم ومحبة الله (٣) .

كَرْهًا : الكره الاضطرار عند الشدة والحاجة ، وهم من أكرهوا على السجود فسجدوا لله -

سبحانه - من خوف (٤) وقيل : سجود الكافر كرهاً : أي تذلل وانقياده لما يريد الله منه من

عافية ومرض وغنى ونحوها (٥)

قال ابن كثير : " فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً ، فإنه تحت

التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع " (٦)

ظلالهم : جمع ظل . والظل . بالكسر : نقيض الضح ، وهو الخيال المقابل للشمس المنعكس

إليه نور (٧) .

بالغدو جمع غدوة : وهي أول النهار ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (٨)

والأصال جمع أصيل : وهو ما بين العصر و المغرب (٩) .

(١) - سورة الرعد الآية ١٥

(٢) - مفردات غريب القرآن ٣١٠/١ ، لسان العرب ٢٤٠/٨ ، مادة (طوع) ، المصباح المنير ٤٥٠/٢ .

(٣) - التحرير والتنوير ١١٠/١٣

(٤) - تأويل مشكل القرآن ٢٣٧/١ ، جامع البيان ٤٠٣/١٦ ، الوجيز ٥٦٨/١ ، معالم التنزيل ٦٣/٢ ، التفسير الكبير

٢٦/١٩ ، البحر المديد ١٥/٣ ، التحرير والتنوير ١١٠/١٣

(٥) - ينظر : فتح القدير ٧٣/٣ .

(٦) - تفسير القرآن العظيم ٦٩/٢

(٧) - جامع البيان ٤٠٥/١٦ ، مفردات غريب القرآن ٣١٤/١ ، تاج العروس ٤٠٢/٢٩ ، مادة (ظلل)

(٨) - جامع البيان ٤٠٥/١٦ ، لباب التأويل ١٣/٤

(٩) - جامع البيان ٤٠٥/١٦ ، لباب التأويل ١٣/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٤٦/٤ ، إرشاد العقل السليم ١٢/٥

وخص هذان الوقتان بالذكر ؛ لأنّ الظلال إنّما تعظم وتكثر فيهما ، وقيل : لأثما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما (١)

في هذه الآية الكريمة يقرر الحق - سبحانه وتعالى - سجود جميع الكائنات له وحده ، وعبوديتها التامة ، فهم جميعاً لا يخرجون عن مشيئة الله - تعالى - أرادوا ذلك أم أبو ، فكلهم مقهورون خاضعون لله الواحد القهار - سبحانه وتعالى - وكذلك ظلال جميع المخلوقات تنقاد له - سبحانه - وتخضع لعظمته ، وتحرك بإرادته أول النهار وآخره .

والسُّجود هنا عبارة عن الانقياد ، والخضوع ، وترك الامتناع ، كلٌّ من في السموات ، والأرض ساجد لله بهذا المعنى ؛ لأنّ قدرته ، ومشيئته نافذة في الكل .

قال أبو حيان (٢) : " والذي يظهر أنّ مساق هذه الآية إنّما هو أنّ العالم كله مقهور لله تعالى ، خاضع لما أراد منه مقصور على مشيئته ، لا يكون منه إلا ما قدر تعالى . فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر ، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود . والظلال ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ، ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى يصرفها على ما أراد ، إذ هي من العالم . فالعالم جواهره وأعراضه داخلة تحت إرادته (٣)

وهذا كما في قوله - تعالى - ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفِيوهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤)

فقوله - تعالى - من شئ ؛ دلالة على سجود كل شئ لله رب العالمين .
ينفيوا : تفيئاً : تفعل من فاء الظلّ فيئاً ، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس . لعلّ أصله من فاء إذا رجع بعد مغادرة المكان ، وتفيئ الظلال تنقلها ودورانها وتقلبها (٥).

(١) _ لباب التأويل ٤/ ١٣ ، البحر المحيط ٥/ ٣٦٩ ، إرشاد العقل السليم ٥/ ١٢

(٢) - هو : محمد بن يوسف بن علي ، ابن حيان الغرناطي الأندلسي ، أثير الدين ، أبو حيان ، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، أقام بالقاهرة ، وتوفى فيها بعد أن كف بصره سنة ٧٤٥ . ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ٩ / ٢٧٥ ، البداية والنهاية ١٨ / ٤٧٣ ، شذرات الذهب ٦ / ١٤٥ ، الأعلام ٧ / ١٥٢ .

(٣) _ البحر المحيط ٥/ ٣٦٩

(٤) - سورة النحل الآية ٤٨

(٥) _ الصحاح ١/ ٦٣ ، مادة (فيأ) ، المفردات في غريب القرآن ١/ ٣٨٩ ، تاج العروس ١/ ٣٥٤

والظلال من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأبدعها ، وجعلها مهیئة في نظام خلق الكائنات الأرضية ، لحكم منها : أن تكون دالةً على انفراده - سبحانه - بالألوهية ، وعلى حاجة المخلوقات إليه ، وجعل أكثرها في نوع الإنسان لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان ، والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام واحد مضطرد ، والاستدلال على أن الأشياء تسجد لله ؛ لأن ظلالها واقعة على الأرض في كل مكان (١) في هذه الآية الكريمة بعد أن خوف - سبحانه - المشركين ، وتوعدهم ، بأنواع من العذاب ، أردف ذلك بآيات دالة على كمال قدرته القاهرة في مخلوقاته ، فاستفهم منهم استفهامًا إنكاريًا لتوبيخهم ، أعميت أعينهم عن النظر للمخلوقات ذات الظلال كالجبال والأشجار وغيرها والتي تتمايل ظلها يمينًا وشمالًا ، وهي في كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله - تعالى - جارية على ما أرادها لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة لتدبيره - سبحانه وتعالى - وقهره وتسخيره .

والرؤية بصرية ، فهم يرون هذه القدرة الباهرة ومع ذلك لم تنفعهم ولم يتعظوا بها . وجعل الله - سبحانه وتعالى - أجسام الناس ذات ظلال ؛ ليشعرهم أن ظلهم ساجدة على الأرض له بالقهر والجبر ، كما أن أجسادهم خاضعة لسلطانه إيجابًا وعمدًا وتصرفًا بالقهر والجبر ، فمن الخير للإنسان أن يكون في حركته الإرادية ساجدًا مع الساجدين ، وأن يجعل ما هو فيه مختار مثل ما هو فيه مجبور " (٢) أي ويسجد ظلهم ، أو تنقاد أيضًا حيث تخضع لمشيئة الله في الامتداد والتقلص والفيء والنوال وكل شخص مؤمن كان أو كافر فإن ظلّه يسجد لله - تعالى - وهذا قول مجاهد (٣) ، وبعض المفسرين (٤)

(١) - التحرير والتنوير ١١١/١٣

(٢) - المعين على تدبر الكتاب المبين ص ٢٧٢

(٣) - هو : مجاهد بن جبر ، شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات ، يقف عند كل آية يسأله : فيم نزلت وكيف كانت ؟ وتنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة . ينظر : سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩ ، طبقات المفسرين للأدنوي ١/١١ ، الأعلام ٥/٢٧٨

(٤) _ الكشف والبيان ٥/٢٨٣ ، الوجيز ١/٥٦٨ ، الكشاف ٢/٥٢١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٢٧ ، لباب التأويل ٤/١٣ ، التفسير الكبير ١٩/٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ١/٣٩٧ .

وفي سجود الظلال قولان ، هما : أن سجودها سجود حقيقي وأن الله - تعالى - خلق لها إدراكًا وتمييزًا ، والثاني : أن سجودها هو ميلها إلى جهة الشمال ، وإلى جهة اليمين ، وعليه فليس لها إدراك .

قال ابن الأنباري (١) إنه لا يبعد أن جعل الله - تعالى - للظلال عقولاً تسجد وتخشع بها ، كما جعل للجبال أفهاماً حتى خاطبت وخوطبت " (٢) وضعف هذا القول أبو حيان : " لأنّ الجبل يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به ، وإنما معنى سجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب كما أراد تعالى (٣)

قال الشنقيطي (٤) : إن الله جل وعلا قادر على كل شيء فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكاً يسجد به لله تعالى سجوداً حقيقياً ، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة (٥) ولا شك أن انتقال الظل من حال إلى حال دليل على القدرة الكاملة ، هذا في الجمادات فما بالنا في الكائنات - سبحانه جل في علاه - .

وعلى كلٍ ، فإنه ثبت من الآية الكريمة سجود الظلال وسجودها بحسبها كالمخلوقات الأخرى ،

(١) - هو : أبو بكر محمد بن أبي محمد الأنباري النحوي صاحب التصانيف في النحو والأدب ، كان علامة وقته في الآداب وأكثر الناس حفظاً لها ، وكان صدوقاً ثقةً ديناً خيراً من أهل السنة ، وصنف كتباً كثيرةً في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء وغيرها ، توفي سنة ٣٢٨ ، ينظر : وفيات الأعيان ٣٤١/٤ ، تذكرة الحفاظ ٤٢/٣ ، شذرات الذهب ٣١٥/٢

(٢) - الجامع لأحكام القرآن ٣٠٢/٩ ، الباب في علوم الكتاب ٢٨٢/١١ ، البحر المحيط ٣٦٩/٥ ، فتح القدير ٧٣/٣

(٣) - البحر المحيط ٣٦٩/٥

(٤) - هو : محمد الأمين الشنقيطي ، ولد عام ١٣٢٥ عند ماء يسمى (تنبه) من شنقيط وهي موريتانيا الآن ، نشأ في بيت علم وصلاح ، و حفظ القرآن وهو في العاشرة ، قدم لآداء الحج ثم عزم البقاء في المملكة ، وعمل في كبريات المعاهد والجامعات ، توفي سنة ١٣٩٣ ، له كتاب : (أضواء البيان) وبعض الكتب . ينظر : ترجمته في مقدمة كتابه أضواء البيان ١٨-٦٤ ، علماء ومفكرون عرفتهم ١٧١/١-١٩١ ، العلامة الشنقيطي مفسراً ص ٥٣-٧٧ ، وهناك ترجمة وافية للشيخ قام بها الشيخ عبد الرحمن السديس .

(٥) - أضواء البيان ١٠٠/٣ ، وجمع بين القولين الشوكاني في فتح القدير ٧٣/٣ ، الكلام حول هذه القاعدة الأصولية يراجع : روضة الناظر ٥٦٣/٢ ، شرح مختصر الروضة ٥٥٨/١ ، التمهيد في أصول الفقه ٨/١ ، الرسالة السعدية في أصول الفقه ص ٦٤ ، التعليقات المنيفة على فصول الرسالة السعدية ص ٦٥ ، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ٣٨٧/١

كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) وقوله - سبحانه - ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢)

والسجود في هذه الآية يحتمل النوعين ؛ لأن سجود كل شيء بحسبه ، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة ، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد .

في هذه الآية استكمال لما قرره الآية السابقة لها من سجود ظلال الأجسام لله - تعالى - فليست وحدها من يسجد لخالقها - سبحانه - بل كل ما في الأرض والسماء يسجد له ، كل بحسبه ، وخص - سبحانه - الدواب من مخلوقات الأرض ؛ لأنها كالإنسان ذات حس وحركة وإن كانت دونه منزلة .

وخص - سبحانه - من مخلوقات السماء بالذكر : الملائكة بعد عموم المخلوقات ؛ لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا عقب - سبحانه - بعد ذكر سجودهم بصفات من صفاتهم وهي : أنهم لا يستكبرون عن عبادته - سبحانه - ويطيعونه ويخافونه .

٢ - النص على السجود منها :

في سورة الحج خص - سبحانه - بعض المخلوقات بالسجود له ومنها الشجر . يقول - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)

يخاطب الله - تعالى - عباده الذين خلقهم مزودا إياهم بأدوات المعرفة والعلم ، فيقول - سبحانه - لهم : ألم تعلموا علما يقينيا جليا كالرؤية البصرية بأن الله - سبحانه - يسجد له الكون كله علويه وسفليه ، فيسجد لعظمته - سبحانه - من السماوات : الملائكة ، ومن الأرض : الإنس

(١) - سورة الإسراء من الآية ٤٤

(٢) - سورة النحل الآيات ٤٨-٥٠

(٣) - سورة الحج الآية ١٨

والجن ، والشمس والقمر والنجوم ، والشجر والدواب ، وكثير من الناس يسجد لله طائعا مختاراً متعبداً لخالقه بذلك سجود طاعة وعبادة فوق السجود العام الشامل له ولغيره من الكائنات . وكثير منهم امتنع من السجود فحق عليه عذاب الله وثبت .

ونص الله - تعالى - على بعض الأفراد بالذكر ؛ لشهرتها ولأن بعض الناس كانوا يعبدونها ، ولاستبعاد بعض الناس سجودها لله - تعالى - ، فقرر الله - سبحانه وتعالى - أنها من مخلوقاته المسخرة الخاضعة المنقادة له - سبحانه - فكيف تسجدون لمن هي مربوبة لخالقها - سبحانه -

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١)

وفي سورة الرحمن قوله - تعالى - ﴿ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ﴾ (٢) أجمع المفسرون على أن الشجر ما قام على ساق كما ذكر ذلك الطبري ونقله عنه ابن كثير ثم اختلفوا في معنى النجم ، على قولين :

القول الأول : النَّجْمُ. النبات الذي لا ساق له ، وسمي نجماً لأنه نجم ، أي ظهر وطلع وجه الأرض ، و نجم على غير ساق كالعشب ، والبقل كالحنطة والبقول وشبهها . وهو قول ابن عباس ، و سعيد بن جبیر (٣) ، والسدي (٤) وسفيان الثوري (٥)

(١) _ سورة فصلت من الآية ٣٧

(٢) _ سورة الرحمن الآية ٦

(٣) - هو : سعيد بن جبیر الأسدي ، الكوفي ، أبو عبد الله: تابعي وهو حبشي الأصل ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر قتله الحجاج عام ٩٥ ، وقال بعضهم كان أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحنج عطاء وبالخلال والحرام طاووس ، وبالتفسير مجاهد وأجمعهم لذلك سعيد بن جبیر . ينظر : تذكرة الحفاظ ١/٦٠-٦١ ، سير أعلام النبلاء ٤/٣٢١ ، طبقات المفسرين للأذنوي ص ١٠

(٤) - هو : إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، تابعي ، حجازي الأصل ، سكن الكوفة ، كان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس ، توفي سنة ١٢٨ . ينظر : الثقات ٤ / ٢٠ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٤ ، الكاشف ١ / ٢٤٧ ، تاريخ أسماء الثقات ١/٢٧

(٥) - هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث . كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى . ولد ونشأ في الكوفة ، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم ، فأبى وخرج من الكوفة ، مات بالبصرة مستخفياً سنة ١٦١ ، لم من الكتب : (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير) . ينظر : السلوك في طبقات العلماء والملوك ١ / ١٢٩ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٣٦ ، طبقات الفقهاء ١ / ٨٤

وجملة من المفسرين وأهل اللغة (١) ، واختاره ابن جرير رحمه الله ، واستظهره الخازن ، وأبو حيان ؛ لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر (٢)

قال الطبري : " وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بالنجم : ما نجم من الأرض من نبت لعطف الشجر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى: أنه تسجد له الأشياء كلها المختلفة الهيئات من خلقه، أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره " (٣)

القول الثاني : النجم الذي في السماء. وهو قول مجاهد والحسن (٤) وقتادة. واستظهره ابن كثير (٥) والشنقيطي ودلّل على ذلك بقوله : " أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه.

ونعني بآية الحج قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ ﴾ (٦) فدلّت هذه الآية أن الساجد من الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم النجوم " (٧)

(١) - معاني القرآن للفراء ١١٢/٣، جامع البيان ٥١٦/١-١١/٢٢، الكشف والبيان ١٧٨/٩، مفردات غريب القرآن ٤٨٣/١، معالم التنزيل ٤٤٢/٧، الكشف ٤٤٣/٤، المحرر الوجيز ٢٢٤/٥، التفسير الكبير ٣٣٩/٢٩، السراج المنير ١٠٦/٤، إرشاد العقل السليم ١٧٧/٨، البحر المديد ٢٦٦/٧، تاج العروس ٤٧٥/٣٣، مادة (نجم)، فتح القدير ١٣١/٥، روح المعاني ١٠٠/١٤، تيسير الكريم المنان ٨٢٨/١

(٢) - لباب التأويل ٢/٧، البحر المحيط ١٨٧/٨

(٣) - جامع البيان ١٢/٢٢

(٤) - هو : الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري: أمه خيرة مولاة أم سلمة نشأ بالمدينة وحفظ كتاب الله وكان جامعاً عالماً رفيحاً ثقةً حجةً، زاهدًا عابداً، و أحد الشجعان الموصوفين، توفي سنة ١١٠. ينظر: حلية الأولياء ١٣١ / ٢، طبقات الفقهاء ٨٧ / ١، سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٦٣، تذكرة الحفاظ ١ / ٥٧

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٤٨٩/٧

(٦) - سورة الحج من الآية ١٨

(٧) - أضواء البيان ٧٣٧/٧

وجوز الزجاج (١) كلا القولين ، فقال : " ويجوز أن يكون النجم ههنا يعني به ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء ، يقال لكل ما طلع قد نَجَم " (٢)

المسألة الثالثة : كيفية سجود المخلوقات التي نصت عليها الآية عدا الإنسان :

أ - سجود الشمس والقمر والنجوم :

في الصحيحين عن أبي ذر (٣) قال النبي لأبي ذر حين غربت الشمس : " أتدري أين تذهب ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها : ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها " . فذلك قوله ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ ﴿٤﴾ (٥)

وقال أبو العالية (٦) : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر ، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته (٧).

(١) - هو : إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، نحوي زمانه ، لزم المبرد ، فكان يعطيه من عمل الزجاج كل يوم درهما ، فنصحه وعلمه . ثم أَدب القاسم بن عبيد الله الوزير ، فكان سبب غناه ، ثم كان من ندماء المعتضد . له مصنفات جمّة منها : (معاني القرآن وإعرابه) ، و (العروض) مات سنة إحدى عشرة وثلاث مائة . ينظر : وفيات الأعيان ١ / ٤٩ ، سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٦٠ ، البلغة في تراجم أئمة النحو ١ / ٢

(٢) - معاني القرآن للزجاج ٩٦/٥

(٣) - هو : جندب بن جنادة من بني غفار ، أبو ذر : من كبار الصحابة ، كان خامس خمسة في الإسلام ، وقصة إسلامه مشهورة في الصحيح ، يضرب به المثل في الصدق ، وكان كريماً لا يخزن من المال قليلاً ، ولا كثيراً ، وهو أول من حيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتحية الإسلام ، هاجر بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى بادية الشام ، فأقام إلى أن توفي أبو بكر وعمر وولي عثمان - رضي الله عنهم - ، سكن بالريذة (من قرى المدينة) إلى أن مات سنة ٣٢ . ، ولما مات لم يكن في داره ما يكفن به . ينظر : سير أعلام النبلاء ٤٦/٢ ، الإصابة في تمييز الصحابة ٦٠/٧ ، شذرات الذهب ٣٩/١

(٤) - سورة يس الآية ٣٨

(٥) - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب : في النجوم ، ح ٣١٩٩ ص ٢٥٩ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ، ح ٣٩٥ ، ص ٧٠٤ .

(٦) - هو : أبو العالية الرياحي ، رفيع بن مهران البصري ، كان إماماً في القرآن والتفسير والعلم والعمل ، وأخذ القراءة عرضاً عن أبي وزيد بن ثابت وابن عباس مات سنة تسعين والأصح سنة ثلاث وتسعين . ينظر : تذكرة الحفاظ ١/٤٩ ، طبقات الفقهاء ١/٨٨ ، طبقات المفسرين ٩/١

(٧) - جامع البيان ١٨/٥٨٦ ، الكشف والبيان ٧/١٢ ، معالم التنزيل ٣٧٢/٥ تفسير القرآن العظيم ٥/٤٠٣

والحجارة تهبط من خشية الله كما في قوله - تعالى - ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (١)

فهذا حال الجبال وهي من الحجارة الصلبة ، ومع هذا ترق وتخشى وتتصدع من جلال عظمة الخالق - سبحانه - فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من الجبال لا تلين ولا تحشع فليس بمستنكر على الله عز و جل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجه ومواعظه (٢)

ب - سجود الجبال والشجر :

اختلف العلماء بكيفية سجودهما : ف قيل سجودها في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وقيل النجم هو الكوكب وسجوده طلوعه ، وقيل : أن السجود في هذا كله تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، تعرف ربها وتسجد له ، وتطيع وتحشع وأنها لا تمتنع فهما منقادتان لله فيما خلقا له (٣).

قال ابن كثير : " وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال " (٤)

وفي السنة ما يدل على سجود الشجر ومن هذه الأدلة الحديث الذي رواه ابن عباس - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود (٥)

(١) - سورة البقرة من الآية ٧٤

(٢) - مفتاح دار السعادة ٢٢١/١

(٣) - معاني القرآن للفراء ١١٢/٣ ، الكشف والبيان ١٧٨/٩ ، الكشف ٤٤٣/٤ ، المحرر الوجيز ٢٢٤/٥ ، البحر

المديد ٢٦٦/٧ ، تيسير الكريم المنان ٨٢٨/١ ، معالم التنزيل ٤٤٢/٧ ، لباب التأويل ٢/٧ ، إرشاد العقل السليم ١٧٧/٨

(٤) - تفسير القرآن العظيم ٤٠٣/٥

(٥) - أخرجه الترمذي في سننه المطبوع مع تحفة الأحوذوي ، أبواب الجمعة ، باب : ما جاء ما يقول في سجود

القرآن ١٨١/٣ ، وابن ماجه في سننه ، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها ، باب : سجود القرآن ، ح ١٠٥٣ ، ص ٢٥٣٨

وقال مجاهد: سجودها تحول ظلالها (١) ، وقيل : سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلا وهو

مطيع لله خاشع له مسبح له كما أخبر الله تعالى عن السموات والأرض ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٢)

ج - الدواب : جمع دابة وهي اسم يقع على كل حيوان يتحرك ويدب فيدخل فيه الإنسان ؛ لأنه مما يدب على الأرض .

يخبر - تعالى - عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له الكون كله ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جمادها وحيواناتها ، ومكفوها من الإنس والجن والملائكة ، فكل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال ، فإنه ساجد بظله لله - تعالى - .

قال الخازن : "لأن سجود كل شيء بحسبه فسجود المسلمين ، والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد " (٣)

وبيّن ابن تيمية كيفية سجود المخلوقات لله - تعالى - وأنه لا يشترط أن يكون مثل سجود الإنسان بل كل بحسبه كما ذكر ذلك بعض المفسرين ، فقال : " ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ومن الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها كما قال -تعالى-

﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ (٤) وإنما قيل ادخلوه ركعاً ومنهم من يسجد على جنب كاليهود فالسجود اسم جنس ولكن لما شاع سجود الأدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد " (٥)

فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقها عنها كما لا نفقه تسيحها وكذلك قوله

﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا

(١) - الكشف والبيان ١٢/٧ ، معالم التنزيل ٣٧٢/٥

(٢) - سورة فصلت الآية ١١

(٣) - لباب التأويل ٩٤/٤

(٤) - سورة البقرة الآية ٥٨

(٥) - جامع الرسائل ٢٧/١

لَمَا يَهْبُطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿١﴾ وقد علم الله هبوطها من خشيتها ولم يعرفنا ذلك فنحن نؤمن بما أعلمنا - سبحانه - .

فلا بد للمؤمن أن يُرجع مالا يدركه بعقله القاصر إلى الله - سبحانه - ، ويؤمن به كما جاء في النصوص الشرعية ، ولا يجعل عقله و فهمه مقياساً لإيمانه بها ، فالإيمان بالغيب إجمالاً من صفات المؤمنين الموحدين والتي أثنى الله - سبحانه وتعالى - عليهم بهذا الإيمان ، بل هو أول صفة أثنى عليهم بها من صفاتهم ، فهم لا يقفون بإيمانهم عند الماديات والمحسوسات بل يؤمنون بكل ماجاء به الرسل الكرام من ربه من أوامر ونواهي وأخبار ومعجزات ، عندها تكون النفس متشعبةً بالإيمان ، ونور الإيمان متغلغل في النفس ، فتظهر الأعمال الصالحة من الجوارح ، جعلنا الله -تعالى- من المتقين .

والغيب هو : كل ما غاب عن العين ، والغين والياء والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تسنُّر الشيء عن العيون، ثم يقاس .

وهو خلاف الشهادة ، وكل ما غاب عن الإنسان مما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء - عليهم السلام - وقيل : هو القرآن ، وقيل : القدر : وكل هذه المعاني إشارة إلى بعض ما يقتضيه لفظه (١).

قال الجرجاني في تعريفه : " الغيب المكنون والغيب المصون هو السر الذاتي وكنهه الذي لا يعرفه إلا هو ولهذا كان مصوناً عن الأغيار ومكنوناً عن العقول والأبصار " (٢)

وقيل : الغيب هو ما لم يتم عليه دليل ، ولم ينصب له أمانة ، ولم يتعلق به علم مخلوق (٣) .

(١) _ الصحاح ١/١٩٦ ، مادة (غيب) ، معجم مقاييس اللغة ٤/٤٠٣ ، جامع البيان ١/٢٣٧ ، مفردات غريب

القرآن ١/٣٦٦ ، المعجم الوسيط ٢/٦٦٧

(٢) _ التعريفات ص ١٦٣

(٣) _ كتاب الكليات ١/٦٦٧

المسألة الثانية : تسييحها لله تعالى وعبادتها له :

عالم النبات ضمن الكائنات الأخرى التي تنزه الله تعالى ، وتعظمه وتمجده وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته ، كما في قوله - تعالى - ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١) وقوله - جل شأنه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

التسييح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ، فالمسيح مسرع في تنزيه الله من كل ما لا يليق به - سبحانه - ، والعرب تقول: سبحان من كذا، أي ما أبعدَه (٣) .
والتسييح : قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه ؛ ولذلك سمي ذكر الله تسييحاً ، والصلاة سبحةً ، ويطلق التسييح على قول سبحان الله ؛ لأن ذلك القول من التنزيه (٤)

فالكل يسبح خالقه ، ولكننا لا نفقه هذا التسييح ؛ لأنه بخلاف لغتنا ، وفوق مستوى أفهامنا ، ومن خلق الخلق هو الذي يعلم الكيفية كما يقول - سبحانه - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٥)

كما ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن مسعود أنه قال: ولقد كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل (٦)

(١) - سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢) - سورة النور الآية ٤١

(٣) - الصحاح ٣٧٢/١ ، مادة (سبِح) ، معجم مقاييس اللغة ١٢٥/٣ ، مفردات غريب القرآن ٢٢١/١ ، المعجم الوسيط ٤١٢/١ ، تاج العروس ٤٤٥/٦

(٤) - التحرير والتنوير ٤٠٥/١

(٥) - سورة الملك الآية ١٤

(٦) - صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام ، ح ٣٥٧٩ ، ص ٢٩١ ، وينظر : الوفا

بأحوال المصطفى ١ / ٤٩٢ ، السيرة النبوية للذهبي ص ٢٤٦

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْحُبُ بِحَبِّهِ ﴾ خلاف مشهور ، والصحيح : أنه يسبح حقيقةً ويجعل الله فيه تمييزًا بحسبه (١) (٢).

وخلاصة أقوال العلماء في تفسير كيفية سجود هذه الكائنات :

القول الأول : أنه سجود كسجود الإنسان وهو معنى السجود شرعًا ، ولكن هذا القول يتعذر فعله من بعض الكائنات .

القول الثاني : أنه سجود بمعنى الانقياد والسير حسب النواميس الكونية ، وهذا القول فيه تغليب للمعنى اللغوي للسجود على الحقيقة الشرعية وهذا مخالف للقاعدة الأصولية التي تقول : عند تعارض الحقيقة اللغوية والشرعية تقدم الحقيقة الشرعية وأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة الشرعية واللغوية حمل على الشرعية (٣) .

القول الثالث : أنه سجود كل كائن بحسبه ، وهو القول الراجح (٤)

قال ابن القيم : " وهو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته دليل لعزته مقهور تحت سلطانه تعالى " (٥)

فكل المخلوقات مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك ، كلها في موكب خاشع تسجد لله رب العالمين وتتجه إليه في وحدة واتساق إلا الناس فمنهم الكثير الذي يشذ عن هذا الموكب المتناسق .
و هذه الآيات الكريمة تزيد الشعور بعظمة الخالق - سبحانه - وتؤكد وحدانيته وألوهيته وأحقية بالعبادة وحده لا شريك له ، وفيها أيضًا تعريض بالإنسان الذي أكرمه الله - تعالى - وميزه بالعقل ، وأمر الملائكة بالسجود له ومع ذلك كثير من الناس يتخذ الأنداد والشركاء ، ولم يغن عنه

(١) _ صحيح مسلم بشرح النووي ٣٦/١٥ ، كتاب الفضائل ، فضل نسب النبي _ صلى الله عليه وسلم _ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .

(٢) _ للاستزادة حول سجود الكائنات وتسيبها وحمدها لله تعالى يراجع كتاب عبودية الكائنات لرب العالمين ص ٢٢٤ وما بعدها ، وينظر . معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد ص ١٢ - ٢٢

(٣) _ التمهيد في أصول الفقه ٢/٢٥٢ ، المستصفي من علم الأصول ١/٣٥٧ ، روضة الناظر ٢/٥٥٢ ، شرح مختصر الروضة ٢/٢٠٧ ، الرسالة السعدية ص ٧٧

(٤) _ لباب التأويل ٤/٩٤ ، جامع الرسائل ١/٢٧ _ والفتاوى الكبرى ١/٣٥٤ ، التفسير الكبير ٢٣/٢١٣ ، لسان العرب ٢/٤٧٠ ، تفسير الكريم المنان ١/٤١٥

(٥) _ مدارج السالكين ١/١٠٧

عقله ولا آثار نعم الله عليه من أجل أن يسلك هذه الكائنات والجمادات التي تسبح الله وتنزهه
عن الشركاء والأنداد .

من هداية الآيات :

- اشتراك الكائنات الأخرى مع الإنسان في الغاية التي خلقه الله تعالى من أجلها وهي عبادته - سبحانه وتعالى - وثبوت ذلك في آيات قرآنية .
- ثبت في الآيات الكريمة سجود جميع الكائنات سواء كانت حية أم جامدة وتسييحها لله - تعالى - .
- مذهب أهل السنة في سجود الكائنات هو : إثبات سجود جميع المخلوقات لله تعالى والتسليم بذلك ولو كنا لا نعلم كيفية سجود بعضها .
- تكريم الله تعالى للإنسان ليس لميزة امتاز بها ، بل هي من فضل الله - تعالى - عليه ، ومع ذلك لم يقابلها وغيرها من النعم بالشكر اللائق به - سبحانه - بل اتخذ معه الأنداد .
- دلالة أحوال المخلوقات كلها من حي عاقل وغير عاقل ومن جامد على الربوبية والألوهية ، فكلها شاهدة على ربوبية خالقها ومبدعها ، وتفرد بالألوهية وأحقية أفراد العبادة .

المطلب الرابع : سياقها في عموم علم الله - تعالى - :

أعدّ الله - سبحانه وتعالى - الإنسان لعمارة الكون والعمل الصالح ، وزوده بفطرة نقية تدله على كل خير وتبعده عن كل شر ، وأودع فيه علمًا وقابليّةً للتعليم ، وخصه بميزة العقل ؛ بما يعينه على الانتفاع مما حوله في الكون وإلا فالإنسان خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا ، كما قال - تعالى -

﴿ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

ووعده أن يريه آياته - سبحانه - في الآفاق والأنفس ، وفتح ذهنه ببعض الطاقات ، وأعانته بالعلم ببعض القوانين الكونية .

وزوّد الله البشر بقابلية الإدراك واكتساب العلم بنواميس الطبيعة ؛ ليتسنى لهم أن يكتشفوا قوى المواد وطبائعها ويتفهموا خصائص الأشياء وعلاقاتها فيستغلوا الفرص المواتية في تسخير بعضها ببعض واستثمارها بالجمع والتركيب أو التفريق والتحليل (٢)

وهذا العقل هو الذي يرسم له الطريق ويعينه في شتى أمور حياته ، ويميز به بين ما يضره وما ينفعه ويجعله يدرك أن الوجود أكبر وأشمل مما تدركه حواسه ، وفي هذا تصور لحقيقة وجوده في الكون كله ، ومكانته وموقعه بين الكائنات ، ودوره في الحياة ، ولماذا خُلق ؟ وبه يدرك حقيقة من يدبر هذا الكون الفسيح وما فيه من مخلوقات ، ويعلم بما فيه من دقيق وجليل ، وموجود ومعدوم - سبحانه - العليم الخبير .

وبهذا العقل يدرك الإنسان إدراكًا واضحًا أن الله - تعالى - علم مقادير الخلق قبل خلقهم ؛ فوجود هذا الكون والمخلوقات التي فيه تدل دلالة واضحة على هذه الحقيقة ، بالإضافة إلى الإبداع والإتيان فيها ، ويدرك الإنسان سيرها جميعًا وفق سنن وقوانين ثابتة وأسباب ، وأن بعضها يكمل بعضًا في دورة الحياة .

ومن رحمة الله - تعالى - بالإنسان وحكمته وتدبيره أنه أطلعه على ما يلزمه للانتفاع مما في الأرض والقيام بخلافة الأرض وتسخير ما فيها له وفق ما قدره الله - تعالى - له ودبره ، وفتح له مجال بعض المعارف ، وأذن له للعلم بها - وهذا العلم لا يساوي شيئًا أمام علم الله - تعالى -

(١) - سورة النحل الآية ٧٨

(٢) - الإيمان أثره في حياة الإنسان ص ٥٢

قال الخطابي (١) : " والآدميون - وإن كانوا يوصفون بالعلم - فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات دون نوع ، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال ، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل ، ويعقب ذكرهم النسيان ، وقد نجد الواحد منهم عالماً بالفقه غير عالم بالنحو ، وعالماً بهما غير عالم بالحساب وبالطب ، ونحوهما من الأمور ، وعلم الله - سبحانه - علم حقيقة وكمال ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (٣) " (٤) وعلم الله حقيقي لائق به - سبحانه - كما قال الشنقيطي : " ولا شك أن للخالق جل وعلا علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء. كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم وبين علم الخالق والمخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق " (٥)

وكما علم - سبحانه - الإنسان بعض العلم فقد أخفى عنه الكثير ، فالغيب لا يعلمه إلا هو - سبحانه وتعالى - ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ (٦) فهو - سبحانه - من انفرد بعلم الضمائر والسرائر والغيوب كلها ، ولا يطلع على هذا الغيب إلا من ارتضاه - سبحانه - من رسله الكرام - عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم - مما اقتضته الحكمة الإلهية أما غير ذلك فلا يرقى إلى غيبه أحد فكيف بغيرهم من عامة البشر !
ومن أسماء الله تعالى المتعلقة بعلمه - تعالى - : العليم والخبير والشهيد وعلام الغيوب وغيرها ، وبينها تشابه فكلها تدل على كمال وشمول علم الله - تعالى - .

(١) - هو : حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي ، أبو سليمان : فقيه محدث ، يقال إنه من سلالة زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي ولم يثبت ذلك كان إماماً في الفقه والحديث واللغة ، له تصانيف بديعة منها " غريب الحديث " و " معالم السنن في شرح سنن أبي داود ، توفي سنة ٣٨٨ . ينظر : وفيات الأعيان ٢/٢١٤ ، سير أعلام النبلاء ١٧/٢٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٨٢ ، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ١/٢٠

(٢) - سورة الطلاق الآية ١٢

(٣) - سورة الجن الآية ٢٨

(٤) - شأن الدعاء ص ٥٧

(٥) - الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً ص ١٢

(٦) - سورة الجن الآيات ٢٦-٢٧

فالعليم معناه تعميم جميع المعلومات ومنها الخبير ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ومنها الحكيم ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه أنه لا يغيب عنه شيء ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى ما علم . ومنها المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق ، وقد قال - جل وعلا - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ

خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١)

والخبير أخص من العليم ، وهو العليم بدقائق الأمور وبواطنها والله - سبحانه - لا تخفى عليه خافية ، والعلم صفة ذاتية لازمة لله تعالى لا يخلو منها في وقت من الأوقات ، ولا يتصور انفكاك ذات الله عنها " (٢)

والإنسان المؤمن مطالب بعد أداء مسؤوليته في الأرض ، والسعي بكل جد وعزم أن يتوكل على رب الأسباب وصاحب الأمر من قبل ومن بعد ، ومن يُسيّر الكون ، و الذي أحاط بكل شيء علماً : إيماناً منه وثقةً بحكمته وعدله وتدييره - سبحانه - وهذا من تمام الإيمان بالله وتوحيده ، ومن دواعي استسلامه لقضائه وقدره واطمئنانه إليه .

ومما يلاحظ في الآيات التي تتحدث عن شمول علم الله - تعالى - أن إخبار القرآن عن الأمور الكونية يشمل ثلاثة أوجه :

- ١ - يخبر بالأمر الذي وقع في بداية الخلق في الماضي .
- ٢ - يخبر بالأسرار التي يقوم عليها الكون ، وتقوم عليها المخلوقات .
- ٣ - يخبر فوق ذلك عن مستقبل الإنسان ، ومستقبل الكون (٣)

ويمكن تقسيم الغيب إلى قسمين :

قسم نصب عليه دليل فيمكن معرفته كذات الله - تعالى - وأسمائه الحسنى وصفاته العلية وأحوال الآخرة إلى غير ذلك مما يجب على العبد معرفته وكلف به وهو غائب عنه لا يشاهده ولا يعاينه ولكن يمكن معرفته بالنظر الصحيح .

(١) _ الأسماء والصفات للبيهقي ١ / ٢٩٣

(٢) _ الروضة الندية ص ٧١ - ٧٢

(٣) _ إنه الحق ص ١٣٠

وقسم لا دليل عليه ولا يمكن للبشر معرفته كمفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله - تعالى - (١)

و يمكن تقسيمه أيضًا إلى : غيب كلي : وهو ما لا يعلمه إلا الله وحده كالخمس المذكورة في الآية والحديث الصحيح ، و الثاني : غيب جزئي : وهو ما غاب عن شخص دون غيره، فما يراه شخص في مكان ما هو غيب عمن غاب عن ذلك المكان .

والقرآن الكريم مملوء بتقرير هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان فهو المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر الأربعة وهي : علم الله الشامل لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء ، وخلقته لجميع المخلوقات ، حتى أفعال العباد (٢)

فعلم الله محيط بكل شيء ، فهو - سبحانه - يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وهو العالم - سبحانه - بالعباد وآجالهم وسكناتهم وأرزاقهم ، وجميع ما يتعلق بهم من أحوال وسعادة وشقاء في الدارين ، وكلها من مقتضيات ألوهية الله تعالى وربوبيته فهو العليم الخبير وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، هو بكل شيء عليم - سبحانه - وهذا العلم لم يسبقه جهل ولا يدخل عليه نسيان ، قال تعالى ﴿لِنَعْلَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٣)

ومن أسماء الله تعالى - العليم والعالم وعلام الغيوب - سبحانه جل شأنه - وكل هذه الأسماء تتضمن صفة العلم لله - تعالى - (٤) .
وبيّن الطبري معنى اسم العليم في حق الله - تعالى - بقوله : " إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما وهو كائن ، والعالم للغيوب دون جميع خلقك " (٥)

(١) _ كتاب الكليات ١/٦٦٧ ، وينظر التفسير الكبير ٢/٢٧٣ ، ١/١٤ ، روح المعاني ١/١١٧

(٢) _ عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص ١٢١ ، تيسير الكريم المنان ١/٢٥٥ ، يراجع إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ٢/٢٥٣ ، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ١/٥٢٣ ، شرح ثلاثة الأصول ص ١١١ ، عقيدة المؤمن ص ٢٤٥ .

(٣) _ سورة الطلاق من الآية ١٢

(٤) _ للاستزادة ينظر : والله الأسماء الحسنى ص ٣٣٠-٣٥٦

(٥) _ جامع البيان ١/٤٩٥ ، ١٦/٢٧٧ ، ٢٠/٥٨ ، ٢٠/٤٠٥

فهو - سبحانه - الذي أحاط علمه بكل الكون ظاهراً وباطناً ، سرّاً وعلانيةً ، وأحاط علمه - سبحانه - بالواجبات والمستحيلات والممكنات _ سبحانه جل في علاه - .

وآيات القرآن الكريم التي تذكر سعة علم الله - تعالى - وشموله وإحاطته بجميع خلقه ، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، ولكن سأتناول - بإذن الله - الآيات الكريمة التي جاءت في سياق علم الله - تعالى - والتي تتعلق بعالم النبات ، ومنها هذه الآية العظيمة ، يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ وَعِنْدَهُ

مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

في الآية الكريمة إثبات علم الله - تعالى - وصفة العلم من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله وإثبات إحاطة علمه سبحانه بالأشياء جملة وتفصيلاً، واختصاصه سبحانه بعلم مفاتيح الغيب الخمس والتي سترد في سورة لقمان .

وورد في تفسير معنى مفاتيح (٢) الغيب وجهان : أحدهما : خزائن غيب السموات والأرض والأرزاق والأقدار .

والثاني : الوصول إلى العلم بالغيب .

فعلم الله لمفاتيح الغيب أي إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده ، وكذلك المفاتيح أي الوسائل التي يتوصل بها إلى علم الغيب هي عنده أيضا لا يعلمها غيره فهو المحيط بها ، ولا يعلمها غيره إلا بخبر منه - سبحانه - (٣)

لقد جعل الله للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة ؛ لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال ، ومن علم مفاتيحها وكيفية فتحها توصل إليها (٤)

(١) - سورة الأنعام الآية ٥٩

(٢) - المفتاح والمفتاح ما يفتح به وجمعه مفاتيح ومفتاح . ينظر : الصحاح ٣٨٩/١ ، مادة (فتح) ، مفردات غريب القرآن ٣٧١/١ ، لسان العرب ٥٣٦/٢

(٣) - تفسير السدي ص ٢٤٢ ، جامع البيان ٤٠١/١١ ، الكشف والبيان ١٥٤/٤ ، النكت والعيون ١٢١/٢ ، معالم التنزيل ١٥٠/٣ ، الكشاف ٣١/٢ ، المحرر الوجيز ٢٩٩/٢ ، فتح القدير ١٢٣/٢

(٤) - مدارك التنزيل ١٦/٢

وقال ابن حجر (١) : " استعار للغيب مفاتيح ؛ ليقرب الأمر على السامع لأن أمور الغيب لا يحصيها إلا علمها وأقرب الأشياء إلى الاطلاع على ما غاب الأبواب ، والمفاتيح أيسر الأشياء لفتح الباب فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف موضعها فما فوقها أخرى أن لا يعرف " (٢)

وأكد علمه وحده - سبحانه - بمفاتيح الغيب التي لا يعلمها علماً تاماً مستقلاً إلا هو - سبحانه - ، ثم بيّن - سبحانه - أن علمه ليس مقصوراً على عالم الغيب فقط بل يشمل

كذلك المشاهدات ، فهو - سبحانه - ﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣)

وإنما ذكرت هذه الخمس لحاجة الناس إلى معرفة اختصاص الله بعلمها ، والعلم بمجموعها مما اختص الله بعلمه وكذلك العلم القاطع بكل فرد من أفرادها (٤)

و يرسم القرآن الكريم في سورة الأنعام مشاهد يتصورها الإنسان ويشاهدها فيسير معه القرآن في صور بديعة ، منها : أنه - سبحانه - الذي يعلم ما في البر من عالم النبات المتنوع البديع بأشجاره الضخمة ونباتاته الرقيقة ، والدواب التي تعيش عليه وغيرها ، وما في البحر من الكائنات الحية والجواهر وغيرها على وجه العموم ، وقدم البر على البحر على طريقة الترتي من الأقل إلى الأعظم ؛ لأن قسم البحر من الأرض أكبر من قسم البر ، وخفياها أكثر وأعظم ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر فهما يقعان تحت حواس الإنسان ولما فيهما من العجائب والغرائب .

علّق الخازن في تفسيره عند هذه الآية قائلاً : قدم ذكر البر والبحر ؛ لما فيهما من العجائب والغرائب ، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد ، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة .

(١) - هو : أحمد بن علي شهاب الدين العسقلاني الشافعي ، عالم محدّث فقيه أديب ، انتهت إليه رئاسة علم الحديث في عصره ، وتقدم في فنونه ، و ملأ الآفاق بمصنفاته المتنوعة التي زادت عن ١٥٠ تصنيفاً ، منها : (الإصابة) ، و (تهذيب التهذيب) وغيرها ، توفي سنة ٨٥٢ . ينظر : لحظ الألاحظ ص ٣٢٦ ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ،

نظم العقيان ٤٦/١ ، درة الحجال ١ / ٦٤

(٢) - فتح الباري ٣٦٥/١٣

(٣) - سورة التغابن الآية ١٨

(٤) - تفسير ابن رجب ٤٦٧/١

ثم ذكر بعد ذلك مثلاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير (١)

ثم فصل - سبحانه - علمه بما بعلمه وإحاطته بالجزئيات ، فعلمه - سبحانه - يشمل كل صغير وكبير ، وكل دقيق وجليل ، ويفتح الآفاق للعقل البشري في تخيل مدى هذا العلم الذي لا يحده حد ، فيسير الإنسان بخياله مع الورقة التي تسقط من شجرة من الأشجار في أي مكان وزمان وعين الله تعالى ترقيها وتعلم بها ، وكذلك الحبة الصغيرة التي قد تكون في جوف الأرض وبين الصخور ، والأنواع المختلفة للبذور وحبوب النباتات المختلفة التي تسقط وتنتشر على وجه الأرض ثم يحييها الله تعالى بالنبات وغيرها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار وغيرها فكلها يعلمها - سبحانه - علمًا تامًا شاملاً ويحصيها عنده - سبحانه - .

وهذه الصور تبهر عقول العقلاء ، وتحير أصحاب العقول الحية ، وتدلل كلها على سعة علم الله - تعالى - وعظمته .

وكل من يتأمل في مدلول الآية الكريمة يمتلئ قلبه بالإيمان بعلام الغيوب ، ويشعر بالخوف من الله تعالى ومراقبته - سبحانه - فإذا كان علمه - سبحانه - بحركات هذه الأشياء بهذه الدقة ، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، فتبارك - سبحانه - العظيم، الواسع العليم ، الشهيد ، المحيط ، علام الغيوب .

وقد جاء توضيح مفاتيح الغيب في سورة لقمان ، حيث يقول الحق - جل وعلا - ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢)

وورد في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يقرر ذلك وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : " مفاتيح الغيب خمس ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

(١) _ لباب التأويل ١٤١/٢

(٢) _ سورة لقمان الآية ٣٤

الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَيْرٌ ﴿١﴾ (٢)

وهذه المفاتيح الخمسة (٣) ، هي :

- ١ - معرفة وقت يوم القيامة .
- ٢ - معرفة وقت نزول المطر ومكانه وهكذا عن الغيث ، فقد احاط علمه بكمية الغيث ونوعيته وعدد قطراته ووزنها ومحل سقوطها ولا احد يمكنه ان يحيط علما بهذه الامور وبأي وسيلة كانت (٤) .

٣ - معرفة خواص الجنين في الرحم ، وجميع أحواله وطبائعه وصفاته (٥) .

٤ - ما تدري نفس ماذا تكسب في الغد من خير أو شر .

٥ - وما تدري مكان موتها .

في هذه الآية دلالة واضحة على اختصاص علم هذه الأمور الخمسة بالله - عز وجل - .

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - ﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٦)

في هذه الآية أيضًا إخبار عن سعة علم الله - تعالى - وعلمه الذي لا يعلمه سواه - سبحانه -
علام الغيوب ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد البشر وخاتم الأنبياء

(١) _ سورة لقمان الآية ٣٤

(٢) _ أخرجه البخاري في صحيحه عن سالم بن عبدالله عن أبيه ، كتاب : التفسير ، باب : { وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو } ، ح ٤٦٢٧ ، ص ٣٨٢ .

(٣) _ للاستزادة منها ينظر : علم الغيب في الشريعة الإسلامية ص ٤١

(٤) _ أما نشرة الأرصاد الجوية في الوقت الحاضر فتعتمد على بعض الحسابات والأمارات ، وهي من باب توقع الحدث لا الجزم بالحدوث ، وما ترصده بعض الأجهزة المتخصصة لمعرفة المناخ فليس ذلك غيبًا ، وإنما هو توقع وطن .

(٥) _ لا تعارض يذكر بين الآية وما توصل إليه العلم الحديث من القدرة على تحديد جنس الجنين ، كون هذا التحديد جاء متأخرًا وليس في بداية تكوينه ، وبواسطة أجهزة ، فضلاً عن اقتصار المعرفة على جنسه دون معرفة سعادته من شقائه ولا صفاته وطبائعه .

(٦) _ سورة فصلت الآية ٤٧

والمرسلين حين سُئل عن الساعة في الحديث المشهور : " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " (١) فجميع الخلق يقرون بعجزهم عن علم الغيب ، ويردون إلى الخالق - سبحانه - .

وكما يرد إلى العليم - سبحانه - علم الساعة فكذلك يرد إليه علم ما يحدث من كل شيء وما يطرأ عليه من حالات : كالثمار والنتاج وغيره .

ففي عالم النبات مثلاً : جميع الثمرات التي تخرج من الأرض الله محصياها وعالم بها قبل أن تخرج ، حين كانت بذرة لا تكاد ترى فيخرجها الله - سبحانه - ثم تزهر ثم تثمر وتنضج .

فما تخرج ثمرة من أكمامها إلا بعلمه - سبحانه وتعالى - والأكمام : جمع كم ، وهي كم الزهرة قبل أن تنفتح .

فما تخرج ثمرة من كأس الزهرة إلا بعلمه - سبحانه - وهذا شامل لجميع أنواع النبات أيًا كان مكانها فعلمها تفصيليًا عند العليم - سبحانه -

وما تحمل من أنثى سواء من البشر أو من غيرهم من الكائنات الأخرى ولا تضع حملها إلا بعلمه - سبحانه وتعالى - .

في الآية تأكيد لعلم الله الشامل الذي يقع في محيطه كل ما في الوجود .

وقد دل عالم النبات كذلك على علم الله تعالى إجمالاً ، فالله - سبحانه - هو الذي يعلم ما

يلج (٢) في الأرض وما يخرج منها ، كما في قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا

وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا

السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي

الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾

(١) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبي _ صلى الله عليه وسلم _ عن : الإيمان والإسلام والإحسان ، وعلم الساعة ، ح ٥٠ ، ص ٦ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله _ سبحانه وتعالى _ ، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه ، ح ٩٣ ، ص ٦٨١

(٢) _ اللوج الدخول ، وما يلج في الأرض أي : يدخل ويغيب فيها . ينظر : مجاز القرآن ١٤٢/٢ ، لسان العرب ٣٩٩/٢ ، مادة (و ل ج) ، معجم مقاييس اللغة ١٤٢/٦ .

(٣) _ سورة سبأ الآيات ٢ - ٣

فصّل - سبحانه وتعالى - بعض مظاهر علمه وقدرته التي يشاهد الإنسان بعض مظاهرها ، ومنها أنه - سبحانه - يعلم ما يلج في الأرض من حبوب ، و ما يجري في باطنها من ماء و عيون ، و ما يكون بداخلها من كنوز و أموات ، و يعلم - سبحانه - ما يخرج من الأرض من نبات ، و ما يتفجر فيها من عيون ، و ما يظهر من معادن و نحوها .

و هو سبحانه يعلم - أيضًا - ما ينزل من السماء من ماء ، و ملائكة ، و وحي و رزق و أمطار ، و يعلم ما يعرج في السماء ، أي ما يصعد إليها ، كالملائكة و أعمال العباد و الغازات و غيرها . و خصّ بالذكر في تفصيل علمه هذه الأربعة دون الحديث عما يدب على الأرض ، و ما يجول فيها بين السماء و الأرض ؛ لأن الذي يعلم ما يلج في الأرض ، و ما يخرج منها يعلم ، ما يدبّ عليها و ما يزحف فوقها ، و الذي يعلم ما ينزل من السماء ، و ما يعرج فيها يعلم ما في الأجواء و الفضاء من الكائنات المرئية و سير الكواكب و غيرها (١) .

ثم انتقل الحديث لتأكيد عقيدة البعث و الجزاء فأمر الله - تعالى - نبيه - عليه الصلاة و السلام - أن يؤكد وقوعها لمنكريها ، و أنه عالم الغيب لا يعزب (٢) عنه مثقال ذرة سواء في السماوات و لا في الأرض و لا أصغر من ذلك المكيال و لا أكبر ، فكل ذلك ثابت في علمه المحيط و مسجل في اللوح المحفوظ .

و في هذه الوصية من وصايا لقمان (٣) لابنه أيضًا يؤكد علم الله لدقائق الأمور فضلًا عن جليلها و يربط شمول - علم الله تعالى - بصورة مؤثرة دقيقة تكشف إحاطة علمه - سبحانه و تعالى - فيقول - سبحانه و تعالى - حكايةً عن لقمان ﴿ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤)

(١) - التحرير و التنوير ١٣٧/٢٢

(٢) - العزوب : الغيبة ، و لا يعزب عنه أي : لا يغيب عن علمه شيء . ينظر : لسان العرب ٥٩٥/١ ، مادة (عزب) ،

القاموس المحيط ص ١٤٧ ، تاج العروس ٣/٣٦٢

(٣) - هو : لقمان بن عنقاء بن سدون ، و يقال لقمان بن ثاران ذكر في القرآن و اطلق اسمه على سورة لقمان و كان رجلاً صالحاً ، ذا عبادة ، و عبارة ، و حكمة عظيمة ، و صايا لقمان تعتبر لدى المسلمين من أروع الحكم و المواعظ ، إذ كانت حكمه تأتي في مواضعها . و يقال : كان قاضيًا في زمن داود عليه السلام . ينظر : جامع البيان ١٣٥/٢٠ ، البداية و النهاية ٦/٣ ،

تفسير القرآن العظيم ٦ / ٣٣٤

(٤) - سورة لقمان الآية ١٦

مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ (١) : معناه خردلة. والمثقال : مقدار يوازن غيره (٢)

مثقال حبة من خردل إشارة إلى الصغر ، فكونها محجوبة بصخرة أو بعيدة جداً ، أو كانت في ظلمات الأرض ، فإن الله - تعالى - يظهرها للأشهاد ويجازي الإنسان عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

فالله - سبحانه وتعالى - لا يغيب عنه شيء كما جاء هذا المعنى في سورة الأنبياء في قوله

- تعالى - ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ

حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٣)

فحبة الخردل مع صغرها ولو كانت في أخفى موضع ، وأحرزه كجوف الصخرة ، أو في السماوات الواسعة ، أو في الأرض مختلطةً بترابها وصخورها . فعلم الله - تعالى - يلاحقها ويتابعها فهو - سبحانه - لطيف يتوصل علمه إلى كل خفي ، وقدرته وعظمته لا تعجز عن إيجادها ، فتستقر حقيقة علم الله - تعالى - ، وكمال عدله ، وعظيم سلطانه في النفوس .

وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها (٤).

وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، مهما كان حجمه ، وأحصى كل شيء عدداً - سبحانه لا شريك له - .

وضرب الله لنا الأمثال في القرآن الكريم كثيراً ، ومن هذه الأمثال ما جاء لتقريب تقديرنا لسعة

علم الله - تعالى - وشموله فيقول الحق - سبحانه - ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ

وَالْبَحْرِ يَمْدُهُ، مِنْ بَعْدِهِ، سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥)

(١) - الخردل : نبات له جذر وساق قائمة متفرعة إسطوانية أوراقها كبيرة يُخرج أزهاراً صغيرة صُفراً سنبلية تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بزوراً دقيقة تسمى الخردل أيضاً ، ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق تستعمل بزوره في الطب ومنه بزور يتبل بها الطعام الواحدة خردلة ويقال ما عندي من كذا خردلة شيء ويضرب به المثل في الصغر . ينظر : البحر المحيط ١٨٣/٧ ، التحرير والتنوير ١٦٣/٢١ ، المعجم الوسيط ٢٢٥/١

(٢) - إيجاز البيان عن معاني القرآن ٦٥٩/٢

(٣) - سورة الأنبياء الآية ٤٧

(٤) - جامع البيان ١٤٢/٢٠ ، البحر المحيط ١٨٣/٧

(٥) - سورة لقمان الآية ٢٧

ونظيرها قوله - تعالى - ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَتُ

رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١)

كلمات الله - سبحانه وتعالى - التي خلق بها الخلق كله ، وهي كلامه وعلمه وعجائبه - سبحانه وتعالى - .

قيل : إنما سُمِّي كلماته كلمات لما فيها من فوائد الكلمات ، ولأنه ينوب منابها فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيماً (٢)

فلو تحولت أشجار الأرض كلها إلى أقلام يكتب بها ، و البحار تحولت إلى مداد وفنيت هذه البحار ومدت بسبعة أبحر لفنيت البحار كلها وكلمات الله لم تنفذ ولا تستطيع الأعداد ولا الأرقام أن تفصح عن عظمته - سبحانه - لعدم تناهيتها .

والسبعة : تستعمل في الكناية عن الكثرة كثيراً كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " والكافر يأكل في سبعة أمعاء " (٣)

فليس لهذا العدد مفهوم ، بل ذلك إشارة إلى القلة والكثرة ، أي : والبحر يمدده أبحر كثيرة (٤) وناسبت فاصلة الآية المقصود في بيان سعة علم الله - تعالى - وأنه لا نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شيء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر ، وأنها لا تنفذ أبداً فالله - سبحانه وتعالى - عَزِيزٌ لا يعجزه شيء ، ولا يغلبه غالب ، ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته .

أثر الإيمان بعلم الله الشامل :

- معرفة العبد ربه تزيد قرباً له ، وتجعله يراه في كل مكان ، فيدخل المرء مرتبة الإحسان ، وهي : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

(١) - سورة الكهف الآية ١٠٩

(٢) - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ١٦٩/٢

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأطعمة ، باب : المؤمن يأكل في معي واحد ، ح ٥٣٩٣ ، ص ٤٦٦ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الأشربة ، باب : المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ، ح ٥٣٧٢ ، ص ١٠٤٦

(٤) - البحر المحيط ١٨٦/٧ ، نظم الدرر ٢٨/٦ ، التحرير والتنوير ١٨٢/٢١

- معرفة العبد ربه وقربه منه تجعله حذرًا في أفعاله ويزنها قبل فعلها ؛ لأنه يعلم أن عين الله لا تنام - سبحانه العليم الخبير الشهيد - .

- معرفة العبد لعلم الله - تعالى - تدله على فضله عليه وأنعامه المتوالية وتزيد من قدرته على الصبر وتحمل الخطوب ؛ لعلمه إن ذلك الأمر خيره وشره مقدر عليه ومكتوب قبل خلقه في اللوح المحفوظ ، وتزيد من طمأنينة القلب بقضاء الله والصبر على أقداره وأنها تجري لحكمة يعلمها - سبحانه وتعالى - كما تجعله يتوسط في حياته فلا تبطره النعمة ولا ييأس عند المصيبة ، فكل شئ مقدر ومكتوب .

- إذ عظم علم الإنسان وإيمانه بعلم الله تعالى فإنه يستلهم منه الصبر والتأني وعدم استعجال الإجابة ؛ لأنه يعلم أن الله - تعالى - عليم رحيم قدير حكيم - .

- معرفة العبد سعة علمه - تعالى - تغلق باب الوسوس في الذات الإلهية ، كما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال : فإذا وجدت في نفسك شيئًا ، فقل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) (٢)

- علم العبد وبقينه - بسعة علم الله تعالى - وامتلاكه هو وحده لخزائن الرزق يجعله دافعًا له إلى البذل والعطاء والجد في سبيل الله - تعالى - ؛ لأنه يعلم أن الله - تعالى - هو مالك الرزق والخزائن التي لا تنفذ ، ويطرد وسوس الشيطان بالخوف من الفقر ، فالله واسع عليم ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

- معرفة سعة وشمول علم الله تعالى تدفع الإنسان للبحث والتنقيب عن أسرار الخلق والتفكر في مخلوقات الله ، والسعي لتطوير العلم ومجال الأبحاث النافعة لدينه ودنياه .

(١) - سورة الحديد الآية ٣

(٢) - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب : في رد الوسوسة ، ح ٥١١٠ ص ١٥٩٧

(٣) - سورة البقرة الآية ٢٦٨

- محبة العلم والعلماء ، واتصاف الإنسان بصفات حسنة كالتواضع وعدم التكبر والفخر بما تعلمه الإنسان فإنه من تعليم الله - تعالى - ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) وهذا العلم ماهو إلا قطرة من بحر علم الله - تعالى - .

- التسليم بأوامر الله تعالى الشرعية ؛ لأن هذا التشريع جاء من لدن عليم حكيم خبير لطيف بعباده - سبحانه وتعالى - يعلم ما يضرهم وما ينفعهم وما يصلح به أمرهم وإن لم تتجلى لهم الحكمة في هذا الأمر والنهي ، فالمؤمن بعد أداء الأسباب والتوكل على رب الأسباب عالم الغيب ومسير الكون يرضى بما أصابه ويثق بحكمته - سبحانه - .

من هدايات الآيات :

- ينصرف عقل المؤمن الراشد في تدبير شؤون حياته ، والسير في الأرض ، وتسخير ما حوله تنظيمه ورعايته على أساس من اليقين والإيمان بأن للكون وما فيه خالقاً رازقاً ومدبراً ، أودع فيه بعض المعارف ، وميزه بالعقل ، فيسير في الحياة على هدىً من ربه وفق شريعته وهديه ، ولا يضيع وقته وجهده فيما لا طائل وراءه من البحث والتنقيب والأسئلة التي لا جدوى منها فيما يتعلق بالذات الإلهية وأسمائه - سبحانه وتعالى - وصفاته إلا ما جاء به الوحي من الله - تعالى - فيكون هناك تكامل بين العقل والكون ، ويوجه الإنسان طاقته نحو القيام بخلافة الأرض وإعمارها على أسس منظمة واعية تتبع الوحي الذي هو المصدر الإلهي الذي يمد الإنسان بما يحتاجه من أمور الغيب ، وهو الذي يكمل حاجات الإنسان لمعرفة ما حوله واكتشافه ، والتشوق لمعرفة الغيب ، والكف عما لا طائل من وراءه من أمور غيبية اختص الله نفسه بها وحجبها عن سائر خلقه ، ويستحيل العلم به فيؤمن الإنسان به كما ورد عن الله - تعالى - فيرتاح عقله ويرضى بما توصل إليه .

- علم الله - تعالى - بكل شيء سواء كان ظاهراً أو باطناً ، صغيراً أو كبيراً ، ويعلم ما يدخل في الأرض من مطر وغيره وما فيها من كنوز ومعادن وأموات ، ويعلم كذلك ما يخرج منها من نبات متنوع وغيره ، ويعلم بما ينزل من السماء وما يصعد إليها كل ذلك علمه - سبحانه وتعالى - محيط به فهو العليم الخبير المحيط - سبحانه وتعالى - .

- اختصاص الله - تعالى - في معرفة مفاتيح الغيب الخمسة .
- أن الله - سبحانه وتعالى - انفرد بعلم الغيب إلا من ارتضى من رسول فإنه يخبره بما اقتضاه علمه وحكمته وما فيه خيره وخير من أرسل إليهم أما غير ذلك فلا يطلع على غيبه أحد .
- عدم حصر أمور الغيب في هذه المفاتيح الخمسة فقط ، وإنما خصت بالذكر لتعلقها بحياة الإنسان في الدارين منذ كان جنيناً حتى قيام الساعة .

- لا يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به - سبحانه - .
- ضرب الأمثال في التعليم والتوجيه ؛ لتسهيل المسائل وتقريب الحقائق لأذهان الناس .

- في الآيات تقريع ولوم للإنسان الذي يتطلع لمعرفة موعد الساعة وهو يجهل معاشه؟ و مقدار كسبه ، ولا وقت ومكان موته فكيف يسأل عنها!! وفيها حث على العمل الصالح لدار القرار فهو يجهل موعد القيامة ، و يجهل وقت موته .

- في وصية لقمان الحكيم لابنه دلالة واضحة على عظمة الله - تعالى - وقدرته الامتناهية وعلمه المحيط الشامل لكل ما في الوجود ، وهذا برهان أيضاً على دقة الحساب وعدالة رب العباد فيتقيه الإنسان ويجرص على عمله ويرجو ثوابه ويخاف عقابه .

- في جهل الإنسان بالأمر الغيبية دعوة له لدوام التوكل والإنابة والمداومة على الأعمال الصالحة فلا يدري متى تحين ساعته ، فيظل مستشعراً عظمتها - سبحانه - ومراقبته .

- ادعاء معرفة الغيب كذب وضلال وكفر بالله - تعالى - وفي الآيات الكريمة ما يدفع أباطيلهم وأكاذيبهم فعلم الغيب لا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم القاصر ، ومن مقاصد الإسلام الكبرى الحفاظ على العقل فهو ملكة الفهم " فنهى عن نشر الخرافات والخزعبلات والأوهام وأمر أن يطالب كل أحد بدليل ما يقول ، ونهى عن السحر والكهانة وادعاء علم الغيب والاتصال بالجن وكل ما من شأنه أن يشوش الفهم السليم ويصرف العقل عن مساره الصحيح " (١)

— إيمان المؤمن بأن الله - تعالى - وحده هو عالم الغيب والشهادة يدفعه للحذر من التطلع ، وتصديق مدعي علم الغيب مهما أظهروا من قدرات ، ومهما صدقت تنبؤاتهم أحياناً .

وقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الكهان وقولهم بالشئ أحياناً حقاً ، فقال : " إنهم ليسوا بشئ " (٢)

- فضل الله - سبحانه وتعالى - على الإنسان ونعمه الكثيرة ، ومنها : تسخير كثير من الكائنات المرئية وغير المرئية للإنسان ، ولنتأمل في عطاء الله الكريم للإنسان من أشياء مشهودة ومحسوسة ، وأخرى محيرة للعقول ؛ ليشيد بها الحضارة البشرية ، وليستطيع - بهذا العطاء - أن يقوم بتكاليف الخلافة في الأرض ، وآداء الأمانة فيها (٣)

(١) _ المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ص ٥٠

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التوحيد ، باب : قراءة الفاجر والمنافق ، ح ٧٥٦١ ، ص ٦٣١ ، وعند مسلم في صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب : السلام ، باب : تحريم الكهانة وإتيان الكهان ، ح ٤٨١٧ ، ص ١٠٧٤ ، كلاهما من رواية عائشة - رضي الله عنها - .

(٣) - الإنسان والغيب ص ٦٧

المطلب الخامس : دلالتها على تقدير الخلق :

كرّم الله تعالى الإنسان بالعقل ، وهياً له السُّبُل كي يبحث في هذا الكون بالنظر والتأمل والتفكّر في آيات الله - تعالى - فهي التي تهدي الحائرين والمعتبرين إلى ما فيها من صفات وخصائص ومميزات وخلق مبدع متقن محكم يدل على من خلق وأبدع وسوى وقدر ما خلق .
فلو كرر الإنسان النظر ببصره وبصيرته لوجد آيات الله ناطقة بإتقان وتقدير جميع ما في الكون ، والقرآن مملوء بالآيات التي تحت على النظر والتأمل في مخلوقات الله - تعالى - ، والحكمة منها ، وتقدير خلقها ، فكل ما فيها لوحة متناسقة أبدعها خالقها - سبحانه - الحكيم القادر ، وكل ما بها يحرك كوامن النفس الإنسانية ، والفطرة السوية ، ويدعوها لداعي الإيمان وتوحيد الخالق - جل وعلا - .

وفي تأمل الإبداع والإتقان والتقدير في كل ما في الكون فائدة أخرى هي : معرفة خصائص الأشياء وفائدتها ؛ ليتسنى للإنسان الانتفاع منها وفق ما شرعه الله - تعالى - له فهو يعلم أن الله - تعالى - لم يخلق الكون عبثاً ولا باطلاً ، وأن الله - سبحانه وتعالى - خلقه لعبادته وحده لا شريك له .

إنّ كل شيء في أرجاء الكون جاء بقدر موزون ، فكل شيء أوجده الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأرض أو أوجده في الكون كله يخضع لعملية التوازن الطبيعي، وله وظيفة خاصة ومهمة مرسومة يؤديها ويقوم بها في البيئة ، ومن أجل أن تسير أمور الحياة بشكلٍ متناسق موزون ، فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - في هذا الوجود الآلية الطبيعية الذاتية التي تقوم بعملية التوازن الطبيعي بين المخلوقات ، بحيث لا يطغى مخلوق على مخلوق آخر إلاّ بما قدره الله - سبحانه وتعالى - ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بوضوح في آيات قرآنية عديدة .

والقدر والتقدير أي : تبين كمية الشيء وجعله على مقدار ، يقال قدّر الإله كذا تقديرًا إذا وافق الشيء الشيء ، و تقديره لكل شيء ما يصلحه ويقوم به وتقدير الله الأشياء على وجهين ،

أحدهما: بإعطاء القدرة ، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة (١) .

فتقدير الأشياء كما قيل : هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والإتقان (٢) وقال الرازي (٣) عند شرح معنى قَدَّر : " وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، تفسير هذه الآية . وتفصيل هذه الجملة " (٤) . وقيل " أي أحدث كل موجود إحدائاً جارياً على طريق التقدير بحسب ما اقتضته إرادته ، وهياً لما أراد به مما يصلح له ، مثاله : أنه تعالى خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المستوي الذي تراه فيقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلبة المستوية المقدره بأمثلة الحكمة " (٥)

ويلاحظ عند إشارة القرآن الكريم على التقدير والميزان في الخلق وإتقانه دلالة واضحة على أن مُوجد هذا الكون العظيم بهذا الإتقان والإحكام والتقدير وبدون خلل واحد لا شريك له فلو كان معه شريك لفسد هذا النظام كما يقول الحق - جل وعلا - ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٦)

(١) _ معاني القرآن للنحاس ٨/٥ ، الوجيز ٧٧٣/١ ، مفردات غريب القرآن ٣٩٥/١ ، لسان العرب ٧٤/٥ ، مادة (قدر) .

(٢) _ المحرر الوجيز ١٩٩/٤

(٣) - هو : أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي فخر الدين ، ولد في الري بطبرستان ، أخذ العلم عن كبار علماء عصره ، ومنهم والده ، حتى برع في علوم شتى واشتهر ، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان . كان عالماً في التفسير ، وعلم الفلك والفلسفة وعلم الأصول ، ترك مصنفات كثيرة ، منها : (التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب) ، وغيره ، توفي سنة ٦٠٦ . ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٨٠ ، طبقات المفسرين للدواودي ٢ / ٢١٥ ، طبقات المفسرين للأذرنوي ١ / ٢١٣ ، المنقول والمعقول في التفسير الكبير ص ١٦

(٤) _ التفسير الكبير ١٢٩/٣١

(٥) _ مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ١٢٥/٢

(٦) _ سورة الأنبياء من الآية ٢٢

وهذه الإشارة قد تكون لنظام الكون ومخلوقاته عمومًا ، كقوله - تعالى - ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

فَقَدْرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ (١) ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ،

وقوله - سبحانه - ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ (٣) ، وقوله - تعالى - ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقْنَاهُ بِقَدْرِ ﴾ (٤)

فهذه الأمثلة وغيرها تتحدث عن عموم خلق الله تعالى وحكمته فيه وتقديره لهذا الخلق كما يأتي التنبيه على ذلك في بعض المخلوقات خاصة كالسما والارض (٥) وخلق الإنسان والحيوان والنبات ، منها قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (٦) وقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٧) إلى غير ذلك من الآيات الآيات الدالة على وحدانية خالق الكون ومدبره ومقدر كل شئ خلقه - سبحانه وتعالى - . كما نظم سبحانه الكواكب في سيرها وأوضاعها ، وحركاتها وأضوائها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض ، يظهر هذا التناسب جليًا لمن تأمل هذا الكون .

والذين تأملوه ودققوا فيه قد أفضى بهم البحث إلى أن هذا الكون لا يشتمل على أجزاء متفرقة بل هو كلٌّ متماسك الأجزاء وليس هذا فحسب بل التماسك بين كل ما يحدث من حوادث

(١) - سورة الفرقان من الآية ٢

(٢) - سورة النمل من الآية ٨٨

(٣) - سورة السجدة من الآية ٧

(٤) - سورة القمر الآية ٤٩

(٥) - من تقدير الله تعالى في خلق الأرض موقعها بالنسبة للكواكب الأخرى وقربها وبعدها عنها مما يتلاءم مع وجود البشرية عليها واستمرارها بصورة متطابقة تماما من ناحية المقاييس المفترض وجودها ، فموقعها بالنسبة للمجرة دليل على أن ذلك الموقع كان مقصودًا لصالح الجنس البشري ليحيا عليها ومع ذلك فهي تخضع لقوانين الفيزياء نفسها الذي يخضع لها الكون وهي الحقيقة الواضحة في أن الكون خلق ونظم من قبل الله تعالى . باختصار من موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة التوازن الموجود في كوكب الأرض .

(٦) - سورة الذاريات الآية ٧

(٧) - سورة المؤمنون الآية ١٨

وتطورات فكلها سلسلة متصلة الحلقات لا تصدر إلا وفق مصلحة شاملة لا تغفل عنها عين الخالق - سبحانه - ضمن تسييره لشؤون الكون غير المحدودة (١)

فهو - سبحانه وتعالى - حكيم في إيجاد خلقه ، فمن أسمائه - تعالى - الحكيم ، ومعنى الإحكام في الأشياء : إتقانها وحسن التقدير لها .

قال الخطابي : " معنى الإحكام لخلق الأشياء ، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها ، وحسن التقدير لها ، إذ ليس كل الخليقة موصوفاً بوثاقة البنية ، وشدة الأسر كالبقة ، والنملة ، وما أشبههما من ضعاف الخلق ، إلا أن التدبير فيهما ، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السماوات والأرض ، والجبال ، وسائر معظم الخليقة ... " (٢) فحكمة الله - تعالى - تتضمن كمال علمه وخبرته ، وإتقانه وتديبه وتقديره لما خلق فله في خلقه حكم وغايات حميدة يستحق الحمد عليها فله الحمد وله الشكر الذي يليق بكمال وجهه وعظيم سلطانه .

وعالم النبات من المخلوقات التي تبه الخالق - سبحانه وتعالى - عليها ، وعلى التقدير في خلقها وعلى منافعتها والامتنان بها ، وخصها في آيات كثيرة ، منها ، قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۗ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنَ ۗ ﴾ (٣) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٣﴾

ذكر - تعالى - خلق الأرض ، وكيف مدها وبسطها ، وجعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية ، والأراضي ، والرمل ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة بحساب وقدر مما ينفع الناس ، والدواب ، والطير ، وكلّ حيّ يشارك الإنسان الحياة على هذه الأرض .

وجميع المخلوقات جاءت بقدر مقدر ، وبحساب موزون بميزان الحكمة والتقدير ، وعبر القرآن الكريم عن دلالة النبات على التقدير بكلمة (موزون) : والوزن معرفة قدر الشيء ، يقال وزنته وزناً ووزناً ، ومقدّر بمقدار معين ، وبجد معلوم ، وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معاني الجمال والتناسق ، وموزون : أي معلوم ومقدر ، جرى على وزن ما قدر الله ، لا يجاوز ما قدره

(١) - حكمة العقل ص ١٧ ، وينظر : المنهزمون ص ١٩٨

(٢) - شأن الدعاء ص ٧٣

(٣) - سورة الحجر الآيات ١٩-٢١

الله عليه ، و لا يستطيع خلق زيادة فيه ولا نقصاناً (١) ؛ حتى يعتدل ميزان الحياة ، وينتفع الناس منها ، ولو اختل هذا الميزان ، بزيادة أو نقص ، لما صلحت الحياة على هذه الأرض أبداً . قال

تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٢)

وذكر المفسرون في المراد بالموزون أقوالاً منها :

الأول : المقدر وبحد معلوم ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة ، وقال موزون ؛ لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء ، فيكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى ؛ لأن الله - سبحانه - يعلم قدر حاجة خلقه في معيشتهم وأرزاقهم ، فيكون إطلاق الوزن عليه مجازاً .

الثاني : موزونٌ ؛ بمعنى أنّ الذي تنبته الأرض نوعان : المعادن ، والنبات ، أما المعادن : فهي بأسرها موزنة ، وأما النبات : فيرجع عاقبته إلى الوزن ، كالمخترف ، والفواكة في الأكثر .

الثالث : معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل ، تقول العرب فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة حسنة ، وكلام موزون إذا كان متناسباً حسناً بعيداً من الخطأ والسخف (٣) .

ووصف إنبات ما في الأرض بأنه موزون : فيه دليل على الإبداع والتناسق والحكمة والتقدير الإلهيين بخلق كل المخلوقات بمقدار موزون لا يحد عنه ؛ لتحقيق المنفعة منه على أكمل وجه .

وسياق الآية يؤكد أن جميع ما ينعم به الله على المخلوقات نابع عن حكمة وتقدير وميزان - فسبحان الخالق العظيم - .

وهذه الحكمة والتقدير ؛ ليعتدل ميزان الحياة وتطيب الحياة على الأرض إلى الأجل المعلوم ، ولو تأمل الإنسان جميع الكائنات لوجدها لا تخلو من حكمة قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية ، فأنواع النبات مثلاً لا يوجد بها - على كثرتها وتعدد أنواعها (٤) - نبات يخلو من وزن ، أو من

(١) _ المصابيح في تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦٢٨ ، غريب القرآن للسجستاني ص ٤١٩ ، مفردات غريب القرآن ١ / ٥٢٢ لسان العرب ١٣ / ٤٤٦ ، مادة (وزن) ، تاج العروس ٣٦ / ٢٥٢ - ٢٥٤ ، التيسير في تفسير ألفاظ القرآن الكريم ص ٩٧ .
(٢) - سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣) _ جامع البيان ١٧ / ٧٩ ، التفسير الكبير ١٩ / ١٣١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٣ ، البحر المحيط ٥ / ٤٣٨ ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٢٩ ، اللباب في علوم الكتاب ١١ / ٤٤٢

(٤) _ تقرب فصائلها من نصف مليون صنف . موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية ص ٢٨٦

فائدة ، والعلم الحديث يكشف لنا الأسرار والحكم وضروب المنافع المختلفة من عالم النبات العجيب المتنوع فكلما تقدمت العلوم الحديثة تجلت هذه الحقائق .

وقد وضع صاحب تفسير الجواهر جدولاً لبعض المواد ونسب المواد فيها ، وقال بعده : " فتأمل هذا الجدول تجد أن مطعوم البهائم والآدميين والملابس والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها فيا عجباً كيف كانت مادة الذرة هي مادة القمح بل مادة القطن وباختلاف المقادير صار هذا ملبساً وهذا مطعماً " ثم قال : " ولو نظرنا إلى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمةً باهرةً وأنها موزونة بميزان عدل وإن نظرنا إلى عناصرها التي تركبت منها لرأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم والأشكال والألوان والروائح والمقادير " (١)

ثم فصل - سبحانه - ما أجملته الآية السابقة ، فكل ما تخرجه الأرض ، وتحيا عليه جميع الكائنات كلها الله يرزقها - سبحانه - ويقدر لها أقواتها ، فهو المتكفل برزقهم ذو القوة المتين . والرزق الذي يسوقه الله تعالى للكائنات - ككل شئ - فهو مقدر في علم الله تعالى ، يؤتيه من يشاء أنى يشاء ويصرفه عن من يشاء حسب إرادته وسننه الكونية .

فالكل عاجز عن القدرة على جلب أو دفع الرزق لنفسه فضلاً عن غيره فمصادر وموارد وخزائن كل شئ عنده - سبحانه جل شأنه - .

ثم بيّن - سبحانه وتعالى - في الآية الكريمة أنه هو وحده القادر على إيجاد وتكوين كل ما هو رزق ونفع للعباد ، وأنه يوجده وفق حكمته وما تستدعيه مشيئته - سبحانه - وفي الآية استعارة تخيلية بتشبيه قدرته بالخزائن التي تودع فيها الأشياء .

فكل شئ لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وإن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه (٢)

وفي الآية تأكيد أن كل شئ هو من الله تعالى وأنه ينزل ما يشاء لمن يشاء بقدر معلوم يصلح به حال البلاد والعباد .

(١) - الجواهر في تفسير القرآن ٢٤٣/١

(٢) - الضوء المنير ٤/٤

فليتأمل الإنسان النباتات حوله من بداية زراعتها وحتى ظهورها ثم ظهور ثمارها إن كانت من ذوات الثمر فسيرتد إليه بصره ؛ لأنه لن يجد فيما خلق الرحمن قصوراً أو خللاً بل سيجد آيات التقدير والإتقان ظاهرة جليلة - تبارك الخلاق العليم - ، وسأعرض بعض الأمثلة التي توضح جوانب التقدير في خلق النبات ، منها : - تقدير ما يمتصه النبات من العناصر الغذائية الموجودة بالتربة ، فلا يدخل أي عنصر إلا بميزان دقيق ونسبة معينة تناسب لنمو هذا النوع من النبات (١) - نمو أجزاء عالم النبات كما أراد لها الخالق - سبحانه - أن تكون ، ولا يطغى جزء على آخر إلا بقدر حاجة النبات له ليقوم بدوره المرسوم له ، فمثلاً :

أ - جذر النبات ومدى عمقه وتفرعه وقوته مما يحقق نمو النبات بثبات وصبوده في وجه العواصف والأمطار .

ب - التوازن المحكم بين طول الساق وضخامته وما ينتج عنه من أغصان وثمار .

ج - توزيع الأوراق بنسب معينة على ساق النبات مما يضمن توازن النبات بالإضافة إلى تعرض الأوراق لضوء الشمس اللازم لتكون الغذاء .

د - تنوع ثمار النبات وتميز كل نوع عن باقي الأنواع في حجمه ولونه وتركيبه وطعمه ورائحته .

هـ - أيضاً هناك تقدير في حجم الثمار : فبعض الثمار تكون على الأرض مباشرة ، وبعضها في أعلى الشجرة ، وبعضها مجموع في قرون وسنابل إلى غير ذلك . وكل ما سبق من أجل انتفاع الخلق وعلى الأخص من كرمه الله تعالى على الكائنات - فلنتأمل ذلك - .

وحين يتأمل اللبيب ما سبق من قدرة باهرة ، وإتقان بديع ، وحكمة بالغة ، وتقدير حكيم للخلق كله عموماً ، وما في عالم النبات من عجائب وغرائب وكيف تدبر أمورها وتتكاثر وتنمو في أشد

(١) _ مثال ذلك : ما عرفه العلماء عن غذاء كافة النباتات ، وأنها تتغذى بعناصر معينة كالضوء والماء والكربون والأكسجين وغيرها ومع ذلك يختلف ما يمتصه جذر كل نبات عن الآخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة في الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار ، والذي حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التي في ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطردها ما سواه ، لأنه لا يلائمها ، إذ هي قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها مما ينتج عنه تنوع النبات مع اتحاد الماء والغذاء فينتج مثلاً : التفاح الحلو والحنظل المر ، والقطن الناعم ، والصبغ الشائك وغيرها . موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، الإعجاز العلمي في الأرض ص ٢٨١ ، توحيد الخالق ص ٢٠٤ ، تفسير المراغي ١٥/١٤

المواسم ونموها في المواسم المعتادة بعد أن يهبها الحياة واهب الحياة - سبحانه جل شأنه - فإنه يقف عاجزاً أمام تلك القدرة ، ويزداد إيمانه ويقينه بخالق كل شيء - سبحانه - .

وتقدير الله - تعالى - أرزاق الناس دليل على حكمته - سبحانه وتعالى - وعلمه الشامل المحيط بكل مخلوقاته ؛ لئلا يطغوا ويفسدوا في الأرض فهو - سبحانه - العليم بهم وبدواخلهم كما بين ذلك في قوله - سبحانه - ﴿

يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾

فهو - سبحانه - ينزل بتقدير ما يشاء أن ينزله مما تقتضيه مشيئته فهو العليم الخبير بخلقه والذي يقدر بعلمه لكل واحد منهم رزقه فيعطي ويمنع ويقبض ويبسط حسب حكمته الإلهية . وهذا الرزق الذي يرزقه الله لعباده وهو رزق واسع ، ولكنه لا يوازي رزق الآخرة ، ولا يقاربه فرزق الآخرة لا ينفذ ، وليس له حد .

قوله - تعالى - ﴿

مُخْرِجُونَ ﴿٢﴾

كل شيء في هذا الكون مقدر تقديرًا دقيقًا ومرسومًا على صورة لا تتغير إلا بإرادته - سبحانه - قال - تعالى - ﴿

التي يسير العالم عليها حتى يتسنى له الإنتفاع مما في الكون (٤)

فسبحان ﴿

(١) - سورة الشورى الآية ٢٧

(٢) - سورة الزخرف الآية ١١

(٣) - سورة القمر الآية ٤٩

(٤) - معالم الثقافة الإسلامية ص ١٨

(٥) - سورة الأعلى الآيات ٢-٣

من هدايات الآيات :

- أن الله - سبحانه وتعالى - خلق كل ما في الكون بمقدار ووزن ، وجعله منتظمًا في سيره ، ومتوازنًا مع المخلوقات ، وسخر لنا جميع المخلوقات التي نحتاجها في حياتنا بطريقة متوازنة مع ضروراتنا وحاجاتنا وكل هذا من رحمة الله تعالى بنا ، وواسع فضله - سبحانه - علينا .
- عندما يشاهد الإنسان آثار الله - تعالى - في خلقه ودلائل علمه وقدرته وتقديره وما فيه من حكمة بالغة وإتقان بديع مناسب لخلق كل مخلوق ، فإن هذه المشاهدة لها آثار منها :
 - أ - تزيد إيمانه وتقويه وتعلقه بخالقه الذي تكفل بخلقه ورزقه وجعله يحيا حياةً طيبةً سعيدةً .
 - ب - تثمر الرضا واليقين بقضاء الله تعالى وما قدره على الإنسان ، فالمؤمن يعلم أن جميع أحكام الحكيم - سبحانه - صادرة من عليم حكيم مقدر لما خلق ، وفيها الخير والصلاح والصلاح للناس سواء في عاجل أمرهم أو آجله .
 - قلة ما في الحياة الدنيا من أرزاق ونعيم - مهما كانت كثيرة في مقاييس البشر - فإنها لا تقاس بالنعيم الأخروي الذي يحصل للمؤمنين .
 - في تقدير الأرزاق للخلق حكمة عظيمة يعلمها الذي أوجد الخلق وهو - سبحانه - أعلم بهم وبأحوالهم وعلانيتهم وسرهم .

المبحث الثاني :

دلالتها على البعث :

معنى البعث لغة وشرعاً :

البعث في اللغة ، له عدة معاني تختلف حسب ما تعلق به ، منها :

١ - الإرسال : يقال بعثت فلاناً إذا أرسلته .

٢ - الإثارة : يقال : بعثت البعير إذا أثرته .

٣ - الإحياء من الموت ، كقوله تعالى ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (١)

٤ - البعث بعد النوم ؛ فالنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما ، والبعث سواء بسواء ، وعلى

هذا قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ

يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ (٢)

والبعث في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإرسال ، كقول الله - تعالى - ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ

بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ (٣) ومعناه : أرسلنا ، والبعث : إثارة براك أو قاعد . تقول : بعثت البعير

فانبعث ، أي أثرته فثار (٤) .

البعث شرعاً : هو المعاد الجسماني ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة (٥) . وقيل : هو إعادة

الأبدان وإدخال الأرواح فيها ، فيخرجون من الأجداث أحياء مهطعين إلى الداعي (٦) كما ذكر

ذكر الله - تعالى - عنهم ﴿ خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (٧)

(١) - سورة الأنعام من الآية ٣٦

(٢) - سورة الأنعام من الآية ٦٠

(٣) - سورة الأعراف من الآية ١٠٣ ، والآية ٧٥ من سورة يونس

(٤) - تهذيب اللغة ٣٣٥/٢ ، مفردات غريب القرآن ٥٣/١ ، مادة (بعث) ، لسان العرب ١١٦/٢ تاج

العروس ١٦٩/٥

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٣٩٥/٥_٤٦٩/٥ ، لوامع الأنوار البهية ١٥٧/٢ ،

(٦) - موارد الظمان لدروس الزمان ٢٣/١

(٧) - سورة القمر الآية ٧

ومما سبق يتضح الترابط بين معنى البعث في اللغة والشرع ، فمعناه في الشرع يشمل معناه اللغوي ؛ لأنه إثارة لمن سكن القبور ، و هو إرسال للأجساد والأرواح ، وبعث لمن في القبور إلى أرض الحساب .

حكم الإيمان به :

البعث حقيقة ثابتة في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية وإجماع المسلمين ، والنصوص في ذلك كثيرة متتابعة ، فمن القرآن الكريم قوله - تعالى - ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (١) وقوله - سبحانه - ﴿ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٢)

ومن السنة قوله - صلى الله عليه وسلم - عندما سُئِلَ عن الإيمان فقال : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله ، وتؤمن بالبعث " (٣)

فالإيمان به من الإيمان باليوم الآخر ، وهو أحد أركان الإيمان الستة ، والنصوص الشرعية مليئة بالذم والتكفير لمنكره . ولأهمية الإيمان بهذا المعتقد فقد جاء ذكره في مئات الآيات ، و مقترناً بالإيمان بالله - تعالى - في عدة آيات منها : قوله - تعالى - في سورة النور ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٤) وقوله - تعالى - ﴿ ذَلِكَمَّ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٥)

(١) - سورة الحج الآية ٧

(٢) - سورة الواقعة الآيات ٤٩-٥٠

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن : الإيمان والإسلام والإحسان ، وعلم الساعة ، ح ٥٠ ص ٦ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الإيمان ماهو ؟ وبيان خصاله ، ح ٩٧ ص ٦٨١ ، كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٤) - سورة النور من الآية ٢

(٥) - سورة الطلاق من الآية ٢

الحكمة منه :

- تفاوت الناس في هذه الدنيا في كل شئ من رزق وصحة وجاه وغيرها بالإضافة إلى طبيعة النفس البشرية تؤدي إلى ظلم الناس لبعضهم البعض ولغيرهم من الكائنات ، فلو أنهم يموتون ولا يعثون لنافى ذلك الحكمة والعدل ، فيؤكد الله - سبحانه وتعالى - وقوعه لمجازاة المكلفين وحسابهم على أعمالهم في الدنيا كما في قوله - تعالى - ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١) ففي بعث الثقلين وحسابهم إحقاق للحق و إبطال الباطل وتمييز الخبيث من الطيب ، وإعطاء كل ذي حق حقه ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) وقوله - سبحانه - ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣)

- يبعث في النفوس روح الثقة واليقين بالله - تعالى - ، ويسكب الطمأنينة والراحة في القلوب ؛ لضمان عدل الله - سبحانه وتعالى - .
- تتأصل في الإنسان الرقابة الذاتية للخالق - سبحانه - في شتى أمور الحياة .

خلق الله الثقلين لعبادته وحده ، وكلفهم بطاعته ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) ودلهم - سبحانه - على كيفية عبادته وشروط قبولها وزودهم بالعقل والفطرة السليمة والوحي والتي تكفل للإنسان السير في هذه الحياة الدنيا وفق هدى من الله ونور ، وكتب عليهم في هذه الحياة سنناً لا تتغير ، ومنها : سير هذه الحياة وفق نظام دقيق مقدر كما أراد له العليم الخبير المدبر أن يسير ، و تحديد أجل محدد لجميع المخلوقات ؛ فالدنيا بأسرها لها وقت بداية ونهاية ، والموت سنة مكتوبة على كل الكائنات ، والفناء أمر محتم على كل المخلوقات قال - تعالى - ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٥) ومن كمال قدرة

(١) - سورة التغابن الآية ٧

(٢) - سورة المؤمنون الآية ١١٥

(٣) - سورة القيامة الآية ٣٦

(٤) - سورة الذاريات الآية ٦٥

(٥) - سورة الرحمن الآيات ٢٦ - ٢٧

الله - سبحانه وتعالى - وعلمه وعدله أن جعل بعد هذا الفناء يوم للبعث والحساب ؛ ليثاب المحسن ويعاقب المسىء ، و قضية البعث والحساب من القضايا الكبرى في حياة الإنسان ؛ لذا عني بها القرآن عنايةً شديدةً لا تقل عن الإيمان بالله - تعالى - ووحدانيته ، فجاء ذكر هذا اليوم العظيم في مئات الآيات التي توجب الإيمان به ، وتقرر وقوعه ، وشدة هوله ، وأحوال الناس فيه ، وذكر حجج منكريه ، والتعجب من قولهم ، وكيف عميت أبصارهم عن رؤية آثار قدرته - سبحانه وتعالى - في الخلق والإتقان في آيات الله التي يشاهدونها كل حين ؛ لذا فقد سلك القرآن العظيم مسالك مختلفة لإثباته وتأكيد مجيئه وأنه من الأمور الغيبية التي لا يطلع عليها نبي ولا ملك مقرب فضلاً عن بشر ، وهذا العرض والطرح جاء موافقاً للفطرة ، واضحاً سلساً لا تعقيد فيه كالقضايا الأخرى الواردة في القرآن الكريم ؛ لأن الخالق العظيم هو من خلق ، وهو أعلم بشؤون خلقه وما يصلحهم ، كما قال - سبحانه - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) فمنهج القرآن منهج يجمع بين الفطرة المستقيمة ، و العقل السليم ، ولذا أخبر الله - سبحانه وتعالى - في كتابه عن هذا اليوم في آيات كثيرة متنوعة في دلالاتها وطريقة عرضها ، فكانت الأدلة سمعية وعقلية .

ووجه الله - سبحانه وتعالى - أبصارهم وعقولهم لآيات الكون الماثورة في كل مكان والتي تتجلى فيها أعظم آيات القدرة والعظمة في الخلق لأول مرة ؛ فكيف لا يقدر على إعادتها بعد الموت ، وبالنظر لمجمل الآيات التي تتحدث عن وقوع البعث يتضح أن الاستدلال العقلي في الغالب يشمل الأقيسة العقلية التالية :

أحدها : قياس الإعادة على الابتداء .

ثانيها : قياس الإعادة على خلق السماوات والأرض بطريق الأولى .

ثالثها : قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات .

رابعها : قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر .

خامسها: في قوله - تعالى - ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿ (١) (٢)

ومن الآيات الكونية التي تؤكد حقيقة البعث وقدره الله - تعالى - عليه ، والتي تكرر وروده في القرآن الكريم : عالم النبات ، ففي النظر إليها وتأمل قدرة الله الباهرة في خلقها وتنوعها دلالة قاطعة على إمكان وقوع البعث ، وهذا هو مدار هذا المبحث - بإذن الله تعالى - .

(١) - سورة النحل ٣٨-٣٩

(٢) - البرهان في علوم القرآن ٢/٢٦ ، الإتقان في علوم القرآن ٢/١٧٢-١٧٣

المطلب الأول : دلالتها في قدرة الله - تعالى - على البعث :

استدل الله - سبحانه وتعالى - على البعث بالظواهر الكونية ، والآيات العظيمة الدالة على أن البعث حق لا ريب فيه ، وأنه واقع لا محالة .

ومنها ما يشاهده الإنسان من خروج النبات من الأرض الميتة الجذباء ، وحياتها مرةً أخرى بالمطر النازل من السماء ، فهذه النباتات والثمار من أجل نعم الله على الإنسان ؛ ففيها غذاؤه وفاكهته التي يتفكك فيها ، وتحرك هذه الثمار من بدء ظهورها على النبات إلى نضجها ، وما يظهر عليها خلال فترة نموها من اختلاف في اللون ، وتدرج في الطعم كلها دلالة واضحة ناطقة تشهد بقدرة الخالق على الخلق والإنشاء والإفناء والبعث .

وفي سور وآيات كثيرة يجعل الله - سبحانه وتعالى - الكون كله ناطقاً وشاهداً على وحدانيته وقدرته على خلق الكون الفسيح بعالميه العلوي والسفلي والتقدير والحكمة والتدبير في هذا الخلق البديع ، ومنها ما جاء في سورة الرعد وفيها يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَمِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَمَنْحِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾

في الآيات السابقة يعدد الله - سبحانه وتعالى - بعض الآيات الدالة على عظيم قدرته في الخلق والإنشاء والتقدير والتدبير والحكمة الإلهية ، وعظيم إحسانه - سبحانه - لعباده ، و مذكراً إياهم بالنظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض والذي يدل دلالة قاطعة على وجوده - سبحانه وتعالى - وأنه لا يبعد عليه ولا يعجزه البعث الجديد، وإعادة الأرواح إلى أجسادها ، ثم حساب أصحابها على ما قدموا في دار الدنيا .

فيقول - سبحانه وتعالى - مخاطبًا النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يتعجب من تكذيبهم له، وعبادتهم مالا ينفع ولا يضر بعد أن رأوا آيات قدرة الله تعالى ووحدانيته، ومنها: ما يروونه بأعينهم من قطع متجاوزة، تسقى من ماء واحد، ومع ذلك تتفاوت أحجامها وطعومها وألوانها وروائحها، وتتفاضل مآكلها وقيمتها الغذائية .

وفي هذا التفاوت في الزرع والنبات دليل عقلي على مشيئة الله - تعالى - التي خصصت ما خصصت منه، بلونه، ووصفه، وقدرة الله - تعالى - وحكمته حيث أوجدها كذلك (١) والعجب والتعجب: هو ما يستعجب منه، والعجب بالضم: يدل على كبر واستكبار للشيء، وإنكار الأمر لقلّة وقوعه (٢)

وختم الآيات بقوله - تعالى - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقوله - تعالى - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على وجوب استخدام النظر والعقل والفكر ففي ذلك طريق إلى بلوغ اليقين للحقائق الكبرى في حياة المسلم كالإيمان بالله وحده، والبعث، وغيرها وهو مثاب على تفكيره كذلك؛ فإعمال العقل والتفكير في مخلوقات الله من الأمور التي يثاب عليها المسلم .

قال الزجاج: " أي هذا موضع عجب، لأنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من عظيم خلق السماوات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة مما قد تبينوا " (٣)

فمن يرى تلك الآيات والدلائل الكونية في السماء والأرض يجزم أن لذلك صانعًا قادرًا مدبرًا لا يعجزه شيء، فإن كنت - يا رسول الله - تتعجب من تكذيبهم إياك على الرغم من صدقك عندهم، وما يشاهدونه من آيات، فإن العجب كذلك من تكذيبهم وإنكارهم البعث لا من البعث نفسه فإن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، والبعث ليس مما ندر، فهم يشاهدون مظاهر الحياة على الأرض، وكيفية خروج النبات وظهوره وكلها لا يخفى أن مبدعها رب الأكوان

(١) - الماء النازل من السماء ص ١٣٥

(٢) - معجم مقاييس اللغة ٢٤٣/٤، مادة (عجب)، مفردات غريب القرآن ٣٢٢/١، لسان العرب ٥٨٠/١، المصباح المنير ٤٦٦/٢ .

(٣) - معاني القرآن ١٣٨/٣

وما النشأة الأولى والخلق الأول الذي يقرون به بأعجب من الثاني ، ومن المقرر أن الإعادة أهون من الابتداء لدى النظر والاعتبار ، فعجبهم هو العجب .

قال ابن كثير عند تفسيره الآية : " ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم ﴿ أءِذَا كُنَّا تُرَابًا أءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه " (١)

ومن نظائر الآية الكريمة السابقة ، الحديث عن بعض دلائل قدرته العظيمة ، ونعمه الوافرة على جميع الخلق بتنوع النباتات واختلافها في قوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢)

فمن نعم الله على العباد هذا الماء المبارك المقدر والذي ينزل من السماء ، فيخرج بسببه النبات المتنوع المختلف في منافعه ، وطعومه ، وألوانه ، وروائح ، وفيه أكبر دليل على القدرة المطلقة والإرادة النافذة للخالق - سبحانه وتعالى - .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة في قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ ؛ للتنبية على عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره البالغ في حياة الناس .
ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة .

(١) _ تفسير القرآن العظيم ٤/٤٣٢

(٢) _ سورة طه الآيات ٥١-٥٥

ومن دلالة النبات على البعث مشابهة خلقه لخلق الإنسان ، فمن خلق الإنسان بهذه الصورة السوية قادر على إعادته للحياة مرةً أخرى متى شاء وكيف شاء .

وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۗ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۗ ﴾ (١)

أنبتكم أي أنشأكم وأوجدكم بقدرته من العدم ، وهنا استعير الإنبات للإنشاء ؛ للمشابهة بين إنبات النبات من الأرض ، وخلق الإنسان ، فكليهما : إيجاد للمخلوق وتكوين بقدرته - سبحانه - .

قال الزمخشري : " استعير الإنبات للإنشاء ، كما يقال : زرعك الله للخير ، وكانت هذه الاستعارة أدل على الحدوث " (٢)

والتعبير بالإنبات يشعر بالمشابهة بين الإنسان والنبات ، فالإنسان يشبه النبات في أصله ، فأدم - عليه السلام - أبو البشر من تراب ، كما قال - سبحانه - ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ

تُرَابٍ ۗ ﴾ (٣)

وغذاؤه يعتمد على ما تنتجه الأرض له ، أو لما يأكله من طيور وأنعام . فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب ؛ لأن الفروع تبع للأصل . وقد أكد القرآن الكريم حقيقة معدن آدم وهو الطين في أشكاله التي ذكرها القرآن سواء من طين أو من حمأ مسنون وغيرها (٤) .

وورد التشبيه في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ما بين النفختين أربعون " . قالوا يا أبا هريرة : أربعون يومًا ، قال : أبيت (٥) ، قال :

(١) - سورة نوح الآيات ١٧-١٨

(٢) - الكشف ٦١٨/٤ ، و ينظر : المحرر الوجيز ٣٧٥/٥ ، البحر المحيط ٣٣٤/٨ ، إرشاد العقل السليم ٣٩/٩ ، روح المعاني ٨٤/١٥ ، فتح القدير ٢٩٩/٥

(٣) - سورة آل عمران من الآية ٥٩

(٤) - القرآن وإعجازه العلمي ص ٩١-٩٢

(٥) - أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا ، أو سنةً ، أو شهرًا ، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة ، وقد جاءت مفسرًا من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة . ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٩١/٩ ، فتح الباري ٥٥٢/٨

أربعون شهرًا ، قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ، قال : أبيت ، ثم ينزل الله من السماء ماءً ، فينبتون كما ينبت البقل (١) ، قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا ، وهو عجب الذنب (٢) ومنه يركب الخلق يوم القيامة " (٣) ، ثم يأتي العلم الحديث ليؤكد ما سبق (٤) وكما أنبتكم الله - سبحانه وتعالى - فهو يعيدكم إلى الأرض بعد انتهاء أجلكم بالدفن ، ثم يخرجكم منها بالبعث أحياءً متى شاء ، وأكد - سبحانه - وقوع الإخراج بالمصدر (إخراجًا) فهو سيخرجكم حقًا ولا محالة .

فالإخراجات سواء ، فهذا الإخراج الذي تشاهدونه نظير الإخراج الموعود فاعتبروا . وفي توجيه نوح - عليه السلام - لقومه ، ونصحه لهم وتذكيرهم بهذه الحقيقة استشعار لعظمة الله - تعالى - وقدرته التي تنبت الإنسان من الأرض ثم تعيده إليها ثم تخرجه إخراجًا ، وهذه ظاهرة تستدعي النظر والتأمل ، وكيف وهب الله - سبحانه وتعالى - الحياة للإنسان وللنبات . وهناك أمور متماثلة تجمع بين الإنسان والنبات وردت في القرآن الكريم منها :

أ - الماء هو أصل الإنسان والنبات وسبب حياتهما ، كما قال - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥)

(١) _ كل ما اخضرت به الأرض من البقول والخضروات ، وهو كل نبات ليس له ساق . ينظر : معجم مقاييس اللغة (٢٧٤/١ ، مادة (بقل) ، مفردات غريب القرآن ٥٦/١ ، مادة (بقل) ، زاد المعاد ٣٧٠/٤ ، لسان العرب ٦٠/١١ ، مادة (بقل) .

(٢) _ بفتح العين وإسكان الجيم أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له (عجم) بالميم ، وهو أول ما يخلق من الآدمي ، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه . ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/٩ ، فتح الباري ٥٥٢/٨ .

(٣) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الفتن ، باب : ما بين النفتين ح ٧٤١٤ ص ١١٩٠ ، والبخاري في صحيحه كتاب : التفسير ، باب : قوله { ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله } ح ٤٨١٤ ص ٤٠٩ .

(٤) _ أثبت العلم الحديث أن جميع المخلوقات من ضمنها الإنسان يبقى منه بعد موته وبلاء جسده الرمز الجيني محفوظًا في خلايا عجب الذنب ، وهو ما يسمى بالخارطة الوراثية التي يختص بها كل إنسان ، وتبقى محفوظةً داخل بقايا عظم العصعص (عجب الذنب) وهو من أقوى عظام الجسد فتشكل النواة فيه البذور التي ينبت منها الإنسان يوم البعث كما ينبت البقل مصداقًا للحديث السابق . ينظر : مقالة بعنوان عجب الذنب من موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

(٥) _ سورة الأنعام من الآية ٩٩

وقوله - جل شأنه - ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (١)

ب - كلاهما له دورة حياتية ذكرها القرآن الكريم ومن هذه الآيات ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢) وقوله - سبحانه وتعالى - عن مراحل خلق النبات ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣)

ج - جاء التعبير عن خلق الإنسان ، وبعثه ، بألفاظ مشتركة بينه وبين النبات ، منها لفظ : الخروج والإنبات ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (٤) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿ (٤) وقال - سبحانه - عن إنبات النبات ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥) ، وقوله - سبحانه - عن خروج البشر وبعثهم ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٦)

(١) - سورة الأنبياء من الآية ٣٠

(٢) - سورة الحج الآية ٥

(٣) - سورة الزمر الآية ٢١

(٤) - سورة نوح الآيات ١٧ - ١٨

(٥) - سورة الشعراء الآية ٧

(٦) - سورة الأعراف الآية ٢٥

وهذا التعبير تكرر في آيات أخرى من القرآن الكريم ، منها : قوله - تعالى - ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يُادِّنُ رَبَّهُ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (١) وجمع بينهما كذلك للاستدلال على حقيقة البعث ، وتأکید وقوعه ، في قوله - تعالى - ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي وَيُؤْتَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢)

في هذه الآية الكريمة نادى الله - سبحانه وتعالى - الناس الشاكين في وقوع البعث وإمكانه ؛ ليعرض لهم دليلين عقليين ، وبرهانين قاطعين منطقيين ، وهما : الأطوار الأربعة التي يمر بها خلق الإنسان ، وهي :

الطور الأول : خلق الإنسان من تراب ، كما قال سبحانه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ .

الطور الثاني ثم ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ و النطفة بوزن فُعلة بمعنى مفعول اسم لمي الرجل ، والنطف : القطر والصب (٣) .

الطور الثالث : من ﴿ عَلَقَةٍ ﴾ والعلق : الدم عامة ، و علقة قطعة من دم جامد تتحول إليها النطفة (٤) .

الطور الرابع : من ﴿ مُضْغَةٍ ﴾ قطعة من اللحم، قدر ما يمزغ تتحول إليها العلقة (٥) .

(١) - سورة الأعراف من الآية ٥٨

(٢) - سورة الحج الآية ٥

(٣) - النهاية في غريب الأثر ١٦٥/٥ ، تاج العروس ٤١٩/٢٤ ، مادة (نطف)

(٤) - معجم مقاييس اللغة ١٢٥/٤ مادة (علق) ، تاج العروس ١٨١/٢٦ ، مادة (علق)

(٥) - مفردات غريب القرآن ٤٦٩/١ ، المصباح المنير ٥٠٨/٢ ، مادة (علق)

ثم وصف المضغة بأنها ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي : مصورة معالم الخلق أو غير مصورة .
وذلك تطور من تطورات المضغة ؛ فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة ، أي غير ظاهر فيها شكل
الخلق ، ثم تكون مخلقة - بإذن الله تعالى - .

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي : لنظهر لكم إذا تأملتم بهذا النقل من طور إلى طور ، دليلاً واضحاً على
إمكان الإحياء بعد الموت ، وكمال قدرتنا على ذلك
والاستدلال في هذا كله بأنه إيجاد بعد العدم وإعدام بعد الوجود ؛ لتبيين إمكان البعث بالنظر
وبالضد (١) .

ثم يبقى في رحم أمه إلى أن يأذن الله - تعالى - بالخروج ، ثم تتدرج حياته حتى يحين أجله ، ومن
تأمل مراحل نمو الإنسان وما يعتري حياته في أطوار حياته من أحوال متضادة ، وتقلبات ، لوجد
فيها أوضح دليل على أن من قدر عليها قادر على غيرها .

ثم انتقل - سبحانه - إلى أطوار خلق النبات ، وبين - سبحانه - أن الإنسان يشاهد الأرض
وهي خالية من الماء والنبات والحياة ، ثم تتحرك وتزدان بالنبات البهيج .
فالأرض الهامدة أي : التي أهدمها القحط فلا نبات فيها ولا شيء ، يقال : همدت النار طففت (٢)
وقال قتادة في معناها : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة (٣) .

واهترت " يعني تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وقيل : استبشرت (٤) .
" ورت " يعني انتفخت وارتفعت بالنبات ، وزادت زيادة المترى ، وأصله من ربا يربو وهو الزيادة (٥)
وذكر الطبري أطوار الإنبات عندما فسر الآية ، بقوله : " فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدة
التي لا نبات فيها ، المطر من السماء اهترت يقول : تحركت بالنبات ، (وَرَبَّتْ) يقول : وأضعفت
النبات بمجيء الغيث (٦) .

(١) - التحرير والتنوير ١٧/١٩٩

(٢) - مفردات غريب القرآن ١/٥٤٥ ، لسان العرب ٣/٤٣٦ ، مادة (همد)

(٣) - تفسير القرآن العظيم ٥/٣٩٨

(٤) - لسان العرب ٥/٤٢٣ ، مادة (هزز) ، تاج العروس ١٥/٣٨٦

(٥) - الصحاح ٦/٢٣٤٩ ، مادة (ربا) ، المحكم ١٠/٢٨٤ ، مفردات غريب القرآن ١/١٨٧ مادة (ربو) ، تاج

العروس ٣٨/١٢١ ، من أسرار وإعجاز القرآن الكريم ص ٥٤

(٦) - جامع البيان ١٨/٥٧١

ومن تتبع أطوار الخلق يلاحظ أن البعث أيسر في تقدير البشر من الإنشاء أول مرة ، وإن لم يكن هذا بمقياس قدرة الخالق - سبحانه - الذي أمره بعد الكاف والنون ، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ (١)

فمن قدر على بدء الخلق أولاً ، فهو قادر على إعادته ثانياً إذ ليست الإعادة بأصعب من البداية ، فلا مجال للإنكار ولا للتشكك .

وهذه الآية تضمنت دلالتين على البعث ، هما : قياس الإعادة على ابتداء الخلق ، و إحياء الأرض بالنبات (٢)

وذكر أبو حيان الدليلين بقوله : " ولما ذكر تعالى من يجادل في قدرة الله بغير علم وكان جدالهم في الحشر والمعاد ذكر دليلين واضحين على ذلك أحدهما في نفس الإنسان وابتداء خلقه ، وتطوره في مراتب سبع وهي التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلاً ، وبلوغ الأشد ، والتوفي أو الرد إلى الهرم . والثاني في الأرض التي تشاهدون تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلاً فإذا ورد خبر الشرع بوقوعه وجب التصديق به وأنه واقع لا محالة" (٣) والاستدلال بالإيجاد بعد العدم والإعدام بعد الوجود ؛ لتبيين إمكان البعث بالنظير وبالضد والذي جاء موضعاً في آيات كثيرة ، كقوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٤) وقوله ﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٥)

وفي تلك الآيات ونظائرها إقامة للأدلة على وحدانية الله - تعالى - وربوبيته ، وعلى وقوع البعث بأسلوب منطقي واضح ، يقنع العقول ، ويهدي القلوب .

(١) - سورة يس الآيات ٨٢-٨٣

(٢) - شرح مختصر الروضة ٣ / ٢٥٥

(٣) - البحر المحيط ٦ / ٣٢٧

(٤) - سورة الروم من الآية ٢٧

(٥) - سورة ق الآية ١٥

وجاء الربط بين النبات واليوم الآخر والبعث في ثلاث سور متتابة في القرآن الكريم ، ففي سورة

النبأ قال - سبحانه وتعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾

وَجَنَّتِ الْأَفَاةُ ﴿١﴾ ثم انتقل الحديث بعدها إلى يوم الفصل ، فقال - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّ

يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿٢﴾

وفي سورة النازعات بعد الحديث عن دحو الأرض ، وإخراج الماء والمرعى منها ، وهو : جميع ما

يقتات به الناس والدواب في قوله - تعالى - ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرَعَهَا ﴿٣١﴾ جاء ذكر يوم القيامة والبعث والجزاء في قوله - تعالى - ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ

الْكُبْرَى ﴿٣٢﴾

وفي سورة عبس - كذلك - بعد تعداد بعض الأنواع من النبات جاء ذكر يوم القيامة فقال الحق

- جل وعلا - ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرُّ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِيهِ

وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴿٥﴾

(١) - سورة النبأ ١٤ - ١٦

(٢) - سورة النبأ الآية ١٧

(٣) - سورة النازعات ٣٠ - ٣١

(٤) - سورة النازعات الآية ٣٤

(٥) - سورة عبس الآية ٣٣ - ٣٧

المطلب الثاني : تقرير البعث بإحياء البذرة الميتة :

تكرر ذكر النبات في معرض إثبات البعث وقطعيته ؛ لما يحويه هذا العالم من أسرار القدرة الإلهية التي لا يحدها حد ، وفي هذا العالم دليل قاطع على ربوبية الخالق - سبحانه - وألوهيته وعلى قدرة الله - تعالى - من بعث الخلق أحياء للجزاء والحساب ، وجاء ذلك في آيات كثيرة : منها توضيح قدرته على إحياء البذرة الميتة ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ

الْحَبِّ وَالنَّوَى ^ط يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ^ط تُوَفِّكُونَ ﴿١﴾

في هذه الآيات يخبر الله - سبحانه وتعالى - عن بعض من آيات التكوين والإنعام ودلائل القدرة بعد أن ذكر قبلها آيات تبين ربوبية الخالق - سبحانه - وألوهيته و حقيقة البعث والمعاد . فجاءت آيات كريمة تؤكد وتقرر ما سبق وتحدث عن كمال قدرته ، وبديع صنعه ، وتقديره وتدييره وسننه الكونية ، وشدة عنايته بخلقه ببعض من تلك المظاهر .

فبدأ بالنبات ، وأخبرنا - سبحانه - أنه هو وحده من يشق بقدرته التراب ، فينبت - بإذنه - الزروع المختلفة ، والأشجار والنخيل السامقة ، والثمار المتنوعة ، فينتفع بها جميع الخلق في شتى أمور حياتهم .

ثم يعرض - سبحانه - صورة أخرى من صور الإبداع في الخلق ، وهي : أنه يخرج الحي من الميت والميت من الحي فالحب والنوى من نتاج النبات الحي .

وكما هو مشاهد في الحياة من خروج الحي من الميت كخروج الفرخ من البيضة ، وخروج الأشجار والزروع من الحب والنوى . وهكذا .

وفي هذه الصورة البديعة من الإحياء والإماتة وتبدل الحياة يتضح المثل لمن كان له عقل وقلب سليم ؛ فهو كان ميتاً ، ثم خلقه الله وبث فيه الحياة ، ثم يميته إذا جاء أجله ، ثم يبعثه للجزاء والحساب ، والله - سبحانه وتعالى - قادر قاهر ؛ فكما أخرج الإنسان من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب ، فكيف توفكون وتصرفون عن طريق الهدى والفلاح طريق الإيمان بالله وتوحيده والإيمان باليوم الآخر وهو طريق السعادة .

وجاء ذكر إخراج الميت من الحي والحي من الميت في آيات أخرى كريمة ، كقوله - تعالى -

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) وقوله - تعالى - ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقُونَ ﴾ (٢) ففي الآيتين يذكر الله - سبحانه وتعالى - بعض دلائل قدرته وعظيم صنعته - سبحانه - ومنها إخراج الحي من الميت والميت من الحي ، وإخراج الحي من الميت إما إخراجاً مادياً : كالأشجار والنخيل من النواة ، والزرع المختلفة من الحب ، والإنسان من النطفة، والطائر من البيضة ، أو إخراجاً معنوياً : كالمؤمن من الكافر ، والعالم من الجاهل .

وتخرج الميت من الحي مادياً ومعنوياً كذلك : كالنواة من الأشجار والنخيل ، والبيضة من الطائر والبيضة من الطائر ، والكافر من المؤمن ، والجاهل من العالم .

وفسر ابن كثير قوله - تعالى - ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ بقوله : " تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء " (٣)

وجاء القياس في سورة الروم بصورة بقياس النظر على نظيره ، وتشبيه قدرته على الإحياء والإماتة متى شاء - سبحانه - بقدرته على إخراج الناس من قبورهم للبعث ، فيقول الحق - تبارك

وتعالى - ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٤)

(١) - سورة آل عمران الآية ٢٧

(٢) - سورة يونس الآية ٣١

(٣) - تفسير القرآن العظيم ٢٩/٢

(٤) - سورة الروم الآية ١٩

يبين الله - سبحانه وتعالى - كمال قدرته وتفردته بالخلق والإيجاد والإبداع والتكوين ، والإحياء والإماتة ، وخلق الأشياء المتضادة بعضها من بعض ، فهو من يخرج الحي من الميت والميت من الحي ، وهذه العملية التي يشاهدها الناس في كل زمان ومكان ، ولكنهم يغفلون عنها .
وفي الآية الكريمة قياس النظير على النظير ، فكما تشاهدون هذه القدرة فكذلك تخرجون من قبوركم ، وقوله - تعالى - ﴿ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴾ فيه تقريب لأذهان البشر ، وأخذ بمقاييسهم وإدراكهم ؛ فيوجههم - سبحانه وتعالى - للنظر والتدبر فيما حولهم ، وما يشاهدونه في كل برهة من تبدل مظاهر الحياة بين موت وحياة .

ووجه التشبيه في الآية : أنه - سبحانه - يجعلهم أحياء بعدما أماتهم ، كهذه الأرض التي أحيائها بالمطر فأنبت النبات البهيح . وفي هذا دليل على صحة القياس .
فلا فرق في نظر العقل بين أمر الإحياء بعد الموت فهم يرون مظاهر الحياة في كل ما حولهم ، وكذلك يرون حياة النبات والأرض الميتة بالمطر فلا يستبعد أمر دون أمر .

ومن قبيل إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي : إخراج الضد من ضده ، حيث أخرج - سبحانه - النار على شدة حرها من الشجر الأخضر وهو الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة ، وذلك في قوله - سبحانه - رَدًّا على منكري البعث ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (١)

فهذه الآية الكريمة مسوقة للرد على استبعاد البعث وإنكاره والتعجب من الإعادة بعد أن تبلى العظام وتفتى ، وفي هذه الآية الكريمة وما قبلها من الآيات الأدلة التي ساقها الله - سبحانه وتعالى - رَدًّا على شبهة إنكار البعث التي زعمها ذلك الرجل من قريش (٢) وأول الأدلة : إثبات قدرته على الإعادة ؛ لأنه أول من أنشأ الخلق وأوجده من العدم ، وأنه - سبحانه وتعالى -

(١) - سورة يس الآية ٨٠

(٢) - جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي يده عظم رميم وهو يفتته ويذريه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يعث هذا ؟ فقال : " نعم ، يمتك الله تعالى ثم يعثك ، ثم يحشرك إلى النار " وفي تحديد الرجل قيل : أنه أبي بن خلف وصححه ابن عطية وغيره ، وقيل أنه العاص بن وائل . ينظر : جامع البيان ٥٥٤/٢٠ ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٢٠٢/١٠ ، أسباب النزول ١٨٨/١ ، المحرر الوجيز ٤٦٤/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٥٩٣/٦ ، تسهيل

لا تخفى عليه خافية من خلقه ولا يخرج عن علمه أي شيء كائنًا ما كان ، ثم استدل - سبحانه -
- بدليل آخر وهو إخراج الشيء من ضده أي خروج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر .

والمراد بالشجر الأخضر : هو الشجر التّدى الرطب ، والمشهور أنه : شجر المرخ والعفار وهما :
نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرته الله - تعالى - (١)

ولذلك قالوا في المثل المشهور : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (٢)

وهذا أغرب من خلق الإنسان من النطفة ؛ لأنه إبراز للشيء من ضده وهو اقتداح النار من الشجر
الأخضر مع أن الماء يطفئها .

ووجه الاستدلال بالشجرة والنار " أن النار صاعدة والشجرة هابطة ، وأيضاً النار لطيفة ،
و الشجرة كثيفة. وأيضاً النار نورانية والشجرة ظلمانية ، والنار حارة يابسة والشجرة باردة رطبة ،
فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه

الأشياء المتنافرة ، فإذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها " (٣)

قال ابن أبي العز عند تناوله لهذه الآية : " فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية
الحرارة واليبوسة، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده،
وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه - هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه،
من إحياء العظام وهي رميم " (٤) .

وإذاً فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر - مع ما فيه من المائية المضادة لها - كان
أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها ، وكما يخرج الله - تعالى - النار من الماء يخرج - سبحانه -
الميت من الحي والعكس ، وهذه صورة واضحة مشاهدة من الإبداع في الخلق .

وإخراج النار من الشجر الرطب دليل فوق دليل ؛ لتأكيد للبعث والجزاء .

(١) _ الكشاف ٣١/٤ ، روح المعاني ٥٤/١٢

(٢) _ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ٢٠٢/١ ، نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٢٣/٧ ، معجم الأمثال
العربية ١٧١/٤

(٣) _ التفسير الكبير ٣٥٥/٢

(٤) _ شرح العقيدة الطحاوية ٤٠٧/١ ، وينظر كلام أبي الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر ص ١٦٠-١٦١ ،
وأبو حيان في البحر المحيط ٣٣٢/٧ - ٣٣٣

وقد نبّه ابن عاشور أن المراد بالشجر الأخضر ليس اللون ، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة ؛ لأن هذا اللون وهذه الخضرة وقت حياة النبات ، فإذا جفّ وزالت منه الحياة استحال لونه إلى العُبرة ، وزالت الخضرة ، فالخضرة كناية عن رطوبة النبات وحياته (١).

ثم الدليل الثالث : وهو قدرته على خلق السماوات والأرض والتي تفوق في العظمة والإبداع خلق الإنسان الضعيف .

وفي سورة الواقعة استدل - سبحانه - على البعث والإحياء بقدرته على الإيجاد والإنشاء من العدم ، فكما أنه قادر - سبحانه - على الإيجاد فهو قادر على الإعادة ، وهذه دلالة يقرها العقل السليم . قال - تعالى - ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمْتًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)

لما كان المراد من النار ناراً مخصوصة تدلهم على كمال قدرته وعظيم نعمته بإيجاد الأشياء من أصدادها فاستفهم منهم عن النار التي يستخرجونها من الزند ، و هو : العود الذي يُقَدِّحُ به (٣) بعد أن يحتك الغصنان مع بعضهما فتوقد النار .

ولما كان هذا الاشتعال من عجائب الصنع ، كَرَّرَ التقرير والإنكار تنبيهاً عليه ، فقال - سبحانه - ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ أي : أنتم أحدثتم شجرتها واخترتم أصلها ؟ أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه ؟ (٤)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ لهذه النار بقدرتنا دونكم ومعنى الإنشاء الخلق وعبر عنه بالإنشاء ؛ للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (٥)

والآية دليل وجواب عن شبهة منكري البعث كما قال ابن القيم : " وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد : الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة ، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك ؛ لتضاد ما بينهما ، وهذه شبهة تليق بعقول

(١) - التحرير والتنوير ٧٧/٢٣

(٢) - سورة الواقعة الآيات ٧١-٧٣

(٣) - لسان العرب ١٩٦/٣ ، مادة (زند) ، القاموس المحيط ص ٣٦٤ ، تاج العروس ١٤٦/٨

(٤) - جامع البيان ١٤٤/٢٣

(٥) - فتح القدير ١٥٨/٥

المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل ، فإن الحياة لا تجتمع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا ، بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه ، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة " (١)

في قوله تعالى ﴿ تَذَكَّرَ ﴾ وجهان ، أحدهما : أنها تذكر بيوم القيامة ، والنار التي أعدها الله - سبحانه - لمن عصاه وهي أشد وأبقى .

ففي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم " ، قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال : " فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها " (٢)

وثانيهما : أنها تذكر بصحة البعث ؛ لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الرطب المضاد لها لا يعجز عن إيداع الحرارة والحياة في بدن الميت وإعادة ما تفرق من جسده (٣) .

وقوله - تعالى - ﴿ وَمَتَعْنَا لِلْمُقْوِينَ ﴾ أي : منفعة للمسافرين ، والمقوين : مأخوذ من أقوى الرجل إذا دخل في القواء ، أي القفر والمفاوز التي لا نبات فيها ولا ماء والمراد بهم هنا المسافرون ؛ لأنهم في معظم الأحيان يسلكون في سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض (٤) وهو قول أكثر السلف والمفسرين ، واختيار الطبري (٥)

وقد يكون خص المسافرين بالإضافة إلى عظم حاجتهم للنار ، أن الدنيا كلها دار سفر ، والعبد من ولادته فهو مسافر إلى ربه (٦)

(١) - إعلام الموقعين ١/١٤٢

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب : بدء الخلق ، باب : صفة النار وأنها مخلوقة ح ٣٢٦٥ ص ٢٦٤ ومسلم في صحيحه ، كتاب : الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعادنا الله منها ح ٧١٦٥ ص ١١٧١ ، كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٣) - التفسير الكبير ٢٩/٤٢٣ ، إرشاد العقل السليم ٨/١٩٩

(٤) - معاني القرآن للفراء ٣/١٢٩ ، لسان العرب ١٥/٢٠٦ ، مادة (قوا) ، تاج العروس ٣٩/٣٦٥ ، مادة (قوي)

(٥) - جامع البيان ٢٣/١٤٦ ، تفسير القرآن العظيم ٧/٥٤٢

(٦) - تيسير الكريم المنان ١/٨٣٥

المطلب الثالث : تقرير البعث بإحياء الأرض :

ساق القرآن الكريم أدلة وبراهين عقلية ومنطقية وكونية ، ونادى فطرتهم السوية ، وكلها تقطع بالبعث وأنه لا ريب فيه ، وتقطع شك الشاكين وتزيد إيمان المؤمنين ، وتأخذ بأيديهم إلى الطريق المستقيم طريق المؤمنين الموحدين ، ومن هذه الأدلة : تقرير البعث بإحياء الأرض الميتة . وجاء تشبيه بعث الناس من قبورهم للجزاء والحساب بعملية إحياء الأرض الميتة بالنبات الأخضر بعد نزول المطر بقدرة الله - سبحانه وتعالى - في آيات كثيرة ، وهذه العملية الحيوية التي تتم أمام أعيننا باستمرار ، و في حدود إدراك البشر ، وطاقتهم العقلية ؛ لإدراك مدلولاتها وقياسهم مظاهر القدرة الأخرى المشابهة لها عليها .

فإعادة الخلق بعد الموت ليس بالأمر الصعب أو المستحيل ، فمادام الأمر يتعلق بالإله القادر الحكيم وإرادته فلن يعجزه شيء .

وجاء تقرير البعث بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات في أغلب الآيات القرآنية التي تتحدث عن إنزال المطر ، وتكرر ذلك كثيراً ، كما قال ابن القيم " وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً ؛ لصحة مقدماته ووضوح دلالاته وقرب تناوله وبعده من كل معارضة وشبهة وجعله تبصرة وذكرى " (١)

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۗ ﴾ (٢)

في الآيات الكريمة يبين الله - سبحانه وتعالى - أنه هو من يرسل الرياح الطيبة التي تبشر بالمطر ، حتى إذا حملت السحاب الثقال ساقته رحمة الله - تعالى - إلى أرض مجدبة ميتة لا نبات فيها ولا ماء ، فينزل المطر فتحيا الأرض ، وتخرج الأصناف المختلفة من الأشجار والثمار ، و إخراج النبات من الأرض الميتة هو نفس إخراجكم من القبور للبعث ووجه الشبه هو الحياة بعد الموت ، وأجمل الله - سبحانه وتعالى - كيفية الإخراج ؛ لأنه يعلم - سبحانه - قصور أفهام خلقه عن

(١) - إعلام الموقعين ١/١٤٥

(٢) - سورة الأعراف الآية ٥٧

فهم الكيفية وذئب - سبحانه وتعالى - الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتعتبرون وتنظرون
لآيات الله بعين التدبر والاستدلال .

ولهذه الآية نظائر في القرآن ، منها : قوله - سبحانه - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا
أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿ (١)

قوله - تعالى - ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرٌ مَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٢)

استدل الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات كذلك بإحياء الأرض بالمطر فهذه الظاهرة هي
كإحياء الناس للبعث والنشور ، فلا فرق بين الأمرين .

ومعنى النشور : من نشر . والنون والشين والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على فتح شيء وتشعبه ،
وأنشره الله أي أحياه ومنه يوم النشور وهو : بعث الموتى يوم القيامة (٣) .

والإشارة بقوله تعالى كذلك النشور ، أي مثل ذلك الصنع المحكم المتقن يتم النشور ، وكما هيأ الله
تعالى أسباب إحياء الأرض الميتة فيهيئ الله تعالى صنعا يكون به النشور .

أما وجه وجه الشبه عند قوله - تعالى - ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ وجوه ، ذكرها الرازي في تفسيره
حيث قال : فيه وجوه : أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل
الحياة وثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض
الأشياء وثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن
الميت (٤) .

(١) - سورة الفرقان الآيات ٤٨ - ٤٩

(٢) - سورة فاطر الآية ٩

(٣) - معجم مقاييس اللغة ٤٣٠/٥ ، مادة (نشر) ، لسان العرب ٢٠٦/٥ ، المعجم الوسيط ٩٢٢/٢

(٤) - التفسير الكبير ٢٢٥/٢٦

قال القاسمي عند تناوله لهذه الآية ، قوله - تعالى - ﴿ كَذَلِكَ نُشَوِّرُكُمْ ﴾ " أي : مثل إحياء الموت ، إحياء الأموات ، وكثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ؛ ليعتبر المرتاب في هذا ، فإنه من أظهر الآيات وأوضحها " (١).

وهذا الإحياء والإخراج دل على أمور ومطالب ذكرها ابن القيم ، حيث قال : " جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات ، وإخراج التّبات منها نظير إخراجهم من القبور ، ودلّ بالنّظير على نظيره ، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب : .
أحدها : وجود الصّانع ، وأتّه الحقّ المبين ، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله .

الثّاني : أنّه يحيي الموتى .

الثّالث : عموم قدرته على كلّ شيء .

الرّابع : إتيان السّاعة وأنّها لا ريب فيها .

الخامس : أنّه يخرج الموتى من القبور كما أخرج التّبات من الأرض " (٢)

ومن نظائر الآية كذلك قوله - تعالى - في سورة الروم ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ

مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴾ (٣)

وهذا الإحياء من براهين البعث بعد الموت الأربعة ، وهي :

خلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وإحياء بعض الموتى في دار الدنيا (٤)

وبموضع آخر من السورة نفسها يأمرنا - سبحانه وتعالى - بالنظر إلى آثار رحمة الله - تعالى - نظرة تأمل واسبصار واستدلال ، فبالمطر أحيا الله تعالى الأرض فأنبتت الأشجار والنبات وهذا من رحمة الله - تعالى - بالعباد .

(١) - محاسن التّأويل ١٤ / ٤٩٧٥

(٢) - إعلام الموقعين ١ / ١٤٤ - ١٤٥

(٣) - سورة الروم الآية ١٩

(٤) - أضواء البيان ٣ / ٢٢٣ - ٢٢٤

ثم نبّه - سبحانه العباد - على هذه الظاهرة ، وعلى قياس هذا الإحياء بإحياء الموتى ، فهو على كل شئ قدير - سبحانه - ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

بعد أن قرر البعث وأكده بإحضار جميع الأمم السابقة إليه للجزاء والحساب ، فقال - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِن كُنتُمْ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مَنَّ الْعَيْنُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

في الآيات الكريمة وصف الله - سبحانه وتعالى - الأرض بالميتة ، أي التي لا روح فيها ، وهنا يتضح وجه الشبه بين بعث الجسد بعد موته وإحياء الأرض بالمطر .

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَٰلِكَ نُخْرِجُونَ ﴾ (٣)

وفي سورة ق بعد أن ذكر - سبحانه - إنكار الكفار للبعث وتعجبهم من إحيائهم بعد الموت ردّ الله - سبحانه وتعالى - شبهتهم وجادلهم بأدلة معنوية أولاً ، ثم انتقل - سبحانه - إلى الأدلة الحسية .

ومن الأدلة المعنوية : تذكيره لهم - سبحانه - بشمول علمه وإحاطته بعالمي الغيب والشهادة ، وأنه - سبحانه - يعلم ما يندثر منهم في الأرض ، وأن من علم ذلك لا يعجزه إعادتهم للحياة مرةً أخرى ، ثم أكد - سبحانه وتعالى - هذا العلم بأنه - سبحانه - بجانب علمه وإحاطته بجميع خلقه لديه كتاب محفوظ من التبديل والتغيير وفيه عدتهم وأسمائهم ، وكل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم فهل بعد هذا الاستدلال يشك شك بقدرته من هذا علمه وإحاطته على البعث ثم انتقل - سبحانه - إلى الأدلة الحسية في السماء فوقهم ، والأرض التي يمشون عليها ، ومن هذه الدلائل الأرضية قوله - تعالى - ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

(١) - سورة الروم الآية ٥٠

(٢) - سورة يس الآيات ٣٢ - ٣٥

(٣) - سورة الزخرف الآية ١١

زَوْجٍ بَهِيحٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ
جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً

مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١﴾ فلو نظر هؤلاء الكافرون المنكرون للبعث إلى الأرض تحتهم لرأوا فيها من دلائل القدرة والعظمة والمنة ما يعجزون عن شكره وعبادته ، فهذه الأرض الفسيحة الممدودة تحتهم والتي ثبتها - سبحانه - بالجمال الراسيات ، وأنبت فيها من كل الثمرات مختلفة الألوان والأشكال ، متنوعة الألوان والطعوم ، فهي : " بحر لا تدركه الدلاء ، وباب لا يسعه تدوين ولا إملاء " (٢)

وهذه النعم التي أنعمها الله - سبحانه وتعالى - عليهم ؛ لتطيب بها حياتهم ، ويهنأ عيشهم ، فيجب ألا يكون فقط غذاءً لأبدانهم بل ينبغي أن يكون لأرواحهم وعقولهم أيضاً .
ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذه الدلائل ؛ فهي تبصرة وتذكير لهم لكل ما يصلح به شأن حياتهم ومعادهم ، كالتوحيد والبعث ، وفيه ذكرى لأولي الألباب الذين يعلمون أن من خلق السماء وزينها ، والأرض التي بسطها وثبتها ، وأنبت فيها مختلف الزروع والأشجار ، ومن ينزل الماء المبارك فينبت به نباتات مختلفة ، ونخيل باسقة ذات طلع متراكم بعضه فوق بعض ، رزقاً لهم وإحياءً للأرض الميتة ، أفلا يستطيع من هذه قدرته إخراجهم من قبورهم بعد أن فنوا وفنيت أجسادهم ، ويجازيهم ويحاسبهم .

قال الطبري : " كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة ، فأحييناها به ، فأخرجنا نباتها وزرعها ، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء " (٣)
بعض الألفاظ التي عبر الله بها عن الأرض التي أحيها - سبحانه - بالنبات :

أ - الأرض الهامدة ، في قوله - تعالى - ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى

(١) - سورة ق الآيات ٧-١١

(٢) - ملاك التأويل القاطع بدوي الإحاد ص ٩٣٤

(٣) - جامع البيان ٢٢/٣٣٦

وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾

من الآيات الدالة على وجود الله وعظمته - سبحانه - اهتزاز الأرض بحركات تموجية لا يشعر بها الإنسان وبواسطة هذا الاهتزاز ينزل الماء في باطنها ، ويختلط بالتربة ليكون غذاءً للنباتات والكائنات التي فيها .

وهمود الأرض يماثل موت الإنسان ، واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت .

ب - الأرض الخاشعة ، في قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)

خاشعة : الخاء والشين والعين أصل واحد ، يدل على التظامن ، وبلدة خاشعة أي : مغبرة لا منزل بها (٣)

قال أبو حيان : " خاشعة : أي غرباء دارسة ، استعير الخشوع لها ، وهو التذلل لما ظهر بها من القحط وعدم النبات وسوء العيش عنها ، بخلاف أن تكون معشبة وأشجاراً مزهرة ومثمرة ، فذلك هو حياتها " (٤).

من علاماته ووحدايته أنك أيها الإنسان ترى الأرض غرباء يابسة لا نبات فيها ، ثم تتبدل حالتها بعد نزول المطر عليها فتتحرك الأرض بالنبات وترتفع بالنبات والكائنات فيها ، ومن أحيائها بعد موتها قادر على إحيائكم وبعثكم من القبور فهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، وقدير مبالغ في القدرة .

ج - الأرض الجزز ، في قوله - تعالى - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٥)

(١) - سورة الحج من الآية ٥-٧

(٢) - سورة فصلت الآية ٣٩

(٣) - الصحاح ٣/ ١٢٠٤ ، مادة (خشع) ، معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٨٢ ، تاج العروس ٢٠/ ٥٠٧

(٤) - البحر المحيط ٧/ ٤٧٧

(٥) - سورة السجدة الآية ٢٧

أولم يروا بعين البصر والبصيرة أثر الماء الذي يسوقه الله - تعالى - إلى الأرض الجرز ، والجرز : هي الأرض الجدبة التي لا نبت فيها ؛ لأن نباتها جُرز أي قُطع وأُزيل (١) فكيف تبدلت حالها فإذا هي خضراء يانعة فيها طعام البشر والأنعام ، أفلا يبصرون تلك المنة ، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون ويهتدون بذلك البصر ، وتلك البصيرة إلى الإله القادر على كل شئ ، ومنه بعثهم الذي ينكرونه ويجادلون فيه .

وبعد إنزال المطر أحيا الله - سبحانه - الأرض ووصفها باللون الدال على الحياة والنضرة ، فقال - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢)

في هذه الآية تنبيه ، وتقرير ، وبعده خبر أَنَّ اللَّهَ تعالى أنزل من السماء ماءً فتظل الأرض تخضر عنه ، وتحيا الأرض وتنبت الضروب المختلفة من النبات ذات الأشكال والألوان التي تبهر العين بحسنها وبهائها .

ثم ذكر - سبحانه - ما هو كالل دليل على ذلك ، وهو ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي : إنه - تعالى - لطيف يصل علمه إلى الدقيق والجليل ، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم .

وفسر الطبري قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء وغير ذلك من ابتداء ما شاء أن يتدعه و ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما يحدث عن ذلك النبت من الحب (٣)

وفي التحول من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع في قوله تعالى ﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ ؛ لاستحضار الصورة ، وإفادة الاستمرار وبقاء المطر زمن بعد زمن ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل (٤) وإحياء الأرض بعد موتها آية مبهرة جاءت في آيات قرآنية كثيرة للدلالة على البعث بعد الموت ، وجاء التعقيب في الآيات الكريمة بأن هذا الإحياء الذي تشاهدونه كإحياء الذي تنكرونه ، وأن من قدر على ذلك الإحياء قادر على إحيائكم ، وفي آيات كريمة أخرى ذكر الله - سبحانه - أن

(١) _ لسان العرب ٣١٦/٥ ، مادة (جرز) ، المعجم الوسيط ١١٧/١

(٢) _ سورة الحج الآية ٦٣

(٣) _ جامع البيان ٦٧٦/١٨ ، وبنحوه ، ينظر : بحر العلوم ٤٦٨/٢ ، معالم التنزيل ٣٩٧/٥

(٤) _ الكشاف ١٦٨/٣ ، روح المعاني ١٨٢/٩ ، فتح القدير ٤٦٦/٣

في هذا الإحياء عبرًا جليلة ، ودلالات واضحة ، وحججًا قاطعة لمن يسمع هذا القول سماع تدبر واعتبار ففيها آيات لقوم يسمعون ؛ إذ السماع المطلوب سماع القلوب والعقول ، لا سمع الأذان فقط ، كما في قوله - تعالى - ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (١)

وهي كذلك آيات لقوم يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها ، وكيفية حدوثها ، فيدركون عظمة الصانع المبدع وكمال قدرته كما في قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

ومن نظائر هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) وقوله - سبحانه - ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤)

ولأبي السعود كلام جميل عن عظمة الآيات في الكون ومنها إحياء الأرض الميتة " وإن سطر آيات قدرته في صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته في صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العلم وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم في لوح الاختراع مرآة لمشاهدة جماله ومطالعة صفات كماله حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون برهانًا جليًا لا ريب فيه ، ومنهاجًا سويًا لا يضل من ينتحيه بل ناطقًا يتلو آيات ربه " (٥)

(١) - سورة النحل ٦٥

(٢) - سورة الروم الآية ٢٤

(٣) - سورة الجاثية الآيات ٣ - ٥

(٤) - سورة الحديد الآية ١٧

(٥) - إرشاد العقل السليم ٣/١

من هدايات الآيات :

- كثرة النصوص الشرعية التي توجب الإيمان بالبعث ، فصار الإيمان به من الأمور المعلومة بالضرورة في دين الإسلام ، وهو ركن من أركان الإسلام ، فلا دين لمن لم يؤمن به ، وهو جاحد كافر خارج عن الملة .

- كثرة الآيات الدالة على قدرة الله تعالى على البعث وإمكان حدوثه وفي ذلك دلالة على أهمية هذا المعتقد في حياة الناس .

- قضية الإيمان بالبعث أهم قضية بعد الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ولهذا ارتبطا مع بعضهما في كثير من الآيات القرآنية .

- في النظر والتأمل لكيفية الخلق ، ولا سيما خلق الإنسان والنبات دلالة واضحة على القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء ، وتقريب للأذهان لكيفية البعث ؛ ولهذا جاءت فاصلة كثير من

الآيات مقايسة قدرة بقدرة ، كقوله - تعالى - ﴿ كَذَلِكَ أَخْرَجْنَا ﴾ (١) ، وقوله - تعالى -

﴿ كَذَلِكَ أُنشَرُوا ﴾ (٢) .

- في الإيمان بالبعث يزن الإنسان حياته بالميزان الصحيح فيعرف قدر الحياة الدنيا ، ويعيش حياته على هدى من الله ورسوله ، ويتم في ضوئه تحقيق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان وهي استخلافه في الأرض وتعميره لها وعبادته - سبحانه وتعالى - على الوجه الذي يرضاه - سبحانه وتعالى - لتسعد البشرية في الدارين .

- دلت الآيات الكريمة على مراحل حياة البشر ، وهي : حياته في الدنيا ، والحياة البرزخية ، والحياة الآخرة الباقية .

- بقاء أصل الإنسان ، وحفظ ذلك ليكون أصل العودة للحياة مرة أخرى كالبذرة للنبات تحيا إذا جاءها المطر .

- اهتمام القرآن الكريم بعقيدة البعث ؛ لأنه قرآن للثقلين ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولهذا تنوعت أساليب القرآن الكريم في التطرق للبعث والنشور ، والتفصيل في طرق ومعالجة المكذبين والمنحرفين عنه ، وجاء بالقول الفصل حتى لا يبقى عذر لجاحد ولا منكر .

(١) - سورة ق من الآية ١١

(٢) - سورة فاطر من الآية ٩

- من إعجاز القرآن الكريم تكفل آياته الكريمة ببيان البراهين والحجج التي يتضح بها إمكانية البعث وسهولته للعقل السليم .
- محاورة الله - سبحانه وتعالى - الكفار بأسلوب حكيم يتجلى في ذكر منشأ حجتهم ومن ثم الرد عليها بالحجج والبراهين الدامغة و بأسلوب يتسم باللطف ، والرفق ، والحلم على المخالفين .
- إحياء الأرض بالنبات من الأدلة الواضحة على وجود الله - سبحانه وتعالى - وعلى ربوبيته ، وكمال القدرة الإلهية .
- استدلال القرآن الكريم بالمحسوسات كإخراج النبات من الأرض الميتة ، وأطوار خلق الإنسان والنبات ؛ ليتعلم الإنسان الإيمان بالغيبات .
- قدرة الله - سبحانه وتعالى - في إخراج الضد من الضد ،
- من أسباب انحراف البشر في قضية البعث تقديمهم عقولهم القاصرة على الوحي الإلهي ، وكذلك قياسهم قدرة الخالق - سبحانه وتعالى - على قدرتهم هم - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .
- ذكر العلماء أن براهين البعث في القرآن الكريم ، هي : العلم والقدرة والحكمة .
- علم الله الشامل للغيب وإحاطته بجميع خلقه ، ومن ذلك علمه سبحانه بما اختلط من أجسادهم بالتراب وما تفرق منها ، وجمعها متى شاء .
- ظلم الكفار لأنفسهم بإنكارهم للبعث فما داموا يؤمنون بربوبيته وأنه الإله الخالق القادر الذي لا يعجزه شئ فكيف يعجز عن إعادة ما خلق .

الفصل الثاني : دلالات الشجر والثمر في حق المخلوق :

المبحث الأول : الامتنان على الخلق :

خلق الله - سبحانه وتعالى - هذا الكون الفسيح ثم خلق المخلوقات التي تعيش فيه ، وأنعم عليهم نعماً لا تعد ولا تحصى ، ولفت نظرهم في الكتاب العزيز إلى الآيات الكونية في السماوات والأرض والجبال والبحار والنبات وغيرها ليشير إلى القوانين التي تحكمها ، وإلى تسخير هذا الكون الفسيح للإنسان ؛ لعمارتها وعبادة الله - سبحانه وتعالى - وإلى حث الإنسان للنظر فيما حوله بتفكير وتمعن ، وعدد بعض النعم التي أنعمها عليه في مواضع كثيرة في كتابه ؛ للتوصل بها إلى معرفة الخالق لها وإبداعه في خلقها .

وتسخير المخلوقات للإنسان يتم عن أحد طريقتين :

١ - القوانين التي خلق الله العالم عليها ، وجعلها بحيث تسد حاجات الإنسان المتباينة دون أن يكون له يد في تسييرها ، أو قدرة على تغيير مجراها ، كقوله - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

بِقَدْرِ فَاسْكُنْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١) .

٢ - القدرة على التعلم التي وهبها الله إياها وبواسطتها يستطيع أن يخضع هذه المخلوقات لإرادته ويوجهها الوجهة التي تصلح من شأنه وتسد حاجته (٢)

وألوان هذه النعم على مد البصر : فأينما اتجه بصرك تجد نعمةً وفي كل نعمة واحدة نعماً لا تحصى ، ومهما أطلت وتحدثت عن هذه النعم فلن أحصيها ، ومن يستطيع حمد الله وشكره على كل نعمة ، كيف لا ونحن لا نستطيع إحصاءها وحصرها ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا

تُحْصَوْنَهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣)

جاء في معنى تحصوها ، أي : " وإن تعرضوا لتعداد نعم الله التي أنعم بها عليكم إجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال " (٤)

(١) - سورة المؤمنون الآية ١٨

(٢) - الإنسان في القرآن ص ٤٨

(٣) - سورة إبراهيم الآية ٣٤

(٤) - فتح القدير ١١٠/٣

فنعم الله - سبحانه وتعالى - لا تعد ولا تحصى ؛ لكثرتها من جهة ، ولدقة خفائها أحياناً :
كعجائب مخلوقات الله .

والله - سبحانه وتعالى - منعم يحب الشكر ، ومن شكر فهو في مزيد من النعم .

ومن أعظم هذه النعم : نعمة النبات والثمار .

هذه النعمة امتن الله بها على عباده في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا : هي قوام عيشهم ، وعيش
دوابهم ، ومنها يتفكحون .

وفي الآخرة : رغب الخالق - سبحانه - بها في الجنة رزقاً وثواباً للمؤمنين .

جاء الامتنان بها في جميع الآيات التي تحدثت عن الثمار سواء كانت لدلالاتها على توحيد الخالق

- سبحانه - أو قدرته الكاملة على البعث وغيره ، أو للابتلاء بها ، أو للتفكير في عجائبها

وغيرها فجميع هذه الدلالات لا يخلو من الامتنان بها .

المطلب الأول : الامتنان بإيجادها :

حظيت الأشجار والنباتات بورودها في آيات كثيرة في القرآن الكريم ، ولم يكن ذكرها مجرد تعداد نعم الله فحسب بل جاءت كذلك لدلالات أخرى كالدعوة لتوحيده - سبحانه - والتفكير في ملكوته ، وقدرته - سبحانه - على البعث ، وسياقها في ضرب المثل ، وغيرها من الدلالات .

ومن هذه الآيات الكريمة قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١)

وقوله - سبحانه - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٢) وقوله - سبحانه - ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وفي سورة الملك

قال - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٤)

تنوعت الألفاظ التي عبّر بها - سبحانه - عن خلق الأشجار والثمار ، وتعددت صيغها ، ومنها : التعبير بالجعل والفطر والخلق والإبداع والإنشاء والقضاء والإخراج ، وهي : ألفاظ مفعمة بالدلالة على عظيم سلطان الله في خلق الأشجار والنبات ، كما هو الشأن في خلق كل شيء . وتنتهي الألفاظ كلها إلى معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء ، مع الدلالة على عظم قدرة الخالق - سبحانه - .

في سورة الواقعة تنوع امتنان الله - تعالى - على الناس بعدة ضروب مترابطة من ضروب الإنشاء بعد العدم في معرض التأكيد على إمكان البعث ، فقال - تعالى - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (٦٤) ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ بَلْ

(١) - سورة الرعد الآية ٣

(٢) - سورة طه الآية ٥٣

(٣) - سورة يس الآية ٣٦

(٤) - سورة الملك الآية ١٥

نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمْتًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾

ومن هذه الضروب : خلق النسل وبعدها إنبات النبات ؛ وذلك للتشابه بين النبات والإنسان في

تكوينهما ، قال - تعالى - ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (٢)

فبعد خلق النسل امتن عليهم - سبحانه - بقدرته على خلق النبات باستفهام إنكاري فقال

- تعالى - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ أي ما تعملون في الأرض من إثارتها وإلقاء البذور فيه

﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أي : أنتم تبتونونه ؟

وقد نبّهت هذا الآيات على أمور ، منها : إحياء الموتى ، والامتنان بإخراج القوت ، ومنها القدرة

العظيمة الدالة على التوحيد (٣)

وفي هذه الآية أيضًا تقرير منة الله - تعالى - على عباده بما هداهم إليه من تيسير أمور زرعهم

وحرثهم ، وما تنتجه لهم الأرض من الزروع والثمار والأرزاق والنعمة التي لا يقدر على إحصائها

فضلاً عن شكرها، وأداء حقها .

معنى الحرث : إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ، وتهيؤها للزرع ويسمى المحرث حرثاً (٤)

والزرع : الإنبات ، يقال زَرَعَهُ اللهُ أَي أَنْبَتَهُ ، وحقيقة الزرع تكون بالأمور الإلهية دون البشرية (٥)

وأضاف - سبحانه - الحرث إليهم والزرع إليه ؛ لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم ، والزرع

من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم ، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلاً

للأسباب التي هي سبب الزرع كما تقول أنبت كذا إذا كنت من أسباب نباته (٦)

(١) - سورة الواقعة الآيات ٦٣-٧٤

(٢) - سورة نوح الآية ١٧

(٣) - زاد المسير ٨ / ١٤٧ - ١٤٨

(٤) - التبيان في تفسير غريب القرآن ١/٤٠٧ ، المفردات في غريب القرآن ١/١١٢ ، لسان العرب ٢/١٣٤ مادة (حرث)

(٥) - المفردات غريب القرآن ١/٢١٢ ، التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص ٣١٢

(٦) - الجامع لأحكام القرآن ١٧/٢١٧

ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يقولن أحدكم زرعتم ولكن ليقل حرثت " ، قال أبو هريرة : ألم تسمعوا إلى قول الله - عز وجل - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ (١) هذه الآية تتضمن أمرين :

أحدهما : الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ؛ ليشكروه على نعمته عليهم .
الثاني : البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذوره ، وانتقاله إلى استواء حاله حتى صار زرعاً أخضرًا ، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من مات أحق وعليه أقدر ، وهذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة (٢) .

وجاء ترتيب هذه الضروب ترتيباً حسناً في كتاب الله المعجز كما ذكر ذلك الخازن ، بقوله : " لما ذكر الله تعالى ابتداء الخلق وما فيه من دلائل الوحدانية ذكر بعده الرزق لأن به البقاء وذكر أموراً ثلاثة المأكول والمشروب ، وما به إصلاح المأكول والمشروب ، ورتبه ترتيباً حسناً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب ؛ لأن به الاستمرار ثم النار التي بها الإصلاح ، وذكر من أنواع المأكول : الحب ؛ لأنه هو الأصل ، ومن المشروب : الماء ؛ لأنه أيضاً هو الأصل ، وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية " (٣)

وامتنان الله على عباده ليس بإيجاد الثمار فحسب بل بحفظها مما يتلفها ؛ فلولا هذا الحفظ لظلوا يتفكّهون من مصابهم ويلازمهم الحزن والحرمان لحرمانهم من هذه الثمار التي انتظروها .

قال - تعالى - ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي لو يشاء الله - سبحانه - لجعل الزرع متكسراً لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء ؛ لشدة بيبسه فتبقون تعجبون مما أصابكم فالله - سبحانه - الذي أنبته بلطفه ورحمته وأبقاه ؛ لينتفع به الإنسان . والمراد ب ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ أي

(١) - أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣٠/١٣ ح ٥٧٢٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٣٨/٦ ، باب ما يستحب من حفظ المنطق ح ١٢٠٩١ ، والطبراني في المعجم الأوسط ٨٠/٨ ، ح ٨٠٢٤ . وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٢) - النكت والعيون ٤٦٠/٤

(٣) - لباب التأويل ٢٣/٧

لو عاملناكم ، ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي بتلك العظمة ، حطاماً مكسراً مفتتاً لا حب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج فلا ينتفع به (١)

ذكر الرازي أن في هذه الآية تدرج في الإثبات وبيّن ذلك بقوله : هو أنه لما قال - سبحانه - ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُمْ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ لم يبعد من معاند أن يقول نحن نحرك وهو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ، فردهم الله - سبحانه وتعالى - فما تقولون في سلامته عن الآفات التي تصيبه فيفسد قبل اشتداد الحب أو قبل ظهوره فهل تحفظونه منها أو تدفعونها عنه أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات كما تقولون إنه بنفسه ينبت ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى وحفظه عنها بفضل الله (٢)

ولكن الله بفضل يمنحهم الثمر ، ويسمح للنبته أن تتم حياتها وأن تنمو - وهم فقط إنما يحركون ويلقون الحبوب التي في أصلها من صنع الله - رأفةً ورحمةً بهم .

وفي الآية السابقة تنبيه للناس على أمرين : أحدهما : ما أولاهم به من النعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ؛ ليشكروه. والثاني : ليعتبروا بذلك في أنفسهم .

ثم انتقل سبحانه إلى الضرب التالي من الامتنان عليهم من أمثلة الإيجاد من العدم ، فجاء بعد الامتنان بإيجاد المطعوم الامتنان بالمشروب ؛ لأن المنة بالمأكل أعظم منها بالمشروب فالشراب إنما يكون تبعاً للمطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدماً في الآية (٣)

و المناسبة من الاستدلال هنا ، هي : علاقة الحرث بالماء ، فيما أن الحرث والزرع إنما ينبت زرعه وشجره بالماء ، وكل كائن حي أصله من الماء ، فالماء أصل الحياة فانتقل - سبحانه - من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر (٤) .

فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي أفأريتم أيها الناس الماء العذب الفرات الذي تشربونه ؟

(١) - نظم الدرر ١٨/٧٤

(٢) - التفسير الكبير ١٥٨/٢٩

(٣) - الجامع لأحكام القرآن ١٧/٢٢٠ ، الدر المصون ١٠/٢١٦

(٤) - التحرير والتنوير ٢٣/٢٧

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ من السحاب الذي فوقكم إلى قرار الأرض ثم

انتفعتم به أم نحن منزلوه لكم ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي : لو نشاء لجعلناه ماء ملحًا ، فالأجاج من الماء ما اشتدت ملوحته ومرارته (١) .

فلا تنتفعون به لا في شرب و لاغرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزال المطر عذبًا زلالاً ؟ وفي وصف الماء بالذي تشربون إدماجٌ للمنة في الاستدلال ، أي الماء العذب الذي تشربونه ؛ فإن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان .

أخرج ابن أبي حاتم (٢) " أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته ، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا " (٣)

فعصمته - تعالى - للزرع والماء وحفظه لهما عمًا يخل بالتمتع بهما نعمة أخرى بعد نعمة الإنبات والإنزال تستوجب الشكر .

فلم لا تجددون الشكر لمن خلقكم وخلق هذه النعم الضرورية وسخرها ، وجعلها ملائمةً لرغباتكم ومنافعكم .

وبعد الامتنان بالمشروب جاء الامتنان بإيجاد نوع آخر من النعم وهو خلق النار التي بها ينتفع الإنسان أي منفعة ، قال - تعالى - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي تقدحون وتستخرجون من زندكم (٤)

والزند هو : العود الذي يُقدح به (٥)

(١) _ النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٢٩ ، باب الهزمة مع الجيم ، تاج العروس ٣٩٩/٥ ، مادة (أجاج)

(٢) - هو أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ، ارتحل مع أبيه فأدرك الأسانيد العالية ، قيل عنه : أخذ علم أبيه وأبي زرعة ، وكان بحرًا في العلوم ومعرفة الرجال ، صنف في الفقه واختلاف الصحابة والتابعين ، وكان زاهدًا ، توفي سنة ٣٢٧ من كتبه (الجرح والتعديل) ، (والتفسير) . ينظر : الأربعين على الطبقات ١ / ٣٤٩ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ٣٤ ، طبقات المفسرين للسيوطي ١ / ٥٢ ، طبقات المفسرين للأندروي ١ / ٦٥

(٣) - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣٣٣٤/١٠ ، كنز العمال ، باب : في شمائل تتعلق بعادات المعيشة ١١١/٧

(٤) - جامع البيان ١٤٤/٢٣ ، معالم التنزيل ٢١/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١٧ ، الكشاف ٤٦٧/٤ ، تفسير ابن كثير ٣٨٦/١٣ ، محاسن التأويل ٥٦٥٨/١٦

(٥) - لسان العرب ١٩٦/٣ ، مادة (زند) ، القاموس المحيط ص ٣٦٤ ، تاج العروس ١٤٦/٨ .

والمعنى: أفرايتم النار التي توقدونها من الشجر أنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها ، أي أوجدتموها من العدم ؟

ولما كان المراد من النار ناراً مخصوصة تدلهم على كمال قدرته وعظيم نعمته بإيجاد الأشياء من أصدادها فاستفهم منهم عن النار التي يستخرجونها من الزند بعد أن يحتك الغصنان مع بعضهما فتوقد النار فمن علمهم ذلك وهداهم إليه بعد أن كانوا يجهلون ذلك .

قال ابن كثير : " وللعرب شجرتان المرخ والعفار إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار (١)

وخص المرخ والعفار ؛ لسهولة القدح منهما ، وإلا فكل الشجر ينتج من احتكاكه نار . وذلك من بدائع خلقه - سبحانه - فانقذاح النار من الشجر الأخضر ، مع مضادة النار الماء وانطفائها به عجيبة ، ومنة عظيمة على الناس .

ولما كان هذا الاشتعال من عجائب الصنع ، كرر التقرير والإنكار تنبيهاً عليه فقال - سبحانه -

﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ أي : أنتم أحدثتم شجرتها ، واخترعتم

أصلها ؟ أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه ؟ (٢)

فهل أنتم الذين اخترعتم وأوجدتم وأودعتم وأحييتم وربيتهم وأوقعتم . وشجرتها : أي المرخ والعفار (٣)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ لهذه النار بقدرتنا دونكم .

ومعنى الإنشاء : الخلق ، وعبر عنه - سبحانه - بالإنشاء ؛ للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة (٤) ونعمة إنشاء النار نعمة ضرورية لا غنى عنها ؛ فإن الناس بحاجة لها في كثير من أمور حياتهم ، لذا قرره الله - سبحانه - بهذه النعمة ، وأنهم عاجزون عن إيجادها ؛ فإشعال النار من الشجر الأخضر أمر محال على الإنسان صنعه .

(١) - تفسير القرآن العظيم ٢٩٧/٤

(٢) - جامع البيان ١٤٤/٢٣

(٣) - نظم الدرر ٤٢٠/٧ ، التسهيل ٤١٦/٢

(٤) - فتح القدير ١٥٨/٥

وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه النار ﴿ تَذِكْرَةً وَمَتَعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ ، أي : تذكر الناس بنار الآخرة - أعادنا الله منها - إذا أحسوا شدة حرارتها في الدنيا .

ثم ذكر سبحانه شيئاً من منافعها الدنيوية وهو نفع المسافرين وأهل البادية النازلين في الأراضي المقفرة.

قال أبو حيان : " وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها ، من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب . والنار من أعظم الدلائل على البعث ، وفيها انتقال من شيء إلى شيء ، وإحداث شيء من شيء ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه تعالى عما يقول الكافرون . ووصف تعالى نفسه بالعظيم ، إذ من هذه أفعاله تدل على عظمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإنشاء (١)

الآيات التي جاء الامتنان بها بلفظ الإخراج والإنبات والجعل مايلي :

أولاً : ماجاء من الآيات بلفظ الإخراج :

جاء التعبير عن امتنان الخالق سبحانه على خلق الأشجار والثمار بلفظ الإخراج في عشر آيات كريمة .

منها قوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

ففي الآية السابقة امتن الله على عباده في هذه الآية بنعمة هي أصل النعمة وهي نعمة الخلق والإيجاد : لنفس الإنسان أولاً ثم ما سخره له مما حوله من أجرام سماوية وأرضية ، وهذه النعمة تفوق حد الإدراك ، وهذه النعم الموجبة للعبادة والشكر ، أولها خلقهم أحياء قادرين على العمل والكسب ، ثم خلق الأرض مستقرًا ومهادًا مثبتةً بالرواسي الشاخحات ؛ لينتفعوا بخيراتها ، ثم خلق السماء كالسقف للأرض ، فتحفظها وتحميها من الغازات المؤذية (٢) وغيرها وأنزل من السماء مطرًا يسقى به الإنسان وسائر الكائنات الحية ، ويغذى به النبات ، ثم يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار الناتجة لهذا الماء النازل من السماء فأخرج به ثمرًا يأكلون منه و ينتفعون به .

وهذه الدلائل التي يشاهدها الإنسان في الآفاق تظهر قدرة الخالق - سبحانه - والإبداع الفائق ، والتناسق العجيب الذي لا يمكن أن يكون مصادفةً ، و مذكراً لهم بعجزهم أمام قدرة الخالق الباهرة ، ويلزمهم بالوقت نفسه بالإقرار بخالق عظيم مبدع موجد بارئ مصور - فتبارك الله أحسن الخالقين - .

وبينت الآيات أولاً ما يتعلق بخلق أنفسهم و من قبلهم ؛ لأنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ، ثم عقب بعد ذلك بمعاشهم في الأرض (٣)

(١) _ سورة البقرة الآية ٢٢

(٢) _ أظهرت الدراسات الحديثة أن الله قد أودع في غاز الأوزون خاصية معينة تساعد في منع الأشعة فوق البنفسجية الضارة من الوصول إلى سطح الأرض ومن ثم تعتبر هذه الطبقة درعاً واقياً من خطر هذه الأشعة . باختصار من قضايا البيئة من خلال القرآن ص ٥٨-٥٩

(٣) _ قطف الأزهار ٢٠٨/١ ، إرشاد العقل السليم ٦٠/١

ومن أسباب تعداد تلك النعم ؛ حتى تكون لهم معتبراً إلى النظر الموصل إلى توحيد خالقها الذي ليس كمثله شيء ، ويقابلوا نعمه عليهم ما خلق لهم بالشكر ، ولا يتخذوا الأنداد والشركاء . وجاءت كلمتي ماءً ورزقاً نكرتين ، وقصد بتكبيرهما معنى البعضية ، فكأنه قيل : وأنزلنا من السماء بعض الماء ، فأخرجنا به بعض الثمرات ، ليكون بعض رزقكم . وهذا هو المطابق لصحة المعنى ، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ، ولا جعل الرزق كله في الثمرات . ويجوز أن تكون للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ألفاً (١)

والزرع مورد الرزق الأول للإنسان ، ومصدر النعمة الظاهر . والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله عليها هذا الكون ، من الأسباب والمسببات ، فبنزول المطر ، ينبت الزرع فالثمر . وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى قوة الخالق - سبحانه - لتسخر ظواهره لإنبات هذه الحبة ، وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء ، فلولا هذه القوة لما كانت هناك حياة ولا كان لها وجود .

ذكر الزمخشري لطيفةً في سبب مجيء الثمرات هنا بهذا اللفظ دون الثمر والثمار ، بقوله : " فيه وجهان ، أحدهما أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك : فلان أدركت ثمرة بستانه تريد ثماره ، ... والثاني : أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية ، كقوله : ﴿ كَرَّمْ

تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ ﴾ (٢) ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٣) " (٤)

وعقب السمين الحلبي (٥) عليه بقوله : " ولا حاجة تدعو إلى هذا ؛ لأن جمع السلامة المحلى ب(ال) التي للعموم يقع للكثرة ، فلا فرق إذاً بين الثمرات والثمار " (٦)

(١) _ الكشاف ٩٤/١ ، الدر المصون ١٩٣/١

(٢) _ سورة الدخان من الآية ٢٥

(٣) _ سورة البقرة من الآية ٢٢٨

(٤) _ الكشاف ٩٤/١ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ٦٣/١

(٥) - هو : أحمد بن يوسف الحلبي المقرئ النحوي المعروف بالسمين عالم بالعربية والقرآت ، من كتبه (تفسير القرآن) ، (الدر المصون) ، توفي سنة ٧٥٦ . ينظر : الدرر الكامنة ١ / ٤٠٢ ، بغية الوعاة ١ / ٤٠٢ ، طبقات المفسرين

للأدريوي ١ / ٢٨٧

(٦) _ الدر المصون ١٩٤/١

والآيات التي تعرج بالإنسان للوصول إلى معرفة الله تعالى لا تخرج عن هاتين الدالتين وهما :
أولاً : دليل العناية :

إن جميع الآيات التي تعدد منافع الأشياء تومئ إلى هذا الدليل ، وتنظم هذا البرهان
رعاية المصالح ، والحكم في نظام العالم الأكمل ما يثبت قصد الصانع وحكمته ، وينفي وهم
المصادفة .

ثانياً : دليل الاختراع ، خلاصته : أن الله تعالى قد أعطى كل فرد وكل نوع وجوداً خاصاً هو منشأ
آثاره المخصوصة ، ومنبع كمالته اللائقة (١) .

وجمع الله - سبحانه وتعالى - في الآية الكريمة السابقة بين دليلي الاختراع والعناية ، كما ذكر
ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، فيقول : جميع الموجودات خلقت من أجل الإنسان وهذه دلالة
العناية ، أما ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجمادات فهذه
دلالة الاختراع (٢) .

وارتباط الآية بالنعمة وثيق في القرآن ؛ لأن الشيء إذا كان آيةً ونعمةً في الوقت نفسه كان تأثيره في
النفس أبلغ . ومن ذلك قوله - سبحانه - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنَوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا
أَشْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣)

في هذه الآية الكريمة معجزة عظيمة لم يعرفها العلماء إلا حديثاً وهي أن الله - سبحانه وتعالى -
أخرج بهذا الماء النازل من السماء نبات كل شئ فيخرج منه اليخضور والذي يخرج منه كل نبات
على وجه الأرض من حب متراكب والنخيل والفواكه المتنوعة والجنات المختلفة كذلك ، فكل
هذا من اليخضور (٤) .

(١) - صيقل الإسلام ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) - تلبيس الجهمية ١/٢٥٧ ، درء تعارض العقل والنقل ٩/٢٢٢

(٣) - سورة الأنعام الآية ٩٩

(٤) - وهو المصنع الوحيد على وجه الأرض الذي يُصنع فيه الطعام فهو عبارة عن مجسمات خضراء تحول الطاقة الشمسية
الشمسية وثاني أكسيد الكربون والماء إلى طعام للإنسان والحيوان . موسوعة الإعجاز العلمي ص ٢٨٦

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح .

أو: فأخرجنا به نبات جميع أنواع النبات (١) ، ورجح الطبري القول الأول (٢) فأخرجنا من الماء الذي أنزلناه من السماء خضراً: أي شيئاً رطباً من الزرع ، غصناً أخضر وخضراً كأعور وعور وهو الخارج من الحبة (٣)

وجاءت نخرج منه بصيغة المضارع ؛ لاستحضار الصورة ، لما فيها من الغرابة ؛ لأن إخراج الحب المتراكب من هذا الخضر الغض يدعو إلى التأمل والإعجاب بمظاهر قدرة الله (٤) فيخرج منه الحب المتراكب والنخيل والجنات المختلفة ، فانظروا أيها الناس عظم المنة والقدرة ، وفي كل تلك الآيات علامات لقوم يؤمنون ولذا ناسب ختام الآية ؛ لأن المقصود منها الاستدلال على أنه الصانع والمنفرد بالخلق فكيف يشركون به غيره (٥)

ومن الآيات التي جاءت المنة بها - كذلك - بصيغة الإخراج هذه الآية الكريمة ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٦)

ونص الله - سبحانه وتعالى - على أن الثمر نعمة ورزق للإنسان في قوله - تعالى - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٧)

(١) - زاد المسير ٩٣/٣ ، النكت والعيون ١٤٩/٢

(٢) - جامع البيان ٥٧٣/١١

(٣) - جامع البيان ٥٧٣/١١ ، الكشاف ٥١/٢ ، ٤٣٤/١ ، لباب التأويل ١٦٤/٢ ، محاسن التأويل ٢٤٣٦/٦

(٤) - محاسن التأويل ٢٤٣٦/٦ ، التفسير الوسيط ١٤١/٥

(٥) - التحرير والتنوير ١١٧/٨

(٦) - سورة الأعراف الآية ٥٧

(٧) - سورة إبراهيم الآية ٣٢

وفي هذه الآية الكريمة من سورة إبراهيم ذكر الله سبحانه نِعماً عامةً محسوسةً لا يمكن إنكارها إلا أنها في الوقت نفسه محتاجة للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله - تعالى - الذي يغفل عن شكره الإنسان ؛ لأنه في عمومه لا يشكر مع أن الله غني عن الشكر ، وأن النعم تزيد بالشكر إلا أن الإنسان كفور .

وافتح الكلام باسم الموجد - سبحانه - بتعداد النعم عموماً وبدأ بذكر السماء والأرض لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر النعم التي ذكرت بعدها فخلق السماوات ؛ والأرض يمهد للنعم الموجودة بهما ، ثم أتت بعدها نعمة إنزال الماء من السماء إلى الأرض ، وإخراج الثمرات من الأرض وهذه النعمة التي التي ما تفتأ تتردد في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية ، وهذا الماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء عليها جميعاً فمنه تنشأ الحياة (١) تحقيقاً لقوله تعالى - ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢) وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت .

وخص الله - سبحانه - الماء بالنزول من السماء في كثير من الآيات ؛ تنويهاً بشأنه ، وكثرة منفعته ومزيد بركته .

ومن في - ﴿ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾ للبيان ، وقيل للتبعيض (٣) ؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم ومنها ما ليس برزق لهم ، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به (٤) وذكر ابن عاشور أن (من) ليست للتبعيض إذ ليس التبعيض مناسباً لمقام الامتنان بل إما للبيان أو زائدة لتأكيد تعلق الإخراج بالثمرات (٥) والجمع بين معنى الرزق والنعمة في سياق واحد ، يُشعر بارتباطهما وأنهما لا يفترقان ، بل هما معاً بمعنى واحد وهو تحقيق المنفعة وإظهار النعمة .

(١) _ القرآن الكريم والعلم الحديث ص ٩٧

(٢) - سورة الأنبياء من الآية ٣٠

(٣) - الكشاف ٥٥٧/٢ ، الخازن ٤٥/٤ ، روح المعاني ٥٥٧/٧ ، تفسير أبي السعود ٦١/١

(٤) - فتح القدير ١١٠/٣

(٥) - التحرير والتنوير ٣٣٤/١

وامتن كذلك الله - سبحانه وتعالى - بعد إنعامه بإنزال المطر ، وإخراج الثمر لأجل الرزق والانتفاع به بتسخير السفن الجارية على الماء ؛ لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات ، وغيرها من بلد إلى بلد آخر . فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق وسخر لهم ما يعينهم على العيش فمن الواجب عليهم الإيمان بالموجد - سبحانه - وشكره على تلك النعم لتزداد .

قال تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا

بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ (١) لما

ذُكِرَ مِنَّةُ خَلْقِ الْأَرْضِ شَفَعَهَا بِمِنَّةِ إِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْهَا بِسَبَبِ نَزُولِ الْمَاءِ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ . وتلك منة تنبئ عن خلق السماوات حيث أجرى ذكرها ؛ لقصد ذلك التذكير ، وهذا إدماج بليغ (٢) .

وفي هذه الآية من سورة السجدة نبه الله - سبحانه وتعالى - إلى نعمة من النعم الكثيرة التي

أنعمها عليهم فقال - سبحانه - ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ

زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ (٣)

أولم يروا بأبصارهم نعمتنا ، وكمال حكمتنا . تلك المنة ، التي أحيا الله بها البلاد والعباد وهي إخراج النبات من الأرض الجرز هي الأرض اليابسة التي جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها فهذه الأرض الميتة .

فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة زرعاً كثيراً نافعاً تأكل منه ما يصلح لأكلها أنعامهم ويناسبها ، كالأوراق والأغصان والتبن وما يشبه ذلك ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب (٤) .

وقوله - تعالى - ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ حُضُّ لَهُمْ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي هَذِهِ النِّعْمِ وَالْعَجَائِبِ ، وَهَذِهِ الْمُنَّةُ

التي أحيا بها الله البلاد والعباد ، فيحرصون على شكر المنعم عليها ، ويخلصون العبادة له .

(١) - سورة طه الآيات ٥٣-٥٤

(٢) - التحرير والتنوير ٢٣٧/١٦

(٣) - سورة السجدة الآية ٢٧

(٤) - بحر العلوم ٧٣/٣ ، الكشاف ٥١٦/٣ ، لباب التأويل ٢٢٨/٥ ، تيسير الكريم المنان ص ٦٥٧

وقدم - سبحانه - الأنعام على بنى آدم ؛ للترقي من الأدنى إلى الأشرف ، وفيه دلالة على أن هذا الرزق من الله - سبحانه وتعالى - وأن الأنعام والناس سواء في الاحتياج إلى الله ، وأنهم إنما يرزقون (١)

ومن الآيات الكريمة التي تربط بين نزول الماء من السماء بقدر ثم أدخله الله بقدرته في عيون في الأرض ، هذه العيون تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون في باطنها ، ثم خروج النبات بقدره الخالق - سبحانه - مختلفاً ألوانه وأنواعه وطعومه مما يدل على عظيم منة الله سبحانه على عباده وكمال قدرته . قال - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ (٢)

وقوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣)

وفي هذه الآية الكريمة من سورة الزمر إشارة إلى أن الماء المخزون تحت سطح الأرض كله من ماء المطر ، ثم يخرج من هذا الماء ألوان الثمار المختلفة . وأسكنه في الأرض ، ثم أخرج منها عيوناً متدفقة بالماء ، ثم تسقى به الأرض ، فيخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً . وهذا ما قرره النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم . وبعد أن بقي العلماء دهوراً طويلةً ، يظنون أن المياه التي في جوف الأرض ، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر (٤).

وتفيد ثم تراخي إخراج النبات بعد نزول المطر ، وفيه تنبيه على تعظيم الأمر فيما تلاها بأنه محل الشاهد ، فقال - سبحانه - ثم يخرج ، أي بالماء زرعاً . ولما كان اختلاف المسبب مع اتحاد

(١) - التفسير القرآني ١١/٦٢٩

(٢) - سورة فاطر من الآية ٢٧

(٣) - سورة الزمر الآية ٢١

(٤) - التفسير الوسيط ١٠/١٩

السبب أعجب في الصنعة وأدل على بديع القدرة ، ذكر - سبحانه - اختلاف هذا الزرع في الأصناف والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء - فسبحان من وسعت رحمته كل شيء - .

وجاء التعبير عن الامتنان في سورة يس بإحياء الأرض الميتة ، وإخراج الحب منها .

قال - تعالى - ﴿وَأَيُّهُمْ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾

فإحياء الأرض بعد موتها وخلق الجنات فيها من نخيل وأعناب وتفجير العيون كلها دلائل اختراع ، ثم أتبعها - سبحانه - بدلالة العناية بالإنسان وسبب إيجاد ما سبق له وأتبعه بحثهم وتنبههم على

شكر الموجد - سبحانه - فجاء الامتنان في هذه الآيات بلفظتي الإخراج والجعل .

وإحياء الأرض يكون باختراع النبات فيها ، أو بإعادته بسبب المطر كما كان بعد زواله .

ولما كان إخراج الحبوب نعمة أخرى على الناس فامتن عليهم بها كذلك .

والحب : جنس الحب من الحنطة والشعير والأرز ، وغيرها ، وما يقتاتونه من الحبوب (٢)

وجاء الحب نكرة ؛ لأن النكرة قد تعم ، سيما إذا كانت في سياق الامتنان ، ونحوه (٣)

وتقدم الظرف هنا قبل الفعل ؛ لأن الحب قوت لا بد منه . وإشارة إلى عد غيره بالنسبة إليه عدماً

لعموم نفعه (٤)

وتقدم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه

الإنس ، وإذا قلّ جاء القحط ووقع الضرّ ونزل البلاء (٥)

وهنا لطيفة ذكرها الرازي بقوله : " ذكر الحب فمنه يأكلون ، وفي الأشجار والثمار قال : ليأكلوا

من ثمره وذلك لأن الحب قوت لا بد منه فقال فمنه يأكلون ، أي : هم آكلوه وأما الثمار ليست

(١) - سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥

(٢) - روح المعاني ٦ / ٢٣ ، فتح القدير ٤ / ٣٦٨

(٣) - روح المعاني ٦ / ٢٣ ، الدر النضيد ص ٢٤٠

(٤) - نظم الدرر ٦ / ٢٥٩

(٥) - الكشف ٤ / ١٧ ، فتح القدير ٤ / ٣٦٨

كذلك فكأنه - تعالى - قال : إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها
ليأكلوها " (١)

ولما امتن الله - سبحانه وتعالى - على خلقه بإيجاد الزروع لهم ، عطف بذكر الثمار وأنواعها
فأنشأ - سبحانه - في هذه الأرض التي أحيها بساتين من نخيل وأعناب ، وجعل فيها أنهاراً
جاريةً تنتشر فيها ؛ ليأكلوا من ثمر الجنات ، ومما عملت أيديهم : من الغرس والسقي إلى أن أينع
الثمر فاستفادوا منه في الأكل والعصر ، وما ذاك إلا من رحمة الله بهم لا بسعيهم ولا بحولهم
وقوتهم (٢) . فالثمر خلق الخالق سبحانه الذي أوجده من العدم ومكن الإنسان من الاهتمام به
ليستفيدوا منه .

وما في قوله - تعالى - ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ موصولة ، وقيل : هي نافية . والمعنى : لم
يعملوه بل العامل له هو الله أي وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها . وهو قول الضحاك (٣)
ومقاتل (٤) (٥)

وفي عملته قراءتان هما :

قرأ الجمهور عملته ، وقرئت بحذف الضمير ، و بلا هاء (٦) فمن حذف الهاء كانت «ما» نفيًا
نفيًا ومن أثبت كانت موصولة ، محمولة على ما قبله أي : من ثمره ومن عمل أيديهم (٧)

(١) - التفسير الكبير ٢٦ / ٥٨

(٢) - تفسير ابن كثير ٥٧٥/٥

(٣) - هو : الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، أبو القاسم : مفسر. كان يؤدب الاطفال. ويقال: كان في مدرسته
ثلاثة آلاف صبي ، كان من أوعية العلم توفي بخراسان سنة ١٠٢ وقيل ١٠٥ . ينظر : سير أعلام النبلاء ٤ / ٦٠٠ ، طبقات
المفسرين للأذنوي ١ / ١٠ ، الأعلام ٣ / ٢١٥

(٤) - هو : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء ، أبو الحسن : من أعلام المفسرين ، حكى عن الشافعي أنه قال :
كلهم عيال مقاتل بن سليمان في التفسير ، انتقل إلى البصرة من بلخ ، ودخل بغداد وحدث بها . كان متروك الحديث .
من كتبه (القراءات) ، و (نوادر التفسير) توفي بالبصرة سنة ١٥٠ . ينظر : وفيات الأعيان ٥ / ٢٥٥ ، سير أعلام النبلاء
٧ / ٢٠١ ، تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٤٩ ، طبقات المفسرين للأذنوي ١ / ٢٠

(٥) - فتح القدير ٤ / ٣٦٨

(٦) - الإقناع في القراءات السبع ١ / ٤٢٠ ، فتح القدير ٤ / ٣٦٨

(٧) - الموسوعة القرآنية ١ / ٨٧١

وقوله - تعالى - في سورة النبأ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١)
 ذكر الله في الآية بعضاً من مظاهر قدرته التي امتن على عباده بها فبسبب الماء المنصب يخرج غذاء
 الإنسان وفاكهته وغذاء الحيوان وكل كائن حي . و هذه الآية اشتملت على أنواع النبات التي
 تنبت من الأرض ، وهي أنواع ثلاثة ، هي : ما له أكمام وهو الحب ، وما لا يكون له أكمام
 وهو الحشيش ، وهذان النوعان لا ساق لهما ، والنوع الثالث : هو ما له ساق وهو الشجر ، فإذا
 اجتمع منها شيء كثير سميت جنة (٢)

وقدّم الله - تعالى - الحب ؛ لأنه هو الأصل في الغذاء ، ثم ثنى بالنبات ؛ لاحتياج سائر
 الحيوانات إليه ، و آخر الجنات في الذكر ؛ لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية (٣)
 والمعصرات هي : السحاب ، واختاره الطبري (٤) ورجحه القرطبي (٥) وابن كثير (٦) .
 والشجاج : الماء المنصب المتتابع الكثير (٧)
 وفي هاتين الآيتين امتن الله علينا بالمرعى الذي ترعى منه الماشية .

قال - تعالى - ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٨﴾﴾ وقال
 - سبحانه - ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ نَعْمَاءً أَحْوَى ﴿٩﴾﴾

(١) - سورة النبأ الآيات ١٥ - ١٦

(٢) - جامع البيان ٢٤ / ١٥٦ ، معالم التنزيل ٨ / ٣١٣ ، لباب التأويل ٧ / ٢٠٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٣

(٣) - التفسير الكبير ٣١ / ١١ ، نظم الدرر ٨ / ٢٩٩

(٤) - جامع البيان ٢٤ / ١٥٤

(٥) - الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٧٣

(٦) - تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٦٣

(٧) - لسان العرب ٢ / ٢٢١ ، مادة (شجج) ، تاج العروس ٥ / ٤٤٥ .

(٨) - سورة النازعات الآيات ٣٠ - ٣١

(٩) - سورة الأعلى الآيات ٤ - ٥

ثانياً : التعبير عن الامتنان بلفظ فأنبتنا :

جاء ذلك في آيات عديدة منها : قوله - تعالى - ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنْ يَعْزِلُونَ ﴾ (١)

في الآيات استفهام وتوبيخ وإنكار وتحدي الله للمشركين الذين يعلمون أنه هو سبحانه الخالق الموجد من العدم ومع هذا لا يزالون يشركون به شركاء . وتتوالى عليهم وتتحداهم بالدلائل الكونية المنصوبة حولهم ، وأول ذلك : خلقهم وخلق السماوات والأرض ، وقد ربطت الآية كغيرها من الآيات السابقة بين الماء والإنبات في إعجاز مذهل لدلائل القدرة الإلهية الكثيرة .

قال ابن كثير في تقدير أمَّن في هذه الآيات كلها : " تقديره أمَّن يفعل هذه الأشياء كَمَّن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر " (٢)

بيَّن الله - تعالى - في الآيات أنه - سبحانه - من خلق السماوات والأرض ، وجعل السماء مكاناً للماء ، والأرض للنبات ، وذكر أعظم النعم وهي الحدائق ذات البهجة ، وتبته - تعالى - على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله - تعالى - وأنه - سبحانه - المختص بهذا الإِنعام فيجب أن يُخصَّ بالعبادة كذلك .

وهذا الاستدلال مشوب بامتنان كما قال ابن عاشور : " عدد الله الخيرات والمنافع من آثار رحمته ومن آثار قدرته ؛ لأنه ذكرهم بخلق السماوات والأرض ، فشمّل ذلك كل الخلائق التي تحتوي عليها الأرض من الناس والعجماوات ، فهو امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة ، وبسابق رحمته ، كما عددها في موضع آخر عليهم (٣)

والحديقة : البستان الذي عليه حائط، والبهجة : المنظر الحسن الذي يبتهج به من يراه .
قال قتادة وعكرمة (٤) : الحدائق النخل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن ؛ يبهج به

(١) - سورة النمل الآية ٦٠

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٣/٣٧٠

(٣) - التحرير والتنوير ١٠/٢٠

(٤) - هو : عكرمة مولى ابن عباس ، الحافظ ، المفسر ، أبو عبد الله القرشي ، البربري الأصل ، كان عالماً بالقرآن ومعانيه وتوفي سنة ١٠٥ . ينظر : سير أعلام النبلاء ٥/١٢ ، تهذيب التهذيب ٧/٢٣٤ ، طبقات المفسرين للأدريزي ١/١٢

من رآه^(١)

وامتنان الله - تعالى - عليهم بأنه - سبحانه - الذي خلق لهم النبات مع إشراكهم به - سبحانه - زيادةً في توبيخهم .

وفي العدول عن ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم المعظم ذاته نكتة بلاغية بديعة ذكرها المفسرون ، وهي : أن عدول الله سبحانه وتعالى من الغيبة إلى التكلم ؛ لتأكيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده ، وللإعلام بأن إنبات هذه الحدائق مع اختلافها وتنوعها لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه - (٢) .

وتكرر في القرآن مثل هذا الالتفات عند ذكر الإنبات ، كما في قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣)

وقوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ (٤)

وقوله - سبحانه - ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴾ (٥)

يقول الزمخشري : و تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ، والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد ، لا يقدر عليه إلا

هو وحده (٦) ولذا أتبع - عز وجل - هذه الجملة بقوله : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا

شَجَرَهَا ﴾ فما كان في إمكانكم - أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه

الحدائق ، فضلاً عن إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود .

و ما للنفي . ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ، فليس بمقدور البشر ولا تحت قدرتهم ، أن ينبتوا

شجرها ؛ إذ هم عجزة عن مثلها ؛ لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

(١) _ الجامع لأحكام القرآن ٢٢١/١٣

(٢) _ غرائب القرآن ٣١٣/٥ ، التفسير الكبير ١٧٧/٢٤ ، وينظر : التعبير في التفسير ص ٢٩٩-٣٠٠

(٣) _ سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٤) _ سورة فاطر من الآية ٢٧

(٥) _ سورة الزخرف من الآية ١١

(٦) _ الكشاف ٣٧٦/٣

ومن هنا حسن أن يذكر الله - سبحانه وتعالى - بضمير الحضور ، وبصيغة الجمع ، حيث ترى قدرة الله قائمة على كل نبتة ، وكل شجرة ، وليس كذلك الشأن في المطر ، ونزوله لأنه صورة واحدة في كل أحواله (١)

الآيات الكريمة التي وردت المنة فيها بلفظ الإنبات ، ما يلي :

قوله -تعالى - ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (٢) وقوله - سبحانه - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٣)

وقوله - سبحانه - ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤) وقال

- سبحانه - ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٥)

وقال - تعالى - ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠

وَفَكَهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِيَأْتِعْمِكُمْ ﴾ (٦)

في الآيات السابقة امتنان من الخالق - سبحانه - على الإنسان بالنعمة الوافرة ، والعطايا المتكاثرة التي أنعمها عليه ، فبعد خلق العالم العلوي والسفلي ، وبيان مظاهر قدرته في خلق السموات والأرض وما اشتملتا عليه من كائنات انتقلت الآيات إلى بيان مظاهر قدرته في إنزال المطر المبارك وجعله رزقاً لهم ، فأنبت به بساتين ذات بهجة ونضارة ، وشكل حسن ومنظر بهي ، بساتين كثيرة زاخرة بالثمار ، فيها غذاء للإنسان وللحيوان .

ولولا الخالق - سبحانه - ما حصل الإنبات ، فهو المنفرد بالخلق والرزق ، وهو المستحق للشكر والعبادة .

في الآيات السابقة امتنان من الخالق - سبحانه - على الإنسان بالنعمة الوافرة ، والعطايا المتكاثرة التي أنعمها عليه ، فبعد خلق العالم العلوي والسفلي ، وبيان مظاهر قدرته في خلق السموات والأرض وما اشتملتا عليه من كائنات انتقلت الآيات إلى بيان مظاهر قدرته في إنزال المطر المبارك وجعله رزقاً لهم ، فأنبت به بساتين ذات بهجة ونضارة ، وشكل حسن ومنظر بهي ، بساتين كثيرة زاخرة بالثمار ، فيها غذاء للإنسان وللحيوان .

ولولا الخالق - سبحانه - ما حصل الإنبات ، فهو المنفرد بالخلق والرزق ، وهو المستحق للشكر والعبادة .

(١) - التفسير القرآني ١٠/٢٦٣

(٢) - سورة الحجر الآية ١٩

(٣) - سورة الشعراء الآية ٧

(٤) - سورة لقمان الآية ١٠

(٥) - سورة ق الآية ٧

(٦) - سورة عبس الآيات ٢٧-٣٢

ومن اللطائف في هذه الآيات : التنصيص على أن المقصود إسناد الإنبات إليه - سبحانه - ؛
 لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء ؛ لأن التذكير بالمنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام
 التوييح على عدم رعايتهم نعمه (١)

وتكرر لفظ الإنبات والنبات عند الحديث عن خلق الإنسان وقدره الله - سبحانه وتعالى - على
 البعث ، وفي ذلك تنبيه على المشاهدة بين خلق الإنسان والنبات حيث إن بدأ ونشأه من التراب
 وإنه ينمو نموه وإن كان له وصف زائد على النبات .

وإنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكاثرة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه
 - سبحانه - صريحًا ؛ ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيده - سبحانه - من رحمته وفضله ،
 فبالشكر تدوم النعم .

في هذه الآيات توجيه إلى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب الصنع وما فيه من سماء
 زينت ببروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من رواسي : كأنها تمسكها أن تميد ، وما فيها من
 نبات يحصد في إبانه ، وجنات تونع وتثمر في وقتها (٢).

(١) - التحرير والتنوير ١١/٢٠

(٢) - المعجزة الكبرى ٢٨٣/١

ثالثاً : الآيات الكريمة التي عبر الله - سبحانه - بالامتنان بلفظ " جعل " : يأتي الفعل جعل بمعان عدة غير الخلق والإيجاد ذكرها المفسرون وهي :

أولاً : جعل بمعنى صير ، قال - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (١)

و حقيقة معنى الجعل هو التصيير (٢)

ثانياً : جعل بمعنى وهب ، مثاله : جعلت لك هذه الضيعة وهذا العبد وهذا الفرس .

ثالثاً : جعل بمعنى الوصف للشئ والحكم به ، قال - تعالى - ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ أَنْثًا ﴾ (٣)

رابعاً : جعل بمعنى الأمر ، كما قال - تعالى - ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (٤)

خامساً : جعل بمعنى التعليم كقولك جعلته كاتباً .

سادساً : البيان والدلالة ، تقول : جعلت كلام فلان باطلاً إذا أوردت [من الحجة] ما بين بطلان ذلك (٥)

فالجعل هو فعل يعني : تقدير أو إنتاج أو إضفاء هيئة معينة وحال معين على شيء تم خلقه فعلاً قبلاً .

أما الخلق فهو : التقدير ، أي جعل الشيء بمقدار معين بحسب علمه - تعالى - وهو الإيجاد من عدم ، و هو مما انفرد به الله سبحانه وتعالى ، ولهذا كان من صفاته الكريمة : الخالق . وَجَعَلَ أَي أَنْشَأَ .

وهناك فرق بين الخلق والجعل ، فالخلق مختص بالإنشاء التكويني ، والإيجاد الابتدائي من العدم ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، أما الجعل ففيه معنى التضمين : كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير

(١) - سورة الفرقان الآية ٤٧

(٢) - التحرير والتنوير ٨ / ٩٤

(٣) - سورة الزخرف من الآية ١٩

(٤) - سورة البقرة من الآية ١٢٤

(٥) - التفسير الكبير ٤ / ٥٢ ، اللباب ٢ / ٤٨١

شيء شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان (١) فهو إضافة تلحق المخلوق ، وتكشف عن صفته ، وتبرز طبيعته وهو توجيه الخالق للمخلوق ، ليعطى وظيفته ، ويحقق وجوده (٢) فحين لا تتراد هذه المخلوقات لذاتها ، وإنما تتراد آثارها ، أو بعض آثارها ، فإن التعبير القرآني عن ذلك يجيء بلفظ الجعل لا الخلق (٣) فالخلق إبداع ، والجعل تسخير وتسيير لهذا المخلوق المبدع (٤)

وجاء التعبير بجعل في آيتين كريمتين ، هما :

قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥)

تحدثت هذه الآية الكريمة عن عظيم خلق الله - سبحانه - ، فهو - جلّ في علاه - من مدّ الأرض وبسطها وجعل فيها الجبال ؛ لئلا تميد بالخلق ، وخصّ الأرض بالأنهار والعيون التي تأتي من ماء المطر النازل من السماء فأخرج بهذا المطر المبارك الثمار وجعلها زوجين . وفي تلك الدلائل السابقة والنعم الجليلة علامات وآيات لمن يتفكر .

وجاء التعبير عن الامتنان على العباد كذلك بالجعل في معرض ذكر الأدلة على قدرة الله - تعالى - على البعث بقدرته على إخراج النار اليابسة من الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة ، مع تضادهما وشدة تخالفهما ، فأخرجه الموتى من قبورهم مثل ذلك فقال - سبحانه - ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (٦)

(١) - إرشاد العقل السليم ٣ / ١٠٤ - ٩ / ٨٧ ، روح المعاني ٧ / ٨١

(٢) - الكشاف ٢ / ٣ ، التفسير المنير ٧ / ١٣٠ ، التفسير الوسيط ٥ / ٢٩ ، تفسير المراغي ٧ / ٧٠

(٣) - التفسير القرآني ٩ / ٨٧١

(٤) - المصدر السابق ١٥ / ١٣٤٧

(٥) - سورة الرعد الآية ٣

(٦) - سورة يس الآية ٨٠

قال بعض المفسرين : تأتي جعل بمعنى صير إذا كانت ناصبة لمفعولين ، كقوله - تعالى - ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(١) ، ويأتي بمعنى خلق ، إذا كان ناصباً لمفعول واحد ،

كقوله - تعالى - ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾^(٢) (٣)

رابعاً : الآيات التي جاء التعبير بالامتنان بها بلفظ فأنشرنا :

قَالَ - تعالى - ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقَدِّرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(٤)

والتعبير بلفظ فأنشرنا : أي أحيينا بالمطر^(٥) الأرض الميتة . وهذه أوصاف فعل يدل على نعم من نعم الله - تعالى - على البشر ، تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى .
فهذا الماء المنزل بقدر ، فلا ينقص بحيث ينعدم نفعه ، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد ، بل يكون غيثاً يغاث به العباد وتحيا به البلاد ، وتنبت به الأرض من كل زوج بهيج ، وثمر يانع .
وكما أحيى الله الأرض بعد موتها يحيي الأجساد يوم المعاد ، ويبعث الناس من قبورهم أحياء .
بأيسر أمر من أمره - تعالى - وأسهل شأن .

قال - تعالى - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(٦)
وليس في ذلك عزيز على الله - سبحانه وتعالى - .

قال الطبري : " كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها وقحوطها النبات والزرع ، كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتاً بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي بها قبل مماتكم " (٧) .

(١) - سورة البقرة من الآية ٢٢

(٢) - سورة المائدة من الآية ١٠٣

(٣) - الكشاف ٣/٢ ، المحرر الوجيز ٣٢٦/٢ ، الدر المصون ١٠٨/٢ - ١٠٩/٢ ، روح المعاني ٢٥/١٥

(٤) - سورة الزحرف الآية ١١

(٥) - مجاز القرآن ٢/٢٠٢ ، الكشاف والبيان ٨/٣٢٩ ، بحر العلوم ٣/٢٤٠ ، معالم التنزيل ٧/٢٠٧ ، لباب التأويل ٦/١٣١ ، تفسير القرآن العظيم ٧/٢٢٠ .

(٦) - سورة الروم الآية ٢٠

(٧) - جامع البيان ٢١ / ٥٧٣

ودل على عظمة الإنبات بلفت القول إلى مظهر العظمة ؛ تنبيهاً على أنه الدليل الظاهر على ما وصل به من نشر الأموات ، فقال مسبباً عن ذلك : (فأُنشَرنا) أي أحيينا (١)

والذي خلق الأزواج : أي الأصناف المتشاكلة جميعها التي لا يكمل شيء منها غاية الكمال إلا بالآخر على ما دبره سبحانه في نظم هذا الوجود مما تنبت الأرض من نبات وزروع وثمار وأزاهير ، وغير ذلك ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، من ليل ونهار ، وحر وبرد ، وذكر وأنثى ، وغير ذلك (٢)

(١) _ نظم الدرر ٧ / ١٠

(٢) _ معالم التنزيل ٧ / ٢٠٧ ، نظم الدرر ٧ / ١٠ ، تفسير القرآن العظيم ٧ / ٢٢٠ ، تيسير الكريم المنان ١ / ٧٦٣ ،

التفسير الواضح ٣ / ٣٨٦

خامساً : الآيات التي جاء التعبير بها عن الامتنان بلفظ الإنشاء ، وذلك في آيتين هما :

قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١)

يخبرنا الله - سبحانه وتعالى - أنه - سبحانه - من خلق هذه النعم ابتداءً فهو الذي يخرج وينشئ النبات والجنات من الأرض بسبب المطر الذي ينزل بمقادير حكيمة من رب حكيم - والذي هو في نفسه نعمة - ثم امتن عليهم بأثر هذا الماء وهو إيجاد الجنات من البساتين المتنوعة ، من النخيل والأعناب والفواكه وغيرها مما ينفع الناس .

فهذه الجنات القائمة على عروش ، والجنات غير معروشة والتي تظلل الأرض بأغصانها ، ويستفيد الناس منهما : أغصاناً وثماراً وأوراقاً ، والنخيل السامقة عظيمة الفضل كثيرة المنفعة ، مختلفة الثمار نوعاً ولوناً وطعماً ، والزروع الخضراء المختلفة التي تحمل الحب والتمر ، والأشجار المتنوعة من الفواكه والخضروات منوع الصنوف متشابهاً ، وغير متشابه ، فسبحان الخالق القادر منشيء الكون من عدم .

ومعنى أنشأنا : أي أحدثنا ، وهو الإيجاد والخلق والاختراع (٢) ومنه قوله - تعالى - في سورة

الواقعة ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ (٣٥) ومعنى نشأ : النشاء والنشأة إحداث الشيء وتربيته والإنشاء إيجاد الشيء وتربيته ، وأنشأه الله : خلقه ، وأنشأ الله الخلق ، أي ابتداء خلقهم (٣)

والمقصود من هذه الآية : الامتنان وإبطال ما ينافيه ، ولذلك ذُلت الآية الكريمة بقوله - تعالى -

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ (٤)

(١) - سورة الأنعام الآية ١٤١

(٢) - جامع البيان ٢٠/١٩ ، بحر العلوم ١/٥٠٦ ، المحرر الوجيز ٣٥/٢ ، التفسير الكبير ١٣/١٦٢ ، تفسير القرآن

العظيم ٣/٣٤٥ ، التحرير والتنوير ٨/١١٧

(٣) - مفردات غريب القرآن ١/٤٩٣ ، تاج العروس ١/٤٦٦ ، (مادة نشأ)

(٤) - التحرير والتنوير ٨/١١٧

وجاء التعبير بالإنشاء كذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ ط

وَأَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ ﴿٢٠﴾ (١)

والحدائق تجمع مختلف الزروع والأشجار والفواكه ، ولذا خصت بالذكر ، ففيها الفواكه المتنوعة الكثيرة من جميع الثمار ، وتأكلون من ثمار الجنات في جميع الأوقات ، وتنتفعون بها، وترزقون

وتتعيشون. وقوله - تعالى - ﴿ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الجنات ، فيكون المراد

جميع أنواع الفاكهة ، ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة ، إذ فيها مراتب وأنواع

فمنها : الرطب والعنب ، والتمر والزبيب ، والعصير والدبس ، والأول أعم لسائر الثمرات (٢) .

وتقاسم الجار والجرور يفيد العناية بشأن المذكور والاهتمام فيه (٣)

وأنشأنا لكم أيضاً بهذا الماء شجرةً مباركةً ، عظيمة المنافع وهي شجرة الزيتون ، والذي يؤخذ من

ثمرها الزيت الذي يتخذ دهنًا للأجسام ، وإدامًا في الطعام.

وتخصيصها بالذكر مع طي كون الناس منها يأكلون تنويه بشأنها ، وإيماء إلى كثرة منافعها ؛ لأن

من ثمرتها طعاماً وإصلاحاً ومداداً ، ومن أعوادها وقود وغيره ، وهي من أكثر الأشجار فائدة

بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضاً - تكلفة لزراعها . (٤)

وقد جاءت نكرةً ؛ للتنويه بها ، وبأنها في تنكيرها أعرف من كل معرّف .

و خصّ من الأشجار هذه الأنواع الثلاثة ؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع (٥).

وبالنظر في الآيات السابقة وغيرها من الآيات يتضح أنه على الرغم من كون عملية خلق النبات

وإحياء الأرض بعد موتها بنفسها غيبية ، لم يشهدا الإنسان إلا أن الله تعالى أبقى للإنسان من

(١) - سورة المؤمنون الآيات ١٨-٢٠

(٢) - المحرر الوجيز ٤/١٣٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٢/١١٣

(٣) - من بلاغة سورة المؤمنون ص ٨٦

(٤) - التحرير والتنوير ١٨/٣٤ ، ينظر : الشجرة المباركة ، د. محمد فائد في المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي .

(٥) - الكشف ٣/١٨٠ ، البحر المديد ٣/٥٦٨

رحمته به فيما حوله شواهد حسية ، تعين على تصور ماهية الخلق ، ويبقى بعده متأثراً بعظمة خالقه وموجده هو وما ينتفع به من عدم فسبحان الله خالق كل شيء .

من هدايات الآيات :

- أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كاملاً ، وأوجد ما فيه وسخره لابن آدم الذي كرمه الله بشرف الحلقة ورفعته وتيسير ما خلقه الله له ولخدمته .
- أن النباتات تتصل بحياة الإنسان المادية ؛ فالنبات غذاء له ولأنعامه ، وتتصل كذلك بحياته النفسية ففي الأشجار والثمار جمال وبهجة .
- أن الله سبحانه وتعالى أوجد هذه النعم بدون سعي من الإنسان ولا عمل بل هو المبتدئ - سبحانه - بالنعم قبل استحقاقها .
- أن الثمرات نعمة من المنعم - سبحانه - للإنسان ، وكذلك هي منة امتن عليه بإيجادها ، وهي رزق للإنسان وللحيوان الذي هو كذلك رزق للإنسان ، وهي آية للإنسان ودليل ساطع على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - .
- أن امتنان الله - سبحانه وتعالى - على الناس بإيجاد الأشجار والثمار يأتي إلى جانب الامتنان بها للدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة ، وإلى قدرته على البعث ، وعلى الحث على التدبر والتفكر في مخلوقات الله إلى غير ذلك من الدلالات والمقاصد لعالم النبات .
- تنوع الامتنان بخلق عالم النبات بألفاظ مختلفة ، تشترك جميعها في إظهار عظمة المبدع - سبحانه - .
- بالنظر في الآيات السابقة يلاحظ ترابطها الظاهر ، وتناسقها في تكوينها ، وتسخيرها لكل ما فيه نفع لهذا الإنسان المكرم .
- أن عالم النبات منة ورزق وآية على كمال عظمة الله الذي أوجده من عدم .
- أن الله خلق الناس ، وسخر لهم ما حولهم ، وهياً لهم الحواس التي تعينهم على النظر والتفكر فيما حولهم ؛ ليتدبروا حياتهم في الدنيا وبعد الممات .
- تذكير الله - سبحانه وتعالى - عباده بعظيم منته عليهم ، وتنوع هذا التذكير ، فمرة يكون بالإيجاد وبألفاظ مختلفة ، ومرة يكون لبيان تنوعها ومنافعها وغير ذلك ، كل هذه النعم ليس للإنسان يد فيها بل هي من لطف ورحمة الخالق - سبحانه وتعالى - فيمن خلق .
- الماء أصل جميع الكائنات الحية .

- جاء الامتنان بتخصيص بعض الأشجار بالذكر لعظم منافعها ، ولأنها نماذج قريبة من المخاطبين في ذلك الوقت .

المطلب الثاني : الامتتان بتنوعها ومنافعها :

خلق خالق هذا الكون -جلّت قدرته - هذه الأرض ، وأوجد فيها الإنسان ، و هيأ له الأرض ومن عليها مسخرًا من أجله ، وأوجد فيها الكائنات الحيّة بمختلف أجناسها وأنواعها وهذه الكائنات تسير وفق نظام كوني بديع ينبىء عن عظمة خالقه وبديع صنعه .

ومن هذه الكائنات عالم النبات ، هذا العالم الكبير الذي يزخر بتنوع واسع من الأشجار الكبيرة الضخمة ، والشجيرات الصغيرة والأعشاب المتنوعة ، والكائنات الحيّة النباتية الدقيقة . وهذه النباتات والأشجار والثمار لم يخلقها الله - سبحانه وتعالى - نوعاً واحداً بل خلقت متنوعةً في أحجامها وألوانها وأشكالها وطعومها وروائحها .

ولأهميتها في حياة الناس وتنوعها ، جاء الامتتان بها في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وقوله - تعالى - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

وقوله - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣)

(١) - سورة الأنعام الآية ٩٩

(٢) - سورة الرعد الآية ٤

(٣) - سورة النحل الآيات ١٠-١١

وقوله - تعالى - ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١)

وقوله - تعالى - ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴾ (٦٨)

وقوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٥٣) وَقَوْلُهُ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١٨) فَانشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ (٤) وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوقُ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٥)

وقوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٦) وَقَوْلُهُ تَعَالَى - ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَلَكَهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾

(١) - سورة النحل الآية ١٣

(٢) - سورة النحل الآيات ٦٧ - ٦٩

(٣) - سورة طه الآيات ٥٣ - ٥٤

(٤) - سورة المؤمنون الآيات ١٨ - ٢٠

(٥) - سورة السجدة الآية ٢٧

(٦) - سورة فاطر الآية ٢٧

وَالرِّيحَانَ ﴿١٢﴾ (١) وقوله - تعالى - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾
ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَنَّا وَقُضِّبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾
وَفَنَكِهِةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِيَنعَمَكُمُ ﴿٢﴾ و غيرها من الآيات .

في هذه الآيات الكريمة السابقة يعدد - سبحانه - بعضاً من نعمه التي أنعمها على الإنسان فهو - سبحانه - من خلقه ، وهياً له الأرض على هذا الشكل العظيم ، المعين على الانتفاع منها بأنواع الانتفاع من حفر الآبار وإجراء الأنهار والبحار ، وزرع الأرض ، والتنقل عليها وغير ذلك من أنواع الانتفاع وكل هذا من أعظم الآيات الدالة على رب رحيم قادر على كل شيء - سبحانه - .

ثم يعدد أنواع النبات من فاكهة ونخيل وحبوب وريحان وغيرها .
وفي إيجاد هذا التنوع في الفاكهة ، والنخل ، وأنواع الحب كالحنطة والشعير والقمح وغيرها ،
لنعمة عظيمة على الإنسان ففيها قوته وقوت أفعاله .

ولهذا التنوع في النبات والشجر والثمر فوائد منها :

أولاً : استمرار ودوام نفع النبات ، وحمايته من الآفات الضارة :

تختلف النباتات فيما بينها بوقت نضجها وموسمها الذي تثمر فيه ؛ لذا فإن اختلاف أنواعها يعمل على استمرار الانتاج طوال العام، فنوع ينتج ثماره في الصيف، وآخر ينتج ثماره في الشتاء وهكذا.

ونفهم من آيات القرآن الكريم ما يدلنا على أهمية تنوع الأشجار والنباتات وذلك بكثرة الآيات التي تبين تنوع النباتات وعظم المنة بها فهي إحسان من رب محسن - سبحانه - .
في هذه الآيات التي تفيد الامتنان من الله - سبحانه وتعالى - على خلقه بتنوعها تدل كذلك على عظمة خالقها - سبحانه - ، وفي الوقت نفسه فهي تشير إلى دلالات وإشارات للناس ؛
ليتمكنوا من زيادة إنتاج أراضيهم وزيادة الانتفاع بهذه الأشجار والثمار ، ويتضح من كثير من

(١) - سورة الرحمن الآيات ١٠ - ١٢

(٢) - سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٢

الآيات الأسس العامة لزراعة الأشجار والثمار بصورة جيدة وأهمية تنوع ما يزرع فيها مما يؤثر على رفع مستوى هذه الأرض وإنتاجها الوفير والذي يعتمد على عوامل مؤثرة عليه ومن هذه العوامل :

أ- إنزال الماء :

فهو - سبحانه - من أنعم عليهم بالماء النازل من السماء - والذي هو في نفسه نعمة - ثم امتن عليهم بأثر هذا الماء ، وهو إيجاد الجنات من البساتين المتنوعة ، من النخيل ، والأعناب ، والفواكه وغيرها مما ينفع الناس .

فالعلاقة وثيقة بين الماء والنبات ، وارتباطهما وثيق ؛ لذا عظمت المنة بهذا الماء النازل من السماء وهو - كذلك - أصل المياه الجوفية ومياه الآبار والعيون التي نشرب منها (١) وامتن - سبحانه -

أيضاً بنزوله بقدر مناسب ، فقال - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٢) وقال - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ (٣)

ومكّن الأرض من الاستفادة منه وحفظه ، وجعل ملوحته مناسبة للشرب والنبات (٤) وغير ذلك فقال تعالى ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) وجعله - سبحانه - لرحمته بعباده ظاهراً على الأرض يستعمله الناس في شؤونهم ومنافعهم ، ولم يجعله غائراً في الأرض فقال -

سبحانه - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (٦)

(١) - الأرض في القرآن الكريم ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) - سورة المؤمنون الآية ١٨

(٣) - سورة الزمر من الآية ٢١

(٤) - تؤكد الدراسات العلمية تؤكد أن تحويل الماء النازل من المطر يمكن أن يتحول إلى سائل كيماوى يهلك الحرث والنسل. فاحتكاك السحاب سالبه بوجهه يولد شرارة كهربية هذه الشرارة ينشأ عنها إذابة جزء من الهواء في الماء النازل فيتكون (ثاني أكسيد النيتروجين) بنسبة تدوب في ماء المطر فتغذى النبات. فلو شاء الله زيادة هذا الحامض في ماء المطر لأفسد هذا

الماء حياة الناس . سورة الواقعة ومنهجها في إثبات العقائد ١٤٧/١

(٥) - سورة الواقعة الآية ٧٠

(٦) - سورة الملك الآية ٣٠

ب- الأرض التي يزرع عليها :

ضرب الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز مثلاً على اختيار الأرض المناسبة ، وأثر ذلك على الإنتاج ، فالأرض المرتفعة تكون أرض مباركة ، ويكفيها الماء القليل ؛ لقوله - تعالى - ﴿ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ (١)

وبيّن - سبحانه - تأثير التربة المباشر على وفرة الإنتاج وجودته ، فقال - سبحانه - ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (٢)

فإذا توفرت هذه العوامل فإن الأرض الجيدة تنتج ضعف محصولها ؛ لخصوبتها ولقدرتها على الاحتفاظ بالماء وهذا من فضل الله - سبحانه وتعالى - فلذا تختلف الأرض ولو كانت تسقى بنفس الماء الواحد ، كما قال - تعالى - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

ومعنى صنو : الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجرة ، يقال هما صنوا نخلة .

وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه ؟ (٤) " أي : مثله ، فأطلق على كل غصن صنو لمماثلته للآخر في التفرع من أصل واحد ، وجمعه صنوان (٥)

روى الطبري ، و ابن كثير ، عن : ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وغيرهم ، أن الصنوان : النخل المجتمع وأصله واحد ، وغير صنوان : المتفرق (٦).

(١) - سورة البقرة من الآية ٢٦٥

(٢) - سورة الأعراف من الآية ٥٨

(٣) - سورة الرعد الآية ٤

(٤) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب في تقديم الزكاة ومنعها ، ح ٢٢٧٧ ص ٨٣٢

(٥) - العين ٧ / ١٥٨ ، مجاز القرآن ١ / ٣٢٢ ، معجم مقاييس اللغة ٣ / ٣١٢ مادة (صنو) ، مفردات غريب القرآن ١ / ٢٨٧ ، نفس الصباح في غريب القرآن ١ / ٤٢٣ ، لسان العرب ١٤ / ٤٧٠ ، مادة (صنا) ، تاج العروس ٣٨ / ٤٤٦ ، مادة (صنو)

(٦) - جامع البيان ١٦ / ٣٣٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٣١

ولعله - سبحانه وتعالى - خص النخيل بوصف صنوان ؛ لأن العبرة بها أقوى ، ووجه زيادة وغير صنوان ؛ بتحديد العبرة باختلاف الأحوال ، كما قال ابن عاشور (١) .

ومع اتحاد المصدرين إلا أن هناك اختلاف ففي قوله - تعالى - ﴿ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ يشير - سبحانه - إلى الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وكل ما فيها والذي لا ينحصر ، فإنّ اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب يدل على قادر مبدع فاوت بين الأشياء كما يريد - سبحانه - (٢) .

وقد دلّ - سبحانه وتعالى - بهذه الآية على نفسه ولطفه ووحدانيته ؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة فقط لوجب بالقياس ألا تختلف الطعوم ، وألا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد وسقي بماء واحد لكنه صنع اللطيف الخبير (٣) .

ج - تنوع النبات المزروع :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - في كثير من الآيات الطبقات النباتية الثلاثة والتي تساعد على وفرة الإنتاج وهي : الطبقة العشبية وهي الزرع والأشجار المثمرة كالأعناب وأشجار النخيل والفواكه ، والطبقة الثالثة : الجنات من الحدائق والأزهار التي تضفي الجمال والبهجة .

وهذه الطبقات إذا اجتمعت كونت أرضاً وفيرة الإنتاج ، عديمة الخسائر كأرض صاحب الجنتين التي وردت في سورة الكهف .

و عندما وصف الله - جل في علاه - الجنتين عدّد أسباب زيادة ثمرهما : ومنها تنوع الثمار فيهما . ففيهما الكروم والنخيل والزرع المختلفة .

(١) - التحرير والتنوير ٨٧/١٣

(٢) - من الإعجاز العلمي في هذه الآية تأثير العامل الوراثي تأثيراً كثيراً في اختلاف اللون والطعم والتركيب الكيميائي والتشريحي ، فلكل نبات خصائصه الوراثية المميزة له عن باقي الأجناس النباتية ، وفي داخل الجنس أيضاً أنواع مختلفة وتحتها أصناف مختلفة كذلك ، ويساعد العامل الزراعي - من ماء وتربة وغيرها - تلك العوامل الوراثية على تحسين الصفات .

بتصرف الموقع الرسمي د. نظمي خليل أبو العطا

(٣) - تأويل مشكل القرآن ٥/١

قال - تعالى - ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا

نَهْرًا ﴿١﴾ فذكر - سبحانه - أنه مما يزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما : الزرع بين الجنتين فكان الزرع في وسط الأعناب ، وقيل : كان الزرع بين الجنتين ، أي : لم يكن بين الجنتين موضع خال (٢) .

والمقصود من الزرع أمور ، ذكرها الرازي بقوله : " أحدها : أن تكون تلك الأرض جامعة للأقوات والفواكه .

وثانيها : أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف ، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض .

وثالثها : أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة (٣)

فالجنتين أي: بستانين من أعناب ، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما ، وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود وبين أرضي الجنتين زرعاً (٤) وذلك التنوع في المزروعات لبعدها شمولى الآفة لكل ، لأن زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر المقدم وأفضل الأقوات ، وعمارتها متواصلة متشابهة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها ، مع سعة الأطراف وتباعد الأكناف ، وحسن الهيئات والأوصاف (٥)

وأشار ابن عطية (٦) إلى تنوع ثمار الحديقة ومن ثم كثرة محصولها وجماله بقوله : " فإن المرء لا يكاد

(١) - سورة الكهف الآيات ٣٢-٣٣

(٢) - اللباب في علوم الكتاب ٤٨٥/١٢

(٣) - التفسير الكبير ٤٦٢/٢١

(٤) - ينظر : تفسير القرآن العظيم ٨٤/٣ ، تيسير الكريم الرحمن ص ٤٧٦ ، التفسير الوسيط ٥١٤/٨

(٥) - نظم الدرر ٤٦٧/٤

(٦) - هو : عبد الحق بن غالب بن عطية البخاري ، الغرناطي ، أبو محمد : مفسر فقيه ، أندلسي ، عارف بالأحكام والحديث

من مؤلفاته : (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ، توفي سنة ٥٤١ وقيل ٥٤٢ . ينظر : تاريخ قضاة الأندلس ١/ ١٠٩

نفع الطيب ٢ / ٥٢٦ ، طبقات المفسرين للدواودي ٢ / ٢٦٥ ، المدرسة القرآنية في المغرب ١ / ٢٤١

يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس : جنتا عنب أحاط بهما نخل ، بينهما فسحة ، هي مزدرع لجميع الحبوب " (١)

وفي الآية إشارة كذلك إلى ميزة امتازت بها هذه الجنتين وهي وجود النخل كحزام أخضر حولهما (٢)

فالنخل قد حف بهاتين الجنتين ؛ فكان كالسور لهما إلى جانب الثمر الذي يجيء من هذه النخيل وبين أشجار العنب زروعاً أخرى ، من حبّ ، وفاكهة ، وغيرها فهما إذن جنتان في أعدل بقعة : تربتها خصبة ، وماؤها كثير ؛ ولهذا كان ثمرهما كثيراً مستوفياً (٣)

ومما يساعد على استمرار تكاثر النبات ؛ تنوع ألوانه ، فهذه الحقائق الغناء المليئة بالزهور البديعة والزروع والنباتات المختلفة التي جعلها الله بهجةً للناظرين ، جعلها الخالق - سبحانه - وسيلةً لجذب الحشرات وغيرها من الحيوانات للعمل على انتشار البذور في الأرض ، وإخصاب الزهور بأمر الله - تعالى - الذي قدّر فهدى .

ثانياً - في تنوع الأشجار والثمار توفير رزق الإنسان والحيوان :

تنوع النباتات واختلاف ألوانها على سطح الأرض براً وبحراً فيه توفير وتنوع رزق لجميع الكائنات الحية على وجه الأرض سيما الإنسان .

وتعاقب الأجيال الإنسانية يقابله تعاقب أجيال النباتات التي تتكاثر وتنمو وتقاوم الظروف المناخية الصعبة بقدرة خالقها - سبحانه - فهذه المخلوقات الثابتة في مكانها قد زودها البارئ بالقدرة على العيش في أي بيئة كانت وتتلاءم معها تلاؤماً لا يمكن لغير الخالق أن يصنعه ، فنباتات البيئة الصحراوية تختلف عن نباتات البيئة البحرية ، والجبلية ، وأشجار الغابات تمتاز

(١) - المحرر الوجيز ٣ / ٥١٦

(٢) - الأحزمة الخضراء أهم الأساليب العلمية للحفاظ على بيئة صحية ، خاصة في المدن التي تحيط بها الصحراء فتعرض باستمرار إلى العواصف الرملية فتعمل هذه الأحزمة على صدها وإيقاف زحفها وقد اهتمت بذلك الدول مؤخراً ولكن القرآن الكريم أشار إلى هذه الحقيقة العلمية في ميزات صاحب الجنتين قبل أن يكتشفها العلماء في العصر الحاضر . وكذلك لهذه الأحزمة فوائد أخرى منها : أنها تساعد على زيادة المساحات الخضراء ، وتثبيت التربة الرملية ، وإيقاف زحف الصحراء إلى مراكز المدن ، وتوفير كميات أكبر من الأوكسجين النقي وإيجاد التنوع البيئي والذي يعود نفعه على الإنسان فسبحان الله خالق كل شيء .

(٣) - التفسير القرآني ٨ / ٦١٦

بصفات ليست في باقي النباتات وزودها - سبحانه - كذلك بالقدرة على الانتشار في أصقاع الأرض بوسائل ؛ لتكاثر ؛ وبهذا تنمو بوفرة ، وتعوض النقص الذي تتعرض له من استخدام الكائنات الحية لها ، و الكوارث البيئية المختلفة من حرائق ونحوها فلا تفقد الكائنات الحية رزقها أينما كانت .

ومن هذه الوسائل ما يلي :

١ - التكاثر :

قال تعالى ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) وقوله - سبحانه - ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٢)

الأزواج : جمع زوج ، ويطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان ، والأصل في الزوج الصنف المتميز بخواصه من نوع الموجودات وكل شيئين مقترنين شكلين كانا أو نقيضين فهما زوجان ، وكل واحد منهما زوج ، تشبيهاً له بصنف الذكر وصنف الأنثى ، فاختلفا هو ازدواجهما . فالأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء (٣) فالله - سبحانه وتعالى - خلق جميع الأزواج والأصناف والأنواع المختلفة ، والآية تحمل المعنيين وتشملهما (٤).

في قوله تعالى ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ من النبات والشجر ، لأنّ النطف تتولد من قوى الأغذية الحاصلة من تناول النبات (٥)

ففي هذه الآية يذكر الله - سبحانه - كيف تنبت الأرض بقدرته من أنواع النباتات ، وهي تؤكد على التزاوج بين النبات .

(١) - سورة يس الآية ٣٦

(٢) - سورة طه من الآية ٥٣

(٣) - مفردات في غريب القرآن ٢١٦/١ ، وضح البيان في مشكلات القرآن ص ٨١ ، لسان العرب ٢٩١/٢ ، مادة (زوج)

(٤) - بحر العلوم ١١٦/٣ ، زاد المسير ١٦/٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٦/١٥ ، البحر المحيط ٣٢٠/٧ ، روح المعاني ٩/٢٣

(٥) - تفسير سورة يس ص ٤٠-٤١

٢ - الرياح :

تقوم الرياح بنقل حبوب اللقاح إلى أعضاء التأنيث في الأزهار ليتم الإخصاب وتكوين الثمار وهو دور معروف وثابت علمياً .

ومن النباتات التي تتلقح بالرياح نباتات المحاصيل ؛ لأنها الوسيلة التي يتحقق بها التلقيح على أوسع مدى .

قال - تعالى - ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِمُخْزِينَ ﴾ (١)

المراد بلوايح : (لقح) اللام والقاف والحاء أصلٌ صحيح يدلُّ على إقبال ذكرٍ لأنثى ، ثم يقاس عليه ما يشبهه . منه لقاح النعم والشجر . أمَّا النَّعْمُ فتلقيحها ذكراً ، وأمَّا الشَّجَرُ فتلقيحه الرِّيحَ . ورياحٍ لوايح : تلقيح السَّحابِ بالماء ، وتلقيح الشَّجَرِ . وهي جمع . ومعنى لوايح حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع ، وعمامة المواضع التي ذكر الله - تعالى - فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبرة عن العذاب ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبرة عن الرحمة (٢)

يقول الطبري : " وأرسل لكم الرياح لوايح لأشجار ثماركم وغذائكم وأقواتكم ، وسيّر لكم السحاب الذي بؤدقته حياتكم وحياة نعمكم ومواشيكم " (٣)

وعدّ ابن عاشور هذا الوصف من بلاغة الآية فقال : "ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العاملين اللذين تعملهما الرياح ، وقد فُسرَت الآية بهما . واقتصر جمهور المفسرين على أنها لوايح السحاب بالمطر " (٤)

كما أن الرياح من وسائل إزالة الغبار عن الأشجار ، وهذا مهم للنبات ؛ لينفذ الغذاء إلى مساقمه . قال ابن عباس : الرياح لوايح للشجر وللسحاب (٥)

(١) - سورة الحجر الآية ٢٢

(٢) - معجم مقاييس اللغة ٢٦١/٥ ، مادة (لقح) ، العمدة في غريب القرآن ١ / ١٧٣ ، مفردات غريب القرآن ٢٠٦/١ ، ٤٥٣ ، التبيان في غريب القرآن ١ / ٢٠٥

(٣) - جامع البيان ٢٧٨/٣

(٤) - التحرير والتنوير ٣٨/١٤

(٥) - جامع البيان ٨٧/١٧ ، النكت والعيون ١٥٥/٣

٣ - الحشرات والحيوانات :

ومنها النحلة التي في أثناء بحثها عن الغذاء بين الأشجار والأزهار تنقل على أجنحتها لقاحات الأزهار من الذكر إلى الأنثى وهذه مهمة أودعها الله في غرائز النحل وهي جزء من رسالة الكائنات الحية التي تؤدي دورها المرسوم في الكون والذي يعود بالنفع على الإنسان ف سبحانه الله الخالق المالك القادر القاهر الميسر لكل شيء سبباً (١).

وفي البلاد العارفة بستانيون يستأجرون خلايا النحل من مربين مختصين ليقوم النحل بتلقيح أزهار حقولهم لتخرج بساتينهم -بقدره الله سبحانه وتعالى- الثمار أكبر مثلين أو ثلاثة أمثال مما لو تركوا تلقيح أزهارها للريح أو الحشرات العابرة (٢)

وكذلك تلتصق بأشعار الحيوانات وأصوافها فتنتقل معها البذور فيساعد ذلك على انتشارها .

أهمية اختلاف الألوان :

ذكر الله - سبحانه وتعالى- أدلة توحى بقدرته وبديع صنعه - سبحانه- ومنها اختلاف ألوان المخلوقات . قال تعالى ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ (٣) امتن الله - سبحانه وتعالى- على الإنسان في هذه الآيات بأنه سبحانه هو من ذرأ للإنسان ما في الأرض . وذرأ كجعل وخلق ، وذرأ الشيء : كثره (٤) فالله - سبحانه - أوجد الإنسان وسخر له جميع في الأرض من حيوان وطير ونبات وغير ذلك . وهو دليل على دقيق الصنع والحكمة ، وبالإضافة إلى نفع هذه المخلوقات له فهي في الوقت نفسه تدخل السرور عليه بجمال أشكالها وتعدد ألوانها . إن الإنسان خلق قادراً على استخدام ما حوله في سائر مصالحه العامة والخاصة ، فيجب عليه أن يتزود من خصائص الكائنات حوله بما يصلح من شأنه ، ويعلي مكانته فكل ما حوله مسخر له بفضل الله - سبحانه وتعالى - .

وفي قوله تعالى ﴿ لَكُمْ ﴾ إيماء إلى المنة على العباد ، ومما يزيد المنة ذكر محاسن وصفات ما خلق الله للإنسان كما في هذه الآيات .

(١) - التفسير المنير ١٧٢/١

(٢) - في سبيل موسوعة علمية ١٣١/١

(٣) - سورة النحل من الآية ١٣

(٤) - مفردات غريب القرآن ١٧٨/١ ، لسان العرب ٧٩/١ مادة (ذرأ) ، القاموس المحيط ٥١/١ ، تاج العروس ٢٣٣/١

وقوله تعالى ﴿الْمَرْتَرِ أَنْ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (١)

في الآية استفهام للإنسان ودعوة للنظر والتأمل في الثمرات واختلاف ألوانها فهذا رمان ، وذاك تفاح ، والصنف الواحد مختلف ألوانه فهذا أصفر فاقع ، وذاك أحمر ، وذاك أصفر إلى غير ذلك من الألوان بل إن اللون الواحد مختلف الدرجة .

وبيّن ابن عاشور المقصود من الاعتبار بقوله : " هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل ، وألوان العنب مع ألوان التين ، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان " (٢).

وذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض ؛ للاعتبار بقدره الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع كقوله - تعالى - ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ

وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَدٍ وَنُقُضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣) وذلك أرمي للاعتبار .

عظم - سبحانه - دلالة إنزال الماء بالاستفهام التقريري ؛ لأن إنزال الماء أقرب للنفع ، والمنفعة فيه أظهر لأنه لا يخفى على أحد أثر هذا الماء في حياة الأرض (٤)

جاء قوله تعالى وأخرجنا على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ؛ لإظهار العظمة وكمال القدرة ، وكمال الاعتناء بهذا الفعل البديع ، ولأن المنة بإخراج الثمرات مختلفة الأنواع والألوان أبلغ من إنزال الماء وأظهر في كمال القدرة (٥) ومثل هذا الالتفات يرد كثيرا في القرآن الكريم .

وجيء بالجملتين الفعليتين في ﴿أَنْزَلَ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ؛ لأن إنزال الماء وإخراج الثمرات

(١) - سورة فاطر الآية ٢٧

(٢) - التحرير والتنوير ٣٠١/٢٢

(٣) - سورة الرعد الآية ٤

(٤) - التفسير الكبير ٢٣٥/٢٦

(٥) - المحرر الوجيز ٤٣٧/٤ ، التفسير الكبير ٢٣٤/٢٦ ، البحر المحيط ٢٩٦/٧ ، نظم الدرر ٢٢٠/٦ ، روح المعاني

١٨٩/٢٢ ، التفسير المظهر ٣٢١٤/١ .

متجدد آناً فآناً (١) .

وفي قوله تعالى ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ يشير - سبحانه - إلى عظمته ومنته ، وأنه مخرج النبات مختلف الألوان ، بسبب هذا الماء النازل من السماء ومدى نفعه للنبات حيث يذيب العناصر والمركبات في التربة ؛ لتمتص الجذور منها ما يناسبها .

وفي الإشارة إلى اختلاف الثمار تأكيد على قدرة الباري - سبحانه - والتي أبدعت وباينت بين ما خلقت بالرغم من اتحاد عناصر النمو من تربة واحدة ، و ماء واحد .

ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات والأصناف وغير ذلك ، فيه الدلالة القاطعة على أن الله - جل وعلا - واحد لا شريك له ، وأنه المستحق للعبادة وحده ، كما أن فيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة الله ، وأنه لا شئ يؤثر في شئ إلا بمشيئة الله - سبحانه - .

وقوله تعالى ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ يعني أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعب والرتب ونحوها وقيل يعني ألوانها في الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد (٢) ويؤيد هذا القول اضطراد ذكر هذه الألوان فيما بعد ، وهو قول قتادة (٣) وهو الأوفق (٤)

وهذا الاختلاف في الألوان والأصناف والأصباغ من أعظم الأدلة على القدرة الإلهية وعلى بديع الصنع ، فذكر - سبحانه - الاختلاف في ألوان الثمار أولاً ، ثم الألوان في الجماد ، ثم في الإنسان والحيوان .

الامتنان بالخمير قبل تحريمها :

(١) _ التحرير والتنوير ٢٢ / ٣٠١

(٢) _ جامع البيان ٢٠ / ٤٦١ ، بحر العلوم ٣ / ٩٩ ، المحرر الوجيز ٤ / ٤٣٧ ، مدارك التنزيل ٣ / ٢٧٣ لباب التأويل

٥ / ٣٠١ ، تفسير القرآن العظيم ٦ / ٥٤٣ ، وينظر : الظاهرة القرآنية ص ٢٩٨

(٣) _ جامع البيان ٢٠ / ٤٦٢

(٤) _ المحرر الوجيز ٤ / ٤٣٧ ، روح المعاني ٢٢ / ١٨٩

قال تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١)

في هذه الآية الكريمة امتن الله على عباده بإيجاد ما يتخذونه سكرًا وريزقًا حسنًا وذلك من ثمرات النخيل والأعناب . فالامتنان حينئذ بمباح .

والتفاوت في الوصف بين السكر والرزق الحسن بوصف الرزق بالحسن في حال أكل الثمرة غير متخمرة دون السكر يؤذن بالترقية بينهما ، ويمهد لتحريم المسكرات . وأنها شيء غير مستحسن في ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن . والمقابل للمستحسن لا يكون إلا مستهجنًا (٢) .

وهذه الآية هي الأولى من آيات تدرج تحريم الخمر الأربع .

وذكر المفسرون بقية الآيات وحوادث نزولها (٣)

روى عن عمر بن الخطاب (٤) - رضي الله عنه - عندما قال : اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بيانًا

شافئياً! قال: فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (٥) إلى نهاية الأثر (٦) .

ومن الحكمة في تدرج تحريم الخمر ؛ أن الله - تعالى - علم عظم تعلق العرب بها وقدر انتفاعهم بها .

(١) - سورة النحل الآية ٦٧

(٢) - المعجزة الكبرى ١ / ١٦ ، ٣٥٥

(٣) - جامع البيان ١٠ / ٥٦٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٢٠٠ ، تفسير القرآن العظيم ١ / ٥٧٨ ، إرشاد العقل السليم

١ / ٢١٨ ، تفسير آيات الأحكام ١ / ٢٧٢-٢٧٣

(٤) - هو : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، أبو حفص : ثاني الخلفاء الراشدين ، وأول من لقب بأمر المؤمنين ،

أعز الله تعالى به الاسلام ومصر به الامصار وحجى به الاموال شهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجنة وسمي

الفاروق ؛ لأنه فرق به بين الحق والباطل ، توفي سنة ٢٣ . ينظر : معرفة الصحابة ١ / ٣٨ طبعة دار الوطن ،

الأنساب ٤ / ٣٣٦ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، صفة الصفوة ١ / ١٣٩ ، الإصابة ٤ / ٢٧٩

(٥) - سورة البقرة من الآية ٢١٩

(٦) - رواه أحمد في مسنده ١ / ٤٤٢ ، ح ٣٧٨ ، وأبو داود في سننه ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر ، ح ٣٦٦٩

ص ١٤٩٥ ، والترمذي في جامعه ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة المائدة ، ح ٣٠٤٩ ، ص ١٩٥٩ ، والحاكم

في المستدرک ٢ / ٣٠٥ ، ح ٣١٠١ وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه "

فعن أنس بن مالك (١) - رضي الله عنه - قال : " حرمت الخمر ولم يكن يومئذٍ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر " (٢) . فلا جرم أن استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق .

ورد في معنى السكر والرزق الحسن في قوله تعالى ﴿ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ : أقوال أقواها المعنى الذي أورده ابن عباس - رضي الله عنه - نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين كالتمر والأعناب والزبيب وغير ذلك مما أحله الله من ثمارهما وهو تفسير جمهور العلماء (٣) . فالسكر هو ما يسكر وهذا هو المشهور في اللغة (٤) .

ومنافع الخمر كانت أثمانها قبل تحريمها ، وما يصلون إليه بشرها من اللذة فهي منفعة في حقهم (٥)

ثم أبدل الله عباده عن السكر بالطيبات من الأنبذة ، وأنواع الأشربة المباحة . وفاصلة الآية هنا مناسبة لذكر العقل ؛ فإنه أشرف ما في الإنسان ؛ ولهذا حرم الله على الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها ففي ما سبق آية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات ، ويعتبرون بما يستخلص من العبر (٦) .

(١) - هو : أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي النجاري ، خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتسمى به ويفتخر بذلك ، دعا له النبي بكثرة المال والولد ، فولد له من صلبه ثمانون ذكرا وابتنان ، وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين اختلف في وفاته فقيل ٩٠ ، وقيل ٩١ ، وقيل ٩٢ ، وقيل ٩٣ . ينظر : معرفة الصحابة ٢ / ١٩٧ ، أسد الغابة ١ / ١٩٢ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ٧١

(٢) - الكشف والبيان ٢ / ١٤٣ ، معالم التنزيل ١ / ٢٥٠ ، لباب التأويل ١ / ٢٠٩

(٣) - بحر العلوم ٢ / ٢٨٠ ، النكت في القرآن ١ / ٢٨٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٨١ ، فتح القدير ٣ / ١٧٦ ، ولمراحل تحريم الخمر ومضارها ينظر : رحلة الإيمان في جسم الإنسان ص ٤٦٤-٤٦٧

(٤) - معجم مقاييس اللغة ٣ / ٨٩ ، مفردات غريب القرآن ١ / ٢٣٦ ، لسان العرب ٤ / ٣٧٢ ، مادة (سكر) ، القاموس المحيط ١ / ٥٢٤ ، مادة (سكر)

(٥) - جامع البيان ٤ / ٣٢٦ ، التفسير الكبير ٢٠ / ٢٣٥

(٦) - تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٨١

ثالثاً : تنوعها يساعد على تصنيفها وتمييزها :

يساعد تنوع النبات والأشجار على تصنيفها ، والتمييز بين أنواعها وأجناسها ، وتزيد أنواع النباتات المعروفة حالياً على أكثر من أربعمئة ألف نوع (١) وكل نوع يختلف عن الآخر بطريقة أو أكثر ومع ذلك تشترك النباتات فيما بينها بصفات عامة ، وبناء على هذا التشابه يتم تصنيفها وتقسيمها وكل هذا التنوع من أجل الإنسان ؛ ليتنعم به وليتفكر في بديع صنعه - سبحانه - فيشكره حق شكره .

وأنواع النبات التي تنبت بالأرض ثلاثة وهي : ما له ساق وهو الشجر بأنواعه ، وما ليس له ساق وهو قسمين ، فمنه : ماله أكمام وهو الحب ، ومنه ما ليس له أكمام وهو الحشيش (٢)

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ (٣)

قال - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤)

في الآيتين من سورة الأنعام يذكر الله - سبحانه وتعالى - عباده بمنته عليهم بما أنشأ لهم في الأرض مما ينفعهم : من جنات مختلفة الأشجار والثمار والألوان والطعوم .

والجنة مأخوذة من جن إذا ستر وهي الحديقة ذات النخل والشجر الذي يستر بأشجاره الأرض والعرب تسمي النخيل الطوال جنة (٥)

(١) - آيات الله ١٠ / ٣٧٤

(٢) - التفسير الكبير ١١/٣١ ، التفسير المنير ١٤/٣٠ ، تفسير المراغي ٩/٣٠

(٣) - سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٤) - سورة الأنعام الآية ١٤١

(٥) - معجم مقاييس اللغة ٤٢١/١ ، مادة (جنن) ، القاموس المحيط / ١٥٣٢ ، تاج العروس ٣٧٤/٣٤ ، الصحاح

وعرش : مادة عرش تدل على الارتفاع ، وجمعه عروش ، ومنه قيل عرشت الكرم وعرشته إذا جعلت له كهيفة سقف . والمعروشات : الكروم .

وكلُّ بناء يُستظل به عَرْشٌ وَعَرِيشٌ (١) ومن هذا المعنى قول الصحابة للنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدرٍ: " أَلَا نَبِيٌّ لَكَ عَرِيشًا " (٢) .

والجنات المعروشات أي البساتين المرفوعات المسوكات ، وغير المعروشات غير المرفوعات (٣) وقيل : إنه تعريش الناس الكروم وغيرها ، بأن ترفع أغصانها ، وهو قول ابن عباس في رواية عنه ، والضحاك ، والسدي (٤) والرواية الأخرى عنه أن المعروشات ما عرشه الناس ، وغير المعروشات ما نبت في البراري والجبال ، وقيل أنها المرتفعة عن الأرض لعلو شجرها ، فلا يقع ثمرها على الأرض ، لأن أصله الارتفاع ولذلك سُمِّيَ السرير عرشاً لارتفاعه (٥) والمراد أن الجنات نوعان :

معروشات كالكروم ، وغير معروشات من سائر أنواع الشجر الذي يستوى على سوقه ولا يتسلق على غيره (٦)

وفي تعليم الناس كيفية تعريشها وتنميتها زيادة فضل منه - سبحانه - ومنة .

وفي ذكر هذه الأنواع من الجنات تنبيه على كثرة منافعها ، وخيراتها فهذه الجنات القائمة على عروش ، والجنات غير المعروشة والتي تظلل الأرض بأغصانها ، ويستفيد الناس منهما : أغصاناً وثماراً وأوراقاً ، والنخيل السامقة عظيمة الفضل كثيرة المنفعة ، مختلفة الثمار نوعاً ولوناً وطعماً ، والزرع الخضراء المختلفة التي تحمل الحب والتمر ، والأشجار المتنوعة من الفواكه والخضروات

(١) _ الجيم ٢/٢٥٢ ، معجم مقاييس اللغة ٤/٢٦٤-٢٦٥ ، مادة (عرش) ، مجاز القرآن ١/٢٠٧ ، لسان العرب ٦/٣١٣ ، مادة (عرش) .

(٢) _ شرح السنة ٤/٣٠ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٥٨٩ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٦٨

(٣) _ معالم التنزيل ٣/١٩٥ ، نظم الدرر ٢/٧٢٦ ، محاسن التأويل ٦/٢٥٢٤

(٤) _ الكشف والبيان ٤/١٩٧ ، معالم التنزيل ٣/١٩٥ ، المحرر الوجيز ٢/٣٥٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٧/٩٧ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٧

(٥) _ الكشف والبيان ٤/١٩٧ ، النكت والعيون ٢/١٧٧ ، معالم التنزيل ٣/١٩٥ ، المحرر الوجيز ٢/٣٥٣ ، التفسير

الكبير ١٣/١٦٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٧/٩٧ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٧

(٦) _ تفسير المراغي ٨/٤٩ ، تفسير المنار ٨/١١٦ ، التفسير المنير ٨/٦٨

المتماثلة في الشكل المختلفة في الطعم والرائحة كلها نعم جلييلة من رب كريم بث الحياة في هذه الأرض وتوعها هذا التنوع وجعلها مناسبة للوظائف والحاجات التي تتطلبها حياة الناس في الأرض وبالإضافة إلى تلك الجنات ، فقد أنشأ الله لكم - أيضاً - بهذا الماء شجرة مباركة ، عظيمة المنافع ، وهي شجرة الزيتون ، والذي يؤخذ من ثمرها الزيت الذي يتخذ دهنًا للأجسام ، وإدامًا في الطعام.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى معجزة باهرة وهي دور النبات الأخضر في عمليات التمثيل الضوئي ونمو النبات والأوراق وظهور الثمار (١) .

وهذه الأشجار وإن بدت أفراد جنسها متشابهة في شكلها وثمارها إلا أنها في الحقيقة غير متشابهة ففيها فروق كثيرة دقيقة ، وهذا من بديع خلق الله - سبحانه وتعالى - . وفي تلك المنة دلائل على القدرة فانظروا أيها الناس إلى ثمره كيف يثمر وكيف ينضج بتدبر واعتبار وفي ذلك دلائل للمؤمنين .

وبين هاتين الآيتين تشابه وفروق تعد من اللطائف منها :

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - ذكر نفس الأشجار والثمار وامتتّ بهما في الآيتين مع الاختلاف في الترتيب بينها .

٢ - الاشتباه هو شدة التشابه إلى حد يؤدي للالتباس فهو أكثر دلالة على القدرة ، أما التشابه فلا يصل إلى حد اللبس ، ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه ، لكن نفي التشابه ينفي الاشتباه قطعاً وبما أن سياق الآية الأولى للدلالة على القدرة ، فمشتبه أدلّ عليها من متشابه ؛ لأن القدرة على جعل أمرين مختلفين وبينهما التباس أقوى ؛ لذا قال -تعالى- ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ فالله - سبحانه وتعالى - يتحدث عن قدرته في خلق النبات ، والنبات في هذه المرحلة ملتبس النوع والشكل ؛ ولذا أمرنا الله بالنظر والاعتبار .

(١) - فعندما ينزل الله سبحانه الماء من السماء ، ويصل هذا الماء إلى البذور المدفونة في تربة الأرض ، فإنها تبدأ بالإنبات وذلك بامتصاص الماء والانتفاخ ثم انشطار غلاف البذرة وخروج الجذير والسويقة ثم خروج الأوراق البذرية ويسمى هذا النبات باسم البادرة ويعيش على الطعام المخزون في بذرته إلى حين ظهور أوراقه الحقيقية والتي بمجرد ظهورها يزودها خالقها - سبحانه وتعالى - بصبغ أخضر يعرف باسم "اليخضور" وهذا الصبغ أعطاه الله -تعالى- القدرة على امتصاص قدر من ضوء الشمس وتحويله إلى طاقة كيميائية والتي يوظفها في صناعة سلسلة الكربوهيدرات المكونة لأغلب الثمار وأجزاء النبات المختلفة بتصرف من النبات في القرآن الكريم ١٣٦/٢-١٣٧ ، القرآن الكريم والعلم الحديث ص ١٣٠

أما الآية الثانية فقال - سبحانه - ﴿مُتَشَبِّهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِةٍ﴾ ؛ لأن السياق ورد في بيان الأطعمة وحل أكلها وإعطاء الفقراء منها وليس للتدبر والاستدلال ، فالله - سبحانه وتعالى - يبين كمال قدرته في إنشاء الجنات المعروشات وغير المعروشات مبيِّناً قدرته في إتمام النضج والثمار أصبحت صالحة للأكل ، لذا فالثمار هنا متشابهة .

٣ - في الآية الأولى أمر بالاستدلال على الصانع الحكيم ودلالة على القدرة فقال - تعالى -

﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ فانتقال الشجر من حالٍ إلى حالٍ آية والنظر نظر تدبر واعتبار ، أما الثانية : ففي سياق الأطعمة وبيانها ففيها إذن بالانتفاع والأكل . قال - تعالى -

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ والأمر بالاستدلال مقدم على الإذن بالانتفاع (١)

٤ - أصناف النباتات المذكورة في الآية الأولى أكثر منها في الثانية .

٥ - فاصلة الآية الأولى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الدلائل المذكورة تنفع المؤمنين دون غيرهم ؛ فالإيمان في قلوبهم يحملهم على العمل بمقتضى هذا الإيمان من نظر وتفكر في ملكوت الله وآياته .

أما الآية الثانية ففيها النهي عن الإسراف في كل شئ . قال - تعالى - ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

جاء الامتنان بتقدير الماء النازل من السماء ، وما يحدثه من أثر على الأرض والعباد ، فقال -

سبحانه - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨)

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً

تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ (٢)

في الآية الكريمة امتنان من الله - سبحانه وتعالى - على عباده بهذا الماء النازل من السماء بقدر معين من حكيم خبير والذي هو أعلم بمن خلق ، وأعلم بما ينفعهم فلا يزيد فيغرقهم ولا ينقص فيضرهم بل ويهلكهم ، فهذا الماء هو أصل المياه الموجودة في باطن الأرض من عيون وآبار .

(١) - التفسير الكبير ١٣/١٦٢ ، كشف الأسرار النورانية ٣/٧٣

(٢) - سورة المؤمنون الآيات ١٨-٢٠

وهذا ما قررتة النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم (١).

رابعاً : تنوع النباتات يوفر مأوى ومسكناً يُلائم تنوع الكائنات الحية :

إن تنوع النباتات واختلافها في البيئة يوفر للكائنات الحية قوتاً ومكاناً تعيش فيه ، فالكثير من الكائنات لها في أغصان الأشجار والغابات مكاناً تأوي إليه

ومن هذه الكائنات :

- الإنسان : استفاد الإنسان - منذ القدم - من خشب الأشجار والقش والأعواد في استخدامات عديدة في الحياة، حيث كانت - ولا تزال في العديد من بقاع العالم - هذه الأشجار أهم مصادر مواد البناء ، فصنع منها الإنسان مسكناً يأوي إليه ويطمئن على نفسه فيه من الحيوانات والهومام . وكذلك استفاد منها في صنع الخيام التي تُصنع من أصواف وأشعار الحيوانات والتي تتغذى على النبات .

ومن الكائنات الأخرى :

- مملكة النحل التي تسكن في الشجر ، والجبال ، ومما يعرشه الناس ثم تخرج للإنسان العسل والذي تصنعه من ثمار النباتات المختلفة ورحيق الأزهار .

قال - تعالى - ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ (٢)

(١) - النبات في القرآن ٩٨/٢

(٢) - سورة النحل الآيات ٦٨ - ٦٩

أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات أنه بقدرته ورحمته لعباده أوحى لتلك النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، وأذن لها إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذلة، ثم تعود إلى بيوتها التي بنتها بتعليم الله لها، وهدايته حيث جعلتها على شكل سداسي من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه.

ولولا هداية الله لها لما جاء هذا الشراب اللذيذ العجيب في مكوناته وأصله والذي وصفه الله - سبحانه وتعالى - بصفات هي :

أولاً : كونه شراباً ، فيشرب وحده أو تتخذ منه الأشربة .

ثانياً : اختلاف ألوانه فمنه الأحمر والأبيض والأصفر والأسود وغيرها (١) .

ثالثاً : فيه شفاء للناس من كثير من الأمراض . فعن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي ؟ فقال أخي يشتكي بطنه فقال اسقه عسلاً ثم أتاه الثانية فقال اسقه عسلاً ثم أتاه الثالثة فقال اسقه عسلاً ثم أتاه فقال قد فعلت فقال صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبراً (٢) وقوله -صلى الله عليه وسلم- : "صدق الله" في هذا الحديث : إشارة إلى قول الحق - سبحانه

وتعالى - ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (٣)

(١) _ وقد تنبه العلماء المتخصصون في العصر الحاضر إلى أن اختلاف مرعى النحل، والتركيب الكيماوي للتربة يؤثران تأثيراً كبيراً في لون العسل؛ لأن نوع العسل متوقف على نوع الزهور التي امتص النحل رحيقها والمعادن التي في التربة _ فسبحان الخالق العظيم _ .

(٢) _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، ص ٤٨٧، رقم الحديث ٥٦٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل ص ١٠٧١ رقم الحديث ٥٧٧٠ كلاهما عن أبي سعيد _ رضي الله عنه _ .

(٣) _ سورة النحل من الآية ٦٩، لعسل النحل فوائد عظيمة جاء ذكره في القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة، وله فوائد جمّة ذكرها العلماء المتقدمين والمتأخرين، ولبعض فوائده ينظر : الطب النبوي لابن القيم ص ٣٨، موسوعة الشفاء بالعسل ص ١٤٩-١٥٧، إعجاز الطب النبوي ص ٦١ وما بعدها، الإعجاز الطبي في القرآن ص ١٩٧

واختيارها للشكل السداسي ؛ لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة ولا يصير بينها فرج فهي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها وورصها بحيث لا يكون بينها خلل (١).

خامسًا : تجديد الغلاف الجوي :

لا يقتصر دور النبات على تقديم ما هو نافع للحياة بل يتعداه إلى سحب ما هو ضار بها فتقوم النباتات - بإذن الله - بدور كبير في تجديد الأوكسجين ، وطرد ثاني أكسيد الكربون الخائق للكائنات الحية ، وتلك العملية المعقدة - ولا ريب - آية باهرة .

فالنباتات الخضراء ، والغابات تساعد على تجديد الغلاف الجوي ، وعندما تصنع الأشجار والنباتات غذاءها فإنها تطلق غاز الأوكسجين وتأخذ ثاني أكسيد الكربون من الهواء ، ويحتاج الإنسان وكل الكائنات الحية تقريبًا إلى الأوكسجين ، وإذا لم تجدد النباتات الخضراء تدفق الأوكسجين بصفة دائمة فستتوقف كل الحياة ، وتراكم ثاني أكسيد الكربون في الجو قد يحدث تغييرا كبيرا في مناخ العالم (٢)

سادسًا : أنها تفتح بابًا واسعًا للأجر :

وضح القرآن الكريم مدى عناية الإسلام بالبيئة وكل ما يعين على صلاحها ؛ لما في ذلك من حماية البيئة ، ومن ثم تعود الفائدة للإنسان والحيوان ، فهي مصدر للغذاء والمأوى والسكن والظل وغير ذلك وكذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد اهتم بها وبدورها في توفير المنافع للكائنات الحية وحث الناس على الزراعة والغرس وبيّن ثواب من فعل ذلك تشجيعاً على فعله ، وهنا أمران :

(١) - لباب التأويل ٤/١٠٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥٨١ ، ، مفتاح دار السعادة ١/٢٤٨ ، التحرير والتنوير ١٤/٢٠٦ في سبيل موسوعة علمية ١/١٣٣ ، من أسرار الحيوان ص ١٩ ، والأمر العجيب الآخر أن النحلة في كل أرجاء الدنيا ومنذ غابر الأزمان تبني بيوتها بمقياس موحد بحيث يكون قطر البيت خمس إنش ، ينظر : النحلة تسبح الله ص ٥٧

(٢) - آيات الله ٩/١٩٧ ، فشجرة زان كاملة النمو - على سبيل المثال - تمتص من الهواء ما يزيد عن ٢.٥ كجم من ثاني أكسيد الكربون وتنتج في الهواء ١.٧ كجم من الأوكسجين كل ساعة، أى أن هذه الشجرة تنتج من الأوكسجين ما يكفى احتياج عشرة أفراد لمدة سنة كاملة . آيات الله ١٠/٣٥٨ ، ينظر ؛ ندوة الإعجاز العلمي ، من الإعجاز الكوني في القرآن ص ٧٥-٧٦ ، القرآن والكون ص ١٥١ ، الغذاء والدواء ص ٩٤-٩٥ ، ولحفظها لطبقة الأمازون ، ينظر : الإنسان والكون في العلوم المكتسبة ص ١٤٦-١٤٧ ، الكون في القرآن الكريم ص ١٢٢-١٢٣

١ - أجر الغرس والزرع :

والأحاديث في ذلك كثيرة منها : قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " (١) وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سُرق منه له صدقة ، وما أكل السَّبُع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزؤه (٢) أحد إلا كان له صدقة " (٣)

٢ - إباحة قطع الشجرة المؤذية :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " كانت شجرة تؤذي أهل الطريق فقطعها رجل فنحاهها عن الطريق فادخل بها الجنة " (٤)

سابعًا : الأشجار والنباتات مصدر منافع متعددة :

تستفيد الكائنات الحية جميعها من عالم النبات المتنوع وعلى الأخص الإنسان فالنبات يدخل في كثير من ضروراته وحاجاته الجسمية والنفسية وغير ذلك . فمن هذه المنافع :

١ - أنها مصدر للطاقة :

تمدنا النباتات والأشجار بالطاقة والوقود حيث تحرق شعوب عديدة من العالم الخشب لتدفئة مساكنها، ولطهي طعامها ، وهي مصدر الأخشاب المستخدمة في إشعال النار سواء في صورتها الأولى أو في صورة متحولة (الفحم) ، ولقد أشار القرآن الكريم في معرض بيان القدرة والامتنان على الناس بأن الأشجار أصل وقودهم الذي يستعملونه (٥) فقال - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الحرث والمزارعة ، باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ص ١٨١ ، ح ٢٣٢٠ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة والمزارعة ، باب : فضل الغرس والزرع ص ٩٤٨ ، ح ٣٩٧٣ ، كلاهما برواية أنس بن مالك - رضي الله عنه - .

(٢) - أي يصيب منه . ينظر : لسان العرب ١/١٦٣٤ ، مادة (رزأ) ، تاج العروس ١/٢٤٤

(٣) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : المساقاة والمزارعة ، باب : فضل الغرس والزرع ، ح ٣٩٦٨ ص ٩٤٨ عن جابر - رضي الله عنه - .

(٤) - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣/٤٠٧ رقم الحديث ٨٠٣٩

(٥) - يقول د. نظمي خليل أبو العطا في الموقع الرسمي له: " أن النبات الأخضر (الشَّجَرُ الْأَخْضَرُ) هو الذي يحول الطاقة

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿١﴾

وفي سورة الواقعة إشارة كذلك قال - تعالى - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ

شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى " ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ فمن منافع هذه النار أنها تذكركم بنار الآخرة بالإضافة للمنافع الجمّة التي تستفيدونها منها من نفع المسافرين وأهل البادية النازلين في الأراضي المقفرة .

قال ابن سعدي في تفسيره : "وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها ، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم ، فقرّهم - تعالى - بالنار التي أوجدها في الأشجار ، وأن الخلق لا يقدرّون أن ينشئوا شجرها ، وإنما الله - تعالى - الذي أنشأها من الشجر الأخضر ، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد ، فإذا فرغوا من حاجتهم ، أطفأوها وأخمدوها" (٣)

والأشجار في حد ذاتها أحد أهم المكونات الطبيعية التي تكون منها النفط والغاز والفحم منذ ملايين السنين ، والتي تستخدم الآن كمصدر رئيسي للطاقة ، ولتسيير وسائل النقل من سيارات وطائرات وبواخر ، وللمنتجات الصناعية المختلفة : كالورق والبلاستيك ، والألياف وغيرها .

٢- الانتفاع بظلها :

تعتبر الأشجار مصدرًا للظل الرحيب لاسيما حين يندر الظل في الصحراء أو الطريق العام ،

الشمسية الضوئية إلى طاقة كيميائية مخزنة في جذور وجذوع وأوراق وثمار النبات، التي بإشعاعها تتحرر تلك الطاقة على هيئة نار يستعملها الإنسان في شتى الاستعمالات المنزلية والصناعية والحياتية، ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل المادي العلمي الحسوس المبين لقدرته ومقدرته وعلمه القادر وحده على خلق الإنسان من العدم وإعادة بعثه بعد تحلله " وينظر : في سنن الله الكونية

ص ٢٢١

(١) - سورة يس الآية ٨٠

(٢) - سورة الواقعة الآيات ٧١ - ٧٣

(٣) - تفسير الكريم المنان ١/٨٣٥

وكذلك يزرع في ظلالها أشجار فاكهة أخرى ، وهذه بدورها تصنع ظلاً لمن تحتها .
وقد امتن - سبحانه - على العباد بأن جعل للناس مما خلق ظلالاً يستظلون بها بدون صنع منهم

قال - تعالى - ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَايِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ (١)

ففي هذه الآية ذكر سبحانه منة ومنفعة من خلق الأشجار وغيرها ، ففيها بيان لرحمة الله بكثير من الناس الذين لا يتسع حولهم أو حيلتهم ، لبناء البيوت ، وصنع المساكن وواسع فضله عليهم أن جعل لهم ظلالاً يستظلون بها من وقدة الشمس ، حيث يجدون هذه الظلال الفسيحة فيما أنبت الله من شجر ، كما جعل لهم - من غير عمل ولا جهد - أكناناً من الجبال ، أي كهوفاً يأوون إليها من البرد .

كما قال - تعالى - في معرض الامتنان على يونس - عليه السلام - ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ (٢) فمن هذه الشجرة يأكل ويستظل .

ولأهمية الظلال للإنسان شدد الله - سبحانه - الوعيد لمن يقصد الإفساد بالأرض وتخريبها وإلحاق الضرر بالخلق روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « من قطع سدره صوب الله رأسه في النار » . سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار" (٣)

وتكوّن الظلال يحمي كلاً من الإنسان والحيوان والنبات من مخاطر التعرض لكل من حرارة وأشعة الشمس .

وما من نعمة أودعها الله في البيعة إلا ونسبها إلى الإنسان ومصالحته مما يزيد من حجم مسؤولية هذا الإنسان ، ولذا عليه السعي لإصلاحها وعدم العبث فيها بتقطيع و تخريب ونحوه ، ولذلك ينهى الله - سبحانه وتعالى - عن الفساد ، وعدّ قطع الأشجار وتخريب النبات من الفساد في

(١) - سورة النحل من الآية ٨١

(٢) - سورة الصافات الآية ١٤٦

(٣) - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في قطع السدر ح ٥٢٣٩ ص ١٦٠٦

الأرض ، والله - سبحانه - لا يرضى بالفساد ولا يجبه ، ولا يجب المفسدين ^(١) قال - تعالى -

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الْفُسَادَ ۗ ﴾ ^(٢) ففساد هذا الشخص عام ، فالحرث هو محل نماء الثمار والزروع ، والنسل هو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما ، فيأفسادهما تدمير للإنسانية ، وبيان لخبث وسوء طوية أولئك المنافقين الظالمين .

وخص بالحرمة حرم مكة والمدينة وخصوصاً الحرم المكي لحرمة وعظمة الكعبة فقد أجمعت الأمة على عدم جواز قطع الأشجار والنباتات في الحرم وسنده: "ولا يعضد شجرها" إلا الأذخر ^(٣) وما زرعه الإنسان .

وقد نقل الإجماع : ابن المنذر ^(٤) وغيره .

أورد البخاري ومسلم في صحيحيهما رواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم افتتح مكة : "لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، وهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ^(٥) ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يحتلى خلاها .» قال العباس : يا رسول الله ، إلا الأذخر ، فإنه لقينهم ^(٦) وليوتهم ، قال : "إلا الأذخر" ^(٧)

(١) _ الكشف والبيان ١٢٤/٢ ، بحر العلوم ١٦٣/١ ، تفسير القرآن العظيم ٥٦٤/١ ، التحرير والتنوير ٢٦٩/٢ - ٢٧٠

(٢) _ سورة البقرة الآية ٢٠٥

(٣) _ نبت أصله ماضٍ في الأرض ، وقضبانه دقاق ، ورائحته طيبة . وهو كثير في أرض الحجاز ، وكانوا يسقفون به ، فيجعلونه تحت الطين ، وفوق الخشب ليسد الخلل ، فلا يسقط الطين ، وكذا يجعلونه في القبور . ينظر : لسان العرب ٣٠٢/٤ ، تاج العروس ٣٦٤/١١ ، مادة (ذخر) .

(٤) _ الإجماع ص ٦٠ ، الإقناع ٣٧٦/١

(٥) _ وقوله لا يعضد شوكة ، أي : لا يُقطع .

(٦) _ بفتح القاف وسكون الياء ، بعدها نون : هو الحداد ، وحاجته لها ، ليوقد بها النار . لسان العرب ٣٥٠/١٣ ، مادة (قين) ، تاج العروس ٣٦/٣٠

(٧) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : جزاء الصيد ، باب : لا يحل القتال بمكة ، ح ١٨٣٤ ، ص ١٤٤ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الحج ، باب : تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجره ولقطتها إلا لمنشد على الدوام ، ح ٣٣٠٢ ص ٩٠٣ .

٣- الملابس التي يرتديها الإنسان :

اللباس نعمة من الله - سبحانه وتعالى - فوق ستر العورة فهو يقي الإنسان من الحر والبرد .
ومن فضل الله - سبحانه - على عباده ، أن هياً لهم أسباب العلم والمعرفة ، وأهمهم إلى صناعة نسيج ما يلبسونه من حرير ، و صوف ، وشعر ، وقطن ، والوبر وغير ذلك .

قال - تعالى - ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ (١)

فالسراويل : جمع سراويل ، وهي الملابس التي يتسربلون بها ، ويغطون أجسادهم ، يتقون بها شدة الحر ولدغ الحشرات (٢) وفي الآية إيجاز بالحذف في قوله - تعالى - ﴿ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ مع أنها تقي من الحر والبرد ، ففيه اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، أو اكتفى بذكر الحر ؛ لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد ؛ فلهذا السبب ذكر الله - تعالى - هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة .

وهذا من باب التنبيه ، فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم ، وكما يكون التنبيه والقياس في خطاب الأحكام يكون كذلك في خطاب الآلاء والوعيد (٣)
وترتدي غالبية شعوب العالم ملابس مصنوعة من القطن والقطن من النبات ، وكذلك الكتان وكلاهما من النبات مباشرة ، أما الأنواع الأخرى من اللباس : كالحرير والصوف ، وغيره ، فيخرج مما يتغذى على النبات .

٤- استخدامها في الصناعات المختلفة :

أ - الصناعات التحويلية الغذائية من عالم النبات :

أرشد الله - سبحانه وتعالى - عباده إلى المزج بين الصناعة والزراعة ؛ ليزيد النفع ويكثر .
فالصناعات التحويلية للغذاء ضرورية ؛ لزيادة المنافع . قال - تعالى - ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا

عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٤)

(١) - سورة النحل من الآية ٨١

(٢) - مفردات غريب القرآن ٢٢٩/١ ، كتاب السين ، لسان العرب ٣٣٥/١١ ، تاج العروس ١٩٦/٢٩ مادة (سربل) .

(٣) - التفسير الكبير لابن تيمية ٥ / ١٦٨

(٤) - سورة يس الآية ٣٥

وهذا من إحسان رب العباد على عباده أن هداهم لما فيه خيرهم فمع امتنانه عليهم بما أخرج لهم من الثمرات من الأرض ، علمهم ما تصنعه أيديهم ، وفيها توجيه إلى ضرورة العمل ، فالله - سبحانه وتعالى - سخر لهم الأرض ومن عليها وأمرهم بالسعي فيها ، والانتفاع مما عليها وهداهم لما فيه نفعهم . وهذه النعم الجليلة تستلزم الشكر لتدوم .

وفي قوله - تعالى - وتدخل الأشجار والثمار في كثير من الصناعات المختلفة ، ففي قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ ﴾ يشير - سبحانه - إلى الصناعات الغذائية التحويلية مثل عملية التخمر لإنتاج الحليب ومشتقاته مثلاً ، وأنواع العصائر المختلفة ، والزيت والدبس وغير ذلك . وفي هذه الصناعات فوائد جمة تعود على الإنسان في صورة المفرد وكذلك المجتمع والدول المنتجة والتي تجني أرباحاً طائلةً من تلك الصناعات وتنوعها والتي شكلت ثورةً حقيقية في عالم الصناعات الغذائية ، وهذه الفوائد التي عبّر عنها القرآن بالرزق ، فسبحان من خلق الخلق وهداهم لما فيه صلاحهم ومعيشتهم .

ج - صناعة المراكب والسفن وغيرها من الخشب :

يقول تبارك وتعالى في قصة نوح - عليه السلام - مع قومه عندما أبحاه - سبحانه وتعالى - والذين آمنوا معه من الطوفان بعظمته وقدرته ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ وُدُسْرٍ ﴾ (١) والألواح : جمع لوح ، وهو القطعة المسوّاة من الخشب ، أي : على سفينة ذات ألواح ، وأراد - سبحانه - بالألواح خشب السفينة العريضة .

والدسر : جمع دِسار ، وهي المسامير التي دسرت بها السفينة ، أي : شدت (٢) ونستفيد من أخشابها كذلك في صنع الأثاث ، ومنافع أخرى ، ويصنع من فئات الخشب الورق ، والمنتجات الورقية والأقلام والقراطيس ، كما قال - تعالى - ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ (٣) إلى جانب ذلك تنتج الأشجار الفلين ، والمطاط الطبيعي . فسبحان من أنعم على عباده بالعقول ؛ ليهتدوا بها لما ينفعهم في دينهم ودنياهم .

(١) - سورة القمر الآية ١٣

(٢) - جامع البيان ٥٧٨/٢٢ ، معالم التنزيل ٤٢٨/٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ١٣٢

(٣) - سورة لقمان من الآية ٢٧

د - الاستخدامات الطبية والعلاجية :

تتمتاز النباتات بخصائص خاصة بها أودعها الله - سبحانه وتعالى - بها سواء من الناحية الغذائية أو العلاجية أو الانتفاع من الأزهار أو البذور أو الأوراق أو الثمار أو باقي أجزائها .
وأشارت أحاديث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بعض النباتات ذات الفائدة الطبية (١)

ومن آيات الله في النبات أن جعله لنا رزقاً تقوم به الحياة ، ودواءً لشفاء كثير من الأمراض .
فهذا التنوع في الأنواع والألوان والطعوم وغيرها يعين على الاستفادة منها في نواح كثيرة .
يقول ابن القيم : " ولا ريب أن للأمكنة اختصاصاً ينفع كثيراً من الأدوية في ذلك المكان دون غيره ؛ فيكون الدواء الذي قد نبت في هذا المكان نافعاً من الداء ، ولا يوجد فيه ذلك النفع : إذا نبت في مكان غيره ؛ لتأثير نفس التربة ، أو الهواء ، أو هما جميعاً . فإن للأرض خواصَّ وطبائع يقارب اختلافها ، اختلاف طبائع الإنسان ، وكثير من النبات يكون في بعض البلاد غذاءً مأكولاً ، وفي بعضها سماً قاتلاً ، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين ، وأدوية لقوم من أمراض هي أدوية لآخرين في أمراض سواها ، وأدوية لأهل بلاد لا تناسب غيرهم ولا تنفعهم «(٢) .
ويقول - رحمه الله - : " من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ، ومن أعطى كل منها خاصيته ، ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ، وترك ما يضر ، ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم ... حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ ... " (٣)

ونظراً لأهمية النباتات واستخدامها في العلاج ترك لنا القدماء من مختلف الأمم تراثاً ضخماً من الكتب والمخطوطات الفريدة والنافعة والشاملة لعلم النبات (٤)

ثامناً : تأثيرها النفسي على الإنسان :

-
- (١) - التداوي بالقرآن ص ١٠٧-١٢١
(٢) - الطب النبوي لابن القيم ٧٧ / ١
(٣) - مفتاح دار السعادة ٢٣٣ / ١
(٤) - منها : الحاوي في الطب ، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، القانون في الطب ، لابن سينا ، مختصر تذكرة الإمام السويدي في الطب ، القطب الصمداني عبد الوهاب الشعراي ، تذكرة الشيخ أحمد القليوبي في الطب ، وغيرها

١ - فيها جمال وبهجة : قال - تعالى - ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ حَادِيقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَأَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) وقال - سبحانه - ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ (٢)

جعل الله - سبحانه وتعالى - في النبات ميزات عدة بالإضافة إلى كونه غذاء ودواء ، فهو مصدر من مصادر الجمال في الأرض ، وهذا الجمال يتمثل في خضرة النباتات الزاهية ، وألوانها البديعة الخلاب ، وأشكالها وتصاميمها الرائعة ، وشذى أريجها الأخاذ ، ففي قوله - تعالى - ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ اعتبار وامتنان منه - سبحانه - بالنبات المودعة فيه الأطياب مثل الورد والياسمين وما يسمى بالريحان الأخضر (٣) و عند تأمل هذا العالم الفريد يلي الإنسان حاجته الفطرية إلى الجمال فيقوى إيمانه ويدرك عظمة خالقه فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد كان ختام السياق في الامتنان بتنوع الثمرات بهذه السورة الكريمة قوله - تعالى - ﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (٤) فبأي نعم الله - تعالى - تكذب أيها الإنسان وأنت مغمور بها .

٢ - تشير إلى الحياة ورغد العيش :

جعل الله سبحانه وتعالى الأشجار والنباتات في الدنيا تتسم باللون الأخضر والذي يشير إلى الحياة ورغد العيش ، وقد جعله الله لون أشجار الجنة ولون وسائد أهلها ، وثيابهم . واللون الأخضر أمتع للعين وموافق لها عند الإبصار ؛ لأن البياض يبدد النظر ويؤلم ، والسواد يذم والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع وكانت الثياب الخضراء عزيزة وهي لباس الملوك والكبراء قديماً (١).

(١) - سورة النمل الآية ٦٠

(٢) - سورة الرحمن الآية ١١-١٢

(٣) - التحرير والتنوير ٢٧/٢٤٢ ، الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن ١/٨٢

(٤) - سورة الرحمن الآية ١٣

ولما كان ميل النفس في الدنيا إلى الأخضر ذكر الله - تعالى - في الآخرة ما هو على مقتضى طبعه في الدنيا (٢) فكثيراً ما يرد لفظ الخضرة في آيات القرآن الكريم ، وتأثير منظرها على نفس الإنسان قال - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾ (٣) وكذلك في الآيات التي تصف أحوال أهل الجنة ، و النعيم المقيم الذي هم فيه من جميع المتع الجسمية والنفسية .

فاللون الأخضر هو لون وسائد أهل الجنة قال - تعالى - ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حِسَانٍ ۝ ﴾ (٤) ولون ثيابهم ، كما قال - تعالى - ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ۝ ﴾ (٥) وقال - سبحانه - ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ ۝ ﴾ (٦) (٧)

واللون الأخضر في النبات يشير إلى الحياة والخير وسعة الرزق بعكس النظر إلى الصحراء .

قال - تعالى - ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ۝ ﴾ (٨) فاللون الأخضر هو لون الحياة ، وعكسه اللون المصفر ، والذي يشير إلى الدمار و الهلاك (٩) كما قال - تعالى - ﴿ ثُمَّ يَبْسُجُ فَتَرَنَّهُ مُمْضِرًا ۖ ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۝ ﴾ (١٠)

(١) _ الجامع لأحكام القرآن ٣٩٧/١٠ ، التفسير الكبير ٣٨٢/٢٩ ، التحرير والتنوير ٢٧٥/٢٧

(٢) _ التفسير الكبير ٤٦٣/١٨

(٣) _ سورة الحج الآية ٦٣

(٤) _ سورة الرحمن الآية ٧٦

(٥) _ سورة الإنسان من الآية ٢١

(٦) _ سورة الكهف من الآية ٣١

(٧) _ يبدو أن إثارة اللون الأخضر للثياب والمفارش والوسائد فيه إشارة إلى مراعاة الذوق العربي وفي ذلك ما لا يخفى من الترغيب ، فالثياب الخضراء كانت عزيزة عند العرب وقيل إنها لباس الملوك والكبراء . ينظر : من حقائق الكون في التعبير القرآني ص ٣٨

(٨) _ سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٩) _ وليس الأصفر الفاقع الذي يشعر يدل على النضج والكمال ، كما ورد في صفة البقرة في قصة القتل في قوله

_ تعالى { صفراء فاقع لوأها تسر الناظرين } سورة البقرة من الآية ٦٩

(١٠) _ سورة الحديد من الآية ٢٠

وفي قصة رؤيا ملك مصر مع نبي الله يوسف - عليه السلام - إشارة إلى أن النبات الأخضر يشير إلى الحياة وطيب العيش بعكس اللون المصفر قال - تعالى - ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (١)

حيث أول نبي الله يوسف - عليه السلام - السنبلات الخضراء في قوله - تعالى - ﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ ﴾ بالسنوات الخصبة التي يكون فيها الخير ورغد العيش والزرع الكثير ، أما اليابسات في قوله - تعالى - ﴿ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ بسنوات القحط والجذب والشدّة ما يؤكد ذلك (٢).

٣ - أن الحرث ممّا زُين للإنسان :

قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (٣)

تميل النفس الإنسانية إلى أمور منها الحرث ، وهو الزرع والنبات الذي هو غذاء الكائنات الحية من إنسان وحيوان وطيور وغير ذلك . وتعد هذه الحرفة من أقدم الحرف التي امتتها الإنسان .

ذكر المفسرون أن معنى قوله - تعالى - في سورة المؤمنون ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤)

أي : من قولهم : فلان يأكل من حرفة يحترفها ، ومن صنعة يغلها ، ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه . كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تترزقون وتعيشون (٥)

(١) - سورة يوسف الآية ٤٣

(٢) - معالم التنزيل ٤/٢٤٥ ، الكشاف ٢/٤٧٣ ، ٤٧٧ ، التفسير الكبير ١٨/٤٦٣ ، تيسير الكريم المنان ١/٣٩٩

(٣) - سورة آل عمران الآية ١٤

(٤) - سورة المؤمنون من الآية ١٩

(٥) - الكشاف ٣/١٨٠ ، مدارك التنزيل ٣/٩٨ ، البحر المحيط ٦/٣٧٠

وقال الشوكاني (١) : وهو بعيد (٢) .

ويجب أن يتذكر الإنسان دائماً أن هذه المزينات هي في نفسها زينة في الواقع ، فيجب ألا يسيء الإنسان استخدامها و لا يسرف فيها فتصبح أمراً قبيحاً ، فكلها من المتاع الزائل لهذه الدنيا الفانية فلا ينفع الإنسان إلا ما يقدمه من إيمان وعمل صالح .

٤- في تنوعها واختلاف ألوانها تجديد وإبعاد للملل عنه :

بتنوعها يتم تنوع مصادر الغذاء ومكوناته فيستفيد الإنسان الفوائد الجمّة ، في مطعمه وتلبية كافة احتياجات جسمه ، ويبعد عنه الملل والسأم من النوع الواحد .

عندما نشاهد ثمار الأشجار المختلفة ، نجد فيها القاسي واللين والصغير والكبير واللون والطعم والحجم المختلف ، فكل ما سبق يساعد الإنسان على تناولها حسب ما يناسبه ، ويتناسب مع مختلف مراحل العمر التي يمر بها ، والقدرات الجسدية والعقلية التي يملكها ، وفي مختلف البيئات السكانية ، وحسب ما تميل إليه نفسه ، وهذا التنوع من الجانبين يوضح التناغم الكامل بين المخلوق وما خُلق لأجله .

وفي مزج الأنواع بين النافع والضار والحلو والمر ونحوها ، يجعل الإنسان يشعر بعدم الركون إلى هذه الدار ؛ لئلا تطمئن النفوس إليها فتتنشغل بها عن الآخرة (٣)

التنوع في اختلاف الألوان :

قال - تعالى - ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ (٤)

(١) - هو : أحمد بن محمد الشوكاني ، قاض ، من فضلاء اليمانيين ، من أهل صنعاء وهو ابن العلامة (الشوكاني) الكبير .
نصب للقضاء في صنعاء زمناً . وأصابته محن فطاف متنقلاً في بعض الاطراف ، توفي في الروضة سنة ١٢٥٠ ، من كتبه :
(فتح القدير) و (كشف الرية في الزجر عن الغيبة) . ينظر : التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد وكتب التفسير ص ٢٣٠ ،

الأعلام ١ / ٢٤٦ ، الموسوعة الميسرة ٣ / ٢٢٨٩

(٢) - ينظر : فتح القدير ٣/٤٧٨

(٣) - أحكام القرآن للكمي الهراسي ١/٣١

(٤) - سورة النحل من الآية ١٣

وقال - سبحانه - ﴿الْمُرْتَرَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (١)

يذكر الله - سبحانه وتعالى - عباده بعظمته وقدرته الباهرة ومنها خلق الأشياء المتضادة ، التي ترجع لأصل واحد ، ومادتها واحدة ، وبينها فرق وتفاوت ومنها الاختلاف في الإنسان والحيوان والنبات والجبال ، فتفاوت هذه المخلوقات دليل عقلي مشاهد على وحدانية وقدرة الخالق - سبحانه - وحكمته وعلى رحمته وواسع فضله على عباده ؛ حيث يجنون المنافع والمصالح من هذا الاختلاف ومنها: معرفة بعضهم البعض ، ومعرفة الطرق والأماكن ، وما يستفيدونه من النبات في مختلف ظروف معيشتهم .

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى اختلاف أشكال وألوان الثمار وفي هذا إعجاز عظيم ، وليس هو فحسب بل فيها إعجاز آخر وهو : الربط بين إخراج الثمرات المختلفة الألوان ، وخلق الجبال الملونة (٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: أيصبغ ربك؟ قال صلى الله عليه وسلم: " نعم صبغاً لا ينفض ، أحمر وأصفر وأبيض " (٣)

يقول ابن القيم : إن ظن الإنسان بعدم فائدة النبات في الصحاري والجبال وأنها فضلة لا حاجة إليها ظن خاطئ ففيها حكمة وآية فهي طعام طيور ودواب هذه الأماكن المقفرة والتي قد لا نراها ولكن خالقها هو من خلقها وخلق رزقها فتتناول كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه (٤)(٥) .

(١) - سورة فاطر الآية ٢٧

(٢) - الربط بين إخراج الثمرات المختلفة الألوان التي يروي شجرها ويغذيها ماء واحد ، وتربة واحدة وخلق جبال الأرض الملونة والتي يرجع أصلها لمادة الصهارة التي تخرج من باطن الأرض وهي عندما تنشق في أماكن مختلفة من الأرض وعلى أعماق مختلفة من سطحها يعتري تركيبها الاختلاف فتتصلب في كتل أو جبال مختلفة المادة والألوان وفي هذا متاع وفائدة للإنسان .

ينظر : الغذاء والدواء الكتاب الثالث عشر ص ٢٢

(٣) - أخرجه البزار في مسند ٣٠٤/١١ رقم الحديث ٥١٠٧ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، باب ما جاء في الصباغ ١٢٨/٥

(٤) - بتصرف ، مفتاح دار السعادة ٢٣٤/١

(٥) - للاستزادة ، ينظر : موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي مقال لد.عبدالبديع حمزة زللي ، و النظام الزراعي في القرآن والسنة بين مظاهره الإعجازية وأشكاله التطبيقية ، وآيات الله ١٠ / ٣٥٣ - ٣٦٥ .

بعض اللطائف من ذكر أنواع النباتات عند الامتنان بها :

١ - أحياناً يقدم الله - سبحانه وتعالى - الفاكهة بالذكر على غيرها من أنواع النبات كما في قوله تعالى - ﴿ فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ ﴾ (١) وذلك لوجهين :

أ - لأن الآية جاءت في سياق بيان الرحمة بمزيد الإنعام ، وكانت الفواكه ألد ما يكون ، فقدّم الفاكهة قبل ما بعدها .

ب - من باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى . فالفاكهة دون النخل بالمنافع ، والنخل دون الحب الذي به يتغذى الأنام ، ويوافق مزاج الإنسان فهو أتم نعمة (٢) .

٢ - ومجيئها نكرة لوجوه هي :

أ- أن القوت محتاج إليه في كل زمان ومكان ، أما الفاكهة فغير متوفرة في كل زمان ومكان ؛ لتأثرها بعوامل الجو أكثر .

ب - أن الفاكهة للتفكه وتختلف رغبات الناس فيه ؛ لذا هي غير متعينة .

ج - كثرة منافع النخل بالنسبة للفاكهة ولذا جاءت نكرةً .

د - أن المراد بتكبيرها تعظيمها (٣) .

٣ - إفراد النخل بالذكر على سائر الأشجار في الآية السابقة :

أفرد الله - سبحانه وتعالى - النخل بالذكر ؛ لشرفه وفضله على سائر الأشجار ولبركته ، ونفعه ربباً ويابساً ، ولكثرته عند العرب ، ولجماله ، ولما له من منافع كثيرة بكل أجزائه (٤) ولبقاء ورقه دون سقوط في مختلف الفصول ، حتى شبّه المؤمن في الحديث النبوي به . فالنخيل أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار (٥)

(١) - سورة الرحمن الآيات ١١-١٢

(٢) - نظم الدرر ٣٧٦/٧-٣٧٧ ، التفسير الكبير ٨٣/٢٩ ، الدر المصون ١٥٨/١٠

(٣) - التفسير الكبير ٨٢/٢٩ - ٨٣ نظم الدرر ٣٧٧/٧

(٤) - للاستزادة ، ينظر : الأحكام النبوية ص ٥٤١-٥٤٣ ، من علم الطب القرآني ص ٢١٧-٢١٩ ، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات ص ١١٣ ، الإعجاز الطبي في القرآن ص ٣٤٥-٣٥٣

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٥٠٧/٧ ، لباب التأويل ٣/٧ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٨/٦ ، محاسن التأويل ٥٦١٦/١٥ ، التفسير المنير ٦٨/٨

وذكر النخل باسمها ، والفاكهة دون شجرها ؛ لعظم المنفعة بالنخل من جهات متعددة ، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة ، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ومن الفاكهة دون شجرتها (١)

٤ - بدأت المنة في هاتين الآيتين بالفاكهة وهي الطعام الذي يتفكه بأكله ، أي يتلذذ بطعمه ، وختم بالمشموم ؛ لتجتمع اللذة بالغذاء والتمتع بالروائح الطيبة ، وبينهما النخل والحب للغذاء فاجتمعت هنا ألوان من النعم بين ما يتفكه به وما يتقوت به وبين ما به تقع اللذاعة (٢).

٥ - في قوله تعالى ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ تقابل بين الحب وبين الأوراق ، وبين الغذاء وهو ضرورة ، وبين الزينة وهي تكريمة امتن الله بها على عباده فوق الضرورة ، وبين الشيء وبين ما ينتج عنه فيخلده " (٣)

٦- شجرة الزيتون :

جاءت نكرةً للتنويه بها ، وبأنها في تنكيرها أعرف من كل معرف (٤)

تخصيصها بالذكر :

لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضا - تكلفة لزراعها ودهن الزيتون صالح للاستصباح والاصطباغ جميعا (٥)

٧ - اختصاص ذكر الأشجار الثلاثة :

ذكر النخيل والعنب والزيتون في كثير من الآيات من بين أشجار الفاكهة ، وذلك لأمر منها :

(١) _ البحر المحيط ١٨٨/٨

(٢) _ المصدر السابق ، الموضع نفسه .

(٣) _ الحبوب هي مصدر لغذاء الإنسان عظيم وهذه الحبوب هي نفسها أيضا مصدر للغذاء بطريقة أخرى : إنها تخلد نفسها من حيث أن الحبة الواحدة منها تزرع فتصير نباتا كاملا يعطي الكثير من الحبوب إنها مرة أخرى استمرارية للحياة التي قدرها ووهبها لنا صانع الحياة ونجد في النبات الأوراق أو العصف وهي مصدر للزينة مثلما هي طعام للحيوان كما نجد الرائحة الطيبة والألوان الرائعة . ينظر : أسرار الكون ص ٣٠٩ ، وعن أهمية الحبوب ينظر : الغذاء الحقيقي ص ٢٦٥

(٤) _ التفسير القرآني ١١٢٦/٩

(٥) _ البسيط في التفسير ٢٨٧/٣ ، الكشاف ١٨٠/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١١٤/١٢ ، مدارك التنزيل ٩٩/٣ تفسير القرآن العظيم ٧٢٣/١ ، روح البيان ٥٣/٦ ، التفسير الوسيط ٢١/١٠ ، تيسير الكريم الرحمن ٥٤٩/١

أ - النخيل والأعناب أعلى درجات النبات صعودًا إلى الكمال في عالم النبات ، فهاتان الشجرتان على قمة العالم النباتي (١)

ب - ثمرهما جامع لأمرين : بأنه فاكهة يتفكه بها ، وطعام يؤكل رطبًا ويابسًا ، رطبًا وعنبًا ، وتمرًا وزبيبًا.

ج - لأن هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فكانت النخيل لأهل المدينة، والعنب لأهل الطائف .

د - الأنواع الثلاثة من أكرم الأشجار ، وأفضلها ، وأجمعها للمنافع (٢).

٨ - شجرة الزيتون والرمان :

ذكر الله - سبحانه - شجرتي الزيتون والرمان في معرض الامتنان والتذكير بعجيب صنعه وإن لم تكونا مثل النخل في الأهمية عند العرب وذلك لعزّة وجودهما في بلاد العرب ، ولتنافس العرب في التفكّه بثمرهما والإعجاب باقتنائهما (٣) .

٩ - وصف الفواكه بالكثيرة ؛ باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب والتمر ، وكالزيت والعنب الرطب ، وأيضاً باعتبار كثرة إثمار هذين الشجرين (٤).

١٠ - ترتيب الأنواع المذكورة من النباتات :

- يذكر الله - سبحانه وتعالى - أنواع الأشجار والثمار عند الامتنان بها أحياناً على طريق الترتي من الأدنى في الاقتيات إلى الأعلى والأعم كما في الآيات التي مرت من سورة الرحمن (٥) وأحياناً

العكس كما في قوله - تعالى - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا

(١) - قال ابن القيم : " قد ذكر الله سبحانه العنب في ستة مواضع من كتابه في جملة نعمه التي أنعم بها على عباده في هذه الدار ، وفي الجنة ، وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع ، وهو يؤكل رطبًا يابسًا وأخضر ويانعًا ، وهو فاكهة من الفواكه وقوت من الأقوات . ينظر : من الطب النبوي لابن القيم ص ٢٦٢ ، العنب فوائده وخواصه ، العلاج الطبيعي بالعنب ص ٧٧ - ٧٩ ، العلاج الطبيعي والنباتي ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) - جامع البيان ٢١/١٩ ، الكشاف ١٨٠/٣ ، المحرر الوجيز ٣/٣٨٢ ، زاد المسير ٤٦٤/٥ ، مدارك التنزيل ٩٩/٣ ، لباب التأويل ٣٥/٥ ، البحر المحيط ٦/٣٧٠ ، البحر المديد ٣/٥٦٨

(٣) - التحرير والتنوير ٤٠٢/٧

(٤) - التحرير والتنوير ٣٤/١٨

(٥) - البحر المحيط ٨/١٨٨ ، التفسير المنير ٧/٣١٠ ٨/٦٨

أَلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْتُنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهًا
وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمَكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿١﴾

وقوله - تعالى - ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ جَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿٢﴾﴾

جاء تقديم الحب هنا على باقي أنواع النبات ؛ لأنه قوت للإنسان ، وهو قوام معيشته ، وأصل غذائه . يقول أبو السعود : "وتقدم الحب مع تأخره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه لأن غالبه غذاء الإنسان" (٣)

بعض الإشارات المتعلقة بمنافع النبات والتي وردت في الآيات :

امتن الله - سبحانه وتعالى - على العباد بإيجاد النباتات ومختلف الأشجار ونوعها - كمًا وكيفًا - وحفظها من التلف والفساد ، وألهم عباده لأمر تساعدهم في معيشتهم تتعلق بالنبات والثمار ومن هذه الأمور :

أ- إرشادهم لكيفية حفظ القمح :

وفي قوله - تعالى - ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا

نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إعجاز علمي ، حيث أشار يوسف - عليه السلام - إلى حفظ القمح في سنبله وقد دلت الدراسات العلمية الحديثة أن الحفظ بهذه الطريقة من أحسن التقنيات والأساليب للحفاظ على الحبوب المحفوظة داخل السنابل .

حيث تعمل القشور المحيطة بحبوب القمح في السنبل على منع مهاجمة القمح من قبل الحشرات الضارة والمؤثرات الجوية الخارجية ، بالإضافة إلى تحديد المدة القصوى للتخزين كما قال العلماء (٤).

(١) - سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٢

(٢) - سورة النبا الآيات ١٥ - ١٦

(٣) - إرشاد العقل السليم ٨/ ٨٨ ، وينظر : روح المعاني ٣٠/ ١١ ، التفسير الكبير ٣١/ ١١ ، البحر المحيط ٨/ ٤٠١ ، نظم الدرر ٨/ ٢٩٩ .

(٤) - في الآية تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيللة سبع سنوات يزرع الناس و يحصدون خلالها دأبًا و تتابعًا و هي سنوات الخصب و العطاء ، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة و فيها يغات الناس و فيها يعصرون من الفواكه . و قد أفاد البحث العلمي أن مدة ١٥ سنة هي المدة =

ب - الامتنان بتنوعها وفوائده يقابله ضرر زراعة النوع الواحد :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - وبآيات كثيرة أنواع متعددة من الأشجار والثمار في معرض الامتنان بها وفي ذكر ذلك تعريض غير مباشر لمساوئ الزراعة الأحادية^(١) والتي أظهرت التجارب الحديثة خطرهما على الأرض من حيث قلة خصوبتها ، وضعف النبات المزروع فيها وإصابته بالأمراض والآفات والتغيرات المناخية - فسبحان خالق كل شيء - .

= القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو و التطور فيها. ينظر : موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، أ.د. عبدالمجيد بلعابد .

(١) _ المزج بين المحاصيل وأحياناً بين أكثر من عشرين نوعاً مختلفاً يعني أن دورات الحصاد متعاقبة ، ويقدم أقصى حماية ضد الخسائر الكلية الناشئة عن طقس غير موافٍ ، أو عن الأوبئة أو الأمراض ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الزراعة المختلطة تؤمن للتربة حماية على مدار العام من الشمس والمطر . صناعة الجوع ص ٤٣

من هداية الآيات :

- كرم الله الإنسان وسخر كل ما في الكون لأجله ؛ ليقوم بما خُلق لأجله وهو عبادة الله - سبحانه وتعالى - فالأرض هيأها ، ووضعها للناس بشكل يعين على الانتفاع منها بأنواع الانتفاع من حفر الآبار وإجراء الأنهار والبحار ، وزرع الأرض ، والتنقل عليها وغير ذلك وهذا من أعظم الآيات الدالة على رب رحيم خالق قادر على كل شئ - سبحانه - .

- إنزال المطر نعمة عظمي تستحق التقدير فالماء به حياة الأبدان ونماء الحيوان، وهو في نفسه نعمة، وهو أيضا سبب لحصول النعم من إنبات النبات، وسقي الإنسان والحيوان .

- نزول المطر من السماء بقدر نعمة جليلة من الخالق - سبحانه - فنزول هذا الماء المبارك بقدر ما يناسب الكائنات الحية على وجه الأرض ، ويحفظ لها حياتها ، وتسلم به من المضرة نعمة من أعظم النعم .

- دوام النعم بشكرها ؛ لذا جاء الامتنان بالمطر في بعض الآيات مصحوبًا بالتهديد في حال كفر النعمة ، إما بالذهاب به وفي هذا تذكير بأن قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد وعدمه ، أو بجعله مالحًا ، أو بتغييره في باطن الأرض .

- عطاء الله - سبحانه وتعالى - الواسع للإنسان الذي لا حدود له ومن ذلك النبات الذي لا يمكن أن تستمر الحياة للحظة واحدة على سطح الأرض بدون وجوده ففيه حياة الإنسان ، وحياة ما ينفعه من الأنعام .

- إن التأمل في هذا الكون الفسيح بما فيه من تنوع عجيب ، وإبداع خلاب ، وتناسق وتعاون بين الكائنات الحية يزيد من يقين الإنسان بربه - سبحانه - .

- أن الاستدلال بالأدلة الحسية طريقة من الطرق القرآنية لطرق بعض الموضوعات ، وفي الآيات في هذا المبحث وغيره أدلة حسية لا تخفى على الإنسان . ومنها :

أ - اختلاف ألوان هذه الكائنات بدءاً بالنبات ثم الجبال والأنعام والناس ، وهذا من أعظم الأدلة التي تشهد بعظمة وقدرة ومنة البارئ المبدع المعيد - سبحانه - وهذا الاختلاف من النواميس الكونية المشاهدة .

ب - خروج الثمار متفاوتة ، مختلفة الألوان والأشكال والطعوم مع اتحاد المصدر في التربة والمطر فيه دلالة على كمال قدرته - سبحانه - في خلق الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد .

ج - تنوع النباتات وكثرة عطائها وإنباتها كلها آيات بينات على وجود خالق مبدع هو الله سبحانه وتعالى .

- لو لم يكن هناك فاكهة قط لما امتنعت الحياة على الأرض بل لاستمرت ولكنه تكريم الرحمن الرحيم الخالق الكريم لمن خلقه وقدر رزقه ، ولي حاجاته .

من الفوائد التي يجنيها الإنسان من التنوع البيئي للنبات ما يلي :

أ - النبات رزق للإنسان خاصة ، ولكل من على الأرض عامة .

ب- جعل الله - سبحانه وتعالى - التكاثر والتنوع في النباتات ؛ ليبقى الغطاء النباتي متوفرًا على الدوام ليوفر ما يحتاجه الإنسان الذي يتكاثر وتتعاقد أجياله فسبحان الخالق الرازق المنعم .

ج - في تنوع الأشجار والثمار واختلاف ألوانها وصفاتها وأحجامها ؛ ملائمة لجميع الناس الذين تختلف رغباتهم وميولهم وقدرتهم على تناولها وحاجتهم لذلك فسبحان الخالق المبدع .

د - يمثل عالم النبات الرئة التي تنفس منها الأرض ومن عليها ، فبدون النبات لا توجد حياة على وجه الأرض .

هـ - لا يقتصر دور النبات على الغذاء فقط بل يتعداه إلى منافع اقتصادية وصناعية كثيرة ، فهو يدخل في تركيب وصناعة ملابس الإنسان ، وكثير من الصناعات التحويلية للغذاء ، وهو دواء وشفاء لكثير من الأمراض إلى غير ذلك .

و - النبات أصل الطاقة التي يستخدمها الإنسان لتصريف أموره كطهي طعامه وتسيير ما يتنقل به من مكان لآخر .

ز - يساعد عالم النبات على تحقيق التوازن البيئي المنشود للعيش على سطح الأرض ، ويساعد كذلك على حماية التنوع البيولوجي على الأرض بحمايته للحيوانات من الانقراض ، واتخاذها لجذوع الأشجار وفجواتها سكن تأوي إليه .

- اهتمام الإسلام بكل ما يعين على حفظ البيئة وعدم إفسادها ؛ لتحقيق الوظيفة من خلقها ، فرتب الأجر على الزرع والغرس إلى آخر لحظة من حياة الإنسان ، ونهى عن قطع الأشجار الأشجار التي يستفاد من ظلها .

- اهتمام الإسلام بالإنسان وتحقيق وإشباع ضروراته وحاجاته وكل مصالحه ومنها : إشباع رغبته برؤية الجمال من حوله .

- تكرر ذكر بعض الأشجار والثمار على وجه الخصوص عند الامتنان بتنوع المحاصيل والمزروعات، مما يدل على أن هذه الأصناف المذكورة لها أهمية خاصة في حياة الإنسان .
من الأصناف التي ركزت عليها هذه الآيات: الزرع والنخيل والأعناب وهي الأشجار المعروفة عند العرب ، وتناسب البيئة الحارة ، وتحمل الظروف المناخية الصعبة ، وتمثل الطبقات الثلاث النباتية التي تساعد على وفرة وغزارة الإنتاج .

- فضل الله - سبحانه وتعالى - ورحمته بالعباد ؛ حيث مكنهم من الاستفادة من النباتات والأشجار حسب ما يناسبهم ؛ فالحبوب الصغيرة من قمح وشعير ونحوه جعلها - سبحانه - في سنابل تجمع الحب ، والثمار الصغيرة جعلها - سبحانه - في عناقيد تجمعها كالعنب مثلاً ، والزرع والأعشاب جعلها قصيرة بمتناول الإنسان ؛ ليستفيد منها هو وترعى بها ماشيته ، وباقي الحيوانات ، والأشجار الطويلة التي تؤخذ الأخشاب من سوقها جعلها طويلةً سامقةً ؛ ليستفيد منها بالقدر الذي يريد فسبحان الخالق الرحيم - جلّ في علاه - .

المبحث الثالث : الامتنان برعي الأنعام وسومها :

نعم الله - سبحانه وتعالى - على العباد لا تُعدّ ولا تحصى . قال - تعالى - ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (١) ومن هذه النعم العظيمة ما أخرج الله لهم من الأرض من أجلهم وأجل أنعامهم ، ممّا يعود بالفائدة عليهم ، فلا بد من مقابلة النعمة بالشكر ؛ لتدوم .
للأنعام أهمية كبيرة بالنسبة للإنسان ، الذي استفاد منها في أمور حياته ، بل إن الإنسان تجاوز الحد فيها ، فعبدها بعض البشر كالبقرة .

فائدة الأنعام للإنسان :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - في كثير من آيات القرآن عظم منته على الناس بأن أخرج لهم من الأرض ما يُطعمهم وأنعامهم ، وما امتنان الله - سبحانه وتعالى - على العباد بهذا ؛ إلا لأهمية الأنعام في حياة الإنسان .

ومن هذه الفوائد ما يلي :

١ . الانتفاع منها في الغذاء : من فضل الله وإحسانه بعباده أن أحلّ لهم الانتفاع من أكل لحم الأنعام و شرب ألبانها .

أ - أكل لحمها :

يتغذى الحيوان على النبات ، ويتغذى الإنسان على النبات ، أو الحيوان ، ولا يخرج طعامه عنهما فالإنسان والحيوان يعتمدان على النبات في طعامهما ، ولذا امتن الله بإخراج غذاء الإنسان والحيوان من الأرض وفي كلا الحالتين تصب المنفعة على الإنسان .
ويعتبر اللحم من الأغذية الأساسية لأنه غني بالبروتينات ... (٢)
ومن فضل الله - سبحانه وتعالى - على الناس أن أباح لهم أكل لحم الأنعام ، وشرب ألبانها .

(١) - سورة النحل من الآية ١٨ ، سورة إبراهيم من الآية ٣٤

(٢) - الغذاء والدواء ص ٨٨ - ٨٩ ، ومن الأبحاث العلمية المشهورة أن الطبيب الروسي (بوجموليتز) صاحب الأبحاث في إعادة الشباب قد وجد أن إحدى القبائل المسلمة في يوغسلافيا يزيد متوسط العمر فيها على مائة عام ، وظل يبحث عن السبب في ذلك فوجد أخيراً أنهم يعتمدون في غذائهم الرئيسي على لحم الغنم ولا يأكلون لحم الخنزير ، وكذا يعتمدون على العسل ولبن الماعز ولا يشربون الخمر . من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في عالم الأنعام ص ١٤ .

ب - لبنها :

عملية خروج اللبن من الأنعام عملية تدل على قدرة من هيا الأنعام لذلك وأخرج من بين الدم والفرث لبنًا سائغًا للشاربين (١) كما قال - تعالى - ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُونِهِمْ مِمَّا فِي

بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢)

٢ - الانتفاع منها في السكن ، والركوب وحمل الأثقال :

قال - تعالى - ﴿ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ ﴾ (٣)

جعل الله - سبحانه وتعالى - الأنعام مصدر خير كبير للإنسان ، وأداة طيبة نافعة ، ومن هذه المنافع استخدام أجزاء منها في السكن ، واللباس ، ويستفاد منها أيضًا في حمل الأثقال ، وهي الأمتعة الثقيلة التي يعجز الإنسان عن نقلها وحملها من بلد إلى آخر ، لا يبلغه إلا بكل مشقة كالذهاب للحج ، والعمرة ، والتجارة ، والجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من من دواعي الاستعمال حملاً وركوباً .

يقول الغزالي : اعلم - وفقك الله وإيانا - أن الله خلق البهائم لمنافع العباد ، وامتناناً عليهم ، كما نبهت على ذلك هذه الآية ... ، ثم بعض منافعها (٤)

وفي قوله تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكر - سبحانه - أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها ، وأهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ، ولم يصرح هنا بشيء منه ، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات ، فهذه المخترعات

(١) - هناك عناصر مهمة في اللبن ، و من أهمها : الكالسيوم، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنيسيوم ، وكلها مستخلصة من غذاء الحيوان (العلف) بعد تخمره في معدة الاجترار (الفرث) ، وتوجد هذه العناصر مرتبطة بالاحماض الأمينية المتولدة من تخمر الطعام ، ويمر اللبن أثناء تكوينه بمراحل يتضح منها : أن معظم مكونات اللبن تأتي إما من الفرث ، أو من الدم ، أو من كليهما معا وذلك بعد تصفية وتنقية هذه المكونات لكي يخرج " لبناخالصاً " نقياً خالياً من العناصر غير الضرورية، ليس هذا فحسب ولكن " سائغاً " طيب المذاق مستساغ الطعم. ينظر إعجاز تكوين اللبن ، أ.د رمضان مصري هلال ، بطون الأنعام و بطون النحل ، أ.د أيمن محمد صبري ، من موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، و مقال من الإعجاز العلمي في عالم الأنعام ص ١١-١٢ ، مقال في الموقع الرسمي د . زغلول النجار ، وينظر : الغذاء والدواء ص ٨٤ - ٨٦

(٢) - سورة النحل الآية ٦٦

(٣) - سورة الأنعام من الآية ١٤٢

(٤) - الحكمة في مخلوقات الله ٧٧/١

الحديثة من غير هذه الدواب مما هدي إليها العلم واستنبطتها العقول . كالطائرات ، والقطارات ، والسيارات وغيرها (١)

ويؤيد ذلك إشارة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها (٢)

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: "ولتتركن القلاص (٣) فلا يسعى عليها " قسم من النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها ، فلا يسعى عليها أي يزهد فيها ولا يرغب في اقتنائها ولا يعتني بها ، وهذا مشاهد في العصر الحاضر .

٣ - الانتفاع منها في الدفء :

قال تعالى ﴿ وَاللَّاتِغَمَّ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤) المراد بالدفء هنا : ما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لغرض الدفء ، والسخونة كصنع الملابس ، والخيام وغيرها . وخصّ الدفء بالذكر من بين عموم المنافع الأخرى ؛ للعناية به ولمدى أهميته ، لأن أمره قلماً تستحضره الخواطر .

٤ - في الأنعام جمال ، وأثر نعمة :

حبّ الله - سبحانه وتعالى - للإنسان أموراً يشتهيها في هذه الحياة الدنيا وأجملها في ستة أمور منها : حب تملك الأنعام قال - تعالى - ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (٥)

(١) - تفسير المراغي ٥٧/١٤ ، التحرير والتنوير ١٣٠/١ ، أضواء البيان ٢١٨/٣ ، القرآن والعلوم الحديثة ص ٥٠ ، ص ٧٠

(٢) - كتاب : الإيمان ، باب : نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإكرام هذه الأمة زادها الله شرفاً ، جزء من ح ٣٩١ ص ٧٠٤

(٣) - القلاص بكسر القاف جمع قلوص بفتحها وهي من الإبل كالفتاة من النساء والحدث من الرجال . ينظر : معجم مقاييس اللغة ٢١/٥ ، مادة (قلص) ، الديباج على مسلم ١٧٩/١ ، تاج العروس ١١٨/١٨ .

(٤) - سورة النحل الآية ٥

(٥) - سورة آل عمران من الآية ١٤

ومَّا يزيد في حب الأنعام الجمال الذي وضعه الله فيها وفي تركيبها . قال - تعالى - ﴿ وَلَكُمْ

فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (١)

ويستفيد الإنسان من الأنعام في كثير من الصناعات المختلفة التي يستفيدها في حياته كالاستفادة من جلودها وغير ذلك من المنافع الكثيرة ، ولهذا امتن الله - على البشر - بهذه النعمة العظيمة ، وجاء الامتنان في آيات منها :

قال - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

شُيُومٌ ﴾ (٢)

السوم : أصله الذهب في ابتغاء الشيء ، يقال سُئِمْتُ الشيء ، أُسُومُهُ سُومًا . ومنه السَّوَامُ في الشَّراء والبيع ، ومنه سامت الرَّاعِيَةُ تسوم ، وجمع السائم والسائمة : سوائم ، ومن ذلك قيل للمواشي المطلقة في الفلاة وغيرها للرعي ، سائمة (٣)

في هذه الآية استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان .

ففيها يمتن الله على العباد بأنه هو - سبحانه - وحده وليس غيره الذي غمهم بنعمه ، ومن هذه النعم : إنزاله الماء العذب الزلال من السماء الذي فيه حياة كل حيِّ وذكر في الماء منتين : فيأخذون ما يشربونه وما ينتفعون به في حوائجهم الأخرى ، وبسببه يوجد الشجر و الزرع ، وفيه تسام الدواب وترعى (٤).

وفي آية كريمة أخرى يمتن الله على الناس ، ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بأنه - سبحانه - ما خلق الجنات والأشجار والحب وغيرها إلا لتكون رزقًا لهم ، ولأنعامهم والذي يسوق الله سببه وهو الماء

(١) - سورة النحل الآية ٦

(٢) - سورة النحل الآية ١٠

(٣) - الصحاح ١٩٥٦/٥ ، مادة (سوم) ، معجم مقاييس اللغة ١١٨/٣ ، مفردات غريب القرآن ٢٥٠/١ ، تفسير الشافعي ١٠٠١/٢ ، تاج العروس ٤٣٠/٣٢ .

(٤) - جامع البيان ١٧٧/١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٨٢ ، البحر المحیط ٤٦٣/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٥٦١/٤ ،

التحرير والتنوير ١١٣/١ ، التفسير الواضح ٣٠١/ ٢

المبارك . قال - تعالى - ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ

الْحَصِيدِ ﴿١﴾

الحب : هو البر والشعير ، وكل ما يحصد من الحبوب ويدخر ويقتات ، إذا تكامل واستحصد سمي حصيداً ، فالحصيد بمعنى المحصود ﴿٢﴾

أي نزلنا من السحاب ماءً كثيرَ البركة ؛ لانتفاع الناس به في غالب أمورهم فأنت به - سبحانه - بساتين كثيرة ، والحب الذي يُقتات منه ويُحصد ، وفي وصف الماء بأنه مبارك ، إشارة إلى ما يحمل هذا الماء من الخيرات والنعم ، التي لا يعلم الناس قدرها .

وخص الحب ؛ لأنه المقصود بالذات إذ به جل القوام ﴿٣﴾

وفي هذه الآية الكريمة أيضاً يمتن الله - سبحانه وتعالى - على العباد بنعمته عليهم في خلق النبات الذي به حياتهم وحياة أُنعامهم . قال - تعالى - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ

الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٤﴾

والجرز : هي الأرض المجدبة التي لا نبات ولا منفعة ﴿٥﴾

في هذه الآية الكريمة يبين - سبحانه وتعالى - لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم ، وينبهم إلى نعمة من نعمه الكثيرة ؛ ليستدلوا بما على قدرته على بعثهم من قبورهم .

ألم يبصر هؤلاء المكذبون بالبعث أن الله - سبحانه وتعالى - قادر على الإحياء ، فيسوق الماء من السماء أو السيول إلى الأرض الجرز وهي الأرض اليابسة التي جرز نباتها وقطع ؛ إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها .

(١) - سورة ق الآية ٩

(٢) - النكت والعيون ٥/٣٤٢ ، بحر العلوم ٣/٣١٧ ، المفردات في غريب القرآن ١/١٠٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧/٦ ، السراج المنير ٤/٤٩

(٣) - البحر المديد ٥/٤٤٥ ، روح المعاني ١٢٢٤

(٤) - سورة السجدة الآية ٢٧

(٥) - معاني القرآن للفراء ٢ / ٣٢١ ، مجاز القرآن ٢ / ١٣٣

كما قال - تعالى - ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (١) فيخرج بعظمته زرعًا يأكلون منه وأنعامهم ، فينتفعون من النبات والأنعام ، أفلا يبصرون بأعينهم هذه القدرة فيستدلون بها على كمال قدرته وفضله (٢)

وفي تخصيص الزرع بالذكر - وإن كان يخرج بالمطر غيره أنواعًا كثيرة - ؛ لأنه أعظم ما يقصد من النبات .

وبين أبو حيان سبب تقديم الأنعام على الإنسان في هذه الآية ، وذكر لذلك أوجهًا ، منها :

١ - أن ما ينبت تأكله الأنعام أولًا فأولًا ، من قبل أن يأكل بنو آدم الحب .

٢ - أنه غذاء الدواب وليس لها غيره ، أما الإنسان ، فيتغذى به و غيره .

٣ - بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف ، وهم بنو آدم (٣).

وهناك وجه آخر لتقديم الأنعام على أصحابها ، ففي التقديم دلالة على أنه ليس للناس شيء في تقدير هذا الرزق فهم وأنعامهم سواء في الاحتياج إلى الله ، وأنهم إنما يرزقون (٤).

وفي آية أخرى يمتن - سبحانه - على عباده بأنه أيضًا بسط الأرض لهم وأخرج لهم رزقهم وأنعامهم

منها . قال - تعالى - ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ (٥)

الحب : جميع ما يجرث في الأرض من الحنطة والشعير وغيرهما .

ذو العصف : الورق إذا يبس صار تبنا . أو المراد به الورق بعد أن يبس (٦) ومنه قوله - تعالى -

- ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (٧)

والعصف هو : بقل الزرع وهو أول ما ينبت منه (٨)

(١) - سورة الكهف من الآية ٨

(٢) - جامع البيان ١٧/٦٠٠ ، المحرر الوجيز ٤/٣٦٥ ، تفسير القرآن العظيم ٦/٣٧٢

(٣) - البحر المحيط ٧/٢٠٠

(٤) - التفسير القرآني ١١/٦٢٩

(٥) - سورة الرحمن الآية ١٢

(٦) - معجم مقاييس اللغة ٤/٣٢٨ ، مادة(عصف) ، غريب القرآن لابن قتيبة ١/٤٣٧ ، معاني القرآن للفراء ٣/١١٣ ،

تاج العروس ٢٤/١٦٤

(٧) - سورة الفيل الآية ٥

(٨) - معاني القرآن ٣/١١٣

أما الريحان فهو : النبات ذو الرائحة الطيبة من الأزهار والحشائش وهو فعّالان من الرائحة (١) وقيل هو الرزق . وهو قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، وفي رواية عن ابن عباس هو : الزرع (٢) وفي كلا المعنيين فهو رزق لهم .

يذكر الله - سبحانه وتعالى - العباد بنعمه العظيمة عليهم ، ومنها : الحب الذي تحيط به قشوره كسنابل القمح والشعير وغيرها فينتفع به الإنسان والحيوان .

ووصف الله - سبحانه وتعالى - الحب بأنه (ذو العصف) ؛ لينبه على إنعامه عليهم بما يقوتهم وما يقوت أنعامهم . وهذا اعتبار ، وامتنان منه ، و تذكير بالنعمة به وبورقه في حالتيه (٣) ففي هذه الآية منة عظيمة بالنبات الذي يؤكل من قبل الإنسان وأنعامه ، والنبات الذي يمتاز بطيب رائحته فيشرح الصدر ، ويسعد القلب .

ولما كان الريحان يطلق على كل نبت طيب الرائحة خصوصاً ، وعلى كل نبت عموماً ، ذكره الله - سبحانه وتعالى - بعد الحب ؛ ليعم ويخص جميع ما ذكر من سائر النبات وغيره على وجه مذكر بنعمة غذاء الأرواح بعد ذكر غذاء الأشباح (٤)

ويشير امتنان الله - سبحانه وتعالى - على الناس بالريحان إلى أمرين هما :

١ - أن الإنسان كائن أسمى من عالم الحيوان ، ولروحه مطالب لا تقل عن مطالب جسده ، وتعبير القرآن الكريم عنه بلفظ الريحان فيه إشارة إلى أن اتجاه هذا النبت إنما هو إلى الروح ، فالريحان والروح من مادة واحدة لفظاً ، ومعنى (٥)

٢ - أن الريحان هو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ؛ لأن حياته النباتية في نضرة حضرته (٦)

-
- (١) - معاني القرآن ٣/١١٣-١١٤ ، الصحاح ١/٣٧١ ، المعجم الوسيط ١/٣٨١ ، مفردات غريب القرآن ١/٢٠٦
- (٢) - جامع البيان ٢٢/١٧-١٨-١٩ ، تفسير القرآن العظيم ٧/٤٩٠ ، عيون التفاسير ٤ / ١٧٢ ، معجم ألفاظ القرآن القرآن ص ٢٩٥ - ٢٩٦
- (٣) - محاسن التأويل ١٥/٥٦١٦ ، التحرير والتنوير ٢٧/٢٤٢
- (٤) - نظم الدرر ٧/٣٧٧
- (٥) - التفسير القرآني ١٤/٦٦٨
- (٦) - محاسن التأويل ١٥/٥٦١٦

وبعد كل أنواع الطعام والنعم المختلفة للإنسان ، والحيوان بين طعام ، وفاكهة ، وريحان ، وكل هذه من مظاهر رحمة الرحيم الرحمن فبأي وجه من نعم الله تكفر أيها الإنسان . وقد كان ابن عباس - رضي الله عنه - بعد قوله - تعالى - في سورة الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ يقول لا بأيتها يارب ، أي لا نكذب بشيء منها (١) وعن جابر بن عبد الله (٢) - رضي الله عنهما - : قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكّتوا ، فقال : «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » (٣)

ومن الآيات الكريمة التي جاءت في سياق الامتنان على الإنسان بغذائه ، وغذاء أنعامه ، قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٤) والحب : كل ما تضمنه أكام الزرع التي تحصد ، فهو ما يقتات منه الناس ، كالقمح ، والشعير ونحوها .
والنبات : ما تأكل منه الأنعام ، كالكلأ ، والحشيش ، ونحوه .
كما الشعير جمع شعيرة ، وكما التمر جمع تمرة : وأما النبات فهو الكالأ الذي يُرعى ، من الحشيش والزرع (٥)

(١) - تفسير ابن كثير ٢٧٢/٤

(٢) - هو : جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري ، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي - صلى الله عليه وسلم - غزا تسع عشرة غزوة ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم ، روى له البخاري ومسلم ، توفي سنة ٧٨ . ينظر : صفة الصفوة ص ٣٢٨ ، سير أعلام النبلاء ٣ / ١٨٩ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ٢٢٢

(٣) - أخرجه الترمذي في سننه ، باب سورة الرحمن رقم الحديث ٣٢٩١ ، ٣٩٩/٥ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/١٠١ رقم الحديث ٤٤١٧ ، والبزار في مسنده ١٢/١٩٠ برقم ٥٨٥٣ ، وقال الألباني : حسن . ينظر : السلسلة الصحيحة المختصرة ٥ / ١٨٣ ، ح ٢١٥٠ .

(٤) - سورة النبأ الآية ١٤ - ١٦

(٥) - جامع البيان ٢٤/١٥٦ ، بحر العلوم ٣/٥١٥ ، معالم التنزيل ٨/٣١٣ ، الكشف ٤/٦٨٦ ، لباب التأويل

٧/١٩٩ ، فتح القدير ٥/٣٦٥

وأَنْزَلْنَا لَكُمْ - يا بنى آدم - بقدرتنا ورحمتنا - من السحب والغيوم التي أَوْشَكَتْ عَلَى الْإِمْطَارِ ، ماءً كَثِيرًا مُتَدَفِّقًا بِقُوَّةٍ ؛ لِنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ حَبًّا يَقْتَاتُ بِهِ النَّاسُ : كَالشَّعِيرِ وَالْقَمْحِ وَنَحْوَهُمَا ، وَنَبَاتًا تَأْكُلُهُ الدُّوَابُّ كَالْتِبْنِ وَالْحَشِيشِ ، وَبَسَاتِينَ وَجَنَاتٍ مُلْتَفَّةِ الْأَغْصَانِ مُتَنَوِّعَةِ الثَّمَارِ .

وفي ذكر الجنات هنا في سياق الامتنان بالنبات زيادة بيان لتفضله - سبحانه - وإتمام لمنته .
وفي إثارة لفظ جنات إيماء إلى إتمام المنة ؛ لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق ، لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه وجمال المنظر ، ولذلك أتبع بوصف ألفافاً ؛ لأنه يزيد بها حسناً (١)

قوله - تعالى - ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)

يتمن الله - سبحانه وتعالى - على الناس بالدلائل والنعم التي يرونها حولهم ومنها : بسط الأرض لهم ، ثم إخراج الماء والمرعى منها وكل هذا متاع للإنسان والحيوان ، والذي بدوره ينتفع منه الإنسان في شؤون حياته .

وفي قوله - تعالى - ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾

دلالة على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح لأن النار من العيدان ، والملح من الماء وهذا من جوامع الكلم " (٣) وهو كلام وجيز تحته معان كثيرة ؛ فإن الله أوجز المخرج من الأرض في كلمتين ماءها ومرعاها (٤)

(١) - التحرير والتنوير ٢٧/٣٠

(٢) - سورة النازعات الآيات ٣٠-٣٣

(٣) - تأويل مشكل القرآن ٥/١ ، بحر العلوم ٥٢٢/٣ ، التفسير المنير ٤٧/٣٠ ، وذكره بدون نسبة أبو حيان في البحر

الحيط ٤١٥/٨ ، وبنحوه قاله ابن عاشور في التحرير والتنوير ٨٧/٣٠

(٤) - من كل سورة فائدة ص ٣١٥

متاعاً : المتاع : اسم مصدر تمتع ، فهو الالتذاذ والتنعم ، وهو اسم لما يتمتع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان ، فيه معنى التأجيل " متاعاً لكم ولأنعامكم " يعني الحبوب والفواكه منفعة لكم و الكالأ والعشب منفعة لأنعامكم (١)

وفي قوله - تعالى - ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ إدماج الامتنان في الاستدلال ؛ لإثارة شكرهم على النعم فيؤدوها حقها .

ومن تلك النعم نعمة الطعام الذي يتناوله الإنسان ؛ لذا يأمر الله الناس بالتفكر والتأمل فيه ، قال

- تعالى - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا

فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهًا وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ

وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ (٢)

وَقَضْبًا وهو كل ما يؤكل من النبات رطبًا ، كالقثاء والخيار ونحوهما ، وقيل : هو العلف الرطب

الذي تأكله الدواب ، وسمى قضبا ، لأنه يقضب - أى يقطع - بعد ظهوره مرة بعد أخرى ولا

تزال تخلف ما دام المطر ينزل عليها (٣) وأهل مكة يسمون القث القضب (٤)

أبًا : الأب هو التبن ، وما ترعاه البهائم من العشب والنبات (٥) بدليل قوله - تعالى - بعده

﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

والاقتصار على المرعى اكتفاء عن ذكر باقي ما يخرج من الأرض ؛ لأن ذكر المرعى يدل على

لطف الله بالعجماوات الذي يعرف به أن اللطف بالإنسان أحرى بدلالة فحوى الخطاب ،

والقرينة على الاكتفاء قوله بعده ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٦)

(١) - معجم مقاييس اللغة ٥/٢٩٤-٢٩٤ ، مادة (متع) ، تاج العروس ٢٢/١٨٠

(٢) - سورة عبس الآيات ٢٤-٣٢

(٣) - المفردات في غريب القرآن ١/٤٠٦ ، تاج العروس ٤ / ٤٩ مادة (قضب)

(٤) - معاني القرآن للفراء ٣/٢٣٨ ، ونسبه أيضًا لأهل مكة الطبري في جامع البيان ٢٤/٢٢٦ ، والقرطبي ١٩/٢٢١ ،

والرازي في التفسير الكبير ٣١/٦٠ .

(٥) - المفردات في غريب القرآن ١/٨ ، البحر المحيط ٨/٤٢١ ، السراج المنير ٤/٣٥٥ ، مناهل العرفان ٢/٢٧٨

(٦) - التحرير والتنوير ٣٠/٨٧

في هذه الآيات شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه كما أشار لذلك أبو السعود (١) وفي الآية إدماج للمنة والموعظة من خلال الاستدلال بالدليل الحسي وهو الطعام ، فانظر أيها الإنسان وتأمل إلى طعامك الذي تتعيش به كيف صنعه الله - سبحانه وتعالى - لك . وكيف أنبت الله - سبحانه وتعالى في الأرض الحبوب التي تتغذى بها كالحنطة والشعير والأرز ، والأعشاب المتنوعة ، وأنواع البرسيم لأكل الدواب وعلفها .

وختم هذه النعم ببيان الحكمة من الإنبات فقال - تعالى - ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُنْعَمَكُمُ ﴾ أي : جعلنا النعم السابقة متعة لكم ولأنعامكم .

لو تأمل الإنسان ما حوله من مخلوقات لرأى كيف خلقها الله - سبحانه وتعالى - بصورة متوازنة مع غيرها من مخلوقاته ، فقد اقتضت حكمة الخالق بأن يكون لكل كائن حي في هذه الدورة مهمات محددة ، يأخذ بقدر مناسب لحياته وتكاثره ، ويخرج منه ما يتناسب مع كائن حي آخر ، ليشكلا في النهاية دورة متكاملة ، فسبحان الذي قدر كل شئ خلقه ثم هدى .

قال - تعالى - ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾

الغثاء : إذا صار النبات يابسًا فهو غثاء ، كالعُثَاء الذي تراه فوق السَّيْلِ (٣) والأحوى : الذي قد اسودَّ عن العنق والقدم (٤)

في هذه الآيات الكريمة يذكر الله - سبحانه وتعالى - بعض آثار رحمته لمن خلقهم ، فهو - سبحانه وتعالى - من أخرج لكل مخلوق ما يحتاجه من الأرض ، ففي النبات غذاء للناس ، وللحيوان . وفائدة الوصف بأحوى ؛ لاستحضار تغيير لونه بعد أن كان أخضر يانعاً وهذا وذلك دليل على نظام الله في الخلق وفنائهم و أنه - سبحانه - هو من يبدئ ويعيد (٥)

(١) - إرشاد العقل السليم ١١١/٩

(٢) - سورة الأعلى ٣-٥

(٣) - غريب القرآن لابن قتيبة ١/٥٢٤ ، مفردات غريب القرآن ١/١٤٠ ، تاج العروس ٣٧/٤٩٧ ، مادة (حوو)

(٤) - معاني القرآن للفراء ٣/٢٥٦ ، مجاز القرآن ٢/٢٩٥ ، ، مادة (غشو) ، مفردات غريب القرآن ١/٣٥٨ ، تاج

العروس ٣٧/٤٩٧

(٥) - التحرير والتنوير ٣٠/٢٧٨ ، التفسير القرآني للقرآن ١٥/١٥٢٩ ، التفسير الوسيط ١٥/٣٦٣ ، معارج

التفكير ١/٤٥١

من هداية الآيات :

- عظم منة الله على عباده بالماء المبارك المقدر والذي يغيث البلاد والعباد ويحي الأرض بعد موتها.

- نعم الله التي لا تعد ولا تحصى ، و منها النبات الذي يخرج من الأرض والذي فيه منفعة للإنسان ، و لحيوانه المحتاج إليه في طعامه ، و شرابه ، و ركوبه إلى غير ذلك من المنافع .

- العلاقة الوطيدة التي تربط الإنسان بأنعامه منذ الأزل إلى الآن وهي علاقة تقوم على الانتفاع منها فيما أباحه الله ، و تطبيق تعاليم الإسلام برحمتها والعناية بها والتفكر بخلقها وشكر من سخرها له - سبحانه - .

- أعطى القرآن الأنعام أهمية كبرى في القرآن الكريم وكررها - سبحانه وتعالى - في مواضع متفرقة ؛ للتذكير بعظم منة الله فيها على العباد .

- ديننا الإسلامي دين العلم ، و دين العمل ، و دين الرحمة والشمول ، فهذا الدين يهين أذهان الناس لاستقبال العلوم والمعارف وكل ما يستجد في الحياة ، و ما يتمخض عنه العلم من عجائب وأسرار .

- من فضل الله ورحمته - سبحانه - أن لبي احتياج الإنسان للأنعام في منفعه وشؤون حياته المادية كالأكل واللباس والركوب ونحوها بالإضافة إلى المنافع المعنوية ففيها جمال وزينة ، فسبحان الذي خلق العباد وحقق لهم ضرورتهم واحتياجاتهم فضلاً منه ومنة .

المطلب الرابع : الامتحان على موسى ويونس ومريم - عليهم السلام - .

المسألة الأولى : الامتحان على موسى - عليه السلام - :

موسى هو رسول الله إلى بني إسرائيل وصاحب شريعة التوراة ، وهو موسى بن عمران ، ولد بمصر في وقت كان فرعونها يقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل ، فلما ولدته أمه خافت عليه أن يأخذه القبط فيقتلوه ، فقامت أمه بإلقائه في النيل بإلهام من الله - سبحانه وتعالى - ووكلت أخته بتتبع أثره ، فحملته النهر إلى مساكن فرعون ، فأبقاه فرعون عنده ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) وأقر الله عين أمه به فأرضعته هي لرفضه المرضعات ، ونشأ في بيت فرعون ، وحصلت له حادثة قتل القبطي فهاجر من مصر إلى مدين (٢) وتزوج بابنة رجل صالح هناك (٣) وبقي سنوات عشر قضاها عنده أجيلاً ، ثم قرر الرجوع بأهله إلى مصر .

وخلال سيره بأهله إلى مصر ، وفي ليلة مباركة أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يخص موسى - عليه السلام - بكرامته ونبوته وكلامه ، وكان قد ضل طريقه ، وبينما هو على تلك الحال أبصر من جانب الطور ناراً ، فقال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق أو قطعة من النار ؛ لتستدفئوا بها ، فلما ذهب هناك بدأت مرحلة جديدة من حياة هذا النبي الكريم وهي مرحلة النبوة (٤)

(١) - سورة القصص من الآية ٩

(٢) - أرض مدين في مدينة البدع غرباً عن مدينة تبوك في المملكة العربية السعودية وتبعد عن تبوك ٢٢٥ كلم . ينظر : البدع تاريخها وآثارها ، و أهل مدين دراسة للخصائص والعلاقات .

(٣) - وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي - عليه السلام - وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب ، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى، - عليه السلام - بمدة طويلة وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . ثم ذكر ابن كثير رحمه الله عدداً من المرجحات أنه ليس بالنبي شعيب - عليه السلام - . ينظر : تفسير القرآن العظيم ٢٢٨/٦

(٤) - جامع البيان ٥٦٨/١٩ ، معالم التنزيل ٢٠٥/٦ ، الكامل في التاريخ ١٣١/١-١٣٢ ، لباب التأويل ١٧٢/٥ ، السراج المنير ٩٧/٣ ، تيسير الكريم المنان ٩٧/٣ ، التحرير والتنوير ٤٩٨/١ ، وينظر : مع الأنبياء ص ٢١٧-٢٦٧

والطور : جبل بالشام ^(١) وهو بالسريانية ^(٢) طُورَى ، والنَّسب إليه طُورِيٌّ وطُورَانِيٌّ ، و يضاف إلى سيناء ، وفي الرَّوْضِ الْأُنْفِ : الطُّور : كل جبل يُنبِت الشَّجَر ، فإن لم يُنبِت شيئاً فليس بطور ^(٣) و قيل : إنه هو الجبل الذي بمدین الذي كلم الله - تعالى - موسى - عليه السلام - عليه تكليماً ^(٤)

فبعث الله موسى عليه السلام وأوحى الله - سبحانه وتعالى - إليه وناداه إني أنا الله رب العالمين ، وأمدّه - سبحانه - بالآيات ، والسلطان المبين ، وشدَّ عضد موسى بأخيه هارون فجعله نبياً من الصالحين .

والتكرير أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة ، وله فوائد : منها التقرير ، وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر ، وقد تبه - تعالى - على السبب الذي لأجله كرر الأفاصيص والإنذار في القرآن كما قال - تعالى - ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٥) ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ^(٦) ^(٧)

(١) - سميت بذلك لكثرة قراها ، وتدابي بعضها من بعض فشبهت بالشامات سميت الشام بسام بن نوح - عليه السلام - وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السين شيئاً ؛ لتغير اللفظ وحدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وبها من أمهات المدن منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق . ينظر : أحسن التقاسيم ١٤٠/١ معجم البلدان ٣/٣١٢

(٢) - هي لغة من اللغات السامية التي نزلت التوراة بها والإنجيل ، وهي اللغة التي تكلم بها المسيح - عليه السلام - ويقال لها أيضا الأرامية وكانت اللغة الدارجة في سائر بلاد فلسطين زمن المسيح ، ولا زالت موجودة في بعض القرى السورية وذكر صاحب اللباب عن ابن سلام سبب تسميتها بهذا الاسم وهو : أن الله - سبحانه وتعالى - حين علم آدم الأسماء علمه سرّاً من الملائكة ، وأنطقه بها حينئذ ، فسُمِّيتِ السريانية لذلك ، والله أعلم . ينظر الجامع لأحكام القرآن ٦/٤ ، اللباب في علوم الكتاب ٢٥١/٨ ، السوربون والحضارة السريانية ص ٢٤ ، ص ٥٧ ، ص ٧٠ ، وينظر : اللمعة الشهبية في نحو اللغة السريانية ص ٩

(٣) - معجم مقاييس اللغة ٣/٤٣٠ ، مفردات غريب القرآن ١/٣٠٩ ، تاج العروس ١٢/٤٤٠ ، مادة (طور) ، المعجم الوسيط ٢/٥٧٠

(٤) - معاني القرآن للفراء ٣/٩١

(٥) - سورة القصص الآية ٥١

(٦) - سورة طه من الآية ١١٣

(٧) - البرهان ٣/١٠ ، الإتيان ٥/١٦٤٨ ، وينظر : فيض الرحمن ص ٥٧٧

الشط : هو جانب الوادي وعدوته ، والشاطيء يجمع شواطيء وشطآن. والشطّ: الشُّطوط، والأيمن: نعت من الشاطيء عن يمين موسى ، وشاطيء الوادي وشطه جانبه ، والجمع شيطان وشواطيء (١)

من جانب الوادي الذي عن يمين موسى في البقعة المباركة (٢) فالأيمن صفة الشاطيء ، وهو ضد الأيسر ، وجوز أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليمن والبركة ، ضد الأشأم ، وعليه ، فيجوز كونه صفة للشاطيء أو الوادي (٣)

مِنَ الشَّجَرَةِ بدل اشتمال (٤)

من شاطيء الوادي لأنّ الشجرة كانت ثابتة على الشاطيء (٥)

قال البقاعي (٦) : ولعلّ الشجرة كانت كبيرة فلما وصل إليها دخل النور من طرفها إلى وسطها فدخلها وراءه بحيث توسطها فسمع وهو فيها الكلام من الله تعالى حقيقة وهو المتكلم - سبحانه وتعالى - لا الشجرة (٧)

(١) - جامع البيان ٥٧٢/١٩ ، الصحاح ٥٧/١ ، مادة (شطأ) ، معجم مقاييس اللغة ١٨٥/٣ ، المفردات في غريب

القرآن ٢٦١/١ ، تاج العروس ٢٨٢/١ ، المعجم الوسيط ٤٨٢/١

(٢) - جامع البيان ٥٧٢/١٩ ، بحر العلوم ٦٠٧/٢ ، تفسير البغوي ٢٠٦/٦ ، لباب التأويل ١٧٢/٥ ، روح المعاني ٧٣/٢٠ .

(٣) - روح المعاني ٧٣/٢٠

(٤) - قيل في تعريفه أقوال منها : أنه بدل شيء من شيء يشتمل عامله على معناه اشتمالاً بطريق الإجمال ، ك(أعجبنى زيد علمه) . أوضح المسالك ٣٥٧/٣ ، وللأقوال الأخرى ينظر : توضيح المقاصد ١٠٣٧/٢ ، شرح شذور الذهب ٧٨٨/٢ ، التحفة السننية ص ١٢٠ .

(٥) - الجامع لأحكام القرآن ٢٨١/١٣ ، اللباب ٢٤٩/١٥ ، السراج المنير ٩٧ / ٣ ، إرشاد العقل السليم ١٢/٧

(٦) - هو : إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي ، أبو الحسن ، مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية ، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة ، من مصنفاته : (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) و (عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران) وتوفي بدمشق سنة ٨٨٥. ينظر : مفاكهة الخلان ص ٢٣ ، طبقات المفسرين للأدنروي ١ / ٣٤٧ ، الأعلام ٥٦ / ١

(٧) - نظم الدرر ٤٨٢/٥ ، يراجع جواب شيخ الإسلام ابن تيمية على قول من قال : إن الله لم يكلم موسى حقيقةً في مجموع الفتاوى ١٢ / ٥٠٢

قال القشيري (١) : وحصل الإجماع على أنه - عليه السلام - سمع تلك الليلة كلام الله - تعالى - ولو كان ذلك نداء الشجرة لكان المتكلم الشجرة (٢) والبقعة : اسم للقطعة من الأرض التي تكون غير هيئة القطعة المجاورة لها وجمعها بقع - بضم الباء وفتح القاف - وبقاع (٣) وبركة البقعة ؛ لما وقع فيها من أنواره تعالى ، وتكليمه لموسى - عليه السلام ، وإظهار المعجزات والآيات على يديه ، وما خصت به من آيات الله تعالى (٤) من الشجرة : يعني من ناحية الشجرة .

ولم ينص على نوعها ، ولعل التنصيص على الشجرة ، للإشارة إلى أنها كانت الوحيدة في ذلك المكان .

وقد اختلفت أقوال المفسرين حول تحديد نوعها .

قال ابن مسعود : " كانت سمرة (٥) خضراء تبرق " ، وقال مقاتل وغيره : هي من العوسج (٦) (٧) ، وقيل كانت من العليق (٨)

(١) - هو : عبد الكريم بن هوازن النيسابوري القشيري ، أبو القاسم ، شيخ خراسان في عصره ، زهدا وعلمًا بالدين . كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها . وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه . من كتبه (التيسير في التفسير) ، (لطائف الإشارات) توفي سنة ٤٦٥ . ينظر : الأنساب ٤ / ٥٠٣ ، وفيات الأعيان ٣ / ٢٠٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ١٥٣ ، فاكهة الخلان ص ٢٣

(٢) - نظم الدرر ٤٨٢/٥ ، السراج المنير ٣ / ٩٧ ، ولم أجد قوله في لطائف الإشارات .

(٣) - معجم مقاييس اللغة ٢٨١/١ ، مادة (بقع) ، المخصص ٤٤/٣ ، المعجم الوسيط ٦٦/١

(٤) - بحر العلوم ٦٠٧/٢ ، معالم التنزيل ٦/٢٠٦ ، المحرر الوجيز ٤/٢٨٧ ، التفسير الوسيط ١٠/٤٠٢

(٥) - عند الطبري : شجرة سمراء خضراء ترف . والسمرة : شجرة من العضاة ، وهي ضربٌ من شجر الطَّلح ، واحدته سَمْرَة ، ويمكن أن يكون سَمِّيَ بذلك لونه ، وهي من جيد الخشب ، والجمع سمر وسمرات . ينظر ، معجم مقاييس اللغة ٣/١٠١ مادة (سمر) ، لسان العرب ٣/٢٠٩٢ مادة (سمر) .

(٦) - العوسج : هو شجر شائك الأغصان ، كثير الشوك ، من الفصيلة الباذنجانية ، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق . واحدته عوسجة وهو ضروب منه ما يثمر ثمرًا أحمر يقال له المقنع فيه حموضة . ينظر : المخصص ٣/٢٥٨ ، لسان العرب ٢/٣٢٤ ، مادة (عسج) ، تاج العروس ٦/١٠١ ، المعجم الوسيط ٢/٦٠٠ .

(٧) - تفسير مقاتل ٢/٤٩٦

(٨) - العليق : شجر من شجر الشوك لا يعظم . وإذا نشب فيه شيء لم يكن يتخلص منه من كثرة شوكة . ولذلك سمي عليقًا . ينظر : لسان العرب ١٠/٢٦١ ، مادة علق .

وعن ابن عباس إنها العناب (١) وهي شجرة لا نار فيها بخلاف غيرها من الأشجار (٢) قال مجاهد : عند الطور عن يمين موسى (٣) فلما جاء موسى وجد النار تضطرم في شجرة خضراء في حف (٤) الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتًا في أمرها ، فناداه ربه - سبحانه - ﴿ فَلَمَّا

أَتَاهَا نُودِيٌّ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسِيَّ إِنِّي

أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) وورد في سورة طه ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيٌّ يَمْوَسِيَّ ﴾ (٦) وقال

(٦) وقال - تعالى - في آية أخرى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيٌّ أَنْ بُورِكَ مِنَ الْوَادِ وَمَنْ حَوْلَهَا

وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧)

وقد جاءت مناداته الله - سبحانه وتعالى - لموسى - عليه السلام - في هذه السور الثلاث مختلفة الألفاظ فيما بينها ، لكن لا منافاة بينها ؛ إذ حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء ، فهو موافق له في المعنى المراد .

والجمهور : على أنه تعالى كلمه في هذا المقام من غير واسطة (٨)

وورد اسم المكان الذي كلم الله - سبحانه وتعالى - فيه موسى - عليه السلام - وأنه طوى وأمره بخلع نعليه سمو بذلك المكان أن تلبس فيه النعال ، وسموا بموسى أن يكون في هذا الوقت الكريم الذي أحيط فيه بالفيوضات الربانية لا بسًا نعليه (٩)

(١) - جامع البيان ٥٧٣/١٩ ، معالم التنزيل ٢٠٦/٦ ، المحرر الوجيز ٢٨٧/٤ ، البحر المحيط ١١١/٧ ، تفسير القرآن

العظيم ٢٣٤/٦ ، السراج المنير ٩٧/٣ ، فتح القدير ١٧٠/٤ ، روح المعاني ٢٨٢/١٠

(٢) - روح البيان ٢٨٤/٥

(٣) - تفسير مجاهد ٤٨٥/٢

(٤) - واللَّحْفُ بالكسر : أضلُّ الجبل . ينظر : الكشف والبيان ٢٧٨/٢ ، البحر المحيط ٣٢٩/٢

(٥) - سورة القصص الآية ٣٠

(٦) - سورة طه الآية ١١

(٧) - سورة النمل الآية ٨

(٨) - البحر المحيط ١١٢/٧

(٩) - تاريخ الأنبياء ص ١٨٩

وفي قوله - تعالى - ﴿ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ يُلمح ملحظ البركة في اختيار الجانب الأيمن للموضع الذي تجلّى فيه الله - سبحانه - لموسى - عليه السلام - في الاستعمال القرآني (١) وقد ألفت العرب استعمال اليمين في كل ما فيه بركة وتفاؤل وقوة .

وقد نقل ابن كثير في تفسيره روايةً للحديث الطويل الذي رُوي عند تفسير سورة الإسراء وفيه : " ... ثم بلغنا أرضاً قال : انزل ثم قال : صل فصليت ، ثم ركبنا فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم . قال : صليت بمدين عند شجرة موسى ... " (٢)

ثم ذكر ابن كثير : ولا شك أن هذا الحديث مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح ، ومنها ما هو منكر ، كالصلاة في بيت لحم (٣) ، ونعت بيت المقدس (٤) ، وغير ذلك (٥) ومن الامتنان على موسى - عليه السلام - الامتنان على قومه بعدة أمور ، منها :

الامتنان عليهم بإنزال المن والسلوى :

قال - تعالى - ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٦)

(١) - التفسير البياني ١٨٩/١

(٢) - أخرجه البزار في مسنده ٤١٠/٨ ، والطبراني في المعجم الكبير ٢٨٢/٧ ، ح ٧١٤٢ وقال عنه في دلائل النبوة : " هذا " هذا الإسناد صحيح ، وروي ذلك مفرقاً في أحاديث غيره ٣٥٧/٢ ، وينظر : الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٣/١ ، وينظر : تعليق الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله في موقعه الرسمي ، من إملاءات الشيخ على " التحفة الكريمة في بيان بعض الأحاديث الموضوعية والسقيمة " .

(٣) - بالفتح وسكون الحاء المهملة بليد قرب البيت المقدس عامر حفل فيه سوق وبازارات ، وبأرض منها ولد المسيح عليه عليه السلام ، وبها النخلة التي تساقطت على مريم رطباً جنياً ، والسري الذي جعل الله تحتها فشرت منه وتطهرت به ، والمهد الذي جعلت فيه المسيح حين ولده ، وهو حوض أبيض غسلته فيه وهو قريب من العين . ينظر : معجم البلدان ٥٢١/١ ، الروض المعطار ١٢٣/١

(٤) - مدينة كبيرة قديمة جلييلة على جبل يصعد إليها من كل جانب . يلياء بكسر أوله واللام وباء وألف ممدودة اسم مدينة مدينة بيت المقدس قيل معناه بيت الله وأول من بنى بيت المقدس وأري موضعه يعقوب ، وقيل داود عليهما السلام ، ينظر : أحسن التقاسيم ١٥٣/١ معجم البلدان ٢٩٣/١ ، الروض المعطار ٦٨/١ ، ٥٥٦/١

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٢٧/٥

(٦) - سورة البقرة من الآية ٥٧

وقوله - سبحانه - ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى ﴾ (١)

والظاهر أن هذه النعمة كانت فترة التيه ، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله - تعالى - ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) عندما شكوا إلى موسى - عليه السلام - الجوع والعطش فأنزل عليهم المن والسلوى . كما جاء عند المفسرين (٣)

واختلف المفسرون في المراد بالمن والسلوى على أقوال ، منها :

المن هو : اسم جنس لا واحد من لفظه ، وهو : التزنجبين ، ويقال الطرنجبين بالطاء ، وعليه الأكثرون (٤) ولم يذكر بعض المفسرين غير هذا المعنى (٥)

وقيل : مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل ، وقيل : هو شراب كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء ، وقيل : عسل كان ينزل عليهم ، وقيل : هو خبز الرقاق (٦) وقيل : "المن" مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من طعام وشراب ، وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد (٧) واستظهره ابن كثير ، وقال : فالمن الشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً ، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده ، ثم استدل بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح - : "الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين" (٨)

(١) - سورة طه من الآية ٨٠

(٢) - سورة المائدة الآية ٢٦

(٣) - بحر العلوم ٨١/١ ، معالم التنزيل ٩٧/١ ، البحر المحيط ٣٧٤/١ ، مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن ١ / ٣٣

(٤) - معالم التنزيل ٩٧/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٠٦/١ ، لباب التأويل ٦٣/١ ، روح المعاني ٢٦٤/١

(٥) - الكشف ١٤٢/١ ، التفسير الكبير ٥٢٢/٣

(٦) - جامع البيان ٩١/١-٩٧ ، الكشف والبيان ٢٠٠/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٠٦/١ ، اللباب ٨٨/٢ ، البحر

المحيط ٣٧٤/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٦٧/١ ، وينظر : فتح الباري ١٦٤/٨ ، الدر المنثور ١ / ٣٧٢

(٧) - تفسير القرآن العظيم ٢٦٨/١ ، ينظر بحث : من الطب الشعبي من مجلة البحث العلمي ص ٣٦٣

(٨) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : { وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى } ،

ح ٤٤٧٨ ، ص ٣٦٧ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الأشربة ، باب : فضل الكمأة ومداوة العين بها ، ح ٥٣٤٢ ، ص

١٠٤٣ ، كلاهما من حديث سعيد بن زيد - رضي الله عنه - .

في رواية " الكمأة من المن الذي أنزل الله - عز وجل - على بني إسرائيل ، وماؤها شفاء للعين " (١)

وبعض الأقوال متقاربة ، كقول من عرّفه بأنه مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل ، ومن قال : هو شراب كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء ، ومن قال : هو عسل كان ينزل عليهم .

وقيل : أنّ المنّ الذي أنزل على بني إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط ، بل أشياء كثيرة منّ الله عليهم بها من النبات الذي يُوجد عفواً من غير صنعة ولا علاج ولا حرث ، فإنّ المن مصدر بمعنى المفعول أى "ممنون" به فكل ما رزقه الله العبد عفواً بغير كسب منه ولا علاج، فهو منّ محضٌ ، وإن كانت سائر نعمه منّا منه على عبده ، فخصّ منها ما لا كسب (٢)

أما السلوى فهو اسم جنس جمعى ، وهو طائر بري لذيذ الطعم ، يشبه السمانى وأكبر منه كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساءً ، فيمسكونه قبضاً بدون تعب . وهو قول ابن عباس وعامة المفسرين ، وقالوا : كانوا يأخذونها ويدبحونها .

والسلوى ، واحده وجماعه بلفظ واحد ، وقيل : هو السمانى بعينه ، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سمياً ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه ، وقيل : إن السلوى العسل (٣). ونقل ابن عطية إجماع المفسرين على أن السلوى طير ، وغلّط من قال : إن معناه العسل (٤)، وردّ عليه القرطبي بأن الإجماع الذي ذكره لا يصح ، واستدل بقول أحد علماء اللغة والتفسير ، وكذلك السلوى هو العسل بإحدى لغات العرب (٥)

(١) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الأشربة ، باب : فضل الكمأة ومداواة العين بها ، ح ٥٣٤٥ ، ص ١٠٤٤ ، من حديث سعيد بن زيد .

(٢) _ زاد المعاد ٣٦١/٤

(٣) - جامع البيان ٩٦/٢ ، بحر العلوم ٨١/١ ، معالم التنزيل ٩٨/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٠٧/١ ، البحر المحيط ٣٧٤/١ ، اللباب ٨٩/٢ ، تفسير القرآن العظيم ٢٧٢/١ ، إرشاد العقل السليم ١٠٤/١

(٤) - المحرر الوجيز ١٤٩/١٠

(٥) - الجامع لأحكام القرآن ٤٠٧/١

ويظهر من جميع الأقوال السابقة في التعريف بالمن والسلوى أن كليهما رزق من الله - سبحانه وتعالى - لهم من دون نصب ولا تعب ، وأن الله - سبحانه وتعالى - جمع لهم بين اللحم والحلوى .

ومع توالي النعم استمروا في جحودها وطلب غيرها ، ويظهر منهم هذا عندما طلبوا استبدال المن والسلوى بما تخرج الأرض ، ويحكي القرآن الكريم قصتهم ، فيقول - سبحانه - ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي لَنْ نَّضْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِبِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ﴾ (١)

تتحدث الآيات عن تعنت بني إسرائيل و مدى فساد أذواقهم ، والنزق الذي استولى على طباعهم حتى جحدوا نعم الله - تعالى - الكثيرة عليهم .

وهذا الكلام منهم عندما كانوا في التيه حين ملوا المن والسلوى (٢)

قال الحسن : كانوا نتاني أهل كراث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء واشتأقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم (٣)

فبعد أن أسبغ عليهم الله - عز وجل - نعماءه أنكروا ، وجحدوها ، وطلبوا تبديلها . بأسلوب يشي بما هم عليه من تعنت وسوء تدبير وقلة إيمان ، ويظهر ذلك من أمور ، منها :

- قولهم ﴿ يَمْوِسِي ﴾ بدل يا نبي الله .

- وقولهم ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ ﴾ بدل ادع الله عز وجل لنا .

- وقولهم ﴿ لَنْ نَّضْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ ﴾ حيث استخدموا حرف النفي لن يشي بشدة كرههم وتضجرهم من الطعام الذي يأكلونه ووصفه بالواحد ، بل وتهديدهم لنبيهم - عليه السلام - بتركه .

فالتعبير بـ لن المفيدة لتأييد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده ، فإن التأييد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء

(١) - سورة البقرة من الآية ٦١

(٢) - جامع البيان ١٢٤/٢ ، زاد المسير ٨٨/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٢٢/١ ، لباب التأويل ٦٥/١

(٣) - الكشف والبيان ٢٠٤/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٢٢/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٨٠/١ ، فتح القدير ٩١/١

الأبد أولها وآخرها (١)

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها (٢)

فوبخهم نبي الله موسى - عليه السلام - بقوله : أتستبدلون نعمة الله وتختارون الأدنى من الطعام .
ومن الأصناف التي طلبوها من الخارج من الأرض :

" البقل " : كل ما تنبتة الأرض من النَّجم ، أي : ما لا ساق له ، وجمعه " بُقول " ، والمراد به أطيب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكرث وأشباهاها (٣)

وقثائها ، القثاء : أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة نحو القثاء والبطيخ ، وهو الخيار والقثة ، ونحوها (٤) ، وقرئ (و قثائها) بالضم ، والكسر أجود (٥)

والفوم : وقد اختلف فيه على أقوال ثلاثة ، فقيل : الحنطة ، وقيل : الخبز ، وقيل : الثوم ؛ لأنه المشاكل للبصل ، وإبدال الثاء فاءً شائع في كلام العرب ، ووردت قراءة بإبدال الفاء ثاء ، فالفوم بمعنى الثوم أظهر وأوفق (٦)

والعدس والبصل : المعروفان .

والبصل وإن كان من الثمرات إلا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نهى عن أكله ، وجاء وصفه بأنه خبيث ، وأنه شجرة منتنة ، وقال عنه - عليه الصلاة والسلام - في رواية " من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا أو ليقعد في بيته " (٧)

(١) - التحرير والتنوير ٥٢٢/١

(٢) - إغائة اللهفان ٣٠٩/٢

(٣) - الكشاف ١٤٥/١ ، المحرر الوجيز ١٥٣/١ ، اللباب ١١٥/٢

(٤) - بحر العلوم ٨٤/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٢٥/١ ، البحر المحيط ٣٨٠/١ ، روح المعاني ٢٧٥/١

(٥) - زاد المسير ٨٨/١ ، التفسير الكبير ٥٣٢/٣ ، إملاء ما من به الرحمن ٣٩ / ١

(٦) - النكت والعيون ١٢٨/١ ، زاد المسير ٨٨ / ١ ، التفسير الكبير ٥٣٢/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٢٥/١ ، البحر

المحيط ٣٨٠/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٨٠/١ ، اللباب ١١٦/٢ ، لباب التأويل ٦٥/١ ، روح المعاني ٢٧٥/١

(٧) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الأذان ، باب : ما جاء في الثوم النيء والبصل والكرث ، ح ٨٥٥ ، ص

٦٧ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كرثًا أو نحوها مما له

رائحة كريهة عن حضور المسجد ، ح ١٢٥٣ ، ص ٧٦٤

وقد أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بإماتتهما طبعًا (١) وله فوائد جمعة ذكر بعضها ابن القيم (٢)

(١) - صحيح مسلم ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا أو نحوها مما له رائحة كريهة عن حضور المسجد ، ح ١٢٥٨ ص ٧٦٥

(٢) - زاد المعاد ٤/٢٩٠ ، وينظر : العلاج الطبيعي والنباتي ص ١١٤

من هداية الآيات :

- تكررت قصة موسى - عليه السلام - في القرآن وكَثُرَ تعداد النعم الكثيرة التي أنعمها الله - سبحانه وتعالى - على موسى من مولده وخلال مراحل عمره ، وماخصّه به من تكليم ، وما أنعم به على قومه بني إسرائيل .

وفي التذكير بتلك المنن السابقة ؛ تقوية لقلبه - عليه السلام - ، وليعلم أن الله - سبحانه - مؤيده وناصره ومنقذه .

- وفاء كلّم الله موسى - عليه السلام - حيث أتم الأجلين مع الرجل الصالح ، كما ورد في صحيح البخاري فعن سعيد بن جبير قال : سألتني يهودي من أهل الحيرة (١) : أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري ، حتى أقدم على حبر العرب (٢) فأسأله ، فقدمت ، فسألت ابن عباس ، فقال : قضى أكثرهما ، وأطيبهما ، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قال فعل " (٣)

وهذه الصفة من خصال الأنبياء - عليهم السلام - كما قال الله تعالى عن نبي الله إسماعيل

- عليه السلام - ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٤)

- بركة البقعة التي كلم الله - سبحانه وتعالى - فيها موسى - عليه السلام - وفضلها ؛ لما خصت به من آيات وأنوار الله تعالى وتكليمه - سبحانه - موسى - عليه السلام - .

- تردد ذكر الخوف في قصة موسى بصيغ مختلفة ومواقف متفرقة . ومنها : الخوف الذي أحسه - عليه السلام - عندما شاهد النار في الشجرة ، فهذا الخوف الذي اعتراه يعتبر خوفًا طبيعيًا ولا يلام عليه ؛ فهو بشر ، فالخوف غريزة في الإنسان ولا تنافي الشجاعة .

وقصته - عليه السلام - مع فرعون ، ومع بني إسرائيل حافلة بالشجاعة الفائقة في الوغى ، وميادين القتال ، وكذلك الشجاعة الأدبية : وهي التعبير عن الرأي الصحيح ، والاعتراف بالخطأ ،

(١) مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى ، تقع على ثلاثة أميال من الكوفة ، وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية وبها الخورنق . ينظر الروض المعطار ٢٠٧/١ ، معجم البلدان ، مرصد الاطلاع ٤٤١ / ١

(٢) - والحبر - بفتح الحاء وكسرهما - العالم وجمعه أحبار . ينظر : المخصص ٣٨٣/١ ، مفردات غريب القرآن ٢٥٣/١ ، القاموس المحيط ٤٧٢/١ ، تاج العروس ٥٠٣/١٠ ، مادة (حبر)

(٣) - كتاب الشهادات ، باب من أمر بإنجاز الوعد ، ح ٢٦٨٤ ص ٢١٣

(٤) - سورة مريم الآية ٥٤

والصدع بالحق فكلها شجاعة وأي شجاعة .

- لجوء موسى - عليه السلام - إلى الله دائماً وعند الخوف خاصةً ، وطلبه العون والمدد منه - سبحانه - ولزوم التقوى ، واستحضار معية الله الخاصة ، فهي أعظم باعث للشجاعة وهي الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة ، ودرس لنا يبيّن الكيفية التي نتعامل بها مع الخوف ، وتبين منها عظم ما لاقاه من فرعون وقومه من جهة ، وما لاقاه من قومه بني إسرائيل الذين امتازوا على مر العصور بنقض العهود والنكوص عن الحق ، وقابل كل ذلك - عليه السلام - بالصبر ، والحكمة ، والشدة في موضعها (١)

- إعانة الله - سبحانه وتعالى - لموسى وشد أزره بالمعجزات وأخيه هارون - عليهما السلام ومن ذلك نأخذ فائدة تربوية وهي إذا كلف أحد أحداً بمهمة فعليه توضيح المطلوب منه أوضح بيان ، وتسهيلها له وإعانتة عليها .

- استحسان الوعظ والتذكير بنعم الله - تعالى - والتحذير من كفر النعم وغضب الله - سبحانه وتعالى - .

_ ذم الأخلاق السيئة ، والتنديد بأهلها للعظة والاعتبار منهم والحذر مما أصابهم .

- انحطاط همم بني إسرائيل ، فطلبهم الأدنى دليل على سفههم وعدم صبرهم على ما من به الله عليهم (٢)

- هزيمة الباطل أمام الحق معها استعلى واستقوى ، فقصة هزيمة فرعون أمام موسى عليه السلام دليل واضح على ذلك .

- في قصص الأنبياء وأقوامهم : دعوة إلى النظر في التاريخ القديم نظرة استفادة وعبرة ، ودراسة لعوامل البقاء والفناء للأمم السابقة .

(١) ومضات ص ١١ - ١٩

(٢) - أحكام من القرآن الكريم ١ / ١٨١

الامتنان على يونس - عليه السلام - :

المسألة الأولى : قصة يونس مع قومه :

ذكر نبي الله يونس - عليه السلام - في القرآن في مواضع متفرقة ، منها ما ورد فيها باسمه في أربع آيات (١) ، وما ذكر بوصفه في آيتين (٢) وسمي بذئ النون لالتقام الحوت له ، أمّا في السنة فقد ورد باسمه وهو : يونس بن متى (٣)

بعثه الله إلى أهل نَيْنَوَى (٤) ؛ لدعوتهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام .

فأقام فيهم يدعوهم ، فلم يؤمن معه إلا رجلين ، فغاضه فعلهم ، وعدم إيمانهم ، وأنذرهم العذاب ، وخرج من بينهم ، فلما تيقنوا الهلاك تابوا إلى الله فقبل منهم - سبحانه - الإيمان وهم الأمة الوحيدة التي نفعها إيمانها .

فلما وصل إلى شاطئ البحر ركب سفينةً فحدثت عاصفة احتاجوا أن يلقوا أحدًا منهم في البحر ، فساهم يونس فخرجت القرعة عليه مرات ، فألقوه في البحر فالتقمه الحوت بأمر الله ، ثم أنجاه الله وأنعم عليه بالنجاة من بطن الحوت وقبول التوبة (٥)

ووردت أحاديث تبين فضل نبي الله يونس - عليه السلام -

ومنها مارواه ابن عباس - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما ينبغي لعبد

(١) - في سورة النساء الآية ١٦٣ ، الأنعام الآية ٨٦ ، يونس الآية ٩٨ ، الصفات الآية ١٣٩

(٢) - سورة الأنبياء الآية ٨٧ ، القلم الآية ٤٨

(٣) - اختلف في نسبه هل هو لأبيه أو أمه ، وقد رجح ابن حجر في فتح الباري أنه اسمه لأبيه ؛ للحديث الوارد في ذلك عن ابن عباس والذي أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ، ح ٣٤١٣ ، ص ٢٧٨ . ينظر : فتح الباري ٦/٤٥١

(٤) نَيْنَوَى : أرض تقابل الموصل ، بينهما دجلة ، وهي مدينة أيوب - عليه السلام - وهي عامرة ، وليس بهذه المدينة أشجار . ينظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٦٧ ، الأنس الجليل ١/١٥٦ ، الروض المعطار ١/٥٨٥ ، رحلة ابن بطوطة ص ٢٣٥ ، مرصد الاطلاع ٣/١٤١٤

(٥) - تفسير مقاتل ٣/١٠٧ ، معالم التنزيل ٧/٦١ ، الكامل في التاريخ ١/٢٧٨ ، لباب التأويل ٦/٣٦ ، البحر المحيط ٧/٦٠ ، اللباب ١٦/٣٤٧ الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٢٩ ، السراج المنير ٣/٣٢١ ، فتح القدير ٤/٤١١ ، التحرير والتنوير ٦/٣٤ ، مع الأنبياء ص ٣٠٦ - ٣١٠

أن يقول أني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه (١)

المسألة الثانية : نبي الله يونس - عليه السلام - وشجرة اليقطين :

ورد ذكر نوع من الأشجار في سياق الامتنان على نبي الله يونس - عليه السلام - في قوله -

تعالى - ﴿ فَبَدَّنْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقِطِينَ ﴾ (٢) قال أهل

اللغة العراء : هو المكان الخالي من البناء ، والشجر ، والنبات .

سقيم : أي مريض . والسقم هو : المرض المختص بالبدن . فهو عليل مما ناله من التقام الحوت (٣)

اليقطين : يفعيل كاليفصيد ، من قطن : أقام بالمكان ، وهو بالمكان (٤) وهي شجرة ذات أصل

مثل الدباء (٥) ، كثيرة الورق ، تتسلق أغصانها في الشيء المرتفع .

واليقطين هو الدُّبَاءُ أو القرع ، الواحدة قرعة ، وأكثر ما تسميه العرب : الدُّبَاءُ ، وقل من يستعمل

القرع . وفي اللغة أعم : فكل ما ليس له ساق فهو يقطين .

قال الطبري وأبو عبيدة والزجاج والواحد وغيرهم : اليقطين كل ما لم يكن له ساق من عُود

كالقَثَاءِ وَالْقَرَعِ وَالْبَطِيخِ وَالْحَنْظَلِ (٦)

قيل عند ابن عباس : هو ورق القرع . فقال : وما جعل ورق القرع من بين الشجر يقطيناً ! كل

ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين (٧) فاليقطين أعم .

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : { وإن يونس لمن المرسلين } ، ح

٣٤١٣ ، ص ٢٧٨ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الفضائل ، باب : في ذكر يونس عليه السلام ، وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى " ، ح ٦١٦٠ ، ص ١٠٩٥ .

(٢) - سورة الصافات الآيات ١٤٥ - ١٤٦

(٣) - مفردات غريب القرآن ٢٣٥/١ ، بحر العلوم ١٤٥/٣ ، الوجيز ٩١٤/١ ، مدارك التنزيل ٢٥/٤ .

(٤) - البحر المحيط ٣٤٥/٧ ، تاج العروس ٣٦/٦ مادة (قطن) ، روح المعاني ١٣٩/١٢

(٥) - هو اليقطين أو القرع ، الواحدة قرعة ، وأكثر ما تسميه العرب : الدُّبَاءُ ، وقل من يستعمل القرع . قال جماعة من

اللغويين : أن القرع هو الدباء ، وقيل : الدُّبَاءُ : المستدير منه ، وقيل : اليابس . والقَرْعُ : حَمْلُ اليقطين . ينظر : معجم مقاييس

اللغة ٢٦٣/٢ ، مادة (دب) ، فيض القدير ٧١٧/٣ ، حاشية السندي ١٠٢/٢ ، تاج العروس ٣٩٧/٢ ، مادة (دب) ، شرح

سنن ابن ماجه ٢٣٧/١

(٦) - جامع البيان ١١٢/٢١ ، مجاز القرآن ١٧٥/٢ ، معاني القرآن للفراء ٣١٤/٤ ، الوسيط في التفسير ٥٣٣/٣

(٧) - معاني القرآن للفراء ٣٩٣/٢ ، ونقل قوله الأزهرى في تهذيب اللغة ٢٧٤/١ ، وابن منظور في لسان العرب

٣٤٢/١٣ ، والزبيدي في تاج العروس ٦/٣٦

والأكثر على أنها الدباء أو القرع ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، وبجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم (١) ورجحه ابن حجر بقوله : "والمشهور أنه القرع" (٢) ومنهم من قال : إنها التين أو الموز (٣) وصدّرها بقليل .
والذي يظهر عدم تحديد هذه الشجرة ، فاليقطين كل شجرة لا تقوم على ساق فهي : يقطين من قطن إذ أقام بالمكان .

فمن فسّر اليقطين بالقرع والدُّبَاء بناء على معنى اليقطين العام ، أما من قال : إنها الموز أو التين فأظنها بعيدة عن المعنى - والله أعلم - .

وذكر الألوسي (٤) أن في تسمية الشجرة باليقطين إشكالاً (٥) ؛ فالشجر عند العرب ماله ساق ، ساق ، أما اليقطين فهو عندهم ما لا ساق له ، فكيف قال الله - تعالى - ﴿ شَجَرَةٌ مِّنْ

يَقِطِينَ

وأجاب أبو حيان بأنه يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة (٦)
وذكر البقاعي قولاً مقارباً ، فقال : " واليقطين من النجم ، فلما أعظمها الله - سبحانه وتعالى - ليونس - عليه السلام - عبّر عنها بما له ساق وهي الشجرة ، ونص - سبحانه - على خرق العادة بتحديدتها بقوله - تعالى - ﴿ شَجَرَةٌ مِّنْ يَقِطِينَ ﴾ أي من الأشجار التي تلزم الأرض ، وتقطن فيها ، وتصلح لأن يأوي إليها حتى يصلح حاله ، فصارت عليه كالعريش " (٧)

(١) - تفسير مجاهد ٢/٢٤٥ ، تفسير مقاتل ٣/١٠٨ ، جامع البيان ٢١/١١٤ ، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٣٠ ، بحر العلوم ٣/١٤٥ ، معالم التنزيل ٧/٦١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٢٨ ، فتح الباري ٩/٩٢٥ ، تفسير القرآن العظيم ٧/٤٠ ، فتح القدير ٤/٤١١ ، التحرير والتنوير ٢٣/١٧٧

(٢) - فتح الباري ٦/٤٥١

(٣) - البحر المحيط ٧/٣٥٩

(٤) - هو : محمود بن عبد الله الحسيني ، الألوسي شهاب الدين ، مفسر ، محدث ، فقيه ، أديب ، لغوي ، نحوي ، مشارك مشارك في بعض العلوم . ولد ببغداد وتوفي بها سنة ١٢٧٠ ، من مصنفاته : (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) ، (غرائب الاعترا ب) ، وغيرها . ينظر : الأعلام ٧ / ١٧٦ ، معجم المؤلفين ٣ / ٨١٥ ، الألوسي مفسراً ص ٣٩ ، الموسوعة الميسرة ٣ / ٢٥٩٥

(٥) - روح المعاني ١٢/١٤٠

(٦) - البحر المحيط ٧/٣٦٠

(٧) - نظم الدرر ٦/٣٤٢ - ٣٤٣

وأجاب ابن القيم بتعليل جميل هو : " أنَّ الشجر إذا أُطلق ، كان ما له ساق يقوم عليه ، وإذا قُيِّدَ بشيءٍ تقيَّد به ، فالفرق بين المطلق والمقيَّد في الأسماء باب مهم عظيم النفع في الفهم ، ومراتب اللُّغة " (١)

وفائدة ذكر الآية لشجرة اليقطين بصيغة التنكير ؛ إفادة الإطلاق وعدم التقييد ، ومعلوم في اللغة وعند الأصوليين : أن النكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق ؛ وبهذا يمكن أن تطلق اللفظة على كل عائلة اليقطينيات ، دون تحديد لنوع معين ، فيمكن أن تفيد اللفظة بأن اليقطين إنما هو من جنس أو قبيلة اليقطينيات ، ولما كانت النكرة في سياق الامتنان فتفيد العموم (٢) وكما الدابة تطلق على الحيوان عموماً ، فالشجرة - كذلك - تطلق على النبات عموماً .

المسألة الثالثة : توبة الله - سبحانه وتعالى - على يونس - عليه السلام - :

نادى يونس - عليه السلام - ربه - سبحانه وتعالى - في الظلمات التي وضَّحها ابن مسعود وغيره بقوله : ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل (٣)

فذكر الله - تعالى - في الشدة والظلمة كما كان ذاكراً له في الرخاء واليسر ، و ذكره - عليه السلام - جاء موضحاً بسورة الأنبياء في قوله - تعالى - ﴿ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤)

فاستجاب الله دعاءه وكشف ما به من ضر ، وأمر - سبحانه - الحوت أن تلقيه على اليابسة وكان - عليه السلام - متضرراً من بطن الحوت سقيماً .

قال البقاعي : ولما كان سقمه متناهياً بالغاً إلى حد يجعل عن الوصف ، نبه عليه بأداة الاستعلاء فقال - سبحانه - (عليه) أي ورفعناها حال إنباتنا إياها فوقه ؛ لتظله كما يظل البيت

(١) - زاد المعاد ٤/٤٠٣ ، وحول هذه المسألة يراجع قول البغوي في شرح السنة عند الحديث الذي ذكرت به شجرة الثوم

٣٨٧/٢

(٢) - شرح مختصر الروضة ٢/٦٣١ ، الإحكام للأمدى ٣/٥ ، شرح الكوكب المنير لابن النجار ٣/١٣٩ ، موقع جامعة

الإيمان ، الإعجاز العلمي في قوله - تعالى - { وَأُنَبِّتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ } إعداد : قسطاس النعيمي .

(٣) - تفسير القرآن العظيم ٥/٣٦٧ ، أخرجه الحاكم في المستدرک ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنبياء ، ح ٣٤٤٥ ،

٤١٥/٢ ، وقال عنه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٤) - سورة الأنبياء من الآية ٨٧

الإنسان^(١) ووصف ابن مسعود - رضي الله عنه - حاله بقوله: "كهيفة الفرخ ليس عليه ريش" ، وقال السدي: " كهيفة الصبي حين يولد، وهو المنفوس "، وقاله ابن عباس، وغيره أيضًا^(٢) ومع هذا الضعف الذي كان عليه يونس - عليه السلام - إلا أن عناية الله وحفظه - سبحانه - أنقذته بشجرة من يقطين ، فهذه الشجرة تمتاز عن غيرها بمميزات منها :

سرعة نباتها ، وبرد ظلها ، وعظم ورقها ، ونعومة لمسها ، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة غذاء ثمرها ، وانحداره سريعًا ، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخًا بلبه وقشره . قيل : وماء ورقه إذا رش به مكان لم يقربه ذباب وهو جيد للصفراء ، نافع للكلى^(٣)

قال ابن القيم الجوزية في الطب النبوي عن اليقطين : ماؤه يقطع العطش - ويذهب الصداع الحار إذا شرب أو غسل به الرأس ، وهو ملين للبطن ، وبالجملة هو من ألطف الأغذية وأسرعها نفعًا ، وصالح لمرضى الكليتين والأمعاء ، والتهاب المفاصل والروماتزم^(٤)

كذلك كانت تأتيه أروية وحشية وهي أنثى الوعل صباحًا ، ومساءً فيشرب من لبنها ، حتى قوي بدنه^(٥)

فجمع الله - سبحانه وتعالى - له في شجرة اليقطين : الغذاء ، والمأوى ، والشفاء .

(١) - نظم الدرر ٣٤٢/٦

(٢) - جامع البيان ١١١ / ٢١ - ١١٢ ، النكت والعيون ٦٨/٥ ، الوسيط في التفسير ٥٣٣ / ٣ ، البحر المحيط

٧ / ٣٦٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤٠/٧

(٣) - الجامع لأحكام القرآن ١٢٩/١٥ ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ٤٣/١ ، مدارك التنزيل ٢٦/٤ ، لباب التأويل

٣٧/٦ ، البحر المحيط ٦٠/٧ ، تفسير القرآن العظيم ٤٠/٧ ، نظم الدرر ٣٤٢/٦ ، روح المعاني ١٣٩/١٢

(٤) - الطب النبوي ٢٩٧/١ ، وينظر : كتاب الأغذية ص ١٩ ، الشفاء بالنباتات من القانون في الطب ص ٣٣٨ ،

التداوي بالأعشاب ص ٢١٠

(٥) - جامع البيان ١١٣/٢١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٢٨/١٥ ، تفسير القرآن العظيم ٣٩/٧ ، روح المعاني ١٤٠/١٢

المسألة الرابعة : حب النبي - صلى الله عليه وسلم - لليقطين :

ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحب القرع ، وكان يتبعه في الإناء ، كما روى ذلك البخاري ومسلم في صحيحيهما ، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : أن خياطاً دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لطعام صنعه ، قال أنس رضي الله عنه : فذهب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقرب إليه خبزاً من شعيرٍ ، ومرقاً فيه دُبَاءً وقديدٌ (١) ، قال أنس: فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتبع الدُبَاءَ من حوالي الصحيفة ، فلم أزل أحب الدُبَاءَ من يومئذٍ (٢)

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أنس - رضي الله عنه - " كان يأكل الثريد باللحم والقرع " وكان - صلى الله عليه وسلم - يحب القرع ، ويقول : إنها شجرة أخي يونس - عليه السلام - ، وجاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يحب القرع " (٣) وسبب محبته له ما فيه من زيادة العقل والرطوبة ، وما خصه الله به من إنباته على يونس حتى وقاه وترى في ظله ، فكان له كالأم الحاضنة لفرخها (٤)

المسألة الخامسة : وقفة مع دعاء يونس - عليه السلام - :

من خلال قصة يونس - عليه السلام - يظهر فضل هذا الدعاء ، والترغيب غي قوله . فهذا الدعاء يجمع بين الثناء على الله - سبحانه وتعالى - وتنزيهه عن العجز والتقصير وأنه - سبحانه - ليس أهل لأن يعصى ، والاعتراف الصادق بالذنب ، والعجز ، والتقصير ، وعظم

١ _ القديد : القاف والبدال أصلٌ صحيح يدلُّ على قَطْع الشيء طويلاً وهو : ما قطع من اللحم وشرر . ينظر : معجم مقاييس اللغة ٦/٥ ، مادة (قد) ، لسان العرب ٣/٣٤٣ ، مادة (قدد) ، تاج العروس ٩/١٦ ، مادة (قدد) .

٢ _ صحيح البخاري ، كتاب الأطعمة ، باب الدُبَاء ، ح ٥٤٣٣ ، ص ٤٨٦ ، صحيح مسلم ، كتاب الأشربة ، باب جواز أكل المرق ، واستحباب أكل اليقطين ، وإيثار أهل المائدة بعضاً وإن كانوا ضيفاناً ، إذا لم يكره ذلك صاحب الطعام ، ح ٥٣٢٥ ، ص ١٠٤٢

٣ _ أخرجه النسائي في السنن الكبرى ، كتاب عمل اليوم والليلة ، باب : ٦٦ _ ترك مواجهة الإنسان بما يكرهه ، ح ١٠٠٦٤ ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الأطعمة ، باب الدباء ، ح ٣٣٠٢ ، ص ٢٦٧٧ ، قال ابن حجر في الفتح : أخرج مسلم بعضه من هذا الوجه بلفظ: "كان يعجبه القرع" وللنسائي: "كان يحب القرع ويقول: إنها شجرة أخي يونس . ينظر ٩/٥٢٥ ولم أجد هذه الزيادة عندهما .

٤ _ فيض القدير ٥/٢٩٢

حاجته لربه - سبحانه - فجاءت الاستجابة الفورية من الله ، وهذه من العواقب الصالحة لأهل الخير .

ولذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين : فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له " (١)

فاستجاب الله - تعالى - لنبيه ، وكشف عنه ما أهمه ، وأنعم عليه بالنعم ، وجعل الاستجابة لجميع المؤمنين ، وفي الآية وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله - تعالى - سينجيه منها كما أنجى يونس - عليه السلام - .

فأنت - سبحانك - الذي تقدر على حفظ الإنسان حيًّا في بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذه الحالة ، ثم أردف ذلك بتصريحه بالعجز والانكسار وإظهار الفاقة والذلة والافتقار (٢).

فالواجب على المسلم أن يقبل على الله في أحواله كلَّها يسرًّا وعسرًا ، صحةً وسقمًا فمن تعرّف على الله في الرخاء عرفه الله في الشدة ، فكان له منجيا ، وناصرًا ومعينًا ويدل على ذلك حديث ابن عباس - رضي الله عنه - المشهور الذي يقول فيه قال - صلى الله عليه وسلم - : " تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة " (٣).

وبعد أن استرد يونس عافيته أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون ، ودعاهم إلى الإيمان ، وأدى الرسالة التي أمره الله بها ، فأمنت هذه القرية ومتعمهم الله بالسعادة والإيمان مدة حياتهم ، فكانت قصة نبي الله يونس - عليه السلام - مع قومه ومع ابتلاء الله - سبحانه وتعالى - له عبرة لكل معتبر .

١ _ أخرجه الحاكم في مستدركه ٤١٤/٢ ، وقال عنه : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، و الترمذي في الجامع ، كتاب

الدعوات ، باب : في دعوة ذي النون ، ح ٣٥٠٥ ، ص ٢٠١٢ ، وأحمد في مسنده ح ١٤٢٦ ، ٦٦/٣

٢ _ فيض القدير ٧٠٢/٣

٣ _ جزء من الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس _ رضي الله عنه _ والذي أخرجه أحمد في مسنده ح ٢٨٠٣ ، ١٩/٥

من هداية الآيات :

- فضل نبي الله يونس - عليه السلام - وهو - بعدُ - من الأنبياء القلائل - الذين سميت باسمهم سورة من سور القرآن الكريم ، مثل نبي الله إبراهيم ، ومحمد ونوح - عليهم الصلاة والسلام - .

- أن الإيمان بالله وحده هو وسيلة النجاة فلا ينجو أحد من المحاسبة والجزاء والعتاب حتى لو كان نبياً .

- سبب نجاة يونس - عليه السلام - أنه كان من المسبحين الذاكرين ، فقبلت توبته ونجى مما حل به والمسبحين المصلين والذاكرين الله في كل أحوالهم .

- الحرص على ذكر الله في كل حال والترغيب في ذلك في وقت المهلة والرخاء ؛ لينعم الإنسان بما قدّم في وقت الشدة والضيقة ؛ وكى لا يكون ممن ذمهم الله - تعالى - في كتابه في آيات كثيرة .

منها : قوله - تعالى - ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو

دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ (١) وغيرها من الآيات الكثيرة في معناها .

- يجب أن نتأسى بيونس - عليه السلام - وسائر الأنبياء في إظهار التوبة والرجوع عن الذنب ، ونستعيذ بالله من كبر إبليس وغيته ، فالأنبياء هم أكثر الخلق مسارعة إلى الخيرات ، وأصدقهم توجهاً لله - سبحانه وتعالى - وأعظمهم تذلاً ورغبة ورهبة ؛ لما امتازوا به من كمال العبودية لله - تعالى - .

- فضل قوم يونس فهم القرية الوحيدة التي آمنت مجتمعة ، وبقيت على إيمانها .

- أن الله - سبحانه وتعالى - قبل التوبة من قوم يونس ، ولم يقبلها من فرعون وقومه :

لأن إيمان قوم يونس كان إيماناً في وقت الاختيار ، وكذلك الله - سبحانه وتعالى - يعلم ثباتهم على إيمانهم فتاب عليهم - سبحانه - ورفع عنهم العذاب .

أما فرعون وقومه ، فالله - سبحانه وتعالى - يعلم أنهم آمنوا في هذا الوقت ، وسيرجعون لضلالهم القديم لو تاب عليهم فهذا ديدنهم ، وإيمان فرعون وقومه كان إيماناً اضطرارياً عندما أحاطت به الأمواج وأدركهم الغرق .

قال الزجاج عن قوم يونس - عليه السلام - : " إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان " (١) واستحسن القرطبي هذا القول فقال : " قول الزجاج حسن ، فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون " (٢)

- الترغيب بدعاء الله وذكره - سبحانه - في كل الأحوال ، وفضل بعض الأدعية المخصوصة على غيرها .

- الخير ينسب لله - سبحانه وتعالى - ؛ وهنا أضاف نبي الحوت ليونس - عليه السلام - لنفسه لأنه تفضل منه - جل وعلا - . والحوت - عادة - لا تنبذ ما تلتقمه باختيارها .

- وجوب الصبر على الدعوة إلى الله ، وتحمل المشاق في سبيل الله فالإنسان يدعو لكنه لا يملك الهداية لغيره وعلى المؤمن أن ينفذ إرشادات ربه في طريقة الدعوة إلى الله .

- الحرص على التشبه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والافتداء بهديه في المطاعم وسائر الأمور . قال النووي (٣) : " ويستحب أن يجب الدُّبَاء ، كذلك كل شئ كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحبه " (٤)

- فضيلة ظاهرة لأنس لاقتفائه أثر النبي صلى الله عليه وسلم حتى في الأشياء الجبلية ، كحبه للدباء .

(١) - معاني القرآن ٣/٣٤ ، من أسرار التنزيل ١/٤٨-٤٩

(٢) - الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٨٤

(٣) - هو : محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الشافعي ، كان إماماً بارعاً حافظاً أَمَّارًا بالمعروف وناهياً عن المنكر، تاركاً للملذات ولم يتزوج ، أتقن علومًا شتى ، له تصانيف كثيرة ، منها : (والمنهاج في شرح مسلم) ، (تهذيب الأسماء واللغات) ، توفي سنة ٦٧٦ . ينظر : تذكرة الحفاظ ٤/ ١٧٤ ، العبر في خبر من غير ٣ / ٣٣٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩٥ ،

البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٦

(٤) - المنهاج ١٣/٢٢٤

- فضل دعاء يونس - عليه السلام - الذي تجلّى فيه التوحيد ، والتسبيح ، وإظهار العجز والفاقة ، وإلا لبقى في بطن الحوت وصار قبراً له - عليه السلام - .

- من علامات التعرف على الله - سبحانه وتعالى - في الرخاء : التقرب إليه بالأعمال الصالحة وكافة القرب وأعمال البر والصلة ، ويشهد لذلك قصة أصحاب الغار الذين فرّج الله عنهم بأعمالهم الصالحة التي تقربوا إلى الله بها في وقت الرخاء (١)

- من علامات كمال التوحيد في قلب المؤمن أن يلجأ إلى الله - تعالى - في كل أحواله ، وألا يقتصر على اللجوء إلى الله - تعالى - في وقت الشدة فقط ، فملازمة يونس - عليه السلام - للطاعة والدعاء وذكر الله حال الرخاء سببٌ عظيمٌ لإجابة دعائه عند وقت الشدة .

(١) - صحيح مسلم ، كتاب الرقاق ، باب : قصة أصحاب الغار الثلاثة ، والتوسل بصالح الأعمال ، ح ٦٩٤٩ ، ص

امتنان الله - سبحانه وتعالى - على مريم - عليها السلام - :

امتن الله على مريم بنت عمران بنعم ورزق وألطف متعددة خلال مراحل حياتها ، وسميت سورة كاملة باسمها وهي سورة مريم وفي ذلك تكريم لها ، وتخليد لاسمها وهي المرأة الوحيدة التي ذكرت باسمها في القرآن الكريم ، وذكرت قصتها من بدايتها في نعمة الله على بعض خيار الخلق واصطفائهم ، ومنهم عمران والدها وذلك في سورة آل عمران (١) ثم جاء ذكر أمها وكيف نذرتها قبل ولادتها وكيف عاشت في رعاية الله مع ما اختصت به من رزق خاص ، وجاء ذكر ابنها النبي عيسى - عليه السلام - في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، فكانت هذه الصديقة وابنها آيةً للناس .

وذلك الرزق الذي اختصها الله به هو من فضله الواسع الذي يرزقه لمن يشاء من عباده الصالحين؛ فقد كانت هذه الطاهرة محصنةً ، مصدقةً لكلمات ربها ، ومن القانتين كما قال عنها - سبحانه -

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ

رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ مِمَّنْ لَمْ نُخَلِّقْ لَهُنَّ مِنْ قَبْلُ مِنْ شَيْءٍ مِثْلِهَا ﴾ (٢)

وسيكون الحديث حول الامتنان على مريم - عليها السلام - في مسائل :

المسألة الأولى : اصطفاء نسب مريم بنت عمران :

اصطفى الله - سبحانه وتعالى - آدم - عليه السلام - أباً للبشرية جمعاء ، واصطفى نوحاً - عليه السلام - فهو الأب الثاني للبشر بعد الطوفان ، واصطفى من ذريتهما إبراهيم - عليه السلام -

(١) - ووجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران من بدايتها وعمران هذا هو : عمران بن مأتان أبو مريم كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ٣٣/٢ ، وابن عاشور في التحرير والتنوير ١٤٣/٣ ، أسماء سور القرآن ص ٥٠ ، وينظر : بصائر ذوي التمييز ١ / ١٥ ، وهي السورة الوحيدة التي وردت فيها هذا الجملة وكذلك الوحيدة التي وردت فيها قصة أم مريم - عليها السلام - يقول الزركشي " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الراي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز... البرهان ١ / ٢٧٠

(٢) - سورة التحريم الآية ١٢

واصطفى من ذريته آل عمران (١) وهم موسى وهرون وعيسى وأمه . واصطفواؤهم على جميع الخلق كلهم، فهم صفوة الخلق .

والاصطفاء هو: أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء ، و صفوة الشيء: خالصه ، و من ذلك الصَّفَاءُ، وهو ضدُّ الكَدْرِ ، واصطفاء الله عبده قد يكون بإيجاده إيَّاه صافياً عن الشُّوبِ الموجود في غيره ، وقد يكون باختياره وبحكمه (٢) قال - تعالى - ﴿

إِبْرَاهِيمَ وَعَالِ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

فاختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة الخلق وجعل النبوة والرسالة فيهم ، فهم جميعاً سلسلة متصلة الحلقات في النسب ، والخصال الحميدة وأشباه وأمثال في الخير والفضيلة ، فهم خيار من خيار من خيار - عليهم الصلاة والسلام - .

قال قتادة في معنى : بعضهم من بعض في النية ، والعمل ، والإخلاص ، والتوحيد له (٤) وفي وصف أم مريم في الآية بأنها امرأت عمران إشارة إلى اتصال نسبها كذلك بهذا النسب الكريم، وذريتهما من ذرية عمران فمريم مصطفاة من جهة الوالدين معاً . فهي مريم بنت عمران ، من

(١) - وفي نسبه وولادته رد على النصارى الذين يؤلهون عيسى عليه السلام ففيهما تأكيد على أصله البشري فالآل هم : من يؤول من قرابة أو ولي أو مذهب. ينظر : البحر المحيط ١/٣٤٤ ، التحرير والتنوير ١/٤٩٠

(٢) - الصحاح ١/٢٤٠١ ، مادة (صفا) ، معجم مقاييس اللغة ٣/٢٩٢ ، مادة (صفو) ، مفردات غريب القرآن ١/٢٨٣ ، تاج العروس ٣٨/٤٢٧ .

(٣) - سورة آل عمران الآيات ٣٣ - ٣٧

(٤) - تفسير ابن المنذر ١/١٧٢

سلالة داود - عليه السلام - وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وأمها هي : حَنَّة بنت فاقوذا وهي امرأة عمران (١)

المسألة الثانية : نذر أمها لما في بطنها ، وولادة مريم - عليها السلام - :

عُرِفَت أسرة آل عمران بالصلاح والخصال الطيبة بين الأسر الأخرى ، وكانت أمها كذلك مشهورة بالصلاح ، وكانت عاقراً لاتنجب فاشتقت نفسها للولد ، ودعت الله فاستجاب دعاءها ، وحملت بمريم - عليها السلام - ولما علمت بحملها توجهت إلى الله في الدعاء ونذرت ما في بطنها محرراً (٢) لخدمة دين الله ، وإطلاق لفظ المحرر إطلاق تشریف ؛ لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله تعالى (٣)

فلما وضعتها أنثى تحسرت ؛ لعلمها أن الذكر أقدر على الخدمة من الأنثى ، ولكن الله لحكمته جعلها أنثى لتلد فيما بعد الطفل المعجزة ، والذي يدل في ولادته على قدرة الله المطلقة في خلق البشر . وسمت مولودتها مريم ، وفي تكرر تأكيد أم مريم بقولها " وإني " ؛ إظهار لرضاها التام وحبها لما وهبها الله ، وبما قدره لها (٤) ووجهت نيتها في سبيل مرضاة الله حين دعت ربحا بقلب خالص صادق أن تكون ابنتها في حفظ الله وأن يعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم .

فاستجاب الله دعاءها ، فقد أورد البخاري في صحيحه رواية أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها ، ثم يقول أبو هريرة - رضي الله

عنه - : ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِكِّ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٥) (٦)

(١) - الجامع لأحكام القرآن ٤/٦٥ ، مدارك التنزيل ١/١٥٥ ، البحر المحيط ٢/٤٥٥ ، تفسير القرآن العظيم ٥ / ٢١٩ ، التحرير والتنوير ٣/٢٣٢

(٢) - الولد أفرد أهله لطاعة الله ، وخدمة المسجد ، فأصبح عتيقاً لله - تعالى - ينظر : غريب القرآن لابن قتيبة ١ / ١٠٣ ، مفردات غريب القرآن ١ / ١١١ ، مادة (حر) ، تاج العروس ١٠ / ٥٩١ ، مادة (حرر) ، المعجم الوسيط ١ / ١٦٥ .

(٣) - التحرير والتنوير ٣ / ٣٢٣

(٤) - المصدر السابق ٣ / ٢٣٤

(٥) - سورة آل عمران الآية ٣٦

(٦) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ ، ح ٣٤٣١ ، ص ٢٨٠ ، ومسلم في صحيحه بعبارة مقاربة ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى

- عليه السلام - ح ٦١٣٠ ، ص ١٠٩٣

وذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فضلها وكمالها فقال - صلى الله عليه وسلم - :
 " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون (١) " (٢)
 فتقبلها الله - سبحانه وتعالى - من أمها نذيرة ، ومخصصة للعبادة ، والخدمة ، ولا تشتغل بشيء
 آخر .

والتقبل : هو التكفل في التربية والقيام بشأنها ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - { فَتَقَبَّلَهَا
 رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ } أي سلك بها طريق السعداء (٣) فأقامها - سبحانه وتعالى - مقام منقطع لله
 تعالى ، ولم يكن ذلك مشروعاً من قبل .

وأنتها نباتاً حسناً : أنشأها نشأة صالحة على الطاعة والعبادة ، ظاهراً وباطناً .
 شبه إنشائها وشبابها وتربيتها الصالحة ونموها بإنبات النبات الغضّ الذي ينمو شيئاً فشيئاً على
 طريق الاستعارة (٤)

يقول ابن كثير : " جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين
 من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين " (٥)

وقوله - تعالى - ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ؛ للجمع بين الأمرين : يعني التقبل الذي بمعنى التكفل ،
 والقبول الذي بمعنى الرضا الذي بمعنى من قولهم : " فلان عليه قبول " إذا أحبه من رآه ، وفي الجمع
 بينها إظهار للعناية بها في هذا القبول (٦) فلم تكن خدمة النساء قبل ذلك مشروعة ، وفي هذا
 القبول تمهيد لمعجزات وكرامات آخر ستظهر على هذه المحررة - عليها السلام - .

(١) - هي : آسية بنت مزاحم ، زوج فرعون ، قيل : هي عمّة موسى عليه السلام ، آمنت بموسى - عليه السلام - فعذبها
 فرعون وقتلها . ينظر : الكشاف ٤ / ٥٧٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٠٢ ، البداية والنهاية ١ / ٢٧٦ ، الأنس
 الجليل ١ / ٧٤

(٢) - جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله - تعالى - ﴿ واذكر في
 الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ ، ح ٣٤٣٣ ، ص ٢٨٠

(٣) - معالم التنزيل ٣١/٢ ، لباب التأويل ٣٤١/١

(٤) - التحرير والتنوير ٣/٢٣٥ ، التفسير المنير ٣/٢١٠

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٣٥/٢

(٦) - تفسير الراغب ٢/٥٣٢ ، لباب التأويل ١/٣٤١ ، التحرير والتنوير ٣/٢٣٥

وعُدَّت كفالة زكريا لمريم - عليهما السلام - من فضائلها ؛ لأن في صلاحه وعبادته ما يزيد من فضلها ؛ فالمرابي يُكسب المترابي صلاحه وأخلاقه - بتوفيق الله تعالى - .

المسألة الثالثة : رزق مريم عليها السلام :

ضمّ زكريّا - عليه السلام - مريم - عليها السلام - إلى كفالته ، وبني لها محراباً^(١) في المسجد ويقول بعض المفسرين أنه : جعل بابَه في وسطه ولا يرقى إليه إلاّ بسلم ولا يصعد إليها غيره^(٢) وبين الألويسي معنى المحراب بقوله : " والمحراب - على ما روى عن ابن عباس - غرفة بنيت لها في بيت المقدس ، وكانت لا يصعد إليها إلاّ بسلم ، وقيل : المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب ، وقيل : المراد به أشرف مواضع المسجد ومقدمها ، وهو مقام الإمام من المسجد^(٣) " .

وكانت مظاهر الاصطفاء والإكرام والبركة تظهر على مريم - عليها السلام - ويفيض من حولها الخير والرزق ، وحين يرى كافلها تلك الآيات الباهرة تتحرك في نفسه الرغبة في الولد من صلبه . يقول ابن عباس : " فلما رأى ذلك زكريا - يعني فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم ، قال : إنّ الذي يأتي بهذا مريم في غير زمانه ، قادرٌ أن يرزقني ولدًا ، قال الله عز وجل : " هنالك دعا زكريا ربه " ، قال : فذلك حين دعا " (٤) .

فلم يأس من روح الله ، فأجاب الله - سبحانه وتعالى - طلبه ، وفرقه يحبي نبياً ومن الصالحين فكان في هذه الكفالة بركةً للكافل والمكفول ، ودلالةً على عظم فضل الله عليهما . والرزق الذي ساقه الله - سبحانه وتعالى - إلى مريم - عليها السلام - في مرحلتين من مراحل حياتها ، أولاهما : عندما كانت تحت كفالة نبي الله زكريا - عليه السلام - ، والأخرى : عند ولادتها نبي الله عيسى - عليه السلام - .

(١) - الصحاح ١٠٩/١ ، مادة (حرب) ، معجم مقاييس اللغة ٤٨/٢ ، مفردات غريب القرآن ١١٢/١ ، تاج العروس ٢٥٤/٢

(٢) - جامع البيان ٣٥٨/٦ ، بحر العلوم ٢٣٥/١ ، المحرر الوجيز ٤٢٦/١ ، لباب التأويل ١/١ ، اللباب ١٨٥/٥ .

(٣) - روح المعاني ١٣٤/٢

(٤) - جامع البيان ٣٦١/٦

ولفظ الرزق في القرآن الكريم يُستعمل في القرآن الكريم على وجوه عدة ، ذكر العلماء تسعة أوجه ، منها : العطاء ، الطعام ، الغداء والعشاء خاصة ، المطر ، النفقة ، الفاكهة ، الثواب ، الجنة ، الشكر . وزادها ابن الجوزي وجهًا عاشراً هو : الحرث والأنعام^(١) . والوجه الذي يراد في هذه الآية - رزق مريم - أنه جاء بمعنى الفاكهة .

والرِّزْق ، بالكسر : ما يُنتفع به ، والجمع : أرزاق ، وقيل : هو الحظ ، وهو ما يسوقه الله إلى الحيوان للتغذي ، ويسمى المطر رزقًا ، وهو عطاء الله - جل ثناؤه - أي : من المال ، والجاه ، والعلم^(٢)

والرزق عند الجمهور : اسم عام جامع لكل ما صلح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً ، وهو اسم لكل ما ينتفع به من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته وينال بها ثلثه ، سواء كان مادياً كالأموال ، أو معنوياً كالمعارف ، والعلوم ، وحسن الخلق وغيرها^(٣)

المسألة الرابعة : ماهية الرزق الذي كان عند مريم - عليها السلام - :

حاول المفسرون وصف الرزق الذي كان عند مريم - عليها السلام - فقالوا فيه ، أقوالاً منها : الأول : أن الرزق الذي أتاها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي وغيرهم^(٤) الثاني : وهو لا يخالف الأول وهو ما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد في معنى الرزق : أنه العنب في غير حينه^(٥)

(١) - الوجوه والنظائر ١/٢٣٤ - ٢٣٥ ، نزهة الأعين النواظر ١/٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) - الصحاح ٤/١٤٨١ ، مادة (رزق) ، معجم مقاييس اللغة ٢/٣٨٨ ، مفردات غريب القرآن ١/١٩٤ ، تاج العروس ٢٥/٣٣٥ ، المعجم الوسيط ١/٣٤٢ .

(٣) - الكشف والبيان ١/١٤٨ ، معالم التنزيل ١/٦٣ ، المحرر الوجيز ١/٨٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١/١٧٧ ، لباب التأويل ١/٣٠ ، السراج المنير ١/٢٢ ، التحرير والتنوير ١/٢٣٤

(٤) - جامع البيان ٦/٣٥٤ - ٣٥٦ ، بلوغ الهداية ٢/٩٩٩ ، النكت والعيون ١/٣٨٨ ، معالم التنزيل ٢/٣٢ ، المحرر الوجيز ١/٤٢٦ ، الجامع لأحكام القرآن ، ٤/٧١ ، البحر المحيط ٢/٤٦١ ، تفسير الجلالين ١/٥٤ ، إرشاد العقل السليم ٢/٣٠

(٥) - جامع البيان ٦/٣٥٤ - ٣٥٥ ، تفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٣٩

الثالث : أنها لم تطعم ثدياً قط حتى تكلمت في المهد^(١)، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة ، وهذا قول الحسن (٢)

الرابع : أن هذا الرزق هو علم ، أو صحف فيها علم^(٣)، وهو قول مرجوح - كما يظهر - وشبهه أبو حيان بتفسير الباطنية^(٤) وقال ابن كثير بعد ذكره : والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء .

ولهذا في السنة نظائر كثيرة^(٥) وهذا قول الجماعة^(٦) و معظم المفسرين .
وكلماً ، تقتضي التكرار ، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها ، وهذا من حسن كفالته لها -
عليهما السلام - ، ودلت الآية على وجود الرزق عندها كل وقت يدخل عليها ، والمعنى : أنه
غذاء تتغذى به لم يعهده عندها ، ولم يوجهه هو سؤال زكريا لها ﴿يَمْرِمُ أَنِّي لَلَّكَ هَذَا﴾
فتجيبه بكل إيمان ويقين وتواضع ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فعند
ذلك يستريح قلب زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم ، وبكونه يشهد مقاماً شريفاً ،
واعتناءً لطيفاً بمن اختارها الله تعالى بأن جعلها في كفالته^(٧) وليكون حسن نباتها من أحسن رزق
رزق الله - تعالى - .

(١) - أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما أن الذي تكلم في المهد ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ، وذكر
الحديث ، وفيه : الصبي الذي ترك الثدي . ينظر : صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿وَأذْكَرُ
فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ح ٣٤٣٦ ص ٢٨١ ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ،
باب : تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ، ح ٦٥٠٩ ص ١١٢٥ . والحديث حصر المتكلمين في المهد في هؤلاء
الثلاثة ، والواقع أنهم أكثر كما وردت بذلك أحاديث صحيحة أخرى . ينظر : الجواهر واللائي المصنوعة ص ١٥٩

(٢) - النكت والعيون ٣٨٨/١ ، معالم التنزيل ٣٢/٢ ، البحر المحيط ١٢٣/٣

(٣) - تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٩/٢ . تفسير القرآن العظيم ٣٦/٢

(٤) - البحر المحيط ٤٦١/٢

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٣٦/٢ ، ومن هذه النظائر قصة خبيب بن عدي الصحابي الجليل والعنقود الذي كان يأكل منه
منه في غير وقته والتي رواها البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب هل يستأسر الرجل ؟ ومن لم يستأسر ، ومن صلى
ركعتين عند القتل ، ح ٣٠٤٥ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٦) - زاد المسير ٣٨٠/١

(٧) - البحر المحيط ٤٦١/٢ ، وبنحوه قال القشيري في تفسيره ٣٠٧/١

يقول الطبري عن رزق مريم - عليها السلام - : " فخيرٌ من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سؤقه ذلك إليه كذلك خزائنه ، ولا يزيد إعطاؤه إياه ، ومحاسبته عليه في ملكه ، وفيما لديه شيئاً ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ... " (١)

والتنوين والتنكير في رزقاً ؛ لتعظيم حال ذلك الرزق (٢)

ويظهر من الآية أمور ، منها :

أ - نص الآية على أنّ زكريا - عليه السلام - هو من كفلها لا كما ذكر بعض المفسرين (٣) في نقلهم حكاية ابن إسحاق (٤) من أنها كانت تحت كفالة جريج النجار ، وأنه هو من كان ينميه، ثم قال ابن عطية بعده : " والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحاق " (٥) وكذلك أشار إليه أبو حيان ، وقال بعده : " والذي يدل عليه ظاهر الآية أن الذي كفلها بالتربية هو زكريا لا غيره ، فإن الله - تعالى - كفاه لما كفلها مؤونة رزقها ، ووضع عنه بحسن التكفل مشقة التكلف " (٦)

ب - أن الرزق الذي كان عندها من الله - سبحانه وتعالى - فالرزق بيده - سبحانه - لا بيد البشر ، ويؤتي منه الحكمة يعلمها ولمن يشاء من خلقه ، وهذا الرزق من فضل الله - تعالى - على هذه الصديقة البتول ، فهو من الكرامات (٧) التي يكرم بها الله - سبحانه وتعالى - أوليائه كما رجح ذلك ابن كثير (٨) وغيره .

(١) - جامع البيان ٣٥٩/٦

(٢) - التفسير الكبير ٢٠٦/٨ ، روح المعاني ١٣٤/٢

(٣) - جامع البيان ٣٥٥/٦ - ٢٥٦ ، معالم التنزيل ٣٢/٢ ، المحرر الوجيز ٤٢٤/١

(٤) - هو : محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر القرشي ، من أهل المدينة وصاحب السيرة النبوية ، ومن أقدم مؤرخي العربية العربية توفي سنة ١٥٠ وقيل ١٥١ . ينظر : تاريخ أسماء الثقات ١ / ١٤ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٣ - ٥٥ ، تذكرة الحفاظ ١ / ١٣٠ ، والأعلام ٦ / ٢٨

(٥) - المحرر الوجيز ٤٢٧/١ ، لباب التأويل ٣٤٢/١

(٦) - البحر المحيط ٤٦١/٢

(٧) - الكرامة هي : فعل من الله لا محالة فهي حادثة لا قديمة ، وهو ناقض للعادة وتحصل في زمن التكليف على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً . والتميز بينها وبين المعجزة جاء من الخلف إما السلف فكانوا يسمون كلا الأمرين : معجزة كالإمام أحمد وغيره . ينظر : بستان العارفين ص ١٦٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٥٠٧ ، لوامع الأنوار البهية ٢ / ٣٩٢ ، وأصول الدين عند أبي حنيفة ١ / ٤٧٨ ، وبهجة الناظرين شرح رياض الصالحين ٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥

(٨) - البحر المحيط ٤٥٠/٢ ، تفسير القرآن العظيم ٣٦/٢ ، التحرير والتنوير ٢٣٥/٣

وذكر الرازي عددًا من المرجحات لها (١)

وهذه الكرامات من الله - سبحانه وتعالى - لأولياته ؛ ليزداد المؤمنون بها إيمانًا والمرتابون بها خسارة (٢)

ج - تلك النعم والأفضال عليها والتي أبهرت كافلها - عليهما السلام - تمهيد للمعجزة العظمى؛ حيث ستكون هذه الطاهرة النقية أمًا لعيسى - عليه السلام - وبدون أب .

المسألة الخامسة : حملها بعيسى - عليهما السلام - وولادتها له :

تردد ذكر مريم الطاهرة وابنها في القرآن الكريم في عدد من المواضع ، ويلاحظ ورود قصة حملها وولادتها له بعد قصة زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - وذلك في مواضع من القرآن منها في سورة آل عمران ، وسورة الأنبياء ، وسورة مريم ؛ لما بين القصتين من التشابه فكلاهما في الحمل أعجوبة : فزكريا - عليه السلام - جاءه الولد بعد أن كبر سنه وزوجته كبيرة السن وعاقرة ، أما مريم فأعظم في الغرابة وأعجب فجاءت بالولد من غير أب ؛ ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه ، وأنه على ما يشاء قدير ، وفي هذا التابع في سرد القصص القرآني طريقة من طرق التعليم بالتدرج بالحوادث والقصص من الأدنى إلى الأعلى .

ولما كانت قصة عيسى عليه السلام أغرب من قصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد لا من أب البتة وأحسن طرق التعليم والفهم الأخذ من الأقرب فالأقرب مرتقيًا إلى الأصعب فالأصعب (٣)

وكما أن الله اختار آل عمران على العالمين ، فإنه اصطفى مريم منهم فجعل تربيتها خاصةً ، ونشأتها صالحة ، فطهرها واصطفها على نساء العالمين ، وجاءت الملائكة بالبشرى لمريم - عليها

السلام - قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَيَّ

نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴾ (٤)

(١) - التفسير الكبير ٢٠٦/٨

(٢) - كرامات أولياء الله عز وجل ص ٧٠

(٣) - السراج المنير ٢/٣٣٠ ، وينظر تفسير المراغي ٤١/١٦

(٤) - سورة آل عمران الآية ٤٢

فكانت هذه المرأة المباركة آيةً من آياته ، وشاهدًا من شهود تلك القدرة العظيمة التي وإن ربطت بين الأسباب والمسببات ، إلا أنها فوق تلك السنن الكونية ، وفوق تلك المسببات .

وكما خلق أصل الخلق كلهم آدم - عليه السلام - بدايةً من غير ذكر أو أنثى ، وخلق من ضلعه حواء - عليها السلام - فكذا خلق عيسى - عليه السلام - من غير أب ، فهذا هو الاصطفاء الذي اصطفى به الله - سبحانه وتعالى - مريم - عليها السلام - على نساء العالمين .

وقال عنها النبي - صلى الله عليه و سلم - "حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران" (١) وكرر الاصطفاء ؛ لأن معنى الأول : الاصطفاء لعبادته والاصطفاء والتطهير من كل ما يستقذر من الأفعال والأقوال ، وكفالة زكريا لها ورزق الله الذي يأتيها ، ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء ، والاصطفاء الثاني : يرجع إلى تفضيلها على سائر النساء ، وإن شاركها أفراد من النساء غيرها (٢) لكنها هي فقط من وهب لها ولد من غير أب وسمعت كلام الملائكة ولم يحصل لغيرها (٣).

وأمرتها الملائكة بعد البشارة بطاعة الله والخشوع والتذلل له - سبحانه - وهياؤها لتلقي خير حملها بعيسى - عليهما السلام - من دون أب .

ومريم هي الأنثى الوحيدة التي ذكر اسمها صريحًا في القرآن الكريم ، وتكرّر في ثلاثين آية كريمة ، وسميت سورة كاملة باسمها ، وفي التسمية تحليد لذكراها ، وتكريم لها ، وتأکید لطهرها ونزاهتها وعفتها ، وتذكير بتلك المعجزة الباهرة في خلق إنسان بلا أب ، ثم إنطاق الله - تعالى - للوليد وما صاحب ذلك من أحداث .

فهذه السورة مصدّره بالرحمة ، ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خُلص عباده ، وبيان اتصافه - سبحانه - بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم على جميع خلقه (٤) ففيها الحديث المستفيض عن

(١) - جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب ، باب : فضل خديجة - رضي الله عنها - ح ٣٨٧٨ ، ٧٠٣/٥ وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد في مسنده ٣٨٣/١٩ ، والحاكم في مستدركه ، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ، كتاب : معرفة الصحابة - رضي الله عنهم - باب : ذكر مناقب فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ح ٤٧٤٦ ، ١٧٢/٣ ، رواية أنس بن مالك ، وقال الألباني : صحيح . ينظر : الجامع الصغير وزيادته ١ / ٥٤٦ ، صحيح المشكاة ٣ / ٣٤٩ ح ٦١٨١

(٢) - كخديجة ، وفاطمة ، وآسية أمراء فرعون - رضي الله عنهن جميعًا - .

(٣) - معالم التنزيل ٣٦/٢ ، المحرر الوجيز ٤٣٣/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٨٢/٤ ، البحر المحيط ٤٧٦/٢ ، تفسير القرآن العظيم ٣٩/٢ ، التحرير والتنوير ٢٤٤/٣

(٤) - نظم الدرر ٥٢٧/٤ ، مصاعد النظر ٢٥٦/٢

رحمة الله بمریم ، فحينما يذكر اسمها تذكر رحمة الله - سبحانه وتعالى - لها ، وكذلك إخلاص العبودية لله - سبحانه وتعالى - ونتائجها وآثارها .

وفي سورة مريم بدأ الله - سبحانه وتعالى - إخبارنا عن الأحداث التي صاحبت حملها وولادتها بدأً باعتزالها قومها لتتفرغ لعبادة الله .

فاعتزلت مريم - عليها السلام - الناس بمكان شرقي ؛ وذلك للتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرقَ قبلة لصلواتهم ^(١) كما قال ابن عباس : " إني لأعلم خلقَ الله لأي شيء اتخذت النصارى الشرقَ قبلة ؛ لقوله - تعالى - : مكاناً شرقياً " ^(٢) ، وتفرغت لعبادة ربها فكانت مثلاً للعبادة والتقوى ، وبينما كانت لوحدها إذ دخل عليها جبريل ^(٣) - عليه السلام - في صورة بشر سوي مكتمل الصورة ، ولم يدخل عليها بصورته الملائكية ؛ لكيلا تفزع منه .

ففور رؤيتها له التجأت إلى الله - سبحانه وتعالى - فهي تعلم علم اليقين ألا ملجأ لها إلا الله في كل الشدائد ، فاستعازت بالرحمن منه ، وفي هذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى طلب رحمته التي أسبغها عليها فأجابها جبريل - عليه السلام - بأنه رسول من ربها ؛ ليهب لها غلاماً ، وعبر باسم الرب المقتضي للإحسان لطفاً بها ^(٤) كما عبرت هي بالرحمن ، فاستغربت هذا الأمر كما استغربته عند تبشير الملائكة ، لها فهي طاهرة لا زوج لها ، فأخبرها - عليه السلام - أنه أمر مقدر قد قدره الله سبحانه في سابق علمه فلا مرد منه .

وقوله لأهب لك تقديره : أرسلت رسولاً إليك لأهب لك فيكون حكايةً عن الله - سبحانه وتعالى - لا من قول جبريل - عليه السلام - أو بإسناد الهبة إلى جبريل مجازاً ، أي لأكون سبباً في هبة الولد بواسطة نفخي ، فهو من قول جبريل - عليه السلام - ^(٥) لأهب لك غلاماً زكياً ؛

(١) - المحرر الوجيز ٩/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٩٠/١١ ، البحر المحيط ١٦٩/٦ ، التحرير والتنوير ٨٠/١٦

(٢) - جامع البيان ١٦١/١٨ ، تفسير ابن أبي حاتم ١٦١١/٥ ، البحر المحيط ١٦٩/٦

(٣) - سماه الله - سبحانه وتعالى - روحاً ؛ لأنه نزل بالذكر الحكيم الذي فيه حياة الناس وحفظهم من الدمار والهلاك فهو حامل الوحي فسمي الحامل باسم ما يحمل وفي الإضافة تشريف وتعظيم لجبريل عليه السلام .

(٤) - نظم الدرر ٥٢٧/٤

(٥) - الكشف عن وجوه القراءات السبع ٨٦/٢ ، بحر العلوم ٣٧١/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٩١/١١ ، تفسير القرآن

العظيم ٢٢٠/٥ ، فتح الرحمن ص ١٩٠

لأن هبة الغلام الزكي كرامة من الله لها ، وجعله آية للناس ورحمة : كرامة للغلام ، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلم (١) .

فلما نفخ جبريل فيها ، و تم الحمل ابتعدت عن أهلها واتخذت مكاناً نائياً عنهم حتى جاءت اللحظة الحاسمة لحظة خروج هذا الجنين الذي تحمله ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ (٢٣) فَادَّهَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ (٢٥) فَكَلِمِي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِمَ الْيَوْمَ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (٢)

فأجاءها أجاءها معناه ألجأها ، وأصله جاء ، عدي بالهمزة فقليل : أجاءه ، أي جعله جائياً (٣) والمخاض : طلق الحامل وشدة وجع الولادة ، وهو تحرك الجنين للخروج ، وناقاة ماخض أي دنا ولادها (٤)

والجذع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة : العود الأصلي للنخلة الذي يتفرع منه الجريد . وهو ما بين العروق والأغصان ، والجذع : ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن ؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . أي إلى أصل نخلة استندت إليه (٥)

فلما اشتد عليها الطلق تمسكت بجذع نخلة يابس من البرد ولم يكن لها سعف ، فقالت : ﴿ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أي ياليتني مت قبل أن يقع هذا الأمر ؛ لما رأته من الآلام ولما تتوقعه من إنكار قومها ، وخوفاً من الفضيحة ، وكنت نسياً : بالفتح والكسر،

(١) - التحرير والتنوير ٨٣/١٦

(٢) - سورة مريم الآية ٢٣ - ٢٦

(٣) - غريب القرآن لابن قتيبة ٢٧٣/١ ، تفسير كتاب الله العزيز ٣ / ١٠ ، معاني القرآن للزجاج ٣٢٤/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٩٢/١١ ، التحرير والتنوير ٨٥/١٦

(٤) - بحر العلوم ٣٧٢/٢ ، الكشف والبيان ٢١٠/٦ ، المحرر الوجيز ١٠/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٩٢/١١

(٥) - معجم مقاييس اللغة ٤٣٧/١ ، مادة (جذع) ، التحرير والتنوير ٨٥/١٦

والنسي : الشيء الحقير المطروح الذي لا يؤبه له (١) أي وكنت شيئاً حقيراً ينسى ولا يُتألم من فقده ولا يذكر .

وفي هذه اللحظات القاسية ، المليئة بالآلام الجسدية والنفسية ناداها من تحتها فاطمأنت بما رآته من آيات فمن المنادي المقصود بقوله - تعالى - ﴿ فَادْنَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤ ﴾ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ وَسُقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ٢٥ ﴿ فُكِّلِي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ٢٦ ﴾ (٢)

اختلف المفسرون في المنادي فمنهم من قال إنه جبريل - عليه السلام - ومنهم من قال إنه عيسى - عليه السلام - وهذا الاختلاف راجع للاختلاف على القراءة بفتح أو كسر الميم والتاء (٣)

قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي إنه جبريل - عليه السلام - (٤) أي: ناداها من أسفل الوادي ، واستظهره القرطبي وأبو حيان (٥) واختاره الزمخشري وأبو السعود وصدرا القول الثاني بقيل (٦)

وقال مجاهد وغيره : إن من ناداها هو عيسى - عليه السلام - (٧) واختار الطبري هذا القول ،

(١) - غريب القرآن ٢٧٣/١ ، معاني القرآن للزجاج ٣٢٤/٣ ، الوسيط في التفسير ١٨٠/٣ ، التسهيل ١٥٦/٢ ، التفسير الفريد ٣ / ١٨٤١ .

(٢) - سورة مريم الآية ٢٤ - ٢٦

(٣) - مشكل إعراب القرآن ٢ / ٥٢ ، المبسوط في القراءات العشر ص ١٧٢ ، التسهيل ١٥٦/٢ ، أنوار التنزيل ٢ / ٢٢ ، البدور الزاهرة ص ١٩٧ ، الكشف عن وجوه القراءات السبع ٨٦/٢ - ٨٧

(٤) - تفسير الضحاك ٥٥٦/٢ ، جامع البيان ١٧٣/١٨ ، المحرر الوجيز ٩/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٢٢٤/٥ ، الدر المنثور ٤١ / ١٠

(٥) - الجامع لأحكام القرآن ٩٣/١١ ، البحر المحيط ١٦١/٦

(٦) - الكشف ١٣/٣ ، إرشاد العقل السليم ٢٦٢/٥ ، ولم يذكر غيره ابن سعدي ٤٩١/١

(٧) - جامع البيان ١٧٤/١٨ ، المحرر الوجيز ٩/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٢٢٤/٥

وبعض المفسرين (١) واستظهره ابن عطية (٢) لأسباب منها : أنه أقرب مذكور فالضمائر كلها في هذا السياق تعود على عيسى - عليه السلام - .

وقيل : هو الملك في الوجهين جميعًا ، أي فناداها جبريل من تحتها (٣)

وإذا كان المنادي هو عيسى - عليه السلام - فالمعنى : أن الله أنطقه تطيبًا لقلبها ، وتطمينًا لها بأنه سيرى ساحتها .

وإذا كان المنادي جبريل - عليه السلام - فالمعنى : أن الله أرسله ليناديها بتلك الكلمات المطمئنة والتي تبين فضلها ورحمة الله بها ويذكرها بالبشارة السابقة التي بشرها إياها .

وكلا الوجهين محتمل (٤) وكلاهما معجزة وكرامة لمريم وابنها - عليهما السلام - .

والمراد بالسري : نهر يسري ، أو الجدول الصغير . قال ابن عباس وهو قول أهل اللغة ، وفسروه بأنه : نهر صغير يجري إلى النخل (٥) وهو قول عامة المفسرين ، كابن عباس ومجاهد وقتادة

وغيرهم (٦) ورجحه الطبري ، والرازي ، والألوسي ، وابن عاشور ، والشنقيطي (٧) واستظهره ابن

ابن كثير (٨) وقيل هو عيسى ، أو الرجل العظيم الخصال (٩) وهذا القول مرجوح ، فالقول الأول الأول أظهر ؛ لمناسبته سياق الآية (فكلي واشربي) فيدل على أن السري نهر فتشرب منه وتأكل

من الرطب ولهذا قال بعده : ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِمِجْدَعِ النَّخْلَةِ ﴾ والسري معروف من كلام العرب

(١) - جامع البيان ١٧٢/١٨ - ١٧٤ ، الهداية إلى بلوغ البداية ٤٥٢٣/٧ ، نظم الدرر ٥٢٩/٤ ، التحرير والتنوير

٨٦/١٦ ، قصص الأنبياء للشعراوي ٣٠٤٠/٥ ، قصص القرآن ص ٢٥١-٢٥٧

(٢) - المحرر الوجيز ١٢/٤

(٣) - معاني القرآن للفراء ١٦٥/٢

(٤) - النكت في القرآن ٣١١/١

(٥) - معاني القرآن للفراء ١٦٥/٢ ، غريب القرآن لابن قتيبة ٢٧٤/١ ، مفردات غريب القرآن ٢٣١/١ ، لسان العرب

٣٧٧/١٤ ، مادة (سرا) ، تاج العروس ٢٦٥/٣٨ ، مادة (سري)

(٦) - تفسير كتاب الله العزيز ٣ / ١١ ، جامع البيان ١٧٢/١٨-١٧٧ ، تفسير القرآن العظيم ٢٢٣/٥ .

(٧) - جامع البيان ١٧٧/١٨ ، التفسير الكبير ٥٢٧/٢١-٥٢٨ ، روح المعاني ٤٠١/٨ ، أضواء البيان ٢٤٨/٤-٢٤٩ ،

التحرير والتنوير ، والواحدي في الوسيط فسر به ١٨١/٣ .

(٨) - تفسير القرآن العظيم ٢٢٥/٥

(٩) - جامع البيان ١٧٧/١٨ ، معالم التنزيل ٢٢٦/٥ ، لباب التأويل ٢٤٣/٤ ، الكشاف ١٢/٣ ، المحرر الوجيز ١١/٤

أنه النهر الصغير (١) وللحديث الذي أخرجه الحاكم من حديث البراء بن عازب (٢) في قوله -

- عز وجل - ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا ﴾ قال : هو الجدول : النهر الصغير (٣)

فناداها قائلاً : لا تحزني فأفضال الله عليك تتوالى ، والألطف الإلهية تحيط بك منذ بدء حياتك ، وحالتك جديدة بالمسرة فانظري إلى المعجزات من حولك . فهذا النهر أجراه الله من أجلك ، وحركي الجذع فيسقط عليك منه الرطب الشهوي القابل للأكل والاجتباء بقدرة الله بعد أن كان جافاً (٤) وأعطاها الله - سبحانه وتعالى - الرطب بدل التمر ؛ لأنه أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة كالفاكهة وأما التمر فغذاء ، فالرطب خُرسة (٥) النفساء الموافقة لها ، فكلي واشربي منهما ، وطيبني نفساً ولا تحزني ، وقرى عينا برؤية الولد الموهوب لك ؛ فإن الله قدير أن يقطع عنك الألسن ، ويبعد الشكوك عنك ويبرئ ساحتك ويجعلهم يتأكدون من قداستك وطهرتك .

والكرامة التي خص بها الله - سبحانه وتعالى - مريم لا تكمن فقط في إثمار النخلة في غير وقتها وتفجر النهر تحتها ، بل في قدرة مريم وهي في أضعف حالاتها على هز جذع النخلة والتي يعجز عن ذلك أولو القوة من الرجال (٦)

(١) - التفسير الكبير ٥٢٨/٢١ ، أضواء البيان ٢٤٨/٤ ، إعراب القرآن وبيانه ٨٣/٦

(٢) - هو : البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي الأنصاري استصغره النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر وأول مشاهدته مشاهدته أحد وقيل الخندق وغزا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم أربع عشرة غزوة افتتح الري سنة أربع وعشرين وشهد غزوة تستر مع أبي موسى وشهد مع علي - كرم الله وجهه - الجمل والنهروان وقاتل الخوارج ثم نزل الكوفة ومات بها أيام مصعب ابن الزبير رحمه الله تعالى سنة اثنتين وسبعين .

ينظر : الإستيعاب ٤٨/١ ، أسد الغابة ١٠٧/١ ، الإصابة ٢٧٨/١

(٣) - وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ينظر : المستدرک ، كتاب التفسير ، باب : تفسير سورة مريم ح ٣٤١٣ ، ٤٠٥/٢

(٤) - تفسير مقاتل ٣١٠/٢ ، المحرر الوجيز ١١/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٨٩/١١ ، لباب التأويل ٢٤٤/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٢٢٣/٥

(٥) - ما تطعمه المرأة عند ولادتها ، و الخروس : التي يصنع لها شئ عند الولادة . ينظر : المخصص ، كتاب الطعام ٤١٤/١ ، لسان العرب ، مادة (خرس) ٦٢/٦ ، ومن فوائد الرطب الخاصة للنفساء احتواؤه على مادة قابضة للرحم ، كما يحتوي على نسبة عالية من السكاكر البسيطة السهلة الامتصاص . . . ينظر : كتاب النخل ص ٧٠ ، الطب النبوي للذهبي ص ٨٩ ، التداوي بالأعشاب والطب النبوي ص ٣٥-٣٦ ، الطب النبوي ، أكرم رضا ص ١٩٩-٢٠٠

(٦) - بحجة الناظرين لسليم الهلالي ٥٩٥/٢ ، الإعجاز الطبي في القرآن ص ٩٩

يقول الزمخشري : " أي جمعنا لك في السري والرطب فائدتين إحداهما الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين " (١) فأزال همها ، وأمرها بالإمساك عن الكلام ؛ كي يتولى هذا الطفل المعجزة الرد عنها ، فيظهر براءتها مما سينسب إليها ، وكل هذه آيات خارقة للعادة أظهرها الله بمناسبة ميلاد عيسى - عليه السلام - .

وذكر الله - سبحانه وتعالى - في موضع آخر من القرآن الكريم طرفاً من فضله ورحمته - سبحانه وتعالى - بمریم وابنها ، وتشريفه لهما ولكن بإيجاز يقتضيه المقام ، وهو الاستدلال على عظيم قدرة الله - تعالى - على ما يشاء ، وقد جاءت قصتهما - عليهما السلام - مفصلة في سورتي آل عمران ومريم ، يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ

ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٢﴾

يقول ابن عاشور : جعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما ؛ إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه ، وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات التي أقسم الله بها (٣)

وفيهما بيان لجانب مما أنعم به سبحانه - على عيسى وأمه - عليهما السلام - .

وهذه الربوة هي الموضع الذي فرت إليه مريم حين استحيت في قصة عيسى - عليه السلام - وهو

الذي قيل لها فيه ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٤﴾

وفي جعل عيسى وأمه - عليهما السلام - آية واضحة وحجة عظيمة ، دلالة على قدرة الله - تعالى - النافذة التي لا يعجزها شيء .

وهي آية عظمى بمجموعها ، وهي آيات مع التفصيل (٥) ولم يقل آيتين لأن كل واحد صار آية بالآخر (٦)

(١) - الكشاف ١٤/٣

(٢) - سورة المؤمنون الآية ٥٠

(٣) - التحرير والتنوير ١٣٨/١٧

(٤) - المحرر الوجيز ١٤٥/٤

(٥) - البحر المحيط ٣٧٧/٦

(٦) - المفردات في غريب القرآن ٣٣/١ ، لباب التأويل ٣٨/٥

والمراد بهذا الإيواء ، هو : ذهابها لتلك الربوة وانفرادها هناك ؛ لتلد عيسى في معزل عن الناس ؛ حفظاً له من أذاهم .

والربوة : المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشيء يربو ، إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا لأنه زيادة أخذت على أصل المال ، والمعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر (١)

ووصف الله - سبحانه وتعالى - هذه الربوة بصفيتين هما : أنها ذات قرار ومعين . ومعنى القرار : الاستقرار ، أي : جعلناها صالحة للاستقرار فيها بما فيها من مغلات وطاقات وثمار وماء .

أما المعين الذي في الآية ، فهو السري الذي ذكره الله في سورة مريم ، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : المعين : الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله - تعالى - ﴿ قَدْ جَعَلْنَا لَكَ مَعِينًا سَرِيًّا ﴾ (٢)

ووصف الماء بالمعين ؛ لأنه جامع للمنافع كلها بغير كلفة فهو جارٍ ، فاجتمع في الربوة الماء والغذاء والظل وجمال المنظر ؛ مما يساعد على الاستقرار والمكث وهذا كله من فضل الله على الصديقة وابنها - عليهما السلام - .

واختلف الناس في موضع الربوة المشار إليها في هذه الآية فقبل في ذلك أقوال (٣) منها : أنها في دمشق (٤) ، وقيل بيت المقدس ، وقيل في مصر (٥)

(١) - معاني القرآن للفراء ٢/٢٣١ ، تاج العروس ٣٨/١١٨ ، مادة (ربو)

(٢) - جامع البيان ١٩/٣٩

(٣) - جامع البيان ١٩/٣٧-٣٨ ، الكشف والبيان ٧/٤٩ ، معالم التنزيل ٥/٤١٩ ، باب التأويل ٥/٣٨ الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ٥/٤٧٦-٤٧٧

(٤) - دمشق هي أم الشام ودار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم وبنياحهم . وتمتاز بحسن العمارة ونضارة البقعة وكثرة وكثرة الفاكهة ونزاهة الرقعة وكثرة المياه ووجود مآرب قيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها وقيل سميت باسم بانيها . ينظر أحسن التقاسيم ١/١٤٤ ، معجم البلدان ٢/٤٦٣ ، الروض المعطار ١/٢٣٧

(٥) - سميت بمصر بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام ، فتح عمرو بن العاص مصر والأسكندرية سنة تسع عشرة وقيل : سنة عشرين ، في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنها - وبمصر منافع ومصانع وبساتين وغرف مشرفة على النيل . ينظر : أحسن التقاسيم ١/١٧٤-١٧٥ ، معجم البلدان ٥/١٣٧ ، الروض المعطار ١/٥٥٢

وضَعَّف هذا القول ابن عطية ^(١) واستبعده جدًا ابن كثير ^(٢) وقيل بالرملة ^(٣) ، وأورد الطبري وابن كثير في ذلك أثرًا عن أبي هريرة وهو قوله - رضي الله عنه - { إلى ربوة ذات قرار ومعين } قال: هي الرملة من فلسطين ^(٤) ^(٥) وضعف هذا القول الطبري فقال : " وليس كذلك صفة الرملة ؛ لأن الرملة لا ماء بها مَعِين " ^(٦) وأولى الأقوال عنده : " أنها مكان مرتفع ذو استواء ، وماء ظاهر " ^(٧) بينما ابن كثير يرى أن أقرب الأقوال قول من قال هو بيت المقدس فقال : " فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى . والقرآن يفسر بعضه بعضًا. وهو أولى ما يفسر به ، ثم الأحاديث الصحيحة ، ثم الآثار " ^(٨) ولا يهم تحديد المكان بالضبط ، ولكن الأهم الإشارة إلى المكان الطيب الذي أوامها به الله ، وأسكنهما به فهو في جهة مرتفعة من الأرض ذات استقرار ؛ لاستوائها وصلاحتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار ، و يرى في الوقت ذاته فيها معينًا جاريًا على وجه الأرض . وهذه الربوة أحسن ما يكون فيه النبات وهو قول : ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ^(٩)

(١) - المحرر الوجيز ١٤٥/٤

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٤٧٦/٥

(٣) - سميت بالرملة لما غلب عليها الرمل، وهي مدينة عظيمة بفلسطين ، وبينها وبين القدس ثمانية عشر ميلًا، ومدينة الرملة واسطة بلاد فلسطين . ينظر : معجم البلدان ٦٩/٣ ، الروض المعطار ٢٦٨/١

(٤) - هي أركى بلاد الشام ، وآخر كورها من ناحية مصر قصبته البيت المقدس قال ابن عطية في تفسيره: يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى خصّ فلسطين بالتقديس، وقال الطبري: إن من فلسطين ظهر عيسى عليه السلام ، فتحها معاوية سنة تسع عشرة ، وماؤها من الأمطار والسيول ، وأشجارها قليلة وديارها حسنة . ينظر : معجم

البلدان ٢٧٤/٤ ، الروض المعطار ٤٤١/١

(٥) - جامع البيان ٣٧/١٩ ، تفسير القرآن العظيم ٤٧٧/٥

(٦) - جامع البيان ٣٨/١٩

(٧) - المصدر السابق ٣٨/١٩

(٨) - تفسير القرآن العظيم ٤٧٧/٥

(٩) - المصدر السابق ٤٧٦/٥

ومما سبق يتضح كيف كانت نعم الله على مريم البتول الطاهرة والتي كانت نموذجًا رائعًا من ورثت الدين والصلاح عن أهلها وورثته لابنها ، وكيف كانت عفيفةً محصنةً منقطعةً لعبادة خالقها - سبحانه- فجازاها الله بتلك النعم والكرامات التي اختصها بها - عليها السلام - .

من هداية الآيات :

- تسلسل الأنبياء دليل على لطف الله - تعالى - بعباده ، قد اقتضت حكمته أن يجعل في الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم كلما فقد ابتدأت الهداية بآدم أبي البشر واستمرت حتى آخر الأنبياء محمد - عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم - .

- لطف الله بالإنسان حيث جعله يترقى على طريق العبودية والحاجة لله - سبحانه وتعالى - فيتلمس أسباب رزقه ، وفي ذلك الخير كل الخير له .

- يؤمن المسلم بأن الله - سبحانه وتعالى - ضمن له رزقه وقدره منذ الأزل ، فعلى الإنسان أن يسعى ويكد في طلب هذا الرزق ، أن يشكره دوماً عليه ، وأن يرضى ويصبر إن ضاق رزقه فهو من أقدار الله .

- جبلت النفوس على حب الأولاد فهم زينة الحياة الدنيا ، ولكن الذين طلبوا الولد - كما سبق - كزكريا - عليه السلام - وامرأة عمران ، لم يطلبوا الولد لذاته ، بل كان مقصد زكريا - عليه السلام - طلب رضا الله ، وحمل هم من يحمل الرسالة بعده ، أما أم مريم فهي تريد الولد ؛ ليخدم دين الله ، ويكون محرراً للمسجد ، فينبغي أن تكون هذه النماذج قدوات لنا في إخلاص النية لله - سبحانه وتعالى - في كل عمل نقوم به ، وكل طلب ورجاء من الله - سبحانه وتعالى - .

- يرتبط الرزق الذي يسوقه الله للإنسان بحكمته - تعالى - فهو يقبض وييسط الرزق لمن يشاء ، ويبلو عباده ويختبرهم فهو اللطيف بهم الخبير البصير بما ينفعهم .

- أن الله - سبحانه وتعالى - يرزق من يشاء بغير حساب فهو - سبحانه - من خلق وهو من يقدر ما يشاء لمن يشاء .

- خلق الله الخلق ، وقدر أرزاقهم وبين لهم أنه المتكفل به ، وبين لهم أسباب الرزق للحصول على الرزق الحلال الطيب ، ودلهم على طرقه ، وبين لهم الوجهة الصحيحة في طلب الرزق سيراً كريماً متوازناً ، وهذا من فضل الله على بني آدم ورحمته بهم - سبحانه - .

- أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ؛ لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه ، مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه - سبحانه - إلا ما يشاءه ويريده . و في أمر الله - سبحانه وتعالى - لمريم بهز الجذع جمع بين شيئين :

أ - طلب الأسباب .

ب - الاعتماد على المسبب - سبحانه - ؛ فهي متعبة من المخاض وهز الجذع صعب يعجز عنه المجموعة من الرجال الأقوياء ، ومع ذلك أمرها الله - سبحانه - بهز الجذع فلا بد من التوكل على رب الأسباب مع بذلها وما أجمل قول القائل :

توكل على الرحمن في الأمر كله.....ولا ترغبين بالعجز يوما عن الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم.....وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه.....إليها ولكن كل شئ له سبب

- من الفوائد التربوية من دخول جبريل على مريم - عليهما السلام - المنطقية في التعامل :

لجبريل عليه السلام ستمائة جناح ، كما ذكر ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان يملأ

السماء حين رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - مرتين على هيئته التي خلقه الله تعالى عليها فلو

دخل على مريم بهذه الهيئة لأخافها ولم تسمع منه وقد نبّه المولى - سبحانه وتعالى - على المثلية

فقال راداً على الذين رغبوا أن يكون الرسول ملكاً حتى يؤمنوا به ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ

جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ

يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١﴾ (٢)

- الدعم والتأييد والشرف الكبير الذي اختصت به مريم - عليها السلام - ففي قصتها يظهر

تأييد الله - سبحانه وتعالى - لها ، ونصرتها وإعانتها على ما شرفها به في عدة أمور منها :

أ - أنها سمعت الملائكة تكلمها وتشد من أزرها .

ب - جرى النهر العذب من تحتها .

ج - هزت جذع النخلة فتساقط الرطب اللذيذ .

- تصميم أم مريم على الوفاء بنذرها ، وعدم رجوعها عن عزمها ، وتفانؤها بأن تكون ابنتها عابدة

ولذلك سميتها بمريم فهو بلغتهم العابدة أو خادم الرب (٣) .

(١) _ سورة الإسراء الآية ٩٤-٩٥

(٢) _ تأملات تربوية ص ١٠٤

(٣) _ الجامع لأحكام القرآن ٦٨/٤ ، وينظر : تفسير الطيب من القول ص ٢١٩

- جزاء الله لعباده الصالحين ولطفه بهم فقد انقطعت مريم - عليها السلام - لعبادة الله وضربت أروع الأمثلة في كمال العبودية لله - سبحانه وتعالى - وكانت مثال الطهر والعفاف فكافأها الله - سبحانه وتعالى - بأن عاشت حياتها في فيض من الرحمات والكرامات ، وفي تسمية سورة مريم باسمها مع ذكر أسماء أنبياء غيرها ورثوا أبناءهم الذين كإبراهيم وزكريا - عليهم السلام - تخليد لذكراها وتشريف لها وتأكيد على دور المرأة المسلمة في الحياة ؛ فهي المربي الأول للطفل .

المطلب الخامس : الامتتان على أهل مكة خاصة :

امتن الله - سبحانه وتعالى - على أهل مكة بنعم أسبغها عليهم خاصة ، ومنها : وفرة الثمار التي رزقهم الله - سبحانه وتعالى - استجابةً لدعاء نبي الله إبراهيم - عليه السلام - .

وإبراهيم - عليه السلام - هو أبو الأنبياء - عليهم السلام - ويتفق المؤرخون على ولادته بالعراق، وظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، أي قبل حوالي أربعة آلاف عام ، ورد ذكره - عليه الصلاة والسلام - في القرآن كثيراً ، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين ، دعا قومه إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا له ، فكسّر أصنامهم فألقوه في النار فأبجأه الله منها ، وجعلها عليه برداً وسلاماً ، أمره الله ببناء الكعبة المشرفة هو وابنه إسماعيل وأن يؤذن في الناس بالحج .

أكرمه الله تعالى بالخلة ^(١) فهو خليل الرحمن ^(٢) وجعل أكثر الأنبياء من ذريته ، وختم ذلك بسيد المرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - وشرف وكرم ^(٣)

وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - في القرآن الكريم أنه دعا ربه مرتين ، الأولى : عندما ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع ، و ذكر البخاري قصة إسكان إبراهيم - عليه السلام - هاجر مكة في صحيحه ^(٤) ، ولما أراد مغادرتهم دعا لهم ولأهل الحرم ، والأخرى : عندما كبر ابنه إسماعيل ، وصار للحرم سكان ، وأراد بناء الكعبة ، وذكر الثمرات ضمن الدعوات دليل على مكانتها وأهميتها ، ولذا خصها إبراهيم - عليه السلام - بالدعاء من بين سائر المطعومات والطيبات .

دعوة إبراهيم - عليه السلام - الأولى :

(١) _ أصل " الخلة " : الاختصاص ، والاصطفاء ، قيل : هو مشتق من الخلة بفتح الخاء ، وهي الحاجة ، وقيل : من الخلة، بضم الخاء وهي : تحلل المودة في القلب ، سمي خليل الله بأنه الذي أحبه الله واصطفاه محبةً تامةً كاملةً.

ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١١٢/٢ ، مفردات غريب القرآن للأصفهاني - (١ / ١٥٣) كتاب الخاء (خل) ، تاج العروس ٤٣٠/٢٨ ، مادة (خلل) ، وينظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٣٤

(٢) _ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : { يا أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً } من حديثٍ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : النهي عن بناء المساجد على القبور ، واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ح ١١٨٨ ، ص ٧٦٠ . قال النووي بعد أن بين معنى الخلة : فنفي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث أن تكون حاجته وانقطاعه إلى غير الله - تعالى - . صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/٣

(٣) _ البداية والنهاية ١٦٣/١ ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٤٥/١ ، العرب واليهود في التاريخ ص ٢٥٠-٢٥١ ، تاريخ الأنبياء ص ١٠٥-١٠٦ .

(٤) _ صحيح البخاري ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : { يرفون } الصفات : ٩٤ : النسلان في المشي ، ح ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، أخبار مكة للفاكهي ١٢٠/٥ .

هي التي وردت في سورة إبراهيم ، وذلك عندما جاء إبراهيم - عليه السلام - بزوجه هاجر وابنه إسماعيل وهو رضيع ، ووضعهما عند البيت ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، فانطلق حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم رفع يديه ودعا بهذه الدعوات ، فقال ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ

تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) إلى آخر القصة ، ويظهر من الآيات أن دعاء إبراهيم بهذا الدعاء أول قدومه مكة .

وكرر الخليل دعاءه بالنداء ؛ لزيادة التضرع ، ولأن وصفه بالربوبية أدخل في القبول ، وإجابة المسئول (٢) فالملاحظ على آيات الدعاء الكريمة ورود لفظ الجلالة في دعاء العبادة والثناء عليه - سبحانه - ، بينما يرد لفظ الرب في دعاء المسألة والطلب .

وحول هذا يقول ابن تيمية : فإن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد ، والرب هو الذي يرب عبده فيدبره ؛ ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه : الله ، والسؤال متعلقاً باسمه : الرب ، فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق . والإلهية هي الغاية ؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ، ولما كانت العبادة متعلقة باسم الله - تعالى - جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم ، مثل : كلمات الأذان ، وأما السؤال فكثيراً ما يجيء باسم الرب ، كقول الخليل ، ومثله كثير (٣) .

ثم أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه لخالقه ، وأنه رأى الرفق بهم في الجوار لا في المبارّ فأسكنهم عند بيت الله المعظم (٤)

وكان في ذلك الوقت وادياً مقفرًا من جميع الكائنات ، ومن ضروب الزراعة ، فليس لهم إلا صاحب البيت العظيم الذي سكنوا بجواره ، فرجاه ودعاه أن يدركهما بفضله وكرمه ورعايته .

(١) - سورة إبراهيم الآية ٣٧

(٢) - إرشاد العقل السليم ٥١/٥

(٣) - الفتاوى الكبرى ٢٥٣/٥ ، ومجموع الفتاوى ٢٨٤/١٠ - ٢٨٥

(٤) - لطائف الإشارات ٢٥٦/٢

(من) في قوله - تعالى - ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ للتبعيض ، أي : بعض ذريتي ، وهو : إسماعيل - عليه السلام - (١)

﴿ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ الوادي : الأرض بين الجبال ، وهنا : وادي مكة ، لأنها حجرية (٢) وليس من شروط الوادي أن يكون فيه ماء .

والذي يظهر أن ذلك الوادي لا ماء فيه ، كما تفيد رواية البخاري والتي فيها نفاذ الماء مع هاجر وعطشها وابنها ثم طلبها له ثم تفجر بئر زمزم آيةً من الله - سبحانه وتعالى - وفضلاً .

ووصف إبراهيم - عليه السلام - هذا الوادي بأنه غير ذي زرع ، وهو وصف للمبالغة ؛ لأن المعنى ليس صالحاً للزرع (٣) ، وكلمة ذُو تدلّ على صاحب ما أضيفت إليه وتمكنه منه ... ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع ، أولاً زرع به (٤) فالزراعة لا بد لها من زارع مع توفر عوامل أخرى .

وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم - عليه السلام - قد كان علم من الله تعالى أنه لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي ، وأنه يرزقهما الماء ، وإنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال : غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال : غير ذي ماء على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك (٥) .

وكرر - عليه السلام - نداء ربه بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ ؛ لإظهار شدة الحاجة والتذلل ، ورجاء الإجابة ، ثم بيّن الباعث لإسكانه بعض ذريته في هذا المكان المبارك ، و المقصد الأقصى والمطلب الأسنى وهو : إقامتهم الصلاة في جوار بيت الله وذكره وطاعته ، وخصّص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ؛ لأنها أولى العبادات وأفضلها ، ولكمال العناية بشأنها .

(١) - المحرر الوجيز ٣/٣٤١ ، تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهاجمي ١/٣٩٢ ، لباب التأويل ٤/٤٨ ، البحر المديد ٣/٦٥ ، فتح القدير ٣/١١٢

(٢) - البحر المديد ٣/٦٥ ، التحرير والتنوير ١/٣٥١

(٣) - روح المعاني ٧/٢٢٣

(٤) - التحرير والتنوير ١٣/٢٤١

(٥) - المحرر الوجيز ٣/٣٤١ ، البحر الخيط ٥/٤٢٠

وتكرير النداء وتوسيطه للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمت ، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها (١) ثم دعا ربه - سبحانه وتعالى - أن يجعل قلوب المسلمين متعلقةً بالموضع ، راغبةً إليه .

فأجابه الله - سبحانه وتعالى - فأخرج من ذريته محمدًا - عليه الصلاة والسلام - الذي دعاهم للإيمان بالله وإلى ملة إبراهيم - عليه السلام - فاستجابوا له وأقاموا الصلاة ، وأصبحت مكة مكانًا لا يخلو من الزوار في كل وقت ، وخصوصًا حجاج بيته الذين يأتونه من أصقاع الأرض في شوق وولع وتوق (٢)

ولما كان وصف الوادي بغير ذي زرع ينطبق على مكة ذلك الوقت ؛ لأنها مقفرة من البشر والماء ؛ ولذا ألحقها - عليه السلام - بدعوة الله بأن يرزقهم من الثمرات ، فقال - تعالى - ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ، وهي جمع ثمرة ، والثمر : اسم لكل ما يتطعم من أعمال الشجر، الواحدة ثمرة والجمع ثمار وثمرات (٣)

والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عُربي أي من جميع الثمرات المعروفة للناس ، ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء من التي للتبويض " (٤) فهو دعاء مطلق غير محدود (٥) فدعا - عليه السلام - أن يرزقهم من ثمرات النبات والأشجار ما رزق سكان القرى ذوات الماء والزرع ، فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار ، وقيل : يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة (٦) كما قال تعالى ﴿يُجَوِّعُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

(١) _ السراج المنير ١٤٧/٢

(٢) _ اكتشف العلماء حديثًا أن مكة هي مركز اليابسة في العالم ، وهي قلب الأرض ، ومركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي بوائمه ظاهرة عجيبة قد تذوقها كل من زار مكة بقلب منيب فهو يحس أنه ينحذب فطريًا إلى كل ما فيها ، حتى لو استطاع أن يدوب في كيانها مندجًا بقلبه وقالبه ، وهذا إحساس مستمر من بدء الوجود على الأرض . باختصار من موسوعة إعجاز القرآن والسنة ص ٢١٣ - ٢١٤

(٣) _ مفردات غريب القرآن ٨١/١ ، لسان العرب ١٠٦/٤ ، مادة (ثمر) ، تاج العروس ٣٢٨/١٠

(٤) _ التحرير والتنوير ٧١٥/١

(٥) _ حياة إبراهيم _ عليه السلام _ ص ١٤٢

(٦) _ جامع البيان ٢٦/١٧ ، لباب التأويل ٤٩/٤ ، السراج المنير ١٤٧/٢ ، فتح القدير ١١٢/٣ ، تيسير الكريم المنان

رَزَقًا مِّن لَّدُنَّا ﴿١﴾ فأجاب الله دعاءه ، فصار هذا الوادي يجي إليه ثمرات كل شيء ، وهو أمر مشاهد فالثمار فيها متوفرة في كل وقت ، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب .

ثم بين - عليه السلام - سبب دعوته لهم بما دعاه بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة العظيمة التي اختصهم بها ، في أن يرزقوا بأنواع الثمار المختلفة في واد مقفر خال لا نبات فيه ولا ماء . بين صاحب الكشاف النعمة التي أنعمها الله - سبحانه وتعالى - على أهل مكة فقال : " لا جرم أن الله - عز وجل - أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً ، وفي أى بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذى زرع ، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب " (٢) وعلل ابن عاشور دعاء إبراهيم عليه السلام بأن فيه " دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه " (٣) .

أما الدعاء الآخر الذي توجه به إبراهيم - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من أجل مكة وأهلها فقد ذكره الله - سبحانه وتعالى - في سورة البقرة في قوله - سبحانه - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ

فَأْمِتْنَاهُ فَلْيَلَا تُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ فدعا لهم بالأمن وما ذاك إلا لأهمية الأمن بالنسبة للإنسان ، لأنه تتعلق بحرصه على نفسه وأهله ومن يحيط به ، فلا حياة للإنسان ولا للمجتمعات إلا في ظل الأمن والأمان .

ثم دعا لهم بأن يرزقهم الله تعالى الثمرات ، وقيد هذا الرزق بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين العلماء سبب هذا التقييد ، وهو أنه لما طلب الإمامة فيه وفي ذريته أجابه الله - تعالى - ﴿لَا

(١) - سورة القصص من الآية ٥٧

(٢) - الكشاف ٥٦٠/٢ ، وينظر : أنوار التنزيل ١ / ٤٤٠ ، أنوار التنزيل ١ / ١٤ ، مدارك التنزيل ٢/٢٢٠ ، البحر المحيطة

٤٢٢/٥ ، البحر المديد ٦٧/٣ ، السراج المنير ١٤٨/٢

(٣) - التحرير والتنوير ٧١٥/١

(٤) - سورة البقرة الآية ١٢٦

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ فخص إبراهيم - عليه السلام - المؤمنين بدعائه تأدباً مع الله - سبحانه وتعالى - فلم يطلق ، بل قيد طلب الرزق لمن آمن بالله واليوم الآخر، ولئلا يعمره الكفار فيضعوا فيه الأحجار التي يعبدونها (٢)

وقد أوضح الزمخشري سبب هذا التقييد بأنه قاس الرزق على الإمامة فعرف الفرق بينهما ؛ لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى ، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم ، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة له (٣)

وبيّن الطبري سبب تقييد الرزق بالإيمان في دعاء إبراهيم - عليه السلام - بقوله " وخص ، بمسألة ذلك للمؤمنين دون الكافرين ؛ لما أعلمه الله - عند مسألته إياه أن يجعل من ذريته أئمة يقتدى بهم - أن منهم الكافر الذي لا ينال عهده ، والظالم الذي لا يدرك ولايته . فلما أن علم أن من ذريته الظالم والكافر ، خص بمسألته ربه أن يرزق من الثمرات من سكان مكة ، المؤمن منهم دون الكافر " (٤)

واستجاب الله - سبحانه - له وأخبره أن رزقه شامل للمؤمن والكافر ، فضلاً منه وابتلاءً : أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله تعالى وطاعته ، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر ، فيتمتع فيه في هذه الحياة الدنيا متاعاً قليلاً ثم مصيره إلى النار .

ودعا لهم - عليه السلام - بالثمرات ؛ ليجمع لهم الأمن والخصب ، فيكونوا في رغد من العيش (٥) وقيل في سبب دعوته لهم بالثمرات بدل الحبوب : لما في تعاطي الحبوب من الذل المنافي للأمن (٦) وقد يكون هذا القول لأنه عند طلبه الثمار لهم فمن باب أولى أن تكون الحبوب متوفرة؛ لأن الثمرات منها الفاكهة ، والأمر الآخر قد يكون في أخذ الحبوب وحصدها نزول وانحناء أما الثمار فأغلبها مرتفعة - والله تعالى أعلم - .

(١) - سورة البقرة من الآية ١٢٤

(٢) - تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهايمي ٥٩/١

(٣) - الكشاف ١٨٦/١ ، وذكر الرازي أن سبب هذا التخصيص : النص والقياس ، ينظر : التفسير الكبير ٤٩/٤

(٤) - جامع البيان ٥٢/٢

(٥) - النكت والعيون ١٨٨/١

(٦) - نظم الدرر ٢٤١/١

ووروده هنا في مجال الامتنان على أهل مكة ؛ لتذكيرهم بهذه النعمة العظيمة التي نسوها ولم يشكروا الله عليها ، واتخذوا الأنداد والأوثان فذكرهم بها - سبحانه - .

ولعظم امتنان الله تعالى على مشركي مكة ، وعظم النعمة التي أسبغها عليهم - سبحانه وتعالى -

من توفر الثمرات فقد جاء الامتنان في آية أخرى وهي قوله - تعالى - ﴿ وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن

لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) و فيها رد الله - سبحانه وتعالى - مزاعم المشركين

في سبب عدم إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - حين قالوا : إنا لنعلم أن قولك حق ،

ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا - يعني مكة

- لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم (٢) والتخطف من الخطف ، والاختطاف :

الاختلاس بسرعة ، و نتخطف من أرضنا : ننتزع منها بسرعة ، أي نخرج من البلاد (٣)

فاستفهم - سبحانه وتعالى - استفهامًا إنكاريًا ؛ لتقريعهم على قولهم هذا المخالف لحقيقة واقعهم ،

فقال - سبحانه - ﴿ أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهذا

الإنكار يقتضي توبيخاً على هذه الحالة التي نزلوا لأجلها منزلة من ينفي أن الله مكن لهم

حرمًا (٤)

فهم في نعمة اختصهم الله - سبحانه وتعالى - بها دون الناس ، وهي جعلهم ممكنين في مكان آمن

يقصده الزائرون ، وهم بجواره آمنون مطمئنون على أنفسهم وأموالهم ، تجبي إليهم الثمار الكثيرة ،

والبضائع المتنوعة فيأكلون ، ويغنمون بالتجارة والكسب ، بعكس القرى الأخرى التي أحاط بها

الخوف والجوع .

وهذا لما كان الله - تعالى - قد ركب في قلوب أهله الذين نزلوه والعرب قاطبةً من تعظيم البقعة ،

(١) _ سورة القصص ٥٧

(٢) _ جامع البيان ٦٠١/١٩ ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٩٩٥/٩ ، الكشف والبيان ٢٥٥/٧ ، معالم التنزيل

٢١٥/٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٠٠/١٣ ، البحر المحيط ١٢٠/٧ ، تفسير القرآن العظيم ٢٤٧/٦

(٣) _ مفردات غريب القرآن ١٥٠/١ ، مختار الصحاح ص ١٨١ ، مادة (خطف) ، تاج العروس ٢٢٥/٢٣

(٤) _ التحرير والتنوير ١٤٩/٢٠

وتفضيل الموضع عن غيره من الأرض المشابهة له في الصفة بهذه الخصيصة المعظمة (١)
وأدمج - سبحانه وتعالى - الامتنان من خلال الرد على زعمهم ؛ ليحصل لهم وازعان عن الكفر
بالمنعم : وازع إبطال معذرتهم عن الكفر ، ووازع التذكير بنعمة المكفور به (٢)
فإذا كان ذلك الأمن والخير والعيش الرغيد هو شأن الناس معهم وهم على الشرك والضلال ، أفلا
يكون لهم مثل هذا الشأن ، وهم على الهدى والإيمان و اتباع الحق ؟ وهل كان الأمن والخير الذي
يعيشون فيه من عند أنفسهم أم كان بركة دعاء نبي الله إبراهيم - عليه السلام - واستجابة الله
- تعالى - له ، ولكنهم لا يعلمون .

ولهذا حذرهم من كفر النعمة ، وتوعدهم بما فعل - سبحانه - بالأمم السابقة .
وكما قال الزمخشري " ألقمهم الله الحجر ؛ بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بجرمة البيت وآمن
قطانه بجرمته ، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون ، وهم آمنون في حرمتهم
لا يخافون ، وجرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجي إليهم من كل
أوب ، فإذا حولهم الله ما حولهم من الأمن والرزق بجرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام
فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة
الإسلام " (٣)

وقوله - تعالى - ﴿ يُجِبُّ إِلَيْهِ ﴾ أي : يجمع ، ويحمل إليه ، يقال : جبي فلان الماء في الحوض
إذا جمعه فيه ، وحمله إليه (٤) و نقل القرطبي هذا القول عن ابن عباس - رضي الله عنه - (٥) .
والمعنى : تحمل إليه ألوان الثمرات من كل مكان ، وقال ابن عباس : إنها ثمرات الأرض (٦) وعبر
- سبحانه - عن كثرتها بقوله - تعالى - ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ إذ كل شئ : عام في كل ذي

(١) _ أحكام القرآن لابن العربي ٥٧/١

(٢) _ التحرير والتنوير ١٤٩/٢٠

(٣) _ الكشاف ٤٢٢/٣

(٤) _ معجم مقاييس اللغة ٥٠٣/١ ، مادة (جبي) ، مفردات غريب القرآن ٨٧/١ ، كتاب الجيم ، مادة (جبي) ،

لسان العرب ١٢٨/١٤ ، مادة (جبي) ، المعجم الوسيط ١٠٦/١ (جبا)

(٥) _ الجامع لأحكام القرآن ٣٠٠/١٣

(٦) _ جامع البيان ٦٠٢/١٩

ثمرة وهو عموم عرفي ، أي ثمر كل شيء من الأشياء المثمرة المعروفة في بلادهم والمجاورة لهم (١) ، ومعنى الكلية في الآية الكثرة ، أي : ثمرات أشياء كثيرة ، على أن كل للتكثير (٢) وفي التعبير بالمضارع إشارة إلى الاستمرار ، وكثرة الخيرات والثمرات التي تأتيهم من كل حذب وصبوب (٣)

وقرئت يجي إليه بالياء والتاء ، ووردت كذلك تجنى بالنون من الجني (٤) وفي الآية امتنان بالغ من الله - سبحانه وتعالى - لمشركي مكة ؛ حيث اجتمع الأمن وكثرة الثمرات ، وهذا الرزق الذي رزقوه هو بفضل الله - تعالى - عليهم ، وهو في غاية الغرابة ؛ لأرضهم الجافة المقفرة فعبر عنه - سبحانه - بنون العظمة ، وفي هذه الإضافة تكريم لهم ، وإشارة إلى كثرتها وبركتها ، فقال - جل شأنه - ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ومع هذه النعم الجليلة فأكثرهم لا يعلمون ، كما قال - سبحانه - ﴿وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تلك النعمة الربانية التي تفضل الله - سبحانه وتعالى - بها عليهم خاصة من دون سائر البشر من الأمن والحرمة ، والخيرات التي تأتيهم ، وكما أنهم يجهلون فهم يجهلون كذلك أن اتباعهم لدين نبيهم - عليه الصلاة والسلام - فيه السعادة الدائمة لهم في حياتهم وبعد مماتهم .

ويرد إلى الذهن سؤال وهو : أي دعاء كان الدعاء الأول لأبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - : الذي ورد في سورة إبراهيم أم في سورة البقرة ؟

ويبدو - والله أعلم سبحانه - أن الدعاء الذي ورد في سورة إبراهيم وهو قوله - تعالى - ﴿رَبَّنَا

إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيْتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٥) هو الدعاء

(١) _ التحرير والتنوير ١٤٩/٢٠

(٢) _ الكشاف ٤٢٣/٣ ، التفسير الكبير ٦/٢٥ ، مدارك التنزيل ١٩٣/٣ ، روح المعاني ٣٠٤/١٠

(٣) _ نظم الدرر ٥٠٤/٥

(٤) _ معالم التنزيل ٢١٥/٦ ، الكشاف ٤٢٣/٣ ، البحر الحيط ١٢١/٧ ، ٢٩٨/١

(٥) _ سورة إبراهيم الآية ٣٧

الأول لنبي الله إبراهيم - عليه السلام - وهو الدعاء الذي قاله عند الثنية بعد أن ولى عن زوجته هاجر وابنه ، وذلك لأمر :

أ - في الآية السابقة ذكر تركه - عليه السلام - لأهله في واد غير ذي زرع .

ب - يفهم من الآية خلو الوادي من الناس ؛ ولذا دعا الله - سبحانه وتعالى - أن تهفو إليه أفئدة من الناس .

ج - رواية البخاري تثبت نص الآية التي في سورة إبراهيم مما يزيد من احتمال كونه الدعاء الأول . أما الآية في سورة البقرة :

أ - لم يرد فيها ذكر الوادي المقفر .

ب - كأنه يشير إلى وجود سكان بقوله - سبحانه - ﴿ أَهْلُهُ ﴾ و ﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ ، وأن المكان أصبح مأهولاً بالسكان ، لقوله - تعالى - ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً
لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

ولهذه الأسباب يظهر أن دعاء إبراهيم - عليه السلام - في سورة إبراهيم هو الدعاء الأول - والله سبحانه وتعالى أعلم - .

وذهب ابن كثير وبعض المفسرين إلى أن دعاء إبراهيم - عليه السلام - في سورة البقرة في قوله

- تعالى - ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) هو

الدعاء الأول ، أما الدعاء الذي في سورة إبراهيم فهو الدعاء الثاني .

قال ابن كثير عن البلد عند تفسير هذه الآية " فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها " (٢) ، وقال في

موضع آخر : " وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن

هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه ، تأكيداً ورغبةً إلى الله ، عز وجل ؛

ولهذا قال: " عند بيتك المحرم " (٣)

(١) - سورة البقرة الآية ١٢٦

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٥١٣/٤

(٣) - المصدر السابق ، الموضع نفسه .

وذلك بالنظر إلى تعريف وتنكير البلد في قوله - تعالى - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ (١) وقوله - سبحانه - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ (٢) فقال أغلب المفسرين الذين فرقوا بين الدعاءين زمنياً: أن الفعل في سورة البقرة اجعل يتعدى لمفعولين ، الأول: هذا ، والثاني بلداً و آمناً صفة للبلد ، فالبلد بعد لم تكن ، أما سورة إبراهيم فكان الدعاء بعد أن أصبحت بلداً ، ومن هنا جاء التعريف ، فهو هنا للعهد الحضوري ، وتكون هذا هي المفعول به الأول للفعل اجعل ، والبلد منصوب على البدلية ، و آمناً هي المفعول به الثاني .
ومنهم من أشار إلى أن الدعاء الذي في سورة إبراهيم كان بعد بناء البيت أي أنه الدعاء الثاني .
وأضاف بعض المفسرين أن الفرق بين البلد في الآيتين أن المطلوب في سورة البقرة البلدية والأمن ، أما في سورة إبراهيم فالمطلوب فقط الأمن (٣)

وفي تذكيرهم بدعاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لهم تأكيد على نبوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن دعوته مبنية على أصول ملة إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - .
ومن الآيات المسوقة للامتنان على المشركين في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الآية في سورة النحل والتي امتن الله - سبحانه وتعالى - عليهم بأن جعل من هذه الثمرات منافع لهم ، فقال - سبحانه - ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

في هذه الآية امتنان عليهم بالمنافع من تلك الثمرات التي رزقهم إياها ، فهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب سكرًا و رزقًا حسنًا .

(١) - سورة البقرة من الآية ١٢٦

(٢) - سورة إبراهيم من الآية ٣٥

(٣) - بحر العلوم ٢/٢٤٥ ، الكشاف ٢/٥٥٧ ، التفسير الكبير ٤/٤٩ ، البحر المحيط ١/٥٥٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥١٣ الباب ٢/٤٧٠ ، نظم الدرر ٤/١٩٠ ، تفسير ابن عرفة المالكي ١/١٦٩ طبعة دار الكتب العلمية ، السراج المنير ٢/١٤٥ ، فتح القدير ٣/١١٢ ، روح المعاني ١/٣٧٩ - ٧/٢٢٠ ، البحر المديد ٣/٦٤ ، التحرير والتنوير ١/٧١٥ - ٤/١٩٠

(٤) - سورة النحل الآية ٦٧

السَّكْرُ : اسم من أسماء الخمر ، يقال : سَكِرَ يَسْكُرُ سَكْرًا ، إذا غاب عقله وإدراكه فهو سكران وسَكِرَ ، و السكران خلاف الصاحي (١)

وفي السكر أقوال ، منها : الأول : أنه من أسماء الخمر ، والثاني : أنه مصدر في الأصل ثم سمي به الخمر ، والثالث : أنه اسم للخمر بلغة الحبشة ، والرابع : أنه اسم للعصير ما دام حلواً كأنه سمي مجازاً لمآله لذلك لو ترك ، والخامس : أن السكر ما طعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب (٢) وهو اختيار الطبري (٣) وأقواها القول الأول ، وهو تفسير جمهور العلماء (٤).
وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان حلالاً من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله - تعالى - من ثمارها .

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين (٥) . وهو أسدُّ الأقوال في معناها كما نقل ذلك القرطبي (٦)

في هذه الآية امتنان عليهم بما فيه لذتهم المرغوبة لديهم ، والمتفشيّة فيهم ، فالامتنان حينئذٍ بمباح ؛ لأن هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة .

ويفهم من الآية التعريض بالمسكر ، ووسمه بتلك السمة التي تعزله عن الحسن من الرزق فقد قسمت المأكولات والمشروبات إلى قسمين : الرزق الحسن و السَّكْر .

والإيماء إلى ضرورة تجنبه ، وفيها تمهيد لتحريم الخمر ، وهذا التدرج من رحمة الله - تعالى - بعباده، لشدة هذا التحريم عليهم ذلك الوقت ، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر ، ثم تتابعت الآيات بعد ذلك في تحريمها .

(١) _ معجم مقاييس اللغة ٣/٨٩ ، مادة (سكر) ، مفردات غريب القرآن ١/٢٣٦ ، كتاب السين ، لسان العرب ٤/٣٧٢

(٢) _ النكت والعيون ٣/١٩٨ ، معالم التنزيل ٥/٢٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٢٨ ، لباب التأويل ٤/١٠٠ ، البحر المحيط ٥/٤٩٥ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥٨١ ، تفسير السراج المنير ٢/١٩١

(٣) _ جامع البيان ١٧/٢٤٦

(٤) _ معالم التنزيل ٥/٢٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٢٨ ، البحر المحيط ٥/٤٩٥ ، نيل المرام ١/٣٥٥ ، التحرير والتنوير ٢/٣٣٩

(٥) _ جامع البيان ١٧/٢٤١ ، معالم التنزيل ٥/٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٥٨١ ، نظم الدرر ٤/٢٨٥

(٦) _ الجامع لأحكام القرآن ١٠/١٢٨

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ففي ما سبق آية باهرة ودلالة واضحة ، على كمال قدرة الله - تعالى - ووحدانيته لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات ، ويستخرجون منها العبر .

وناسب ذكر العقل هنا ؛ لأنه أشرف ما في الإنسان ؛ ولهذا حرم الله المسكرات ، وكل ما يحول بين العقل وبين أن يقوم بوظيفته الصحيحة ^(١)؛ صيانةً لعقول الأمة وحفظاً لها .

(١) - من هدي القرآن ١ / ١١٩

من هدايات الآيات :

- فضل مكة وشرفها على سائر البقاع ، وأنها حرم آمن يأمن فيه الإنسان والحيوان وكذا النبات ، ولا يتسلط عليه الجبارون ، ويحفظه - سبحانه - من الزلازل والغرق والهدم وغيرها من مظاهر سخط الله على العباد .

- جعل البيت الحرام مثابة للناس وملاذا لهم يرجعون إليه وقت الحج وسائر الأوقات ، وفي هذا الاجتماع تكمن كثير من المنافع الدينية والدنيوية .

- أن الرزق الدنيوي هو رحمة من الله - تعالى - تشمل المؤمن والكافر ، وإن كان المؤمن أهل لهذا الرزق لإيمانه ، فإنه يختلف عن رزق الكافر الذي هو لاستدراجه وهو متاع قليل زائل .

- في تقييد طلب الرزق للإيمان تأكيد على تكريم المؤمن وشرفه ، وشؤم الكفر على الكافر وظلمه لنفسه .

- أهمية وجود الجماعة بالنسبة للفرد ، فالاجتماع مع الغير حاجة فطرية تكاملية بين البشر ، ويجد فيها الإنسان راحته وهدوء نفسه واطمئنانه ، سيما إذا كانت جماعة مؤمنة تعينه على الاتصال بخالقه فيستقيم دينه ونلمس هذه الأهمية بدعاء إبراهيم - عليه السلام - .

- توفر الرزق وطيب العيش يعين على أداء الواجبات الدينية ، والتفرغ لها - بتوفيق الله تعالى للعبد - .

- الدعاء للذرية بالهداية والرشاد وسعة الرزق أولاً ، ولنا في إبراهيم - عليه السلام - أبو الأنبياء أسوة حسنة .

- العناية بالنشء - تربية وإعداداً - وبناء الإنسان المسلم ينبغي أن يزيد من الشعور بالمسؤولية الجماعية من قبل المؤمنین بدءاً من المنزل ، وهي مسؤولية لا خيار معها لأمة تحرص على أن تستأنف طريقها للعلاء ، ولتنهض من عثارها ، وتأخذ من جديد مكانها القيادي تحت راية الإسلام الخالدة (١)

(١) _ الإنسان والحياة ص ١٤٧

- من آداب الدعاء : تكرار النداء ، ومناداته بألفاظ ربوبية وألوهيته - سبحانه وتعالى - تأدباً مع المنعم - سبحانه - وفيهما القول الفصل لمقصد توحيد الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار (١) .

- امتنان الله - تعالى - على مشركي مكة بنعمه عليهم ، ومنها : نعمة الأمن الذي ينعمون بها دون سائر العرب ، وكذلك نعمة الثمرات الكثيرة التي تساق إليهم كل وقت وأوان ومن كل مكان مع كون بلادهم أرضاً قاحلة خالية من الموارد المائية وفي هذا إعجاز من الله - سبحانه وتعالى - وعظمة باهرة ، ونعمة بالغة .

- استجابة الله - سبحانه وتعالى - لدعاء نبيه إبراهيم - عليه السلام - وهذا أمر مشاهد ، فزائر تلك البلاد يرى العجب هناك من توفر الأرزاق وألوان النعم والبضائع المختلفة التي تنتشر في تلك البقاع مع الأمن الذي يعيشون فيه .

- دعوة إبراهيم - عليه السلام - من جوامع الكلم ؛ فإنه دعا بالأمن أولاً ؛ لأن الدعوة بالأمن يتبعها الرخاء والرزق الوفير ، وإذا توفرت تلك تبعها كثرة القاطنين والزائرين ، وتحقق سبل الرزق الكثير لهم .

- قصد إبراهيم - عليه السلام - من دعائه تيسير الإقامة لساكنيه ، ورغد عيشهم لتكون تلك البلاد مهبط الرسالات ومنبع الإسلام .

(١) - يراجع قول ابن تيمية الفتاوى الكبرى ٢٥٣/٥ ، ومجموع الفتاوى ٢٨٤/١٠-٢٨٥ ، وجوه البيان في دعاء إبراهيم

- عليه السلام - ص ٢٢٩

المطلب السادس : الامتنان بجعل الشجر والثمر جمال ، وزينة :

تمتاز النباتات والأشجار بمنافع جمة للإنسان ، منها ما هو مادي : كالغذاء والدواء ، ومنها ما هو معنوي : كالأثر الذي تحدثه رؤيتها في نفس الإنسان ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بمفهوم الجمال والزينة .

و هذا الجمال المبتوث في سائر أجزاء الكون ، ينبغي ألا يغيب عن عقل وفكر الإنسان ، وأن يتذوقه ؛ ليزداد إيماناً بخالقه العظيم الحكيم - سبحانه وتعالى - .

وعالم النبات كسائر مخلوقات الله - تعالى - ظهر فيها الكمال والإبداع والحكمة البالغة في الخلق، ففي تأمل هذا العالم الفريد يلي الإنسان حاجته الفطرية والنفسية إلى رؤية الجمال من حوله ؛ فيقوى إيمانه ويدرك عظمة خالقه فهو - سبحانه - من خلقه وهو أعلم بما يصلحه وينفعه - فتبارك الله أحسن الخالقين - .

فطر الإنسان على حب أمور زينت له فهي من الشهوات ، وهي المذكورة في قوله - تعالى -

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ

حُسْنُ الْمَعَابِ ﴾ (١) أشارت الآية القرآنية الكريمة إلى الأصل الذي ترجع إليه كل الأشياء التي

فطر الناس على محبتها ، والاستزادة منها ، والتي لا يرون في محبتها بأساً ولا قبحاً ، وهي :

النساء ، والبنين ، والذهب والفضة ، والخيول ، والأنعام والحراث والزرع . وكلها من متع الحياة الدنيا الزائلة التي لا تنفع الإنسان يوم القيامة .

ولأجل محبة الناس لها ورغبتهم بالاستزادة منها امتن - عليهم - سبحانه بخلقها وإيجادها لهم ، فجمال أنواعها وألوانها (٢) يبعث في النفس الحبور والبهجة ، وجاء الامتنان بجمالها وزينتها في

(١) _ سورة آل عمران الآية ١٤

(٢) _ تحافظ النباتات بأجزائها على مقاييس حساسة رغم تباين أشكالها ظاهرياً ، وهذه المقاييس الحساسة والتوازنات الدقيقة في ذرات النبات ، وفي DNA وتظهر أيضاً في شكل النبات الخارجي وهي التي تكسب النبات حسناً جمالياً بالإضافة إلى تحقيق الأهداف الحياتية لها ، وعند اجتماع هذه الصيغ بالألوان التي تتكون باجتماع الجزيئات المحدودة العدد تظهر مناظر خارقة للعادة ، وهي مثال على الإبداع الإلهي العظيم . ينظر : المعجزة الخضراء ص ٨٧

آيات كثيرة في معرض بيان القدرة الكاملة للخالق - سبحانه وتعالى - وقدرته على البعث ، وأنه الإله المتفرد بالربوبية ، والألوهية ، ومنها قوله - تعالى - ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾^(١)

ذكر - سبحانه وتعالى - في الآية الأطوار التي يمر بها خلق النبات ، وهذه الحالة يراها الإنسان في حياته ، ولكنها نعمة تحتاج إلى تذكير لأنه قد يألفها فلا تحرك به ساكنًا ، وهذه الحالة التي يتغير بها وجه الأرض جديرة بالنظر والتأمل ، وأخذ العبرة من هذا التحول وهي الإيمان الكامل بمن خلق فسوى وأبدع الأرض وزينها للإنسان .

ويبين - سبحانه - أن الإنسان يشاهد الأرض وهي هامدة ، أي : أهدمها القحط فهي خالية من الماء والنبات والحياة^(٢) ، ثم تهتز و تتحرك وتربو وتزدان بالنبات من كل زوج بهيج بعد ربهها بالمطر .

والزوج من النبات : النوع واللون والصنف^(٣) .

والبهيج : الحسن الذي يبهج من يراه ويسره ، وقد بهج فهو بهيج ، والبهجة : حسن لون الشيء ونضارته ، والسرور أيضًا^(٤)

أقامت هذه الآية الكريمة دليلاً واضحاً على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن صدق الوعد بالبعث وأنه آت لا ريب فيه .

(١) - سورة الحج من الآية ٥

(٢) - مفردات غريب القرآن ١/٥٤٥ ، لسان العرب ٣/٤٣٦ ، مادة (همد)

(٣) - تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٩٠ ، معجم مقاييس اللغة ٣/٣٥ ، مادة (زوج) ، لسان العرب ٢/٢٩١ ، المعجم الوسيط ١/٤٠٦ ، السراج في بيان غريب القرآن ص ١٥٩

(٤) - معاني القرآن للكسائي ص ١٩٨ ، نزهة القلوب تفسير غريب القرآن ١/١٣٠ ، مفردات غريب القرآن ١/٦٣ ، كتاب الباء ، (بهج) ، تاج العروس ٥/٤٣٠ ، من نسيمات القرآن ص ٢٤٧ ، ٥٥٢ ، الترجمان والدليل ص ٢٩

وهذا الدليل هو كون الأرض هامدة لا نبات فيها ، ثم كيف ظهرت الحياة فيها بعد نزول المطر عليها فأحيائها فأنبئت بإذن الله - تعالى - من كل زوج بهيج ، مختلف الأنواع والألوان والروائح (١) ، متعدد المنافع ، يثير في النفس الراحة ويبعث الاطمئنان ويملأ العين بهجةً ومسرّةً .

كما جاء الامتنان بالنبات ووصف أثره وبهجته في قوله - تعالى - في سورة ق ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢)

وفي آية أخرى ذكر الله - تعالى - حال الأرض واخضرارها بعد نزول المطر فقال - جل شأنه -

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ ﴾ (٣) في الآية السابقة استفهام تقريرى إنكارى للناس ، فكثير منهم لا يعتبر بهذه النعمة ولا يشكرها لغفلته عنها وإفها .

فيا أيها الإنسان العاقل ألم تبصر أن الله ينزل من السماء مطراً فيحیی به الأرض المجدبة ، فتصير بسببه ذات خضرة ، تكتسي بأنواع وألوان النبات البديع الذي يبهر العين بحسن المنظر وبديع التنسيق .

ومعنى كون الأرض مخضرة : أي المكان الكثير الخضرة ، والخضرة جمع أخضر ، وأحد الألوان بين البياض والسواد ، وهى إلى السواد أقرب ، ولهذا سمي الأسود أخضر ، والأخضر أسود (٤) .

(١) _ إن الرائحة معجزة ذات تأثير متنوع في نفس الإنسان ، مثل : إثارة الأحاسيس الجميلة في نفس الإنسان ، وإعطاء الراحة ، وفتح الشهية ، والروائح مركبات كيميائية معقدة خلقت كنعمة كبيرة للإنسان ، وكل رائحة تتكون من عناصر اجتمعت بمقادير حساسة جداً ، يطلق عليها في علم النبات (الزيوت الطيارة) وتتغير حسب نوع النبات والطقس والضوء والحرارة ، وتستخدم النباتات لهذا الإنتاج ما يقرب من ١٠٠ تركيب كيميائي متنوع تنقلها إلى لب النبات وإلى غددها لعابية قريبة من قشرة النبات ، وهذه المواد تجتمع بمقادير معينة من الإنزيمات ، فتنتج تلك الروائح الزكية التي يحاول تقليدها متخصصو الروائح المختلفة ، وهذه النعمة التي يتلذذ بها الناس لذّة فائقةً ويستنشقونها كلما دخلوا الحدائق بفضل الله - تعالى - ولكل نبات رائحة وصبغة كيميائية مختلفة تختص بها عن غيرها ، حتى إن الزهرة في طرف الأرض والأخرى في طرفها الآخر لها الرائحة نفسها الخاصة بنوعها ، وهذه الروائح من المعجزات الكبيرة _ فتبارك الله أحسن الخالقين _ . باختصار ، ينظر ، التمثيل الضوئي ص ٦٨ - ٧٣

(٢) _ سورة ق الآية ٧

(٣) _ سورة الحج الآية ٦٣

(٤) _ مفردات غريب القرآن ١/١٥٠ ، كتاب الخاء (خضر) ، المصباح المنير ١/٢٠٦ (خضر) ، تاج العروس

١١/١٧٨ ، مادة (خضر) ، المعجم الوسيط ١/٢٤١ ، (المخضرة)

الفاء في (فتصبح) لتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه .

واللون الأخضر مناسب لوصف النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والحيوان بذكر لونه الأخضر ، وفي ذلك لفظة جمالية رائعة ؛ لأن اللون (الأخضر) بطبيعته ممتع للأبصار وهو - أيضاً - موجب شكر على ما خلق الله من جمال المخلوقات في المرأى (١) فالماء والنبات هما سر ديمومة الحياة للكائنات الحية بإذن الله - تعالى - .

وخصَّ الصباح دون سائر أوقات النهار ؛ لأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسر للرائي (٢) .

وجاء الفعل بصيغة المضارع ؛ لاستحضار صورة الاخضرار ، تلك الصورة العجيبة الحسنة ، وإفادة تجدد وبقاء أثر إنزال المطر زماناً بعد زمان واستمراره (٣) .

ويمتاز اللون الأخضر بخواص منها : المساعدة على الاسترخاء العضلي والعصبي والذهني ، تنظيم وتنظيف ميزان الطاقة في الجسم البشري ، ويعطي الشعور بالتجديد والسلام والتناغم ، ويربطنا بالمحبة وتناسق وجودنا كله ، كما يتميز اللون الأخضر بتعزيز القدرة على التحمل ، ويهدئ الخوف، ويزيل الذعر . يقول أحد علماء النفس : " إن تأثير اللون على الإنسان بعيد الغور ، وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا ، ويشعرنا بالحرارة والبرودة ، وبالسرور أو الكآبة " (٤)

فنعمة الاخضرار في النبات نعمة عظيمة تستوجب الشكر والمنة ، كما قال - تعالى - عن جمال الأنعام ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٥)

وعلل - سبحانه وتعالى - هذا الإنزال وما ينتج عنه من الاخضرار ؛ لأنه لطيف رقيق بمن خلق ، يدرك بواطن الأشياء ، وخفياتها ، يدبر للخلق أمور حياتهم ، وما يصلح به شأنهم ، وهو

(١) - من حقائق الكون في التعبير القرآني ص ٣٥ ، وينظر حقائق ذات بجهة ، د. زهير رابح ص ١٥٤

(٢) البحر المحيط ٣٥٦/٦

(٣) - الكشف ١٦٨/٣ ، المحرر الوجيز ١٣١/٤ ، مدارك التنزيل ٩٣/٣ ، إرشاد العقل السليم ١١٧/٦ ،

فتح القدير ٤٦٥/٣ ، التحرير والتنوير ٣١٧/١٧

(٤) - آية الحقائق وعلاج الاكتئاب ص ١٥٤

(٥) - سورة النحل الآية ٦

- سبحانه - خبير بمصالح خلقه ومنافعهم وأحوالهم ، عليم بترتيب المسببات على أسبابها - سبحانه جل شأنه - .

وفسر ابن عباس الآية : بأن الله - تعالى - خبير بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر. لطيف بأرزاق عباده (١).

وفي هذه الآية أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده فكيف تكفر نعمه ويشرك به - سبحانه وتعالى - .

ومنافع النبات لا تقتصر على المنافع المادية فحسب بل لها تأثير عجيب على صحة نفسية الإنسان وسعادته ففي القرآن الكريم إشارات إلى الأهمية النفسية للأشجار وكيف تثير في نفس

الإنسان البهجة والفرح ، منها : قوله - سبحانه - ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ ﴾ (٢)

امتن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية الكريمة على الكفار - زيادةً في توبيخهم - ببعض مظاهر قدرته - سبحانه وتعالى - وألوان من نعمه عليهم والخيرات والمنافع : كخلق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء وما يظهر من الحياة على البلاد والعباد بنزوله وظهور الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح مع أشكالها البديعة التي تثير في النفس البشرية البشر والفرح والبهجة .

الحدائق : جمع حديقة ، وهي في الأصل اسم البستان المحاط بالأسوار .

فالله - سبحانه - أنبت في الأرض من كل نوع من نبات حسن ، وهو البهيج ، أي : يبهج من يراه ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما (٣)

فأهميتها للإنسان من ناحيتين : كونها رزقاً له يأكل منه وينتفع به ، وهي كذلك متنزه له يجد فيها الفرح والسرور وانشرح الصدر .

(١) _ الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٩٢

(٢) _ سورة النمل الآية ٦٠

(٣) _ جامع البيان ١٨ / ٥٧١ _ ٢٢ / ٣٣٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ١٤

وتتميز هذه الحدائق بالبهاء والحسن والرونق ، والبشر بها والسرور على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها ، وتباين طعومها وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها (١).

وتفيد (ذات) ملازمة صفة الإبهاج للحدائق ، وذلك بسبب وجود الشجر في الحدائق الذي يُتم عوامل الإبهاج عن طريق إسعاد الإنسان بإثارة حواسه الخمس الإثارة اللذيذة الحسنة التي تدخل البهجة والسعادة في نفس المتجول في الحدائق (٢)

وهذا الاستدلال مشوب بالامتنان كما ذكر ذلك ابن عاشور بقوله : " فهو استدلال مشوب بامتنان ؛ لأنه ذكرهم بخلق السموات والأرض ، فشمّل ذلك كل الخلائق التي تحتوي عليها الأرض من الناس والعجماوات ، فهو امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة " (٣)

وكل مظاهر القدرة السابقة لا يقدر عليها إلا الخالق - سبحانه - ولذا أتبع الآية الكريمة بقوله - تعالى - ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر ، والكينونة أي : الانبغاء ، أراد - سبحانه - أن حدوث ذلك الإنبات محال من غيره ، فما كان في إمكانكم - أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه الحدائق المتنوعة ، وتخرجوها من الوجود ، فالله - سبحانه وتعالى - هو المختص بهذا الإنعام وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

ومع هذا فهم قوم يشركون به ويسوون به سواه مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي ومنزل الرزق ويجعلون له عديلاً ومثيلاً - سبحانه وتعالى عما يشركون - .

ومن جمال النباتات جاء وصفها في القرآن الكريم بأنها من كل زوج كريم ، وذلك في قوله - تعالى -

﴿ أُولَئِمَّ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَمَّ أَنْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤) وقوله - سبحانه - ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥)

(١) - نظم الدرر ٤٣٨/٥ ، السراج المنير ٧٦/٣

(٢) - آية الحدائق وعلاج الاكتئاب ص ١٤٦

(٣) - التحرير والتنوير ١٠/٢٠

(٤) - سورة الشعراء الآية ٧

(٥) - سورة لقمان الآية ١٠

والكريم: الحسن ، وكل شئ شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم ، وكريم محمود فيما يحتاج إليه (١) وهو : النفيس في نوعه ، فالثمرات كريمة بما لها من البهجة والنضرة الجالبة للسرور ، وبين البقاعي المراد بنبات كريم أي : جم المنافع ، محمود العواقب ، لا خباثة فيه ، من الأشجار والزرع وسائر النباتات على اختلاف ألوانها في زهورها وأنوارها ، وطعومها وأقدراها ، ومنافعها وأرواحها - إلى غير ذلك من أمور لا يحيط بها حداً ولا يحصيها عدداً ، إلا الذي خلقها ، مع كونها تسقى بماء واحد ؛ والكريم وصف لكل ما يرضى في بابه ويحمد " (٢)

وقيل إن المراد بذلك الناس فالكريم منهم من يصير إلى الجنة واللئيم من يصير إلى النار ، قاله الشعبي وغيره (٣) والأول أولى (٤) .

قد دلت كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرد الكثرة (٥)

وفي قوله تعالى : وفي وصف النبات بكريم يحتمل وجهين : إما مدحه من جهة الإتقان وظهور حسن الرتبة والتحكيم في صنعه فيعم حينئذ جميع الأنواع ، وإما مدحه بكرم جوهره وحسن منظره وما تقضي له النفوس بأنه أفضل مما سواه حتى يستحق الكرم ، فيخص حينئذ نفائس الأشياء ومستحسناتها (٦)

واللفظ كريم يشعر النفس بما في النبات من حياة صادرة من رب كريم ، ويدعو إلى استقبال هذه النعمة والمنة بما يليق بها من التكريم والحفاوة وتذكرها وشكر المتفضل بها .

(١) _ معاني القرآن للفراء ٢٧٣/٢ ، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٠٨ ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٣/٤ ،

مفردات غريب القرآن ٤٢٩/١ ، كتاب الكاف (كرم) ، المصباح المنير ٦٤٢/٢

(٢) _ نظم الدرر ٣٤٨/٥

(٣) _ معالم التنزيل ١٠٧/٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٥٧/١٤ ، لباب التأويل ١١٣/٥ ، البحر المحيط ٧/٧

فتح القدير ٩٤/٤ - ٢٣٥/٤

(٤) _ فتح القدير ٢٣٥/٤

(٥) _ الكشاف ٣٠٠/٣ ، التفسير الكبير ٤٩٢/٢٤ ، روح المعاني ٦٢/١٠

(٦) _ المحرر الوجيز ٣٤٧/٤

وفي هاتين الآيتين إدماج للامتنان ضمن الاستدلال ؛ لأن الاستدلال على بديع الصنع يحصل بالنظر في إنبات الكرم وغيره . وفي الاستدلال بإنبات الكرم : وفاءً بغرض الامتنان مع عدم فوات الاستدلال كما بيّن ذلك ابن عاشور (١)

و في الإنبات دلالة وعلامة واضحة على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - وبديع صنعه .

المطلب السابع : الامتنان بتزين الأرض بالنبات :

أشار القرآن الكريم إلى جمال النباتات المختلفة ، وإلى جمال تزين الأرض بالنبات في معرض التمثيل للحياة الدنيا وزينتها ، وذلك في آيات كريمة منها قوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا نَائِلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

تصور الآية حال الأرض بعد ربيها ، وكيف تغيرت حالها وأنبتت النبات الذي استمر بنموه وازدهر حتى أخذت الأرض زخرفها وازينت .

والمراد بالزخرف أي : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف هذا هو الأصل ، ثم سمي كل زينة زخرفاً والزخرف كمال حسن الشيء ، ومن القول أحسنه ، ومن الأرض ألوان نباتها. (٣)
ازينت : الزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به ، ويوم الزينة العيد وتقول أزينت الأرض بعشبتها وأصله تزينت (٤)

(١) _ التحرير والتنوير ١٠١/١٩

(٢) _ سورة يونس الآية ٢٤

(٣) _ غريب القرآن للسجستاني ص ٢٥٥ ، باب الزاي ، (زخرف) ، مفردات غريب القرآن ٢١٢/١ ، لسان العرب

١٣٢/٩ ، بحجة الأريب ص ٧٩ ، القاموس المحيط ص ١٠٥٤ ، تاج العروس ٣٧٩/٢٣

(٤) _ مجمل اللغة ٤٤٦/١ ، كتاب الزاي ، القاموس المحيط ص ١٥٥٤ ، مادة (زين) ، لسان العرب ٢٠١/١٣ .

أصل ازينت : تزينت فأدغمت التاء في الزاي ، وهو كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزينت بغيرها من ألوان الزين (١)

وذكر أهل التفسير أن الزخرف في القرآن على ثلاثة أوجه : الذهب ، والحسن والتزين (٢) واستعير الأخذ وهو تناول باليد ؛ لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة (٣) واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة الزخرف وهو الذهب ؛ لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس (٤)

ومعنى قوله - تعالى - ﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنَتْ ﴾ أي : إذا استوفت زينتها من أشجار خضراء يانعة وزهور وثمار مختلفة الأنواع والألوان ، حتى صارت تثير البهجة والسرور ، أتاها أمر الله - تعالى - فجأة ، فزالت وذهبت ، وهكذا حال الدنيا في سرعة تحولها وانقضائها وزوال نعيمها فلا يجعلوها أكبر همهم ، و لا منتهى آمالهم .

(١) _ الكشاف ٣٤٠/٢ ، مدارك التنزيل ١٣٨/٢

(٢) _ نزهة الأعين النواظر ٣٣٥/١

(٣) _ البحر المحيط ١٤٥/٥

(٤) _ البحر المحيط ١٤٥/٥

من هدايات الآيات :

- أمر الله - سبحانه وتعالى - الإنسان بالنظر والتأمل في الكون من حوله ، وما يحيط به من آيات عظيمة تدل على إبداع خالقها - سبحانه - .

- عنصر الجمال جزء من الكون المحيط بنا ؛ لذا نبه الله - سبحانه وتعالى - العباد عليه ودعاهم لتأمله ، وامتن عليهم به ، فمن أسمائه الحسنی : الجميل ، و هو - سبحانه - كما ورد في الحديث الصحيح " جميل يحب الجمال " (١) .

- اهتمام الإسلام بالإنسان ، وتحقيق وإشباع ضروراته ، وحاجاته ، وكل مصالحه ، ومنها : إشباع رغبته برؤية الجمال من حوله ، وتنبيهه له ودفعه للنظر فيه وتأملها ؛ ليزيد من يقينه وشكره لربه - سبحانه وتعالى - .

- يجب على الداعي إلى الله - سبحانه وتعالى - أن يهتم بالأدلة الحسية التي يشاهدها الإنسان ، ويحس بها ، وهي طريقة من الطرق القرآنية لطرق بعض الموضوعات ، كعالم النبات ، فهو : عالم فريد بتنوع ألوانه وأصنافه وروائحه وطعومه وكلها تخاطب عقل الإنسان وفطرته ، وتكشف أمامه قدرة الله - تعالى - وإحاطته بجميع خلقه ، وعطائه - سبحانه وتعالى - الواسع الذي لا حدود له ، وكذلك مدى رحمته بعباده - سبحانه وتعالى - ولطفه بهم .

- امتنان الله - تعالى - على عباده بالبهجة والجمال الحي الذي يشاهدونه حولهم وخصوصاً عالم النبات بخصائصه الجمالية وما فيه من تنوع عجيب ، وإبداع خلاب وخصائص متباينة لا تنحصر، ففيها تنبيه لهم على أهمية الجمال وتذوقه ، و تأمل آثار إبداع الخالق في خلقه ؛ فقد جعل - سبحانه - في كل أمر وكل صغير وكبير في خلقه دلالات وعلامات تعرفنا ببعض صفاته - جل في علاه - ويعين على إحياء القلوب الميتة ، وعلى زيادة الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ومن ثم شكره وعبادته حق العبادة فهو - سبحانه - الذي خلق فسوى وأبدع كل شئ خلقه .

- تصوير القرآن الكريم للجنة وما فيها من جمال ونعيم مقيم ، وكذا تصويره لما في عالم النبات والحدائق من متع حسية ومعنوية للإنسان ساعده على معرفة أمور تساعده في الانتفاع من عالم

(١) _ جزء من الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه ، ح ٢٦٥ ، ص ٦٩٣ ، قال ابن القيم : " فله جمال الذات ، وجمال الأوصاف ، وجمال الأفعال والأسماء ، فأسماءه كلها حسنى وصفاته وأفعاله كلها جميلة " ، ينظر روضة المحبين ص ٤٧٢ ، نيل الأوطار ٢ / ١٠٨

النبات وما فيه من جمال وبهجة ، واستقى العلماء منه كيفية التعامل الأمثل مع البيئة ، وكيفية استصلاح الأراضي ، وصفات الأرض الجيدة ، وكيفية تزيين الحدائق وتنسيقها .

المبحث الثاني : دلالتها على التفكير :

العقل البشري أجمل نعمة وهبها الله - تعالى - للإنسان ، وهو من أشرف المزايا والخصائص التي امتاز بها الإنسان العاقل عن غيره من المخلوقات ، وهذه النعمة والفضيلة ليست لذات العقل وإنما لما ينتج عنه من علم ومعرفة ، موصلين لأسمى غاية وهدف ، وهو الإيمان بالله إيماناً كاملاً ، فوظيفة العقل هي : التفكير والتفكير ، وهو مبدأ العلم وطريق الحق .

الفكر : بالكسر ، والفتح ، هو : إعمال النظر ، وقيل : إعمال الخاطر في الشيء ، والجمع فِكر (١) وفي المعجم الوسيط : فِكر في المشكلة أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها فهو مفكر (٢) . من تعريفات الفكر والتفكير في الاصطلاح : هو ترتيب أمور في الذهن يُتوصل بها إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًا (٣)

وقيل : " هو سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمسة " (٤)

وقيل في تعريف التفكير العلمي : " هو التفكير المنظم المبني على مجموعة من المبادئ التي نطبقها في كل لحظة دون أن نشعر بها شعورًا واعيًا ، مثل : مبدأ استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد ، والمبدأ القائل أن لكل حادث سببًا ، وأن من المحال أن يحدث شيء من لا شيء " (٥)

أهمية التفكير في مخلوقات الله :

للتفكير والتأمل في الكون أهمية كبرى في حياة الإنسان فهو الذي يساعده على توجيه الحياة وتقدمها ، كما يساعده على الشعور بالأمن والاطمئنان النفسي وأن الدنيا رحلة قصيرة فانية ، ويشعر بعظمة خالقه - سبحانه - وحاجته إليه في كل شؤون حياته ، كما يشعر بضآلة حجمه بالنسبة للكون الفسيح ، وفضل الله تعالى عليه بتسخير الأرض وما فيها له ، كما يتعرف على

(١) _ المخصص ٤/٤٩ ، لسان العرب ٥/٦٥ ، مادة (فكر) ، تاج العروس ١٣/٣٤٥

(٢) _ المعجم الوسيط ٢/٦٩٨ ، (فكر)

(٣) _ المصباح المنير ٢/٥٧٦

(٤) _ دعوة للتفكير من خلال القرآن الكريم ص ٢٣ ، علم التفكير ص ١٨ ، وغيرها من التعريفات ، ينظر : مهارات

التفكير التباعدي ص ١١٢ ، أساليب التفكير ص ٢٠-٢١

(٥) _ التفكير العلمي ص ٦

السنن الكونية التي يسير الكون كله عليها بثبات وميزان ، كما يساعده على حل المشكلات التي تواجهه في حياته ، والتفكير في طرق معيشته كلها ، وكيفية الدفاع عن نفسه ؛ ليحقق التقدم والرقي ويتكيف مع عالمه الخارجي ، ويشبع حاجته إلى الرغبة في المعرفة والاستطلاع ، واكتشاف المجهول ، ويطلق لعقله العنان في التفكير الناقد والبحث والتنقيب والاستنتاج - في إطار التوحيد وعدم التفكير في الخالق سبحانه - (١) ، فقد نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله - عليه الصلاة والسلام - : " تفكروا في آلاء الله ، و لا تفكروا في الله " (٢) ؛ لأن العقل البشري بما آتاه الله - سبحانه وتعالى - من قدرات محدودة غير قادر على التفكير بعظمة الله - جل وعلا - التي لا تدركها الأبصار ، فهو - سبحانه - أعظم من أن تتمثله العقول بالتفكير أو تنوهمه القلوب بالتصوير - سبحانه وتعالى - .

فلا بد لنا أن نجعل على هذا العقل - الذي هو قبس إلهي خُصَّ الإنسان به من بين سائر المخلوقات - مراقبة تقيه من التلف في متاهات الشهوات والشبهات لتكون لأعمال الإنسان عصمةً وحدودًا (٣)

وتحدث الغزالي عن أهمية التفكير ، وأنه يتم به تكثير العلم ، واستجلاب معرفة ليست حاصلة إلا به ، وأن المعارف إذا اجتمعت في القلب ، وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفةً أخرى؛ فالمعرفة نتاج المعرفة ؛ فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر ، وهكذا ، يتمادى النتاج ، وتتمادى العلوم ، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية (٤)

فالفكر في الإسلام تفكير اجتهادي ، وهو سمة طبعت ثقافتنا الإسلامية بوجه عام ، وسبب ذلك هو أن الثقافة الإسلامية دارت حول القرآن وانطلقت منه وتأسست عليه وعاشت في رحابه ، ولم يعرف التجديد إلا بتجدد النظر فيه ومطالعتة وإعادة التعامل معه عصرًا بعد عصر ، وجيلًا بعد

(١) _ للاستزادة ينظر : دعوة للتفكير من خلال القرآن ص ١٣ ،

(٢) _ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/٢٥٠ ، ح ٦٣١٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٢٦٣ ، باب : أسامي

الذات ، والهشيمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/٨١ ، باب : التفكير في الله -تعالى- والكلام ، وحسنه الألباني بمجموع

طرقه في السلسلة الصحيحة ٤/٣٩٥ ، ح ١٧٨٨

(٣) _ في نطاق التفكير الإسلامي ص ٥٢

(٤) _ إحياء علوم الدين ٤/٤١٢

جيل ، ولهذا فإن تفكير المسلم وثقافته جاءت من الرحابة والانتساع في أوقات المد والصعود مع دوام الاجتهاد والتجديد بما يتناسب مع رحابة الوحي الإلهي وآماده في الزمان والمكان (١) وقد قيل : " إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة " (٢)

وللتفكير تأثير عجيب على نفسية الإنسان ؛ فبمداومة النظر والتفكير وتكراره يصل المؤمن إلى عجيبة وسعادة لا تدانيها سعادة بكونه عبدا لمن خلق فسوى ، ويتذوق الجمال في كل ما يراه ، ويزداد فهما للمحيط حوله ، وقد ابن القيم هذا النعيم الذي يشعر به المؤمن المتفكر الذائر بقوله: " يفتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة في الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته ، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشتت قلبه ، ثم تفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها " (٣)

مما سبق يتبين أهمية التفكير في مخلوقات الله ، وكيف يفتح أبواباً من نور البصيرة والعلم والفهم ، والقرآن ملئ بالآيات التي تخاطب العقل الذي يميز بين الأمور ويدرك الحقائق ويفتح آفاق المعرفة بالخالق - سبحانه - ومخلوقاته للمتفكرين وهم الذين أثنى عليهم الله - سبحانه وتعالى - ووصفهم بذوي الأبواب ، كما قال - سبحانه وتعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٤)

فهم يذكرون الله - تعالى - في كل أحوالهم ويتفكرون فيما حولهم ونتيجة لذلك التفكير وصلوا للإيمان بخالقهم - سبحانه - وقد وصف الله تعالى فعلهم ، في قوله - تعالى - ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

(١) - طبيعة التفكير والتجديد في الثقافة الإسلامية ص ٢٠

(٢) - إحياء علوم الدين ٤/١١١

(٣) - تهذيب مدارج السالكين ص ٣١ - ٣٢

(٤) - سورة الزمر الآية ٢١

هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ وأشار القرآن الكريم إلى أن التذکر من سماقم العقلية ، فقال - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) ، وهم ذووا العقول ، واشتقاق العقل من العقل والمعقل المنيع القلعة على رأس الجبل لا يصل إليها أحد ؛ لامتناعها وقوتها وإحكامها (٣)

وقد قيل : كل متفكر متذكر ، وليس كل متذكر متفكرًا " (٤) فكلما نظر الإنسان في هذا الكون الفسيح ازداد إيمانًا و يقينًا ورضًا وشكرًا لخالقه الذي كرمه بنعمة العقل ، وأدرك أن كل دقيق وجليل في هذا الكون مخلوق لحكمة قد تُعلم من البعض وقد لا تعلم ؛ وذلك لأن عجائب وغرائب المخلوقات لا تحيط بها العقول ولا الأفهام ولا تحصيها الأقلام ، كما قال - تعالى - ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (٥) وكلمات الله - تعالى - هي : علمه وعجائبه وحكمته (٦)

فلا يستطيع أحد على الإطلاق أن يحصر كلماته - سبحانه - الدالة على عظيم قدرته ، وجميل صفاته ، وجلاله ، ولو كانت البحار والمحيطات وأمثالها دون تحديد حبرًا يكتب به . فالتفكر في مخلوقات الله - تعالى - من أعظم العبادات التي دعا إليها الإسلام وحث عليها ولذا كثرت الآيات الحاثية عليه ، وتعددت أساليبها ؛ لتناسب كل حالة وكل شريحة من البشر ؛ ليصروا آيات ربهم البصيرة الحقة ، وتحيا قلوبهم .

(١) - سورة آل عمران الآية ١٩١

(٢) - سورة الرعد من الآية ١٩

(٣) - التبر المسبوك ص ١١٥

(٤) - إحياء علوم الدين ٤/٤١٢

(٥) - سورة الكهف الآية ١٠٩

(٦) - بحر العلوم ٣/٢٧ ، معالم التنزيل ٥/٢١٢ ، البحر المحيط ٦/١٥٩

المطلب الأول : التفكير في الملكوت ، وما خلق الله من شيء :

بجال التفكير في ملكوت الله - سبحانه وتعالى - واسع غير محدود ، وقد قسم الغزالي مجال الفكر في مخلوقات الله فقال ما مختصره : تنقسم المخلوقات إلى قسمين : ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا

التفكير فيها لعدم علمنا بها قال - تعالى - ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي

خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وإلى ما

يعرف أصلها ولا يعرف تفصيلها ، وهذه تنقسم إلى : ما لا ندركه بحس البصر كالملائكة والعرش

وغيرها ومجال الفكر فيها ضيق وغامض ، وما ندركه بحس البصر كالسماوات والأرض وما فيهما

وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع وأقسام متشعبة إلى ما لا نهاية وجميع ذلك مجال

الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض ولا أكبر إلا والله - تعالى - هو محركها ، وفي حركتها

حكمة ، وكلها شاهدة لله - تعالى - بالوحدانية والكبرياء وهي الآيات الدالة عليه - سبحانه (٣)

فالكون كله - بما فيه ومن فيه - لوحة عجيبة للفكر والتأمل ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَسَخَّرَ

لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤)

ومن يتتبع الآيات الكريمة يلاحظ تكرر ذكر بعض المخلوقات في هذا الكون الفسيح ؛ للنظر

والاعتبار ، ومنها عالم النبات فقد تكرر ذكره في مجالات عديدة ، منها : الامتنان ، ضرب

الأمثال ، وللتفكير فيه وفي عجائب خلقه ، وغيرها من دلالات النبات في القرآن الكريم ، وكلها

تعمق في نفس الإنسان أهمية هذا المكون الرئيس في حياته وتنبه على كثرة التفكير فيه ، وفي

عجائب خلقه ، وتخيل الحياة من دونه كيف ستكون ؛ ليشكر المتفكر ربه الذي هداه لهذه العبادة

الجليلة وأنعم عليه بالنعم العظيمة .

ونظرا لأهمية التفكير في آيات الله - تعالى - ومخلوقاته جميعها جاءت الدعوة إليه في آيات كريمة

كثيرة جدًا منها ، قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) - سورة النحل من الآية ٨

(٢) - سورة يس الآية ٣٦

(٣) - إحياء علوم الدين ٤ / ٤٢٠ - ٤٢١

(٤) - سورة الجاثية الآية ١٣

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾

في الآية السابقة دعوة للنظر وإعمال الفكر في عجائب مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - ، وإتقان
وبديع خلقها ، وذكر في الآية ثمانية أنواع وعجائب (٢) وجميعها تظهر عظمة الخالق - سبحانه -
وقدرته ، وزيادة تأملها يزيد اكتشاف عجائبها وإتقانها .

والتفكير في خلق العالم العلوي والسفلي وما يقع فيهما من أحداث هو عبادة لله - تعالى -
وسياحة وجدانية تحمي القلب وتنير الفكر والبصر ، وتدلل الإنسان على عظمة فاطرها ومبدعها
- سبحانه - وهذا هو الاعتبار الحقيقي .

وهناك ظاهرة كونية تكرر ذكرها في القرآن الكريم كثيرا وتكرر ذكر أثرها على البلاد والعباد وهي
نعمة إنزال الماء من السماء ؛ فإن في تدبيرها زيادة إيمان المؤمنين ، ولفت لأنظارهم ، وإيقاظ
للغافلين عنها ، فبتدبير هذه النعمة الجليلة ومراحل تكونها ومدى تأثيرها حياة للقلوب والبصائر ،
كما تحيا به الأرض بعد موتها ، ومن الآيات الآية السابقة من سورة البقرة وقوله - تعالى -

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٣﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا
بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ

(١) - سورة البقرة الآية ١٦٤

(٢) - للتفصيل ، ينظر : لباب التأويل ١٣٤/١ وما بعدها ، البحر المحيط ٦٣٨/١ ، تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/١

(٣) - سورة النحل الآيات ١٠ - ١١

(٤) - سورة الأعراف الآية ٥٧

يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾

﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

وغيرها كثير من الآيات القرآنية التي جاءت في ثنايا البحث ، كلها تعبر عن أثر هذا المطر وكيف ينشأ ذلك المنظر الجميل من حياة الأرض وتفتحها بالنبات ، ومنظر الخضرة الزاهية والحدائق الغناء ، ففي الآيات الكريمة السابقة ومثيلاتها ، دعوة للنظر والتأمل في تلك المشاهد الرائعة من صنع الباري - سبحانه وتعالى - ، و هي من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون إلهًا واحدًا متفردًا بالحكمة والتدبير والكمال والقدرة والقيومية على خلقه - جل في علاه - ، و دليل عقلي حسي متجدد على قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت والجزاء والحساب .

كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أمراء الأجناد : مُرُوا النَّاسَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الصَّحَارِيِّ أَيَّامَ الرَّبِيعِ فَيَنْظُرُوا إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٣)

في سورة النحل دعانا الله - سبحانه وتعالى - إلى تأمل ألوان من مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - فقال - جل شأنه - ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ففي الآيات الكريمة

السابقة ألوان من عجائب صنع الله في خلقه ، منها :

(١) - سورة الروم الآية ٢٤

(٢) - سورة الجاثية الآية ٥

(٣) - سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ١ / ٢١٩

(٤) - سورة النحل الآيات ٦٧ - ٦٩

إحياء الأرض بعد موتها ، واستخراج اللبن من بين الفرث والدم ، واتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، واستخراج العسل الذي فيه شفاء للناس من بطون النحل .

وكانت فواصل الآيات دالة على التنبية على استخدام الحواس في تأمل مخلوقات الله فقال

- سبحانه - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ و ﴿ يَعْقلُونَ ﴾ و ﴿ يَنْفَكُرُونَ ﴾

ففي تلك العبر الظاهرة الجلية آيات لقوم يحسنون استعمال حواسهم التي وهبهم الله - سبحانه وتعالى - إياها ، فيسمعون كلام الله ويتدبرونه ويفهمونه ، ولا يسموا كالأنعام بدون فهم فلا عبرة بالسمع عندئذ ، وهم قوم يعقلون ويعتبرون ، وهم كذلك يتفكرون في إخراج الله - سبحانه وتعالى - من بطون النحل الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس ، وكيف هداها لبناء مساكنها ومكان اتخاذها لها ، وكيف هداها وذلكها لنفع الإنسان ، فمن قام بتلك الأفعال الباهرة هو - وحده لا شريك له - المستحق للعبادة ، وهو سبحانه الحكيم القادر اللطيف الخبير بعباده وكما يأتي التذكير والتنبية بنعم الخالق - سبحانه - الوافرة ، والاعتبار منها ، يكون التذكير والتفكير مقرونا بالتهديد والوعيد لمن لا يعمل عقله فيما حوله فيصبح كالأنعام .

فهذه النعم والعجائب لا تغيب عن الناس ، ولكن تكرر ذلك أمام الحس والنظر يجعلها مألوفة لطول اعتيادها ، فلم تعد تحرك في الناس ساكنًا ، وقل التفكير فيها وتأملها فيردهم القرآن الكريم إلى التفكير فيها وتأملها بآيات كريمة ، ويثير تساؤلهم حولها ، وينبههم إلى دقائقها وآثارها ، فينتقل بها الإنسان من إلف العادة إلى التدبر وإمعان النظر ، وتكراره ، مما يثمر في قلبه تعظيم الخالق - سبحانه - ومحبته والخشوع له ، ويجعل منها دلائل على وحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته بهم - سبحانه جل في علاه - .

ومن هذه الأساليب ما يلي :

١- الأمر بالنظر :

فيأتي الأمر من الله - تعالى - للناس بالنظر في مخلوقات الله - تعالى - بصيغ متنوعة ، والأمر يفيد الوجوب كما يقرر الأصوليون (١)

(١) _ قواطع الأدلة في الأصول ١/١٣٣ ، الأشباه والنظائر ١/١٩٦ ، إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول

يطلق النظر على الرؤية البصرية كما يطلق على الرؤية القلبية ، وهذه الرؤية هي الأكثر في القرآن الكريم ، فقد جاءت آيات كثيرة تدعو إلى النظر والتأمل في أنفسنا وفي الكون من حولنا وما فيه من عجائب وغرائب .

ومن آيات الأمر بالنظر : قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

أنزل الله بقدرته وحكمته من السماء ماء مباركا فيه ، يحيي الله به البلاد والعباد رحمة منه بهم ، فأخرج - سبحانه - منه أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه فهو مختلف من ناحية الكم والكيف ، فالنبات جنس له أنواع كثيرة ، ثم شرع - سبحانه - ببيان ما أجمل في الإخراج ، فهو - سبحانه - من يخرج الزرع والشجر الأخضر ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب المترابك كالسنابل ونحوها ، والثمار المختلفة ، والنخيل ذوات الساق فيخرج منها - سبحانه - الطلع وهو أول تشكل للثمرة ، ثم ينشق عن قنوان ، وهي : عذوق النخل ، واحدها قنوة (٢) وقد تكون النخلة قصيرة الساق ، فعند امتلاء العناقيد بالثمار تنحني على الأرض لثقل حملها .

ويخرج من ذلك الخضر - كذلك - جنات من أعناب ، والزيتون والرمان ، فكلها تمتاز بالتشابه من جهة والاختلاف من جهة أخرى ، وهي كلها على اختلاف أنواعها تسقى بالمطر النازل من السماء وذلك من دلائل قدرته - جل شأنه - ، وفي هذا تنبيه للناس للاعتبار بدقائق ما أوعه الله تعالى في النبات فسبب اختلاف أنواعها من ناحية الكم والكيف ، والنبات في هذه المرحلة من الخلق ملتبس النوع والشكل ؛ ولذا أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالنظر والاعتبار .

وفي قوله تعالى ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ إغراء بتوجيه النظر ، وإعمال الفكر في هذه المخلوقات ، وما يجيء منها إلى الناظر إليها وهي في حال إزهارها وإثمارها ، من جمال رائع ،

(١) - سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٢) - تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ١٥٧/١

وحسن فتان ، يشيع في النفس البهجة والمسرة ، ويشير في العقل أشواقا وتطلعات إلى التعرف على أسرار هذا الجمال واستكشاف ينابيعه ومصادره الأولى التي يجيء منها (١) والأمر بالنظر في الآية نظر رؤية العين ولذلك عداه - سبحانه - بإلى ، لكن يترتب عليه الفكر والاعتبار والاستبصار والاستدلال على قدرة باهرة تنقله من حال إلى حال (٢) فإيا أيها الناس انظروا نظر اعتبار وتأمل إلى النبات أول بدو الثمرة منه ، كيف يظهر وكيف يكون ضئيلا ضعيفا لا يكاد ينتفع منه ، ثم انظروا إلى ينعه ، أي إدراكه ونضجه ، وأينعت الثمرة تينع ينعا وينعا وأينعت إيناعا وهى يانعة ومونعة (٣) فكيف تبدلت حاله وصار كبيرا ذا نفع وملذة فتأملوا صفاته في الحالتين خاصة ، وإن كان الاعتبار يقع في كل مراحل الإنبات ، ولكن حال النبات في تلك الحالتين أدعى لطلب التفكير والاستبصار ؛ لأنهما أغرب في الوقوع وأظهر في الاستدلال (٤) ويظهر بهما لطف الله تعالى وتدبيره وقدرته - سبحانه وتعالى - .

ولم يقيد - سبحانه - قوله ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ بإذا أينع ؛ لأنه إذا أينع فقد تم تطوره وحن قطافه فلم تبق للنظر فيه عبرة لأنه قد انتهت أطواره (٥) ثم بين - سبحانه - سبب أمره بالنظر فقال - سبحانه - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وما في اسم الإشارة { ذلكم } من معنى البعد ؛ للإيدان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته (٦) أي في ذلكم الذي أمرتم بالنظر إليه ، دلائل عظيمة وكثيرة على وجود القادر الحكيم لقوم يؤمنون ، وخصهم - سبحانه - بالذكر ؛ لأنهم المنتفعون بالآيات في الإيمان الذي يحملهم على العمل بمقتضياته ولوازمه ، فهذه الآيات من اختلاف الأجناس والأنواع مع اتحاد مصدر الحياة فيها ، وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع لا يكاد يحدث إلا بصنع إله قادر حكيم ليس له شريك ولا مساوٍ - وحده لا شريك له - .

(١) _ التفسير القرآني للقرآن ٢٥٠/٤

(٢) _ البحر المحيط ١٩٥/٤

(٣) _ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ١٥٧/١ ، مفردات غريب القرآن ٥٥٣/١ ، كتاب الياء (ينع) ، تاج العروس

٤٣٣/٢٢

(٤) _ البحر المحيط ١٩٥/٤ ، وينظر : مختصر تفسير القرآن الكريم للحازن ١ / ٣٧٣

(٥) _ التحرير والتنوير ٤٠٣/٧

(٦) _ إرشاد العقل السليم ١٦٧/٣

وبعد ما عد نعمه على خلقه وما وسعه من رزقه من الحب المعد للأقوات ، ومن ضروب الأشجار، وصنوف الثمار ، وكان هذا مستدعيًا للإيمان المشتمل على شكر نعمته والقيام بما فرض من طاعته (١)

وعلى الإنسان أن يبدأ بالنظر إلى نفسه أولاً ، ثم في أقرب الأشياء إليه وهو النظر في طعامه ، كما قال - تعالى - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبَاً ﴿٣١﴾ مَنَعًا لَكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ ﴿٣٢﴾ (٢)

فليتأمل الإنسان كيف خلق الله - سبحانه وتعالى - طعامه الذي هو سبب حياته ، وكيف دبره له ربه - سبحانه وتعالى - وهياً له ورزقه إياه حتى ينتفع به هو ومواشيه ، فإن في هذا الأمر بالنظر والتدبر والتفكير ، امتنان بالنعمة ، واستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً باليةً ، وفي هذا ما يعينه على طاعة الله وإخلاص العبادة له وحده - جل شأنه - ثم بين - سبحانه - مظاهر تهيئة هذا الطعام للإنسان وهو قريب له ، فليتفكر بكيفية إيجاده ، وما هي المراحل التي يمر بها حتى يصل إليه بهذا الشكل ، ويتلذذ بأكله ، ويحفظ حياته وقوته ، وأول المراحل صب الماء بقوة وكثرة ؛ نظراً لحاجة الأرض إليه ، ثم هو شق الأرض شقاً ؛ ليشق النبات البديع طريقه من باطن الأرض ، فنبت به الحب ، و بُدئ به ؛ لأنه الأصل في القوام ، أما النعم الأخرى وإن كان لها دور كبير في حياته إلا أنها دونه (٣) ثم نبت النبات البديع الذي يبهج الناظرين ، فيكون حباً يؤكل منه ويدخر ، ويكون منه العنب المعروف ، وهو فاكهة وقوت إذا اتخذ زيباً ودبساً وخلاً .

والقضب : من القطع ، والقاف والضاد والباء أصل صحيح يدل على قطع الشيء (٤) و هو الفصفصة ، ويقال لها - أيضا - القت وهو ما يأكله النبات رطباً ، وهذا القول مروى عن ابن

(١) - درة التنزيل ٢ / ٥٣٤

(٢) - سورة عبس الآيات ٢٤-٣٢

(٣) - نظم الدرر ٣٣١/٨ ، خصائص التعبير القرآني ٣٠٦/١

(٤) - الصحاح ٢٠٣/١ ، مادة (قضب) ، معجم مقاييس اللغة ١٠٠/٥ ، لسان العرب ٦٧٨/١

عباس - رضي الله عنهما - وقتادة والضحاك وغيرهم (١) وأهل مكة يسمون القت قضباً (٢) والأبّ : المرعى وهو ما تأكله الأنعام ، كذا قال ابن عباس - رضي الله عنه - وغيره وسمي بذلك لأنه يؤبّ أى يؤم وينتجع (٣) ، وقيل : التبن ، وفي اللفظ غرابة (٤) وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - .

وقد أسند الصب والشق والإنبات إلى ضمير الجلالة ؛ لأن الله - تعالى - هو مقدر نظام الأسباب المؤثرة في ذلك ، ومُحكّم نواميسها ومُلهمّ الناس استعمالها كما قال ابن عاشور (٥) وختم هذه النعم - سبحانه - بقوله - تعالى - ﴿ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمُ ﴾ فجميع هذه النعم تميمًا لكم ولأنعامكم ، فتفكروا في ذلك واشكروه على آلائه - سبحانه - .

٢ - الاستفهام الإنكاري أو التقريري بعدم الرؤية :

كقوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ، يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ (٧) و في قوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ، يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يُجْعَلُهُ، حُطَمًا إِنَّ

(١) - معالم التنزيل ٣٣٨/٨ ، البحر المحيط ٤٢١/٨ ، تفسير القرآن العظيم ٣٢٤/٨

(٢) - معاني القرآن للفراء ٢٣٨/٣

(٣) - معاني القرآن للفراء ٢٣٨/٣ ، الكشاف ٧٠٤/٤ ، المحرر الوجيز ٤٣٩/٥

(٤) - المحرر الوجيز ٤٣٩/٥

(٥) - التحرير والتنوير ١٣١/٣٠

(٦) - سورة الحج الآية ٦٣

(٧) - سورة النور الآية ٤٣

فِي ذَلِكَ لَذَكْرَى لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ ، ويقول - سبحانه - ﴿أَوَّلَمَ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ

إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢﴾ فِي

الآيات السابقة يستنكر الله - سبحانه وتعالى - على الكفار المعاندين لآثار رحمة الله - تعالى -

عليهم ، فهل عموا ولم يشاهدوا بأعينهم أَنَّا نَسُوقُ بِقُدْرَتِنَا وَرَحْمَتِنَا الْمَاءَ الَّذِي تَحْمَلُهُ السَّحَابُ إِلَى

الْأَرْضِ الْجُرْزِ أَى : الْيَابِسَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ النَّبَاتِ ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَاءُ فَيُحْيِيهَا - بِقُدْرَتِهِ - سَبْحَانَهُ

وَيُخْرِجُ مِنْهَا النَّبَاتَ الْمُخْتَلِفَ مِمَّا يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ وَأَنْعَامُهُ ، وَفِي ذَلِكَ ذِكْرَى لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ .

وَفِي سُورَةِ قِجَاءِ الْإِسْتِفْهَامِ كَذَلِكَ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ جَهْلِهِمْ ؛ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ

الْكُونِيَّةِ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ عَجَائِبٍ وَغَرَائِبٍ وَأَثَارٍ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَيَقُولُ -

سَبْحَانَهُ - ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكْرَى لِكُلِّ

عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٣﴾

فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ : دَعْوَةٌ لِإِطْلَاقِ النَّظَرِ وَالتَّبَصُّرِ فِيمَا يَشَاهِدُهُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ

عَيْنِيهِ ، فَحَيْثُ بَصَّرَهُ مَا قَادَهُ إِلَى نُورِ الْبَصِيرَةِ ، وَصَفَاءِ الْقَلْبِ .

فَتَكُونُ تِلْكَ الْأَفْعَالُ الْبَاهِرَةُ تَبَصَّرَةً يَتَبَصَّرُ بِهَا الْعَبْدُ وَذَكَرَى يَتَذَكَّرُ بِهَا مَا يَنْفَعُهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ،

وَلَيْسَ كُلُّ عَبْدٍ يَتَبَصَّرُ وَيَتَذَكَّرُ ، إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَبْدُ الْمُنِيبُ ، الَّذِي يَقْبَلُ عَلَى اللَّهِ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ

وَالرَّجَاءِ .

وَالتَّبَصُّرَةُ وَالتَّذَكُّرُ مِنْ جَمَلَةِ الْحِكْمِ الَّتِي أَوْجَدَ اللَّهُ - تَعَالَى - تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ لِأَجْلِهَا ، وَهَنَّاكَ

حِكْمَ أُخْرَى لَا نَعْلَمُهَا .

يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ وَأَصْفًا حَالِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَعْبَدُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ إِذَا وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ

مَخْلُوقَاتِهِ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : دَلَّهُ عَلَى خَالِقِهِ وَبَارئِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ وَنِعْوَتِ جَلَالِهِ فَلَا يَحْجِبُهُ

(١) - سورة الزمر الآية ٢١

(٢) - سورة السجدة الآية ٢٧

(٣) - سورة ق الآية ٦-٨

خلقه عنه سبحانه بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء (١)

٣ - قسم الله - سبحانه وتعالى - ببعض المخلوقات :

والله - سبحانه وتعالى - لا يقسم إلا بعظيم من مخلوقاته ؛ لبيان فضيلة المقسم له أو منفعته ، و ليلفت الانتباه - سبحانه - لهذه المخلوقات ، وما فيها من عجب الصنعة وعظيم القدرة ، كقوله

- تعالى - ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴾ (٢)

أقسم الله بمخلوقاته ومنها ثمرتا التين والزيتون ؛ لدلالاتها على بارئها ، فهاتان الثمرتان عجيبتان من بين أصناف الأشجار المثمرة ، وكذلك للإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها وأهميتها لصالح الإنسان ؛ ليعتبروا بها .

فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية ، كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات ، مع الإيدان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد ، بالإضافة إلى سهولة إنباتها فهي لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج (٣) .

٤ - تسمية سور القرآن بأسماء الكائنات الحية :

وبعض مظاهر الطبيعة ، كالشمس والليل ، وجاءت سورة واحدة باسم نوع من النبات وهي سورة التين .

وهذه التسمية للسور القرآنية لها دلائلها وإجاؤها في نفس المسلم وربطه بالبيئة من حوله بحيث لا يغفل عنها وفي التسمية تنبيه كذلك على أهميتها ، ومدى حاجته إليها .

قال تعالى في سورة التين ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴾ (١)

٥ - أسلوب التقريع ، والذم :

تقريع الذين لا يعملون عقولهم ولا ينظرون ، وذمهم ووصفهم بالعمي والصم والبكم ، وفي هذه الأوصاف تأكيد على أهمية النظر ، وعلى قيمة الأشياء المنظورة .

(١) - مدارج السالكين ٣/٣٨٠

(٢) - سورة التين الآية ١

(٣) - التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٠

فقد انحط بهم الشرك عن درجة الإنسانية لما ألغى عقولهم ومداركهم فهم كالأنعام بل أضل منها

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

ووصف أكثرهم بعدم العقل وإلا لاهتدوا إلى ربهم - سبحانه وتعالى - كما في قوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

وهذا الحكم على الأكثر منهم بعدم العقل من إنصاف القرآن الكريم ، ويدل على أن هناك قلة منهم لديها العقل أو شيء منه .

فلو ألقي الإنسان عن عقله البلادة وقصر النظر ، واستقبل هذه المشاهد الكونية بنظرة فاحصة مستطلعة ، وقلب مضى بنور الإيمان ، فتهزه تلك المخلوقات وترهف شعوره ، ومن ثم يزيد إيمانه ، فيفتح له باب واسع من تقدير الجمال والتناسق والكمال والحكمة الإلهية وبديع الصنع وهذا من نتاج التفكير في تلك الأعاجيب الكونية .

٦ - تكرار الكلمات المتعلقة بالعقل والنظر ونظائرها :

كذلك تكرار الأشياء المطلوبة للنظر والاعتبار ، فالتفكير في القرآن يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحياناً ، وتنفرد بمعناه على حسب السياق ، ومنها : الفكر ، النظر ، التدبر ، الاعتبار ، التذكر ، العلم وسائر هذه الكلمات (٣) إلى غيرها من المعاني المتقاربة .

وعندما أورد الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - هذه المرادفات للتفكير عَقَّبَ على ذلك بقوله:

" وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتنفرد في آخر ... " (٤)

وهذا التنوع في أساليب الدعوة إلى التفكير في الأنفس والآفاق في تصوير بديع جذاب يشوق النفس إلى التأمل فيها ، والتعمق في أسرارها ، والبحث عن حقائقها ، واستجلاء غوامضها بدافع الغريزة وحب الاستطلاع .

(١) - سورة الأنفال الآية ٢٢

(٢) - سورة العنكبوت الآية ٦٣

(٣) - تعليم التفكير ص ٥١

(٤) - مفتاح دار السعادة ١/١٨٢

وهذه الحملة القرآنية المكثفة من أجل الدعوة إلى التذكر بهذه الأساليب المتنوعة و الصور الجملة المتعددة ، تدلنا على ضرورة التذكر للإنسان في الحياة (١)

وللتفكير مراحل ثلاث ، هي :

المرحلة البدائية ، ثم مرحلة التذوق لدقة الخلق وجماله ، ثم مرحلة العبور بهذا التذوق لدقة الخلق وجماله إلى مبدعه - جل وعلا - (٢)

ومن هذه المراحل يتبين أهمية التفكير ، فهو مفتاح للخيرات ، وهو الذي يلفت الانتباه في البداية إلى النواحي الجمالية وجوانب العظمة ودقة الصنعة في الشئ المشاهد ثم يتبعه التفكير المثمر ، وبمثل هذا انبعث المسلمون الأوائل ، وتسابقوا لخدمة العلم ، واستثمار ما في الكون الى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم فشيّدوا الحضارة الإسلامية التي استفادوا منها و أفادوا باقي الأمم ، فهم استجابوا لأمر الله - تعالى - بالنظر والتفكير فيما حولهم ومن ثمّ قادهم التأمّل لاكتشاف العجائب ، ومعرفة النواميس الكونية ، والاستفادة مما سخره الله - تعالى - لهم، انطلاقاً من حقيقة مسلمة ، وهي أن الكون جميعه مسخر للإنسان فعلى العقل الذي تميز به عن سائر الكائنات أن يفكر ويتدبر كيفية الاستفادة من هذه الكائنات - لصالحه ولصالح غيره - واستثمارها ، وهذا ما سار عليه أسلافنا فازدهرت حضارتهم ، ولن نعزّزهم إلا اذا فهمنا كتاب ربنا ، وقمنا بما فيه من توجيهات وعبادات وخدمنا العلم خدمتهم .

فالفكر هو بداية المعرفة ، ومفتاح الخيرات كلها ، ومنه يأتي المنهج العلمي الذي قامت عليه الحضارات منذ الأزل ، وهو قائم على الملاحظة الدقيقة لظاهرة ، أو مجموعة من الظواهر لكي يصفها ويعرف ما يتحكم بظهورها أو اختفاؤها (٣)

وقد اهتم علماء المسلمين بالحث على الاهتمام بالعلم والاستفادة منه في بناء الإيمان وتطوير العمران ، واكتشاف أسرار الخلق ، يقول أحدهم : " أمرنا بالنظر فيما خلقه لنا ، وأعلمنا هنا أن في هذه المخلوقات أسراراً بيّنها القرآن ، واشتمل عليها ، وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق، فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم ، والتعمق في البحث ؛ لنطلع على كل

(١) - العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٥٩

(٢) - التفكير من المشاهدة إلى الشهود ص ٨٧

(٣) - التفكير الإبداعي ص ٢٥

ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار ، أسرار آيات الأكوان وال عمران ، وآيات القرآن فنزداد علمًا و عرفانًا ، ونزيد الدين حجةً وبرهانًا ، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم ، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم " (١)

ولن يجد أهل البحث والنظر إلا النواميس المحكمة المتناسقة ، الدالة على أنها تدبير إله واحد أحكمها وأبدعها - سبحانه- ، وتدل كذلك على أن الإسلام فتح للناس ميادين البحث والنظر على أوسع مداها ، فلا حجر في الإسلام على فكر الإنسان ، فالكون كله بما فيه ميدان بحث ونظر (٢)

وقد شهد المنصفون من الغرب بدعوة الإسلام إلى التفكير ، وإلى طلب العلم وأخذه من أي أحد، يقول أحد منصفهم : " وكان محمد يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق ، وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان " (٣)

فالقرآن الكريم وضع الكون كله مكان تأمل وتفكير للإنسان ليخرج بإدراكاته العلمية للطبيعة ، وسننها وقوانينها ظن وخصائصها ، بدوافع ذاتية ثم استثمارها وتوجيهها نحو العمل الصالح (٤)

(١) _ مجالس التفسير ٢٠/٢

(٢) _ الإنسان بين التقدير والتكليف ص ١٢٢

(٣) _ شمس العرب تشرق على الغرب ص ٣٦٩ ، والأصل أن يقال (شمس الله تشرق على الغرب) كما هو في الأصل الألماني ، وكما يظهر بالحروف اللاتينية على الغلاف الأخير للطبعة العربية . ينظر : ملتي أهل الحديث ، خزانة الكتب والأبحاث ، ٢٠٠٧/٥/٦

(٤) _ الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن ص ٣٥٩

المطلب الثاني : التفاضل في الأكل مع الاشتراك في الأصل :

خلق الله - سبحانه وتعالى - النباتات المختلفة والجينات المثمرة ، وجعلها مجالاً واسعاً للتفكير والتأمل ، ومن هذه المجالات اتحاد مصدرها وأصلها وتقاربها مع التباين والاختلاف فيما بينها في النوع والطعم واللون ، وتلك آية عجيبة من آيات الله - سبحانه وتعالى - والتي تستحق إطالة النظر وإدامة الفكر ، يقول - عز وجل - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

ومعنى متجاورات أي : أراضٍ تجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً . هكذا روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وغيرهم (٢)

معنى صنوان أي : الأصول المجتمعة في منبت واحد ، كالرمان والتين ، وغير صنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار (٣)

روى الطبري ، و ابن كثير عن ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وغيرهم ، أن الصنوان : النخل المجتمع وأصله واحد ، وغير صنوان : المتفرق وعليه أغلب المفسرين (٤).

ولعله - سبحانه وتعالى - خص النخيل بوصف صنوان ؛ لأن العبرة بها أقوى (٥) ، و زيادة وغير صنوان ؛ فيها تجديد العبرة باختلاف الأحوال ، كما قال ابن عاشور (٦) .

(١) - سورة الرعد الآية ٤

(٢) - جامع البيان ٣٣١/١٦ ، تفسير ابن كثير ٤٣١/٤

(٣) - تفسير القرآن العظيم ٤٣/٤ ، نظم الدرر ١٢٤/٤

(٤) - معاني القرآن للفراء ٥٨ / ٢ ، مجاز القرآن ٣٢٢/١ ، جامع البيان ٣٣٠/١٦ ، تفسير ابن أبي حاتم ٢٢٢٠/٧ ،

الكشف والبيان ٢٦٩/٥ ، بحر العلوم ٢١٦/٢ ، الكشاف ٥١٣/٢ ، تفسير القرآن العظيم ٤٣١/٤ ، نظم الدرر ١٢٤/٤

(٥) - المحرر الوجيز ٢٩٤/٣ ، نظم الدرر ١٢٤

(٦) - التحرير والتنوير ٨٧/١٣

في الآية الكريمة يخاطب الله العقول ؛ لتتفكر في عظمة خلقه في آية قريبة من أنظارهم ، وهي اتحاد الأصول والأسباب ، واختلاف النبات فيما بينه ، وهذا لا يكون إلا بقدره قادر مختار حكيم - سبحانه جل شأنه - .

يقول سعيد بن جبير : " الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى والعنب الأبيض والأسود ، وبعضها أكثر حملاً من بعض ، وبعضه حلو ، وبعضه حامض ، وبعضه أفضل من بعض " (١) .
والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو أنها من تربة واحدة ونوع واحد ، وموضع العبرة في هذا أبين ؛ لأنها مع اتفاقها في التربة والماء ، تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض (٢) وتدل الآية على وجود الفاعل المختار من وجهين ، كما ذكر الرازي ، هما :

الأول : اختلاف قطع من الأرض في الطبيعة والماهية مع تجاورها ، والثاني : أنها تسقى بماء واحد ، فيكون تأثير الشمس فيها متساوياً ومع ذلك تختلف الثمار الناتجة (٣)

وهناك عوامل تؤثر في اختلاف النبات عن بعضه البعض في اللون والطعم والرائحة وسائر الاختلافات ، وقد لخصها - سبحانه وتعالى - في الآية الكريمة السابقة ، وأهم تلك العوامل : التربة التي يزرع بها النبات وطبيعة تركيبها ، ومكانها من حيث الارتفاع وعدمه ﴿ كَمَثَلِ جَنَّتَيْم بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (٤) ، و الماء الذي يسقيها وكميته ونقاوته ، ونقاوته ، و العوامل الأخرى : كالضوء والحرارة والرياح ، فإذا اتحدت هذه العوامل ، مع تجاور الأرض الزراعية ، وتقاربها ، فالمتوقع أن ينتج النتاج نفسه ، ولكن مع هذا حدث الاختلاف والتنوع بقدره الله - سبحانه وتعالى - .

وقد أثبت العلم الحديث هذه المعجزة القرآنية ، واستطاع الباحثون تعرف الخريطة الوراثية لكل جنس ونوع وصنف نباتي ودراسته (٥) لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس

(١) - جامع البيان ٣٣٤/١٦ ، ٣٤٤/١٦

(٢) - المحرر الوجيز ٢٩٤/٣ ، وينظر : البرهان في تناسب سور القرآن ٢٣٢/١ ، فتح الرحمن في تفسير القرآن ٣ / ١٦٦٦

(٣) - التفسير الكبير ٨/١٩

(٤) - سورة البقرة من الآية ٢٦٥

(٥) - فهناك عامل جيني وراثي في النبات ، وهو سبب اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف النباتية ، وهو حمض نووي في جزيء DNA الخاص بالنبات ، وتتابع القواعد النيتروجينية في تلك الجينات الوراثية ، فلكل نبات خريطته الجينية الخاصة به تسجل في إحكام وتقدير معجزين الخصائص الوراثية لهذا النبات وما يترتب عليها من ألوان وأشكال وأحجام وطعوم

أن لا تختلف الألوان والطعوم ، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد وسقي بماء واحد (١)

فلينظر الإنسان كيف يلون الله - سبحانه وتعالى - الأوراق والأزهار والثمار ، وكيف تتنوع أجناسها وصفاتها ، وفي هذا التنوع أسرار وعبر ، ألهم الله البشر لمعرفة بعضها ، والبعض الآخر لازال خافياً عليهم من تلك العبر والعجائب في هذا العالم البديع .

ثم بيّن - سبحانه - أن مثل هذا لا يفكر فيه إلا من أوتى العقل الذي يفكر في المقدمات والنتائج، والأسباب والمسببات فقال - سبحانه - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فلم عقول تهديهم إلى صراط الله المستقيم ، وترشدهم لطاعته في أوامره ونواهيه ، وأما المعرضين الذين لا يستعملون عقولهم فيغفلون عن هذه الآية وغيرها ويعرضون عنها .

وفي آيات أخرى ينبه الله - سبحانه وتعالى - على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، فيخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها ، كما في

قوله - تعالى - ﴿ الْمُرْتَرَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢) فيخاطب - سبحانه - الإنسان العاقل مستفهماً ، والاستفهام هنا تقريرى ، فيه معنى التعجب .

ألم تشاهد أيها الإنسان والرؤية رؤية العلم والقلب (٣) فقد علمت أيها الإنسان علماً لا يخالطه شك أن الله - سبحانه وتعالى - أنزل - بقدرته ورحمته - ماءً كثيراً فأخرج به ثمرات مختلفة الألوان مع أنها تسقى بماء واحد ، وفي هذا تنبيه لهم ، وتذكير بقدرته - تعالى - على خلق المتضادات ، التي أصلها واحد ، ومادتها واحدة ، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف .

وروائح وتركيب كيميائي وخصائص حيوية وفيزيائية وجمالية وغيرها ، وتتأثر الصفات وتحسن كميًا بالخدمة الزراعية ونوع التربة ومياه الري، والبيئة الخارجية فسبحان الخالق المقدر العليم . بتصرف واختصار من موقع د. زغلول النجار بعنوان { وفي الأرض قطع متحاورات } ، تاريخ ٢٠٠٢/١٢/١٦ ، موقع د. نظمي أبو العطا بعنوان : { ونفضل بعضها على بعض في الأكل } تاريخ ٢٠١٠/١٢/٨

(١) - تأويل مشكل القرآن ١٢/١ ، بحر العلوم ٢١٧/٢ ، البرهان في علوم القرآن ٢٢٦/٣ تفسير روح البيان ٢٢٣/٤

(٢) - سورة فاطر الآية ٢٧

(٣) - الجامع لأحكام القرآن ٣٤٢/١٤

أي أنواعها من التفاح والرمان والعنب والتين وغيرها مما لا يحصر ، واختلاف كل نوع بتعدد أصنافه كما في التفاح ، فإن له أصنافاً متغايرةً لذةً وهيئةً ، وكذا في سائر الثمرات ولا يكاد يوجد نوع منها إلا وهو ذو أصناف متغايرة ، وقد يراد منها : اختلاف الألوان المعروف ، فالصنف الواحد يختلف ألوانه فهذا أصفر فاقع ، وذاك أبيض ناصع ، وهذا أحمر قان (١)

أخرج ابن جرير عن قتادة أنه حمل الألوان على معناها المعروف (٢) وهذا القول مروى عن ابن عباس كذلك ، وهو الأوفق ، ويؤيد هذا اطراد ذكر هذه الألوان فيما بعد (٣)

وبيّن ابن عاشور المقصود من الاعتبار بقوله : " هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل ، وألوان العنب مع ألوان التين ، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعشاب والتفاح والرمان " (٤).

وفي اختلاف الألوان إبداع وإعجاز (٥) فهي معرض بديع للألوان ، وما من ثمرة تماثل لون أخواتها من النوع الواحد ، فلا بد من اختلاف اللون عند التدقيق فيها .

و جاء التعبير عن الإخراج واختلاف الألوان عند ألوان الثمرات بالجملة الفعلية ؛ لإفادتها التغير والتجدد فهي مقرونة بالزمان . أما الاختلاف في ألوان البقية فالتعبير بالجملة الاسمية ؛ لأنها تفيد الثبات .

في الآية الكريمة إيجاز وحذف إذ تقدير الكلام : ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحممر مختلف ألوانها كاختلاف ألوان الثمرات ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك

(١) _ الكشاف ٦٠٩/٣ ، المحرر الوجيز ٤٣٧/٤ ، ، ٤١٧/١ ، مدارك التنزيل ٢٧٣/٣ ، لباب التأويل ٣٠١/٥ ، إرشاد

العقل السليم ١٥٠/٧ ، روح البيان ٢٦٧/٧ ، البحر المديد ٥٣٦/٤ ، روح المعاني ٣٦١/١١

(٢) _ جامع البيان ٤٦٢/٢٠

(٣) _ المحرر الوجيز ٤٣٧/٤ البحر المحيط ٢٩٦/٧ ، روح المعاني ٣٦١/١١

(٤) _ التحرير والتنوير ٣٠١/٢٢

(٥) _ بيّن العلم الحديث أن ألوان الأزهار والثمار تصنعها القدرة الإلهية عن طريق عدد من الأصباغ الأساسية مثل : الكلوروفيللات الخضراء ، والأنثوسيانينات الحمراء ، والكاروتينات الصفراء ، وعدد آخر من الأصباغ الثانوية التي تُعرف باسم (أصباغ الإحساس) وتباين نسبتها إلى بعضها تتكون هذه الألوان المبهرة لألوان النباتات والزرور المختلفة . الموسوعة الكونية

- أي كاختلاف ألوان الثمرات وجدد الجبال - ومن الناس مختلف ألوانه كذلك تم التعويض عنها وإيجازها بكلمة ﴿كَذَلِكَ﴾ (١) .

وفي آيات كثيرة إدماج للامتنان والتحريض على التفكير والنظر والاعتبار بدلالات عظمة الله - تعالى - في الكون ، ومنها : إنزال الماء من السماء ، وما ينفع الله به - سبحانه - البلاد والعباد، وهذه الظاهرة تتكرر في كل مكان وزمان حتى يألفها الإنسان فلا تكاد تؤثر فيه ، ولذا فقد تكررت هذه الظاهرة كثيراً في الآيات القرآنية ؛ لتلفت الأنظار لما فيها من عبر وعظات ، فكيف خرجت هذه النباتات الضعيفة ، وكيف مرت مراحل حياتها حتى أصبحت معرضاً مختلف الأصناف والألوان في البقعة الواحدة بل في النبتة الواحدة ، فلو تأملها الإنسان بعين بصيرة لأثارت في نفسه كوامن الإيمان ، وخشية فاطرها - سبحانه - وتعالى - ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

في هذه الآية الكريمة دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله - تعالى - بمنافع ذلك الماء للناس ، وضرورته لحياتهم ، وحياة أنعامهم ، وفيه دلالة لمن يتفكر في صنع الله - تعالى - فيؤمن بخالقه ، ويستدل به على وحدانية الخالق - سبحانه - ووجوده ، و عظيم قدرته وعظمته وحكمته وتدييره ، فبسببه يخرج الزرع والثمر مختلف الألوان والأشكال ، مع أن الماء واحد والأرض واحدة .

و في ذلك كله آيات ودلائل لقوم يتفكرون ، ويستعملون عقولهم فيما ينفعهم .
ثم فصل - سبحانه - بعض منافع الماء الهامة ، فبسببه يخرج الزرع الذي هو أصل الغذاء كالقمح والشعير ونحوها ، وكذلك الزيتون فهو غذاء ودواء ، وأشجار النخيل والأعناب وفيهما ما فيهما من المنافع واللذات بأكلهما ، ومن كل الثمرات المختلفة التي تنتفعون منها المنافع المادية والنفسية برؤيتها والتلذذ بأكلها ، ولا شك أن هذا الانبات المختلف أكبر دليل على القدرة الإلهية فلا

(١) _ الكشاف ٦٠٩/٣ ، وتكملة الآية قوله - تعالى - { ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك } الآية ٢٧ ،

وينظر : تفسير سورة فاطر ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) _ سورة النحل الآيات ١٠-١١

يقدر سواه على هذا الإخراج والتنوع مع الاتحاد في المصدر والعوامل المؤثرة إلا القادر المختار - سبحانه وتعالى - وهذه اللوحة الرائعة الطبيعية جدية بالتأمل فيها والتفكير ، وما أجمل قول الشاعر (١) :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها فصامتها يهدي ومن هو قائل

وعلق بعدها ابن القيم قائلاً : " فلست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ، ونعوت كماله ، وحقائق أسمائه ، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها ، فهي تدل عقلاً وحسّاً وفطرةً ونظراً واعتباراً " (٢)

وفي آيات أخرى - أيضاً - تحريض على النظر والتأمل فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٣)
(٣) ذراً في الآية الكريمة كجعل ، أي : خلق وأبدع والشئ كثره (٤) .

وأفردت الآية في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٥) لكون محل الاستدلال في الآية الكريمة اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرة ، ونظير الآية الكريمة

قوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴾ (٦) ولتأكيد القدرة الإلهية والإعجاز في خلق النبات نصّ - سبحانه وتعالى - على اختلاف الألوان والروائح والصفات والأجناس في الصنف الواحد والثمرة الواحدة مع اتحاد السبب وهو الماء والتربة الواحدة - فتبارك الله الذي أحسن كل شئ خلقه ثم هدى .

(١) - لم أفد على القائل ، وذكر البيت الأول ابن الجوزي في التبيان في أقسام القرآن ١٢/١ ، و البقاعي في نظم الدرر

٥٧٥/٦ ، وذكرها ابن القيم في مفتاح دار السعادة ٦٥/٢ - ١٩١ ، وفي مدارج السالكين ٣٥٦/٣

(٢) - مدارج السالكين ٣٥٦/٣

(٣) - سورة النحل الآية ١٣

(٤) - لسان العرب ٧٩/١ ، مادة (ذراً) ، القاموس المحيط ٥١/١ ، الهادي إلى تفسير غريب القرآن ص ١٥١

(٥) - التحرير والتنوير ١١٧/١٤

(٦) - سورة الزمر من الآية ٢١

وجاء الإخراج بالمضارع ؛ لاستحضار تلك الصورة البديعة (١)
ولابن القيم كلام جميل أحتم به هذا المطلب ، فيقول - رحمه الله تعالى - : " انظر إليها وهي
ميتة هامة خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وانبتت من
كل زوج بهيج ، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر ، بهيج للناظرين ، كريم للمتناولين ،
فأخرجت الأقوات على اختلافها ، وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها ، والفواكه والثمار
وأشكالها والأدوية ومراعي الدواب والطيور ، ثم انظر قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماءً واحدًا
فتنتب الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم
واحدة (٢)

(١) _ البحر المديد ٦٧/٥

(٢) _ مفتاح دار السعادة ٢٠٠/١

المطلب الثالث : في كل النباتات زوجان اثنان :

خلق الله - سبحانه وتعالى - هذا الكون الهائل بنظام دقيق متناسق بديع حكيم يأخذ بالقلب، ويهر اللب ، يواجه فطرة الإنسان وعقله حتى لا يبقى مجال للإنكار ولا للشك بوحداية من خلق فسوى وقدر فهدى - سبحانه وتعالى - ، ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن دعاهم للتفكر في هذا الكون الفسيح وفي أنفسهم ، وفتح المجال أمامهم واسعاً للتفكر ، واستخلاص العبر ، ورؤية الحقائق الكونية التي يكشف عنها العلم الحديث باستمرار .

ومن هذه الحقائق الكونية : حقيقة الزوجية في كل الكائنات سواء كانت حية أم جامدة ، فالزوجية سنة من سنن الله - تعالى - في الخلق والتكوين ، وهي سنة عامة مطردة ، في جميع الكائنات ، لقول الحق - جل وعلا - ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) فكل ما في العالم فإنه زوج من حيث أن له ضدًا ما ، أو مثلاً ما ، أو تركبًا ما من جوهر وعرض ومادة وصورة .

وفي الآية الكريمة تنبيه على أنه لا بد للمركب من مركب ، وهو الصانع الفرد - سبحانه - وأنه لا شيء يتعري من تركيب يقتضى كونه مصنوعًا ، وأنه لا بد له من صانع ؛ تنبيهًا أنه تعالى هو الفرد - سبحانه وتعالى - (٢) .

وفاصلة الآية الكريمة تشير إلى ذلك ؛ فإن ظاهرة التزاوج بين الأشياء والأحياء وترابطها والتوازن بينها ، والذي يستحيل وجودها بالمصادفة ونحوها ، جدية بالتذكر والتأمل ، ومن ثم استثمار المعارف والسنن الكونية ، في تثبيت الإيمان وتقويته ، والقيام بعبادة الخالق - سبحانه - على الوجه الأكمل .

ووجود الزوجية في الأحياء دليل على وجود الله - سبحانه وتعالى - وأعظم من ذلك دلالة وجودها في النبات الذي لا يعقل ولا يفكر ، وإنما يخضع لقوانين تملى عليه من الخالق المبدع - سبحانه - ولا يمكن أن توجد بالمصادفة في حال من الأحوال (٣)

(١) - سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) - مفردات غريب القرآن ٢١٦/١ ، وينظر : روح البيان ٥٣/٧

(٣) - الجدول في إعراب القرآن ٩١/١٣ ، وكتب د. نظمي أبو العطا مقال بعنوان : (الزوجية في النبات) : أن الأصل في الإثمار هو وجود الزوجين ، ومن النبات من يحمل أعضاء التذكير على نبات مذكر وأعضاء التأنيث على نبات مؤنث وتسمى (النباتات ثنائية المسكن) وذلك مثل النخل . ومن النبات من يحمل كلاً من أعضاء التذكير والتأنيث على نفس النبات

ومن مظاهر الزوجية في المخلوقات : الزوجية في النباتات ، والتي جاء تقريرها في آيات كريمة لم يكتشف الناس إعجازها وحقيقتها العلمية إلا مؤخراً ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ

الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي
الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾

يبين الله - سبحانه وتعالى - في الآية الكريمة مظهرًا من مظاهر عنايته بخلقه ، وهو مد الأرض وجعلها متسعة للسير فيها ، وزراعتها ، وسائر صور الانتفاع بها ، وتشبيتها بالجبال الراسية ، ووجود الأنهار الجارية ، ففي الآية آيةٌ ومنةٌ منه - سبحانه - .

وبينت هذه الآية الكريمة - أيضًا - أن الله - سبحانه وتعالى - خلق من هذه الثمرات في كل ثمرة زوجين اثنين ، أي: من كل شكل صنفان (٢) كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير ، وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرًا وأنثى .

فالثمرة - أي ثمرة - لا تكون إلا بالتقاء الذكر والأنثى ، على أية صورة من صورة الالتقاء . وهذه الزوجية حقيقة تثير الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد رؤية ظواهره .

والمراد بالزوج : خلاف الفرد . والأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء ، وكل شيئين مقترنين : شكليين كانا أو نقيضين : فهما زوجان ، وكل واحد منهما : زوج . ولفلان زوجان من حمام ، يعني ذكرًا وأنثى (٣)

(أحادي مسكن) كالصنوبر. ووجود الأعضاء المذكورة مع المؤنثة يجعل التكاثر هنا بين النبات ونفسه وهذا يتسبب في إضعاف النوع وعزل الصفات الوراثية السيئة وتجمعها في نبات واحد، وهنا تجد عجباً وإعجازاً، وضرب على ذلك مثالا : نبات الصنوبر ، وكيف يحدث التلقيح الخلطي... ينظر : الموقع الرسمي ، د. نظمي خليل أبو العطا ، الإعجاز العلمي ، الموسوعة الكونية الكبرى ص ٤١٤ - ٤١٦ .

(١) - سورة الرعد الآية ٣

(٢) - بحر العلوم ٢/٢١٦ ، الكشف والبيان ٥/٢٦٩ ، معالم التنزيل ٤/٢٩٣ ، ١/٣١٦ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٤٣١

(٣) - مجمل اللغة لابن فارس ١/٤٤٣ ، مادة (زوج) ، لسان العرب ٢/٢٩١ ، النهاية في غريب الأثر ص ٤٠٠ ، باب

الزاي مع الواو ، المصباح المنير ١/٣٠٦ ، تاج العروس ٦/٢٢

و بيّن الطبري أن المراد بالزوج الواحد : هو الذكر والأنثى ، فيكون المعنى من كل ذكر اثنان ، ومن كل أنثى اثنان ، فذلك أربعة (١) وهو المعروف من كلام العرب (٢)

فلا يقال للاثنتين زوج ، لا من طير ولا من شيء من الأشياء ، ولكن كل ذكر وأنثى زوجان ، يقال : زوجا حمام للاثنتين ، ولا يقال زوج حمام للاثنتين هذا من كلام الجهال بكلام العرب (٣)

فالمقصود بالزوج في مثل قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ (٤) النوع ، وعندما يكون الغرض من الزوج الذكر والأنثى يقول - تعالى - ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ ؛ لأن الزوجين هما النوعان : الذكر والأنثى .

وفائدة الصنفين ؛ ليفيد كل صنف غير فائدة الآخر ، فكل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف (٥)

وأكد سبحانه الزوجين باثنين وهي اثنيينية حقيقية ، وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر ، أي : جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين صنفين ، إما في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفية كالحار والبارد والذكر والأنثى ، وما أشبه ذلك (٦)

وخص اثنين بالذكر ، وإن كان من أجناس الثمار ما يزيد على ذلك ؛ لأنه الأقل ، والفائدة في هذا الوصف ؛ ليُعلم أن المراد النوع أو الشخص ، فابتداءً الناس مع كثرتهم من زوجين اثنين آدم وحواء ، فكذا القول في جميع الأشجار والزررع (٧) .

(١) - جامع البيان ٣٢٩/١٦

(٢) - جامع البيان ٣٢٢/١٥ - ٣٢٩/١٦ ، و ينظر : لسان العرب ٢٩١/٢ ، المصباح المنير ٣٠٦/١ ، تاج العروس ٢٢/٦

(٣) - المخصص ١٤٧/٥

(٤) - سورة الحج من الآية ٥

(٥) - تبصير الرحمن وتيسير المنان ٣٧٧/١

(٦) - بتصرف ، إرشاد العقل السليم ٤/٥

(٧) - البحر المحيط ٥ / ٣٥٥ ، السراج المنير ١١٦ / ٢

وقد دل علم الحديث على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى ، سواء في الحيوان والنبات ، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات ، ويتم التلقيح إما بالريح أو الطير ، وسبحان الله الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (١).

واستظهر أبو حيان وغيره تعلق قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٢) وكذلك أغلب المفسرين ، وجوّز بعضهم الحالتين ، إلا أن ابن عاشور استحسّن الوقف على ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ واستبعد تعلقها بقوله - تعالى - ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ وذلك - عنده - لأمر ، منها : أنه لا نكتة في هذا التقدير ؛ لأن جميع المذكور محل اهتمام فلا خصوصية للثمرات هنا ، ولأن الثمرات لا يتحقق فيها وجود أزواج ، ولا كون الزوجين اثنين . وأيضاً - قال - فيه فوات المنة بخلق الحيوان وتناسله مع أن منه معظم نفعهم ومعاشهم .

واستظهر أن جملة جعل فيها زوجين : مستأنفة للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات ، وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكراً وأنثى أحدهما زوج ، أما قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٣) فإطلاق الزوج على الصنف مجازاً ، بناءً على شيوع إطلاقه على صنف الذكر والأنثى والقرينة قوله أنبتنا مع عدم التثنية (٤) ولعل في قوله - رحمه الله - بعد وذلك لأمر منها :

عند الوقف على قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وما بعدها للاستئناف ، خلاف لظاهر الآية ، وبالإضافة إلى ذلك أن الثمرات تدخل ضمن الكائنات الأخرى في قانون الزوجية فيها فلا دليل لخروجها عن هذه السنة الإلهية .

وفي قوله - رحمه الله - أن الثمرات لا يتحقق فيها وجود أزواج ، ولا كون الزوجين اثنين ، خلاف لآيات كريمة نصت على الزوجية في كل المخلوقات عامة ، كقوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(١) _ مملكة النبات كما يعرضها القرآن ١١٦/١

(٢) _ البحر المحيط ٣٥٥/٥ ، الدر المصون ١٢/٧ ، اللباب في علوم الكتاب ٢٤٣/١١ ، وينظر : سورة الرعد دراسة أدبية لغوية ص ٩٥

(٣) _ سورة ق من الآية ٧

(٤) _ التحرير والتنوير ١٣/٨٣ - ٨٤

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ والثمرات خاصة ، ومنها قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٢﴾ وغيرها من الآيات بالإضافة إلى أن تلقيح النخيل

معروف عند العرب قديماً ، فكيف لا تتحقق الزوجية فيها ؟

يقول الرازي : " فأنبثنا فيها من كل زوج أي من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن

النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذي هو الشجر إما أن يكون مثمراً ،

وإما أن يكون غير مثمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ... " (٣)

والزوجية في النبات من عجائب خلق الله - تعالى - لها ، كتشوع أصنافها وألوانها مع اتحاد الأصل

فيها ، فبين الآيتين اتصال ، والله - تعالى - أعلم .

ووصف الله - سبحانه وتعالى - الزوجية في النبات بأوصاف ، منها قوله - سبحانه - ﴿ الَّذِي

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن

نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤﴾

فبعد التذكير وتعداد بعض النعم التي لا تزال تتردد في آيات كثيرة في القرآن الكريم كما في الآيات

الكريمة السابقة ، و منها : خلق السماوات والأرض وإنزال الماء الذي يخرج بسببه الأنواع

والأصناف النباتية المختلفة، من زروع وثمار حامضة وحلوة ومرة ، وذات ألوان وروائح وأشكال

مختلفة، بعضها صالح للإنسان، وبعضها للحيوان .

وشتى جمع شتيت بوزن فعلى والشت الافتراق والتفريق والشتيت : المشتت ، أي المبعد (٥).

وأريد به هنا التباعد في الصفات من الشكل واللون والطعم ، وبعضها صالح للإنسان وبعضها

للحيوان (٦) .

(١) - سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) - سورة طه من الآية ٥٣

(٣) - التفسير الكبير ١١٨/٢٥

(٤) - سورة طه الآيات ٥٣-٥٤

(٥) - لسان العرب ٤٨/٢ مادة (شتت) ، المصباح المنير ١/٣٥٩ ، مادة (شت) .

(٦) - التحرير والتنوير ٢٣٩/١٦

شتى يجوز أن يكون صفة للأزواج ، ويجوز أن يكون صفة للنبات والأجود أن يكون شتّى للأزواج؛ لأنها المحدث عنها (١)

لفظ الأمر في قوله - تعالى - ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ معناه معنى الخير يعني لتأكلوا منه وترعوا أنعامكم ، وفي هذا الامتنان دليل على أن الأصل فيما ينبت من الأرض الإباحة (٢) فلا يحرم منها إلا ما كان مضرًا كالسموم ونحوها .

في قوله - تعالى - آيات للتفخيم كمًا وكيفًا ، أي : آيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله - تعالى - في ذاته وصفاته وأفعاله (٣)

وفيها دليل لأولي النهى الذين تنهاهم عقولهم الناهية عن الأباطيل والتشكيك بالخالق - سبحانه وتعالى - وعدم اتباع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .

وقد وصف الله - تعالى - الثمرات بأنه - سبحانه - خلقها أصنافًا وأزواجًا ، ووصفها بأنها بهيج

وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٤) وقوله - تعالى - ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

رَوْسِيَّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٥) في الآيتين

تذكير بنعم الله - تعالى - على البشر ، وتقرير إمكانية البعث والنشور بحياة الأرض بعد موتها بالمطر النازل من السماء والذي ينبت به الله - سبحانه - وتعالى - من كل زوج بهيج ، والمراد بهيج

أي : حسن يبهج به ويسر من يراه ، مأخوذ من البهجة ، بمعنى الحسن (٦)

(١) - البحر المحيط ٢٣٤/٦

(٢) - بحر العلوم ٤٠٢/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١١ التفسير الكبير ٦١/٢٢

(٣) - إرشاد العقل السليم ٢٢/٦

(٤) - سورة الحج الآية ٥

(٥) - سورة ق الآيات ٧ - ٨

(٦) - مجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٥/٢ - ٢٢٣/٢ ، إيجاز البيان عن معاني القرآن ٥٧٠/٢ ، وضح البرهان ص ٨١ ، قطر

قطر المحيط ، ص ١٤٦ ، باب الباء .

وهو قول ابن عباس وقتادة - رضي الله عنهما - وغيرهما (١) كما وصف الله - سبحانه وتعالى -

الحدائق بأنها ذات بهجة في قوله - تعالى - ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (٢) والبهيج يجوز أن يكون صفة مشبّهة ، يقال : بُهِجَ بضم الهاء ، إذا حَسُنَ في أعين الناظرين ، فالبهيج بمعنى الفاعل ، ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول ، أي منبَهَج به ، أي يُسَرُّ به الناظر (٣) وكلا الوصفين متحقق في الثمرات .

فما أجمل رؤية النبات المزدهر الرائق الذي يملأ العين بهجة ومسرة بعد همود الأرض وقحطها . يقول ابن القيم : " وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيج للناظرين ، كريم للمتناولين ، فأخرجت الأقوات على اختلافها ، وتباين مقاديرها ، وأشكالها ، وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير ... " (٤) ووصف الزوج بهيج يفيد تقوية الاستدلال بإتقان صنع الله - تعالى - ، وإدماج الامتنان عليهم بذلك ؛ ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره .

ويدل - كذلك - على عناية الإسلام بعنصر الجمال في هذا الكون البديع ، فهذا العنصر يجده الناظر في جميع مشاهد الكون ، وبالأخص في عالم النبات فتجتمع به جميع تلك العناصر ؛ لتكوّن لوحةً تحوي الجمال والإبداع في ترتيب وتوزيع الألوان ، مع التقدير في ضبط المساحة الكلية بإتقان لا يمكن محاكاته ؛ لينتج منظراً نباتياً ذا بهجة وحسن يبعث الشعور بالبهجة والمسرة - فسبحان الخالق العظيم - .

ومن حِكْمِ ذكر الأفعال الباهرة للخالق - سبحانه - ؛ لتكون تبصرةً و ذكرى ، فتعم كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها ، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصریحاً وتلويحاً كما ذكر ابن عاشور (٥) .

وهذه التبصرة والذكرى لكل عبد منيب كثير الرجوع إلى الله - تعالى - بالتدبر والتأمل في بدائع صنعته ، ودلائل قدرته ، وواسع رحمته .

(١) - جامع البيان ٥٧١/١٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٢ ، فتح القدير ٤٣٨/٣

(٢) - سورة النمل من الآية ٦٠

(٣) - التحرير والتنوير ٢٨٩/٢٦

(٤) - مفتاح دار السعادة ٢٠٠/١

(٥) - التحرير والتنوير ٢٩٠/٢٦

و ينبغي ألا تكون الرؤية قاصرةً وقتيةً ، بل يجب أن تكون نظرة تأمل واستبصار واستدلال إلى المطر الذي هو أثر من آثار رحمة الله ، كيف يكون سببًا لإحياء النبات والزرع والأشجار والثمار حسنة المنظر طيبة الريح ، و مما يدل على واسع رحمة الله وعظيم قدرته ودقيق صنعته .

وجاء وصف الزوج - كذلك - بكريم ، وذلك في موضعين من كتابه العزيز ، يقول - سبحانه

وتعالى- ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ويقول - سبحانه- ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَمَى فِي الْأَرْضِ

رَوْسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٢﴾

الاستفهام في الآية للاستنكار والتوبيخ على غفلة الكفار وإعراضهم عن العظات والعبر في هذا الكون ، وتذكير وتحريض لهم ليتأملوا هذه العجبية من مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - ، ومنها : خلق الأصناف والأنواع التي لا تحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى ، ووصفها - سبحانه - بأن فيها من كل زوج كريم ، والكريم هو : الحسن ، كثير المنافع ، وهو المحمود من كل شئ (٣) .

فالنبات كريم بما له من البهجة والنضرة الجالبة للسرور والمنفعة والكثرة (٤)

وفي وصف الزوج بالكريم وجهان : أحدهما : أن النبات على نوعين : نافع وضار ، فذكر - سبحانه - كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وترك ذكر الضار ، والثاني : أنه يعم جميع النبات نفعه وضاره ووصفهما جميعا بالكريم ، ونبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة (٥)

(١) _ سورة الشعراء الآيات ٧-٨

(٢) _ سورة لقمان الآيات ١٠-١١

(٣) _ تأويل مشكل القرآن ١/٢٦٩ ، جامع البيان ١٩/٣٣٥ ، بحر العلوم ٢/٥٥٠ ، معالم التنزيل ٦/٢٨٥ ، الكشاف

٣/٢٩٩ ، تفسير القرآن العظيم ٦/٣٣٣ ، إرشاد العقل السليم ٦/٢٣٥

(٤) _ نظم الدرر ٦/٩

(٥) _ التفسير الكبير ٢٤/٤٩١

فالنبات كريم بما له من البهجة والنضرة الجالبة للسرور والمنفعة والكثرة (١)
 ونظرا للتشابه بين خلق الإنسان والنبات تأول الشعبي (٢) الزوج الكريم على الناس ، فقال :
 والناس - أيضا - من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم (٣)
 والجمع بين (كم) و (كل) ؛ لإفادة الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل أن هذا المحيط
 متكاثر مفرط الكثرة (٤)

وهذه الآية دليل على وحدانية الله ؛ لأن هذا الصنع الحكيم لا يصدر إلا عن واحد لا شريك له ،
 تام القدرة والحكمة ، سابع النعمة والرحمة .

وجاء ذكر هذه الصورة البديعة من الخلق بعد تنزيه الله - سبحانه وتعالى - نفسه عن قول الكفار

مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته ، فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ

كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥)

لفظ : سُبْحَانَ اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف تقديره أسبح الله -
 سبحانه - أو سبحت الله سبحانه وسبحان علم جنس للتنزيه والتقديس ، ولذا لا يستعمل إلا فيه
 - تعالى - وفيه تَبَرُّهُ اللّٰهُ من السوء وتنزيهه - سبحانه وتعالى - فسبحت الله سبحانه : أى :
 تسبيحا . بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما (٦)

(١) - نظم الدرر ٩/٦

(٢) - هو : عامر بن شراحيل الشعبي الحميري ، أبو عمرو : راوية ، من التابعين ، يضرب المثل بحفظه . ولد ونشأ ومات
 فجأة بالكوفة ، سنة ١٠٣ ، وهو من رجال الحديث الثقات والفقهاء . ينظر : تذكرة الحفاظ ١ / ٦٣ ، سير أعلام النبلاء ٤
 / ٢٩٤ ، تهذيب التهذيب ٥ / ٥٧

(٣) - تفسير ابن أبي حاتم ٨ / ٢٧٥٠ ، الكشف والبيان ٧ / ١٥٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٥٧ ، تفسير القرآن العظيم
 ٦ / ٣٣٣ ، التفسير الكبير ٢٤ / ٤٩٢

(٤) - الكشاف ٣ / ٣٠٠ ، إرشاد العقل السليم ٦ / ٢٣٥ ، روح المعاني ١٠ / ٦٢

(٥) - سورة يس الآية ٣٦

(٦) - معاني القرآن وإعراجه للزجاج ٤ / ٢٨٧ - ٥ / ٢١٨ ، مفردات غريب القرآن ١ / ٢٢١ ، كتاب السين ، مادة (سبح)
 (لسان العرب ٢ / ٤٧٠ ، تاج العروس ٦ / ٤٤٥

فنزّه الله - سبحانه وتعالى - نفسه عما أنكره الكفار من آياته ودلائل قدرته ، وأسرار حكمته ، وروائع نعمائه ، واستعظام إخلالهم بما يستحقه الخالق المبدع - سبحانه - من عبادة وشكر ، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك أو ظهير أو مثيل - سبحانه جل في علاه - .

والقرآن الكريم لم يحصر الزوجية في النبات والحيوان ، بل إنها بكل مخلوقاته ، ففي هذه الآية الكريمة دليل بليغ يدهش العقول ، فهو يشمل الكهربائية وغيرها مما علم ، ومما قد يعلم في المستقبل ، مما لا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته ، وفيه الدليل على عظيم قدرته وواسع ملكه - عن كل نقص لا يليق بجلال عظمته . وهذا التعبير لا يعقل صدوره إلا عن عالم الغيب والشهادة العليم الخبير - .

فالآيات الكريمة سبقت ركب العلم الذي كشف مؤخرًا هذه الحقيقة العجيبة التي ترتسم معها حقيقة أخرى ، وهي وحدة الخلق والتكوين التي توجد أصل التكوين مع الاختلاف في الأصناف والأجناس والخصائص والسمات ، وكلها تخضع لقوانين واحدة ، وتشهد بأن الخالق واحد - سبحانه - فهو الذي أوجد هذا التنظيم الدقيق المعجز .

و يظهر من مجمل الآيات الكريمة أن ظاهرة الزوجية ليست دليلاً على وحدانية الخالق - جل وعلا - فحسب ، وإنما هي دليل على نقص المخلوقات وافتقارها لغيرها ، حيث لا تتحدد معاني

الأشياء وقيمها الحقيقية من خلال ذاتها ، وإنما من خلال كونها أجزاءً في تركيبات أعم (١) المراد بالأزواج أي : الأنواع والأصناف ؛ فكل زوج صنف ؛ لأنه مختلف في الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر ، فاختلافها هو ازدواجها ، وهي الأنواع من جميع الأشياء مما تنبت الأرض من النخل والشجر والزرع دخل فيه كل نجم وشجر ومعدن وغيره من كل ما يتولد منها (٢) وأكدَّ - سبحانه - بقوله (كلها) لإفادة التعميم (٣) كما في قوله - تعالى - في آية كريمة

أخرى ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ (٤)

(١) - موقع صيد الفوائد ، مقال : د.عبدالكريم بكار

(٢) بحر العلوم ١١٦/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٦/١٥ ، ٤٣٣/١ ، البحر المحيط ٣٢٠/٧ ، نظم الدرر ٢٦١/٦ ، روح المعاني ٩/٢٣

(٣) - نظم الدرر ٢٦١/٦

(٤) - سورة الزخرف من الآية ١٢

وفيد التكثير التعريض بهم ؛ لقلّة تدبيرهم إذ عمّوا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم (١) وخص النبات بالذكر بداية ؛ لأن به قوام معاش الناس ومعاش أنعامهم ودوابهم ، ولأنه أشبه بالبعث الذي أنكره الكفار ، ثم ارتقى - سبحانه وتعالى - في الحديث عن أصناف الناس وهو أعلى رتبة الكائنات الحية ، ثم انتقل - سبحانه - إلى مظهر آخر من مظاهر قدرته وهو ما لا يعلمه الناس في مختلف الأقطار والأجيال والعصور وفي هذا التدرج ما فيه من فن تناسب المعاني . وأشار - سبحانه - لكون السياق في تكذيب الكفار إلى تأديبهم بتحقيهم بجمع القلة ، والتعبير

بالنفس التي تطلق في الغالب على ما يذم به فقال - سبحانه - ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) وعالم النبات عالم عجيب في المنظر والمخبر ، لا يمكن الإحاطة بكافة علومه وغرائبه ، كسائر العلوم ، وكما قيل : الأعمار تقصر والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات كانت معرفتك بجلال الصانع أتم (٣)

فجعل النبات زوجين معجزة متكررة ، و عجيبه من عجيب صنع الخالق - سبحانه - ولكن الناس قد يغفلون عنها ، فيذكروهم الرحمن بها في آياته الكريمة ، وينبه غافلهم ، ويربط بين قلب وعقل الإنسان ، وبين عجائب صنع الله - تعالى - في كل صغير وكبير من الكون ، حتى يوقظه من غفلته ويحيي قلبه ويجعله خاشعاً معتبراً أمام تلك المناظر - فسبحان الذي وسعت رحمته كل شئ - .

ومهما علّم الإنسان من عجائبها فيظل علمه قاصراً عن الإحاطة بها ، وعقله متحيراً في أمرها وخواصها وفوائدها ومضارها ومنافعها ، وكيف لا يكون كذلك وهو يشاهد اختلاف أشكالها ، وتباين ألوانها ، وغرائب أجزائها ، واختلاف روائعها ، مع اشتراك الكل في طيب الرائحة والمنافع المختلفة .

فلينظر الإنسان وليردد بصره وفكره في هذا الكون الفسيح طاعةً لله - تعالى - واستجابة له - سبحانه - في الأمر بالنظر والتفكير .

(١) - التحرير والتنوير ٢٨٩/٢٦

(٢) - نظم الدرر ٢٦١/٦

(٣) - مختصر منهاج القاصدين ص ٤١٠

المطلب الرابع : التفكير في تنوعها :

خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان و سخر له ما في الكون ، واستخلفه في الأرض وهياها له ومهداها وجعلها صالحة لسكناه ، وهداها لكيفية استثمارها وتسخيرها لصالحه ولغيره من الكائنات وزوده بوسائل وسبل العيش الكريم ؛ ليعينه على القيام بحق العبودية وواجبات الاستخلاف ، وأسبغ عليه من النعم العظيمة في نفسه وفيمن حوله وحرصه على رؤية آيات الله الكثيرة والتفكر فيها ليأخذ بيده إلى طريق الإيمان واليقين رحمةً منه - سبحانه - بعباده ، ومن هذه الآيات العظيمة التي دعاه - سبحانه - للتفكر فيها تنوع النباتات باختلاف أصنافه وألوانه وأحجامه تنوعاً يتيح له التمتع بها والتلذذ ، بالإضافة إلى أنها قوت حياته وحياة أنعامه ، وقد اشتملت آيات كريمة على ذكر هذه النعمة وعظم فضل الله تعالى على عباده بها في مقاصد ودلالات مختلفة و جاوزت الآيات فيها العشرات .

وبالنظر للآيات الكريمة التي تفصل في الثمرات وتذكر تنوعها وجدت النص على بعض أنواعها ؛ وقد يكون النص عليها ؛ لأهميتها وكثرة فوائدها الصحية والغذائية ، وأحيانا تدخل تحت لفظ عام يشملها : كالفواكه مثلاً ، أو الزرع أو الثمرات أو الجنات والحدايق ونحوها ، وأحيانا ذكرها على اعتبار أنها من الطيبات .

ونظراً لأهميتها ، وأهمية تنوعها ، وحاجة الإنسان إليها أقسم الله تعالى بنوعين منها في كتابه العزيز هما : التين والزيتون ، والله - سبحانه وتعالى - عظيم لا يقسم إلا بما هو عظيم .
وأنواع النبات كثيرة لا يمكن تفصيلها والإحاطة بها ، فهي كما يقول الرازي : " أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات " (١) وتزيد أنواع النباتات المعروفة حالياً على أكثر من أربعمئة ألف نوع (٢) فعالم النبات يزخر بتنوع واسع من الأشجار الكثيفة الضخمة ، والشجيرات الصغيرة والحشائش ، والنباتات الدقيقة وتنوع كذلك في أحجامها وألوانها وأشكالها وطعومها وروائحها .

(١) _ التفسير الكبير ١٣/٨٦

(٢) _ آيات الله ١٠ / ٣٧٤

وأشكال النباتات التي تنبت بالأرض ثلاثة وهي تمثل مختلف الطبقات النباتية : ما له ساق وهو الشجر بأنواعه ، وما ليس له ساق وهو قسامين ، فمنه : ماله أكمام وهو الحب ، ومنه ما ليس له أكمام وهو الحشيش (١)

ولتنوع النبات فوائد كثيرة منها :

- أنه يساعد على توازن البيئة وتناسقها فكل نوع له وظيفة يؤديها في هذه العملية مهما صَغُرَ ودقَّ حجمه .

- تنوع النبات يساعد على توفر الثمار على مدار العام ، وفي ذلك حكمة إلهية لا تخفى ذكرها ابن القيم بقوله : " ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شيء متتابعةً ولم يخلقها كلها جملةً واحدةً فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي ربت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يتقضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه ... " (٢)

- تنوع النبات يؤدي لاختلاف عمق الجذور للنباتات المختلفة مما يجعلها تساعد بعضها البعض في حالة نقص المياه وشحها .

- تنوعها يقلل من إصابتها بالأمراض والآفات الزراعية كما في قصة صاحب الجنتين ، إلى غير ذلك من منافع تنوع النبات ، ولذا جاء الامتنان بها والأمر بالنظر فيها والاعتبار منها .

وبتتبعي للآيات الكريمة التي تشير إلى تنوع النبات واختلافه وجدت بعضها يشير إلى ذلك الاختلاف دون تعداد أنواعها ، والبعض منها يعدد أنواعاً ، ومن الآيات الكريمة التي ينبه بها - سبحانه وتعالى - على كمال قدرته ومنته في تنوع النبات واختلاف ألوانه مع اتحاد الأصل فيها جميعاً وذلك بصورة مجملية ، قوله - تعالى - ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾

﴿ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴾ (٣)

(١) - التفسير الكبير ١١/٣١ ، التفسير المنير ١٤/٣٠ ، تفسير المراغي ٩/٣٠

(٢) - مفتاح دار السعادة ٢٢٤/١

(٣) - سورة النحل الآية ١٣

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ (١) وقوله - تعالى -
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢)

وقوله - سبحانه - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ
بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ (٣)

وهذا التنوع والاختلاف فيه آيات لأصحاب العقول السليمة والذين إذا مروا بآيات الله - سبحانه
وتعالى - استدلوا بها وأخذوا العبرة منها .

ومن هذه الآيات ، قوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ
شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

تدعو الآية الكريمة للنظر والتأمل في نعم الله السابغة على العباد ، وتدعوهم للنظر في طريقة
الإنبات وتنوع النبات الناتج عن تلك الطريقة مع الاتحاد في الأصل والعوامل الأخرى فينتج بكثرة
هائلة مختلف أنواع النباتات والزررع وأصناف الفواكه والثمار والأزهار المختلفة وذلك من أجل
النعم والإحسان من المنعم المتفضل - سبحانه وتعالى - ، كذلك هي من أعظم الدلائل على قدرته
- سبحانه - وواسع فضله ورحمته .

(١) - سورة فاطر من الآية ٢٧

(٢) - سورة السجدة الآية ٢٧

(٣) - سورة الزمر من الآية ٢١

(٤) - سورة الأنعام الآية ٩٩

فإن حدود هاتيك الأجناس المختلفة ، والأنواع المتشعبة ، من أصل واحد ، وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع يحار في فهمه الألباب ، لا يكون إلا بإحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد أو ند (١)

وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته (٢) وتبه على هاتين الحالتين ، وإن كان بينهما أحوال يقع بها الاعتبار والاستبصار ؛ لأنهما أغرب في الوقوع وأظهر في الاستدلال (٣)

ثم أمر الله عباده أن ينظروا بأبصارهم في بديع صنعه نظر تأمل واعتبار واستبصار واستدلال على قدرة الله - تعالى - الباهرة في تنوع الثمار ، وخصّ في هذه الآية الكريمة حالتين من مراحل نبات تلك الثمار ، الأولى : ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أي حال ابتدائه حين يكون ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به ، و الأخرى ﴿ وَيَنْعَمَ ﴾ أي حال ينعه ونضجه ، وهو قول ابن عباس والضحاك والسدي وغيرهم (٤) فانظروا إليها حال تمامها وكمالها ، وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية (٥) .

ويلزم من النظر في الحالتين وصفاتهما النظر فيما بين ذلك ؛ لأن هذا التحول الملحوظ والأحوال المتضادة لا بد لها من سبب لا يقدر عليه إلا الفاعل المختار - سبحانه وتعالى - وبالإضافة إلى فائدتها ففيها هدف جمالي في الشكل واللون والرائحة .

وبهذا النظر المعتبر يظهر لطف الباري - سبحانه وتعالى - وتدييره ، وحكمته وتقديره ، وكمال قدرته ووحدانيته التي ينتهي إليها النظام في الكون كله ، وتظهر هذه الدلائل فقط لقوم يؤمنون بالله - سبحانه وتعالى - ويصدقون بأن الذي أخرج هذا النبات بهذه الصورة هو المستحق للعبادة دون ما سواه و هو القادر على بعثهم بعد موتهم ؛ فالإيمان في قلوبهم يحملهم على العمل بمقتضى هذا الإيمان من نظر وتفكر في ملكوت الله وآياته .

(١) _ إرشاد العقل السليم ١٦٧/٣

(٢) _ نظم الدرر ٦٨٧/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٦٧/٣

(٣) _ البحر المحيط ٤ / ١٩٥

(٤) _ بحر العلوم ١ / ٤٩٠ ، تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٠٦

(٥) _ التفسير الكبير ١٣ / ٨٧

وقرئت ﴿ثَمْرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم وبضمهما ، وقرأتها فرقة بضم الثاء وإسكان الميم طلباً للخفة (١) ووجه الطبري قراءة من قرأها بالفتح إلى النظر إلى ثمر هذه الأشجار المسماة ، وأن الثمر جمع ثمرة .

ومن قرأها بالضم على أن جمع ثمار : ثَمْرٌ (٢)

ذكر الله - سبحانه وتعالى - في الآية الكريمة أربعة أنواع من الأشجار ، هي : النخل والعنب والزيتون والرمان ، وقدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة ، وقدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر غذاء العرب المهم ، وبعد النخل العنب ؛ لأنه أشرف أنواع الفواكه .

وقوله - تعالى - ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ (٣)

أنشأ الله - سبحانه وتعالى - بالماء جنات مختلفة بعضها مجعول لها عرش ، تنتشر عليه الأشجار ويعاونها في النهوض عن الأرض كالعنب ونحوه ، ومنها ما ينبت على ساق من النخيل والأشجار والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان ، في صورته المختلفة ، وأشكاله المتعددة .

وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها ، وخيراتها ، وأنه - تعالى - علّم العباد كيف يعرشونها ، وينموها . وبعد ، فكل هذا التنوع العجيب يدل على الحياة ، والجمال ، والنعيم والرزق الكريم ، و هو من صنع الخالق - سبحانه - ومن فيض كرمه وإحسانه .

وخص - تعالى - النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها ، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق .

(١) - جامع البيان ٥٧٨/١١ ، معالم التنزيل ١٧٢/٣-١٧٣ ، المحرر الوجيز ٣٢٨/٢ ، زاد المسير ٩٥/٣ ، أنوار التنزيل

٢٧١ / ١

(٢) - جامع البيان ٥٧٩/١١ ، حجة القراءات ٢٦٤/١

(٣) - سورة الأنعام من الآية ١٤١

والضمير في أكله فيه أقوال : قيل إنه راجع إلى الزرع والباقي مقيس عليه ، واستظهر ذلك بعض المفسرين (١) ولأنه أقرب مذكور كما ذكر ابن عاشور ، وقيل : إلى النخل ، والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً ، أو للجميع على تقدير كل واحد منهما (٢) والمقصود التذكير بعجيب خلق الله (٣)

واستنبط القرطبي منها أدلة ثلاثة ، فقال عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ : فيها دليل على أن المتغيرات لا بدلها من مغير ، والثاني : المنة منه - سبحانه - علينا بخلق الغذاء المتنوع لنا ، وتسهيل جنيته ، والثالث : قدرة الله - تعالى - بصعود الماء إلى أعالي النبات مع أنه من شأنه الرسوب وبسببه تظهر أجزاء النبات كالأوراق التي ليست من جنسها ، والثمار المختلفة في الحجم واللون والجني والطعم ، وهذا الاختلاف الحاصل لا يمكن أن يتم في العقول إلا لحي عالم قدير مريد. فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية (٤) .

ومن الآيات الكريمة ، قوله - تعالى - ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَّرَعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٥)

فهذا الاختلاف والتنوع شكلاً وقدرًا ورائحةً وطعمًا ، هو من دلائل قدرته - تعالى - فهذه الأراضي المتجاورة متنوعة ومختلفة فيما بينها ، فبعضها خصيب وبعضها يابس جديب . ويخرج من هذه الأراضي المتجاورة الأشجار المختلفة من أعناب وزروع ونخيل وهذه النخيل قد تكون من أصل واحد ، أو تكون كل نخلة قائمة بذاتها ، ومع أنها من تربة واحدة وتسقى من ماء واحد لكنها بقدرة خالقها - سبحانه - تتفاضل في الأكل وتتعدد طعومها ومذاقاتها ، وفي هذا

(١) _ البحر المحيط ٢٣٨/٤ ، اللباب في علوم الكتاب ٤٦٨/٨

(٢) _ الكشاف ٧٢/٢ ، مدارك التنزيل ٣٤/٢ ، البحر المحيط ٢٣٨/٤ ، السراج المنير ٣٥٩/١ ، روح المعاني ٢٨١/٤ ،

التحرير والتنوير ١١٨/٨

(٣) _ التحرير والتنوير ١١٨/٨

(٤) _ الجامع لأحكام القرآن ٩٩/٧

(٥) _ سورة الرعد الآية ٤

التنوع والتفاضل آيات ودلائل تشهد بقدرة الخالق - سبحانه - لقوم يعقلون يتدبرون ويستعملون عقولهم بالتفكير.

وقوله - تعالى - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (١) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

تبين الآيات الكريمة أن ما تخرجه الأرض من الماء النازل من السماء ، قسمان ، هما : نبات ترعاه الأنعام وسائر البهائم ، وهو المراد من قوله - تعالى - ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ، والثاني : وهو ما تخرجه الأرض مما يأكله الناس كالزراع بجميع أصنافه وأشكاله والزيتون والنخيل والأعنان وغيرها ، وكلاهما لنفع الإنسان فإن الإنسان يعتمد عليهما في غذائه .
وبدئت الآيات بغذاء الحيوان لحث المسلم على الاهتمام بمن هو تحت يده وهذا من مكارم الأخلاق (٢).

والشجر معروف ، كما قال القرطبي ، وهو كل ما تنبت الأرض من شجر ونبات وعروش وزروع وقيل : يعني المرعى (٣)

ويشير التعميم في قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ إلى تنوع النبات واختلاف أصنافه وألوانه وسائر خصائصه مع نباتها جميعاً من ماء السماء ؛ لينتبه الناس ويعتبروا من مسبب اختلاف أحوالها - سبحانه وتعالى - بقدرته التي وسعت كل شيء .

وأسند - سبحانه - الإنبات إليه ؛ لأنه الفاعل الحقيقي لهذا الإنبات والإخراج للزروع ، وجاء الإنبات بصيغة المضارع ؛ للدلالة على التجدد والاستمرار ، وأن الإنبات من سننه الإلهية المستمرة

(١) - سورة النحل الآيات ١٠-١١

(٢) - التفسير الكبير ١٩/١٨٠ ، اللباب في علوم الكتاب ١٢/٢٣ ، إرشاد العقل السليم ١٠١/٥

(٣) - تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٢ ، معاني القرآن للزجاج ٣/١٩٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٨٢

وكذلك لاستحضار الصورة ولتأملها لما فيها من الغرابة (١) وهذا الإنبات من دلائل كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - فالغرض منه الاستدلال ممزوجاً بالتذكير بالنعمة (٢)

وخص - سبحانه - الأربعة بالذكر ؛ لأنها أشرف ما ينبت ، وأجمعه للمنافع . وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم وأصل الأغذية ، وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه إدام من وجه وفاكهة من وجه ولما فيه من البركة ، ثم النخيل ؛ لأن ثمرتها غذاء وفاكهة ، وختم بذكر الأعناب وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة ، ولأنها شبه النخلة في المنفعة من التفكة ، والتعذية (٣) ، ثم أشار - سبحانه - إلى سائر الثمرات إجمالاً ؛ لينبه بذلك على عظيم قدرته ، وجزيل نعمته على عباده .

ومن هنا تبعية فلم يقل - سبحانه - كل الثمرات ؛ لأن كلها لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في الأرض بعض من كل للتذكرة (٤)

و تنبيهاً على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره في مجلدات ، فالأولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل (٥) .

ولا شك في أن ذلك الإنبات والاختلاف أكبر دليل على قدرة الله - تعالى - ؛ لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه - وفيه علامة على وحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ في صنعه ، فيدفعهم هذا التفكير إلى الإيمان ، والاستدلال على الصانع وعلى وجوده وحكمته - سبحانه وتعالى - .

(١) - روح المعاني ٣٤٩/٧

(٢) - التحرير والتنوير ١١٤/١٤

(٣) - التفسير الكبير ١٨١/١٩ ، لباب التأويل ٨٢/٤ ، البحر المحيط ٤٦٤/٥ ، اللباب في علوم الكتاب ٢٣/١٢ ، السراج المنير ١٧٢/٢ ، إرشاد العقل السليم ١٠١/٥ ، فتح القدير ١٥٢/٣ ، روح المعاني ٣٤٩/٧ ، من الدراسات القرآنية ص ٥٨-٥٩

(٤) - الكشاف ٥٩٧/٢ ، مدارك التنزيل ٢٣٥/٢ ، البحر المحيط ٤٦٤/٥

(٥) - التفسير الكبير ١٨١/١٩

ويرتبط بالعبارة بخلق النبات والثمار جعلها صالحة للعصر والاختمار ، ومشملة على منافع للناس ولذات ، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

وفي قوله - تعالى - ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۗ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) إشارة إلى عجيبة من الكائنات وكيف سخرها الله - سبحانه وتعالى - وأهمها لتأخذ طعامها من الأزهار المتنوعة ، فتنتج الألوان المختلفة من العسل اللذيذ الذي فيه شفاء للناس .

وفي ذلك التسخير والتنوع تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى إذ أودع في هذه الحشرة الضعيفة هذه الصنعة والمنفعة .

ووصف - سبحانه - الشراب باختلاف ألوانه ؛ لدلالته على عظيم القدرة ودقيق الحكمة ، وذلك كقولهِ - تعالى - ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُقِضَلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ (٣) وجاءت فاصلة الآية الكريمة بالأمر بالتفكر ؛ لأن التفكر بنظام النحل يحتاج إلى إعمال فكر دقيق ونظر ثاقب ، فكيف تقوم تلك الحشرة الضعيفة ببناء بيوتها وكيف تهتدي إلى جمع النافع من الأزهار المختلفة وكيف تعود لأماكنها فسبحان الذي سخرها وهداها .

وأرشد الله - سبحانه وتعالى - الإنسان للتأمل في دلائل الله - تعالى - والتدبر في عجائب خلقه ؛ وكيفية وصول طعامه إليه وهو أقرب شيء إلى نظره ، فيقول - سبحانه - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۗ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ۚ وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا ۚ وَحَدَّيْنَا غُلْبًا ۚ وَفَكَهَهُ وَأَبًّا ۚ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴾ (٤)

(١) - سورة النحل الآية ٦٧

(٢) - سورة النحل الآيات ٦٨-٦٩

(٣) - سورة الرعد من الآية ٤

(٤) - سورة عبس الآيات ٢٤-٣٢

أمر الإنسان بالنظر إلى طعامه الذي يأكله جاهزًا ، وهو غافل عن كيفية إيجادهِ ، والمراحل التي يمر بها ، حتى يخرج متنوع الأشكال والأصناف والألوان والهياكل والطعوم والروائح ، ومتنوع من ناحية الغرض منه كالغذاء والدواء والمرعى .

في هذه الآية الكريمة الأمر بالنظر والتفكير في آلاء الله ، ففيها ذكر - سبحانه وتعالى - ثمانية أنواع من النبات ، هي : الحبوب التي يتغذى بها كالقمح والشعير والذرة ، وأشجار العنب ، والقضب ، والزيتون والنخيل ، والحدايق والفواكه بصورة عامة ، والعشب للمرعى ؛ لتتمتعوا به ، وتنتفعوا منه، وتنتفع أنعامكم .

ويفيده هذا النظر والتأمل في تأدية واجب الاستخلاف ، و عمارة الكون ، وليتدارك نقصه وتقديره في حق الله - سبحانه وتعالى - عليه من الإيمان والطاعة .

فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف من أعظم آيات الرب - تعالى - ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختيارًا ومشيةً ؛ فتنوع مخلوقاته وحدثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات عليه (١)

و في هذا النظر والتدبر والتفكير في ألوان النعم ، ما يعين الإنسان على طاعة خالقه ، وتدارك نقصه وتقديره ، ويعين على إخلاص العبادة له ، وبذل الجهد في الإنابة إليه ، والإقبال على طاعته ، والتصديق بأخباره .

(١) _ الضوء المنير على التفسير ٥٥٣/٣

المطلب الخامس : من الشجر الأخضر نار :

حث الله - سبحانه وتعالى - الإنسان في كتابه العزيز على التفكير والتدبر في السماوات والأرض ؛ ليزداد إيمانه ويرسخ في النفس ، ومن الحقائق التي أمر الإنسان أن يقف معها وقفة تأمل وتدبر هذه النار التي يستخدمها في حياته ومعاشه ، وسائر أموره ، وعليها قامت حضارته ، ومن الآيات الكريمة التي تأخذ بيد الإنسان ، وتخطب عقله في معرض الرد على شبه منكري البعث ، وهي قوله - تعالى - ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (١)

في الآية رد على منكري البعث بقدرة الله - تعالى - على إيجاد النار من الشجر الأخضر فهو - سبحانه - الذي بدأ بخلق هذا الشجر من ماء حتى صار أخضرًا يانعًا ، ثم أعاده إلى أن أصبح يابسًا توقد به النار مع ما فيه من المائية المضادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على كل شيء - سبحانه - ومن البعث بعد الموت .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر الندي الرطب ، كشجر المرخ والعفار ، وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله - تعالى - وهو قول ابن عباس - رضي الله عنه - (٢)

ولذلك قالوا في المثل المشهور : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (٣) أي : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظًا من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض .

و هذا الإيقاد أغرب من خلق الإنسان من النطفة ، فهو إبراز للشيء من ضده ، ففيه جمع بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفى النار ، ولا النار تحرق الخشب ، وفيه إعجاز علمي كبير (٤) وأكبر دليل على قدرة الله - تعالى - .

(١) - سورة يس ٨٠

(٢) - الكشف والبيان ١٣٧/٨ ، معالم التنزيل ٢٩/٧ ، باب التأويل ١٧/٦ ، تفسير القرآن العظيم ٥٩٥/٦

(٣) - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ٢٠٢/١ ، نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٢٣/٧ ، معجم الأمثال العربية

١٧١/٤

(٤) - سبق القرآن الكريم العلم الحديث في إبراز حقيقتين علميتين في حقيقة كيماوية ، وأخرى جيولوجية . فالحقيقة الكيماوية : أن النباتات الخضراء تستطيع أن تمتص أشعة الشمس وتستغلها في أهم عملية بناء في الحياة وهي عملية التمثيل

وهذا الإيقاد تسبب في مفاجأتكم ؛ لأنه يوحد من الشجر الأخضر الموصوف بالخضرة ، وفيه دلالة على عجب إلهام الله البشر لاستعمال الشجر الأخضر بالاقتداح واهتدائهم إلى خاصيته ، والإيقاد به متجدد كل حين .

وفي الشجر الأخضر قراءتان ، إحداهما : الأخضر حسب اللفظ ، والأخرى : الخضراء حسب المعنى (١)

وقد نبّه ابن عاشور أن المراد بالشجر الأخضر ليس اللون ، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة ؛ لأن هذا اللون وهذه الخضرة وقت حياة النبات ، فإذا جفّ وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة ، وزالت الخضرة ، فالخضرة كناية عن رطوبة النبات وحياته (٢).

وفي سورة الواقعة كذلك يخاطب الله - سبحانه وتعالى - الناس بحجة يسوقها لمنكري المعاد ، فيقول

لهم - سبحانه - ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتلَعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ (٣)

أخبروني أيها الناس ، هل رأيتم بعين البصر والبصيرة النار التي تورون ، أي : تستخرجون من الزند وتقذحون (٤) وتشعلونها من الشجر الأخضر فهل أنتم من اخترع شجرتها وأوجدتها ؟ (٥)

الضوئي ، فالخضرة هو مخزن لطاقة الشمس والذي يساعد في عملية الإحراق ، بل لولا وجود الخضور لما تم تخزين الطاقة وبالتالي لم يتواجد الوقود .

أما الحقيقة الجيولوجية : فهي أن النبات والحيوان الذي يتغذى على النبات هو أصل الوقود . باختصار ، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، الإعجاز في النبات _ النبات الأخضر أصل الوقود ، كتاب الكتروني .

(١) _ البحر المحيط ٣٣٢/٧ ، إرشاد العقل السليم ١٨٢/٧ ، فتح القدير ٣٨٣/٤

(٢) _ التحرير والتنوير ٧٧/٢٣

(٣) _ سورة الواقعة ٧١-٧٣

(٤) _ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥١ ، لسان العرب ٣٨٦/١٥ ، مادة (وري) ، القاموس المحيط ١٧٢٩/١ ، تاج العروس ١٨٩/٤٠

(٥) _ وفي الآية إعجاز علمي يتمثل في شمولية المعنى ، فلا تقتصر على النار الموقدة من الحطب وإنما تمتد إلى جميع المحروقات التي يرجع منشؤها إلى النبات ، وهو الشجر في الآية الكريمة ، ومن بينها : الحطب الجاف والزيت النباتي والحيواني والفحم الحطبي والفحم الحجري . وكل هذه الأنواع من المحروقات يرجع أصلها إلى المادة العضوية النباتية وتختلف حسب الكيفيات والظروف التي وقعت فيها تحولاتها التركيبية والانحلالية . باختصار ، أفرايتم النار التي تورون ص ٢٦ - ٢٧ ، وينظر : الموقع الرسمي ، ل.د. نظمي خليل أبو العطا مقال بعنوان " أفرايتم النار التي تورون " ٢٠٠٧/٠٣/١٠ ، والموقع الرسمي ، ل.د. زغلول النجار ، مقال بعنوان " الذي جعل لكم من الشجر الأخضر " بتاريخ ٢٠٠٢/١١/٠٤

ولما كان هذا من عجائب الصنع ، كرر التقرير والإنكار تنبيهاً عليه (١) فقال - سبحانه - ﴿أَنْتُمْ

أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾

والتعبير عن خلقها بالإنشاء دليل بديع الصنعة وعجيب القدرة وكمال الحكمة (٢) ويحتمل المراد بشجرتها أمرين : إما أن يقصد بها شجرتا المرخ والعفرار وهما شجرتان يوقد بهما مع رطوبتهما فينقذح الشرر - بإذن الله - ، وإما أن يراد بها جميع الشجر الذي توقد به النار (٣) .

و لا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم ، فأكد - سبحانه - أنه هو المنشئ لها بما له من العظمة ، والقدرة على تلك الهيئة العجيبة ، وعليه فهو القادر - سبحانه - على إعادة الحياة والطراوة للجسد بعد اليبس والفناء .

ثم بيّن - سبحانه - منافع النار بأنه جعلها - سبحانه - تذكرةً ومتاعاً للمقوين ، و في قوله - تعالى - ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ وجهان ، أحدهما : أنها تذكر بيوم القيامة ، والنار التي أعدها الله - سبحانه - لمن عصاه وهي أشد وأبقى .

ففي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم " ، قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال : " فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها " (٤)

وثانيهما : أنها تذكر بصحة البعث ؛ لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الرطب المضاد لها لا يعجز عن إيداع الحرارة والحياة في بدن الميت وإعادة ما تفرق من جسده (٥) .

وقوله - تعالى - ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي منفعةً للمسافرين ، والمقوين : مأخوذ من أقوى الرجل إذا دخل في القواء ، أي القفر والمفاوز التي لا نبات فيها ولا ماء والمراد بهم هنا المسافرون ؛ لأنهم

(١) _ نظم الدرر ٤٢٠/٧

(٢) _ فتح القدير ١٥٨/٥ ، روح المعاني ١٤٩/١٤

(٣) _ التفسير الكبير ٤٢٣/٢٩ ، لباب التأويل ٢٤/٧

(٤) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، واللفظ له ، كتاب بدء الخلق ، باب : صفة النار وأنها مخلوقة ح ٣٢٦٥ ص ٢٦٤ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعدنا الله منها ح ٧١٦٥ ص ١١٧١ ، كلاهما من حديث أبي هريرة _ رضي الله عنه _ .

(٥) _ التفسير الكبير ٤٢٣/٢٩ ، إرشاد العقل السليم ١٩٩/٨

في معظم الأحيان يسلكون في سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض (١) وهو قول أكثر السلف والمفسرين ، واختيار الطبري (٢)

وقد يكون خص المسافرين بالإضافة إلى عظم حاجتهم للنار ، أن الدنيا كلها دار سفر ، والعبد من ولادته فهو مسافر إلى ربه (٣)

و يجد المتأمل للآيتين الكريمتين أن الله - سبحانه وتعالى - أجاب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها للعقل فمنكري البعث يرون عدم عودة حرارة الحياة بعد برودة الموت و ذلك لتضاد ما بينهما ، وهذه شبهة تليق بعقول المكذابين الذين لا سمع لهم ولا عقل ، وإذا أوجد الله الحياة وحرارتها ارتفع الموت وبرودته كارتفاع رطوبة الشجر الأخضر مقابل حرارة النار اليابسة (٤) وهذه القدرة وهذا الإبداع لا يتطلب تأمله علمًا ، ولا تجربةً فأى موقد للنار يراها لو تأملها وهي معجزة تناسب عقول المخاطبين كل وقت .

وهكذا يغفل الإنسان عن كثير من الحقائق التي يجب أن تكون محطات يقف عندها ولا يدعها تمر دون فكر ونظر - كحقيقة النار وكيفية إيقادها - ولكن تأتي الآيات الكريمة ترشده وتدله إلى تأملها ؛ ليخرج بها من بدهة الرؤية ، وتلقائية الاستعمال والتعود إلى مرحلة التدبر ، والاستدلال بخصائصها وظواهرها ، ويخرج من تأمل النار أنها من ضمن مخلوقاته المسخرة له في سبيل استخلافه بالأرض فيحرر عقله من القيود ويعرف أنها تخضع للنواميس الإلهية كباقي مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - .

(١) _ معاني القرآن للفراء ١٢٩/٣ ، لسان العرب ٢٠٦/١٥ ، مادة (قوا) ، تاج العروس ٣٩/٣٦٥ ، مادة (قوي)

(٢) _ جامع البيان ١٤٦/٢٣ ، تفسير القرآن العظيم ٥٤٢/٧

(٣) _ تيسير الكريم المنان ٨٣٥/١

(٤) _ بتصرف ، إعلام الموقعين ١٤٢/١ ، وينظر التفسير الكبير ٣٠٩/٢٦ ، جامع المسائل ١٧٢/٥ - ١٧٣

المطلب السادس : شجرة تخرج في أصل الجحيم :

أخبر الله - سبحانه وتعالى - عن كثير من الأمور التي تعد من الخوارق ، وحاطب فيها الناس حتى صارت فتنة لهم ؛ فمنهم من اهتدى ، ومنهم من غلبت عليه شقوته ، ومن هذه الخوارق إخباره - سبحانه وتعالى - عن شجرة تخرج في أصل الجحيم ، في قوله - تعالى - ﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ

شَجَرَةُ الزُّقُومِ ۚ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۗ ﴾ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۗ ﴾ (٦٤)

طَلْعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ ۗ ﴾ (١) فبعد أن ساق - سبحانه - ألوان نعيم أهل الجنة ذكر في هذه الآية الكريمة ما يدل على البون الشاسع بين أهل السعادة وأهل الشقاء ، وهو الاستفهام منهم أي المنزلين خير ، أنزل أهل الجنة وطعامهم ، أم نزل شجرة الزقوم وطعمها ، وشجرة الزقوم : عبارة عن أطعمة كريهة في النار ، ومنه استعير زقم فلان وتزقمه ابتلعه ، وتزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً (٢) وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الحشونة .

قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۗ ﴾ غُدَّتْ مِنَ النَّارِ ، ومنها خلقت (٣)

استغرب الكفار نبات الشجرة في النار ، واستبعدوا ذلك جهلاً منهم ، واتخذوها مادةً للسخرية والتفكه ، متناسين قدرة الله - تعالى - التي لا يحدها حد ولا يعجزها شيء ، وهم يرون كيف تقدح النار من الشجر الأخضر الرطب .

علّق شارح صحيح البخاري عند هذه الآية بقوله إن هذه الشجرة التي أخبر الله أنها في أصل الجحيم هي مخلوقة من جوهر لا تأكله النار كسلاسل النار وأغلاها وعقاربها وحياتها ، وليس شيء من ذلك من جنس ما في الدنيا مما لا يبقى على النار ، وإنما خلقت من جنس لا تأكله النار ... فكذلك ما خلق في النار من الشجر والحيوان موافق لجنس النار ، والله - تعالى - قادر

(١) - سورة الصافات الآيات ٦٢-٦٥

(٢) - مفردات غريب القرآن للأصفهاني ٢١٣/١ ، كتاب الزاي ، مادة (زقم) ، النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٣٩٦ ، لسان العرب ٢٦٨/١٢ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ٥٢٨/١

(٣) - جامع البيان ٥٢/٢١ ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٢١٦/١٠ ، المحرر الوجيز ٤٧٥/٤ ، تفسير القرآن

العظيم ١٨/٧ ، لباب النقول ص ١٨٣

أن يجعل النار بردًا وسلامًا ، وأن يجعل الماء نارًا ؛ لأنه على كل شيء قدير ، فما أنكره الكفار من خلق الشجر في النار عناد بيّن ، وضلال واضح (١)

ووصف - سبحانه - تلك الشجرة بصفات ، هي :

- ١ - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، فأصلها و منبتها في قعر النار .
- ٢ - طلوعها كأنه رؤوس الشياطين ، أي ثمرها الذي يخرج منها يشبه في قبحه المتناهي لرؤوس الشياطين والتي هي أقبح ما يتصور العقل قبحه وإن كان غير مرئي ، ومن ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هي كصورة ملك وهذا تشبيه تخيلي ، روي معناه عن ابن عباس وغيره (٢) وقيل : أراد بالشياطين الحيات ، والعرب تسمي الحية القبيحة المنظر شيطانًا ، وقيل : هي شجرة قبيحة مرة منتنة تكون في البادية ، تسميها العرب رؤوس الشياطين (٣)

وقال الطبري عن هذه الأقوال : لكل منها وجه مفهوم (٤) وصحّ الرازي القول الأول ، وقال : " والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة ، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئًا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئًا حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك " (٥)

وهذا المثل واقع في أتم مواقعه سواء كان الشيطان عندهم اسمًا للحية أو لغيرها ؛ لأن قبح الشياطين وما يتصل بهم في أنهم شر مخصص لا يخلطه خير مقرر في النفوس ، ولهذا كان كل من استقبح منظر إنسان أو فعله يقول : كأنه شيطان ، كما انطبع في النفوس حسن الملائكة وجلالتهم فشبها لهم الصور الحسان (٦)

(١) _ شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣١٤/١٠

(٢) _ الكشف والبيان ١٤٦/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٨٦/١٥ ، لباب التأويل ٢٣/٦ ، روح المعاني ٩٣/١٢

(٣) _ معاني القرآن للفراء ٣٨٧/٢ ، جامع البيان ٥٤/٢١ ، النكت والعيون ٥٠/٥ ، النكت في القرآن الكريم ٤١٦/١ ، الكشف ٤٦/٤ ، المحرر الوجيز ٤٧٥/٤ ، زاد المسير ٦٣/٧-٦٤ ، مدارك التنزيل ١٩/٤ السراج المنير ٣١٠/٣ ،

روح المعاني ٩٣/١٢

(٤) _ جامع البيان ٥٤/٢١

(٥) _ التفسير الكبير ٣٣٧/٢٦ ، وينظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٥٢/٥

(٦) _ نظم الدرر ٣١٥/٦

وجاء وصفها بالشجرة الملعونة ، في قوله - تعالى - ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً

لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ (١)

أخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير الآية أنها شجرة الزقوم (٢) وهو قول كثير من المفسرين (٣)

وفي المراد بلعنها ، أقوال ، هي :

الأول : المراد لعن الكفار الذين يأكلونها .

الثاني : أنَّ العرب تقول لكلِّ طعام ضارٌّ : إنَّه ملعونٌ فالمقصود ذمها .

الثالث : أنَّ اللعن في اللغة : هو الإبعاد ، فلما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير ، وفي أصل الجحيم لعنت (٤) واستظهر أبو حيان إسناد اللعنة إلى الشجرة (٥)

وجاء في آيات كريمة أنها طعام الكفار في النار ، فقال - تعالى - ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ

طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴾ (٦) وقال - سبحانه - ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ

زَقُومٍ ﴾ (٧)

فهذه الشجرة الخبيثة ارتبط اسمها بالشر والعذاب الشديد والقبح والكفر بعكس الأشجار الأخرى التي ترتبط بالخير والبركة والبهجة والرزق ، وليس في أكلها رغبة ولا لذة بل هم يرغمون على أكلها من شدة جوعهم ، ويعذبون به ، ثم يكون ما أكلوه كنار لاهبة تحرقهم وتزيد من عذابهم ،

(١) - سورة الإسراء من الآية ٦٠

(٢) - صحيح البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : قوله { وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس } ح ٤٧١٦ ص ٣٩٤ .

(٣) - الكشف والبيان ١١١/٦ ، النكت في القرآن الكريم ٢٩٤/١ ، تفسير القرآن للسمعاني ٢٥٤/٣ ، معالم التنزيل ١٠٣/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٩٢/٥ ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٣٤٩/٢ ، وينظر : تحفة الأحمدي ٤٥١/٨

تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ١٢٨/١ غريب الحديث للخطابي ٤٨٦/١

(٤) - معالم التنزيل ١٠٣/٥ ، الكشاف ٢ / ٦٧٦ ، التفسير الكبير ٣٦١/٢٠ ، اللباب في علوم الكتاب ٣٢٣/١٢ ، البحر المديد ٢١٢/٣

(٥) - البحر المحيط ٥٣ / ٦

(٦) - سورة الدخان الآيات ٤٣ - ٤٤

(٧) - سورة الواقعة ٥١ - ٥٢

ولا يدري أحد شيئاً عن شجرة الزقوم إلا ما وصفها به الله - تعالى - في الآيات الكريمة وفي وصفها ما فيه من تخويف وتنفير وسوء مآل فشتان بين النزلين و المآلين ، فالعدل الإلهي يوجب أن يكون ثمة بعث وجزاء وحساب ، فكل امرئ رهين بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فالخالق فعال مختار لما يريد - يجازي بالإحسان المحسنين وبالسوء المفسدين المكذبين بأخباره وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - .

من هدايات الآيات :

- أن الدعوة للنظر والتأمل والتفكير في مخلوقات الله منهج قرآني أصيل وسلوك لأنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - ومن سار على دربهم للوصول إلى الحق .
- على المؤمن أن يقف وقفات يتأمل الزروع والثمار ويشهد حياتها و تفتحها ، ويتابع نضجها ، ويلاحظ تنوعها واختلافها فيكون باحثًا ودارسًا .
- اعتنى القرآن الكريم بالعقل الإنساني ، والتفكير والنظر في مخلوقات الله - تعالى - ومن أظهر الأدلة على ذلك كثرة الآيات الكريمة التي تحث على التفكير والتدبر في النفس البشرية وفي الآفاق .
- مجالات التفكير في الكون لا تحصى فهي تشمل كل شئ ، فليطلق الإنسان سمعه وبصره وفكره في هذا المعرض الواسع .
- جاءت آيات القرآن الكريم الكونية والآيات الحاثية على النظر والتأمل ميسرةً ، تخاطب العقل والقلب والبصر والحس والبرهان الحي المائل لكل الناس من جميع الطبقات وفي كل زمان ومكان ؛ وذلك لينظر الإنسان في كل أحواله سواء كان إنسانًا فطريًا بسيطًا أو كان عالماً كبيرًا ؛ لأنها أرسلت للناس كافة فتنبه عقول الجميع إلى عظمة الله - تعالى - وقدرته واستحقاقه العبادة وحده - لا شريك له - .
- الارتباط الوثيق بين التفكير ومداومة التأمل فيما حولنا وقيام الحضارات وانتشار العلم ، فمع كون النظر والتفكير عبادة وسياحة فكرية وجدانية للإنسان فهو كذلك أهم وسيلة للرقى وتقدم الأمم .
- فضل الله - تعالى - على الإنسان إذ زوده بالحواس التي تعينه على العلم والفهم والحكم على الأمور ، فقال - تعالى - ممتنًا على الإنسان ؛ لعله يشكر وهو الغني عنه - سبحانه - ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) وبهذا النظر والتفكير يزداد المرء إيمانًا ، وهذا الإيمان هو الهدف الأسنى من النظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض ، كما يجني الإنسان من هذا التفكير فهم المادة

وقوانينها المختلفة والسنن الكونية الثابتة مما يعينه في أمور دينه ودنياه ، فالتفكير السليم هو السُّلم إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

- يفتح التفكير في مخلوقات الله - تعالى - أبوابًا من العلوم والسنن الإلهية ، والتي تزيدنا إيمانًا بالله و يقينًا به فأنواره - سبحانه - تسطع على صفحات الكون .

- هناك فرق بين تأمل المؤمن والكافر لما يحيط به من مخلوقات الله - تعالى - فالمؤمن ينظر ويعتبر ويستفيد ، أما غيره فقد تكفيه تلك النظرة البهيمية المقصورة على الاستفادة منها في التمتع بملذات الحياة الدنيا العاجلة ، وجحد خالقها ومبدعها ، والاعتزاز بما وصل إليه من علم وتقنية حديثة حتى يظن أن هذا العلم والتطور بجهدده هو وعلمه القاصر ، وقد عبّر القرآن الكريم عن

الغاية الشاملة للتفكير الجامعة لخيري الدنيا والآخرة في قوله - تعالى - ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١﴾

- أن هذه المخترعات الحديثة التي حصل عليها البشر بعد التأمل والنظر هي جزئيات صغيرة من أسرار خلق الله تعالى فهو - سبحانه وتعالى - من ألهمهم وهداهم إليها فهم ومخترعاتهم خلق الله

تعالى كما قال - سبحانه - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

- أغلب الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان للتفكير في مخلوقات الله - تعالى - تصوغ عقله وتربيته ؛ ليكون إنساناً مؤهلاً قادراً على حماية صاحبه من الزلل .

- يوجه القرآن الكريم عقل الإنسان وفكره إلى استخلاص ما أودع الله في الكون من أسرار وعجائب وطاقات ومخلوقات ، وإدراك ما فيها من شدة وقوة ، وكمال قدرة ، وبديع نظام ، وحسن وإتقان ، تدل على خالق واحد - سبحانه - ويذكره أنها - جميعاً - من صنع الخالق القادر - سبحانه - كالإنسان تماماً ، ولكنه تميّز عنها بالعقل ، فلا يفتن بها ، ولا يشعر أن مدار حياته عليها فهو وهي من صنع الله - تعالى - .

- التفكير في مخلوقات الله - تعالى - عبادة يؤجر عليها الإنسان ، والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة تدبير الله - تعالى - ويلفت انتباههم أدق الأشياء ، ويربطون بين الأسباب

(١) - سورة البقرة من الآيات ٢١٩-٢٢٠

(٢) - سورة الصافات الآية ٩٦

والمسيبات ، والشئ وما ينتجه ، ويربطون بين الظواهر الكونية ، كظاهرة المطر وكيف تحيا به الأرض والعلاقة التي تربط جميع الكائنات مع بعضها وكيف تسير ضمن مسار محدد من خالقها ومبدعها في وحدة الكون والنظام وكلها دلالات على وحدة الخالق ، ووحدة تدبيره وإرادته - سبحانه جل في علاه - .

- التأكيد على قيمة العقل في حياة الإنسان وأهميته ، وعلى حتمية استعماله في تأمل صفحات الكون ، والتفكير الجاد العميق ؛ حتى يتمكن الإنسان من فهم حقيقة وجوده ، ودوره في الحياة ، فيقوم به على الوجه الأكمل .

- الثناء على أولي الأبواب ؛ لأنهم هم الذين يتذكرون ويتفكرون ويعقلون .

- الإعجاز الكبير في عالم النبات يهدي الإنسان إلى الإيمان بأن من قدر على تنوع الشئ والأصل واحد ، كذلك يقدر على الإعادة والبعث بعد الموت ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

- رؤية و ملاحظة العجائب التي لا تنقضي من عالم النبات البديع في المنظر والمخبر تحرض الإنسان على دوام النظر والتأمل ، والاستفادة من هذه المعرفة واستثمارها لصالحه في دينه ودنياه .
- المنهج القرآني الفريد في الربط بين عقل الإنسان وقلبه وبين رؤية المخلوقات الحية وعجائب خلقها بحيث تدفعه للتأمل والنظر والتفكير في هذا العالم البديع مما يزيد رصيده الإيماني وتعلقه بخالق هذا الكون البديع - سبحانه وتعالى - والقيام بالعبودية له - سبحانه وتعالى - .

- لم يحصر القرآن الكريم الزوجية في النبات والحيوان فقط بل هي ظاهرة كونية وسنة مضطردة هي في كل مخلوقات الله - تعالى - من الحية والجمادة .

- ظاهرة الزوجية في كل شئ يقابلها وحدانية خالق الكون - سبحانه وتعالى - فقد شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - أن يخلق كل شئ في هذا الوجود في زوجية واضحة حتى يبقى هو - سبحانه - متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه فهذا النظام البديع والإحكام يستلزم بداهة وجود مدبر عالم بديع الصنع من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسيبات - سبحانه وحده لا شريك له - .

- ظاهرة الزوجية وحركة اهتزاز الأرض وربوها ظواهر عجيبة سجلها القرآن الكريم قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية في العصر الحاضر كغيرها من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

- الأمر بالنظر والتفكر في تنوع النبات وإنشائها وألوانها وعجائب خلقها ، ويلفت الانتباه إليها في كل أحوالها .

- انتقال الثمار من حال إلى حال ، و تنوعها العجيب دليل على وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى - وكمال قدرته ، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، ويدل دلالة واضحة على قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه ، وعلى سعة رحمته وفضله ولطفه بعباده وفيه رد على الملحددين الذين يقولون بصدفة الكون ، وفيه دليل واضح على جواز البعث لإحياء النبات بعد الموت .

- الاهتمام بالناحية الجمالية عند النظر إليها فلا بد للإنسان أن ينظر إليها نظر اعتبار - أيضاً - من هذه الزاوية فكثرة ألوانها واختلافها من ناحية اللون والشكل والمذاق والحجم أمر جدير بالنظر والتأمل .

- فضل الله - تعالى - على العباد وسعة رحمته وواسع فضله على العباد ، مع ما هم عليه من تقصير وكفران ، فيذكرهم بالآية تلو الآية في كتابه العزيز ؛ لتحريضهم على النظر والتأمل والتفكر ويرتب لهم الأجر والجزاء على تفكرهم ففي هذا التفكر عبادة لخالقهم - سبحانه - .

- في الآيتين السابقتين استدلال بتوليد النار مع حرها وبيسها ، من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته ، وفي ذلك ما فيه من كمال قدرة وحكمة .

- شتان بين ما أعدده الله - سبحانه وتعالى - للمؤمنين ، وما أعدده للمكذابين الضالين ، وهذا من كمال عدل الله - سبحانه وتعالى - .

- إخبار الله - سبحانه وتعالى - عن وجود تلك الشجرة ، وغرابة منبتها فتنة واختبار للكفار الذين استغربوا لجهلهم قدرة الله - تعالى - كيف تكون في النار ولا تحترق وهي التي تحرق النار وتجاهلوا أن من يعذب بالنار بشر مثلهم ، فكيف لا تأكلهم النار ! وكذلك فيها الحيات والعقارب وخزنة جهنم - أعادنا الله منها - فلا يستحيل ذلك بالعقل .

- طعام الكفار هو الزقوم وهو شجر مر كربه الرائحة والطعم يبتلع ابتلاغاً .

- تشبيه طلع الشجرة برؤوس الشياطين تشبيه تخيلي ، متصور في نفوس المخاطبين وإن كان غير مشاهد ، ففي أقوالهم يطلقون لفظ الشيطان على الشيء القبيح ، والمملك للصورة الحسنة ، وفي أشعارهم التشبيه بالغول ونحوها .

المبحث الثالث : سياقها في مجال ضرب المثل :

كتاب الله الكريم كتاب معجز ، نزل لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وفيه سعادتهم في الدارين ، ولما كان الناس مختلفي المدارك و البيئات والأفهام ، تنوعت أساليب القرآن الكريم وفنونه ، وتعددت طرقه ومسالكه ؛ فجاء ملائماً لجميع أحوال الناس ، وليحقق مقاصده ومراده .

ومن هذه الأساليب المتنوعة ضرب الأمثال ؛ لما لها من أثر عظيم وتأثير على السامعين وتقريب للمعنى وتصوير له بصورة محسوسة ، فقد قيل : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية . فهو نهاية البلاغة (١)

المراد بالأمثال :

الأمثال جمع مثل ، والمثل في اللغة :

قال ابن فارس (٢) : الميم والطاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء ، وهذا مثل هذا ، أي نظيره، والمثل والمثال في معنى واحد (٣)

للمثل في أصل اللغة معان أخرى ، منها : القول السائر ، و الوصف الغريب أو القصة الغريبة ، وقيل : هو المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة ، ويفشو استعماله ، والمثل أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة (٤)

وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي يقال فيما يشاركه في الكمية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك (٥)

(١) _ مجمع الأمثال ٨/١

(٢) _ هو : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب ، أصله من قزوين ، وأقام مدة في همدان ، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة ٣٩٥ ، من تصانيفه : معجم مقاييس اللغة ، والمجمل ، وجامع التأويل في تفسير القرآن . ينظر : سير أعلام النبلاء ١٧/١٠٣ ، معجم الأدباء ١/٥٣٣ ، الأعلام ١/١٩٣

(٣) _ معجم مقاييس اللغة ٥/٢٩٦

(٤) - مفردات غريب القرآن ١/٤٦٢ ، مادة (مثل) ، تاج العروس ٣٠/٣٨٢ ، لسان العرب ١١/٦١٠

(٥) - مفردات غريب القرآن ١/٤٦٢

وقد تبّه صاحب الكشاف لبعض معاني المثل في أصل كلام العرب وأنه بمعنى النظير ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده : مثل ، ولم يضربوا مثلاً ، ولا رأوه أهلاً للتسيير والقبول إلا قولاً فيه فيه غرابة من بعض الوجوه (١)

المثل قائم على تشبيه شيء بشيء لوجود عنصر أو عناصر مشابهة وتمثال بينها .

المثل اصطلاحاً :

عُرف المثل عند العلماء بتعاريف ، منها :

المثل : هو التماثل بين الشيئين في الكلام كقولهم (كما تدين تدان) وهو من قولك هذا مثل الشيء ومثله كما تقول شبهته وشبّهه ما يماثله ويشابهه قدرًا وصفةً (٢) وقيل : لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه .

وقيل : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وأنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث (٣) وقيل : هو القول الوجيز المرسل ليعمل به (٤) وتعقب هذا القول صاحب الفلك السائر ، بقوله : والصحيح أن يقال : المثل يطلق على نوعين أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أفعال ، والثاني : كل كلام وجيز منشور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة ، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة (٥)

والمراد بالأمثال القرآنية :

قال عنها ابن القيم " إنها تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر " (٦)

نظم من التنزيل يعرض نمطاً واضحاً معروفاً من الكائنات أو الحوادث الكونية أو التاريخية عرضاً لافتاً للأنظار ، ليشبه أو يقارن به سلوك بشري ، أو فكرة مجردة ، أو أي معنى من المعاني ، بقصد

(١) _ باختصار ، الكشاف ٧٢/١

(٢) _ مجمع الأمثال للميداني ٨/١

(٣) _ جمهرة الأمثال ٧/١ ، مجمع الأمثال ٨_٧/١ ، نهاية الأرب في فنون الأدب ٤/٣

(٤) _ المثل السائر ٥٥/١

(٥) _ الفلك السائر ص ٥٣ ، للمزيد من تعريفات المثل ينظر : تحرير التحبير ص ١٥٩ ، تمثال الأمثال للشبيبي ١٠٠/١ ،

المزهر في علوم اللغة ٣٧٤/١_٣٧٥

(٦) _ إعلام الموقعين ١٥٠/١

التوضيح أو الإقناع أو البرهان أو التأثير ، أو مجرد الإقتداء به ، أو التنفير منه والإبتعاد عنه أو بقصد بيان الفارق بين أمرين متناقضين للأخذ بأحدهما والابتعاد عن الآخر أو للبرهان على صحة أحدهما ، وبطلان الآخر (١)

ووصفها صاحب العقد الفريد بأنها : وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعاني ، والتي تخيرتها العرب وقدمتها للعجم ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شئ مسيرها ولا عمّ عموميتها حتى قيل " أسير من مثل " (٢) والقرآن الكريم زاخر بأمثال كثيرة يستقى منها : التذكير والوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، والاعتبار وغيرها من الفوائد ، فجاءت الأمثال القرآنية موجزة اللفظ ، معجزة المعنى ، تلامس القلوب بمدلولها الهادف لا يعقلها إلا العالمون .

قال بعض السلف : إني لأمر بالمثل من كتاب الله لا أعرفه فأغتم لقول الله - تبارك وتعالى -

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٣) (٤)

أنواع الأمثال في القرآن :

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع :

الأول: الأمثال المصرحة: وهي ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه ، وهي كثيرة في القرآن .

الثاني : الأمثال الكامنة : وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ، مثالها : في معنى القول (خير الأمور أوسطها)

من قوله - تعالى - ﴿ لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ ﴾ (٥)

الثالث : الأمثال المرسلة في القرآن الكريم ، وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، فهي آيات جارية مجرى الأمثال ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

(١) _ الترتيب بضرَب الأمثال ص ١٩

(٢) _ العقد الفريد ٣ / ٣

(٣) - سورة العنكبوت الآية ٤٣

(٤) - مصاعد النظر ٣٨١/١

(٥) _ سورة البقرة من الآية ٦٨

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١) (٢)

فوائد الأمثال وأهميتها :

للأمثال فوائد لا تحصى ؛ لأنها متعددة ومتشعبة بتعدد وتنوع الأمثال ، والموضوعات التي تعالجها والحالات التي تصورها ، وسأشير إلى بعض فوائدها :

- ١ - تحقيق أمر من الأمور الاعتقادية ، كالدليل على وجود الله ، وتقرير عقيدة البعث .
- ٢ - تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس ، فيقبله العقل ؛ لأن المعاني المعقولة تستقر بالذهن كلما قربت عن طريق الحس .
- ٣ - إبطال أمر من الأمور المضادة للحق .
- ٤ - تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر .
- ٥ - الترغيب والتشويق لأمر محبب .
- ٦ - التنفير والترهيب من أمر غير محمود .
- ٧ - المدح والتنويه بشأن من اتبع دين الحق .
- ٨ - العظة والعبرة والتذكير والزجر والإقناع (٣)

ففي تمثيل المعنى مع الإيجاز توضيح للمراد ، وإخراج له إلى الحس والمشاهدة ، وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم (٤)

فالأمثال القرآنية نور يكشف للناس الغي من الرشاد ، والهدى من الضلال ، ويميز به الخبيث من الطيب ، فهي ليست تصويرًا وتشخيصًا لأشياء مجرد الرغبة في التصوير والتشخيص ، وإنما هي

(١) _ سورة فاطر من الآية ٤٣

(٢) _ البرهان في علوم القرآن ١/٤٨٦ ، الأمثال في القرآن للفياض ٩٣-١٠٠ ، مباحث في علوم القرآن للقطان ١/٢٩٣ ، الأمثال في القرآن للمنصور ص ٥٣-٦٥

(٣) _ للاستزادة ، ينظر : بدائع الفوائد ٤/٨١٥ ، الأمثال في القرآن للفياض ٨٦ - ٩٢ ، مباحث في علوم القرآن ١/١٩٧-٢٩٩ ، أمثال ونماذج بشرية من القرآن ص ١٣ ، الأمثال في القرآن ، المنصور ص ٤٢-٥٢ ، الأمثال لسميح عاطف ص ٤٩-٧٢ المدخل لقراءة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية ١/٤٩٧

(٤) _ سر الفصاحة ١/٢٣٢

إحقاق للحق ، وإزهاق للباطل ، وحكم للشئ أو عليه ، وفيها العبرة لمن اعتبر والتذكرة لمن شاء أن يتذكر (١)

ونظرًا لأهميتها ، وحاجة الناس إليها جاءت الآيات الكثيرة زاخرة بالأمثال ، فلها "موقع في الأسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ، ولا يؤثر تأثيرها ؛ لأن المعاني بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها وامقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة " (٢) وذكر الشافعي (٣) أن الأمثال مما يجب معرفته على المجتهد ، فقال :

"... ثم معرفة ما ضرب فيها من الأمثال الدوال على طاعته الميينة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحظ والازدياد من نوافل الفضل " (٤)

ومن الأشياء التي استخدمها القرآن للتمثيل بها الأشجار والنباتات ، وقد تنوعت استخداماتها في هذا المجال ، وفي هذا المبحث قصدت جمع الآيات المتعلقة بالنبات ، والتي كان القصد منها التمثيل بها .

(١) _ بعض الأبعاد التربوية ص ٢٦

(٢) _ أدب الدنيا والدين ٢٩٤/١

(٣) _ هو : محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي المطلبي ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قصد مصر سنة ١٩٩٦ وتوفي بها سنة ٢٠٤٤ من كتبه : الرسالة في أصول الفقه ، والأم في الفقه ، وغيرها . ينظر : مناقب الإمام الشافعي ، طبقات الحنابلة ٢٧٨/١ ، سير أعلام النبلاء ٥/١٠ ، تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٤٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٣/٩

(٤) _ الرسالة ٤١/١

المطلب الأول : التمثيل بها للحث على الإنفاق في سبيل الله :

شرع الله تعالى لعباده الإنفاق في سبيل الله وحث عباده عليه ورتب عليه الأجر العظيم ، وقد جاءت نصوص كثيرة من القرآن والسنة تبين فضائل هذه العبادة الجليلة وآثارها ، وتوجد الدوافع للمسلمين للمبادرة بفعلها فهي منطلق كل خير وبركة ونماء ، ومن ذلك الاهتمام بها وضرب الأمثلة عليها ؛ لعلمه - عز وجل بأن الإنفاق في غير الشأن الخاص أمر شاق على النفس عند الكثير من الناس فجاءت الآيات الكريمة حاثّة عليه ، مريّة الناس على البذل والعطاء مما يعود على الأمة بأكملها بالخير والنماء .

وجاء التمثيل بها للحث على الإنفاق في مثلين ، الأول :

تشبيهه عظم ثواب المنفق ماله في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل :

في قوله -تعالى- ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

قال ابن كثير عند هذه الآية : " هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف " (٢)

شبه الله - سبحانه وتعالى - الذين ينفقون أموالهم في أبواب الخير ووجوه البر كمثل زارع حبة في أرض طيبة ، فأخرجت تلك الحبة عودًا مستويًا قائمًا قد تعلقت به سبع سنابل ، وفي كل سنبله مائة حبة ، والحبة تعطي سبعمائة حبة ، والله -تعالى- يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء فهو عليم بعباده واسع فضله .

فشبه المتصدق بالزارع ، وشبه الصدقة بالبذر ، فالمثل هنا من تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمشبه به هيأته معلومة ، وقد شاع تشبيهه المعروف بالزرع ، وتشبيهه الساعي بالزارع ، كما ذكر ذلك ابن عاشور (٣) وفي هذا المثل إحضار لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة حتى كأن القلب ينظر

(١) - سورة البقرة ٢٦١

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٦٩١/١

(٣) - التحرير والتنوير ٤١/٣

إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني (١)

والمراد من قوله تعالى (في سبيل الله) قولان (٢) ، قيل : أراد به الإنفاق في الجهاد وقد ذهب إليه الطبري والبغوي والقرطبي (٣) وغيرهما ، وقيل : هو الإنفاق في جميع أبواب الخير ووجوه البر ، فيدخل فيه الواجب والتطوع ، والظاهر أن المراد بالإنفاق هو القول الثاني فهو أشمل ، وسبيل الله كثيرة وقد مال إلى هذا القول بعض المفسرين (٤)

قال أبو حيان : " وظاهر الإنفاق في سبيل الله يقتضي الفرض والنفل ، ويقتضي الإنفاق على نفسه في الجهاد وغيره ، والإنفاق على غيره ليتقوى به على طاعة من جهاد أو غيره " (٥) في هذا المثل إحضار لصورة المضاعفة ، فما كان العبد يشاهده يبصره من نمو السنابل فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان ، فتتقاد النفس مذعنة للإنفاق ساحة بما مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة (٦)

فهذا مثل - ضربه الله تعالى - لحث الناس على الإنفاق في سبيل الله وترك الشح والبخل ، فغريزة النفس الإنسانية تستكثر بمقدار ما تستطيع من الخير فأبان القرآن أن ما سنبذله من صدقة سوف يعود خيره علينا أضعافاً مضاعفة (٧)

حب: الحب والحببة ما يكون في السنبل والأكمام ، يقال : في الحنطة والشعير ، ونحوهما من المطعومات (٨)

(١) - طريق المحررتين ص ٤٧٤

(٢) - زاد المسير ٣١٦/١ ، لباب التأويل ٢٨٣/١ ، التفسير الكبير ٣٩/٧ ، البحر المديد ٢٩٥/١

(٣) - جامع البيان ٥١٣/٥ ، معالم التنزيل ٣٢٤/١ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٠٥/٣

(٤) - المحرر الوجيز ٣٥٥/١ ، التفسير القيم ص ١٥٠ ، البحر المحيط ٣١٥/٢

(٥) - البحر المحيط ٣١٥/٢

(٦) - تيسير الكريم الرحمن ١١٢/١

(٧) - من بلاغة القرآن ص ٤١

(٨) - مفردات غريب القرآن ١٠٥/١ ، كتاب الحاء ، مادة (حب) ، تاج العروس ٢٢٢/٢ ، مادة (حب) ، المعجم

المعجم الوسيط ١٥١/١

وإسناد الإنبات إلى الحبة إسناد مجازي ، مع أن المنبت في الحقيقة هو الله - سبحانه وتعالى - ؛ لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات ؛ ولأنها هي الأصل لما تولد عنها (١) وهذا التمثيل فيه تصوير للمضاعفة كأنها حاضرة أمام الناظر .

واختيار التشبيه بالحبة في هذا المثل لما في مشهد حياة النبات من جمال وحياة وروعة زاهية تستجيش المشاعر وتحرك القلوب .

وللرقم سبعة دلالة تعبيرية خاصة ، فقد حظي بوروده كثيرا في القرآن الكريم ، ومنها هذا المثل في الآية الكريمة ، يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ سَبْعَ سَنَابِلٍ ﴾ وذكره لما فيه من التمام وما يقبله من التكثير فالعرب تضع التسبيع موضع التضعيف والتكثير وإن جاوز السبع (٢) وجاء الجمع بسنابل ؛ لأن المقام مقام تكثير فهي من جموع الكثرة (٣)

و السبعمائة في المشبه به لم تذكر للدلالة على أن النفقة تعود بسبعمائة ، وإنما ذكرت لكونها أقصى ما تستشعره النفوس من الأضعاف المضاعفة (٤) وفي هذا يقول ابن كثير : " وهذا المثل أبلغ في النفوس ، من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - عز وجل - ، لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة " (٥) وتناول المفسرون مسألة : هل هناك في الحقيقة سنبله تحمل مائة حبة ؟ فقال بعضهم بوجودها ، وقال البعض الآخر بجواز تصور الشيء ولو لم يعاين .

والمقصود من الآية الكريمة كما ذكر العلماء هو : التحريض على الصدقة وبيان شرفها فإذا علم الإنسان الطالب للزيادة والرياح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك ، ولا التقصير فيه فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة أن لا يترك الإنفاق

(١) _ الكشاف ٣١٠/١ ، ٥٦٥/١ ، إرشاد العقل السليم ٢٥٧/١

(٢) _ نظم الدرر ٥١٥/١ ، وينظر : لسان العرب ١٤٦/٨ ، تاج العروس ١٧٦/٢١

(٣) _ تفسير القرآن الكريم لابن القيم ١٥٧/١ ، العدد في القرآن ص ١٢٣ ، هناك مقالة لطيفة بعنوان الرقم سبعة يشهد على عظمة القرآن ، في موقع المهندس عبد الدائم الكحيل ، أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

(٤) _ الأمثال في القرآن لمحمد فياض ص ٣٣٢

(٥) _ تفسير القرآن العظيم ٦٩١/١

في سبيل الله ، إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومائة وسبعمائة ، وإذا كان هذا المعنى معقولا سواء وجد في الدنيا سنبلة بهذه الصفة أو لم يوجد كان المعنى حاصلاً مستقيماً (١)

والله يضاعف لمن يشاء ، فان ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص ، وغير ذلك من أحوال المتصدق ، وما تصدق به ، والله واسع الفضل غني كريم عليم - سبحانه وتعالى - .

الثاني : تشبيه نفقة المؤمن الذي يبتغي بها وجه الله بالجنة المثمرة :

يشبهه الله - سبحانه وتعالى - الذي ينفق ماله ابتغاء وجه الله بالجنة المرتفعة ، كما في قوله - تعالى -

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) في الآية الكريمة عطف مثل الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله على مثل

الذي ينفق ماله رياء الناس في الآية التي سبقتها ؛ لزيادة بيان ما بين المرتبتين من الفروق ، وللتنوع في التمثيل ، وللحث على الصدقة خالصة لوجه الله - تعالى - .

اختلف المفسرون عند هذه الآية في المشبه ، على ثلاثة أقوال :

الأول : هم المنفقون أنفسهم ، وقال به الطبري ، وتابعه ابن كثير ، وغيرهم (٣)

الثاني : أن المراد نفقة المنفقين ، وقال به أغلب المفسرين (٤)

الثالث : من جوز الأمرين معاً ، قال أبو حيان : " ومثل المنافقين كمثل غارس حبة ، أو : مثل

نفقتهم كحبة ، أو : مثل المنفقين ونفقتهم كمثل حبة وغارسها " (٥)

(١) _ لباب التأويل ٢٨٣/١ ، التفسير الكبير ٧ / ٤٠

(٢) _ سورة البقرة ٢٦٥

(٣) _ تأويل مشكل القرآن ١٩٦/١ ، جامع البيان ٥٣٠/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٦٩٥/١

(٤) _ بحر العلوم ٢٠٢/١ ، الكشاف ٣١٣/١ ، المحرر الوجيز ٣٥٨/١ ، مدارك التنزيل ١٣٨/١ ، التفسير الكبير ٤٩/٧ ،

تفسير ابن عرفة ٧٤٨/٢ ، نظم الدرر ٥١٨/١ ، السراج المنير ١٤٨/١ ، روح البيان ٣٤٦/١ ، البحر المديد ٢٩٩/١ ،

التحرير والتنوير ٥٢/٣

(٥) _ تفسير البحر المحيط ٣٢٣/٢ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ٢٦٠/١

ولعل الأقرب أن المشبه به هم المنفقون ؛ لدلالة ظاهر الآية عليه ، ولأن الآية معطوفة على ما قبلها وفيها تمثيل حال المرأين المانين بصدقائهم .

وحقق صاحب الأمثال هذه المسألة تحقيقاً وافياً ورجح القول الأول ، ويرى في هذا التشبيه أسرار من البلاغة والنظم في المقابلة بين الضدين : حال المنفقين المائين المرأين ، وحال المنفقين لوجه الله -تعالى- ، والفرق بين الحالين بيّن ، فهؤلاء الذين نفقوا ابتغاء مرضات الله نفوسهم مليئة بالعواطف الإنسانية النبيلة ، وهم أختيار طبعوا على الخير ، فإليهم يلجأ المحتاج فيجد منهم كل خير ومعونة ، فإن كثر ما عندهم جادوا بالكثير ، وإن قلّ لم تمنعهم قلته عن الجود والإنفاق ، فلا عجب أن يمثلوا بالجنة التي يجد فيها الملتهجى ما يريد من أكل وشرب وظل (١)

معنى المثل : تشبيه المنفق ماله في سبيل الله ويقصد به تثبيت نفسه على الخير وتمكينها في مراتب الإيمان والإحسان فهو كالجنة العزيمة الخصب ، إن أصابها الوابل أنبتت خيراً مضاعفاً ، وإن أصابها المطر الخفيف فيكفيها ؛ لجودتها وطيب مكانها وصفاتها ، وهكذا المنفق الذي يتبغى رضوان ربه فإنه إن أصابه خير كثير أكثر من الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق حسب جهده ، ففي كل أحواله خير ، كالبستان الطيب المثمر دائماً .

قال قتادة : " عمل المؤمن ليس لخيره خلف ، كما إنه ليس لخير هذه الجنة خلف ، على أي حال كان : إن أصابها وابل ، وهو المطر الشديد وإن أصابها ظل " (٢)

في الآية الكريمة تعليين لإنفاقهم المال ، هما : ابتغاء مرضاة الله ، وتشبيهاً من أنفسهم ، أي : تزكية نفوسهم وتطهيرها ، من الآفات كالبخل والشح ، وترويضها على الإنفاق في سبيل الله ، وحب البذل والعطاء ، وتحقيقهم من أن الله -تعالى- سيجزئهم على بذلهم أحسن الجزاء .

والمشبه به قوله -تعالى- ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

فالجنة كثيرة الأشجار ، واستترت لكثرة أشجارها وظلالها ، وقُيدت في الآية بأنها برودة ، وهي : ما ارتفع من الأرض (٣) وسبب التقييد هو جمال البساتين المرتفعة ، وطيب ثمرها ، فالأرض المرتفعة إذا كان لها ما يرويها من الماء فهي أكثر نتاجاً ، قال ابن عاشور : " لهذا القيد فائدتان :

(١) _ الأمثال في القرآن الكريم ، محمد فياض ص ٣٣٩-٣٤٠

(٢) _ معاني القرآن للنحاس ٢٩٣/١ ، جامع البيان ٥/٥٤٠ ، فتح القدير ١/٢٨٧

(٣) _ معاني القرآن للفراء ٢/٢٣١ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٨٢ ، قاموس القرآن للدماغي ١/١٩٠

إحداهما : قوة وجه الشبه كما أفاده قول ضعفين .

والثانية : تحسين المشبه به الراجع إلى تحسين المشبه في تحيّل السامع " (١)

وفي ذكر الوايل والطل إشارة إلى تفاوت مقدار الإخلاص في الابتغاء والتثبوت كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكائها ولكنها لا تخيب صاحبها (٢) .

"الوايل" وهو: المطر الشديد (٣)

ففي هذا تشبيه نفقة المنفقين ونمائها عند الله بتلك الجنة الطيبة المكان إن أصابها المطر الكثير تزايدت وأنبتت ضعف نتائجها ، وإن أصابها الطل كانت دون ذلك وفي كل خير .

(١) _ التحرير والتنوير ٥٢/٣

(٢) _ التحرير والتنوير ٥٣/٣

(٣) _ معاني القرآن للأخفش ١٥٣/١ ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٤٨/١ ، مختصر تفسير القرآن العظيم ، لأحمد

المطلب الثاني : التمثيل بها للزجر عن الرياء ، وما يحبط العمل :

جاء التمثيل بالنبات للزجر عن الرياء ، وما يحبط العمل وذلك في مثلين من الأمثال القرآنية ، هما الأول : تشبيه نفقة الكفار والمبطلين صدقاتهم بالمن والأذى بالصفوان :

وذلك في قوله - تعالى - ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

نهي الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين عن إبطال الصدقات بالمن والأذى ، وضرب لذلك مثلين :

الأول : في قوله - تعالى - ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

تشبيه من يتصدق من المؤمنين بالذي ينفق ماله رثاء الناس من المنافقين والكفار ، فهم إنما أنفقوها لأجل الرياء والسمعة فهم لا يطلبون أجر الآخرة وإنما يطلبون المدح والشهرة .

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من اتباع الصدقة بالمن والأذى والمن هو : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها والأذى السب (٢)

فالمؤمن المان مع أنه قصد بصدقته وجه الله - تعالى - أول أمره ، ولكن المنة والأذى أبطل عمله ، فتصير أعماله كالمنافق الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا شك أن عمله مردود ، فكلاهما أعمالهما باطلة ، وسعيهما غير مشكور .

وكما أوصى الإسلام بتقديم الصدقة إلى مستحقيها ، أوصى في الوقت نفسه على إحساس المحتاج والإبقاء على كرامته ، وماء وجهه ، فلا يقدم الصدقة مشفوعة بمن أو مصحوبة بأذى عاجل ، أو أجل ، وإلا بطل ثوابها كما يبطل الرياء ثواب العمل (٣)

(١) - سورة البقرة ٢٦٤

(٢) - التسهيل ١٢٤/١

(٣) - الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف ص ٣١

وأما المثال الثاني : ففي قوله - تعالى - ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

في المثل تشبيه حال أولئك الكفار والمنافقين الذين شبهوا بالأصل بالمانين من المؤمنين بصدقاتهم فمثل الجميع كصفوان ، وهو : الصخر الأملس ، مفرده : صفوانة ، و مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشيء مما يشوبه (١) وعليه تراب ، فنزل عليه وابل من المطر الغزير فترك الصخر صلداً ، أي : أملساً يابساً لا شيء عليه من ذلك التراب فلا يحصدون منه زرعاً ، وكذلك أعمال المرائين تذهب سدى ويبطل أجرها عند الله .

قال الخازن : " فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس يرى الناس أن لهؤلاء أعمالاً في الظاهر ، كما يرى التراب على الصفوان فإذا جاء المطر أذهبته وأزاله وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة ، تبطل أعمالهم وتضمحل لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب " (٢)

وهناك توافق ووجه شبه بين المرائي ونفقته وبين الصفوان والتراب الذي غطاه : فالمرائي صخر صلب في قسوة قلبه ، وما بدا منه من صلاح وخير ، وأزال الرياء هذا الخير كما أزال المطر عن الصفوان ترابه ، وكما أن التراب كان ظاهراً لم يتغلغل في الصفوان فكذلك نفقة المرائي لم تكن نابعة عن نفس طبعت على الخير والبذل (٣)

وجاء في القرآن آية كريمة فيها تشبيه نفقة الكافر وعدم انتفاعه بها بمثل الريح التي فيها صر ، قال

-تعالى- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

(١) _ غريب القرآن لابن قتيبة ص ٩٧ ، النهاية في غريب الأثر ٧٣/٣ ، لسان العرب ٤٦٢/١٤ ، مادة (صفا) ، تاج

العروس ٤٢٩/٣٨ ، مادة (صفو) ، التيسير في تفسير القرآن ص ٢٢

(٢) _ لباب التأويل ٢٨٥/١ ، وينظر : تجريد البيان لتفسير القرآن ١ / ٩١

(٣) _ الأمثال في القرآن ، فياض ص ٣٣٧

صُرُّ أَصَابَتْ حَرَّتْ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

قال الطبري عند هذه الآية : شبه ما يتصدق به الكافر من ماله وهو غير نافع مع كفره ، وأنه مضمحل عند حاجته إليه ، ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كسبه ربح فيها برد شديد ، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد زرع قوم قد أمّلوا إدراكه ، ورجحوا ربحه وعائدة نفعه ولكنهم ظلموا أنفسهم فعصوا الله ، وتعذّوا حدوده فأهلكت الريح التي فيها الصرُّ زرعهم ذلك ، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم (٢).

وفي هذه الصورة إعجاز فني ودقة تناسق ، حيث التحمت صورة إنفاق المشركين بما لا يجدي نقيراً بصورة من يملك حرثاً ، وهو ينتظر بسرور عطاءه ، فإذا الريح تدمره وتحطمه (٣) والمعنى : أن أعمال الكفار وإن كانت صالحة بمقياس الشرع فإنها باعتبارها لم يُرد بها وجه الله -تعالى- قد جعلها هباءً منثوراً وغباراً مفرقاً في عدم جدواها ونفعها (٤)

الثاني : تشبيه نفقة المانين والمرائين بالجنة المليئة بالثمرات والتي دمرها إعصار فيه نار : لازالت الآيات الكريمة تعالج النفس الإنسانية وتهذب جشعها وحبها للمال وكنزه ، ودفعها للبذل والعطاء ابتغاء وجه الله -تعالى- والحفاظة على هذا الإنفاق من التلف والضياع بمن أو أذى ونحوه ، وتقبيح فعل من فعل ذلك بالمثل المحسوس ، وهو مثل صاحب الجنة ، في قوله -تعالى-
﴿ أَيُودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥)

(١) _ سورة آل عمران الآيات ١١٦-١١٧

(٢) _ جامع البيان ١٣٤/٧ ، وينظر : معالم التنزيل ٩٤/٢ ، تفسير القرآن العظيم ١٠٦/٢

(٣) - الإعجاز الفني في القرآن ص ٢٠٢

(٤) _ تأملات في سورة آل عمران ص ٣٤٧

(٥) _ سورة البقرة الآية ٢٦٦

سبقت هذه الآية آيات كريمة وأمثال تبين أحوال المنفقين ومدى قبول أعمالهم وأجورهم عليها ، وفي هذا المثل حال مقابلة لحال المؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضات الله في الآية التي قبلها ، وتشبيهه بالجنة المرتفعة الطيبة الأكل في جميع أحوالها ، وكيف تضاعف حسناته كالجنة التي تضاعف إنتاجها ، وبين حال الآخر الذي أصيب باليأس والخيبة .

وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذي يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك ، لظهورها من المقام (١)

ومعنى المثل : تشبيه حال من يعمل الأعمال الصالحة ، ثم يفسدها برياء ، أو أذى ونحوه ، وكيف تكون حاله يوم القيامة وحسرتة إذا وجدها باطلة مردودة ، فحاله ستكون كحالة شيخ كبير عاجز له ذرية ضعفاء ، وله حديقة مثمرة يعتمد عليها في رزقه ومعاشه ، فإذا بريح عاصف تدمرها تدميراً فلا يجد أمامه إلا الحسرة والندامة ، فحالك - أيها الإنسان - ستكون كحاله إذ أنفقت مالك وأتبعته بالمن والأذى .

وذلك لأن إعصار الرياء ، والمن والأذى بدد كل ما فعلته من خير في الظاهر ، وهو شر في الحقيقة والباطن (٢)

وفي هذا المثل : " إثارة لمحور الخوف في الإنسان ؛ ليكون على حذر من إبطال الصدقة بالمن والأذى ، وليكون لديه محرض ذاتي يبعده عما يبطل صدقاته " (٣)

ولزيادة بيان المثل وصف الله - سبحانه - الحديقة وصاحبها بصفات :

فالحديقة : فيها جنات من نخيل وأعناب ، ولهذين النوعين ما فيهما من شرف ونفع وجمال ، والأنهار تجري من تحتها فلا يتكلف صاحبها في سقيها ، وتزيد من الجمال والبهجة في تلك الجنة ، وفيها من كل الثمرات .

وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير (٤) إضافةً للجنات من النخيل والأعناب .

صاحبها : إنسان أصابه الكبر ومع ضعفه له ذرية ضعفاء يعتمدون عليه في حياتهم ، وليس له إلا هذه الحديقة اليانعة فهو يترب ثمارها كما يترب المنفق ثمرة نفقته وثوابها .

(١) _ البحر المحيط ٣٢٦/٢

(٢) _ التفسير المنير ٥٥/٣

(٣) _ الأمثال القرآنية ، الميداني ص ٦٤

(٤) _ إرشاد العقل السليم ٢٦٠/١

وقد تحدث المفسرون عن ضروب الفصاحة في هذا المثل وما فيه من صنوف البلاغة : كالانتقال من الخصوص إلى العموم ، والإشارة ، والتشبيه ، والحذف ، والمجاز وغيرها .

" ولا يخفى أن هذه المثل في المقصود أبلغ الأمثال ، فإن الإنسان إذا كان له جنة في غاية الكامل وكان هو في نهاية الاحتياج إلى المال - وذلك أوان الكبر مع وجود الأولاد الأطفال - فإذا أصبح شاهد تلك الجنة محترقة بالصاعقة ، فكم يكون في قلبه من الحسرة وفي عينه من الحيرة " (١)

ولإحدى الباحثات كلام جميل حول بلاغة هذا المثل ، حيث تقول : " البلاغة تكمن في وضع الألفاظ متجاوزةً ، مع ما فيها من إحاء وجرس ليس لهما مثل ، هذا فضلاً عما تحمله من معان كبيرة : فالإعصار مثلاً : قد لا تكون فيه نار ، وقد تكون ثمة نار ليست وليدة إعصار ، وحينما تقترن النار بالإعصار فذلك أدى إلى انتشار النار السريع وأذاها ، وأدى إلى الإعصار الفظيع " (٢)

وفي هذا التصوير القرآني البليغ تحذير من الله - تعالى - للمؤمنين بألا يبطلوا أعمالهم الصالحة بما نهاهم الله عنه فلا يجني منها إلا الحسرة والندامة والحزني .

وجاء تذييل الآية مبيناً أهمية الأمثال بقوله - تعالى - ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ لعلكم أيها الناس تتفكرون فيها وما حوته من عبر وعظات ، وتؤدون ما عليكم الله - تعالى - دون نقص ودون أن تشوبه شائبة من رياء أو من أو نحوه ولا تغتروا بالشهرة الزائلة فالدنيا فانية ولن يفيدكم إلا أعمالكم الخالصة لوجهه - تعالى - فاحذروا مما يبطلها .

وهذا المثل الذي ضربه الله - تعالى - في الآية الكريمة السابقة للمرائي ، وقيل : مثل للمان في الصدقة ، وقيل : للمفرط في الطاعة ، وقيل : أعطي الشباب والمال فلم يعمل حتى سلبا ، وقيل : لمن عمل أنواع الطاعات كجنة فيها من كل الثمرات ، فحتمها بإساءة كإعصار (٣) أورد البخاري في سبب نزول الآية قول ابن عباس - رضي الله عنه - : " ضربت مثلاً لعمل ، قال عمر " أي عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل ، قال عمر : لرجل غني يعمل بطاعة الله - عز

(١) _ غرائب القرآن ٤٠/٢ ، وينظر : التفسير الكبير ٥٠/٧ ، البحر المحيط ٣٢٧/٢

(٢) _ وجوه البيان في أمثال القرآن ص ١١١

(٣) _ البحر المحيط ٣٢٦/٢

وجل - ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي ، حتى أغرق أعماله (١)
قال ابن كثير بعد أن أورد رواية البخاري : " وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره ، فبدل الحسنات بالسيئات ، عياداً بالله من ذلك ، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضييق الأحوال ، فلم يحصل له منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه " (٢)
والمقصود من هذا المثل : بيان أنه يحصل في قلب هذا الإنسان من الغم والمحنة والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلا الله ، فكذلك من أتى بالأعمال الحسنة ، إلا أنه لا يقصد بها وجه الله ، بل يقرب بها أموراً تخرجها عن كونها موجبة للثواب ، فحين يقدم يوم القيامة وهو حينئذ في غاية الحاجة ونهاية العجز عن الاكتساب عظمت حسرته وتناهت حيرته (٣)

في هذا المثل إشارة مضمنة إلى جنة الآخرة عبر الإجابة التي ترد إلى الذهن تلقائياً ، عند مواجهتها بهذا التساؤل ، فالجنة الدائمة غير المهتدة بالزوال هي المبتغاة لدى الذات الإنسانية عموماً ، وليس من الممكن الفوز بها إلا عبر تحقق التفكير ، والوصول إلى هذه النتيجة المضمنة التي ترتبط بيوم القيامة (٤)

(١) - جزء من حديث للبخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : قوله : { أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب } إلى قوله : { لعلكم تتفكرون } ، ح ٤٥٣٨ ، ص ٣٧٢ . وأخرجه الطبري بألفاظ مقاربة في تفسيره ٥٤٥/٥ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٥٢٢/٢-٥٢٣

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٦٩٦/١

(٣) - التفسير الكبير ٥٢/٧

(٤) - الإشارة الجمالية في المثل القرآني ص ١٦٦

المطلب الثالث : التمثيل بها للحث على شكر النعمة ، وعدم كفرها :

ساق الله - سبحانه وتعالى - مثلاً للحث على شكر النعمة ، وعدم كفرها بقصة الرجلين المؤمن والكافر ، وكيف أيد الله - سبحانه وتعالى - المؤمن ونصره على الجاحد ، يقول الحق - تبارك وتعالى - ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝٣٢ كِتَابَ الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تُظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝٤٣ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ (١)

يضرب الله - سبحانه وتعالى - في هذا المثل مثلاً لنفس بشرية مغرورة بالحياة الدنيا ، جاحدة نعم الله عليها ، يقابلها نفس متواضعة شاكرة ربا ، وماذا حدث لكل منهما ؟
فهذه القصة ضُربت مثلاً للمؤمن والكافر ، فالكافر تغره دنياه ويتبجح بها ويظن أنها تبقى له ، والمؤمن من صبر على نوائبها احتساباً بها جميل الآخرة ، ولا يركن إليها لما يعلم من فنائها وسرعة انقضائها (٢)

(١) _ سورة الكهف الآيات ٣٢-٤٤

(٢) _ الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١٥٠/٣

يقول الله -تعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- : اضرب للناس مثل هذين الرجلين المتضادين في إيمانهما : أحدهما رجل شاكر لأنعم ربه ، والآخر جاحد لأنعمه ، غرته الحياة الدنيا وزينتها ، وما صدر منهما من أقوال وأفعال ، وما كافأهما به الله تعالى في العاجل والآجل ، وأيهما أيده الله بتأييده ؛ ليكون في هذا المثل عظة وعبرة لمن كان له قلب .

ولم تحدد الآيات الرجلين أو زمانهما وليس في التحديد فائدة ، فالمثل صالح لكل زمان ومكان ، والعبرة باقية .

وورد في سبب نزولها ، أقوال ، منها : أنها نزلت في أخوين بمكة ، وقيل في رجلين من بني إسرائيل (١) .

وبين -سبحانه- ما اشتملت عليه الجنتين : ففيها بساتين من أعناب ، والنخل يحيط بها ؛ ليحميها .

بين البقاعي ميزة إحاطتها بالنخل ؛ لأنها من أشجار البلاد الحارة ، وتصبر على البرد ، وربما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات ، وثمرها فاكهة بالبسر والرطب ، وقوت بالتمر والخل فهي في غاية البهجة والمنفعة (٢)

وفي وسط الجنات الزروع ، فتكون تلك الجنتين جامعةً لأنواع الفواكه والثمار والقوت ، وزيادة في بيان محاسنها جاء وصفها بأنها آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً .

قال قتادة : ولم تظلم منه شيئاً ، أي : لم تنقص منه شيئاً (٣) فقد أخرجت الجنتان ثمرهما ، ولم تنقص منه شيئاً كل عام ، والنهر يشقها ، وتوسطه يساعد على سقيها كلها ، وفيه دلالة على ديمومة الانتفاع بالجنتين ؛ فالماء سر الحياة ، والعامل الأول في نمو النبات .

والتعبير بتظلم ؛ للمقابلة بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر ، وازدهى وتكبر (٤)

(١) _ الكشاف والبيان ١٦٩/٦ ، الكشاف ٧٢٠/٢ ، محرر الوجيز ٥١٥/٣ ، زاد المسير ١٣٨/٥ مدارك التنزيل ١٨/٣ ،

اللباب ٤٨٣/١٢ ، وقد ذكر القرطبي القصة بالتفصيل في : الجامع لأحكام القرآن ٣٩٩/١٠

(٢) _ نظم الدرر ٤٦٧/٤

(٣) - الإمام قتادة ومروياته في التفسير ٢٠٠/١

(٤) _ في ظلال القرآن ٢٢٧٠/٤

وفي التنوع بعد شمول الآفة للكل ، لأن زمان الزرع ومكانه غير زمان أثمار الشجر و الأقوات ، وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها ، مع سعة الأطراف ، وتباعد الأكناف ، وحسن الهيئات والأوصاف (١) .

وبالإضافة إلى تلك الجنات له أيضاً ثمر ، وهو المال ، وذلك مروى عن ابن عباس ومجاهد ، وغيرهما ، وقيل : الثمار ، واستظهر ذلك ابن كثير ، وأيد كلامه بالقراءة الأخرى بضم الثاء والميم ، فتكون : جمع ثمرة (٢)

وعلى أية حال فيفهم من الآية أن له بالإضافة للجنيتين أموال وأولاد .

ثم انتقلت بنا الآيات إلى حوار مع صاحبه وكيف غرته الدنيا وزينتها ، وافتخر على صاحبه بماله وولده وقوة أعوانه ، ثم دخل حديقته وقد أعجبه حسننها ، وسلامتها من الأخطار ، وهو ظالم لنفسه بتفويته ما هو أبقي وأعظم ، وقال : إنها لن تبيد أبداً ، ونسي البعث والحساب فأنكر الساعة ، ولشدة غروره وعجبه بنفسه نسب هذه الجنة لنفسه ، وأنها له ؛ لأنه يستحقها ، وسيجد خيراً منها إن فرض وبعث .

فأجابه صاحبه مستنكراً عليه كفره ، مذكراً إياه بأصل خلقتة المهين من ماء وطين ، وكيف أنشأه الله - تعالى - رجلاً سوياً بفضله وكرمه - سبحانه - .

ثم اعترف وأقر بأنه مؤمن بالله معترفاً له بالوحدانية ، وفي الآية الكريمة ألوان من التأكيد والتكرار ، هي : ضمير الشأن ، وأكد بتكرار كلمة (ربي) ، وأكد معنى الجملة الأولى بمعنى الجملة الثانية (٣)

ثم حظه وأرشده لما كان يجب عليه أن يقوله عند دخول جنته ، وهو أن الأمر كله لله وأنه لا يقدر على حفظ الجنة وعمارتها إلا هو - سبحانه - فإن شاء عمرها وإن شاء تركها خراباً فالأمر إليه - سبحانه - من قبل ومن بعد .

استدل العلماء استحباب قول هذا الذكر عند رؤيته ما يعجب (٤)

(١) _ الكشاف ٢/٧٢١ ، مدارك التنزيل ٣/١٩ ، البحر المحيط ٦/١١٩ ، نظم الدرر ٤/٤٦٧

(٢) _ تفسير القرآن العظيم ٥/١٥٧ ، وينظر : البحر المحيط ٦/١١٩ ، الإمام قتادة ومروياته في التفسير ١/٢٠١-٢٠٢

(٣) _ من لطائف التفسير ٢/٢٦٨

(٤) _ تفسير القرآن العظيم ٥/١٥٩ ، أحكام القرآن لابن العربي ٣/٢٣٣ ، الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٧١ ، التفسير

ثم أخبره أن نعمة الإيمان والإسلام خير من نعيم الدنيا الزائل فإن افتخرت علي بما تملك فإن ما عند الله خير وأبقى ، ولا يعجز الله - سبحانه - شئ ، فهو يبدل من حال إلى حال ، من فقر لغنى ، ومن عز لذل ، فهو - سبحانه - حكيم قدير .

ثم أردف تلك النصيحة بالترجي والتوقع بإبدال الحال ، فقال له : فعسى ربي ، وعسى : للرجاء ، وهو طلب الأمر القريب الحصول ، ولعله أراد به الدعاء لنفسه ، وعلى صاحبه ، كما قال ابن عاشور (١)

والحسبان : مصدر كالغفران والبطلان ، جمع حُسبانة ، بمعنى الحساب مقدارًا قدّره الله وحسبه ، والحكم بتخريبها ، وهو : العذاب من السماء : كالبرد ، والصر ، ونحوه ترمي به رميًا ، وتقذِف (٢) واستظهر ابن كثير أنه مطر كثير مزعج ، يقلع زرعها وأشجارها (٣) فتصبح الأرض بعده صعيدًا زلًّا ، أي : أرض بيضاء لا ينبت فيها نبات ، ولا يثبت عليها قدم ، وهي أضر أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض (٤) أو أن يغور ماءها فلا تستطيع سقيها فتجف وتبور .

ثم أخبرت الآيات أن رجاء المؤمن قد تحقق ، إذ قد أحيط فعلاً بثمر بستان الكافر ، فالفاجعة عليه أشد ؛ لأن الثمر هو نهاية ما يطلبه الإنسان من زرعه ، فلو أحيط بالبستان فاحتمال إثمارة بعدها وارد ، أما وقد أحيط بالثمر ، فلا أمل له بعد ذلك .

ثم صورت الآيات كيف تحولت تلك الحدايق الغناء و ما حلّ بها من خراب ودمار ، وكيف حقت كلمة الله على الظالمين ، وكيف أمهله الله حتى حان عقابه ، فأحاط البلاء بجنتيه من كل جانب ، وكيف وقف أمامها حسيّرًا يقلب يديه من شدة حزنه وكمده وحسرتة على ما جنته يداه، من كفر لخالقه ، ونكران لنعمه عليه .

وتقليب الكف - فضلاً عما يحويه من صورة جمالية - فله قيمة معنوية كبيرة تفصح عن مشاعر صاحب الجنتين ، وعمق أسفه ومرارته على فقد الذي فقد جنتيه وما أنفقه عليها ، وكذلك

(١) - التحرير والتنوير ٣٢٤/١٥

(٢) - جامع البيان ٢٥/١٨ ، الكشاف ٧٢٣/٢ ، المحرر الوجيز ٥١٨/٣ ، تبصير الرحمن وتيسير المنان ٤٤٧/١

(٣) - تفسير القرآن العظيم ١٥٩/٥

(٤) - بحر العلوم ٣٤٨/٢ ، معالم التنزيل ١٧٣/٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٤٠٨/١٠ ، تفسير القرآن العظيم ٣١٨/٢

يكشف المقابلة بين حال الجنتين عندما كانتا محفوفتين بالزرع والأعشاب والنخيل والثمار ، وكيف أصبحتا خاويين موحشتين (١)

وهنا يرجع للظالم عقله ، ويعرف أن الولاية والقدرة لا تكون إلا لله - سبحانه وتعالى - وأن الثواب ثوابه والخير منه - سبحانه - وبيده الأمر كله ، ويظهر ندمه وأثر خاتمة أعماله عليه ، وفي هذا المثل عظة وعبرة لمن تؤثر فيه العظات وتنفعه الآيات .

وجاءت الآية الأخيرة ؛ لتبين أن الله مع المؤمنين بنصره وتأييده ؛ ولتنبه الناس أن النصر بيد الله - سبحانه وتعالى - وأن ما عنده هو الأفضل ثواباً وعاقبةً .

وكذلك سيقى للتذكير والعبرة ، وبيان شرف الإيمان وفضل التقوى ، والاعتماد على الله - تعالى - والتمسكن والتواضع والتباعد عن التعاضم ، والتنديد بالشرك بالله ، وجحود القيامة وإنكار البعث والنشور ، وكفر النعمة ، وذم الكبر والتفاخر ، والإعجاب بالمال والمتاع ، وغير ذلك من العبر فياها من قصة وياله من مثل " (٢)

وواضح من المثل صلاحيته لكل زمان ومكان ، وأنه وما فيه من معالجة روحية مستمر المدى بالنسبة لكل موقف مماثل بين كافر ومؤمن (٣) وبمثل هذه الأحداث يعتبر العقلاء ويتعظ السعداء .

(١) _ دراسات فنية في قصص القرآن ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٢) _ كتاب دلائل التوحيد انطلاقاً من الكون ص ١٨١

(٣) _ التفسير الحديث ٧٠/٥

المطلب الرابع : التمثيل بها لتقريب الأمر الغيبي :

مرّ في مطلب سابق التفكير بأصل الشجرة التي هي الزقوم على قول أغلب المفسرين ، وكيف أن الله - سبحانه وتعالى - جعلها فتنةً للكفار واختباراً ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من عاند وكابر وجادل من نقص عقله بعدم إمكانية بقاء الشجرة وسط النار بدون أن تأكلها ، متناسين قدرة الله - تعالى - على الخلق وحكمته وعلمه الشامل وتقديره - سبحانه وتعالى - وفي هذا المطلب : يشبه

الله الشيء المحسوس بالمتخيل ، كما في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ ۙ

لَهُمْ عَلَيْهَا شُوبًا مِنْ حَمِيمٍ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ٦٨ ﴾ (١)

والتشبيه ضربان : حسن وقبيح : " فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بياناً ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك " (٢)

شبهه - سبحانه - طلع الشجرة برؤوس الشياطين ، واختير الرأس من بين سائر الجسد ؛ لأنه أظهر ما فيه ، وأدل شيء على حسن الشيء أو قبحه وبشاعته .

وطلع الشجرة هو حملها الذي يطلع منها والطلع في الحقيقة اسم لثمر النخيل في أول بروزه ، وهنا استعارة إما لفظية فيكون وجه الاستعارة مجرد الطلوع والظهور ، أو معنوية إذا كان يشبه الطلع شكلاً ولوئاً (٣)

ووصف ثمرها الذي يطلع منها كأنه رؤوس الشياطين ، وما هذا التشبيه إلا لتأكيد بلوغها الغاية في القبح والبشاعة في النفوس وهو من تشبيه المعقول بالمعقول ، والمقصود منه كما قال ابن عاشور : تقريب حال المشبه فلا يمتنع كون المشبه به غير معروف ولا كون المشبه كذلك (٤)

(١) - سورة الصافات الآيات ٦٢-٦٨

(٢) - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢٨٧/١ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ٣٨٣/١

(٣) - الكشاف ٤/٤٦ ، غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٥/٥٦٢ ، مفردات غريب القرآن ١/٣٠٦ ، كتاب الطاء ، مادة (طلع)

(٤) - التحرير والتنوير ٢٣/١٢٤

وهذا الوصف المنفر يدعو الناس لتجنب مصير من هي طعامه - رغماً عنه - وذلك من العذاب، فإذا كان الطعام كريهاً ، يزيده كراهةً شكله المنفر ، فما دام حيًّا فهو يحتاج طعام ، ولن يجد غير هذه الشجرة التي تزيد جوعه وعطشه .

وبعد أن وصف طعامهم البشع وصف - سبحانه - شرابهم بصفات منفرة أيضاً ، فإن لهم عليها لشوباً من حميم ، والشوب : أصله مصدر شاب الشيء بالشيء إذا خلطه به (١) ويطلق على الشيء المشوب به إطلاقاً للمصدر على المفعول كالخلق على المخلوق ، وكلا المعنيين محتمل هنا (٢)

ومعنى الآية لهم شراب ممزوج بماء شديد الحرارة (٣) فيمزج الزقوم بالحميم ؛ ليجتمع لهم مرارة الزقوم، وحرارة الحميم تغليظاً لعذابهم وتشديداً لبلائهم (٤)

وجاء تفصيل الشجرة أيضاً في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ (٥)

فهي كالمهل الذي يغلي في البطن ، والمهل هو : دُرْدِيُّ الزيت ، كما قال ابن عباس وغيره (٦) ، وقيل : ما أذيب من النحاس والرصاص (٧) فتغلي في بطونهم كغلي الماء بحرارته الشديدة . والمراد من تشبيهه طلوعها برؤوس الشياطين ، أقوال هي :

-
- (١) _ معاني القرآن للفراء ٣٨٧/٢ ، مفردات غريب القرآن ٢٧٠/١ ، كتاب الشين ، لسان العرب ٥١٠/١ ، مادة (شوب) ، المعجم الوسيط ٤٩٩/١
- (٢) _ التحرير والتنوير ١٢٥/٢٣
- (٣) _ غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٧٢ ، مفردات غريب القرآن ١٣٠/١ ، كتاب الحاء ، غريب القرآن لابن الملقن ص ٣٣١
- (٤) _ النكت والعيون ٥٢/٥ ، وينظر : التخويف من النار ص ١٤٧
- (٥) _ سورة الدخان ٤٣-٤٦
- (٦) - تفسير ابن عباس ص ٨٠١
- (٧) _ مجاز القرآن لأبي عبيدة ٤٠٠/١ ، مفردات غريب القرآن ٤٧٦/١ ، نفس الصباح في غريب القرآن ٤٦٥/١ ، تحفة تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ص ٢٤٩

أنه - سبحانه - شبهها برعوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وهو الأقوى والأولى عند ابن كثير غيره (١) كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره رعوس الشياطين فشبه المحسوس بالمتخيل وإن كان غير مرئي ؛ للدلالة على أنه غاية في القبح ، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك (٢) والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب ، منكر الصورة ، قبيح الخلقة ، قالوا : إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا : إنه ملك (٣) وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات ، رعوسها بشعة المنظر .

وقيل: جنس من النبات ، طلعه في غاية الفحاشة (٤) .

وأياً كان المراد بالتشبيه ، فهو تشبيه مناسب وواقع في أتم مواقعه ، كما أشار البقاعي بقوله : وهذا المثل واقع في أتم مواقعه سواء كان الشيطان عندهم اسماً للحية أو لغيرها ، لأن قبح الشياطين وما يتصل بهم في أنهم شر مخصص لا يخلطه خير مقرر في النفوس ، ولهذا كان كل من استقبح منظر إنسان أو فعله يقول : كأنه شيطان ، كما انطبع في النفوس حسن الملائكة وجلالتهم فشبهوا لهم الصور الحسان ، ولذلك سميت العرب ثمر شجر معروف عندهم وهو شجر خشن مر منتن منكر الصورة بهذا الاسم (٥) .

وكل الأوجه المحتملة في تفسير طلع شجرة الزقوم تجمع سمات القبح والفرع والبشاعة ، وإن تكن غير واضحة وضوح النبات والشجر والحيات ، وهذا الغموض يضيف عليها مزيداً من التخويف (٦) .

فهي صورة ذهنية معقولة ومتخيلة للمخاطب ، ولكنها حقيقية وموجودة كما أخبر عنها المتكلم . ولعل هذا التشبيه هو الذي حدا بأبي عبيدة إلى تأليف كتابه (مجاز القرآن) كما نُقِل

(١) _ تفسير القرآن العظيم ٢٠/٧ ، وينظر : غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٥٦٢/٥ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٥٢٦/٣ ، التفسير الكبير ٣٣٧/٢٦

(٢) _ إرشاد العقل السليم ١٩٤/٧ ، فتح القدير ٣٩٧/٤

(٣) _ التفسير الكبير ٣٣٧/٢٦

(٤) - الأوقال في شجرة الزقوم ، ينظر : الكشف والبيان ١٤٦/٨ ، بحر العلوم ١٣٥/٣ ، معالم التنزيل ٤٢/٧ ، الكشف ٤٦/٤ ، التفسير الكبير ٣٣٧/٢٦ ، البحر المحيط ٣٤٨/٧ ، الدر المصون ٣١٤/٩ - ٣١٥ ، تفسير القرآن العظيم ٢٠/٧

(٥) _ نظم الدرر ٣١٥/٦

(٦) _ إعراب القرآن وبيانه ٢٦٦/٨

المطلب الخامس : التمثيل بها للإشادة بالمدوح :

الأمثال أسلوب بارع لمدح من ضرب له المثل ، ومن ذلك ما وصف به الله - سبحانه وتعالى - النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضوان الله عليهم - في التوراة والإنجيل ، في قوله - تعالى - ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَثَرَ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)

في هذه الآية الكريمة وصف الله - سبحانه وتعالى - حال النبي محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - بصفات عجيبة تجري مجرى الأمثال لغرابتها ، في التوراة والإنجيل ، فأما صفتهم بالتوراة فهي : الشدة على الأعداء ، ورحمتهم ببعض ، وكثرة عبادتهم ، وإخلاصهم العبادة لله وحده وطلب رضاه وجنته .
ومن صفاتهم تعرف صفات المجتمع المثالي ، فهو مجتمع مؤمن ، عابد لربه ، متراحم فيما بينه ، مجاهد شجاع ضد أعداء الله (٣)

(١) _ روى أبو عبيدة قصة لطيفة كانت سبباً في تأليفه كتابه المجاز ، جاء فيها أنه قدم إلى بغداد مدعواً من الفضل ابن الربيع سنة ثمان وثمانين ومائة ، فلما كان عنده دخل رجل له هيئة ، فأجلسه بجانبه ، وقال له : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه وقال لي : إني كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هات . قال : قال الله - تعالى - { طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ } ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عُرف مثله ، وهذا لم يُعرف . فقلت : إنما كلّم الله تعالى العرب على قَدَرِ كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

وفيه : وَمَسْنُونَةٌ رُزُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالٍ . وهم لم يَرَوْا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمرُ الغول يَهُولُهُمْ أُوْعِدُوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، يقول أبو عبيدة : وَعَزَمْتُ من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه ، وما يُحتاج إليه مِنْ عِلْمِهِ ، فلَمَّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سَمَّيْتَهُ المجاز . ينظر : تاريخ بغداد ٢٥٤/١٣ ، معجم

الأدباء ٦/٦-٢٧٠٦-٢٧٠٧

(٢) _ سورة الفتح ٢٩

(٣) _ الأمثال القرآنية ، تأملات للميداني ص ٧٤

وأما صفتهم في الإنجيل يظهر فيها مظهر نماء الدولة الإسلامية وتكاثرها وتماسكها ووحدة بنائها ، بدءاً من النواة الأولى لهذه الدولة الناشئة ، والتي اجتمعت حول سيد الخلق - عليه الصلاة والسلام - حتى تكاثرت ونمت شيئاً فشيئاً ، فمثلهم كزرع أخرج شطأه ، أي : أخرج فراخه (١) فأزره أصله من المؤازة وهي المعاونة ، أي أعانه وقوّاه (٢) في الشباب والاستواء (٣) فالمؤازرة من الزرع للفراخ ، كما قال الرازي : " فأزره : يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء ، وهو أقوى وأظهر " (٤)

فالنبات يظهر أول أمره ضعيفاً رقيقاً ، ثم ينبت بعضه حول بعض فيقوي بعضه بعضاً ، ويشد أزره ، فيغلظ ويتكامل ، ويصبح قوياً ثابتاً ، يعجب أهل الزراعة والعارفين بها . وفي هذا مبالغة في مدحه وإظهار السرور في أمره ، وإذا أعجبهم وهم في غاية العناية بأمره والتفقد لحاله والملابسه له ومعرفة معانية كان لغيرهم أشد إعجاباً (٥) فكذلك النبي - صلى الله عليه وسلم وصحبه كانوا أول أمرهم ضعافاً ثم ازدادوا كثرة مع مرور الأيام حتى ملكوا الدنيا .

و هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم ، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه ، من إقامة دين الله والدعوة إليه (٦)

(١) _ مجاز القرآن ٢/٢١٨ ، مفردات غريب القرآن ١/٢٦١ ، كتاب الشين ، مادة (شطا) ، تاج العروس ١/٢٨١ ، مادة (شطأ)

(٢) _ قاموس القرآن ١/٤٨٧ ، لسان العرب ٤/١٦ ، مادة (أزر) ، المصباح المنير ١/١٩

(٣) _ وهذا يعني أن الزرع أو النبات الأصلي يقوم بتقوية الشطء الذي يخرج ، وقد أثبت العلم الحديث هذه النتيجة ، فقال العلماء : إن الشطء عند خروجه من الأصل (الأم) يعتمد اعتماداً كلياً عليه في امتصاص العناصر الغذائية اللازمة لبناء الخلايا حتى تتكون عليه ثلاث أوراق خضرية ، وأربعة أو خمسة جذور ، وهذا ما أشار إليه القرآن قبل أربعة عشر قرناً . باختصار من إعجاز عالم النبات ، نبات المحاصيل ص ٤٢-٤٣ ، وتنظر ، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، مقالة بعنوان : كزرع أخرج شطأه ، د. نظمي أبو العطا .

(٤) _ التفسير الكبير ٢٨/٨٩

(٥) _ نظم الدرر ٧/٢١٧-٢١٨

(٦) _ تيسير الكريم الرحمن ١/٧٩٥

وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قام وحده ، ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرع (١)

والتشبيه في الآية من أوقع التشبيهات ، وأوضحها ، وأبلغ التمثيلات وأفصحها (٢) في الجمع بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة : إيماء إلى أصالة آرائهم ، وحكمة عقولهم ، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد ، فلا تغلب على نفوسهم محمداً دون أخرى ، ولا يندفعون إلى العمل بالجلبلة وعدم الرؤية (٣) فالوصفان مترابطان ، فإذا وجدت الرحمة فيما بينهم ، وجدت الشدة والقوة في مواجهة عدوهم ، فالخلاف والتفرق يشغل الإنسان والمجتمع فلا يقوى على مواجهة الأعداء .

وأشار القرآن الكريم في آيات أخرى إلى وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في التوراة والإنجيل ، ومعرفتهم بنعوتهم وذلك في آيات منها ، قوله - تعالى - ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) وقوله - تعالى - ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥)

فالصفات التي ذكرت في كتبهم مطابقة له عليه الصلاة والسلام ، وكذلك صفات أتباعه ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " فالصفات والنعوت والعلامات المذكورة عندهم منطبقة عليه حذو القذة بالقذة بحيث لا يشك من عرفها ورآه أنه هو كما عرفه قيصر وسلمان (٦) بتلك العلامات المذكورات التي كانت عنده من بعض علمائه ، وكذلك هرقل عرف نبوته من العلامات التي سأل

(١) _ الكشاف ٤/٣٤٨ ، مدارك التنزيل ٤/١٣٢ ، وينظر : معاني القرآن للفراء ٣/٦٩

(٢) _ الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢١٢

(٣) _ التحرير والتنوير ٢٦/٢٠٥

(٤) _ سورة البقرة ١٤٦

(٥) _ سورة الأنعام الآية ٢٠

(٦) _ سلمان الفارسي الصحابي الجليل ، و قصة إسلامه في : المعرفة والتاريخ ٣/٢٩٦ ، سير أعلام النبلاء ١/٥٣٢ ،

البداية والنهاية ٢/٣٨٠

عنها أبا سفيان فطابقت ما عنده فقال إن يكن ما تقول حقًا فإنه نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين " (١)

وهذا المثل المضروب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام في غاية البيان للأسس القوية التي قام عليها المجتمع المسلم الأول ، وكيف ازداد قوةً يوماً بعد يوم حتى أغاظ الكفار ، كحال الزرع الذي أخرج فروعه التي دعمته وقوته حتى اشتد وقوي في مواجهة الآفات فلا يضعف مهما صادفه وصار بجماله وقوته مصدر فخر واعتزاز لصاحبه ومصدر غيظ للكفار .

(١) _ هداية الحيارى ٤٣/١ ، البداية والنهاية ٢٩٩/٤ ، والأسئلة كاملةً أخرجها البخاري في صحيحه ، ح ٧ ، كتاب : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ، وقول الله _ جل ذكره _ {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده } ص ١ .

المطلب السادس : التمثيل بها لبيان حقيقة الدنيا :

تتوالى الأمثال القرآنية بصورها المحسوسة المشاهدة في حياة الناس تفرع القلوب ، وتوقظها من غفلتها وتدعوها للاعتبار ؛ فيكون التوجيه أبلغ وأمكن في النفس البشرية بصورته القريبة إلى الأذهان ، ومن هذه الأمثال القرآنية ما جاء لبيان حقيقة الدنيا بصورة صحيحة وأنها دار ممر لا مقر ، و متاع زائل غير دائم ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، ومن هذه الأمثال ، قوله -تعالى- ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾

جاء هذا المثل بعد مثل صاحب الجنتين الكافر وصاحبه المؤمن مباشرة وكيف أصبحت عاقبته وكيف تحولت حالتها ، وما نتيجة عمل كل منهما ، وكيف أنه ينبغي ألا يغتر بالنعيم المؤقت لأنه هبة من الله -تعالى- وكان ذلك المثل لحالة شخص واحد ولو تأمل المتأمل لرأى أنه يعم الدنيا كلها فهو مثال مصغر لحال الحياة الدنيا .

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الله - سبحانه وتعالى- مثلاً للمفرطين في حب الحياة الدنيا ، ويبين لهم سرعة انقضائها وتقلبها ومدى اغترار الناس بها وبالسعادة التي كانوا فيها بهيئة ماء نزل من السماء كالماء الذي نزل من السماء واختير ماء السماء ؛ لأنه ليس للإنسان يد فيه سواء نزوله أو كثرته أو تقدير الري منه ، فاختلط بنبات الأرض فأنبت النباتات المختلف الأصناف والطعوم ، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من آب وقضب وغير ذلك ، واحضرت الأرض وأصبحت زاهية الألوان ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وهو كمال حسن الشيء ، ومنه قيل للذهب زخرف ، ثم كل شئ مزين مزخرف (٢) وازَّيَّنَتْ ،

(١) - سورة يونس الآية ٢٤

(٢) - غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٩٥ ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥/٣ ، معاني القرآن للنحاس ٢٨٧/٣ ، تحفة

الأريب ص ١٢٥ ، بحجة الأريب ص ١٠٨

أي : تزينت الأرض بالنبات وحسنت وبهجت والزين : المصدر ، والزينة الاسم (١) وَأَزْيَنْتُ كلام فصيح (٢)

فمن قرأ و (أَزْيَنْتُ) فالمعنى وتزينت ، والقراءة بالتشديد أجود في العربية ، وقُرئت (أَزْيَنْتُ) بالتخفيف ، أي جاءت بالزينة (٣) .

وفي قوله -تعالى- ﴿ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنْتُ ﴾ وهذه الآية بدیعة اللفظ ، قال أبو حيان : " جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون ، فاكتست وتزينت بأنواع الحلى ، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة ، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة الزخرف وهو الذهب ، لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس . وازينت أي : بناتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار (٤)

ولا شك أن الأرض إذا كانت بهذه الصورة البديعة يعظم الأمل فيها ورجاء الانتفاع بها بقطف ثمارها والتمتع بخيراتها ، ثم يصور القرآن الكريم ما أصاب الأرض تصويراً معجزاً بعد أن أتاها أمر الله وتقديره بصاعقة أو برد أو ريح أو نحوه ، فجعلها حصيداً أي : مقطوعاً مجذوداً من منابته (٥) كأنها لم تكن بالأمس قائمة غانية ، وهذه هي صورة الدنيا فهلا ينتبه الغافلون ويخرجوا من غفلتهم وانخداعهم بازدهار الحياة الدنيا فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتةً فالحياة مهما بلغت من المظهر البهي ، والزينة الباهرة فليس لها بقاء ومآلها إلى الفناء .

فأراهم الله -تعالى- عاقبة أمر الدنيا وفنائها بما عاينوا من انقضاء أيام الربيع كيف تلاشت زينتها وبهجتها ، كذا حال الدنيا (٦)

(١) _ معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥/٣ ، معجم مقاييس اللغة ٤١/٣ ، مادة (زين) ، المخصص ٣٧٥/١ ، لسان

العرب ٢٠١/١٣

(٢) _ الكشاف ٣٤٠/٢

(٣) _ معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥/٣ ، المحرر الوجيز ١١٤/٣ ، زاد المسير ٢١/٤ ، البحر المحيط ١٤٥/٥

(٤) _ البحر المحيط ١٤٥/٥

(٥) _ مجاز القرآن ٢٧٧/١ ، الغريبين في القرآن والحديث ٤٥٢/٢ ، كتاب الحاء ، مادة (حصد)

(٦) _ الأمثال من الكتاب والسنة للترمذي ص ٢١

و هذا المثل فيه " العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ : حقير وإن طالَّت مدته وصغير وإن كبر قدره " (١)

ذهب أكثر المفسرين على أن المشبه هو : حال الدنيا ، والمشبه به الماء الذي ينبت النبات (٢) ، وبعضهم ذهب إلى النبات الذي يكسو الأرض خضرةً ، وبعضهم ذهب إلى أن المشبه به الأرض والزينة التي تظراً عليها تدل على قدرة الله على البعث والحساب (٣)

غير أن بعض المفسرين وأهل البيان يرى أن المشبه به ما بعد الكاف كله أي ما يفهم من الكلام ، فالتشبيه هنا تشبيه مركب (٤) (٥)

قال النيسابوري (٦) : والصحيح عند علماء البيان أن هذا التشبيه من التشبيه المركب (٧) إذ شبه الحياة الدنيا بالهيئة الحاصلة من عدة أمور هي الماء الذي ينزل على الأرض التي توفرت فيها شروط الإنبات فاختلط الماء بالنبات فتحرك النبات ونما حتى بلغ أوج الازدهار والكمال وبها مجتمعةً يكتمل بناء المثل .

ومن بديع هذا التشبيه : تضمنه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين ، بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزءٍ من الحالين المتشابهين ، ولذلك أطنب وصف الحالين من ابتدائه (٨) .

(١) - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، النكت في إعجاز القرآن ص ٨٣ ، وينظر بحث : الإعجاز البلاغي في رؤية الرماني ص ٢٣٦ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) _ الكشاف ٢/٣٤٠ ، المحرر الوجيز ٣/١١٤ ، زاد المسير ٤/٢١ ، الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٢٧ ، لباب التأويل ٣/١٨٣ ، تفسير القرآن العظيم ٤/٢٦٠ ، البحر المديد ٢/٤٦٣ ، تفسير الكرمي الرحمن ١/٣٦١

(٣) _ التفسير الكبير ١٧/٢٣٧ ، البحر المحيط ٥/١٤٤ ، نظم الدرر ٣/٤٣٣

(٤) _ وهو : أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض . ينظر : الإتيان ٤/١٥٣٨ ، وينظر : اللباب في علوم علوم الكتاب ٥/٤٨٣ - ١٠/٢٩٩ ، التحرير والتنوير ١/٣٠٤

(٥) _ الكشاف ٢/٣٤٠ ، إرشاد العقل السليم ٤/١٣٧ ، فتح القدير ٢/٤٣٧

(٦) _ هو : الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ، نظام الدين : مفسر، له اشتغال بالحكمة والرياضيات. أصله من قم ، له كتب منها : (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) . ينظر : طبقات المفسرين للأندروني ١/٤٢٠ ، الأعلام ٢/٢١٦ ، معجم المؤلفين ١/٥٨٥

(٧) _ غرائب القرآن ٣/٥٧٤ ، وينظر : مفتاح العلوم ص ١٥٠ ، الزيادة والإحسان ٥/٤٧١ ، نهاية الإيجاز ص ٢٠٤

(٨) _ التحرير والتنوير ١١/١٤١

و أشار الجرجاني (١) إلى ما بالمثل من بديع التشبيه في كثرة الجمل التي تفيد معنى جملة واحدة ، فيقول : " حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير ان يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذف منها جملة واحدة من أى موضع كان أدخل ذلك بالمعزى من التشبيه " (٢)

والتشبيه في الآية أحسن موقفاً ، وأبلغ معنى من جميع ما وصف به حال الدنيا وميل النفوس إليها (٣) وهو من أبلغ التشبيه والقياس (٤) ونظير هذه الآية الكريمة قوله -تعالى- ﴿ وَأَصْرَبَ لَهُمْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٥ ﴾ (٥)

وقوله -تعالى- ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَسْفَلَ الْكُفَّارِ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْغُرُورِ ۝٦ ﴾ (٦)

وهذان المثلان كسابقهما ، ففيهم تحذير من الدنيا وزينتها ، وأنها متاع زائل لا محالة ، وأن انقضاءها كسرعة انقضاء وتفرق النبات البهيج ، وتشير كذلك إلى قانون إلهي ، هو : زوال وفناء كل ما في الدنيا .

(١) _ هو عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ، شيخ العربية ، كان ورعاً تقياً ، من مصنفاته : إعجاز القرآن و العمدة ، وغيرها ، توفي سنة ٤٧١ . ينظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٢/١٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٥ ، طبقات المفسرين ٣٣٦/١

(٢) _ أسرار البلاغة ٨٧/١ ، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٦/٧

(٣) _ الجمان في تشبيهات القرآن ص ٦٩

(٤) _ إعلام الموقعين ١٥٣/١

(٥) _ سورة الكهف الآية ٤٥

(٦) _ سورة الحديد الآية ٢٠

هذه الأمثال المضروبة للحياة الدنيا تتحد المعاني وان اختلفت الألفاظ ، وتتحد العناصر المستخدمة في التشبيه من المطر النازل من السماء ، ونبات الأرض ، ثم تصوير المشهد الحسي في من تبدل حال النبات من حال إلى حال وكيف زال وتشمم ، كذلك الدنيا فهي زائلة جميعها بكل ما فيها من لعب و لهو وزينة وتفاجر .

وهي سريعة الزوال والفناء كالسرعة الخاطفة التي يمر بها عرض المثل ، بعد وصف مشهد الخصب والرواء والاطمئنان ، عُرضَ مشهد الفناء بصورة قصيرة باستخدام النسق اللفظي في ثلاث جمل قصار ، وبالتعقيب الذي تدل عليه (الفاء) - ﴿ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ ؛ لتوكيد قصر الحياة ، وفنائها سريعا مثل النبات الذي ما إن يطلع حتى يبس ويصير هشيمًا . فما أقصرها حياة ، وما أهونها على الله العلي القدير ^(١) وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ^(٢)

ومن بلاغة القرآن هذه التشبيهات التي يصور بها فناء العالم الذي نراه مزدهراً أماماً عامراً بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده ، فيجد القرآن في الزرع يرتوي من الماء فيصبح بهيجاً نضراً يعجب رائيه ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ويصبح هشيمًا تذروه الرياح ، شبهاً لهذه الحياة الدنيا، وقد أوجز القرآن في هذا التشبيه وأطنب ؛ ليستقر معناه في النفس ويحدث أثره في القلب ^(٣)

فالدنيا دار غرور ولعب وتفاجر وزينة سرعان ما تفتى وتزول فينبغي ألا تشغل المسلم عن آخرته ، وقد جاءت أحاديث كثيرة تبين فناءها وسرعة زوالها ، منها ، قوله -صلى الله عليه وسلم- : " والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع " ^(٤)

(١) _ الأمثال والمثل والتمثل والمثالات في القرآن الكريم ص٥٢٩ ، وينظر : البيان في مداخل الشيطان ص ١٧٤-١٧٦ ،

ذم الدنيا ص١٦ - ١٧

(٢) - لباب التفسير ٢ / ٣٩

(٣) _ من بلاغة القرآن ص٢٠٩

(٤) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب : فناء الدنيا ، وبيان الحشر يوم القيامة ، ح

ح ٧١٩٧ ، ص ١١٧٣ .

فحبها من المهلكات ، فالعبرة بهذه الأمثال لفت الأنظار إلى حقيقة الدنيا و تزهد الناس فيها وفي البهجة التي تحدثها فمهما بلغت فهي زائلة فانية ، والمعتمد عليها معتمد على أوهى من بيت العنكبوت .

وقبل ختام هذا المطلب أشير إلى تضمن هذه الأمثال لمعان كثيرة تصور الحياة الدنيا والعلاقة بينها وبين الآخرة ، منها :

- ١ - أنها سريعة الانقضاء كسرعة مرور كلمات هذه الأمثال .
- ٢ - التلازم في ذكر الآخرة مع الدنيا ، وهذا الذكر هو الضابط للإنسان في حياته الدنيا ؛ فهي دار ممر .
- ٣ - أن الدنيا ذاهبة ، والآخرة خالدة .
- ٤ - التفاوت بين الناس في الأخذ من الحياة الدنيا : فمنهم من تشده إليها فيظلم نفسه وغيره ، ومنهم من تجاذبه والنهاية لخاتمة حياته ، ومنهم من يفهم الدنيا على حقيقتها فيقدر أعماله ، ويعمر الدنيا وفق شرع الله ، فيفوز بالآخرة وهذا هو الفريق الفائز (١)
- ٥ - الغاية من معرفة حقيقة الحياة الدنيا ليس الانصراف عنها أو نفض اليد منها ، لكن عدم الاغترار بها ، والأخذ منها بتوازن واعتدال ، وليعلم الإنسان أن حياته الآخرة مرتبطة بما قدمه في هذه الحياة الدنيا ، وأن له فقط فرصة واحدة في الحياة والعمل فليغتنمها ولا يفرط فيها .
- ٦ - إخبار الله - سبحانه وتعالى - عباده عن حال الدنيا وآفاتهما يقابله دعوة إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء ، وعمَّ - سبحانه - عباده بالدعوة إليها عدلاً ، وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً (٢)

المطلب السابع : التمثيل بها للحث على الكلمة الطيبة :

ضرب الله - سبحانه وتعالى - للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ذات المنافع الكثيرة ، والأصل الثابت ، والعلو السامق ، قال - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

(١) _ دلالات الأمثال في القرآن ص ١٣٥-١٣٦ ، التصور القرآني للعلاقة بين الدنيا والآخرة ص ٤٣

(٢) _ عدة الصابرين ص ١٤٤

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوِّقِيَ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

المثل : المثل : متحرك الوسط ، الأصل فيه أنه النظير والمشابه ، والمثل : عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر ، بينهما مشابحة ؛ ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور . وقيل : هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر (٢)

فالاستفهام في الآية يعني : انظر بقلبك أيها الناظر - نظر تفكر عميق ، وتدبر دقيق ، كيف ضرب الله مثلاً : أي شبيهاً بين أمرين وهما : الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة .

الكلمة الطيبة هي : شهادة التوحيد (٣) كما قال ابن عباس ، وما يتفرع عن هذه الكلمة : كالدعوة إلى الله ، وكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة التعليمية والتربوية ، وغيرها فهي مجمع كل كلمة طيبة .

أما الشجرة الطيبة فهي أية شجرة يحصل منها الخلق النفع في كل جزء منها ، ويتصل عطاؤها ، ويقل الجهد المبذول من أجلها .

وفائدة الاستفهام هنا : هو الإلفات إلى هذا المثل ، وتدبره وتأمله ، والعرب قديماً جعلت الأمثال عيون كلامها ، وشاعت بينهم ؛ لما فيها من التأثير على النفوس والعقول . وفي تعيين هذه الشجرة ثلاثة أقوال :

الأول : أنها النخلة ، وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر (٤) عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، وأنس بن مالك ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وآخرون .

الثاني : أنها شجرة في الجنة ، وهذا مروى عن ابن عباس .

(١) - سورة إبراهيم الآيات ٢٤-٢٥

(٢) - مفردات غريب القرآن ٤٦٢/١ ، الكشاف ٧٢/١ ، مدارك التنزيل ٤٤/١ ، لباب التأويل ٤٠/٤ ، نظم الدرر ١٨٣/٤

(٣) - الأسماء والصفات ٢٧٣/١ ، وينظر : تفسير القرآن العزيز ٣٦٨ /٢ ، تفسير ابن رجب ٥٨٨/١

(٤) - هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، ولد سنة ثلاث من الهجرة ، أسلم مع أبيه ، وهاجر عرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- ببدر فاستصغره ، ثم بأحد فكذلك ، ثم بالخندق ، فأجازه وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة ، وهو من المكثرين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- توفي بمكة سنة ٧٣ . ينظر : أسد الغابة ٣٤٧/٣ ، الإصابة في تمييز الصحابة ١٠٧/٤ ، شذرات الذهب ٨١/١

الثالث : أنها المؤمن ، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عمله السماء ، وقوله : تؤتي أكلها كل حين فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار ، وهذا مروى - أيضاً - عن ابن عباس (١)

ورجح الطبري أنها النخلة ؛ لصحة الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٢) وخرج الترمذي (٣) من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع

فيه رطب ، فقال : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

﴿ ٢٤ ﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ قال : هي النخلة ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ - قال - هي الحنظلة " (٤)

ووصفت هذه الشجرة الطيبة بثبات أصلها الذي لا يزول ولا تستطيع العوامل الطبيعية أن تجثته أو تقتلعه فجدوره العميقة تمتد إلى باطن الأرض فتزداد امتداداً إلى باطن الأرض وساقها إلى ظاهر الأرض فيأتي الثمر في غاية المطلوب منه : حلاوةً و ثمرًا ، فهي دائمة النفع ، كثيرة البركة في كل أجزائها بتدبير وحكمة خالقها - سبحانه وتعالى - .

والمراد بكونها تؤتي أكلها كل حين أقوال منها : أي كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في

جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل : المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين ، وقيل : كل ستة أشهر إلى غير ذلك من الأقوال (٥)

وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ؛ لأن الخبر عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت

(١) - جامع البيان ٥٦٧/١٦ وما بعدها ، معاني القرآن للنحاس ٥٢٦/٣ ، حقائق التفسير ٣٤٤/٢ ، المحرر الوجيز ٣٣٥/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٥٩/٩ ، تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٤ وما بعدها ، إرشاد العقل السليم ٤٤/٥ ، تفسير ابن مسعود ص ٣٦٢

(٢) - جامع البيان ٥٧٣/١٦

(٣) - هو : محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك ، الترمذي ، أبو عيسى ، ولد سنة ٢٠٩ ، حافظ ، إمام ، بارع ، صنف الجامع وغيره من المؤلفات النفيسة ، اختلف فيه ، فقيل : ولد أعمى ، والصحيح أنه أضر في كبره بعد رحلته وكتابته العلم ، كان يضرب به المثل في الحفظ. هذا مع ورعه وزهده. ينظر : تهذيب التهذيب ٣٤٤/٩ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٣ ، البداية والنهاية ٦٤٧/١٤ ، شذرات الذهب ١٧٤/٢

(٤) - أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب : التفسير ، باب : ومن سورة إبراهيم - عليه السلام - ح ٣١١٩ ، ص ١٩٦٨ ، ورواه الطبري موقوفاً عن أنس - رضي الله عنه - ٥٨٣/١٦ ، وابن كثير في تفسيره ٤٩٤/٤

(٥) - أحكام القرآن لابن الفرس ص ٢٣٧

يقع لقليل الزمان وكثيره " (١)

ولعل النخلة أطيب الأشجار وأكرمها ، فهي من الأشجار المعمرة ، عميقة الجذور طيبة المنظر والشكل والرائحة والثمرة والمنفعة ، وهي باسقة في أعلاها تعطي أكلها أي ثمرها الذي يؤكل منها كل حين بلحاً وبسراً ومنصّفاً ورطباً وتمراً ، وفي الصباح والمساءً بقدره الله - تعالى - وتسخيده ، فتشبه كلمة التوحيد والإيمان في كونها تثمر للعبد أعمالاً صالحة كل حين ، فهي راسخة في قلبه فتثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة فكل عمل صالح مرضي لله - عز وجل - فهو ثمرة هذه الكلمة .

فالمؤمن شبيه بالنخلة وهذا مروى عن ابن مسعود ، وابن عباس - رضي الله عنهما - (٢) وروى عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبدالله : ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال : هي النخلة " (٣)

وعلق ابن حجر عند الحديث السابق ، بقوله : " وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام ، وتصوير المعاني ؛ لترسخ في الذهن ، ولتحديد الفكر في النظر في حكم الحادثة ، وفيه إشارة إلى تشبيه الشئ بالشئ لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه ، فإن المؤمن لا يماثله شئ من الجمادات ولا يعادله ... " (٤)

يقول ابن كثير : " والظاهر من السياق : أن المؤمن مثله كمثل شجرة ، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين " (٥)

وتحدث ابن القيم عن صحة قول من فسر المثل بتشبيه شجرة التوحيد بالشجرة الثابتة ، فقال :

(١) - معاني القرآن للنحاس ٥٢٩/٣

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٤

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : الحياء في العلم ، رقم الحديث ١٣١ ، ص ١٤ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة ، رقم الحديث ٧٠٩٨ ، ص ١١٦٧ ، وينظر : فتح الباري لابن رجب ٢٥/١ ، جامع البيان ٥٧٣/١٦ ، تفسير القرآن العظيم ٤٩٢/٤

(٤) - فتح الباري ١٤٧/١

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٤٩٣/٤ ، وينظر البحر المديد ٥٨/٣

" والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن ، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علوًا ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين وإذا تأملت هذا التشبيه رأيتَه مطابقًا لشجرة التوحيد ، الثابتة الراسخة في القلب ، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها " (١)

والشبه بين الكلمة والشجرة شبه حقيقي في : طبيعة الكلمة وطبيعة الشجرة ، وما فيهما من حياة ونماء ؛ فالكلمة تنمو وتمتد وتثمر ، كما تنمو الشجرة وتمتد وتثمر سواء بسواء .
وفي تشبيه المؤمن بالنخلة إشارة إلى أنه يجب على المؤمن أن يعتز بإيمانه ، ويفخر به ، ويرتفع كما ترتفع النخلة في فضاء السماء (٢)

وختم - سبحانه - البيان بهذا المثل بالتصريح بأهمية ضرب الأمثال ، وتقريبها للأذهان والحكمة منها ؛ وهي إرشاد الناس إلى الحق ، وتذكيرهم بآيات الله ، وحثهم على التفكير فيها فيفهموا الشئ بنظيره .
ويفيد هذا المثل في الحث والترغيب في الكلمة الطيبة حتى تؤتي ثمارها معنا ، وحتى نفهمها كما فهمها أسلافنا فزكت نفوسهم ، و أثرت على سلوكهم ، وقاموا بتطبيق ما تضمنته من المثل العليا في جميع المجالات فسادوا الدنيا وكونوا تلك الحضارة التليدة وذلك العز الشامخ الذي سجله لهم التاريخ وسارت به الركبان .

ثم ضرب الله - سبحانه وتعالى - مثلاً للكلمة الخبيثة الضارة فقال - سبحانه - ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ

خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٣)

بعد أن بيّن الله - تعالى - مثل الكلمة الطيبة التي ترتقي بصاحبها إلى مراتب الفلاح والسعادة ، والفوز بالدارين ، شرع يبيّن مثل الكلمة الخبيثة ، فقال - سبحانه - ومثل كلمة خبيثة ، أي : ضارة قبيحة لا نفع فيها ، ولا خير يرجى منها .

(١) - إعلام الموقعين ١/١٧٢

(٢) - النخل في القرآن ص ٢٢٧

(٣) - سورة إبراهيم الآية ٢٦

وهي كلمة الشرك الخبيثة وفروعها كأنواع السلوك المنحرف عن صراط الله المستقيم ، وكالغيبية والنميمة ، وكالكلمة المضلة وغيرها .

أما الشجرة الخبيثة فكل شجرة خبيثة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والثوم ، والكشوت ونحو ذلك (١)

واجتثت : أي اقتلعت من أصلها ، وجثته أي قلعه ، مشتق من الجثة وهي الذات ، والاجتثات : قطع الشيء كله (٢)

فكلمة الشرك تشبه شجرة الحنظل التي وصفها الله - سبحانه وتعالى - بأنها خبيثة ، فلا فائدة منها؛ لذا تستأصل وتقطع من فوق الأرض ؛ لقرب جذورها من الأرض ، وعدم ثباتها ، فلا خير فيها أبداً ، وهذه صفات في غاية الكمال ، فالخبث وصف للمضار ، والاجتثات وعدم القرار وصف للخلو عن المنافع . فكذلك الكلمة الخبيثة ليس لها أصل ثابت في قلب الكافر ؛ لأنها لا تعتمد على دليل ولا حجة صحيحة ولا ثبات ولا قوة فلا خير فيها .

وكذلك الكافر فجميع عمله مردود عليه ولا حجة له ، ولا يرفع عمله فالله طيب لا يقبل إلا طيباً - سبحانه - .

وقد جاء التشبيه الأول مفصلاً ، أما الثاني فجاء مختصراً ؛ لدلالة المثل الأول عليه ، فقد وصف الله الشجرة الطيبة بصفات منها :

رُسوخ الأصل ، وجمال المنظر ، ونماء أغصان الأشجار ، ووفرة الثمار ، ومتعة أكلها . وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى ، وذلك أكمل أحوال التمثيل (٣) وتأثير الكلمة الخبيثة كبير في مضرتها وإفسادها ، ويشمئز العقلاء منها كما يشمئزون من القمامات والأقذار التي تطرح في طرقاتهم ، وتكون بمثابة العثرات من الحجارة وأشجار الشوك التي تعرقل سبيل المارة (٤)

(١) _ تفسير البداية إلى بلوغ النهاية ٣٨١١/٥ ، الكشاف ٥٢٠/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢/٩ ، إرشاد العقل السليم ٤٤/٥

(٢) _ مفردات غريب القرآن ٨٨/١ ، كتاب الجيم ، مادة (جث) ، لسان العرب ١٢٦/٢ ، مادة (جث) ، تاج العروس ١٩٢/٥ ، مادة (جث) ، الترجمان والدليل ص ٣٧

(٣) _ التحرير والتنوير ٢٢٤/١٣

(٤) _ الأمثال القرآنية للميداني ص ٥٧

ويفيد هذا المثل في التنفير والتقبيح من الشجرة الخبيثة الضارة والتي لا خير فيها ، بل الشر والضرر كله يعود على صاحبها ، وعلى جميع المجتمع الذي يرجع له عكس الكلمة الطيبة .

وبعد عرض وبيان المثليين بيّن - سبحانه - مصير أصحاب الكلمتين بقوله - سبحانه -

﴿ يَثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١)

فالثبات من الله للمؤمنين والأمان وتحقيق النصر المنشود والفوز في الدارين لأصحاب الكلمة الطيبة، يقابله الضلال والضياع والخسران المبين لأصحاب الكلمة الخبيثة ، ويفعل الله - سبحانه - ما يشاء فعله من تثبيت من يريد له الثبات وضلال أهل الضلال ، فكل أمر تحت مشيئته وحكمته وتدييره - سبحانه جل شأنه - .

وبالموازنة بين الفريقين وحالهما يتبين الفرق بين كلمتي الحق والباطل ، فكلمة الحق وهي كلمة التوحيد والإيمان قوية ثابتة نافعة للناس ، وظهر ثباتها على أصحابها فهم ثابتون على الدين ولم يجيدوا عنه ؛ لأنهم يرجعون إلى شجرة ثابتة ، أما كلمة الباطل وهي كلمة الشرك أو الكفر فهي ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات ، وهم غارقون في بحر الظلمات ؛ لأنهم اتبعوا غير شرع الله فأضلهم الله .

ولذا كان العبد المؤمن في أشد الحاجة إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات بالجوارح واللسان والفكر المستقيم والإخلاص لسقي غراس التوحيد ، وليظل طيبه صاعداً في السماء من القلوب النقية ، والنفوس الطيبة ، والجوارح التي تخدم ربها ، والألسنة الذاكرة الشاكرة (٢)

من هدايات الآيات :

- استخدام المثل أحد الطرق التربوية الفعالة سيما عند عرضه بطريقة الأمثال القرآنية في أسلوب رقيق يجذب النفوس جذباً ، وبما تمتاز به من نظم معجز مؤثر ينفذ إلى أعماقه ، وبالتالي يحرك في

(١) - سورة إبراهيم الآية ٢٧

(٢) - أمثال ونماذج بشرية من القرآن ص ٢ / ٨٨

الإنسان عاطفته وميوله واتجاهاته نحو الخير والحق ، وهذه كلها مؤثرات إلى طريقة استخدام الأمثال في تحقيق الأهداف التربوية (١)

- ينبغي أن يستفيد المربون من أسلوب الأمثال القرآنية ، فحرص القرآن الكريم على إقناع الفكر بنتائج هذه الأمثال ، وعواقبها يأخذ مجراه في تربية الأجيال تربية عقلية ناجحة ، فالمحاكمة التي يؤول إليها المثل القرآني تبنى على أحكام ، وكل حكم يقوم على إدراك علاقة بين المشبه به ، أو المشبه له ، وبين صفة اتصف بها أو عمل عمله .

وبالجمع بين الإحكام وإدراك العلاقات التي تكون بينها كعلاقة التشابه أو التقابل ، يصل العقل إلى نتيجة (٢)

- الأمثال أحد الأدوات المؤثرة ؛ لإقناع الغير بفكرة ما ، ولهذا ينبغي على الدعاة والخطباء والمربين استخدام الأمثال القرآنية ؛ لترسيخ الأفكار وتعميقها بالنفس .

- تنوع مخاطبة القرآن الكريم للإنسان وكيفية إثارتة ، والتركيز على منفعه والأشياء التي يحتاجها وما يطيب للإنسان منها .

- الأمثال القرآنية تستمد مدلولاتها من عناصر الحياة والبيئة التي يعيش فيها الإنسان ؛ لتكون قريبة من فهمه .

- شدة عناية الإسلام بالإنفاق والبذل ، وتنوع طرق الترغيب فيه والحث عليه والزجر مما ينقص أجره أو يبطله ؛ وكل هذا الاهتمام ينبى عن كمال هذه الشريعة الإسلامية الغراء ، ومدى اهتمامها بالإنسان ، وما ينفعه في دينه ودنياه ، والحد من طمع نفسه البشرية ، وحبها لجمع المال وكنزه ، ومدى عناية الإسلام بالفرد والمجتمع ، وقد عالج القرآن الكريم حب جمع المال وكنزه في النفس الإنسانية من جهتين :

أ - حرضهم على الإنفاق والبذل وتذكيرهم بالأجر والجزاء ومضاعفة الحسنات وإكمال هذا العمل الشريف بعدم إلحاقه من أو أذى ونحوه .

ب - تحذيرهم من الشح والبخل وضرب الأمثال لهم .

(١) _ أسلوب القرآن بين الهداية والإعجاز ص ٢١١

(٢) _ التربية بضرب الأمثال ص ١١٣

- فضيلة اتخاذ الزرع ، وأن هذه الحرفة من أعلى الحرف التي يتخذها الناس ؛ ولذا ضرب الله - سبحانه - بها المثل (١)

ووردت بعض الأحاديث الشريفة التي تحث على الزرع والغرس وتبين أجر فاعلها ، منها : ما ورد في صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ما من مسلم يغرس غرسًا ، أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له صدقة " (٢) .

- تنوع الإنفاق في سبيل الله؛ فسبيل الله - سبحانه وتعالى - كثيرة ، فيشمل الإنفاق المندوب إليه وكذلك ما هو واجب على المسلم .

- حرمان المنفق المرائي والممان من الانتفاع بصدقته ، وعبر - سبحانه - عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال ، وهذا الإبطال ؛ لأنهما بعملهما هذا يشبهان المنافق الذي يعمل لغير الله ، فجميع أعمال البر التي يقوم بها لا خير ولا نفع فيها .

- المن خصلة ذميمة تبطل ثواب الصدقة في الدنيا ولصاحبها عقاب في الآخرة ، وورد النهي عنها في أحاديث شريفة منها ، قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، وعدّ منهم : المنافق (٣) .

و مما يستفاد من قصة صاحب الجنتين :

- تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء .

- الاعتبار بحاله والحذر من مآله ، وعدم الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة .

- الإبتلاء كما يكون بالشدائد والفقر يكون كذلك بالرخاء والغنى .

(١) _ الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٠٥ ، البحر المحيط ٢/٣١٧

(٢) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحرث والمزارعة ، باب فضل الزرع أو الغرس إذا أكل منه ، ح ٢٣٢٠ ص ١٨١ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة والمزارعة ، باب فضل الغرس والزرع ، ح ٣٩٧٣ ص ٩٤٨ .

(٣) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية ، وتنفيق السلعة بالحلف ، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، ح ٢٩٣ ، ص ٦٩٦ ، حديث أبي ذر _ رضي الله عنه _ .

- ينبغي للمسلم عدم التكلف في البحث عن بعض الجزئيات التي أغفل ذكرها القرآن الكريم ، كالتعريف بصاحب الجنتين وصاحبه ، ومكان أو زمان الحدث ، فليس لذلك فائدة ، فلا ينبغي أن يشغل المسلم ذلك عن أخذ الفائدة من قصتهما والاعتبار والاتعاظ من مصيرهما .

- فضيلة الأشجار الواردة في قصة صاحب الجنتين ، وتفضيلها على غيرها ، وذكر بعض الأمور التي تعين على تحسين الزراعة ، و بيان صورة مثالية لغرس البساتين والنخل والحدائق ، وإلهام الله - سبحانه - فهم ذلك ، واستنتاج أهميته يظهر شدة عناية الإسلام بما فيه صلاح دنيا الإنسان ودينه .

- هناك فرق بين شكر النعمة والتحدث بفضل الله - تعالى - على الإنسان ، وبين التكبر والغرور وذكر تلك النعم على سبيل الافتخار واحتقار الغير والتكبر والغرور .

- النعمة الحقيقية هي نعمة الإيمان بالله - سبحانه - والاستسلام له ، فلا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح الذي قدمه لوجه الله - تعالى - أما الأموال والأولاد والأقارب فهم متاع زائل ، فلم ينفع ذلك صاحب الجنتين ، ولا يمنع ذلك أن يمتع الكافر بها ، فقد آثر الله - سبحانه - وتعالى - صاحب الجنتين بألوان من النعم .

- شكر النعم يديمها وينميها ، و الشكر يكون بذكر المنعم المتفضل - سبحانه - وتعالى - وعدم نسبتها إلى النفس ، وآداء ما لله من حق فيها ، واحترامها ، والانتفاع منها بما يفيد الإنسان في دينه ودينه .

- ينبغي على المسلم أن يتذكر دائما أن الله - سبحانه - يمد الإنسان بالنعم ؛ ليبتليه فينظر أي شكر أم يكفر .

- نعمة المال نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان ؛ فيجب ألا تطغيه وتدفعه لما يضره وليحذر منه كل الحذر إن وجد في نفسه ميلا لکنزه أو التباطؤ في إنفاقه في وجوه الإنفاق الشرعية ، ولا يغر الإنسان رؤية المال والنعيم لمن كفر بالله - سبحانه - وتعالى - وليعلم أنه لاستدراجه وإمهاله ، وأن هذا النعيم نعيم دنيوي زائل كسرعة زوال الدنيا وفنائها .

- فضيلة نصح الغير بالحسنى وطيب العبارة ، والتذكير بقدره الخالق - سبحانه - ونعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وتوجيه النصح للمقصرين الغافلين .

- ينبغي على المسلم أن يكون عزيز النفس قويا لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يذل لغير الله ،
و ألا يستكين أمام عزة الكافر ، ويفتخر بدينه وعبوديته لخالقه - سبحانه- .

- اهتمام الإسلام بكل ما ينفع الإنسان وما يدفع عنه الضرر ومن ذلك تعليمه الأذكار المشروعة
وما يقال في كل مكان وزمان ؛ ليبقى الإنسان متصلاً بخالقه ، ذاكراً له في كل أحواله ، ومن ذلك
ما جاء في قصة صاحب الجنتين ، يقول - سبحانه وتعالى- ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا

شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (١) ففيه تفويض الأمر كله لله - سبحانه وتعالى- ورد النعمة للمنع
- سبحانه- وأن المشيئة المطلقة لله - تعالى- فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولذلك لا ينشغل
المسلم عن تذكير نفسه وغيره بهذه المشيئة في أي مكان يشده إلى الدنيا ويلفت نظره إليها .

- الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصا إن فضل نفسه بسبب
ماله على المؤمنين وفخر عليهم (٢) فهذا المؤمن دعا على صاحبه ؛ لأنه اغتر بجنتيه ، فدعا الله -
سبحانه وتعالى- أن يذهب بهما لعل صاحبه يرجع ويتوب إلى الله .

- استجابة الله - سبحانه- لمن دعاه ورجاه ، ونصره لمن ينصره ، وأن أساس التفاضل : طاعة الله
تعالى وتقواه والعمل بما يرضيه في دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب
سليم .

- أن المال إلا من رحم ربي يطر صاحبه ويزيد من غروره .

فصاحب الجنتين فتنه ماله وولده فجحد النعمة ، وصرفها في غير طاعة الله ، و نسي القوة الكبرى
التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، وحسب أن هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فكانت النتيجة
مؤلمة (٣)

- عرض القرآن الكريم لموقف صاحب الجنتين وكيف أورده فخره وتكبره المهالك فيه تحذير لنا من
هذا الداء النفسي والاجتماعي وعاقبته المريرة .

- يتضح من قصة صاحب الجنتين أن الكفر يبدأ بالاستكبار ، وينتهي بإنكار اليوم الآخر .

(١) _ سورة الكهف من الآية ٣٩

(٢) _ تيسير الكريم الرحمن ١/٤٧٧

(٣) _ الفتنة وموقف المسلم منها ص ٢٧٥

- في ضرب الأمثال تنوع لعرض آيات الله ، ولفت انتباه إليها ، ودعوة للتفكير فيها ، ومن هذه الأمثال : تلك التي تصور حقيقة الدنيا ، وتشببه بالحالة التي تكون عليها الأرض بعد نزول المطر وكيف تنبت من كل زوج بهيج ، وبعد مشهد الخصب والنماء يأتي مشهد القحط والدمار بعد هلاك الزرع بجائحة تجثه من أصوله ، وهكذا الدنيا وعاقبة الاغترار بها ، وهكذا هي في سرعة زوالها ، فإن عاقبة الاغترار بالدنيا كالاغترار بالنبات الذي تتعلق به الآمال ويعظم رجاء المنفعة يقع اليأس منه بتبدل حاله وسرعة زواله .

- تفيد الأمثال التي تصور الحياة الدنيا في التزهيد بها والتحقير من شأنها ، وهذه الأمثال كغيرها لا يعقلها إلا العالمون المتفكرون الذين يقفون على حقائق الأشياء فيزنون أعمالهم جميعها ، ويزكون أنفسهم ويطهرونها من كل ما يكون سببا في شقائها وهلاكها .

- نظم الله - سبحانه وتعالى - الحياة الدنيا فجعلها متناغمة مع ما عليها من مخلوقات ، وهياها وجملها ، ومع ذلك حذر منها وقلل من شأنها ، ولكن لا يعني هذا العزوف عنها ، لذا على المسلم أن يصرف إلى دنياه حظا من عنايته ؛ لأنه لا غنى عن التزود منها للآخرة ، قال تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (١) ، فالتوازن مطلوب ليكمل بناء الإنسان بناءً متكاملًا من جميع الجهات ؛ وليكون لبنه صالحه في مجتمعه ، ولتكون الدنيا مطية يعبر به إلى النعيم الآخروي الخالد .

- الدنيا مزرعة للآخرة ، وهي الطريق الذي تكتمل به حياة الإنسان التي حددها له الله - سبحانه - وفق سنن كونية ثابتة ؛ ليعيش الجميع وفق قاعدة صلبة متوازنة تحفظ للجميع حاجاتهم وضروراتهم وفق مظلة من تعاليم الدين السمحة ، وتوجيهاته القويمه .

- الدنيا بحقيقتها ومجموعها لا تساوي شيئًا مقابل الآخرة ، فهي كالماء على الإصبع ، إلا أن الدنيا تقابل الآخرة في كون الدنيا ثمن والسلعة الجنة ، قال - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (٢)

(١) - سورة القصص من الآية ٧٧

(٢) - سورة التوبة من الآية ١١١

وقد جاء أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : " مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها " (١)

قال ابن القيم عند هذا المثل النبوي : " فتأمل حسن هذا المثل ومطابقتها للواقع سواء . فإنها في حضرتهما كشجرة وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه ، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً ولا يتخذها قراراً بل يستظل بها قدر الحاجة ، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق " (٢)

- معرفة حقيقة الدنيا وسرعة زوالها يعين الإنسان على الصبر عند المصائب وتسليته من فاتته فلا يحزن عليها بل يؤمل بما عند الله - سبحانه - فهو خير وأبقى .

- يفيد ضرب الأمثال في الاعتبار والاعتناظ من الأمم الخالية ، فقد بادت أمم بأكملها وفنيت بسبب كفرها وتكذيبها ، ولم تغن عنهم قوتهم شيئاً .

(١) _ أخرجه الترمذي في الجامع ، كتاب : الزهد ، باب : حديث " ما الدنيا إلا كراكب استظل " ، ح ٢٣٧٧ ، ص ١٨٩٠ ، وأخرجه ابن ماجه في المعجم ، كتاب : الزهد ، باب : مثل الدنيا ، ح ٤١٠٩ ، ص ٢٧٢٧ ، وقال عنه الترمذي : هذا حديث صحيح .

(٢) _ عدة الصابرين ص ١٩٦-١٩٧

المبحث الرابع : الابتلاء بالشجر والثمر ، والامتحان بهما ، في القرآن الكريم :

الابتلاء سنة ربانية جارية ، وذلك لطبيعة الحياة الدنيا وتقلبها وسرعة زوالها ، وقد قرر الله - سبحانه وتعالى - الابتلاء لكل من ينتسب للإيمان في آيات كثيرة ، منها قوله -تعالى- ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمَّنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) وقوله -سبحانه- ﴿ لَتَبْلُوَنَّكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢)

و الإبتلاء : مصدر و هو الاختبار والامتحان ، ويطلق على إخلاق الشيء ، ويراد به الإخبار ، تقول العرب : أبلني كذا أي أخبرني . ويراد به الإنعام (٣) ويرادف البلاء في معنى الاختبار : الفتنة ، والفتن : أصله الابتلاء والامتحان ، كما قال الزمخشري (٤)

و الإبتلاء اصطلاحًا : فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدًا إلى ظهوره (٥)

و يمكن تعريفه بأنه ما يصيب الإنسان من أذى في ماله أو نفسه ، أو عرضه بغير سبب شرعي خلال الحياة الدنيا التي يعيشها (٦)

الحكمة منه :

للإبتلاء حكم كثيرة ، منها :

١ - التمكين في الأرض ، وتطبيق شرع الله - سبحانه وتعالى - والعبد المؤمن لا يمكن حتى يتلى ولهذا سأل رجل الشافعي ، فقال : " أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يتلى ؟ فقال الشافعي :

(١) - سورة العنكبوت الآية ٢

(٢) - سورة آل عمران من الآية ١٨٦

(٣) - مفردات غريب القرآن ٦١/١ ، كتاب الباء ، مادة (بلى) ، لسان العرب ٨٣/١٤ ، مادة (بلا) ، تاج العروس ٢٠٦/٣٧ ، مادة (بلي) .

(٤) - الفائق في غريب الحديث ٨٧/٣ ، وينظر كشف السرائر ص ١٢٣

(٥) - التفسير الكبير ٤٠/٢٨ ، ثم وضع الرازي مراده من التعريف ، فيرجع إليه بالموضع نفسه .

(٦) - فقه الابتلاء ص ٧

- لا يَمَكِّن حتى يتلى ، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيمَ وموسى وعيسى ومحمدًا فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة " (١)
- ٢ - الكشف عن خبايا النفوس .
- ٣ - الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة .
- ٤ - معرفة قدر الدعوة ، وحقيقة الداعية .
- ٥ - تصفية الصفوف المسلمة مما يختلط بها من المنافقين والكاذبين ، وبالإبتلاء يظهر التمايز بين المسلمين في قوة الإيمان والثبات على الحق .
- ٦ - رفع الدرجات ، و تكفير الخطايا والسيئات .
- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة " (٢)
- فالإبتلاء جسر لبلوغ أسمى المقامات ، فصورته صورة الإبتلاء والامتحان ، وباطنه فيه الرحمة والمنة والنعمة (٣)
- ٧ - إسعاد المؤمن المبتلى ؛ لعلمه أن الله -سبحانه وتعالى- إذا أحب عبدا ابتلاه ، لقوله -صلى الله عليه وسلم- : " من يرد الله به خيراً يصب منه " (٤) وغير ذلك من الحكم (٥)

(١) _ المستدرك على مجموع الفتاوى ١/١٩٣ ، الفوائد ١/٢٠٨

(٢) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ، حتى الشوكة يشاكها ، ح ٦٥٦١ ، ص ١١٢٨ .

(٣) - المجموع القيم ٢ / ٧٨١

(٤) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : المرضى ، باب : ما جاء في كفارة المريض ، ح ٥٦٤٥ ، ص ٤٨٣

(٥) _ الإبتلاءات ص ٩-١٢ ، الإبتلاء في القرآن الكريم ص ٩٨ ، فقه الإبتلاء ص ٨-١٢ ، الإبتلاء والمحن في الدعوات ص ٣٦-٣٩

المطلب الأول : ابتلاء المؤمنين بنقص الثمرات :

يوجه الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين للاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف الدعوة والاستخلاف في الأرض ، ويعلمهم بالوقت نفسه أن منزلتهم العالية عند الله لا ينقص منها الإبتلاء والمصائب التي تلحق بالمؤمن في هذه الحياة العاجلة بل إنها تزيد من قدرهم ومكانتهم عند خالقهم ، وتزيد من ثباتهم ومحبتهم لله - سبحانه وتعالى - وتسليمهم لله في كل أمورهم ؛ لذا لا بد لهم من الصبر وتحمل المشاق للفوز في الحياة الباقية ، قال - تعالى - ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**

وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾

وقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - ما ينتظر المؤمنين من صنوف الإبتلاءات المختلفة فلا بد منه ؛ ليتبين الصادق من الكاذب ، والصابر من الجازع ، ويتميز أهل الخير من أهل الشر ، وجاء هذا البيان والإخبار مؤكداً بلام القسم ونون التوكيد ؛ لتوطين النفس على الصبر ، وتهيئتها لتقبل هذه السنة الكونية في الخلق ، وللتأكيد عليهم أن انتسابهم للإيمان لا يقتضي سعة الرزق وانتفاء الأحزان بل لا بد من الإبتلاء والامتحان .

ومن لطف الله - سبحانه وتعالى - أن جعل هذا الإبتلاء ﴿ **بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ**

الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴿٢﴾

أي بقليل من ذلك ، و التنكير للتقليل من هذه الأشياء ، وفيه إشارة إلى الفرق بين هذا الإبتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله - سبحانه وتعالى - على الأمم السابقة عقاباً لها ، كما

قال - تعالى - ﴿ **فَأَذِقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** ﴾ ﴿٢﴾ فاللباس يدل على التمكن

والملازمة ، وجى هنا بشئ ؛ ليخفف عليهم ، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم وتوينا لما سيصيبهم ﴿٣﴾

(١) - سورة البقرة الآية ١٥٥

(٢) - سورة النحل من الآية ١١٢

(٣) - الكشاف ٢٠٧/١ ، التفسير الكبير ١٢٩/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٦٧/١ ، لباب التأويل ١٢٨/١ ، ، روح

المعاني ٤٢٠/١ ، التحرير والتنوير ٥٤/٢

قال الطبري : " يقول -تعالى- ذكره : لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تُصيبيكم ينالكم فيها مجاعة وشدة ، وتتعذر المطالب عليكم ، فتنقص لذلك أموالكم ، وحروبٌ تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار ، فينقص لها عددكم ، وموتٌ ذراريكم وأولادكم ، وجُدوب تحدث ، فتنقص لها ثماركم . كل ذلك امتحان مني لكم ، واختبار مني لكم ، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه ، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم ، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب كل ذلك خطابٌ منه لأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه " (١)

والخطاب عام لجميع المؤمنين فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالناس جميعًا مبتلون في هذه الحياة أفرادًا وجماعات ، ويختلف قدر بلائهم قلة وكثرة .

والمراد بالخوف والجوع وما عطف عليهما : معانيها المتبادرة وهي ما أصاب المسلمين من القلة وتآلب المشركين عليهم بعد الهجرة .

فالخوف هم يلحق الإنسان لتوقع حدوث مكروه من عدو حريص على إيذائه .

والجوع ضد الشبع ، والحاجة للطاعة وعدم وجوده لقعط أو نحوه .

والنقص من الأموال يعني خسارة المال أو نقصه وضياعه وبوار التجارة .

والأنفس : بموتها كموت الأصحاب والأقارب والأحباب .

والثمرات : جمع ثمرة وهي حمل الشجر ، ونقصها بقلتها .

قال ابن عباس : الخوف خوف العدو ، والجوع يعني القحط ، ونقص الأموال بالخسران والهلاك ، والأنفس يعني بالقتل والموت وقيل بالمرض والشيب ، وحكي عن الشافعي أنه قال الخوف : خوف الله تعالى ، والجوع صيام رمضان ، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات ، والأنفس الأمراض ، والثمرات موت الأولاد ؛ لأن ولد الرجل ثمرة قلبه (٢)

وقال ابن كثير عن قول من قاله : وفي هذا نظر ، والله أعلم (٣)

(١) _ جامع البيان ٢٢٠/٣

(٢) _ الكشف والبيان ٢٢ / ٢ ، النكت والعيون ٢٠٩/١-٢١٠ ، معالم التنزيل ١٦٩/١ ، المحرر الوجيز ٢٢٧/١-٢٢٨ ، زاد المسير ١٦٢/١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧٣/٢-١٧٤ ، لباب التأويل ١٢٨/١ ، البحر المحيط ٦٢٣/١ ، بصائر ذوي التمييز ٢ / ٣٣٩

(٣) _ تفسير القرآن العظيم ٤٦٧/١

وقال بعض العلماء : إنما المراد في هذه الآية مؤن الجهاد وكلفه ، فالخوف من العدو والجوع به وبالأسفار إليه ونقص الأموال بالنفقات فيه والأنفس بالقتل والثمرات بإصابة العدو لها أو بالغفلة عنها بسبب الجهاد (١)

وكل ما سبق وأمثاله مما يختبر به الله العباد ؛ ليرى - سبحانه - الصابرين الشاكرين فيجازيهم ، ويرتب العقاب على من جزع ولم يسلم لله - تعالى - .
وقد أصاب المسلمون الأوائل خوف شديد فقد تكالبت عليهم الأعداء من كل مكان ، وحدث لهم الجوع والقحط حتى لقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يشد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وحدث لهم نقص من الأموال بسبب اشتغالهم لرفع راية الله ، فليقتدي بهم من بعدهم من المؤمنين وأن إصابتهم بمثل هذه الأمور ليست لنقص درجاتهم وإنما هي سنة كونية تجري على الخلق عامة ، فقد كان الأوائل أقرب إلى الله - تعالى - وهم خير القرون ومع ذلك لم يسلموا من الإبتلاء .

وإذا كانت هذه سنة الله تعالى في الحياة عامة فإن أصحاب الرسالات أشد عرضة للإبتلاء
سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة " (٢)
ومن اللطائف القرآنية إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول ، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكريماً لشأنه وزيادة في تعلق المؤمنين به - عليه الصلاة والسلام - (٣)

وجاء ترتيب الأمور التي يتلى بها الإنسان على سبيل الترتيب : فأخبر - سبحانه - أولاً بالإبتلاء بشئ من الخوف ، ثم الجوع وهو أشد من الخوف ، والنقص فبدأ بالأموال ، ثم ترقى إلى الأنفس ، أما الثمرات فجاء كالتخصيص بعد التعميم ، لأنها تندرج تحت الأموال ، فلا ترقى فيها .

(١) - المخرر الوجيز ٢٢٨/١

(٢) - أخرجه الترمذي في سننه ٦٠١/٤ ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في الصبر على البلاء ، ح ٢٣٩٨ ، ص ١٨٩٢ ، وابن ماجه في سننه ١٣٣٤/٢ كتاب : الفتن ، باب : الصبر على البلاء ، ح ٤٠٢٣ ، ص ٢٧١٩ ، و أحمد في

مسنده ٧٨/٣ ، ح ١٤٨١

(٣) - التحرير والتنوير ٥٧/٢

وقيل : إن النقص في الأموال أكثر وجودًا في الناس من الجوع ، فهو أشد مفسدة ، والنقص من الأنفس بالمرض أو بالموت أشد من الجميع (١)

ولهذا الإبتلاء فوائد وآثار على النفس البشرية ، فهو يزيد قربها من الله -تعالى- ويربي النفس ، ويشد من عزمها للدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- ، وفيه تدريب لها وكبح لشهواتها ، وكسب لخبرات متنوعة في طبائع النفس البشرية المختلفة .

بيّن ابن القيم ضرورة البلاء للإنسان وأنه كالدواء له ، فيقول : " أن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته ، أو نقصت ثوابه ، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة ، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه " (٢)

ووردت أحاديث عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- تبين أجر المبتلى الصابر ، و عظم ثوابه عند الله -سبحانه وتعالى- منها قوله - عليه الصلاة والسلام - : " ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها " (٣)

وأرشد الرسول -صلى الله عليه وسلم- المبتلى بالدعاء المناسب لحالته ، فقد روت أم سلمة (٤) - رضی الله عنها - أنها : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرني في مصيبتى ، واخلف لي خيراً منها ، إلا آجره الله في مصيبتيه ، وأخلف له خيراً منها " (٥)

وفي إخبار الله -سبحانه وتعالى- للمؤمنين عن الإبتلاء قبل وقوعه حكم كثيرة ، منها :

(١) _ البحر المحيط ١/٦٢٤ ، وينظر : تفسير ابن عرفة ٢/٤٦٩

(٢) _ إغاثة اللهفان ٢/١٨٨

(٣) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : المرضى ، باب : أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ح ٥٦٤٨ ، ص ٤٨٤ ، ولمسلم بلفظ : " ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بما خطيئة " ولفظ مقارب عند مسلم في صحيحه ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ، حتى الشوكة يشاكرها ، ح ٦٥٥٩ ، ص ١١٢٨ .

(٤) _ هي : أم المؤمنين ، هند بنت أبي أمية بن المغيرة ، من المهاجرات الأول ، كانت زوج لأبي سلمة _ رضي الله عنهما _ تزوجها رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ في السنة الرابعة ، روت كثيرا من الأحاديث . ينظر : الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين ١ / ٤٢ ، سير أعلام النبلاء ٢/٢٠١ ، الإصابة في تمييز الصحابة ٨/٢٠٣

(٥) _ أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الجنائز ، باب : ما يقال عند المصيبة ، ح ٢١٢٨ ، ص ٨٢٢

- ١ - إذا علم العبد عن وقوع شئ فإنه يوطن نفسه على الصبر عليه ، ويشتد خوفه منه ، فيصير ذلك الخوف تعجياً للابتلاء ، فيستحقون به مزيد الثواب .
- ٢ - إذا شاهد الكفار صبر المؤمنين وثباتهم على الدين فإن ذلك يدعوهم إلى اتباع الدين الحق .
- ٣ - في إخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- عن وقوع الإبتلاء إخبار عن أمور غيبية فكان معجزاته - عليه الصلاة والسلام - .
- ٤ - في الإبتلاء تمييز للمؤمنين من المنافقين .
- ٥ - إخلاص العباد لله -تعالى- يشتد حال البلاء ، فيزدادون قرباً من خالقهم -سبحانه وتعالى- فيداومون على الدعاء والإستغفار وطلب الفرج من الله -سبحانه وتعالى- (١) .

(١) _ التفسير الكبير ٤/١٢٩ ، لباب التأويل ١/١٢٨ ، إرشاد العقل السليم ١/١٨٠ ، روح المعاني ١/٤٢٠

المطلب الثاني : عذاب الكفار بنقص الثمرات :

بعث الله - سبحانه وتعالى - الرسل - عليهم السلام - بدين الحق والهدى وجعل في طريق دعوتهم ضروباً مختلفة من أنواع الإبتلاء ، فهم أشد الناس بلاء .

وكما امتحنهم فإنه - سبحانه وتعالى - امتحن بهم أقوامهم وهذه سنة جارية في الخلق ، قال

-تعالى- ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١)

ومن نماذج تلك الأمم قصة نبي الله موسى - عليه السلام - الذي أرسله الله - سبحانه وتعالى - إلى فرعون وقومه ، وأيده بالمعجزات ، وابتلاهم بصنوف من البلاء تتابعت عليهم ومع هذا لم يؤمنوا بل ينكتون العهود والمواثيق التي يقولونها بين كل بلاء وبلاء ، ونتيجة لبغيهم وظلمهم فإن الله - سبحانه وتعالى - أخذهم بالسنين ، ونقص الثمرات ، قال -تعالى- ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ

فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

صُدَّرت الآية الكريمة بقسم الله - سبحانه وتعالى - على أنه - سبحانه - أخذ آل فرعون بأنواع

الإبتلاء بسبب ظلمهم وطغيانهم لعلهم يذكرون ، وهذا القسم لإظهار الاعتناء بمضمونها (٣)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: اختبرنا وامتحننا وابتليننا وقهرنا (٤) والأخذ في الأصل بمعنى

القهر والغلبة ، واشتهر في الإهلاك والاستئصال والعذاب (٥) وآل فرعون هم : قومه وأتباعه وخاصته ، ولا يستعمل الآل إلا بالقرابة كآل إبراهيم ، أو بالموالاة والمتابعة في الرأي ، فالرجل أهله وعياله وأتباعه وأنصاره (٦)

(١) - سورة الأحزاب من الآية ٦٢ ، وسورة الفتح من الآية ٢٣

(٢) - سورة الأعراف الآية ١٣٠

(٣) - إرشاد العقل السليم ٢٦٣/٣

(٤) - جامع البيان ٤٥/١٣ ، تفسير القرآن العظيم ٤٦٠/٣ ، نظم الدرر ٨٨/٣

(٥) - تاج العروس ٣٦٣/٩ مادة (أخذ)

(٦) - معجم مقاييس اللغة ١٦٠/١ ، مادة (أول) ، تاج العروس ٣٥/٢٨ ، المعجم الوسيط ٣٣/١ ، معجم الألفاظ

بالسنين ، أي : سنين القحط والجذب ، يقال : أصابت الناس سَنَةً : أي جذب (١) مفردها : سنة ، وجمعها باعتبار كثرة مواقعها ، أي : أصابهم القحط في جميع الأرضين والبلدان (٢) وفي الحديث النبوي قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : " اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف " (٣)

﴿ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : نقص من الثمرات في قلة إنتاجها قلة غير معتادة لهم ، وكثرة العاهات التي تصيب الثمرات .

وتنوين نقص يفيد التكثر ، ولم يضاف إلى الثمرات لئلا تفوت الدلالة على الكثرة ، كما قال ابن عاشور (٤)

ومن النقص في الثمرات ما روي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة (٥) قال ابن عباس وقتادة : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيتهم ، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم (٦) فالسنون تناب المزارع والحقول ، ونقص الثمرات يناب الجنات . وهذا البلاء والامتحان بالجذب وضيق المعيشة لعلهم يثوبون إلى رشدهم فينتبهوا لما هم عليه من كفر فيحاسبوا أنفسهم وترق قلوبهم بالشدائد التي حلت عليهم ، وهذا المتوقع ممن أصابه ما أصابهم ولكنهم استحقوا الهلاك والخسران المبين لاستمرارهم على الظلم والفساد وعدم إجابة دعوة موسى - عليه السلام - لهم .

من خلال الآية الكريمة يكون فرعون وآله قد قدموا نموذجًا لمن ضل الاختيار الصحيح إزاء ما تعرض له من الإبتلاء ، وهكذا " مضت آية في الزمان تتحدث عنها الأجيال عبر القرون فهي

(١) _ غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٧١ ، معاني القرآن للفراء ٣٩٢/١ ، غريب القرآن لابن الملقن ص ١٤٢

(٢) _ التحرير والتنوير ٦٣/٩

(٣) _ جزء من حديث ، أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الأذان ، باب : يهوي بالتكبير حين يسجد ، ح ٨٠٤ ، ص ٦٣ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب القنوت في جميع الصلوات ، إذا نزلت بالمسلمين نازلة والعياذ بالله واستحبابه في الصبح دائما وبيان أن محله بعد رفع الرأس من الركوع في الركعة الأخيرة واستحباب الجهر فيه ، ح ١٥٤٠ ، ص ٧٨٣ .

(٤) _ التحرير والتنوير ٦٤/٩

(٥) _ تفسير ابن أبي حاتم ٢٦٤/١ ، المحرر الوجيز ٤٤٣/٢ ، البحر المحيط ٣٦٩/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٦٠/٣

(٦) _ جامع البيان ٤٦/١٣ ، بحر العلوم ٣٣١/٢ ، معالم التنزيل ٢٦٨/٣ ، الكشاف ١٤٤/٢ ، البحر المحيط ٣٦٩/٤

عاقبة مشهودة ومعروضة للعالمين ، وفيها عبرة للمعتبرين ونذير للمكذابين ، ومن جهة أخرى حقق الله - عز وجل - وعده لعباده المؤمنين الصابرين من بني إسرائيل فقد كالأهم برعايته وحمائته ونجاهم من العذاب المهين من فرعون وقومه الطغاة المتجبرين ، وأورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون ، وجعل لهم العاقبة الحسنى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة الذي عاشوه فترة من الزمن في مملكة فرعون " (١)

(١) _ الإبتلاء وأثره في حياة المؤمنين ص ٣٨٠

المطلب الثالث : ابتلاء المؤمنين بزكاة الحبوب :

نظراً لأهمية الإنفاق في سبيل الله -تعالى- فقد جاءت آيات كثيرة تتحدث عنه وتحث عليه وترغب الناس بفعله ، وتحذرهم مما يطله من إلحاقه بالمن والأذى ، وقد مرت آيات كريمة تنوه بفضل الإنفاق والمنفقين ، وتحذر من إلحاق النفقة بالمن والأذى ، وتبين أحوال المنفقين ، والفرق بين من ينفق مخلصاً لله ممن ينفق رياءً وسمعةً .

وجاءت آيات كريمة تبين للناس نوع المال المبذول، ووصفه ، والأمر باختيار جيد الأموال للإنفاق ، قال -تعالى- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

في هذه الآية الكريمة أمر بالصدقات بعد أن قُدم قبلها مواعظ وترغيبٌ وتحذير . وهي طريقة بلاغية في الخطابة والخطاب (٢)

وورد في سبب نزولها روايات ، منها :

عن البراء قال: نزلت هذه الآية في الأنصار، كانت تخرج إذا كان جذاذ (٣) النخل من حيطانها أقتاء (٤) من التمر والبسر، فيعلقونها على حبل بين أسطوانتين في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيأكل منه فقراء المهاجرين ، وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف (٥) وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقتاء ، فنزل فيمن فعل ذلك (٦)

(١) - سورة البقرة الآية ٢٦٧

(٢) - التحرير والتنوير ٥٥/٣

(٣) - جذذت الشيء: كسرتة وقطعته. والجذاذ والجذاذ: ما تقطع منه، والضم أفصح ، ينظر : الصحاح ٥٦١/٢ ، مادة (جذذ) ، المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث ص٣١٢ ، لسان العرب ٤٧٩/٣

(٤) - العذق وهو عنقود النخلة بما فيه من الرطب ، والشماريخ المثمرة . ينظر : المخصص ٤٠٩/٤ ، مفردات غريب القرآن ص٤١٤ ، كتاب القاف ، مادة (قنو) ، المعجم الوسيط ٧٦٤/٢

(٥) - اليابس الفاسد الرديء من التمر . وقيل الضعيف الذي لا نوى له كالشئيص . ينظر : النهاية في غريب الأثر ص ٢١٠ ، الفائق في غريب الحديث ٢٨٥/١

(٦) - أسباب النزول ٥٥-٥٦ ، أحكام القرآن لابن العربي ٤٥٠/١ ، العجاب في بيان الأسباب ٦٢٣/١ ، لباب النقول ص٤٩ ، تسهيل الوصول ص٦١

فيفتح الله - سبحانه وتعالى - الآية بهذا النداء المحبب إلى النفوس ، و الذي يهز القلوب ، ويلفت الأنظار فيأمرهم أن ينفقوا الطيب الجيد من الأموال أيًا كانت : سواء كانت نقودًا أو أنعامًا أو مما تخرج الأرض من الحبوب والثمار ونحوها ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - طيب لا يقبل إلا طيبًا (١) فيطلق الطيب على الأحسن في صنفه والمكتسب بوجهه حلال .
والكسب : ما يناله الإنسان بسعيه كالتجارة والصيد ونحوها .

وقوله - تعالى - ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ من الزروع والثمار ، مما يخرج بنفسه ، ومما يتسبب الإنسان في إخراجها بالبذر والغرس ونحوه و التي تُثَقَّت وتُدَخَّر ، وبعض المفسرين أدخل المعادن الموجودة في باطن الأرض (٢) .

اختلف العلماء في النفقة الواجبة هنا ، هل هي الزكاة المفروضة ؟ أو أنها الصدقة المرغب فيها ؛ لأن القصد منهما التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - بفعل الخير وهذا لا يتم إلا بالإنفاق من الطيب الجيد والذي يحبه الإنسان ، كما قال - سبحانه - في آية أخرى ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٣)

قيل : هي في الزكاة المفروضة (٤) ، فالأمر على هذا للوجوب والزكاة واجبة فوجب صرف الآية إليها .

وقيل : أنها في التطوع ، وهو الذي يدل عليه سبب النزول ندبوا إلى أن لا يتطوعوا إلا بجيد مختار ، قال ابن كثير : والمراد به الصدقة هاهنا ؛ قاله ابن عباس (٥) (٦)

(١) _ جزء من حديث ، أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الزكاة ، باب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، ح ٢٣٤٦ ، ص ٨٣٨

(٢) _ جامع البيان ٥ / ٥٥٧ ، الكشف والبيان ٢ / ٢٦٧ ، بحر العلوم ١ / ٢٠٣ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١ / ٣٨١ ، الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٣٢١ ، التسهيل ١ / ١٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ١ / ٦٩٧

(٣) _ سورة آل عمران من الآية ٩٢

(٤) _ جامع البيان ٥ / ٥٥٥ ، مدارك التنزيل ١ / ١٣٩ ، أيسر التفاسير ١ / ٢٦١

(٥) _ تفسير القرآن العظيم ١ / ٦٩٧

(٦) _ النكت والعيون ١ / ٣٤٢-٣٤٣ ، المحرر الوجيز ١ / ٣٦١ ، التفسير الكبير ٧ / ٥٢ ، لباب التأويل ١ / ٢٨٧-٢٨٩ ،

٢٨٩- البحر المحيط ٢ / ٣٢٩-٣٣٠ ، اللباب في علوم الكتاب ٤ / ٤٠٩ ،

وقيل : إنه يتناول الفرض والنفل جميعاً ، قال ابن العربي (١) : " والصحيح أنها عامة في الفرض والنفل " (٢)

والأمر يجوز أن يكون للوجوب فتكون الآية في الأمر بالزكاة ، أو للندب وهي في صدقة التطوع . وهو الظاهر من الآية ، فالآية عامة تشمل الزكاة والصدقة ، لكن الزكاة الأمر فيها على الوجوب ، ومخصوصة بالقدر المفروض ، وأما التطوع فالأمر فيه على الندب ، وليس مخصوصاً بقدر معين ، فيجوز بالقليل وبالكثير ، لكن يختار الجيد ، وليس القصد هو الممتاز ، فهو الأولى ، ولكن الحد الأدنى المطلوب هو الوسط ، كما قرر الفقهاء في الزكاة (٣)

وتقييد الإنفاق بالطيبات يناسب تعميم النفقات كما ذكر ابن عاشور (٤) والإنفاق من الطيب إذا كان للزكاة فعلى الوجوب ، إذ لا يصح دفع الرديء فيها ، وأما في التطوع فعلى سبيل الكمال .

ويقابل الطيب ويضاده : الخبيث ، وهو : الشديد السوء في صنفه فلذلك يطلق على الحرام وعلى المستقذر ، و الخبيث : ضد الطيب : من الرزق والولد والناس . والخبيث يطلق على معينين : أحدهما : ما لا منفعة فيه . والثاني - ما تنكره النفس (٥)

والمراد بالآية : فلا تقصدوا الخبيث وتعمدوه ، و الذي لو لو أعطيتموه ما أخذتموه ، إلا أن تتغاضوا فيه ، فالله أغنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهون (٦) وقيل : أي : لا تعدلوا عن المال الحلال ، وتقصدوا إلى الحرام ، فتجعلوا نفقتكم منه .

(١) _ هو : أبو بكر ، محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الأندلسي ، إمام من أئمة المالكية . وهو فقيه محدث مفسر أصولي أديب متكلم ، توفي سنة ٥٤٣ هـ ، له مؤلفات كثيرة منها : كتاب الإنصاف ؛ الحصول في أصول الفقه ، وغيرها . ينظر : وفيات الأعيان ٢٩٦/٤ ، سير أعلام النبلاء ١٩٨/٢٠ ، طبقات المفسرين للأذنوي ١٨٠/١

(٢) _ أحكام القرآن لابن العربي ٤٥١/١

(٣) _ التفسير المنير ٦٠/٣

(٤) _ التحرير والتنوير ٥٦/٣

(٥) _ مختار الصحاح ١٦٧/١ ، باب : الخاء ، مادة (خبت) ، المصباح المنير ١٩٤/١ ، لسان العرب ١٤١/٢ ، تاج

العروس ٢٣١/٥

(٦) _ جامع البيان ٥٥٨/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٦٩٧/١

ووقوع لفظه في سياق النهي يفيد عموم ما يصدق عليه اللفظ (١)

﴿وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ الإغماض : الإغماض غض البصر وانغضاضه ،
وأراد هاهنا التجوز والمساهلة (٢)

معناه : لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن
حقه وتركه .

وقال الحسن وقتادة: لو وجدتموه يباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيد (٣)

واستنتج الواحدي (٤) اشتراك الفقراء ورب المال بالمال ، فيقول " وفي هذا بيان أن الفقراء شركاء
رب المال في ماله ، فإذا كان ماله جيداً فهم شركاء في الجيد ، والشريك لا يأخذ الرديء من الجيد
إلا بالتساهل " (٥)

واستدل ابن العربي أنها نازلة في إنفاق المال بالنفل ، فلو كانت نازلة في الفرض لما قال : ﴿وَلَسْتُمْ

بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ ؛ لأن الرديء والمعيب لا يجوز أخذه في الفرض بحال ، لا مع
تقدير الإغماض ولا مع عدمه ، وإنما يؤخذ بإغماض في النفل (٦) .

واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - غني عن صدقاتكم ، ولكنه يأمركم بالصدقة والطيب منها لما
فيه منفعتكم ، ولتحقيق العدل والمساواة بينكم ، وليترك لكم حرية الخيار فيما يتليكم به ، وأنتم
المنتفعون منها فهي أعمالكم ترد عليكم .

(١) _ التحرير والتنوير ٥٦/٣

(٢) _ مختار الصحاح ٤٨١/١ ، باب : الغين ، مادة (غمض) ، القاموس المحيط ٨٣٧/١ ، فصل الغين ، تاج العروس
٤٦٦/١٨

(٣) _ معالم التنزيل ٣٣٣/١

(٤) _ أبو الحسن ، علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، مفسر، نحوي، لغوي، فقيه شاعر، إخباري . كان
واحد عصره في التفسير ، توفي بنيسابور سنة ٤٦٨ ، من مؤلفاته : البسيط ، والوسيط والوجيز ، وكلها في التفسير ، وله
المغازي وغيرها . ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٠/٥ ، طبقات الشافعية للأسنوي ٢ / ٣٠٣ ، البلغة في تراجم أئمة
النحو واللغة ٤٠/١ ، طبقات المفسرين للأدنوي ١٢٧/١

(٥) _ الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣٨٢/١

(٦) _ أحكام القرآن لابن العربي ٤٥٢/١ ، ونقل قوله القرطبي في الجامع ٣٢٦/٣

وهو - سبحانه - حميد مستحق الحمد ، محمود على كل حال ، فعليكم اتباع أمره وشكره على نعمه وذلك بإنفاق الطيب منها خالصاً لوجهه - سبحانه - .

في الآية الكريمة دعوة للمؤمنين بأن ينفقوا من الطيب الذي تحبه النفس وتؤثره ، ففيه تدريب على البذل والعطاء وإيثار للغير ، وتغلب على شهوات النفس في حب المال وكنزه ، ابتغاء ثواب الله - سبحانه وتعالى - فمن سينجح بالإبتلاء ومن سيخيب ويخسر .

وفي آية كريمة أخرى يأمر الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين بالإنفاق والبذل ،

يقول - سبحانه وتعالى - ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا

تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١)

يوجه الله - سبحانه وتعالى - الخطاب في هذه الآية للمؤمنين للاعتبار من تلك النعم واختلافها ، وكيفية خلقها وإنشائها ، والامتنان عليهم بها ، وإعلامهم أنه هو - سبحانه - من أنشأها وأباحها لهم ، وليس لأحد غيره أن يحرم شيئاً منها .

يقول ابن كثير : " يقول - تعالى - بياناً لأنه الخالق لكل شيء ، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزءوها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً (٢) ثم

بيّن - سبحانه - المقصود الأصلي من خلقها ، وهو انتفاعهم بها ، فقال - سبحانه - ﴿ كُلُوا

مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ يأمرهم بالأكل منها .

واختلف في فائدة هذا الأمر ، فقيل :

- الأمر للإباحة ، ويستدل به على أن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق .

- الأمر لإباحة الأكل للمالك ؛ لئلا يتبادر إلى الذهن امتناع الأكل حتى يؤدي الحق فيها .

- الإباحة لبيان - سبحانه - أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل وإما التصدق (٣)

فيقول لهم - سبحانه - كلوا من تلك الزروع والأشجار التي أنشأناها لكم واشكروا الله عليها .

(١) - سورة الأنعام الآية ١٤١

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٧

(٣) - التفسير الكبير ١٣/١٦٣

وجاء الأمر بالإباحة مقيداً ب﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ تنبيهاً على أنه لا ينتظر به محل إدراكه واستوائه ، بل متى أمكن الأكل منه فعل (١)

ثم عقب ذلك بالأمر بآداء الحق فيها ، فقال - سبحانه - ﴿ وَعَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وتقدم الأمر بالأكل على الأمر بالصدقة ؛ لأن تقديم منفعة الإنسان بما يملكه في خاصة نفسه مترجحة على منفعة غيره (٢)

في الآية الكريمة اقترن الأمر بالأكل من الثمر بإتيان حق الله - تعالى - فيه ، ولعل السر في ذلك ما قاله صاحب التفسير القرآني : " للتذكير بحق الله ، وشغل النفس به وهي تتذوق بواكير هذه الجنات وتلك الزروع ، وذلك قبل أن تشبع منها وتتخم ، وهذا من شأنه أن يقيم في كيان الإنسان عزيمة صادقة موثقة على الوفاء به عند حصاد هذا الثمر ، في حين أن ذلك يدعو - أيضاً - إلى المبادرة بإعطاء شيء من حق الله فيه قبل الحصاد ، ومشاركة الفقراء ، للاكليلين من بواكيره ، حتى لا يطول بهم الحرمان والانتظار إلى يوم الحصاد (٣)

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية محكمة ، أو منسوخة ، أو محمولة على الندب ، على أقوال ، هي :

القول الأول : الأمر في الآية أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة ، لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، وهو قول عطاء ومجاهد وغيرهم ، وعند بعض هؤلاء أن هذا الحق . باق لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بأية الزكاة ، ورأى الطبري أنه الأولى بالصواب ، وحكاه عن ابن عباس - رضي الله عنه - وثلة من التابعين (٤) وعزاه الشوكاني في تفسيره إلى جمهور أهل العلم من السلف والخلف (٥) وقال به بعض المفسرين (٦) .

(١) _ البحر المحيط ٢٣٩/٤

(٢) _ التفسير الكبير ١٦٣/١٣ ، البحر المحيط ٢٣٩/٤

(٣) _ التفسير القرآني ٣٢٧/٤

(٤) _ جامع البيان ١٧٠/١٢

(٥) _ فتح القدير ١٦٩/٢

(٦) _ ٤٥٨/١

وعقب ابن كثير على قولهم بالنسخ ، بقوله : " في تسمية هذا نسخاً نظر ؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته " (١) .

وقال القاسمي : ولا نظر لأن السلف يسمون مثل هذا نسخاً (٢) .

القول الثاني : وأن الحق هو الزكاة المفروضة ، وأن الآية مدنية ، روي هذا القول عن ابن عباس وأنس - رضي الله عنهما - وغيرهما . والأمر بإيتائها يوم الحصاد ، للمبالغة في العزم على المبادرة إليه ، وقال به بعض المفسرين (٣) (٤)

وأوجب الله الحق في الثمار والحب يوم حصادها ؛ لأن الحصاد يراد للإدخار ، فهو مظنة الغني الموجبة لإعطاء الزكاة ، و الحصاد مبدأ تلك المظنة فلم يوجب عليه الحق إلا عند الحصاد (٥) والحصاد كذلك بمنزلة حولان الحول ، وهو الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء ، ويسهل إخراج الزكاة وقتها ، ويظهر من أخرج ممن لم يخرج (٦)

ثم انتقلت الآيات إلى النهي عن الإسراف والتوسط في كل الأمور ، وهذا هو منهج دين الإسلام دين الوسطية في كل الأمور .

السرف والإسراف لغة : ضد القصد ، وهو تجاوز الحد ، والسرف الذي نهى الله عنه فهو ما أنفق في غير طاعة الله قليلاً كان أو كثيراً والإسراف في النفقة التبذير (٧)

السرف شرعاً : مجاوزة الحد في كل فعل أو قول ، وهو في الإنفاق أشهر (٨)

(١) _ تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٩

(٢) _ محاسن التأويل ٦/٢٥٢٦

(٣) _ بحر العلوم ١/٥٠٦ ، اللباب في علوم الكتاب ٨/٤٧٢ ، السراج المنير ١/٣٥٩ ، تيسير الكريم الرحمن ١/٢٧٦

(٤) _ الأقوال بالتفصيل ، جامع البيان ١٢/١٥٨ وما بعدها ، بحر العلوم ١/٥٠٧ ، معالم التنزيل ٣/١٩٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٧/٩٩ ، لباب التأويل ٢/١٩٠ اللباب في علوم الكتاب ٨/٤٧٢ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤٨-٣٤٩ ، السراج المنير ١/٣٥٩ .

(٥) _ التحرير والتنوير ٨/١٢٢

(٦) _ تيسير الكريم الرحمن ١/٢٧٦

(٧) _ معجم مقاييس اللغة ٣/١٥٣ ، مادة (سرف) ، مفردات غريب القرآن ص ٢٣٠ ، لسان العرب ٩/١٤٨ ، تاج العروس ٢٣/٤٢٨

(٨) _ شرح النووي على مسلم ١٧/٧٢ ، فتح الباري ١٠/٢٥٣ ، سبل السلام ٤/١٥٩-٤/٢٢٣ ،

ومما سبق يتبين أن المعنى اللغوي لا يختلف عن المعنى الشرعي ، فهو أيضا مجاوزة الحد في إنفاق المال وغيره .

والإسراف في الآية يراد به وجوه :

- النهي عن الإسراف في الأكل .

- النهي عن الإسراف في الصدقة .

- النهي عام يشمل الإسراف في كل شئ فهو مذموم في كل شئ ، واختار هذا القول الطبري (١) ونقله ابن كثير عنه ، وقال بعده : ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية أن يكون عائداً على الأكل (٢)

فالإسراف منهي عنه في الأكل وفي الحصاد والصدقة وفي كل الأمور ؛ لأنه - سبحانه - لا يجب المسرفين .

لما يتسبب الإسراف به من ضرر على الإنسان وعلى أهله ومجتمعه ، فإذا أسرف في الطيبات قد يحتاج للمال الكثير ، وقد يسعى لكسبه بطرق غير مشروعة فيسوء بالإثم في الدارين ، وقد تمحق البركة من ماله فيتضرر وعياله من ذلك .

انطوت هذه الآية الكريمة على مبدأ من المبادئ القرآنية التي تكرر ذكرها في مناسبات عدة ، وهو إباحة الاستمتاع بكل طيب حلال من ماشية وزرع وشجر ونحوها ، في حدود الاعتدال وعدم الإسراف ، مع إعطاء كل ذي حق حقه ، والحذر من التحليل والتحريم وفقاً لتقاليد واعتبارات لا تستند إلى شرع إلهي ، ومحاربة كل تقليد وعادة واعتبار من شأنه أن يخل بذلك في تلك الحدود (٣)

وقد عدّ العلماء هاتين الآيتين الأصل في وجوب زكاة الحبوب والثمار (٤)

(١) - جامع البيان ١٢/١٧٦

(٢) - تفسير القرآن العظيم ٣/٣٥٠

(٣) - التفسير الحديث ٤/١٦٧

(٤) - الحاوي في فقه الشافعي ٣/٢٠٩ العدة شرح العمدة ١/١٢٤ ، المغني ٢/٥٤٧ ، شرح الزركشي ١/٣٧٩ ، المبدع شرح المقنع ٢/٣٠٧ ، أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١/٣٨٥ ، الروض المربع شرح زاد المستنقع ١/١٤٢ ، كشاف القناع عن متن الإقناع ١/٢ الشرح الممتع على زاد المستنقع ٦/٦٧ ، فقه السنة ١/٣٤٧

المطلب الرابع : توظيفها في الترهيب من الذنوب :

يجد المتأمل في آيات الله تنوع الأساليب القرآنية في الدعوة إلى الله -تعالى- ومنها أسلوب الترغيب فيما عنده ، والترهيب من الذنوب ؛ ليحتمل الخوف والرجاء في نفس الإنسان . وقد أكد كثير من المفسرين اعتماد القرآن الكريم على أسلوب الترغيب والترهيب ، يقول ابن كثير: وكثيراً ما يقرن -تعالى- في القرآن بين هاتين الصفتين ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة ، وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا ؛ لينجع في كل بحسبه (١)

ومن الأمور التي جاء الترهيب بها من الذنوب وبيان عاقبتها العاجلة والآجلة : استخدام الأشجار والثمار والجنات في تخويف الناس وبيان مصير الأمم الخالية ، وكيف كانت عاقبتها الخسران المبين في الدارين ، ومن تلك الآيات الكريمة آيات تدل على عموم الأمم المكذبة ، ومنها ما نصت على بعض تلك الأمم ترغيباً بعمل المنجيات ، وترهيباً من عمل المهلكات التي أودت بهم .

يخاطب الله - سبحانه وتعالى- الإنسان العاقل الذي ينظر حوله ويتأمل ما يحيط به فيعرف أن هذا الكون لم يخلق عبثاً وأن له شأناً في الكون فهو الذي زوده الله - سبحانه وتعالى- بالعقل .

فيقول - سبحانه وتعالى- مخوفاً الكفار من سوء مصير من سبقهم مع أنهم أكثر منهم قوة وأكثر

أموالاً وأولاداً وتمكيناً في الأرض ، قال -تعالى- ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

يُظْلِمُونَ ﴿ (٢)

فهل غفلوا ولم يسيروا في الأرض فيروا ما حل بالأمم السابقة ، والتي كانوا يعرفون بعضها كعاد وثمود ، وكيف كانت عاقبتها عندما كذبت برسولها ، ثم ذكر - سبحانه- أن كفار مكة أولى بالهلاك ؛ لما للسابقين من قوة وعتاد ومال ليس عندهم .

(١) _ تفسير القرآن العظيم ٣/٣٨٥

(٢) _ سورة الروم الآية ٩

قال الرازي : " واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء : قوة جسمية فيه ، أو في أعوانه إذ بها المباشرة ، وقوة مالية إذ بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهرية يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر " (١)

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قوة السابقين فكانوا أشد منهم قوة في الجسم والضحامة ، وأكثر منهم مالاً ؛ لأنهم احتاجوا لحرارة الأرض وكفار قريش لا حرارة لهم ، وتنوع أموالهم بإثارة الأرض . وإثارة الأرض تكون بتقليبها للزراعة ؛ واستخراج ما في الأرض من المنافع من المياه والمعادن والزروع ، فأهل مكة لم يكونوا أهل حرث (٢)

وعمروا الأرض بالأبنية الرفيعة والحصون المنيعة ، أما أهل مكة فكانت يسيرة . ثم جاءتهم رسلهم بالبينات والهدى فكذبوهم وآذوهم فانقم الله - تعالى - منهم فأهلكهم . فاعتبروا يا أولي الأبصار . قال ابن كثير عند شرح الآية الكريمة : " كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتهم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعمازاً طويلاً فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال " (٣)

وهنا وقفات مع بعض مآلات الأمم المكذبة :

أ - سوء مال آل فرعون :

من الأمم التي جاء ذكر عذابها في الدنيا : آل فرعون حيث أهلكهم الله - سبحانه وتعالى - وحذر من فعلهم ، وبين الفرق بين حالتهم والنعيم الذي كانوا فيه ، فقال - سبحانه -

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتِ وَعَيْونِ ﴿٥٧﴾ وَكُنُونِ وَمَقَامِ كَرِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٤)

(١) _ التفسير الكبير ٨٣/٢٥

(٢) _ جامع البيان ٧٨/٢٠ ، معالم التنزيل ٢٦٢/٦ ، زاد المسير ٢٩٠/٦ ، الجامع لأحكام القرآن ٩/١٤ ، - (٦) / ٢٩٠ ، نظم الدرر ٦٠٤/٥

(٣) _ تفسير القرآن العظيم ٣٠٦/٦

(٤) _ سورة الشعراء ٥٧_٥٨

أي : فأخرجنا فرعون وجنده - بقدرتنا ومشيتنا - من النعيم الذي كانوا فيه إلى الجحيم ، ليلقوا مصيرهم السئ الذي يستحقونه وهو الهلاك بالغرق بسبب إصرارهم على الكفر والطغيان .
فأخرجناهم من أرض مصر (١) ، والجنات والبساتين الخضراء التي كانت على ضفاف النيل ، والعيون والأنهار الجارية .
والكنوز وهي : الأموال المدخرة المكنوزة ، والدفائن ، قال مجاهد : سمّاها كنوزاً لأنها لم تنفق في طاعة الله سبحانه (٢) .

والمقام : قيل المنازل الحسان وقيل المناير وقيل مجالس الرؤساء والأمراء وقيل مرابط الخيل والأول أظهر (٣) . والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية البهيجة (٤) التي تعجب الناظرين ، فتمتعوا بها زمناً طويلاً مع كفرهم وعنادهم وظلمهم لغيرهم .

ونظير الآية قوله - تعالى - ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٥﴾ ﴾

النعمة هي الحالة الحسنة التنعم ، وطيب العيش (٦)
والنعمة بفتح النون : غضارة العيش ولذاذة الحياة ، والنعمة بكسر النون أعم من هذا ، لأن النعمة بالفتح هي من جملة النعم بالكسر ، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نعماً ، ولا يقال فيها نعمة بالفتح (٧) .
فاكهين أي : متعممين متلذذين ، ومنه ومنه الفاكهة ، وهي ما يتفكه به ؛ أي : يتنعم ويتلذذ بأكله .

-
- (١) _ الجامع لأحكام القرآن ١٠١/١٣ ، البحر المحيط ١٨/٧ ، تفسير القرآن العظيم ٢٥٣/٧ ، فتح القدير ١٠١/٤
(٢) _ الكشف والبيان ١٦٥/٧ ، التفسير الكبير ٥٠٦/٢٤ ، البحر المحيط ١٨/٧ ، اللباب ٣٢/١٥ .
(٣) _ فتح القدير ١٠١/٤
(٤) _ جامع البيان ٣٥٤/١٩ ، التفسير الكبير ٥٠٦/٢٤ ، مدارك التنزيل ١٥١/٣ ، لباب التأويل ١١٨/٥ ، البحر المديد ١٣٧/٤
(٥) _ سورة الدخان الآيات ٢٥-٢٧
(٦) _ معجم مقاييس اللغة ٤٤٦/٥ ، مادة (نعم) مفردات غريب القرآن ٤٩٩/١ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ص ٩١٣
(٧) _ المحرر الوجيز ٧٣/٥

وقرئ : فاكهين وفكهين (١)

قال ابن كثير : " عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير " (٢)

ب - قوم عاد وثمود :

عرض القرآن الكريم قصصاً لأمم مكدبة كافرة ، منها قوم عاد (٣) و ثمود (٤) اله تعالى بذنوبهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، وقهم نقل القرآن الكريم طرفاً من محاوره أنبيائهم لهم ، ودعوتهم إياهم بالترغيب والترهيب وشتى الأساليب ، ومنه قول صالح - عليه السلام - لقومه ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا

هَهُنَاءَ آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ ﴿٥﴾

أي : أتتركون في هذا الخير والنعيم الذي ترفلون فيه والعيش الرغيد في البساتين والأنهار التي تملكونها ، والزروع والنخيل ذات الطلع الهضيم ، أي :

أي قد ضمّ بعضه بعضاً ، و الهضيم الرطب النضيج المتدلي لكثرتة (٦)

(١) _ الكشاف ٢٧٦/٤ ، التفسير الكبير ٢٧٠/٢٧

(٢) _ تفسير القرآن العظيم ٢٥٣/٧

(٣) _ هم من نسل عاد بن عوص بن إرم ، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانوا عربياً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام . ينظر ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠٤/١٦ ، البداية والنهاية ١٣٧/١-١٣٨ ، ١٤١/١ ، التحرير والتنوير ٤٥/٢٦ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣١٠/١ ، ٢٩٦/١

(٤) _ هم أبناء ثمود بن غاثر بن إرم ، وهم أمة عظيمة من العرب البائدة كانت مساكنهم بالحجر بكسر الحاء وسكون الجيم بين الحجاز والشام ، وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح وسمي في حديث غزوة تبوك : حَجْرٌ ثَمُودٌ ، أرسل الله - سبحانه وتعالى - إليهم نبي الله صالح - عليه السلام - . ينظر ، البداية والنهاية ١٥٠/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٤٥/١ ، ٧/٢ ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٤٥/١ ، التحرير والتنوير ٢١٥/٨-٢١٦ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٩٦/١ ، ٣٢٣/١ ، ٣٢٥/١ ، ٥٥/٥ .

(٥) _ سورة الشعراء الآيات ١٤٦-١٤٨

(٦) _ مجاز القرآن لأبي عبيدة ٨٨/٢ ، الغريبين في القرآن والحديث ص ١٩٣٢ ، لسان العرب ٦١٣/١٢ ، مادة

(هضم)، تاج العروس ١٠٦/٣٤-١٠٧ ، الهادي إلى تفسير غريب القرآن ص ١٨٧

فلَمَّا لم يستجيبوا لنصحه ، جاءهم العذاب المبين ، وتعرضوا للهلاك الشامل العاجل في الدنيا ،
والعذاب الخالد المؤجل في الآخرة .

وفي آيات كريمة أخرى حذّر الله -تعالى- من نتيجة فعلهم ، وبيّن كيف كانت عاقبتهم في الدنيا
وقد وصف الله - سبحانه وتعالى- عذابهم وهياتهم في آيات متفرقة ، منها :

أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا كَالنَّخْلِ الْمُنْقَلَعِ مِنْ أَصْلِهِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ - تعالى - ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ

نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ (١)

والأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشيء وأسفله . وأعجاز النخل : أصولها التي تقوم عليها (٢)
منقعر : أي مقتلع من أصوله ، يقال قعرت النخلة : أي قلعته من أصلها فانقعرت وقعر الشيء
نهاية أسفله (٣)

ووصفهم في آية أخرى بأنه - سبحانه - جعلهم صرعى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٤)

خاوية أي : خالية ، منقلعة (٥)

فأصبحوا كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف فارغة لم يبق من نسلهم أحد .

قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمي بهم على رؤوسهم ، فتدق أعناقهم ، وتبين
رؤوسهم من أجسادهم (٦)

وفي الآيتين تصوير للهالكين وهم صرعى متفرون كصورة أعجاز النخل المنقعر ، وصورتهم بعد أن
بليت أجوافهم كصورة أعجاز نخل خاوية (٧)

(١) - سورة القمر الآية ٢٠

(٢) - معجم مقاييس اللغة ٢٣٢/٤ ، مادة (عجز) ، مفردات غريب القرآن ٣٢٢/١ ، كتاب العين ، مادة (عجز) ،

القاموس المحيط ٦٦٣/١ ، فصل العين ، تاج العروس ١٩٩/١٥ ، مادة (عجز)

(٣) - مفردات غريب القرآن ص ٤٠٩ ، كتاب القاف ، مادة (قعر) لسان العرب ١٠٨/٥ ، تاج العروس ١٣/٤٥٤

(٤) - سورة الحاقة الآية ٧

(٥) - الصحاح ٢٣٣٣/٦ ، مادة (خلا) ، تحفة الأريب ص ٩٦ ، تاج العروس ٢٣/٣٨ ، مادة (خوي)

(٦) - المحرر الوجيز ٢١٦/٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣٦/١٧

(٧) - الأمثال القرآنية للميداني ١٢٤

ويشبهه هيئة الهالكين بالشجر الجاف اليابس ، فيقول - سبحانه وتعالى- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ (١) فصاروا بسبب كفرهم كهشيم المحتظر ، والهشيم هو النبات اليابس المتكسر ، مفردة هشيمة (٢) والمحتظر صاحب الحظيرة (٣) وقيل في معنى كهشيم المحتظر ، أي : المحترق ، وروي هذا القول عن ابن عباس وقتادة ، وقيل : العظام المحترقة (٤) فكان عاقبة أمرهم خسراً . فهل من متعظ ومعتبر .

(١) _ سورة القمر الآية ٣١

(٢) _ المعجم الوسيط - (٢ / ٩٨٧) تاج العروس ١٠٠/٣٤ ، مادة (هشم) لسان العرب ٦١١/١٢

(٣) _ معجم مقاييس اللغة ٨١/٢ ، مادة (حطر) مفردات غريب القرآن ص ١٢٣ ، المعجم الوسيط ١٨٣/١

(٤) _ جامع البيان ٢٢/٥٩٣_٥٩٤ ، النكت والعيون ٤١٦/٥ المحرر الوجيز ٢١٨/٥ ، زاد المسير ٩٨/٨ ، مدارك التنزيل

١٦١/٤ ، البحر المحيط ١٨٠/٨ ، فتح القدير ١٢٨/٥

ج - قصة سبأ :

أورد الله - سبحانه وتعالى - قصة سبأ تحذيراً لقريش وترهيباً لهم ، ووعيداً لكل من يكفر بنعم الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١﴾

سبأ : قيل : هو اسم للبلد وهي مأرب^(٢) ، والمراد أهلها ، سميت باسم جد لهم وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة باليمن ، قيل : سمي بسبأ ؛ لأنه أول من سبى في غزوة ، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ^(٣) .
اختلف القراء في قراءة (من سبأ) ، فقرأ بالصرف والمعنى أنه رجل اسمه سبأ ، وقرئ بمنع الصرف على إنه اسم قبيلة أو امرأة^(٤) .

وكلا القراءتين مشهورتين كما قال الطبري ، فأيهما قرأ القارئ بها فمصيب^(٥) .
قصة سبأ تمثل أمة بأمة ، وبلاد ببلاد أخرى ، وفي ذلك عبر وعظات للمعتبرين ، ومن نعم الله - سبحانه وتعالى - ولطفه بالناس عموماً ، وبالعرب خصوصاً ، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ، ممن كان يجاور العرب ، ويشاهد آثاره ، ويتناقل الناس أخباره ؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق ، وأقرب للموعظة^(٦) .

(١) - سورة سبأ الآيات ١٥ - ١٧

(٢) - مأرب : اسم المكان من الأرب ، وهي الحاجة وقيل غير ذلك ، وهي مدينة باليمن على ثلاثة أيام من صنعاء ، وهي بلاد الأزدي باليمن . ينظر : الدرر الثمين في أخبار المدينة ٢/٢٨١ ، معجم البلدان ٥/٣٥ ، الروض المعطار في خبر الأقطار ١/٥١٥

(٣) - الكامل في التاريخ ١/١٧٦ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٥٢ ، تفسير مبهمات القرآن ٢/٢٨٦-٢٨٧ ، وينظر : مرويات أحمد في التفسير ٣ / ٤٤٤

(٤) - جامع البيان ١٩/٤٤٥ ، النكت والعيون ٤/٢٠٣ ، معالم التنزيل ٦/١٥٥ ، الكشف ٣/٣٥٩ ، المحرر الوجيز ٤/٢٥٥ ، زاد المسير ٦/١٦٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٨١ ، حجة القراءات ١/٥٢٥

(٥) - جامع البيان ١٩/٤٤٦

(٦) - تيسير الكريم الرحمن ١/٦٧٧

فقد كان في حال سبأ ومعيشتهم آية ودلالة بتقلب الأحوال والأزمان بسبب الكفر والضلال ، وقد كانت نعمه ظاهرة عليهم ومع هذا كفروها ، وكانت أرضهم خصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، عن يمين الوادي وشماله ، وزاد نعيمهم بعد أن أقاموا سد مأرب ؛ فيجتمع به ماء المطر ويأخذون منه قدر حاجتهم ، فكانوا في أرغد عيش وأهنأه ، وبعث الله لهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فجاءهم أمر الله -تعالى- وسنته التي قضاها في الأمم الكافرة ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد .

والإرسال يراد به الإطلاق وهو ضد الحبس ، وتعديته ب (على) يؤذن أنه إرسال نعمة وعذاب (١) ، فانهدم السد واندفع الماء فأغرق أراضيهم وأموالهم وأتلفها .

والعَرم : جمع عَرِمَة ، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته ، أي يسيل واديهم الممسوك بما ذكر فأغرق جناتهم وأموالهم .

و فيه أقوال ، منها : عَرِمَة ، وقيل الوادي ، وقيل : المطر الشديد أو السد ، وقيل العرم هنا : اسم الجُرْذ (٢)

والعرم واد في اليمن يقال له وادي الشجر ، وكان فيه مصفاة يجسسون الماء في الوادي بذلك ، وكان لها ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض فهدم الله -تعالى- تلك المصفاة وأهلكهم بذلك الماء (٣)

خِمْط : كل شجر ذي شوك أو مرارة ، وقيل : شجر الأراك (٤)

وأثل : شجر يشبه الطرفاء ، أعظم منه وأجود ، وقيل : السمر (٥)

(١) _ التحرير والتنوير ١٦٩/٢٢

(٢) _ العمدة في غريب القرآن ص ٢٤٦ ، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٤٨/٤ ، الهادي إلى تفسير غريب القرآن ص ٢٠١ ، من نسمات القرآن ص ٤٥٣

(٣) _ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٦٠

(٤) _ تفسير الضحاك ٦٤٨/٢ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١٤٧/٢ ، تفسير ابن فورك ١٣٩/٢ ، تحفة الأريب ص ٩٠ ، التعليق المتقن ص ٣٠ ، الهادي إلى تفسير غريب القرآن ص ٢٠١

(٥) _ بحر العلوم ٨١/٣ ، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ٥٥/١ ، من نسمات القرآن ص ٤٥٣ ، تهذيب السجستاني ص ١٥١

وقوله ﴿وَشَىءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر ، فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل (١) .

فبدلناهم بتلك الجنان اليانعة التي كانوا يتنعمون بها ، هذه الأشجار المرة ، التي لا يؤكل ثمرها ، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدل تلك الأشجار التي كانوا ينتفعون بها أعظم نفع .

وإطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكم (٢)

وهذا هو جزاؤهم العادل لكفرهم وعصيانهم .

فاعتبروا منهم واعلموا عاقبة بطر النعمة وكفرها الذي يؤدي إلى زوالها .

د - قصة أصحاب الجنة :

يُذَكِّرُ اللهُ - سبحانه وتعالى - أهل مكة بقصة أصحاب الجنة ؛ ليعتبروا بما حالت إليه حالهم ، وحتى لا يكونوا مثلهم فكلا الفريقين أنعم الله عليهم نعمًا عظيمة ، ولكنهم قابلوها بالكفران والجحود .

فيقول - سبحانه - عن ابتلائهم ومصيرهم ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا

مُصْرِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

فَنَادَوْا مُصْرِمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ ائْتِدُوا عَلَيْنَا حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانظُرُوا وَهُمْ يَوَخَفُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا

يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ

مُخْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا نُبَلَاءُ إِنَّا كُنَّا طَائِعِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(١) _ تفسير القرآن العظيم ٥٠٨/٦

(٢) _ التحرير والتنوير ١٧١/٢٢

(٣) _ سورة القلم ١٧_٣٣

قال ابن كثير : " هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمخاربة " (١)

يقول الله -تعالى- أنه -سبحانه- ابتلى أهل مكة بالجوع والقحط ، كما ابتلى أصحاب الجنة المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها ؛ فلما مات صارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها ومخلوا بحق الله فيها ؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها (٢)

فهؤلاء أقسموا على قطف ثمر البستان دون أن يقولوا إن شاء الله ، وصمموا على حرمان الفقراء منه ، فطاف عليها طائف ، الفاء للتعقيب ، فبعد أن أعدوا عدتهم في المكر ، وأكدوه بالقسم ، أوقع الله بهم ما يستحقون من العذاب المهلك المحيط بهم ، ومع أنه عند الله هين يسير إلا أنه أهلك جنتهم ، وكان عظيمًا بحيث لم يترك بها شيئًا .

ولم يعين جنسه ؛ لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك ، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه ؛ لأن العبرة في الحاصل به كما قال ابن عاشور (٣)

فأصبحت جنتهم كالصرم ، والصرم : القطع ، قيل في معناه : كالليل في السواد ، وقيل : كالصبح من حيث ابيضاضه كالخصيد ، وقيل كالرماد الأسود وهو قول ابن عباس - رضي الله عنه - ، وقيل : رملة معروفة لا تنبت شيئًا فشبّه جنتهم بها ، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنه - كذلك ، وغيره (٤) فلما جاء الصباح وغدو على حرد قادرين ، أي : قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها (٥) ذهلوا لما أصابها حتى إنهم لم يعرفوها ، فأدركوا أنهم خسروا ثمرهم وحرّموا منه ، وذكرهم ناصح منهم بعاقبة فعلهم ونصحهم بالاستغفار والرجوع إلى

(١) _ تفسير القرآن العظيم ١٩٥/٨

(٢) _ جامع البيان ٥٤٢/٢٣ ، معالم التنزيل ١٩٤/٨ ، لطائف الإشارات ١٠٤/٨ ، زاد المسير ٣٣٥/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٩/١٨ ، البحر المحيط ٣٠٦/٨

(٣) _ التحرير والتنوير ٨١/٢٩

(٤) _ جامع البيان ٥٤٤/٢٣ ، النكت والعيون ٦٧/٦-٦٨ ، معالم التنزيل ١٩٥/٨ ، المحرر الوجيز ٣٤٩/٥ ، البحر المحيط ٣٠٦/٨

(٥) _ ٣٧٢/١

الله - سبحانه وتعالى - والاعتراف بظلمهم وطغيانهم على أمل أن يتوب الله عليهم ويعوضهم عما فاتهم .

ولكن مضى قدر وبقي أسف وليذوقوا عاقبة كيدهم (١) ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

وقد ابتدأت الآيات بما يفهم منه أن الله قد امتحن المكذبين بما امتحن به أصحاب البستان ، وانتهت بالتنويه والترهيب من عذاب الله الشديد الذي يصيب من جحد نعم الله عليه مهما كانت قوته ومهما كان النعيم الذي يرفل فيه ، وهذا عذاب دنيوي أما ما يصيبهم في الآخرة فهو أشد وأنكى .

الترهيب من طعام أهل النار :

يخبر الله - سبحانه وتعالى - في آيات كريمة كثيرة عن الطعام الذي سيكون للكفار الجاحدين بنعم الله - تعالى - والكافرين برسله وآياته ، فالزقوم هو طعامهم الذي يتزقموه لمرارته وكراهية رائحته ، وهي شجرة من أحبث الشجر ، وأنها بعد أكلها كالمهل الذي يغلي في البطن كغلي الحميم والعياذ بالله ، وجاء ورودها في آيات كريمة ﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَانَهُ رِءُوسُ الشَّيْطَانِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ﴿ (٢)

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾ (٣)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطُ الْمُكْذِبُونَ (٥١) لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَمِيمِ (٥٥) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٤)

(١) - قصص القرآن ص ٩٤

(٢) - سورة الصافات الآيات ٦٢-٦٧

(٣) - سورة الدخان الآيات ٤٣-٤٦

(٤) - سورة الواقعة الآيات ٥١ - ٥٦

من المعلوم أن الزقوم من أخبث الشجر المر الذي يعرفه العرب ، وينفرون منه ، والنظم القرآني لا يقف عند حدود هذه المعرفة على قدر ما فيها من البشاعة والتنفير ، بل يضيف إليها عن طريق التصوير البياني ما يزيد النفس منها نفوراً فهي ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ (٤٥) كغلي الحميم (١)

وذكر - سبحانه - في آية أخرى أن الضريع هو طعامهم فيقول - سبحانه - ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ﴾ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٢)

والضريع ، هو : يابس الشَّبْرَقِ (بكسر الشين المعجمة وسكون الموحدة وكسر الراء) وهو نبت ذو شوك إذا كان رطباً ، فإذا يبس سمي ضريعاً ، وحينئذ يصير مسموماً وهو مرعى للإبل والحُمُر الوحش إذا كان رطباً ، فما يعذب بأهل النار بأكله شبه بالضريع في سوء طعمه وسوء مغيبته (٣). وقيل : الضريع اسم سمى القرآن به شجراً في جهنم ، وأن هذا الشجر هو الذي يسيل منه الغسلين الوارد في قوله - تعالى - ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ ﴾ (٤) أي ليس لهم طعام إلا ما يخرج من الضريع ، والخارج هو الغسلين وقد حصل الجمع بين الآيتين (٥) فالطعام الذي يتناولونه طعام تعذيب وإيلام لهم فلا ينفعهم ولا يسد جوعهم ، فمن كان طعامه الزقوم والضريع والغسلين طعامه فلا طعام له .

ووصف طعامهم وعذابهم وصف قوي رهيب يثير الرعب والفرع في قلوب الطغاة المجرمين الجاحدين ؛ ليرعوا ويقوي عزائم المتقين في الجد والاجتهاد (٦)

(١) _ باختصار ، النظم القرآني في سورة الرعد ص ١٩٨-١٩٩

(٢) _ سورة الغاشية الآيات ٦-٧

(٣) - معاني القرآن للفراء ٢٥٧/٣ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٩٦/٢ ، تأويل مشكل القرآن ٤٨/١ ، النكت الدالة على البيان ٥١٤/٤

(٤) _ سورة الحاقة الآية ٣٦

(٥) _ التحرير والتنوير ٢٩٧/٣٠

(٦) - الأنوار الساطعات ٢ / ١٧٤

المطلب الخامس : ابتلاء آدم وحواء - عليهما السلام - :

صور القرآن الكريم قصة آدم - عليه السلام - وزوجه في الجنة ، وكيف خرجا منها بعد غواية الشيطان لهما ومكره وكيده ، وجاءت قصته في آيات كثيرة تختلف في الإيجاز والطول (١)

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ (٢)

﴿ وَيَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ

هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا يَتَرَوِرَّ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ (٣)

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ

فَعَوَّىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ (٤)

أكرم الله - سبحانه وتعالى - آدم - عليه السلام - وفضله على غيره ، وأتم نعمته عليه بأن خلق

منه زوجة يسكن إليها ، وأسكنه الجنة يعيش فيها ويتخذها منزلاً ومأوى ، بلا هم ولا كد

ولا تعب .

(١) - ذكر د. فاضل السامرائي فروعاً لطيفة بين قصة آدم في سورة البقرة والأعراف وطه في كتابه (التعبير القرآني)

ص ٢٨٦-٢٩٤

(٢) - سورة البقرة الآيات ٣٥ - ٣٦

(٣) - سورة الأعراف الآيات ١٩ - ٢٢

(٤) - سورة طه الآيات ١٢٠ - ١٢٢

وفي قوله تعالى : { اسْكُنْ } تنبيه على الخروج ، لأن السكنى لا تكون ملكاً ، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة (١) وهو سكن على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث (٢)

الخلاف في الجنة :

وقد اختلفت آراء العلماء في المراد بالجنة التي سكنها آدم - عليه السلام - فقيل إنها دار الثواب؛ لسبق ذكرها في هذه السورة ، وفي ظواهر السنة ما يدل عليه ، و لأن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم ؛ لأن سكن جميع الجنان مُحال ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق ، وجنة الخلد هي المعهودة بين المسلمين ، فوجب صرف اللفظ إليها ، وهذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق ، فهي إذاً في السماء حيث شاء الله منها ، وعليه جمهور أهل السنة .
وقيل : إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، وكانت بستاناً في الأرض واختلفوا في تحديدها .

وقد ساق ابن القيم الأقوال كاملةً وأدلة الفريقين دون أن يرجح شيئاً منها (٣)

أخرج ابن كثير الحديث الذي حاج فيه آدم موسى - عليهما السلام - وهو قوله -صلى الله عليه وسلم- "حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني -أو: قدره الله علي قبل أن يخلقني -" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فحج آدم موسى" (٤)
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يجمع الله الناس فيقوم المؤمن حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم " (٥)

(١) _ الجامع لأحكام القرآن ٢٩٩/١ ، لباب التأويل ٤٨/١

(٢) _ إرشاد العقل السليم ٩١/١

(٣) _ حادي الأرواح ١٩/١ . وينظر : اللباب ٥٥٠/١ ، ، التفسير الكبير ٤٥٢/٣ ، البحر المحيط ٣٠٨/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٣٣/١ ، السراج المنير ٤٨/١ ، إرشاد العقل السليم ٩٠/١ ، روح المعاني ٢٣٤/١ ، التحرير والتنوير ٣٨/٨ ، تفسير المراغي ٩٠/١ ، التفسير الوسيط ٩٩/١ ، تفسير القرآن الحكيم لمحمد خفاجه ١٣٣-١٣٤

(٤) _ أخرجه البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : قوله : { فلا يخرجكما من الجنة فتشقى } ، ح ٤٧٣٨ ، ص ٣٩٨

(٥) _ جزء من حديث ، أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : أدنى أهل الأرض منزلة ، ح ٤٨٢ ،

علق ابن كثير بعد أن روى هذين الحديثين في البداية والنهاية بقوله :

" وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر " (١)

وعندما سكن الجنة أباح الله - سبحانه وتعالى - له كل شئ فيها ، فله أن يأكل من ثمارها ما يريد أكلاً هنيئاً واسعاً من غير انقطاع ، إلا شجرة واحدة نهاه عن الاقتراب منها ؛ لأن الاقتراب منها يكون للأكل ، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل ؛ لأن النهي عن القرب من الشئ قطع للميل إليه وللتلبس بفعله .

وقد جاء في الحديث الصحيح النهي عن الاقتراب من مواطن الشبهات ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه " (٢)

فأباح لهما الأكل و أطلقه ، وهو كما قيل " إطلاق وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة ، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة ، حتى لا يبقى لهما عذر في تناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفاتئة للحصر " (٣)

وقد علل النهي بأنهما إذا أكلا منها فسيكونان من الظالمين لأنفسهما ، لفعلهما ما نهى الله عنه ، فيعاقبهما - سبحانه - وفي هذا بلاء لهما واختبار ، وقد أشار بعض المفسرين إلى الحكمة في المنع من الأكل من الشجرة ، يقول الطبري :

" فلما أسكن الله عز و جل آدم عليه السلام وزوجه أطلق لهما أن يأكلا كل ما شاء أكله من كل ما فيها من ثمارها غير ثمر شجرة واحدة ابتلاء منه لهما بذلك وليمضي قضاء الله فيهما وفي ذريتهما " (٤)

(١) _ البداية والنهاية ١/٨٢-٨٣

(٢) _ جزء من حديث ، أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : فضل من استبرأ لدينه ، ح ٥٢ ص ٦ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : المساقاة ، باب : أخذ الحلال وترك الشبهات ، ح ٤٠٩٤ ، ص ٩٥٥

(٣) _ ينظر : الكشف ١/١٢٧ ، التفسير الكبير ٣/٤٥٢ ، إرشاد العقل السليم ١/٩٠ ، الفتوحات الإلهية ١/٤٦ ،

حدائق الروح والريحان ١/٣١٥

(٤) _ تاريخ الرسل والملوك ١/٧١ ، وينظر : زاد المسير ١/٦٧

الخلافا في نوع الشجرة وتحديدها :

كشف الله - سبحانه وتعالى - لآدم تلك الشجرة إشارةً كاشفةً ، ولكنه - سبحانه - لم يبين لنا نوعها في القرآن الكريم ، ولا صفتها ، إلا أنها نوع من شجر الجنة التي سكنها ، واختلف العلماء في تحديد نوعها ، ف قيل :

أنها الكرم ، وقيل : هي شجرة الكافور ، وقيل : التين ، وقيل : العنب ، وقيل : شجرة العلم ، عليها من كل لون ، ومن أكل منها علم الخير والشر . ، وقيل هي شجرة الخلد (١) وقيل : شجرة لم يعلمنا الله ما هي ، واستظهر ذلك ابن حيان إذ لا يتعلق بمعرفتها كبير أمر ، وإنما المقصود إعلامنا أن فعل ما نهيينا عنه سبب للعقوبة ، والأحوط والأسلم : الكف عن تعيينها وعن القطع به (٢) ومحاولة معرفتها والعلم به هو كما قال الطبري : " وذلك علم ، إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به " (٣)

وقال ابن كثير : " وقد أهدم الله ذكرها وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن " (٤)

فأزلهما الشيطان وأغواهما حسداً لهما ؛ لما هم فيه من نعمة ولباس حسن ، وأنساها نهي الله له عن تلك الشجرة وتحذيره من اتباع الشيطان ومن وسوسته ، ودخل عليهما من مدخل حب الإنسان للخلود والدة والراحة ، وأتاها بصورة ناصح متلطف في الكلام ، وأوهمهما بأنهما بعد الأكل منها سيكونان ملكين من الملائكة ، وسيكونان مخلدين ، فأطمعهما بذلك . فغرهما بالتزبي بزي الناصحين وإفادة توهم اللذات البدنية والرياسة الأنسية وسول لهما من المنافع البدنية والشهوات النفسية (٥)

(١) _ تفسير السدي ص ١٠٤ ، جامع البيان ٥١٦/١ وما بعدها ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨٦/١ ، المصاييح في تفسير القرآن العظيم ١٢٠/١ ، الكشف والبيان ١٨٢/١ ، الهداية إلى بلوغ النهاية ٢٣٤/١-٢٣٥ ، بحر العلوم ٧٠/١ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١٢١/١-١٢٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٣٠٥/١ ، البحر المحيط ٣٠٩/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٣٤/١ ، الدر المنثور ١ / ٢٨٢ - ٢٨٥

(٢) _ جامع البيان ٥٢١/١ ، البحر المحيط ٣١٠/١ ، وينظر : حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ١٣٥/٢ ، روح المعاني ٢٣٦/١ ، الفتوحات الإلهية ٤٦/١

(٣) _ جامع البيان ٥٢١/١

(٤) _ البداية والنهاية ٨٢/١

(٥) _ تفسير ابن عربي ١ / ١٩٥

فمصدر غواية آدم - عليه السلام - حرصه على نيل درجة الخلد بالإقبال على الأكل من تلك الشجرة المحرمة (١)

فغلب عليهما الضعف البشري ، فاغترا به بقوله وأكلا من الشجرة ، فكشف الله - سبحانه وتعالى - عنهما اللباس ، واتضحت معصيتهما ، وغضب الله - سبحانه - منهما ، وجعلا يجمعان من الأوراق ليغطيا ما انكشف منهما .

فأخذ آدم بقول عدوه ، فأخرجه الله من الجنة عقاباً له في الدنيا ، ثم اجتباه ربه واصطفاه وقبل توبته لما تاب ، وهداه الله - سبحانه - إلى الثبات على الهداية والعزم على عدم عصيان الله - سبحانه - .

فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها ، ورجع كيد العدو عليه ، وأتم الله - سبحانه وتعالى - النعمة على آدم وذريته ، ووجب عليهم القيام بشكر المنعم - سبحانه - والحذر كل الحذر من عدوهم الذي يترصدهم .

و يجب أن يعرف الناس أن الله خلقهم في الأرض وابتلاهم بالشهوات وتعارض الرغبات وقام الشيطان بينهم يغوي ويضل ويكيد ويفرق ، ونظم حياته على قوى الإفساد ، فليحذروه وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية لعلهم يرحمون " (٢)

(١) _ ابتلاء الأنبياء ص ٣٣

(٢) _ تفسير القرآن الكريم ، محمود شلتوت الأجزاء العشرة الأولى ص ٤٧١

من هدايات الآيات :

- أفعال الله - سبحانه وتعالى - مبنية على الحكمة ، ولا يستطيع الإنسان حصرها ولا درايتها ، ومنها إبتلاؤه للإنسان .
- الابتلاء طريق إعداد المسلم لخلافة الأرض والتمكين ، فهو لم يغفل عن سبب وجوده وسر خلقه .
- تكريم الله - سبحانه وتعالى - للإنسان في الإبتلاء واختيار أي الطريقتين : الصبر والشكر ، أم الجزع والكفر ، فيعطي المحسن لإحسانه ، ويجازي المسيء على قدر إساءته .
- بالإبتلاء يقدّر الإنسان النعم قدرها ، ويعرف قيمتها .
- كفر الإنسان بخالقه أعظم جرم يرتكبه الإنسان ، ومن هنا نرى الكافر حين يبتلى بالنعم فإنه يبطر ولا يشكر ، وإن ابتلي بالمصائب تسخط وجزع ، عكس المؤمن الذي يعلم أنه كلما ترقى إيمانه كلما تعرض لأقسى الاختبارات ولنا في الأنبياء وصبرهم أسوة حسنة .
- خلق الله - سبحانه وتعالى - الغنى والفقر مطيتين للإبتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به بل ليستعان به على إقامة حقه (١)
- الإبتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الإبتلاء بالشر ، فالكثير يصمد أمام الشدة والمرض ، ولكن القليل الذي يصبر على الإبتلاء بالصحة والقدرة ، والثراء والمناصب والمتاع. لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الإبتلاء ، وذلك شأن البشر ، إلا من عصم الله - سبحانه - فاليقظة للنفس في الإبتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الإبتلاء بالشر ، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان (٢)
- صبر المؤمن وإيمانه يملأ قلبه بخشية الله - سبحانه وتعالى - وكمال الخضوع له ، ويهون عليه المصائب ويساعده على تحمل المشاق .
- علم الله - سبحانه وتعالى - المحيط لجميع ما في الكون وغناه التام عنهم ومعرفته بدواخلهم وما ستؤول إليه حالهم ، ولكن يخلق وابتلي لإظهار الكمال المطلق والحكمة البالغة .

(١) _ عدة الصابرين ص ١٣٤

(٢) _ طريق الدعوة في ظلال القرآن ١ / ص ٢٣٦-٢٣٧

- المصائب وما يقع على المؤمنين من محن وفتن كلها من الله - سبحانه وتعالى - وكلها كائنة بمشيئة الله - تعالى - الحكيمة ، ففيها الخير العظيم ورفع الدرجات عند الصبر والاحتساب وشكر الله - سبحانه - في كل حال .
- ما يصيب الزرع من آفات تهلكه ، وما ينقص الثمرات فهذا بسبب أعمال الناس وذنوبهم فليعتبروا وليحذروا عذاب الله - تعالى - وإمهاله فإنه يأخذ بأخذ عزيز مقتدر .
- إباحة أكل الثمار كالتمر والعنب والزيتون وغيرها .
- جواز الأكل من الثمار قبل نضجها .
- تفيد الآيات بأن زكاة الخارج من الأرض تؤدي وقت الحصاد ، ولا تتبع قاعدة مرور الحول عليها كأصناف الزكاة الأخرى وذلك للحذر مما قد يصيب النبات من آفة تضره .
- الله - سبحانه وتعالى - خالق الكون وهو - سبحانه - مصدر بقاء الناس في الدنيا وممد لهم بالنعم ، وكذلك هو - سبحانه - مصدر الهداية والتشريع الصالح لكل زمان ومكان ، والنظام المتكامل المتوازن في كافة أمور الحياة حفظاً للفرد والمجتمع ودلالة على صلاحية الدين الإسلامي في كل زمان ومكان ، فالحمد لله على نعمة الإسلام .
- الوسطية منهج القرآن الكريم في كل شئ ، وهذا المعنى يتكرر إيراداً في القرآن كثيراً ، ولذا فقد نهى القرآن الكريم عن الإسراف ومجاوزه الحد في جميع الأمور .
- ترهيب الله - تعالى - للكفار بالذنوب والمعاصي ، وتذكيرهم بما أصاب السابقين ممن جحدوا نعم ربهم وكيف أهلكتهم - سبحانه - بالعذاب المهين المتنوع فتارةً : بالصيحة وتارةً بالغرق ، وأخرى بالخسف والجوائح التي تصيب المحاصيل فتبيدها عن آخرها وغير ذلك من أنواع الإبتلاء .
- من لطف الله - تعالى - ورحمته بعباده أن هياً لهم مخرجاً من الذنوب التي ارتكبوها وهو التوبة فهي مسلكهم الوحيد للنجاة مع العزم على عدم العودة للذنب مجدداً .
- " إن الهدى والضلال أمران يجب النظر إليهما في الفكر الإنساني بأتهما أصلاً في مسيرة حياة كل امرئ بمعنى أن الرحلة الإنسانية في الحياة الدنيا لا يمكن أن يحالفها النجاح من حيث انتصارها على الشيطان إلا إذا انطلقت في ذلك التحرك وهي على بصيرة وعلم وإيمان بمقتضياتها ، وأن حياته الآخروية رهينة بوجهته وسلوكه في سبيل أحدهما " (١)

(١) _ الإبتلاء في القرآن الكريم للرحالي ص ٢٣٠

- شدة عداوة الشيطان للإنسان ، وحرصه على غوايته وإضلاله وتزيينه الباطل ، كما قال - سبحانه - ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَنزِلَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١﴾ ﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أُغْوِيَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ففي طاعته ومتابعته خسران وأي خسران .

(١) - سورة الأعراف ١٦-١٧

(٢) - سورة الحجر الآية ٣٩

المبحث الخامس : الثمر في الجنة :

الحديث عن الجنة حديث شيق يحرك القلوب ، ويبهج النفوس ، لأن الجنة دار الطهر والنقاء ودار الصفاء من الأكدار والأقذار ، دار السلام والتسليم ، دار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، دار يجاور بها الإنسان الملك العلام - سبحانه - وأعظم نعيم فيها هو النظر إلى وجه الله - تعالى - .

دار أمرنا بالإيمان بها ، فالجنة غيب من غيب الله - جل وعلا - ، مجال العقل فيها محدود ، وهي صورة الجزاء الرفيع الخالص الفريد ، الجزاء الذي تتجلى فيه أعلى صنوف الإكرام والحفاوة الإلهية ، والذي أعده الله - سبحانه - لعباده المؤمنين .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال الله - تعالى - " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . واقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ

نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١) (٢)

قد فصل الله - تعالى - متاعها ، والذي أعده للمؤمنين ، الذين آمنوا بها وتهيأوا لإدراكها فقدموا الأعمال الصالحة التي ترضي ربه ، وقطعوا الخط المستقيم الواضح المعالم ، الموصل لها على هدى من ربه وبصيرة ، الطريق السهل على كل جاد في طلبه ، صادق العزم في الوصول إليه ، ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك " (٣)

وجاء تفصيل نعيمها متنوعاً ، في بيان بديع يحمل دلالات ثرية تخاطب العقل وتحرك الوجدان ، للناس كافة ، و للمسلم خاصة ، فتحفز الناس للدخول في الإسلام ، الذي يمهّد الطريق إلى ذلك النعيم ، وتحث المسلم على المسابقة والمسارة للفوز بسعادة الرحمن الغالية .

(١) _ سورة السجدة من الآية ١٧

(٢) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ح ٣٢٤٤ ، ص ٢٦٣ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : صفة الجنة ، ح ٧١٣٢ ، ص ١١٦٩ ، كلاهما من حديث أبي هريرة _ رضي الله عنه _ .

(٣) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ، ح ٦٤٨٨ ، ص ٥٤٤ .

والجزاء الذي أعده الله - سبحانه وتعالى - لعباده الصالحين يفوق الوصف ويعجز عن تصويره الخيال، وصفه الله - سبحانه - بأسلوب سهل ومبسط لأجل تقريبه للناس ، وهذا النعيم يشمل الطعام والشراب واللباس والمكان وغيرها .

وهذا النعيم وهذا الرزق دائم مستقر فهو كما قال عنه - سبحانه - ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (١) وكما وصفه في آية أخرى بأنه بغير حساب ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢)

وهو ليس بعظيم على الرب الكريم ، الواسع الغني ، اللطيف الخبير المنان - سبحانه - والذي لا تحصى نعمه ، ولا يحاط بعطائه - سبحانه وتعالى - .
وسأتحدث بإذن الله - تعالى - عن اتخاذ الأشجار والثمار مادة للتغيب بثمار الجنة من حيث صفات عدة ، منها : كثرتها ودوامها وعدم انقطاعها ، واختلاف مذاقها عن مذاقها في الدنيا ، ونحو ذلك .

(١) - سورة ص الآية ٥٤

(٢) - سورة غافر الآية ٤٠

المطلب الأول : كثرة ثمر الجنة :

تتحدث الآيات عن وصف لنعيم أهل الجنة وأنهم متنعمون متلذذون بالنعمة التي تحيط بهم ، وطيب العيش ، حتى إنهم في شغل عن غيرهم فما عندهم عذاب و لا حساب كغيرهم ، ثم بين - سبحانه - جانباً من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها ، وذلك في آيات كريمة تتحدث على وجه العموم عن النعيم وبعض صفاته ، وبعضها فيه تخصيص لبعض أنواع الفواكه والثمار والأشجار .

أ - الآيات التي تتحدث عن النعيم على وجه العموم :

ومنه قوله - تعالى - ﴿ لَّهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ (١)

في الآية إشارة إلى أنواع الفاكهة الكثيرة والثمار اللذيذة التي يتفكهون بها ، وسميت الفاكهة بذلك لتلذذ الإنسان بها . وفي ذلك دليل على أنه لا جوع في ذلك المكان ؛ لأن التفكه لا يكون للجائع .

وقوله - تعالى - ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي : لهم فيها ما يتمنون . وذكر عن العرب أنها تقول : دع عليّ ما شئت ، أي : تمنّ عليّ ما شئت ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ ، وما شاءوا من الخير (٢)

ونظير الآية قوله - تعالى - ﴿ يَدَّعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ ﴾ (٣) فهذا يدل على أنهم من انقطاعها ومضرتها (٤) وهم لا يسألون الفاكهة ، بل يطلبونها فتأتيهم وهم في أمن ودعة .

وكما قال - سبحانه - في آية أخرى أن المخلصين من عباده لهم رزق عظيم معلوم في وقته وخصائصه وصفاته الحسنة ، وعين هذا الرزق بأنه فواكه تأتيهم وهم مكرمون منعمون بفضل الله

- تعالى - عليهم ، كما قال - سبحانه - ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ (٥)

(١) - سورة يس الآية ٥٧

(٢) - جامع البيان ٥٣٩/٢٠ ، الكشف والبيان ١٣٢/٨ ، بحر العلوم ١٢١/٣ ، معالم التنزيل ٢٢/٧ ، لباب التأويل

١٢/٦ ، تفسير القرآن العظيم ٥٨٣/٦

(٣) - سورة الدخان الآية ٥٥

(٤) - حادي الأرواح ١١٨/١

(٥) - سورة الصافات الآيات ٤١-٤٢

وغالب الآيات التي فصلت في نعيم أهل الجنة ، خصت الفاكهة بالذكر ، فتردد ذكرها في القرآن ما يقرب من عشرين آية ، وأما اللحم فلم يرد إلا في آيتين فقط ، وبين الرازي السبب المتوقع ، وهو أن أهل الجنة مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فأجسامهم محكمة مخلوقة للأبد ، والفاكهة تؤكل للتلذذ ، لا للحاجة ، والقول الثاني : أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الإدام أولى بالحضور ، والأول أقرب (١)

ومن خصائص هذه الفواكه : كثرتها ، كما قال - سبحانه - واصفا حالهم ﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ (٢)

والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة فالنفس إليها أشوق ، وفي ذكرها أرغب ، فرغبهم الله - تعالى - فيه ، وفيه إيماء إلى أن طعامهم مجرد التفكه والتلذذ لا للتغذي (٣)

وقيل في وصف الفاكهة بالكثيرة وإفراد الشراب أقوال ، منها :

- كثرة اختلاف أنواعها وكثرة كل نوع منها ، أما الشراب فلما كان نوعاً واحداً فلذا أفرد .
- وقيل : وصفت الفاكهة بالكثرة ولم يوصف الشراب ؛ للإيذان بأنه يكون على الشراب نقل كثير سواء تعددت أنواعه أم اتحدت
- ويمكن أن يقال والله تعالى أعلم : التقدير وشراب كثير لكن حذف كثير لدلالة ما قبل ورعاية للفاصلة (٤)

ووصف كثرتها - أيضاً - في آية أخرى هي قوله - تعالى - ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا

تَأْكُلُونَ ﴾ (٥) وقوله - تعالى - ﴿ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ (٦)

(١) - التفسير الكبير ٣٣٢/٢٦

(٢) - سورة ص الآية ٥١

(٣) - التفسير الكبير ٤٠٢/٢٦ ، ٥١/١ ، إرشاد العقل السليم ٢٣١/٧ ، البحر المديد ٣٦/٥ التفسير المظهرى

٣٣٤٥/١ روح المعاني ٢٠٤/١٢ ،

(٤) - روح المعاني ٢٠٤/١٢

(٥) - سورة الزخرف الآية ٧٣

(٦) - سورة الواقعة الآية ٣٢

﴿وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾^(١) أي من ألوان الثمرات المختلفة .

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل " (٢)

ومعنى الحنظل هنا يقيده ابن عباس في قوله : " ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء " (٣) يعني أن بين النعيم في الدارين فرقاً واضحاً في التفاضل .

ووصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف مقام ربه بصفات تظهر في قوله -تعالى- ﴿وَلَمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فِيهَا فِي آيَةِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فِي آيَةِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٤٩﴾

فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فِي آيَةِ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾

فالجنتان ذواتا أفنان ، والأفنان : جمع فَنَن بفتحين ، وهو الغصن (٥)

والمراد فيها : أغصان عظيمة كثيرة الإبراق والإثمار نضرة حسنة ، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة (٦)

وتنكيرها للتعظيم فالأفنان لا تخلو عنها الجنات فلا يحتاج إلى ذكر الأفنان (٧) .

وبيّن المفسرين لطيفة من الفصل بين الأفنان والفاكهة بذكر العينين مع أن اتصالهما أنسب ؛ لأنه لما جرى ذكر الأفنان ، وهي من جمال منظر الجنة أعقب بما هو من محاسن الجنات وهو عيون الماء جمعاً للنظيرين ، ثم أعقب ذلك بما هو من جمال المنظر ، وهي : الفواكه في أفنانها ومن ملذات الذوق .

(١) - سورة محمد من الآية ١٥

(٢) - معالم التنزيل ٤٥٣/٧ ، لباب التأويل ٩/٧ ، تفسير القرآن العظيم ٥٠٣/٧

(٣) - تفسير ابن أبي حاتم ٦٦/١ - ٦٧ ، بحر العلوم ٦٢/١ ، البحر المحيط ٢٥٩/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٠٤/١ - ٥٠٣/٧

(٤) - سورة الرحمن الآيات ٤٦-٥٢

(٥) - معجم مقاييس اللغة ٤/٤٣٥ ، مادة (فن) ، لسان العرب ١٣/٣٢٦ ، مادة (فنن) ، تاج العروس ٣٥/٥١٦ ، مادة (فنن)

(٦) - تفسير القرآن العظيم ٥٠٢/٧

(٧) - التحرير والتنوير ٢٧/٢٦٦

وقيل : عادة المتنعمين إذا خرجوا يتفرجون في البستان ، فأول قصدهم الفرجة بالخضرة والماء ، ثم يكون الأكل تبعاً (١)

والزوجان في قوله -تعالى- ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي : نوعان ، وصنفان ، قال المفسرون فيهما من كل ما يتفكه به نوعان رطب وبابس لا يقصر أحدهما عن الآخر في فضله (٢)

وربما تشير الآية إلى قانون التزاوج والذي يعم الكون (٣)

قال ابن كثير : " من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " (٤)

ولما لم يكن المسلمون على سواء في أفعالهم وقدر إحسانهم فإنهم يتفاوتون في المنزلة بالجنة وهذا من كمال عدل الله - سبحانه وتعالى - وفي كل من الدرجات نعيم مقيم كما قال - سبحانه -

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٥)

ولهذا فإنه من دون هاتين الجنتين جنتان أخريتان ، أدنى منهما درجةً ، قال -تعالى- في وصفهما

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مَدَّاهُمَا تَانِ ﴾ (٦)

والمراد بمداهماتان أي : سوداوان من شدة الخضرة والري (٧)

والمراد بمن دونهما أقوال :

قيل : من دونهما في الدرج ، وهو قول ابن عباس ، وقيل : في الفضل .

(١) _ الباب ١٨ / ٣٤٥ ، التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٦٦

(٢) _ جامع البيان ٢٣ / ٦١ ، الكشف والبيان ٩ / ١٩٠ ، بحر العلوم ٣ / ٣٦٦ ، الكشاف ٤ / ٤٥٢ ، زاد المسير ٨ / ١٢٠

(٣) _ ربما تشير الآية إلى قانون من قوانين الخلق في تلك الحياة ، وهو قانون التزاوج الذي يعم في الكون وجميع مخلوقاته ، فكل ما في الكون ينتظمه قانونان : قانون العدل والتوازن ، وقانون التزاوج القائم على تركيبه . ينظر : سورة الرحمن عرض ودراسة ص ١٢٤

(٤) _ تفسير القرآن العظيم ٧ / ٥٠٣

(٥) _ سورة الواقعة الآيات ١٠ - ١١

(٦) _ سورة الرحمن الآية ٦٢ - ٦٤

(٧) _ العمدة في غريب القرآن ص ٢٩٣ ، التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٣٠٩ ، الهادي إلى تفسير غريب القرآن

وأكثر الناس على التأويل الأول (١) (٢)

وذهب القشيري إلى أنّ (من دون) بمعنى : غير ، فقال : هما جنتان غير هاتين اللتين ذكرتا جنتان أخريان ، وليس يريد دونهما في الفضل ، ولكن يريد جنتان سواهما (٣) قال ابن كثير مؤكداً أن دون بمعنى أقل في المرتبة والفضيلة : " هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله - تعالى - { ومن دونهما جنتان } " (٤) وقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح : " جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن " (٥) فالجنتان في غاية الخضرة والنضرة ، مع أنهما دون الجنتين السابقتين في الرتبة والفضيلة .

وجاء قوله -تعالى- ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بين الجنة وصفتها ؛ للإشارة إلى أن تكذيبهم بوجود الجنة فضلاً عن تكذيبهم بصفتها حقيق بالإنكار والتوبيخ (٦) وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه (٧)

ب - الآيات التي تتحدث عن تخصيص بعض الأشجار والفواكه بالاسم :

- تخصيص النخل ، وبعض الفواكه :

في آيات كريمة أخرى يبين - سبحانه - أسماء بعض تلك الفواكه والثمار التي وعدهم بها في جناته

(١) _ المحرر الوجيز ٢٣٤/٥

(٢) _ ينظر : جامع البيان ٦٩/٢٣ ، الكشاف ٤٥٣/٤ ، المحرر الوجيز ٢٣٤/٥ ، زاد المسير ١٢٤/٨ ، البحر المحيط ١٩٦/٨

(٣) _ لطائف الإشارات ٥١٤/٣ ، وينظر : التفسير الوسيط ١٤٩/١٤

(٤) _ تفسير القرآن العظيم ٥٠٦/٧

(٥) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : تفسير القرآن ، سورة الرحمن ، باب : قوله : { ومن دونهما جنتان } ، ح ٤٨٧٨ ، ص ٤١٧ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربحم سبحانه وتعالى ، ح ٤٤٨ ، ص ٧٠٩

(٦) _ التفسير الواضح ٥٩١/٣

(٧) _ إرشاد العقل السليم ١٨٦/٨

ومنها النخل والرمان والأعناب ، يقول الحق -جل وعلا- ﴿ فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (١) جاء النخل والرمان في الآية معطوفًا على الفاكهة ، وذلك لأسباب ذكرها المفسرون ، منها : أن فيه اختصاصًا لهما وبيانًا لفضلهما ، وحسن موقعهما على الفاكهة كأتهما لما لهما من المزية جنسان آخران ، وقيل : كررهما لما للنخل والرمان من منزلة عندهم ذلك الوقت ، فالنخل عامة قوتهم ، والرمان كالثمرات ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها ، فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان ؛ لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ، فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها .

وقيل : لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه (٢)

وبيّن ابن كثير الفرق بين الآيتين الكريمتين ، ففي وصف الجنة الأولى قال -سبحانه- ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وفي وصف الجنة الثانية قال -سبحانه- ﴿ فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة ، وهي نكرة في سياق الإثبات تعم ؛ ولهذا فسر قوله: ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره (٣)

يخبر الله -تعالى- في الآيات الكريمة عن حال المتقين الذين اتقوا ربهم وصانوا أنفسهم عن كل ما يغضب الله ، بأن الله يجازيهم بالنعيم المقيم والفوز العظيم ، كما في قوله -تعالى- ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ

(١) - سورة الرحمن ٦٨

(٢) - الكشف ٤/٤٥٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٨٥-١٨٦ ، تفسير القرآن العظيم ٧/٥٠٧ ، إرشاد العقل السليم ٨/١٨٦

(٣) - تفسير القرآن العظيم ٧/٥٠٧ ، وينظر : صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الرحمن ص ٤١٧ ، وفتح الباري ٨/٦٢٠ ، وينظر : لمسات بيانية ص ١٠٢

مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿١﴾ و مفازا مصدر ، وهو : موضع الفوز والنجاة ومكانه ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها : مفازة ، تفاعلًا بالخلاص منها (٢)

ومفازًا : مفاعل من الفوز يصلح مصدرًا ، أي : نجاة من كل مكروه ، وظفرًا بكل محبوب ويصلح للمكان وهو الجنة (٣) وتنوين مفازًا للتعظيم .

وقيل في معنى مفازًا في الآية ، قولان :

أحدهما : منتزهًا قاله : ابن عباس والضحاك . والثاني : فازوا ، فنجوا من النار . واستظهر القول

الأول ابن كثير (٤) ، وبيّن سبب استظهاره ؛ لأنه قال بعده : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها (٥) و نتيجة تلك الأقوال ومؤداها واحد عند التأمل فيها (٦)

ثم فصل - سبحانه - مظاهر الفوز برضوانه وجنته ، فمن الجزء الذي أعده لهم حدائق وبساتين مثمرة ، ذات أشجار وثمار وأعنان لذيدة الطعم وخصت الأعنان بالذكر ؛ لأنها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس .

وتنكيرها يدل على التعظيم (٧)

- تخصيص بعض أنواع الأشجار في الجنة :

سمى - سبحانه - بعض أشجار الجنة كالسدر ، في قوله - تعالى - ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ (٨)

السدر : شجر من شجر العِضاه ذو ورق عريض مدور ويسمى النبق . وله ثمر وفي شجره شوك يتخذ العرب منها الخوص (٩)

(١) _ سورة النبأ الآيات ٣١-٣٢

(٢) _ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٥١٠ ، تفسير المشكل من غريب القرآن ص ٢٩١ ، المحكم ١١١/٩ ، الوجيز للواحدى ١١٦٧/١ ، مفردات غريب القرآن ص ٣٨٧ ، كتاب : الفاء ، مادة (فوز)

(٣) _ مدارك التنزيل ٢٥٣/٤

(٤) _ تفسير القرآن العظيم ٣٠٨/٨

(٥) _ جامع البيان ١٧٠/٢٤ ، معالم التنزيل ٣١٦/٨ ، زاد المسير ١٠/٩ ، تفسير القرآن العظيم ٣٠٨/٨

(٦) - تفسير جزء عم ص ٢٩

(٧) _ لباب التأويل ٢٠٢/٧

(٨) - سورة الواقعة الآية ٢٨

(٩) _ بحر العلوم ٣٧١/٣ ، الكشاف ٤٦١/٤ ، نظم الدرر ٤٠٩/٧ ، التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٧

صحيح الإسناد ولم يخرجاه K صحيح (((((((((((((((الأقوال في مخضود ومخضود : الخضد في اللغة : هو الكسر في الرطب واليابس ما لم يكن خضد الغصن وغيره ، والمخضود ، أي : مكسور الشوك ، يقال خضدته فانخضد (١)

وللمفسرين أقوال في معناه ، هي : الذي لا شوك له كالسدر الذي يكون في الدنيا وقيل : الموقر بالثمر كثير الحمل ، ولا شوك له .

وقيل : هو الذي لا أذى فيه

لا شوك فيه ، كأنه خضد شوكها أي قطع ونزع (٢)

يعني : في ثمر سدر موقر حملاً قد ذهب شوكه (٣)

واستظهر ابن كثير الأقوال كلها ، فقال : " والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفي الآخرة على عكس من هذا لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله " (٤)

جاء أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعراي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : وما هي ؟ قال : السدر ، فإن لها شوگا ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : في سدر مخضود يخضد الله - تعالى - شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمراً تفتق الثمرة معها عن اثنين وسبعين لوناً ما منها لون يشبه الآخر " (٥)

(١) _ مفردات غريب القرآن ص ١٤٩ ، كتاب الخاء ، مادة (خضد) ، لسان العرب ١٦٢/٣ ، تاج العروس ٥٧/٨ ، رياض البيان ص ٣٩١

(٢) - جامع البيان ١١٠/٢٣-١١١ ، الكشف والبيان ٢٠٦/٩ ، بحر العلوم ٣٧١/٣ ، معالم التنزيل ١١/٨ ، الكشف الكشاف ٤٦١/٤ ، نظم الدرر ٤٠٩/٧

(٣) _ جامع البيان ١٠٩/٢٣

(٤) _ تفسير القرآن العظيم ٥٢٥/٧

(٥) _ أخرجه الحاكم في مستدرکه ٥١٨/٢ ، ح ٣٧٧٨ ، وقال عنه : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وصححه ، وينظر : فتح القدير ١٥٥/٥

والتعبير بقوله تعالى ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾ يفيد أن النعيم يحيط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف (١) والطلح ، في قوله - تعالى - ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ (٢) شجر مخصوص ، وقد يطلق على الموز وفسرت به الآية السابقة .

والطلح ، هو الموز واحده طلحة ، وقيل : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب ، وقيل : شجر عظام له شوك (٣)

منضود : والنَّضْدُ : جعلُ بعضه فوق بعضٍ ، والمنضود : المنتظم في حبات ، أشبه بالعقود ، أي : متراكب مصفوف (٤) قال ابن عباس والسدي : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل (٥)

ذكر الرازي الحكمة في ذكر السدر وهو من أشجار البوادي فقال إن فيه حكمة بالغة غفل عنها المفسرون واقتصروا في قولهم على أن الجنة تمثل بما هو محمود عند العرب ، وصوّب هذا القول وأضاف إليه حكمةً أخرى بقوله : " لا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار ، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال به ، وتارة يقصد إلى ثمارها ، وتارة يجمع بينهما ، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة ، ويجمعها نوعان : أوراث صغار ، وأوراق كبار ، والسدر في غاية الصغر ، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر ، فقوله تعالى ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ (٢٨) و﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ (٢٩) إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها ، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرًا إلى أوراقها ، والورق أحد مقاصد الشجر " (٦)

(١) - سورة الواقعة ومنهجها في العقائد ٧٥/١

(٢) - سورة الواقعة الآية ٢٩

(٣) - معاني القرآن للفراء ١٢٤/٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٣٣٠/١٠ ، بحر العلوم ٣٧٢/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠٨/١٧ ، تفسير القرآن العظيم ٥٢٦/٧ ، الترجمان والدليل ص ١٨٣ ، التيسير بشرح الجامع الصغير ١٦٥/٢ ، غريب الحديث للحري ٦٣٠/٢

(٤) - اللباب ٥٤١/١٠ ، تفسير القرآن العظيم ٥٢٦/٧ ،

(٥) - الكشاف ٤٦١/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠٨/١٧ ، البحر المحيط ٢٠٦/٨ ، تفسير القرآن العظيم ٥٢٦/٧ ،

فتح القدير ١٥٢/٥

(٦) - التفسير الكبير ٤٠٤/٢٩

وكأن الرازي يشير إلى التقابل في القرآن الكريم ، والذي يكثر وروده ؛ لتبدو الصورة واضحة ، فالتقابل يمثل التضاد وبالضد تعرف الأشياء وتتضح .
وذكر السدر والطلح وما لحقهما من صفات يمثل صورة الرائعة تدفع بقارئ القرآن وسامعه إلى الإعجاب بهذا المنظر الجميل الذي يأنس له كل إنسان في هذا الوجود ، إنه منظر يبعث في النفس الحياة والراحة والاطمئنان والشوق إلى جنة الرحمن (١)

(١) - مجلة جامعة الإمام ، العدد ٢٥ ، بدائع البديع ص ٢٧٤ ، ولوصف أشجار الجنة ينظر : التذكرة ص ٥٢٧-٥٣٠

المطلب الثاني : في الجنة ما تشتهيهِ الأنفس من الثمار :

في الجنة كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ به الأعين من أنواع النعيم والفواكه المختلفة ، والتي تزيد الشوق في الإنسان إلى هذا المصير ، فيسعى إليه سعياً حثيثاً ، وهذا النعيم ليس محصوراً بشئ معين ، بل هو عام في كل ما تشتهيهِ الأنفس ، كما قال -تعالى- ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ

بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿ (١)

و من كمال التلذذ والنعيم لأهل الجنة ، أن الله -تعالى- أمدهم الفاكهة تأتيهم من كل نوع ، و جعل لهم حرية الاختيار فيما يشاؤون ، ويختارون ، فيأخذون خيره وأفضله . كما قال -تعالى-

﴿ وَفِيهَا مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ (٢)

وتخير أهل الجنة من أنواع الفواكه فيه إشارة إلى أنهم يأكلون للتفكه لا من الجوع .

وفي قوله -تعالى- يتخيرون لطيفة ، وهي أنه -سبحانه- لم يقل يختارون مع قربهما في المعنى ، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال ، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ، ولا اضطرار (٣)

﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٤)

أي وأمددنا أهل الجنة ويسرنا لهم من ألوان الفاكهة مما يستطاب ، ويتخير ، واللحوم مما يشتهى ، وهذا الإمداد مستمر لا ينقطع زيادة من الله لهم .

وفي تقديم الفاكهة في الإمداد على اللحم حكمة ذكرها المفسرون فقالوا : أنها ألطف ، وأسرع انحداراً ، وأيسر هضمًا ، وأصح طبًا ، وأكثر تحريكًا لشهوة الأكل وتهيئة النفس للطعام ، وكذلك هم ليسوا بحالة تقتضي تقديم اللحم ، كحالة الجوع مثلا فهم يأكلونها للتلذذ بها (٥)

(١) _ سورة الزخرف الآية ٧١

(٢) _ سورة الواقعة ٢٠

(٣) _ التفسير الكبير ٣٩٦/٢٩

(٤) _ سورة الطور الآية ٢٢

(٥) _ التفسير الكبير ٣٩٦/٢٩ ، روح المعاني ١٣٧/١٤

وقال - سبحانه - ﴿ إِنَّ الْمُنَّيِّنَ فِي ظِلِّلٍ وَعَيْونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

يخبر الله - تعالى - عن حال عباده الذين اتقوه في الدنيا وكيف أحسن إليهم في الآخرة كما أحسنوا في الدنيا ، فلهم في الآخرة ألوان من التكريم والإحسان ، فهم في جنات وظلال وارفة ، وتحيط بهم عيون وأثمار جارية ، ويتمتعون بفواكه مما يشتهون ، فهم مستقرون في أنواع الترفه والنعيم . فهم من أهل السعادة الدائمة ، ويقال لهم على سبيل التكريم كلوا من المأكول الشهية ، واشربوا الأشرية اللذيذة وأنتم متهئين ، والهنيئ من المأكول والمشروب هو ما لا تلحقه عاقبة ولا تعب أو مشقة ، قال الزجاج : وليهنكم ما صرتم إليه (٢)

فالهناء لا يتم حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص ، وحتى يطمئنوا إلى دوام النعمة وعدم انقطاعها ، ويقال لهم كذلك إن هذا النعيم لكم بسبب أعمالكم وإحسانكم .

(١) - سورة المرسلات الآيات ٤١-٤٣

(٢) - معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٨٣/٥

المطلب الثالث : دوام ثمار الجنة :

الأشجار والثمار في الجنة دائمة العطاء ، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي بوقت معين دون وقت ومكان دون مكان ، وإنما تمتاز بأنها دائمة الإثمار والضلال التي لا ينقطع ظلها ، كما قال تعالى في وصف حالة الجنة التي أعدها لعباده المتقين ، قال -تعالى- ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (١)

أي صفتها ونعتها وقصتها العجيبة ، والجمهور على أن المثل هنا بمعنى الصفة ، فليس هنا ضرب مثل (٢)

ثم وصف الجنة بثلاث صفات ، هي :

- ١ - تجري من تحتها الأنهار .
- ٢ - أكلها دائم ، أي : لا ينقطع ثمرها ولا نعيمها بخلاف أشجار وثمار الدنيا التي تنقطع وتبيد .
- ٣ - ظلها ظليل لا يزول ولا يمحي . وهذا رد على الجهمية (٣) الذين قالوا : نعيم الجنة يفنى (٤)

(١) _ سورة الرعد الآية ٣٥

(٢) _ اللباب ٣١٥/١١ ، وينظر : تأويل مشكل القرآن ٥٦/١ ، جامع البيان ٤٦٩/١٦ ، تفسير القرآن العزيز ٣٥٨/٢ ، بحر العلوم ٢٢٩/٢ _ ٢٣٠ ، معالم التنزيل ٣٢٢/٤ ، لباب التأويل ٢٥/٤ ، البحر المحيط ٤٢٤/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٤٦٤/٤

(٣) _ الجهمية إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام ، وكانوا بخراسان ، وتنقسم إلى اثنتي عشرة فرقة ، وترجع في نسبتها إلى مؤسسها الجهم بن صفوان ، الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها ، وزعم أن الجنة والنار تفتيان ، وكان لهم في فترة من الفترات شأن وقوة في الدولة الإسلامية ، فعتوا واستكبروا واضطهدوا المخالفين لهم حينما تمكنوا منهم ، ثم أدال الله عليهم فلقوا نفس المصير الذي حل بغيرهم على أيديهم . ينظر : الفرق بين الفرق ص ٢١١-٢١٢ ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٥٥/٤ ، الملل والنحل ١ / ٨٦ ، تلبيس إبليس ٢١/١

(٤) _ قال شارح الطحاوية عند قول الطحاوي : " والجنة والنار مخلوقتان ... " فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به، قال تعالى: {وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} ، أي غير مقطوع، ولا ينائي ذلك قوله: {إلا ما شاء ربك} ، وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: {لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى} والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله صلى الله عليه وسلم: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت». .

ينظر: شرح الطحاوية ط الأوقاف ١/٤٢٥-٤٢٧

ودوام الظل كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس ، وذلك من محامد الجنات وملاذها (١) كما قال -تعالى- في آية كريمة أخرى ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (٢) ثم ذكر -سبحانه- أن هذه الجنة الموعودة عقبى للمتقين ومآل لهم ومنتهى أمرهم ، حيث كافأهم الله -تعالى- على تقواهم وإحسانهم واستقامتهم بها .
وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام (٣)

وفي قوله -تعالى- ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ تقابل في الجزاء وفق تقابل في العمل الذي يرسم معناه هذا التصوير البديع القائم على التفصيل والبيان (٤)

قال -تعالى- ﴿ وَفِكَهَةٌ كَثِيرَةٌ ۖ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴾ (٥)
فإلى جانب كثرة الفواكه وتنوعها فإنها ليست مقطوعة عنهم في أي وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ، ولا تمتنع عن طالبها في أي حال .
وجمع بين الوصفين لأن فاكهة الدنيا لا تخلو من أحد ضدي هذين الوصفين فإن أصحابها يمنعوها فإن لم يمنعوها فإن لها إباناً تنقطع فيه (٦)

(١) _ التحرير والتنوير ١٣/١٥٥

(٢) _ سورة النبأ الآية ١٦

(٣) _ التفسير الكبير ١٩/٤٧

(٤) _ النظم القرآني في سورة الرعد ص ١٦٠ ، تفسير سورة الرعد ص ٢٩٠

(٥) _ سورة الواقعة الآيات ٣٢-٣٣

(٦) _ التحرير والتنوير ٢٧/٣٠٠

المطلب الرابع : تشابه المظهر واختلاف الحقيقة :

يخبر الله - سبحانه وتعالى- ويبشر عباده المؤمنين بما أعدده لهم في الجنة ، ويبين أحوالهم ، ويذكر لهم أن الرزق الذي يرزقونه في الجنة مختلف عن الدنيا ، فيقول - سبحانه- ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ (١)

والبشارة ، هي الخبر السار ، وهي كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه ، ويستعمل في الخير والشر وفي الخير أغلب ، وفي الشر لا بد أن يكون مقيدا منصوصا على الشر المبشر به (٢) والمأمور بالتبشير هو النبي -صلى الله عليه وسلم- ، أو كل من يتأتى منه تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأن المبشر به .

والمبشر به ، هو الجنات التي أعدها الله - سبحانه وتعالى- لمن آمن به ، وآمن بما جاء به رسوله - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الخالصة . ثم بين - سبحانه- أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين ، والنعيم الذي هم فيه ، وحالهم عندما يرزقون من ثمرة رزقا ، وكيف بشرهم الله - سبحانه وتعالى- وامتن عليهم بنعمتين ، هما :

قوله - تعالى- ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ** ﴾ والثانية في قوله - تعالى- ﴿ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ فكلما رزقوا في الجنة من ثمرة من ثمراتها ، وجدوها مثل الذي رزقوه من قبل ، في بلوغه الكمال من حسن المنظر والطعم .

وهذه الثمرات رزق من الله - تعالى - تأتيهم من غير جهد يبذلونه ، ولا عمل يعملونه (٣) وتنكير الرزق ؛ للتنويع ، أو للتعظيم : أي نوعاً لذيذاً غير ما تعرفونه (٤)

(١) - سورة البقرة من الآية ٢٥

(٢) - جامع البيان ١/٣٨٣ ، الكشف والبيان ١/١٦٩ ، المختصر في تفسير القرآن ص ٥ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١/١٠٣ ، معالم التنزيل ١/٧٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٣٨

(٣) - زهرة التفاسير ١/١٧١

(٤) - روح المعاني ١/٢٠٥

شبهوا رزقهم الذي يأتيهم في الآخرة برزق آخر رزقوه من قبل ، وهذا الرزق اختلفوا في تحديده ، فقيل : هو من أرزاق الدنيا وهذا قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة .
 ودليل من قال به : أن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل ، ودليلهم الثاني ، أن قوله -تعالى- **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا يَتَنَاوَلْ جَمِيعَ الْمَرَاتِ فَيَتَنَاوَلُ الْمَرَّةَ الْأُولَى فَلَهُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْ أَرْزَاقِ الْجَنَّةِ شَيْءٌ لَا بَدَّ وَأَنْ يَقُولُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَا يَكُونُ قَبْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاقِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَشْبَهَ ذَلِكَ بِهِ فَوْجِبَ حَمْلُهُ عَلَى أَرْزَاقِ الدُّنْيَا .**
 وقيل : إنه من أرزاق الجنة ، فالثمار في الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى .

وذكر الطبري حجة لأصحاب هذا القول من أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله (١)

واختار الطبري وغيره الأول (٢) واستظهره البيضاوي (٣) لمخالفته على عموم ﴿ **كُلَّمَا** ﴾ فإنه يدل على ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا ، والداعي لهم إلى ذلك فرط استغرابهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه بالبلغ في الصورة (٤) وذكر البيضاوي محمل آخر للآية ، وهو : أن اللذة بحسب تفاوتها فيحتمل أن يكون المراد من ﴿ **هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا** ﴾ أنه ثوابه ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة فيكون هذا في الوعد نظير قوله : ﴿ **ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ في الوعيد (٥)

(١) _ جامع البيان ٣٨٦/١

(٢) _ جامع البيان ٣٨٧/١

(٣) _ هو : ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر ، قاضي وإمام مبرر من بلاد فارس ، كان صالحًا متعبدًا زاهدًا ، أثنى العلماء عليه وعلى مؤلفاته ، وأبرزها المنهاج الوجيز في أصول الفقه ، وتفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، توفي سنة ٦٨٥ .
 ينظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٥٥/٨ ، طبقات المفسرين - الأدرسي - ٢٥٤/١ ، الأعلام ١١٠/٤

(٤) _ ٢٤١/١ ، للأقوال ينظر : تفسير سفيان الثوري ص ٤٢ ، جامع البيان ٣٨٥/١-٣٨٨ ، الهداية إلى بلوغ النهاية ١٩٧/١ ، النكت والعيون ٨٦/١ ، معالم التنزيل ٧٣/١ ، التفسير الكبير ٣٥٩/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٠/١ ، أنوار التنزيل ١ / ٣٦ ، اللباب ٤٥٣/١ ، تفسير القرآن العظيم ٢٠٥/١ ، وينظر الخلاف في جواهر الأفكار ص ١٢٤-١٢٦

(٥) _ أنوار التنزيل ٣٦ / ١

وتكريرهم هذا القول عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية ، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم في كل أوان أو إلى الرزق كما أن هذا إشارة إليه ، والمعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه (١)

وقولهم - ﴿ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ إقرار يتضمن الحمد والشكر ، ولأهمية هذا الحمد سجله الله - عز وجل - لهم (٢)

وقوله - تعالى - ﴿ وَأَتُوا بِهِءُ مُتَشَابِهًا ﴾ جرى - أيضا - في معنى التشابه خلاف :

أحدها : أنه متشابه في المنظر واللون مختلف في الطعم ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهم .
والثاني : أن معنى التشابه أن كله خيار يشبهه بعضه بعضاً وليس كثمار الدنيا ، التي لا تشابه ؛ لأن فيها خياراً وغير خيار .

والثالث : أنه يشبه ثمار الدنيا في الخلقة والاسم غير أنه أحسن في المنظر والطعم (٣)
وهذا اختيار الطبري (٤) ونقله عنه ابن كثير (٥) قال الطبري : " وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ، تأويل من قال : وأتوا به متشابهاً في اللون والمنظر ، والطعم مختلف . يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا في المنظر واللون ، مختلفاً في الطعم والذوق " (٦) وعلل اختياره بأن الله - جل وعلا - أخبر عنهم أنهم إذا كلما رزقوا من الجنان من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل هذا في الدنيا : فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك ، ومن أجل أنهم أتوا بما أتوا به من ذلك في الجنة متشابهاً ، يعني بذلك تشابه ما أتوا به في الجنة منه ، والذي كانوا رزقوه في الدنيا ،

(١) - مدارك التنزيل ٥٣/١

(٢) - رياض القرآن ١ / ١٨٦

(٣) - جامع البيان ٣٨٩/١ - ٣٩٠ ، بحر العلوم ٦٢/١ ، النكت والعيون ٨٦/١ ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١٠٤/١ - ١٠٥ ، المحرر الوجيز ١٠٩/١ ، زاد المسير ٥٣/١ ، التيسير العجيب ص ٢٩ ، البحر المحيط ٢٥٩/١ ، تفسير

القرآن العظيم ٢٠٤/١ ، فتح القدير ٥٥/١

(٤) - جامع البيان ٣٩٢/١

(٥) - تفسير القرآن العظيم ٢٠٥/١

(٦) - جامع البيان ٣٩٢/١ ، وينظر قول ابن كثير عند تفسيره الآية ٥٢٩/٧

في اللون والمرأى والمنظر ، وإن اختلفا في الطعم والذوق ، فتباينا ، فلم يكن لشيء مما في الجنة من ذلك نظير في الدنيا (١)

وفسرت الآية بأن يشبه بعضه بعضاً ، في الحسن ، واللذة ، والفكاهة ، ولعل هذا الصحيح (٢) ولصاحب الظلال تعليق لطيف ، حيث يقول : فرمما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة ، وهي ترسم جوًّا من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد! وهذا التشابه في الشكل ، والتنوع في المزية ، سمة واضحة في صنعة البارئ -تعالى- (٣) وفضلاً عن الصفات التي امتازت بها أشجار وفواكه الآخرة ، فإنها - كذلك - دانية القطوف وسبب دنوها ثقل الثمار فيها ، وتذليل الله -تعالى- لها ، و لا تنقطع ولا تمنع من أرادها بشوك ولا بعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها دنت منه فتناولها ، على أي هيئة كانت حالته .

قال -تعالى- ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ (٤) وقال -سبحانه- ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ (٥)

﴿ وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴾ (٦)

ولظلال الجنة صفات ذكرها الله -سبحانه- في معرض الحديث عن النعيم المقيم لأهل الجنة ، ومن صفات ظلال الجنة ، ما يأتي :

١ - ظلها ظل ظليل : الظل عند العرب من أعظم أسباب الراحة نظراً لطبيعة بلادهم الحارة ، وحين يصفون مكانا ما بأنه ظليل فهذا يني عن الراحة التي فيها المستظل .

قال -تعالى- يصف ظل الجنة ﴿ وَنَدَّخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (٧)

والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد ، كما هو عادتهم في نحو - يوم أيوم ، وليل أليل (١)

(١) - جامع البيان ٣٩٢/١

(٢) - تيسير الكريم الرحمن ص ٤٦

(٣) - في ظلال القرآن ٤٩/١ ، وينظر : تفسير سورة البقرة لابن عثيمين ١ / ١٧٨

(٤) - سورة الرحمن من الآية ٥٤

(٥) - سورة الحاقة الآية ٢٣

(٦) - سورة الإنسان من الآية ١٤

(٧) - سورة النساء من الآية ٥٧

فهو من تمام محاسن الجنّات ، لأنّ الظلّ إنّما يكون مع الشمس ، وذلك جمال الجنّات ولذّة التنعم برؤية النور مع انتفاء حرّه (٢)

أخرج الشيخان في صحيحهما قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضىء مرّ السريع مائة عام ما يقطعها " (٣)

٢ - ظلها دائم : كما قال -تعالى- ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ (٤) دائم كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ، لأنه لا شمس فيها .

٣ - ظلها ممدود : قال -تعالى- ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ ﴾ (٥)

٤ - ظلها متعدد : قال -تعالى- ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴾ (٦) وقال -سبحانه- ﴿ هُمْ

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْزَاقِ مُتَّكِفُونَ ﴾ (٧)

٥ - دنو ظلها : قال -تعالى- ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا ﴾ (٨)

و من يتتبع الآيات التي تشير إلى النعيم في الآخرة يجد فيها : الإيماء إلى تمام النعمة ، والتمتع برغد العيش وكمال الرفاهية ، والعزة الدائمة والهناء المستمر (٩).

ويلاحظ ما في الآيات من مقابلة لبيئة العرب وطبيعتها ؛ ترغيباً لهم في الإسلام ، وإن كان القرآن دعوة عامة للبشر جميعاً إلا أن المخاطبين بتبليغ دعوته وحمل رسالته هم العرب فناسب مخاطبتهم بما يرغبون ومجاراتهم بما يجبون (١)

(١) _ الكشاف ١/٥٢٣ ، حاشية الشهاب الحفاجي على البيضاوي ٣/١٤٦ ، روح المعاني ٣/٥٨

(٢) _ التحرير والتنوير ٥/٩٠ ، وينظر دليل الفالحين ٤ / ٧٥٥

(٣) _ أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار ، ح ٦٥٥٢ ، ص ٥٤٩ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، ح ٧١٣٩ ، ص ١١٧٠ ، بلفظ : إن في الجنة شجرة ، وكلاهما من حديث أبي سعيد الخدري .

(٤) _ سورة الرعد من الآية ٣٥

(٥) _ سورة الواقعة الآية ٣٠

(٦) _ سورة المرسلات الآية ٤١

(٧) _ سورة يس الآية ٥٦

(٨) _ سورة الإنسان من الآية ١٤

(٩) _ ينظر في الكلام عن وصف ثمار الجنة كلام ابن كثير في الفتن والملاحم ١/٢٥٦

وهكذا نجد أن الله - سبحانه وتعالى - رَغِبَ بثمار الجنة ووصفها بصفات تصورها تصويرًا مناسبًا لعقول البشر ، وبما يتصورون أنه من نعيم الدنيا ، وإلا فإنه ليس هناك مقارنة بين النعيمين ، وليس للنعيم الأخرى حد ولا حصر ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الترغيب ليشمروا عن سواعدهم وليركبوا مع الناجين يوم القيامة ، و ليقدّموا أعمالاً يرونها في الآخرة .

والبشرى في الجنة لا تكون إلا لمن آمن وعمل ، فمجرد العقيدة لا تكفي للبشارة بالجنة بل لا بد من إيمان وعمل ، ولهذا يربط الله - تعالى - بينهما (٢)

(١) - تفسير سور المفصل ص ١٠٠ - ١٠١

(٢) - الدرّة في تفسير سورة البقرة ص ٤٠

من هدايات الآيات :

- النعيم في الآخرة لا يحصر ولا يحد بمقدار ولا وصف ، وكل ما يتخيله الإنسان من أنواع الإحسان الإلهي فهو خيال قاصر دون ما أعده الله لأصحاب جنته .
- في اختيار أهل الجنة لما يأكلون وما يشتهون يدل على أن نعيم الجنة حسب الرغبة والميل ، بخلاف الدنيا فالأغلب أن النعيم فيها مما يجده الإنسان في الأغلب وقد لا يكون مشتبهًا له .
- تركيز القرآن الكريم على جانب التصوير الحسي عند الحديث عن نعيم أهل الجنة ؛ لجعل المشاهد قريبة من الفهم .
- ترغيب الله - سبحانه وتعالى - للنعيم في الجنة فيه تحفيز للإنسان لمزيد من الرقي والسمو في الأعمال الصالحة ، لأنها تنجيه من النار ، وترفع درجاته في الجنة .
- تمتاز أشجار الجنة وثمارها بكثرتها ، ودوامها وعدم انقطاعها .
- تقديم الفاكهة على لحم الطير يشعر بالشبع الدائم لأهل الجنة ، وعدم حاجتهم للطعام ، وإنما هو للتفكه والتلذذ .
- تفاوت درجات المؤمنين ، ومن ثم تفاوت جزاءهم ، و الجنة درجات ، فهي جنات دونها جنات .
- نعيم الجنة لا يقتصر على الماديات فقط ، بل يتعداه إلى الجانب النفسي ، فهم في أمن وسلام دائمين ، كما أكد لهم - سبحانه - بقاءهم في دار الخلود أي دار الدوام والبقاء ، وهو غاية أمل المؤمنين وتمام السعادة للمؤمنين .
- الربط بين الجزاء والعمل في آيات كثيرة ، فينسب الله - سبحانه وتعالى - من باب التحية والإكرام لأهل الجنة الفضل في النعيم الذي يروونه إلى أعمالهم في الدنيا ، وهذا لا يعارض الفضل المطلق والكرم الإلهي .
- يظهر من آيات النعيم الأخرى تلمس نفسية المخاطب في ذلك الوقت خصوصًا ، فيكون الترغيب بما هو مقرب إليه من فواكه معينة وظلال وارفة وخيام .
- عظمة نعيم الآخرة الدائم التام الذي لا يقارن بنعيم الدنيا الزائل المنقوص . أخرج البخاري مرفوعًا ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما

فيها " (١)

ولذا كان دخول الجنة هو الفلاح العظيم ، والفوز الكبير ، كما قال - سبحانه - ﴿ فَمَنْ زُحِرَ

عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (٢)

اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وجنتك دار السلام ، وكل شئ فيها سلام ، فاجعلنا منها
ووالدينا وجميع المسلمين يا ذا الجلال والإكرام .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة الجنة ، وأنها مخلوقة ، ح ٣٢٥٠ ، ص

٢٦٣ .

(٢) - سورة آل عمران من الآية ١٨٥

الختام

الحمد لله ذي الجلال والفضل ، والصلاة والسلام على سيد الشرف والنبيل . فبعد هذه الرحلة الماتعة التي طفت خلالها بين آيات الشجر والثمر ، اذكر بعض ثمار هذا البحث . وما أذكره لا يمثل اختزالاً للرسالة ، وإنما إشارات لأمر رأيت أهمية التنوية عليها :

١ - أن الله - تعالى - ذكر الشجر والثمر في آيات كثيرة في كتابه الكريم تعد بالمئات .

٢ - حين نتأمل الآيات الواردة في الموضوع نلمس بوضوح أن الله - سبحانه وتعالى - لم يذكر الأشجار والثمار في كتابه ترفاً لفظياً ، أو إيراداً عشوائياً ، بل وظف هذه الآيات لأهداف ومقاصد محددة ومتنوعة ، مثل : تقرير التوحيد ، وإثبات التفرد بالخلق ، وتأكيد البعث والنشور ، وتقريب وتجلية نعيم الآخرة وعذابها ، وغيرها من المقاصد التي فصلتها في البحث .

٣ - وظف القرآن الكريم الأشجار والثمار للدفع لما يصلح شؤون الناس في الدنيا ، ولما يحفظ لهم السلامة والنجاة في الآخرة ، فلم تكن الآيات متوجهة لأمر الدنيا وحسب .

٤ - أن الله - تعالى - في توظيفه للأشجار والثمار في القرآن خاطب جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، متعلمهم وأميهم ، غنيهم وفقيرهم .

٥ - أن القرآن في ذكر الأشجار والثمار خاطب العقل ، والعاطفة معاً . فهو يقيم الآيات التي تحث العقل على التفكير ، ويحاج الكافرين الجاحدين بها ، وهو - كذلك - يخاطب عاطفة المصدقين بوعده الله بالنعيم العظيم في الآخرة .

٦ - أثبت العلم الحديث إعجازاً باهراً في تناول القرآن للأشجار والثمار ، مثل : إثبات الزوجية في النبات مثل باقي المخلوقات ، ومثل : ظاهرة التمثيل الضوئي ، وغيرها كثير .

٧ - مجمل الآيات الواردة في الأشجار والثمار تدل على أن الله - تعالى - قد زين الأرض وجملها وكملها وسخر مافيها لنفع هذا الإنسان المكرم .

٨ - هناك تناسب واضح بين عدد مرات ورود بعض الأشجار والثمار في القرآن ، وبين أهميتها في حياة الناس : فالنخل - مثلاً - جاء أولاً ، وبعده الحب ، وهكذا .

٩ - تنوعت الثمار المذكورة في القرآن بين ما تقوم عليه حياة الناس كالحب ، وبين ما يتلذذون بأكله كالعنب ، والرمان .

١٠ - لم ترد في كتاب الله - تعالى - إلا آية واحدة في النبات تفيد حكماً شرعياً ، وهي آية الأمر على زكاة الثمر في قوله - تعالى - : " وآتوا حقه يوم حصاده " .

١١ - استخدم القرآن الأشجار والثمار بشكل عام دون التقييد بمكان جغرافي واحد : فالزيتون مثلاً ذكر مرات عديدة مع أن الحجاز ليست موطناً معروفاً لزراعته .

١٢ - لم يذكر القرآن ثمرة معروفة عند الناس في مقام التحذير منها ، أو بيان أضرارها .

الفهارس :

- = فهرس الآيات .
- = فهرس الأحاديث .
- = فهرس الأعلام .
- = فهرس الأمم ، والفرق .
- = فهرس الكلمات الغريبة .
- = فهرس الأماكن .
- = فهرس الأبيات الشعرية .
- = فهرس المراجع ، والمصادر .
- = فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الآية</u>
٤٨٤	أتركون في ما ههنا آمنين
٤٩١ - ٤٠٨	أذلك خير نزلا أم شجرة الرقوم
٤٤٨	اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو
٤٠٥ - ١٩٠	أفرايتم النار التي تورون
٢٠٤ _ ١١٣	أفرايتم ما تحرثون
١١١	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم
٣٧٨ - ٢٦٧ _ ٢٤٥ - ٢١٧	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا
١٩٨	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح
٣٨١ - ٢١٧	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع
٤٢	ألم تر أن الله يزجي
١٣٥	ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات
٤٥١ - ٣٦	ألم تر كيف ضرب الله مثلاً
١٥٣	إليه يرد علم الساعة
٤٥	أم خلقوا من غير شئ
٣٥٢ - ٢٢١	أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم
٤٢٨	إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم
٣١٢	إن الله اصطفى آدم ونوحا
١٥٢	إن الله عنده علم الساعة
١٨٦ _ ٣٠	إن الله فالق الحب والنوى
٥١٤	إن المتقين في ظلال وعيون

٤١٠ - ٤٣٩ - ٤٩١	إن شجرة الزقوم طعام الأثيم
٤٤	إن في السماوات والأرض آيات لمؤمنين
٣١ - ٣٦٣	إن في خلق السماوات
٥٠٨ - ٥٠٩	إن للمتقين مفازا
٤٨٦	إنا أرسلنا عليهم صيحة
٤٨٩	إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة
٣٥٥ - ٤٤٥	إنما مثل الحياة الدنيا كماء
٤٣٨	إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم
٢٢٣ - ٣٥٣ - ٣٩٠	أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها
١٣٢	أولم يروا إلى ما خلق الله
١٩٧ - ٢١٦ - ٢٨٠	أولم يروا أنا نسوق الماء
٤٨١	أولم يسيروا في الأرض فينظروا
٥٠٣	أولئك لهم رزق معلوم
٤٢٩	أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل
٤٨٥	تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل
١٨٧	تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل
٤١٠ - ٤٩١	ثم إنكم أيها الضالون المكذبون
٢٢٣	خلق السماوات بغير عمد
١٠٣	خلق السماوات بغير عمد
١٠٨	ذلك بأن الله يولج الليل في النهار
٢١١	الذي جعل لكم الأرض فراشاً
١٧٨ - ٢١٦ - ٣٨٧	الذي جعل لكم الأرض مهدياً
٢٢٦ - ٤٠٤	الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً
٣٣٤	ربنا إني أسكنت من ذريتي
٣٤٨	زين للناس حب الشهوات من النساء

٢٤٢	سبحان الذي خلق الأزواج كلها
٣٢٢	فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة
٢٢٣	فأنبتنا فيها حباً
٢٩٢	فلما أتاها نودي من شاطئ
٦١ _ ٢٨٥ - ٣٦٩ - ٤٠٢	فلينظر الإنسان إلى طعامه
٣٢٣	فناداها من تحتها ألا تحزني
٣٠٢	فنبذناه بالعراء وهو سقيم
٤٩٣	فوسوس إليه الشيطان قال
٥١١ - ٥٠٩	في سدر مخضود
٢٦٨ _ ٢٦٣	فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام
٥٠٨	فيهما فاكهة ونخل ورمان
٥٠٨ - ٥٠٦	فيهما من كل فاكهة زوجان
٥٢٠	قطوفها دانية
٩٧	قل الحمد لله وسلام على عباده
٧٠ - ٤٩	قل اللهم مالك الملك تؤتي
١١٠ _ ٥٧	قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض
١٠٨	قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا
٩٥	قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم
٣٦٢ - ١٥٧	قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي
١٨٧	قل من يرزقكم من السماء والأرض
٩٣	قل من يرزقكم من السماء والأرض
٤٨٥	كأنهم أعجاز نخل خاوية
٤٧٧	كلوا من ثمره إذا أثمر
٤٨٣	كم تركوا من جنات وعيون
٤٩	كيف تكفرون بالله وكنتم

٤٨٧	لقد كان لسبأ في مسكنهم آية
٥٠٤	لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون
٢٢٠ _ ٢٨٣	لنخرج به حباً ونباتاً
٤٢ _ ١٨٨	الله الذي جعل لكم من الشجر الأخضر
٥٤	الله الذي خلق السماوات والأرض
٤٢	الله الذي خلق السماوات
٥٠٣	لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون
١٠٥	لو كان فيها آلهة إلا الله
٤٩٢	ليس لهم طعام إلا من ضريع
٥٠٤	متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة
٥١٥	مثل الجنة التي وعد المتقون تجري
٤٢١	مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله
٣٨	مثل ما ينفقون
٤٤١	محمد رسول الله والذين معه
٨٩ - ٣٦٤ - ٤٠٠	هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم
٥٦	هو الذي يريكم آياته وينزل لكم
٥٨	واختلاف الليل والنهار وما أنزل
٣٣٧	وإذ قال إبراهيم رب اجعل
٢٩٦	وإذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد
٢٤٣	وأرسلنا الرياح لواقح
٤٤٨	واضرب لهم مثل الحياة الدنيا
٢٤٠ - ٤٣٣	واضرب لهم مثلاً رجلين
٢٨٤	والأرض بعد ذلك دحاها
٦٣ _ ١٦٥ _ ١٩٥ - ٢٢٣ - ٣٥٠	والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي
٣٨٨ -	

٣٤	والبلد الطيب يخرج نباته
٢٨٦	والذي قدر فهدى
١٦٩	والذي نزل من السماء ماءً بقدر
٢٢٧	والذي نزل من السماء ماءً بقدر فأنشرونا
١٩٣	والله الذي أرسل الرياح
١٧٩	والله أنبتكم من الأرض نباتاً
١١٠	والله أنزل من السماء ماءً فأحيا
٩٠	والله أنزل من السماء ماءً فأحيا
١٩٩	والله أنزل من السماء ماءً
١٣٦	والنجم والشجر يسجدان
١٦٣	والهكم إله واحد لا إله
٥١٣	وأمددناهم بفاكهة ولحم
١٩٥	وإن كل لما جميع لدينا محضرون
٢٤٢	وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواج
٢٣٠	وأنزلنا من السماء ماء بقدر
٤٦	وأنزلنا من المعصرات
٦٧ _ ٢٥٣	وأوحى ربك إلى النحل
٥١	وآية لهم الأرض الميتة أحييناها
٢١٨	وآيتاً لهم الأرض الميتة أحييناها
٥١٧	وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات
١٩٦ - ٣٤٩	وترى الأرض هامدة
٥٠	وترى الأرض هامدة
٣٢٦	وجعلنا ابن مريم وأمه
١٨١	وجعلنا من الماء كل شيء حي
٥٢٠	وجنى الجننتين دان

٢٩٣	وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم
١٥٠	وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو
٥١٦ - ٥٠٤	وفاكهة كثيرة
٥١٣	وفاكهة مما يتخيرون
١١١ - ٦٥	وفي الأرض آيات للموقنين
٣٩٩ - ٣٧٦ - ٢٤٥ - ٢٣٨	وفي الأرض قطع متجاورات
١٠٩	وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين
٣٣٩	وقالوا إن نتبع الهدى معك
٤٩٣	وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
٩٢	وكأين من دابة لا تحمل رزقها
١٦٩	ول بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض
٩٠	ولإن سألتهم من خلق
١٣١	ولله يسجد من في السماوات والأرض
٥٠٥	ولمن خاف مقام ربه جنتان
٤٦٥	ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع
٥٠٥	ولهم فيها من كل الثمرات
١٥٦	ولو أنما في الأرض من شجرة
٤١٠	وما جعلنا الرؤيا التي أريناك
٣٨١ - ٢٦٦ - ٢٤٤	وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه
٤٢٤	ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
٤٥٤ - ٣٧	ومثل كلمة خبيثة
١٩٧	ومن آياته أنك ترى الأرض
٥٠	ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة
٣٦٥ - ٣٤٣ - ٢٤٧	ومن ثمرات النخيل والأعناب
٥٠٦	ومن دونهما جنتان

٥٢٠	وندخلهم ظلاً ظليلاً
١٥٦	ونضع الموازين القسط ليوم القيامة
١٩٣	وهو الذي أرسل الرياح بشراً
٣٩٦ - ٢١٣ - ١٨٠	وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات
٣٦٧ - ٢٤٩ - ٨٧	وهو الذي أنزل من السماء ماء
٣٩٨ - ٢٢٩	وهو الذي أنشأ جنات معروشات
٣٨٤ - ٢٢٦ - ١٦٧ - ٥٩	وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي
١٩٢	وهو الذي يرسل الرياح بشراً
٤٧٣	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا
٤٢٧	يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم
٥٥	يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم
٨١	يا أيها الناس اعبدوا ربكم
١٧٣	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث
١٥٥	يا بني إنما إن تك مثقال حبة
٤٥٦	يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت
١٩٤ - ١٨٧	يخرج الحي من الميت
٥٠٣	يدعون فيها بكل فاكهة آمنين
٥١٣	يطاف عليهم بصحاف من ذهب
١٥٤	يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها
١٠١	يولج الليل في النهار ويولج

فهرس الأحدث

رقم الصفحة	طرف الحديث
١٣	أندري ما حق الله على العباد
٥٠١	أعددت لعبادي الصالحين
٢٣٨	أما شعرت أن عم الرجل
١٩	أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا
٥٢١	إن في الجنة لشجرة يسير الراكب
٤٦٧	الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل
١٦٢	إنهم ليسوا بشيء
١٧٢	الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته
٣٠٧	تعرف إليه في الرخاء
٣٦٠	تفكروا في آلاء الله
٤٥٨	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة
٥٠١	الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك
٥٠٧	جنتان من فضة آيتهما
٤٩٤	حاج موسى آدم
٢٠٨	الحمد لله الذي سقانا
٣٠٧	دعوة ذي النون إذ دعا
٤٦	سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب
٢٥٤	صدق الله
٤٩٥	فمن اتقى الشبهات
٥١٠	في سدر مخضود يخضد
٥٧	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهليل بهن
٢٥٦	كانت شجرة تؤذي

٦٧	كل ميسر لما خلق له
٢٩٥-٢٩٤	الكمأة من المن وماؤها
٢٥٩	لا هجرة ، ولكن جهاد ونية
٢٠٦	لا يقولن أحدكم زرعث
٢٨٣	لقد قرأها على الجرن
٤٧١	اللهم اجعلها عليهم سنين
١٣٩	اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا
١٥٤	ما المسؤول عنها بأعلم من السائل
١٧٩	ما بين النفختين أربعون
٣١٣	ما من بني آدم مولود
٤٦٨	ما من مسلم يصيبه أذى
٤٥٨-٢٥٦	ما من مسلم يغرس غرسًا
٢٥٦	ما من مسلم يغرس غرسًا
٢٦	ما من مولود يولد إلا على الفطرة
٤٦٤	ما يصيب المؤمن من شوكة
٣٠٢-٣٠١	ما ينبغي لعبد أن يقول أي خير
٤٦٢	مالي وللدنيا
٣٥	مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم
١٥٣	مفتاح الغيب خمس
٢٩٧	من أكل ثومًا
٢٥٨	من قطع سدره صوب الله
٤٦٤	من يرد الله به خيرًا يصب منه
٢١	من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين
٥٢٤-٥٢٣	موضع سوط في الجنة خير
١٩٢	ناركم جزء من سبعين جزءًا

٤٠٦	ناركم جزء من سبعين جزءاً
٢٦٧	نعم صبغاً لا ينفض
١٥٧	والكافر يأكل في سبعة أمعاء
٢٧٨	والله لينزلن ابن مريم حكماً
٤٤٩	والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل
٤٩٤	يجمع الله الناس فيقوم المؤمن

فهرس الأعلام

رقم الصفحة	العلم
٢٩٠	إبراهيم بن عمر البقاعي
١٣٨	إبراهيم بن محمد الزجاج
١٣٨	أبو العالية الرياحي
١٥١	أحمد بن علي العسقلاني
٤١٦	أحمد بن فارس القزويني
٢٦٦	أحمد بن محمد الشوكاني
٢١٢	أحمد بن يوسف الحلبي المقرئ
١٣٦	إسماعيل بن عبد الرحمن السدي
٣٨	إسماعيل بن عمر دمشقي
٣١٥	آسية بنت مزاحم
٢٤٨	أنس بن مالك الأنصاري
٣٢٦	البراء بن عازب الأنصاري
٢١	تقي الدين أبو العباس أحمد
٧٨	تقي الدين المقرئ
٤٦	جبير بن مطعم القرشي
١٣٨	جندب بن جنادة بن غفار
١٣٧	الحسن بن أبي الحسن البصري
٤٤٧	الحسن بن محمد القمي النيسابوري
١٤٧	حمد بن محمد البستي
١٣٦	سعيد بن جبير الأسدي
١٣٦	سفيان بن سعيد الثوري
٤٤٣	سلمان الفارسي
٢١٩	الضحاك بن مزاحم الخرساني

- ٣٩١ عامر بن شراحيل الشعبي
٢٤٠ عبد الحق بن غالب المحاربي
٢٠٨ عبد الرحمن بن محمد الرازي
٢٩ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي
٤٤٨ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني
٢٩١ عبد الكريم بن هوزان النيسابوري
٥٧ عبد الله بن الزبير بن العوام
٤٧ عبد الله بن عباس بن عبد المطلب
٥١٨ عبد الله بن عمر
٤٥٢ عبد الله بن عمر بن الخطاب
٢٦ عبدالرحمن بن صخر الدوسي
٨٤ عبدالله بن مسعود الهذلي
٢٢١ عكرمة مولى ابن عباس
٤٧٦ علي بن أحمد الواحدي النيسابوري
٢٠ علي بن علي بن أبي العز
١٥ علي بن محمد الجرجاني
٤٤ علي بن محمد
٢٤٧ عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي
٦٦ قتادة بن دعامة السدوسي
١٥٥ لقمان بن عنقاء بن سدون
٢٢ المبارك بن محمد الجزري
١٣٣ مجاهد بن جبير
١٣٤ محمد الأمين الشنقيطي
١٦ محمد السفاريني
٤٣ محمد الطاهر عاشور

١٦	محمد بن أبي بكر الدمشقي
١٣٤	محمد بن أبي محمد الأنباري
٤٧	محمد بن أحمد الخزرجي
٤٢٠	محمد بن إدريس المطلبي
٣١٨	محمد بن إسحاق القرشي
٢٦	محمد بن إسماعيل البخاري
٣٠	محمد بن جرير
١٥	محمد بن صالح آل عثيمين
٤٧٥	محمد بن عبد الله الأندلسي
١٦٣	محمد بن عمر التيمي
٤٥٢	محمد بن عيسى الضحاك
١١٤	محمد بن محمد العمادي
٤١	محمد بن محمد الغزالي
٢٣	محمد بن مكرم ابن منظور
١٣٢	محمد بن يوسف بن علي
٦٨	محمود الخوارزمي
١٠٩	محمود بن عبد الله الألويسي
٣٠٣	محمود بن عبد الله الحسيني
٥٧	مسلم بن الحجاج القشيري
٢١٩	مقاتل بن سليمان الأزدي
١٢٨	ميمون بن قيس بن جندل
٧٨	النعمان بن ثابت
٤٦٨	هند بنت أبي أمية بن المغيرة
٣٠٩	يحيى بن شرف الشافعي

فهرس الأهم والفرق

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الاسم</u>
١١٨	أصحاب القرية
٤٧٠	آل فرعون
٥١٥	الجهمية
٤٨٤	ثمود
٤٨٧	سبأ
٤٨٤	عاد

فهرس الكلمات المشروحة

رقم الصفحة	الكلمة
٣٧٠	الأب
٤٦٣	الابتلاء
٥٩	الإتقان
٢٦	اجتالتهم
٤٥٥	اجتشت
٢٨٦	أحوى
٢٥٩	الأذخر
٤٤٢	أزره
٤٤٦ - ٣٥٥	ازينت
٤٧٩	الإسراف
٣١٢	الاصطفاء
٤٨٥	أعجاز
٤٧٦	الإغماض
٥٠٥	أفنان
٤٧٠	آل
٧٣	الألوهية
٥٧	الأنداد
٢٢٩	أنشأ
١٨٣	اهتزت
١٧١	البعث
٢٩١	البقعة
١٨٠	البقل

٣٤٩	بهيح
٣٩١ - ١٤٢	التسبيح
٢٧٩	تسيمون
١٣٢	تقياً
٦٢	التقدير
٥٧	تكفرون
١٥	التوحيد
٤٠٥	تورون
٥٦	تؤفكون
٢٢٠	الشجاج
٤٧	ثجاجاً
٣٣٦	الثمرات
٣٢٢	الجدع
٢٨٠ - ١٩٨	الجرز
٢٤٩	الجنة
٤٢٢ - ٣٠	الحب
٢٩٩	الحبر
٤٧٣	الحشف
٢٨٠	الحصيد
٤٤٦	حصيداً
١٩٧	خاشعة
٤٨٥	خاوية
٣٤	الخبيث
٤٧٥	الخبيث
٣٢٥	خرسة

٣٣٣	الخلعة
٤١	الخلق
٣٠٢	الدباء
٣٨١ - ٢٤٤	ذراً
٢٢	الرب
١٨٣	ريت
٣١٦	الرزق
٥٣-٩٤	الرزق
٤٣	ركاماً
٢٨٢	الريحان
٤٤٥ - ٣٥٥	الزخرف
٤٠٨	الزقوم
٢٠٨-١٩٠	الزند
٣٨٥ - ٣٨٤ - ٣٤٩	زوج
١٢٨	السجود
٢٦٠	سراييل
٣٢٤	السري
٣٤٤ - ٢٤٨	سكراً
٢٩١	سمرة
٤٧١	السنين
٢٩٠	الشاطيء
٣٨٧	شتى
٤٤٢	شطأه
٤٣٩	الشوب
٣٨	الصر

٤٢٨	صفوان
٣٧٦ - ٢٣٨	صنوان
٣٦	ضرب
٤٩٢	الضريع
٢٨٩	الطور
٣٤	الطيب
١٣١	ظلالهم
١٢٩	العالم
١٨٠	عجب
١٧٧	العجب
٤٧٣	العذق
٢٥٠	عريشاً
٢٨١	العصف
١٨٢	علقة
٢٩١	العليق
٢٩١	العوسج
٢٨٦	غناء
١٤١	الغيب
٣٠	فالق
١٠٦	الفساد
٢٥	الفطرة
٣٥٩	الفكر
٢٦	القدسي
٣٠٦	القديد
٣٧٠ - ٣٦٩ - ٢٨٥	قضياً

١٠٢	القطمير
٢٧٨	القلاص
٣٥٤	الكريم
٤٨٣	الكنوز
٢٩٢	اللّحف
٢٥٩	لقينهم
٢٤٣	لواقح
٢٨٥	متاعاً
٤١٦	المثل
٤٨٦	المحتظر
٣١٥	محراباً
٣١٣	محررا
٣٥٠	مخضرة
٥١٠	مخضود
٥٠٦	مدهامتان
١٨٢	مضغة
٦٤	معايش
٤٧	المعصرات
١٥٠	مفتاح
٥٠٩	مفازا
٤٠٧	مقوين
٤٨٥	منقعر
٤٣٩	المهل
١٦٦	موزون
١٣٦	النجم

١٩٣	النشور
١٨٢	نطفة
٤٨٣	النَّعمة
٣٠	النوى
٣٤٩ - ١٨٣	هامدة
٩١	الهداية
٤٨٤	هضم
٤٦٢	الوابل
٤٣	الودق
١٥٤	الولوج
٣٤٠	يجي
٢٥٦	يرزؤه
٤٣	يزجي
١٥٥	يعزب
٣٠٢	اليقطين
٣٦٨	ينعه
٤٣	يؤلف

فهرس الأبيات الشعرية

رقم الصفحةأول البيت

٣٨١

تأمل سطور الكائنات فإنها

٣٣١

توكل على الرحمن في الأمر كله

١٢٨

فلما أتانا بُعيد الكرى

٢٨

فيا عجبًا كيف يعصى الإله

٧٦

لأن معناها كما لا يشتبه

فهرس الأماكن

<u>رقم الصفحة</u>	<u>المكان</u>
٢٩٣	بيت المقدس
٢٩٣	بيت لحم
٢٩٩	الحيرة
٣٢٧	دمشق
٣٢٨	الرملة
٢٨٩	الطور
٤٨٧	مأرب
٢٨٨	مدين
٣٢٧	مصر
٣٠١	نينوى

فهرس المصادر ، والمراجع

- ١- ابتلاء الأنبياء ، حنفي المخلوي ، ط ١ ، مكتبة الشروق الدولية ، ١٤٢٢
- ٢- الابتلاء في القرآن الكريم ، محمد عبدالعزيز الرحالي ، ١٤٠٨
- ٣- الإبتلاء وأثره في حياة المؤمنين ، عبدالله ميرغني صالح ، دار الاعتصام .
- ٤- الابتلاء والمحن في الدعوات ، محمد عبد القادر أبو فارس ، ط ٢ ، عمان : دار الفرقان ، ١٤٠٧
- ٥- الابتلاءات أساليب الكفرة في محاربة الدعوة في عصر النبوة ، حمود بن عبد الله المطر ، ط ٢ ، ١٤٢٤
- ٦- البرامج اليومية لأعلام الأمة الإسلامية . إبراهيم العنزي . ط ١ ، دار ابن الجوزي ، ١٤٣٢
- ٧- ابن قيم الجوزية ، بكر أبو زيد ، الرياض : دار العاصمة ، النشرة الأولى ١٤١٢ ، النشرة الثانية ١٤٢٣
- ٨- الإتقان في علوم القرآن ، أبو الفضل جلال الدين السيوطي ، ط ١ ، السعودية : مجمع الملك فهد .
- ٩- الإجماع ، أبو بكر بن المنذر النيسابوري ، ط ١ ، دار المسلم ، ١٤٢٥
- ١٠- الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة ، عبدالرحمن الدوسري ، ط ١ ، الكويت : دار الأرقم ، ١٤٠٢
- ١١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، محمد المقدسي ، دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٨٠
- ١٢- أحكام القرآن ، أبو محمد عبد المنعم ابن الفرس الأندلسي ، ط ١ ، دار ابن حزم ١٤٢٧
- ١٣- أحكام القرآن ، عماد الدين الكيا الهراسي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣
- ١٤- أحكام القرآن ، لابن العربي ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ١٥- الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ، أبو الحسن الحموي ، ط ١ ، الكويت : دار ابن حزم ، ١٤٢٤

- ١٦- الإحكام في أصول الأحكام ، علي بن محمد الآمدي ، بيروت : دار الكتاب العربي ،
١٤٠٤
- ١٧- أحكام من القرآن الكريم ، محمد بن صالح العثيمين ، الرياض : مدار الوطن للنشر ،
١٤٢٥
- ١٨- إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، أندونيسا : مكتبة ومطبعة كرباطه فوترا سماراغ
١٩- أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، أبو عبد الله الصيمري ، بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٥
٢٠- أخبار مكة ، عبد الله بن محمد الفاكهي ، ط ١ ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة دار النهضة ،
١٤٠٧
- ٢١- أدب الدنيا والدين ، أبو الحسن الماوردي ، ط ٤ ، بيروت : دار إقرأ ، ١٤٠٥
٢٢- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، سعود العريفي ، ط ١ ، مكة المكرمة : دار
عالم الفوائد ، ١٤١٩
- ٢٣- الأدوية الإسلامية الجامعة ، أحمد عبده عوض ، القاهرة : مركز الكتاب للنشر .
٢٤- الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين ، أبو منصور عبد الرحمن بن
محمد بن عساكر ، ط ١ ، دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٦
- ٢٥- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، لياقوت الحموي ، ط ١ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي
١٩٩٣
- ٢٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، بيروت :
دار إحياء التراث العربي
- ٢٧- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي الشوكاني ، ط ١ ،
دمشق: دار الكتاب العربي ، ١٤١٩
- ٢٨- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ، صالح الفوزان ، ط ٤ ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٠ ، كتاب
الالكتروني
- ٢٩- الأرض في القرآن الكريم ، ، شاهر جمال آغا ، أريد : دار الكتاب الثقافي .
٣٠- أساليب التفكير ، عصام علي الطيب ، ط ١ ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٤٢٧
٣١- الاستقامة ، ابن تيمية ، إشراف إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٤١١

- ٣٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر النمري ، ط ١ ، بيروت : دار الجيل ،
١٤١٢
- ٣٣- أسد الغابة ، ابن الأثير الجزري ، ط ١ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ١٤١٧
- ٣٤- أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠١
- ٣٥- أسرار الكون في القرآن ، داود سلمان السعدي ، ط ٢ ، دار الحرف العربي ، ١٤٢٠
- ٣٦- الإسلام يتصدى للغرب الملحد ، د. محمد نبيل النشواتي ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ،
١٤٣١ .
- ٣٧- أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني ، عمر با حاذق ، ط ١ ، ، دمشق :
بيروت : دار المأمون للتراث ، ١٤١٤
- ٣٨- أسماء سور القرآن الكريم ، أ. د. محمد الشايع ، ط ١ ، الرياض : دار كنوز إشبيليا ،
١٤٣٢
- ٣٩- الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ، ط ١ ، جدة : مكتبة السوادي
- ٤٠- الأسماء والصفات نقلا وعقلا ، محمد الشنقيطي ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، السنة
الخامسة ، العدد الرابع ، ربيع ثاني ١٣٩٣هـ
- ٤١- أسنى المطالب في شرح روض الطالب ، زكريا الأنصاري ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب
العلمية ، ١٤٢٢
- ٤٢- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، محمد بن أحمد ب القرطبي ، ط ١ ، طنطا : دار
الصحابة للتراث ، ١٤١٦
- ٤٣- الإشارة الجمالية في المثل القرآني ، عشتار داود محمد ، دمشق : منشورات اتحاد الكتاب
العرب ، ٢٠٠٥
- ٤٤- الأشباه والنظائر ، للإمام تاج الدين السبكي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤١١
- ٤٥- الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤١٢
- ٤٦- أصول الإيمان ، محمد بن عبد الوهاب .
- ٤٧- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة ، محمد الخميس ، دار الصمعي
- ٤٨- أصول السرخسي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب العلمية ، ١٤١٤

- ٤٩- أصول الفقه المسمى الفصول في الأصول ، أحمد بن علي الجصاص ، الكويت : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
- ٥٠- الأصول من علم الأصول ، ابن عثيمين ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٦ هـ
- ٥١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبدالعزيز ، ١٤٠٣
- ٥٢- أضواء قرآنية في سماء الوجدان ، محمد فتح الله كُولَن ، ط ١ ، استانبول : دار النيل ، ٢٠٠٣
- ٥٣- إظهار الحق ، محمد رحمت الله الكيرانوي ، ط ١ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤١٠
- ٥٤- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ، صالح بن فوزان الفوزان ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٣
- ٥٥- الاعتقاد ، أبو الحسين ابن أبي يعلى ، ط ١ ، دار أطلس الخضراء ، ١٤٢٣
- ٥٦- إعجاز أفرايتم النار التي تورون ، د. أحمد عروة ، إشراف ، ط ٢ ، ١٤٢٧
- ٥٧- إعجاز الطب النبوي ، السيد عبدالحكيم ، ط ١ ، دار الآفاق العربية ١٤١٨
- ٥٨- الإعجاز الطبي في القرآن ، السيد الجميلي ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٩٩٠
- ٥٩- الإعجاز الطبي في القرآن الرطب والنخلة ، عبد الله السعيد ، ط ١ ، جدة : الدار السعودية .
- ٦٠- الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، تونس : مؤسسات عبدالكريم بن عبد الله ١٩٨٠
- ٦١- إعجاز القرآن ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، مصر : دار المعارف .
- ٦٢- إعجاز عالم النبات ، قطب عامر ، السيد محمد ، ط ٤ ، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، ١٤٢٧
- ٦٣- إعجازات حديثة علمية ورقمية في القرآن ، رفيق أبو السعود ، ط ٣ ، دمشق : دار المعرفة ، مطبعة الصباح ، ١٤١٣
- ٦٤- إعراب القرآن وبيانه ، محي الدين الدرويش ، سوريا : دار الإرشاد

- ٦٥- الأعلام ، خير الدين بن محمود ، ط ١٥ ، دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢
- ٦٦- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم الجوزية ، بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٣
- ٦٧- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ، ابن القيم الجوزية ، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣١٨
- ٦٨- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ابن تيمية ، الرياض : مكتبة الرشد
- ٦٩- الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، شرف الدين أبو النجا الحجاوي ، بيروت : لبنان
- ٧٠- الإكليل في استنباط التنزيل ، جلال الدين السيوطي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠١ ،
- ٧١- ألقاب الصحابة والتابعين في المسندين الصحيحين المسمى : الألقاب ، أبو علي الحسين الجيّاني الأندلسي ، القاهرة : دار الفضيلة .
- ٧٢- الألوسي مفسرا ، محسن عبد الحميد ، ط ١ ، بغداد : مطبعة المعارف ، ١٣٨٨
- ٧٣- الأم ، محمد بن إدريس الشافعي ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٣
- ٧٤- الإمام قتادة ومروياته في التفسير جمعا ودراسة ، عزيز الرحمن عبد الأحد ، رسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى ١٤١٣
- ٧٥- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تقى الدين أحمد بن علي المقرئ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢٠
- ٧٦- الأمثال القرآنية تأملات ، عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني ، ط ١ ، ، دمشق : بيروت : دار القلم ١٤٠٠
- ٧٧- الأمثال في القرآن ، محمود بن الشريف ، ط ٢ ، جدة : دار عكاظ .
- ٧٨- الأمثال في القرآن الكريم ، ابن القيم الجوزية ، ط ١ ، طنطا : مكتبة الصحابة ، ١٤٠٦
- ٧٩- الأمثال في القرآن الكريم ، الشريف منصور العبدلي ، جدة : عالم المعرفة ، ط ١ ، ١٤٠٦
- ٨٠- الأمثال في القرآن الكريم ، حمد بن عبدالله المنصور ، ط ١ ، ١٤٢٧
- ٨١- الأمثال في القرآن الكريم ، محمد جابر الفياض ، ط ٢ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤١٥
- ٨٢- الأمثال من الكتاب والسنة ، لأبي عبدالله الترمذي، القاهرة : دار التراث .

- ٨٣- الأمثال والمثل والتمثل والمثلات في القرآن الكريم ، مجمع البيان الحديث ، سميح عاطف الزين ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، القاهرة : دار الكتاب المصري ، ١٤١٢
- ٨٤- أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم ، أحمد بن محمد طاحون ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، ١٤١٤
- ٨٥- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، لابن حجر العسقلاني ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦
- ٨٦- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم ، أبو عمر النمري القرطبي ، بيروت : دار الكتب العلمية .
- ٨٧- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مجير الدين الحنبلي العليمي ، عمان : مكتبة دنديس ، ١٤٢٠
- ٨٨- الأنساب ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ط ١ ، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ، دار الجنان ، ١٤٠٨
- ٨٩- الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس ، عبد الحميد محمود طهماز ، ط ١ ، دمشق: دار القلم ، بيروت : دار العلوم ، ١٤٠٩
- ٩٠- الإنسان في القرآن الكريم ، أحمد مهنا ، عن مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .
- ٩١- الإنسان والحياة في وقفات مع آيات ، محمد أديب الصالح ، ط ١ ، الرياض : شركة العبيكان للأبحاث والتطوير ، ١٤٢٨
- ٩٢- الإنسان والخلافة في الأرض ، محمد جبر ، ط ١ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٩
- ٩٣- الإنسان والغيب ، يحيى صالح باسلامة ، منشورات العصر الحديث ، ط ١ ، بيروت : توزيع دار المناهل ، ١٤٠٦
- ٩٤- الإنسان والكون في الإسلام ، أبو الوفا التفتازلي ، القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٥
- ٩٥- الإنسان والكون في العلوم المكتسبة وفي الإسلام ، زغلول النجار ، ط ١ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٣٠
- ٩٦- الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم ، عبدالرحمن المطرودي ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٠

- ٩٧- إنه الحق ، عبدالمجيد الزنداني ، ط ٤ ، ١٤٢٧
- ٩٨- أنوار التنزيل ، البيضاوي ، دار الفكر _ بيروت
- ٩٩- الأنوار الساطعات لآيات جامعات ، عبد العزيز السلطان ، ط ٣ ، ١٤٠٣
- ١٠٠- أهل مدين دراسة للخصائص والعلاقات ، د. عواطف أديب سلامة ، مكتبة الملك فهد الوطنية .
- ١٠١- آيات الله تعالى ، محمد الأميري ، الإسماعيلية : دار الرضوان ، مكتبة الشهباء .
- ١٠٢- آيات الله في الجبال والصحاري والغابات وفي النبات والثمار والأزهار والألوان_الموسوعة الكونية الكبرى_ ، ماهر أحمد الصوّفي ، ط ١ ، صيدا _بيروت : المكتبة العصرية ، ٢٠٠٧
- ١٠٣- إثثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق ، محمد إبراهيم الصنعاني ، الدار اليمنية ١٤٠٥
- ١٠٤- إيجاز البيان عن معاني القرآن ، بيان الحق النيسابوري الغزنوي ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤١٥
- ١٠٥- أيسر التفاسير من كلام العلي القدير ، أبو بكر الجزائري ، ط ٤ ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٢٣
- ١٠٦- الإيمان ، عبدالمجيد الزنداني ، ط ٢ ، دمشق : دار القلم ، المدينة المنورة : مكتبة طيبة ، ١٤٠٣
- ١٠٧- الإيمان ، محمد ياسين ، ط ٣ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ١٤٠٢
- ١٠٨- الإيمان أثره في حياة الإنسان ، حسن الترابي ، ط ١ ، الكويت : دار القلم ، ١٣٩٤
- ١٠٩- الإيمان بالقضاء والقدر ، عبدالسلام التونجي ، ط ٢ ، طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ١٤٢٦ .
- ١١٠- الإيمان بالله من سلسلة شعب الإيمان ، محمد حسن الحمصي ، دار الرشيد ، دمشق .
- ١١١- البارع في اللغة ، أبو إسماعيل القالي البغدادي ، ط ١ ، بغداد : مكتبة النهضة ، بيروت : دار الحضارة العربية ، ١٩٧٥
- ١١٢- بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي ، بيروت : دار الفكر
- ١١٣- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ابن عجيبة الحسني ، القاهرة ، ١٤١٩ هـ

- ١١٤- البداية والنهاية ، ابن كثير القرشي الدمشقي ، ط ١ ، الجيزة : دار هجر ، ١٤١٧
- ١١٥- البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨
- ١١٦- بدائع الفوائد ، ابن القيم الجوزية ، ط ١ ، مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ،
١٤١٦
- ١١٧- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن علي الشوكاني ، ط ١ ، دمشق ،
بيروت : دار ابن كثير ، ١٤٢٧
- ١١٨- البدع : تاريخها وآثارها ، د . عبد الرحمن الأنصاري ، ط ١ ، وكالة الآثار والمتاحف ،
١٤٢٣ .
- ١١٩- البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ، عبد الفتاح القاضي ، ط ١ ، المدينة المنورة :
مكتبة الدار ، ١٤٠٤
- ١٢٠- البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله ، ابن سعدي ، دار ابن الجوزي .
- ١٢١- البراهين العلمية على وجود الخالق ، محمد البرازي ، راجها الحسيني ، دمشق - بيروت :
دار القلم ١٣٩٣
- ١٢٢- البرهان في تناسب سور القرآن (ويسمى : البرهان في ترتيب سور القرآن) ، أبو جعفر
بن الزبير الغرناطي ، المغرب : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٤١٠ \
- ١٢٣- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ،
١٣٧٦
- ١٢٤- البرهان في غريب القرآن ، حسن الحبشي ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١١
- ١٢٥- بستان العارفين ، أبو يحيى النووي ، الناشر : محمد نجيب الصابوني .
- ١٢٦- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مجد الدين محمد الفيروزآبادي ، بيروت :
المكتبة العلمية .
- ١٢٧- بعض الأبعاد التربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم ، آمال حمزة ، سلسلة بحوث
التعليم الإسلامي ، ١٤٢٠
- ١٢٨- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، المفضل الضبي ، ط ١ القاهرة : دار
الكتاب المصري ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤١٠

- ١٢٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين السيوطي ، صيدا : المكتبة العصرية
- ١٣٠- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، ط ١ ، الكويت :
جمعية إحياء التراث الإسلامي ١٤٠٧
- ١٣١- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ، تصنيف : الفيروزآبادي ، ط ١ ، دمشق : دار سعد
الدين ١٤٢١
- ١٣٢- بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب ، علي بن عثمان المارديني ،
الكويت : دار ابن
- ١٣٣- بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين ، سليم بن عيد الهلالي ، ط ٣ ، دار ابن الجوزي ،
١٤١٨
- ١٣٤- بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ابن تيمية الحراني ، ط ١ ، مكة
المكرمة : مطبعة الحكومة ١٣٩٢
- ١٣٥- البيان في روائع القرآن ، تمام حسان ، ط ٢ ، عالم الكتب ، ١٤٢٠
- ١٣٦- البيان في مداخل الشيطان ، عبد الحميد البلالي ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ،
١٤٠١
- ١٣٧- تاج التراجم ، أبو الفداء قاسم بن قُطْلُوبُغَا ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ، ١٤١٣
- ١٣٨- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد الحسيني ، الملقب بمرتضى ، الزبيدي ،
دار الهداية
- ١٣٩- تاريخ أسماء الثقات ، أبو حفص عمر بن شاهين ، ط ١ ، الكويت : الدار السلفية ،
١٤٠٤
- ١٤٠- تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة ، محمد النجار ، ط ٢ ، الرياض : مكتبة المعارف
١٤٠٣
- ١٤١- تاريخ الصحابة ، بان حبان البستي ، ط ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨
- ١٤٢- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك ، أبو جعفر الطبري ، ط ٢ ، مصر : دار المعارف
- ١٤٣- تاريخ بغداد ، أبو بكر الخطيب البغدادي ، بيروت : دار الكتب العلمية .
- ١٤٤- تاريخ بن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٢١ .

- ١٤٥- تاريخ عمر بن الخطاب ، أبو الفرج بن الجوزي ، دمشق ، دار إحياء علوم الدين .
- ١٤٦- تاريخ قضاة الأندلس ، أبو الحسن بن عبد الله المالقي الأندلسي ، ط ٥ ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٣
- ١٤٧- تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، أبو سليمان محمد بن عبد الله بن زبر الربيعي ، ط ١ ، الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٠
- ١٤٨- تأملات تربوية في سور من سور القرآن الكريم ، د. عثمان قدري ، ط ١ ، دار عمار ، ١٤٣٠
- ١٤٩- تأملات في سورة آل عمران ، حسن محمد باجودة ، ط ١ ، ١٤١٣_١٩٩٢ ، جدة : دار البلاد
- ١٥٠- تأويل مشكل القرآن ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ط ٢ ، القاهرة : مكتبة دار التراث ، ١٣٩٣
- ١٥١- التبر المسبوك في ذيل السلوك ، السخاوي ، بولاق : المطبعة الأميرية ، ١٨٩٦
- ١٥٢- التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، أبو حامد الغزالي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩
- ١٥٣- تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن ، علي المهامي ، مطبعة بولاق بمصر .
- ١٥٤- التبيان في أقسام القرآن ، ابن القيم ، الرياض : المؤسسة السعيدية .
- ١٥٥- التبيان في أقسام القرآن ، ابن القيم الجوزية ، دار الفكر
- ١٥٦- التبيان في تفسير غريب القرآن ، لشهاب الدين ابن الهائم ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٣
- ١٥٧- تجريد البيان لتفسير القرآن من صفوة التفاسير ، عبد الله الأنصاري ، ط ١ ، الدوحة : مطابع الدوحة الحديثة ، ١٤٠٢
- ١٥٨- تجريد التوحيد المفيد ، المطبوع مع تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ، لتقي الدين المقرئزي ، ط ١ ، الرياض : دار القبس ، ١٤٢٦
- ١٥٩- التحبير في التفسير ، السيوطي ، ط ١ ، دار العلوم ، ١٤٠٢

- ١٦٠- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع ، القاهرة
١٣٨٣
- ١٦١- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع ،
١٩٩٧
- ١٦٢- تحفة الأحوذى ، محمد بن عبد الرحمن المبارك فوري ، الناشر : محمد الكتبي صاحب
المكتبة السلفية بالمدينة .
- ١٦٣- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ، لأثير الدين أبي حيان ، ط ١ ، بغداد : مطبعة
العاني ، ١٣٩٧
- ١٦٤- التخويف من النار ، زين الدين ، ابن رجب ، ط ١ ، دمشق : بيروت : دار الرشيد ،
١٤٠٣
- ١٦٥- التداوي بالأعشاب والطب النبوي ، عبد الباسط محمد ، ط ٢ ، الشركة المصرية العالمية
للنشر ، ٢٠٠٣
- ١٦٦- التداوي بالأعشاب والنباتات ، عبداللطيف عاشور ، مكتبة ابن سينا .
- ١٦٧- التداوي بالقرآن ، عبدالمنعم قنديل ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة .
- ١٦٨- تذكرة الحفاظ ، محمد بن أحمد الذهبي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٩
- ١٦٩- تذكرة الشيخ أحمد القليوبي في الطب ، المطبوع بهامش مختصر تذكرة الإمام السويدي ،
مصر : المطبعة الميمنية ، أحمد البابي الحلبي ، ١٣٠٨
- ١٧٠- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، شمس الدين القرطبي ، ط ١ ، القاهرة : دار الريان
للتراث ١٤٠٧
- ١٧١- التذكرة في الوعظ ، ابن الجوزي ، ط ١ ، الرياض : دار المعرفة ، ١٤٠٦
- ١٧٢- تراجم لتسعة من الأعلام ، محمد الحمد ، ط ١ ، الرياض : دار ابن خزيمة ، ١٤٢٨
- ١٧٣- التريفة بضرب الأمثال ، عبدالرحمن النحلأوي ، دمشق : دار الفكر ، بيروت : دار الفكر
المعاصر ، ط ١ ، ١٤١٩
- ١٧٤- الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن ، محمد زكي ، ط ١ ، مكتبة مصطفى البابي ،
١٣٧٦

- ١٧٥- الترجمان والدليل لآيات التنزيل ، المختار الشنقيطي ، ط ١ ، بيروت : عالم الكتب
١٤٢٢
- ١٧٦- ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي للشيخ عبد الرحمن السديس .
- ١٧٧- تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول ، تصنيف : خالد العك ، ط ١ ، بيروت : دار
المعرفة ، ١٤١٩
- ١٧٨- التسهيل لتأويل التنزيل ، التفسير في سؤال وجواب ، مصطفى بن العدوي ، ط ١ ،
١٤١٦
- ١٧٩- التسهيل لعلوم التنزيل ، ابن جزري المكلبي ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥
- ١٨٠- التصميم في الطبيعة ، هارون يحيى ، استانبول ، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٣
- ١٨١- التصور القرآني للعلاقة بين الدنيا والآخرة ودلالاته التربوية ، مریم محمود العمرو ، جامعة
اليرموك _ إربد ، ١٤٢٧
- ١٨٢- التصوير والرمزية في الأمثال القرآنية ، ضياء الدين الجماس ، ط ١ ، بيروت : دار الهجرة،
١٤١٠
- ١٨٣- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ، المطبوع مع تجريد التوحيد المفيد ، محمد الصنعاني ، ط
١ ، الرياض : دار القبس ، ١٤٢٦
- ١٨٤- تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران ، أحمد بن جحد ، ١٤٠٦
- ١٨٥- التعبير القرآني ، فاضل السامرائي ، ط ٤ ، دار عمار ، ١٤٢٧
- ١٨٦- التعريفات ، الشريف علي الجرجاني ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣
- ١٨٧- التعليق المتقن في تفسير آيات من سور القرآن المحكم ، حبيب الرحمن الموسوي الهندي ،
المطبعة الإسلامية ١٣٢٤
- ١٨٨- التعليقات المنيفة على فصول الرسالة السعدية اللطيفة ، المطبوع مع الرسالة السعدية لابن
سعدي ، ط ٢ ، بيروت : دار ابن حزم ، ، ١٤٢٦
- ١٨٩- تعليم التفكير ، محمود طافش ، ط ١ ، جهينة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٤
- ١٩٠- تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير للشيخ عبد الحميد بن باديس ،
ط ١ ، الجزائر ، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم ، ١٤٣٠

- ١٩١- تفسير ابن رجب ، عبدالرحمن بن رجب الحنبلي ، ط ١ ، الرياض : دار العاصمة ١٤٢٢
- ١٩٢- تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة ، عبدالعزيز الحميدي ، جامعة أم القرى ، من التراث الإسلامي ، الكتاب الثالث والخمسون .
- ١٩٣- تفسير ابن عربي ، ط ١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٢٢_٢٠٠٢
- ١٩٤- تفسير ابن عرفة ، ابن عرفة المالكي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ١٩٥- تفسير ابن عرفة ، ابن عرفة المالكي ، ط ١ ، تونس : مركز البحوث بالكلية الزيتونية ، ١٩٨٦
- ١٩٦- تفسير ابن فورك ، أبو بكر ابن فورك ، ط ١ ، جامعة أم القرى ١٤٣٠
- ١٩٧- تفسير ابن مسعود ، محمد أحمد عيسوي ، ط ١ ، الرياض : شركة الطباعة العربية السعودية ، ١٤٠٥
- ١٩٨- تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢
- ١٩٩- التفسير البياني للقرآن الكريم ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، ط ٧ ، القاهرة : دار المعارف
- ٢٠٠- تفسير التستري ، سهل بن عبد الله التستري ، ط ١ ، بيروت : دارالكتب العلمية
- ٢٠١- تفسير الجلالين ، جلال الدين المحلي ، جلال الدين السيوطي ، بيت الأفكار الدولية .
- ٢٠٢- التفسير الحديث ، محمد عزت دروزة ، دمشق : دار الغرب الإسلامي ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٣
- ٢٠٣- تفسير الدجوي ، يوسف بن أحمد الدجوي ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ١٤٠٢
- ٢٠٤- تفسير الراغب ، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، ط ١ ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٤٢٠
- ٢٠٥- تفسير السدي الكبير ، أبو محمد إسماعيل السدي الكبير ، ط ١ ، المنصورة : دار الوفاء ، ١٤١٤
- ٢٠٦- تفسير السراج المنير ، محمد بن أحمد الشربيني ، بيروت : دار الكتب العلمية

- ٢٠٧- تفسير الشيخ المراغى ، أحمد مصطفى المراغى ، مصر ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده
- ٢٠٨- تفسير الضحاك ، الضحاك بن مزاحم ، ط ١ ، القاهرة : دار السلام ١٤١٩
- ٢٠٩- تفسير الطيب من القول ، رؤوف شلبي ، ١٤٠٩ .
- ٢١٠- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، حنفي أحمد ، ط ٣ ، القاهرة : دار المعارف .
- ٢١١- التفسير الفريد للقرآن المجيد ، محمد عبد المنعم ، دار الكتاب الجديد .
- ٢١٢- تفسير القاسمي المسمى (محاسن التأويل) ، محمد جمال الدين القاسمي ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية .
- ٢١٣- تفسير القرآن ، ابن المنذر النيسابوري ، ط ١ ، المدينة النبوية : دار المآثر ، ١٤٢٣
- ٢١٤- تفسير القرآن ، أبو المظفر منصور السمعاني ، الرياض : دار الوطن ، ١٤١٨
- ٢١٥- تفسير القرآن ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، ط ١ ، المحقق والناشر : عبد الله الوهبي ، ١٤١٦
- ٢١٦- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠
- ٢١٧- تفسير القرآن الحكيم ، محمد عبد المنعم خفاجه ، القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٣٧٨
- ٢١٨- تفسير القرآن العزيز ، ابن أبي زمنين ، ط ١ ، الفاروق الحديثة ١٤٢٣
- ٢١٩- تفسير القرآن العظيم ،
- ٢٢٠- تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم الرازي ، صيدا : المكتبة العصرية .
- ٢٢١- تفسير القرآن العظيم ، لأبي محمد سهل التستري ، دار الكتب العربية الكبرى ، ١٣٢٩
- ٢٢٢- تفسير القرآن الكريم ، ابن القيم الجوزية ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٤١٠
- ٢٢٣- تفسير القرآن الكريم ، محمود شلتوت ، ط ٨ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨١-١٤٠١
- ٢٢٤- تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار وبالأسلوب الحديث ، أحمد بن عبد الرحمن القاسم ، ط ١ ، ١٤٢٢
- ٢٢٥- التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب ، القاهرة : دار الفكر العربي

- ٢٢٦- التفسير الكبير لابن تيمية ، تقي الدين ابن تيمية ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية
١٤٠٨ ،
- ٢٢٧- تفسير المشكل من غريب القرآن ، مكّي بن أبي طالب ، الرياض : مكتبة المعارف
١٤٠٦
- ٢٢٨- التفسير المظهرى ، محمد ثناء الله العثماني المظهري ، مكتبة رشديه ، بيروت : دار إحياء
التراث العربي ١٤١٢
- ٢٢٩- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، وهبة الزحيلي ، ط ٢ ، دمشق : دار الفكر
المعاصر ، ١٤١٨
- ٢٣٠- التفسير الموضوعي ، نماذج رائدة في ضوء القرآن الكريم ، محمد عوض ، ط ١ ، مكتبة
الرشد ، ١٤٢٩
- ٢٣١- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، إعداد نخبة من علماء التفسير ، إشراف : د.
مصطفى مسلم ، جامعة الشارقة ، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي ١٤٣١
- ٢٣٢- التفسير الميسر : عدد من الأساتذة ، إشراف : د. عبدالله التركي ، مجمع الملك فهد
لطباعة المصحف الشريف .
- ٢٣٣- تفسير النسائي ، أبو عبد الرحمن النسائي ، مكتبة الرشد
- ٢٣٤- التفسير الواضح ، محمد محمود حجازي ، دار الجيل الجديد
- ٢٣٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، ١٩٧٣
- ٢٣٦- تفسير آيات الأحكام ، محمد الصابوني ، ط ٢ ، دمشق : مكتبة الغزالي ، ١٣٩٧
- ٢٣٧- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب،
الجزء الخامس)
- ٢٣٨- تفسير توفيق الرحمن في دروس القرآن ، فيصل بن مبارك . مكتبة المشكاة الإسلامية .
- ٢٣٩- تفسير جزء عم ، مساعد الطيار ، ط ٧ ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٤٢٧
- ٢٤٠- تفسير روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي ، دار إحياء التراث العربي
- ٢٤١- تفسير سفيان الثوري ، أبو عبد الله سفيان بن مسروق ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب
العلمية ، ١٤٠٣

- ٢٤٢- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم ، السيد عبد الله كنون ، ط ١ ، الدار البيضاء : دار الثقافة ، ١٤٠١
- ٢٤٣- تفسير سورة الأنعام ، محمد البهي ط ١ ، دار الفكر ، ١٣٩٤_١٩٧٤
- ٢٤٤- تفسير سورة الأنعام ، محمود محمد حمودة ، محمد القطناني ، عمان : مؤسسة الوراق
- ٢٤٥- تفسير سورة البقرة ، محمد بن صالح العثيمين ، ط ١ ، الرياض : دار الوطن ، ١٤١٩
- ٢٤٦- تفسير سورة الرعد ، د . محمد صالح مصطفى ، ط ١ ، الرياض : دار النفائس ، ١٤٠٨ .
- ٢٤٧- تفسير سورة النور ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط ١ ، بومباي : الدار السلفية ، القاهرة: دار الريان للتراث ، ١٤٠٨
- ٢٤٨- تفسير سورة فاطر ، د . عبدالرحمن المطرودي ، ط ١ ، الرياض : دار عالم الكتب ، ١٤١١
- ٢٤٩- تفسير غريب القرآن ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٣٩٨
- ٢٥٠- تفسير غريب القرآن ، لسراج الدين ابن الملقن ، ط ١ ، عالم الكتب ، ١٤٠٨
- ٢٥١- تفسير غريب ما في الصحيحين البخارى ومسلم ، محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة السنة ، ١٤١٥
- ٢٥٢- تفسير كتاب الله العزيز ، هود بن محكم ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٠
- ٢٥٣- تفسير مبهمات القرآن ، أبو عبد الله محمد البننسي ، ط ١ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤١١
- ٢٥٤- تفسير مجاهد ، مجاهد بن جبر المخزومي ، بيروت : المنشورات العلمية
- ٢٥٥- تفسير من نسمات القرآن ، غسان حمدون ، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة .
- ٢٥٦- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ، عبد الحميد الفراهي ، ط ١ ، الدائرة الحميدية ، ٢٠٠٨
- ٢٥٧- التفسير والمفسرون ، د . محمد الذهبي ، القاهرة : دار الحديث ، ١٤٢٦

- ٢٥٨- التفكير من المشاهدة إلى الشهود ، مالك بدري ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هير ندن فيرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٤١٥
- ٢٥٩- التفكير الإبداعي ، صلاح الدين العمري ، ط ١ ، عمان : مكتبة المجتمع العربي للنشر ٢٠٠٥
- ٢٦٠- التفكير العلمي ، فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، يناير ١٩٧٨
- ٢٦١- تقريب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، سوريا : دار الرشيد ، ١٤٠٦
- ٢٦٢- التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ، محمد بن عبد الغني البغدادي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨
- ٢٦٣- تلبيس إبليس ، جمال الدين أبو الفرج الجوزي ، ط ١ ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٢١
- ٢٦٤- تمثال الأمثال ، لأبي المحاسن العبدري الشيبلي ، ط ١ ، بيروت : دار الميسرة ، ١٤٠٢
- ٢٦٥- التمهيد في أصول الفقه ، أبو الخطاب الكوذاني ، ط ١ ، مكة المكرمة : مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، ١٤٠٦
- ٢٦٦- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، أبو عمر يوسف النمرى القرطبي ، مؤسسة قرطبة .
- ٢٦٧- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، لأبي طاهر بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار الفكر
- ٢٦٨- تهذيب الأسماء واللغات ، أبو زكريا النووي ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٢٦٩- تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، دار الفكر ١٤٠٤
- ٢٧٠- تهذيب السجستاني في غريب القرآن ، محمد مرسي ، ط ٣ ، مطبعة دار الكتاب العربي ١٣٧٠
- ٢٧١- تهذيب تفسير الجلالين ، د . محمد لطفي الصباغ ، ط ١ ، دمشق : بيروت : عمان :
- المكتب الإسلامي ، ١٤٢٧
- ٢٧٢- توحيد الخالق ، عبدالمجيد الزنداني ، كتاب الكتروني ، من موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .
- ٢٧٣- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك ، أبو محمد بدر الدين المرادي ، ط ١ ،

- ٢٧٤- تيسير التحرير ، بأمير بادشاه محمد أمين ، دار الفكر
- ٢٧٥- التيسير العجيب في تفسير الغريب ، ناصر الدين ابن المنير ، ط ١ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٤
- ٢٧٦- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، الرياض : مكتبة الرياض الحديثة
- ٢٧٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠
- ٢٧٨- تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد ، ط ١ ، دار ابن الجوزي ، صفر ١٤٢٩
- ٢٧٩- التيسير بشرح الجامع الصغير ، زين الدين عبد الرؤوف المناوي ، ط ٣ ، الرياض : مكتبة الإمام الشافعي ، ١٤٠٨
- ٢٨٠- التيسير في تفسير ألفاظ القرآن الكريم (القاموس القرآني) ، حسني نصار ، الإسكندرية: منشأة أنوار المعرفة .
- ٢٨١- التيسير في تفسير ألفاظ القرآن الكريم ، حسني نصار ، منشأة أنوار المعرفة .
- ٢٨٢- التيسير لمعرفة المشهور من أسانيد وكتب التفسير ، أبو الحسن علي الرّازحي ، صنعاء : دار الآثار .
- ٢٨٣- الثقات ، محمد بن حبان أبو حاتم البستي ، ط ١ ، دار الفكر ، ١٣٩٥
- ٢٨٤- ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ، شمس الدين الذهبي ، الكويت : دار ابن الأثير ١٤١٥
- ٢٨٥- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، الرماني والخطابي والجرجاني ، ط ٣ ، مصر : دار المعارف .
- ٢٨٦- جامع البيان في تأويل القرآن ، أبو جعفر الطبري ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠
- ٢٨٧- جامع الدروس العربية ، مصطفى الغلاييني ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢١
- ٢٨٨- الجامع الصحيح سنن الترمذي ، أبو عيسى الترمذي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي

- ٢٨٩- الجامع الفريد ، يحتوي على كتب ورسائل لأئمة الدعوة الإسلامية ، ط ٢ ، طبع على نفقة عبدالعزيز ومحمد عبدالله الجميع
- ٢٩٠- الجامع المختصر من السنن ، أبو عيسى محمد الترمذي ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
المجتبى من السنن ، أبو عبد الرحمن بن أبي شعيب ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
- ٢٩١- جامع المسائل ، ابن تيمية ، ط ١ ، دار عالم الفوائد ، ١٤٢٢
- ٢٩٢- الجامع المسند الصحيح المختصر ، محمد بن إسماعيل البخاري ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
- ٢٩٣- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، الرياض : دار عالم الكتب ، ١٤٢٣
- ٢٩٤- الجدول في إعراب القرآن ، محمود صافي ، ط ٤ ، دمشق : دار الرشيد مؤسسة الإيمان ، ١٤١٨
- ٢٩٥- جماع العلم ، محمد بن إدريس الشافعي ، ط ١ ، ١٤٢٣
- ٢٩٦- الجمان في تشبيهات القرآن ، عبدالله بن الحسين بن نايقا ، ط ١ ، ١٤٠٧
- ٢٩٧- جهرة تراجم الفقهاء المالكية ، أبو الفضل اليحصبي السبتي ، ط ١ ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، ١٤٢٣
- ٢٩٨- جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ، أبو عبد الله شمس الدين الأفغاني ، ط ١ ، دار الصمعي ، ١٤١٦
- ٢٩٩- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ابن القيم الجوزية ، بيروت : دار الكتب العلمية .
- ٣٠٠- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، بابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الكتب العلمية.
- ٣٠١- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار ، عبد القادر بدران ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ١٤٢٠

- ٣٠٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي ، بيروت : مؤسسة الأعلمي
- ٣٠٣- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، أبو الوفاء القرشي ، ط ١ ، الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٨
- ٣٠٤- الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، طنطاوي جوهري ، ط ٢ ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٠
- ٣٠٥- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، شمس الدين السخاوي ، القاهرة : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٤٠٦
- ٣٠٦- الجواهر والآلئ المصنوعة في تفسير القرآن العظيم ، عبد الله التليدي ، ط ٢ ، بيروت : دار البشائر الإسلامية ، ١٤٣٢
- ٣٠٧- الجوهر النقي: علاء الدين المارديني الشهير بابن التركماني ، المطبوع مع السنن الكبرى ، ط ١ ، حيد آباد : مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٤٤
- ٣٠٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٣٠٩- حاشية السندی علی صحیح البخاری ، محمد بن عبد الهادي السندي ، دار الفكر
- ٣١٠- حَاشِيَةُ الشَّهَابِ عَلَي تَفْسِيرِ البِيضَاوِي (المُسَمَّاة) عناية القاضي وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي ، أحمد بن محمد الخفاجي . بيروت : دار صادر
- ٣١١- الحاوي في الطب ، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ط ١ ، وزارة المعارف للتحقيقات العالمية والأمور الثقافية ، ١٣٨٣
- ٣١٢- الحاوي في فقه الشافعي علي بن محمد الشهير ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤
- ٣١٣- حجة القراءات ، عبد الرحمن بن زنجلة أبو زرعة ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢
- ٣١٤- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ، لأبي القاسم التيمي الأصبهاني ، ط ١ ، دار الراية ، ١٤١١

- ٣١٥- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، لمحمد الأمين الهرري الشافعي ، ط ١ ، بيروت : دار طوق ١٤٢١
- ٣١٦- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين الهرري الشافعي ، ط ١ ، دار طوق النجاة ، ١٤٢١
- ٣١٧- الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، محمد بن عثمان ، ط ٢ ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٤٠٤
- ٣١٨- حقائق التفسير ، محمد بن الحسين السلمي بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢١
- ٣١٩- الحكمة في مخلوقات الله ، لأبي حامد الغزالي ، ط ١ ، دار ميرزا ، ١٤١٤
- ٣٢٠- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم الأصبهاني ، ط ٤ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥
- ٣٢١- حياة إبراهيم ، محمود شلبي ، ط ٤ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤٠٢
- ٣٢٢- حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ، ١٤٠٦
- ٣٢٣- حياة أهل الجنة ، محمود شلبي ، دار الجيل ، بيروت .
- ٣٢٤- حياتنا بعد الموت ، عبداللطيف عاشور ، القاهرة : مكتبة القرآن ، جدة : مكتبة الساعي
- ٣٢٥- خزنة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، ط ١ ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٧
- ٣٢٦- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم إبراهيم ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٣
- ٣٢٧- الخطب المنبرية في المناسبات العصرية ، صالح الفوزان ، ط ١ ، الرياض : دار العاصمة ، ١٤٣١
- ٣٢٨- الخلافة الراشدة (خلاصة تاريخ ابن كثير) ، محمد كنعان ، ط ١ ، بيروت : ١٤١٧
- ٣٢٩- الدر الثمين في ترجمة فقيه الأمة ابن عثيمين ، عصام المري ، ط ١ ، الإسكندرية : دار البصيرة ، ١٤٢٢
- ٣٣٠- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، أبو العباس السمين الحلبي ، دمشق : دار القلم

- ٣٣١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، جلال الدين السيوطي ، ط ١ ، القاهرة : مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، ١٤٢٤
- ٣٣٢- الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد ، سيف الدين التفتازاني المعروف بابن الحفيد ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٠
- ٣٣٣- درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، ابن تيمية ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤١٧
- ٣٣٤- دراسات فنية في قصص القرآن ، محمود البستاني ، ط ١ ، بيروت : دار البلاغة ، ١٤٠٩
- ٣٣٥- دراسات في علوم القرآن ، محمد بكر إسماعيل ، ط ٢ ، دار المنار ، ١٤١٩
- ٣٣٦- دراسات من التفسير الموضوعي ، أ. د . سليمان القرعاوي ، ط ٢ ، الرياض ، القاهرة : دار الميمان ، ١٤٣٠
- ٣٣٧- درة التنزيل وغرة التأويل ، أبو عبد الله الخطيب الإسكافي ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٢
- ٣٣٨- الدرّة الثمينة في أخبار المدينة ، ابن النجار ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم
- ٣٣٩- درة الرجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، القاهرة ، دار التراث . تونس ، الكتبة العتيقية ، ١٣٩٠ .
- ٣٤٠- الدرّة في تفسير سورة البقرة ، ميادة الماضي ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة العالمية ، ١٤٢٧
- ٣٤١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، صيدر اباد : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٩٢
- ٣٤٢- دعوة التوحيد ، محمد خليل هراس ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦
- ٣٤٣- دعوة للتفكير من خلال القرآن الكريم ، عبدالواحد الكبيسي ، ط ٢ ، ديونو للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩
- ٣٤٤- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلّيم بن تيمية ، دمشق : مؤسسة علوم القرآن
- ٣٤٥- دلالات الأمثال في القرآن الكريم ، محمد رأفت سعيد ، ط ١ ، دار الهداية ، ١٤٠٨

- ٣٤٦- دلائل التوحيد ، محمد القاسمي ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٥
- ٣٤٧- دلائل التوحيد انطلاقة من القرآن والكون ، عبدالله التليدي ، ط ١ ، بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٠
- ٣٤٨- الدلائل القرآنية ، عبدالرحمن الناصر السعدي ، دار ابن الجوزي .
- ٣٤٩- دلائل النبوة ، أبو بكر البيهقي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٥
- ٣٥٠- دلائل النبوة المحمدية في ضوء المعارف الحديثة ، محمود مهدي ، ط ١ ، الكويت : المعلا ، ١٤٠٧
- ٣٥١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، محمد بن علان الصديقي ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١
- ٣٥٢- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، إبراهيم بن علي بن فرحون ، القاهرة : دار التراث .
- ٣٥٣- ديوان ابن مشرف ، ط ٤ ، الأحساء : مؤسسة مكتبة الفلاح
- ٣٥٤- ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت ١٤٠٦
- ٣٥٥- ذم الدنيا ، ابن أبي الدنيا ، الرياض : مكتبة الساعي .
- ٣٥٦- ذم الهوى ، ابن الجوزي ، ط ١ ، ١٣٨١
- ٣٥٧- الرسالة ، الإمام الحجة محمد بن إدريس الشافعي ، دار الكتب العلمية .
- ٣٥٨- الرسالة ، محمد بن إدريس الشافعي ، ط ١ ، المنصورة : دار الوفاء ، ١٤٢٢
- ٣٥٩- رسالة الإنسان في الحياة ومقتضياتها ، عبدالستار نوير ، ط ١ ، الدوحة : دار الثقافة ، ١٤٠٧
- ٣٦٠- رسالة إلى أهل الثغر ، لأبي الحسن الأشعري ، ط ٢ ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٢٢
- ٣٦١- رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة لابن سعدي ، ط ٢ ، بيروت : دار ابن حزم ، _ لبنان ١٤٢٦
- ٣٦٢- الرقائق ، مجموعة رسائل العريفي ، محمد العريفي ، ط ١ ، القاهرة : دار ابن حزم ، ١٤٢٩

- ٣٦٣- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز ، عبدالرزاق الرسعني ط ١ ، مكة المكرمة : مكتبة الأسيدي ١٤٢٩
- ٣٦٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٥
- ٣٦٥- الروض الأنف ، للسهيلى ، بيدي إف من مكتبة المصطفى الإلكترونية .
- ٣٦٦- الروض المربع شرح زاد المستنقع ، منصور بن يونس ، البهوتي بيروت : دار الفكر
- ٣٦٧- الروض المعطار في خبر الأقطار ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨٠
- ٣٦٨- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ابن القيم الجوزية ، ط ٣ ، دمشق ، بيروت : دار ابن كثير ١٤٢٩
- ٣٦٩- روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه ، ابن قدامة المقدسي ، ط ٧ ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٥
- ٣٧٠- الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، زيد بن فياض ، ط ٢ ، الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٣٨٨ .
- ٣٧١- رياض البيان لمفردات القرآن ، أ.د . زكي أبو سريع ، ط ١ ، الرياض : دار الحضارة ، ١٤٢٥
- ٣٧٢- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، أبو زكريا النووي ، ط ١ ، دمشق : مؤسسة الرسالة ١٤٢٨
- ٣٧٣- رياض القرآن تفسير في النظم القرآني ، د. سمير شريف ، ط ١ ، عمان : جدار الكتاب العالمي ، إريد : عالم الكتب الحديث ، ١٤٢٦ .
- ٣٧٤- الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، يحيى العامري ، ط ٣ ، بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٨٣
- ٣٧٥- الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة ، عبدالرحمن ناصر السعدي ، ط ١ ، دار المنهاج ، ١٤٢٦

- ٣٧٦- زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، ط ٣ ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٤
- ٣٧٧- زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية ، ط ٢٧ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، الكويت : مكتبة المنار الإسلامية ، ١٤١٥ هـ
- ٣٧٨- زبدة التفسير من فتح القدير ، محمد سليمان الأشقر ، ط ٢ ، الكويت : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤٠٨
- ٣٧٩- زهر الأكم في الأمثال والحكم ، للحسن اليوسي ، الدار البيضاء : دار الثقافة .
- ٣٨٠- زهرة التفاسير ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .
- ٣٨١- الزيادة والإحسان في علوم القرآن ، ابن عقيلة المكي ، ط ١ ، جامعة الشارقة ١٤٢٧
- ٣٨٢- سبل السلام محمد بن إسماعيل الصنعاني ، ط ٤ ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٩
- ٣٨٣- سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٤
- ٣٨٤- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٤
- ٣٨٥- سر الفصاحة ، عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢
- ٣٨٦- السراج في بيان غريب القرآن ، محمد الخضير ، ط ١ ، مجلة البيان ، ١٤٢٩_٢٠٠٨
- ٣٨٧- سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، أبو العباس أحمد التيفاشي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٠
- ٣٨٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشئ من فقها وفوائدها ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، السعودية _ الرياض ، ط ٤ ، ١٤٠٨_١٩٨٨
- ٣٨٩- السلسلة الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ، الرياض : مكتبة المعارف
- ٣٩٠- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، أبو الفضل المرادي ، ط ٣ ، بيروت : دار البشائر الإسلامية ، دار ابن حزم ، ١٤٠٨

- ٣٩١- السلوك في طبقات العلماء والملوك ، بهاء الدين محمد بن يوسف الكندي ، صنعاء : مكتبة الإرشاد ، ١٩٩٥
- ٣٩٢- السنن ، ابن ماجه القزويني ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
- ٣٩٣- السنن ، سليمان بن الأشعث أبو داود ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
- ٣٩٤- سنن الترمذي المطبوع مع تحفة الأحوزي ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، الناشر: محمد الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة .
- ٣٩٥- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي ، أبو بكر البيهقي ، ط ١ ، حيد آباد : مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٤٤
- ٣٩٦- سورة الرحمن وسور قصار ، شوقي ضيف ، مصر : دار المعارف .
- ٣٩٧- سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية ، عبد الرحمن حسن الميداني ، ط ١ ، ١٣٩١
- ٣٩٨- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد ، محمود غريب ، ط ٣ ، القاهرة : دار التراث العربي ، ١٤١٨
- ٣٩٩- السوريون والحضارة السريانية ، سمير عبده ، دمشق : دار الحصاد ، ١٩٩٨
- ٤٠٠- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي ، ط ٩ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤١٣
- ٤٠١- السيرة النبوية ، محمد بن أحمد الذهبي ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢
- ٤٠٢- شأن الدعاء ، أبو سليمان الخطابي ، ط ٣ ، دمشق_بيروت : دار الثقافة العربية ، ١٤١٢
- ٤٠٣- الشجرة المباركة من خلال القرآن ، المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، محمد فائد
- ٤٠٤- الشخصية الإسلامية ، تقي الدين النبهاني ، ط ٤ ، بيروت : دار الأمة ، ١٤١٥
- ٤٠٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي العكري ، دمشق : دار بن كثير ، ١٤٠٦
- ٤٠٦- شرح الزركشي على مختصر الخرقى ، شمس الدين أبي عبد الله الزركشي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٣

- ٤٠٧- شرح السنة ، الحسين بن مسعود البغوي ، ط ٢ ، دمشق - بيروت : المكتب الإسلامي
١٤٠٣
- ٤٠٨- شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ط ١ ، وزارة الشؤون الإسلامية ،
والأوقاف والدعوة والإرشاد ، ١٤١٨
- ٤٠٩- شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ط ١ ، دار السلام ١٤٢٦
- ٤١٠- شرح العقيدة الواسطية ، لابن تيمية ، تأليف : محمد خليل هراس ، الرياض : الرئاسة
العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .
- ٤١١- شرح الكوكب المنير تقي الدين ابن النجار ، ط ٢ ، مكتبة العبيكان ، ١٤١٨ هـ
- ٤١٢- الشرح الممتع على زاد المستقنع ، محمد بن صالح العثيمين ، ط ١ ، دار ابن الجوزي ،
١٤٢٢
- ٤١٣- شرح ثلاثة الأصول ، ابن عثيمين ، ط ٤ ، الرياض : دار الثريا للنشر ، ١٤٢٤
- ٤١٤- شرح سنن ابن ماجه ، السيوطي وآخرون ، كراتشي : قديمي كتب خاانة
- ٤١٥- شرح شذور الذهب ، شمس الدين الجوجري ، ط ١ ، المدينة المنورة : عمادة البحث
العلمي بالجامعة الإسلامية ، ١٤٢٣
- ٤١٦- شرح صحيح البخارى . لابن بطلال البكري ، ط ٢ ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٣
- ٤١٧- شرح مختصر الروضة ، نجم الدين الطوفي الصرصري ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧
- ٤١٨- شرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن ،
- ٤١٩- شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ، ط ١ ، الرياض : مكتبة الرشد
بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ١٤٢٣
- ٤٢٠- الشفاء بالنباتات والأعشاب والطب الطبيعي من القانون في الطب ، ابن سينا ، ط ٢ ،
دار الكتب العلمية ٢٠٠٥
- ٤٢١- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، طاشكيري زادة ، بيروت : دار الكتاب
العربي ، ١٣٩٥
- ٤٢٢- شمس العرب تشرق على الغرب ، زيغريد هونكه ، ط ٨ ، بيروت : دار الجيل ، دار الآفاق
الجديدة ، ١٤١٣

- ٤٢٣- شواهد في الإعجاز القرآني ، عودة أبو عودة ، ط ١ ، عمان : دار عمار
- ٤٢٤- الشواهد والأمثال في القرآن الكريم ، يحيى المعلمي ، القاهرة : دار الاعتصام .
- ٤٢٥- الصبح المنير في شعر أبي بصير : ميمون بن قيس ، مع شرح أبي العباس ثعلب ، طبع في مطبعة آذلف هلز هو سنن ، بيانة ١٩٢٧
- ٤٢٦- صحابة رسول الله في الكتاب والسنة ، عيادة الكبيسي ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ، بيروت : المنارة ، ١٤٠٧
- ٤٢٧- صحيح مسلم بشرح النووي ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢ .
- ٤٢٨- صحيح و ضعيف الجامع الصغير وزيادته ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .
- ٤٢٩- صفة الجنة ، ضياء الدين المقدسي ، ط ١ ، الرياض : دار بلنسية ، ١٤٢٣
- ٤٣٠- صفة الصفوة ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩
- ٤٣١- صفوة التفاسير ، محمد الصابوني ، ط ٣ ، بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢
- ٤٣٢- صناعة الجوع ، ترجمة : أحمد حسان ، عالم المعرفة ، صدرت هذه السلسلة في شعبان ١٩٩٨
- ٤٣٣- الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة ، ابن القيم الجوزيه ، ط ٣ ، الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٨
- ٤٣٤- صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم ، بديع الزمان سعيد النورسي ، ط ٣ ، القاهرة : شركة سوزار للنشر ، ٢٠٠٢
- ٤٣٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين السخاوي ، بيروت : دار الجيل .
- ٤٣٦- الضوء المنير على التفسير ، جمع : علي الصالح ، مصر : مؤسسة النور ، الرياض : دار السلام
- ٤٣٧- الطب الأخضر ، عبد الباسط السيد ، ط ١ ، الجيزة : غراس للنشر والتوزيع ، ١٤٢٧ .
- ٤٣٨- الطب النبوي ، ابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الفكر
- ٤٣٩- الطب النبوي ، أكرم رضا ، ط ١ ، المنصورة : دار الوفاء ، ١٤٢٦

- ٤٤٠- الطب النبوي ، الذهبي ، ط ٣ ، بيروت : دار إحياء العلوم .
- ٤٤١- الطب الوقائي في الإسلام ، د. أحمد شوقي ، ط ٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١
- ٤٤٢- طبقات الحفاظ ، جلال الدين السيوطي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٣
- ٤٤٣- طبقات الحنابلة ، أبو الحسين ابن أبي يعلى ، بيروت : دار المعرفة
- ٤٤٤- الطبقات السنية في تراجم الحنيفة ، تقي الدين عبد القادر الداري الحنفي ، ط ١ ، الرياض : دار الرفاعي للنشر والطباعة .
- ٤٤٥- طبقات الشافعية ، تقي الدين ابن قاضي شهبة ، بيروت : دار الندوة الجديدة ، ١٤٠٧
- ٤٤٦- طبقات الشافعية ، عبد الرحيم الأسنوي ، ط ١ ، مكة : دار الباز ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧
- ٤٤٧- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، ط ٢ ، هجر ، ١٤١٣ .
- ٤٤٨- طبقات الفقهاء ، أبو إسحاق الشيرازي ، ط ١ ، بيروت : دار الرائد العربي ١٩٧٠
- ٤٤٩- الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد ، بيروت : دار صادر .
- ٤٥٠- طبقات المفسرين - أحمد بن محمد الأدنوي ، ط ١ ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم
- ٤٥١- طبقات المفسرين ، شمس الدين الداوودي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣
- ٤٥٢- طبقات المفسرين ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٣٩٦
- ٤٥٣- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، القاهرة : المؤسسة السعودية ، جدة : دار المدني
- ٤٥٤- طبيعة التفكير والتجديد في الثقافة الإسلامية ، عدنان محمد زرزور ، ط ١ ، عمان : دار الأعلام ، ١٤٢٨
- ٤٥٥- الطبيعة في القرآن الكريم ، كاصد ياسر الزبيدي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق: دار الرشيد

- ٤٥٦- طريق الدعوة في ظلال القرآن ، أحمد فائز ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١
- ٤٥٧- الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، دمشق : دار الفكر ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤٢٠
- ٤٥٨- ظواهر جغرافية في ضوء القرآن الكريم ، إبراهيم حسن ، ط ٢ ، العقبة : جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٤٠١
- ٤٥٩- عالم الغيب وأسراره ، عبدالمعز خطاب ، القاهرة : دار الاعتصام _
- ٤٦٠- عالم النبات في القرآن الكريم ، عبد المنعم فهم ، دينا محسن ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، ١٤١٩
- ٤٦١- العبر في خبر من غير ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٤٦٢- العبودية ، ابن تيمية ، ط ٧ ، بيروت : المكتب الإسلامي ١٤٢٦
- ٤٦٣- العبودية ، ابن تيمية ، مطابع السنة المحمدية .
- ٤٦٤- عبودية الكائنات لرب العالمين ، فريد التويني ، ط ١ ، الإسكندرية : دار القمة ، دار الإيمان
- ٤٦٥- العجائب في بيان الأسباب ، ابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٩٩٧
- ٤٦٦- عجائب القرآن ، فخر الدين الرازي ، ط ١ ، بيروت : دار البحار ، ١٤٠٥
- ٤٦٧- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الكتب العلمية .
- ٤٦٨- العدة شرح العمدة ، أبو محمد بهاء الدين المقدسي ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢٦
- ٤٦٩- العدة في أصول الفقه ، محمد بن الحسين الفراء ، ط ٢ ، الرياض : جامعة الملك أحمد بن سعود الإسلامية ١٤١٠
- ٤٧٠- العدد في القرآن الكريم ، نازنين عمر عبد الرحمن ، ط ١ ، دار دجلة ، ٢٠٠٨ .
- ٤٧١- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ، ط ١ ، الدمام : دار ابن القيم ، القاهرة: دار ابن عفان ، ١٤٢٤
- ٤٧٢- العرب واليهود في التاريخ ، أحمد سوسة ، ط ١ ، العربي للإعلان والنشر والطباعة

- ٤٧٣- العقد الفريد ، لأحمد ابن ربه الأندلسي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤
- ٤٧٤- العقل والعلم في القرآن الكريم ، يوسف القرضاوي ، ط ١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة : مطبعة المدني ١٤١٦ .
- ٤٧٥- العقيدة الإسلامية ، محمد المكي ، ط ١ ، السعودية : دار نور المكتبات ، بيروت : دار البشائر الإسلامية ، ١٤٢١
- ٤٧٦- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ، محمد ملكاوي ، الرياض : مكتبة الرشد ، ١٤٢٥
- ٤٧٧- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، أبو عثمان الصابوني ، ط ١ ، الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٥
- ٤٧٨- عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين ، صالح البليهي ، ط ٢ ، الرياض : المطابع الأهلية ١٤٠٤
- ٤٧٩- عقيدة المؤمن ، أبو بكر الجزائري ، ط ١ ، السعودية : مكتبة العلوم والحكم ، القاهرة : دار العقيدة ، ٢٠٠٤
- ٤٨٠- العقيدة في القرآن الكريم بين التحلية والتحلية ، أحمد سيف الدين ، ، دار البشائر الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٢٨
- ٤٨١- العلاج الطبيعي نموذج العلاج بالعنب ، نقلته للعربية لينة دعبول ، العبيكان ١٤٢٨
- ٤٨٢- العلاج الطبيعي والنباتي على هدى من الكتاب والسنة ، محمد حماد ، محمد رجائي ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٠
- ٤٨٣- العلامة الشنقيطي مفسرا ، دى . أبو المنذر عدنان آل شلش ، ط ١ ، عمان : دار النفائس ، ١٤٢٥
- ٤٨٤- علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف مكتبة الدعوة ، عن الطبعة الثامنة لدار القلم
- ٤٨٥- علم التفكير ، صلاح معمار ، ط ١ ، عمان : ديونوا للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٢٧
- ٤٨٦- علم العقاقير والنباتات الطبية ، غسان حجاوي وآخرون ، ط ١ ، عمان : مكتبة دار الثقافة ، ١٩٩٩

٤٨٧- علم الغيب في الشريعة الإسلامية ، أحمد الغنيمان ، ط ١ ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم
١٤٢٥

٤٨٨- علماء ومفكرون عرفتهم ، محمد المجذوب ، ط ٤ ، القاهرة : دار الشواف .

٤٨٩- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، أحمد بن يوسف عبد الدائم ، ط ١ ، بيروت :
دار الكتب العلمية ، ١٤١٧

٤٩٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، بدر الدين أبو محمد العيني ، دار الفكر .

٤٩١- العمدة في غريب القرآن ، مكّي بن طالب ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١

٤٩٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، ط ٣ ، القاهرة : مطبعة
السعادة ، ١٣٨٣

٤٩٣- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ،
محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي ، ط ٢ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤٠٧

٤٩٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، أبو الطيب محمد شمس الحق ، ط ٢ ، بيروت : دار
الكتب العلمية ، ١٤١٥

٤٩٥- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، بيروت : مؤسسة الأعظمي ١٤٠٨

٤٩٦- عيون التفاسير للفضلاء السماسير ، شهاب الدين أحمد السيواسي ، ط ١ ، بيروت : دار
صادر ، ١٤٢٧

٤٩٧- غاية البيان في أمثال القرآن ، صابر أبو سليمان ، ط ١ ، الرياض : دار عالم الكتب ،
١٤٢١

٤٩٨- الغذاء الحقيقي ، نينا بلانك ، ط ١ ، مكتبة العبيكان ، ١٤٢٩

٤٩٩- الغذاء والدواء في القرآن الكريم ، جمال الدين مهران ، عبدالعظيم حفي صابر ، الكتاب
الثالث عشر ، يشرف على إصدارها : محمد توفيق عويضة .

٥٠٠- غرائب التفسير وعجائب التأويل ، محمود الكرمانى ، ط ١ ، جدة : دار القبلة ، بيروت :
مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٨

٥٠١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن القمي النيسابوري ، ط ١ ، بيروت :
دار الكتب العلمية ١٤١٦

- ٥٠٢- غريب الحديث ، إبراهيم بن إسحاق الحربي ، ط ١ ، مكة المكرمة : جامعة أم القرى ،
١٤١٥
- ٥٠٣- غريب الحديث ، أبو سليمان الخطابي البستي مكة المكرمة جامعة أم القرى ، ١٤٠٢
- ٥٠٤- غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ، ط ١ ، دار قتيبة ، ١٤١٦
- ٥٠٥- الغريبين في القرآن والحديث ، لأبي عبيد الهروي ، مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ،
١٤١٩ ،
- ٥٠٦- العُنية في أصول الدين ، أبو سعيد النيسابوري المعروف بالمتولي الشافعي ، ط ١ ، بيروت
: مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٦
- ٥٠٧- الفائق في غريب الحديث ، محمود بن عمر الزمخشري ، لبنان : دار المعرفة
- ٥٠٨- الفتاوى الكبرى ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، ط ١ ، دار الكتب العلمية،
١٤٠٨
- ٥٠٩- فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني ، دار الفكر .
- ٥١٠- فتح الباري ، زين الدين ابن رجب ، ط ٢ ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٤٢٢
- ٥١١- الفتح الرباني مختصر تفسير الشوكاني ، عبدالعزيز آل الشيخ ، ط ١ ، ١٤١٦
- ٥١٢- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، أبو يحيى الأنصاري ، ط ١ ، دار الجيل .
- ٥١٣- فتح الرحمن في تفسير القرآن ، عبد المنعم تعيلب ، ط ١ ، دار السلام ، ١٤١٦
- ٥١٤- فتح الرحمن لطالب آيات القرآن ، علمي زاده ، تونس ، ليبيا : الدار العربية للكتاب
١٩٨١
- ٥١٥- فتح التقدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ،
بيروت : دار الفكر
- ٥١٦- فتح المبين لشرح الأربعين ، الهيثمي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨
- ٥١٧- الفتن والملاحم ، ابن كثير . ط ١ ، مؤسسة النور ، ١٣٨٨
- ٥١٨- الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن ، عبد الحميد بن عبدالرحمن السحبياني ، ط ١ ،
الرياض : دار القاسم ، ١٤١٧

٥١٩- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين ، سليمان الجمل ، ط ١ ، مصر : المطبعة العامرة الشرقية .

٥٢٠- فردوس الحكمة في الطب ، أبو الحسن علي الطبري ، مطبع آفتاب بيرلين ، ١٩٢٨

٥٢١- الفرق بين الفرق ، عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الاسفرائيني ، صيدا بيروت : المكتبة العصرية ، ١٤١٦

٥٢٢- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، أبو عبيد البكري ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٧١

٥٢٣- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، القاهرة : مكتبة الخانجي

٥٢٤- فضائل الشام ، أبو سعد السمعاني ، ط ١ ، دار الثقافة العربية ، ١٤١٢

٥٢٥- فقه الابتلاء ، محمد أبو صعيليك ، الأردن _ لبنان : دار البيارق .

٥٢٦- الفلك الدائر على المثل السائر ، لابن الحديد ، القاهرة : دار نهضة مصر .

٥٢٧- الفوائد ، ابن القيم الجوزيه ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٣

٥٢٨- الفوائد الدراري في ترجمة الإمام البخاري ، إسماعيل بن محمد العجلوني ، الكويت ، دار النوادر .

٥٢٩- في حكمة العقل ، أبو الأعلى المودودي ، الرياض : مكتبة الرشد ، ١٤٠٣

٥٣٠- في سبيل موسوعة علمية ، أحمد زكي ، ط ١ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧١

٥٣١- في سنن الله الكونية ، محمد الغمراوي ، ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥

٥٣٢- في نطاق التفكير الإسلامي ، محمد الحمداوي ، ط ١ ، الدار البيضاء : دار الثقافة ، ١٣٩٩

٥٣٣- فيض الرحمن في التفسير الموضوعي للقرآن ، أ . د . توفيق علوان ، ط ٢ ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٧

٥٣٤- فيض التقدير ، المناوي ، ط ١ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٥

٥٣٥- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات ، أحمد قدامة ، ط ٥ ، بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٥

- ٥٣٦- قاموس القرآن ، الحسين بن محمد الدامغاني ، ط ٣ ، بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٠
- ٥٣٧- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، دار الريان للتراث ، ١٤٠٧
- ٥٣٨- القانون في الطب ، لابن سينا ، مخطوط من مكتبة المصطفى الإلكترونية .
- ٥٣٩- قبسات من إعجاز القرآن ، فيصل آل مطلق الدوسري ، ط ١ ، ١٤٢٨
- ٥٤٠- القرآن الكريم والعلم الحديث ، منصور محمد حسب النبي ، دار المعارف ، القاهرة
- ٥٤١- القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إبراهيم ، دار الفكر العربي ، دار الثقافة العربية للطباعة .
- ٥٤٢- القرآن والعلوم الحديثة ، محمود أبو الفيض المنوفي ، عيسى الباي الحلبي وشركاه .
- ٥٤٣- القرآن والكون ، دراسة تبين الصلة الوثقى بين العقيدة والنظر في الآفاق والأنفس ، محمد عبدالله الشرقاوي ، مكتبة الزهراء .
- ٥٤٤- القرآن وقضايا الإنسان ، عائشة عبدالرحمن ، ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين .
- ٥٤٥- قرّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ، حاشية ابن حسن على كتاب التوحيد ، ط ٣ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٤
- ٥٤٦- القسم في اللغة وفي القرآن ، محمد المختار ، ط ١ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٩
- ٥٤٧- قصص الأنبياء ، أبو الفداء ابن كثير ، ط ١ ، مصر ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٨
- ٥٤٨- قصص القرآن ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، دار الجيل _ بيروت
- ٥٤٩- قطر المحيط ، بطرس البستاني ، بيروت ١٨٦٩
- ٥٥٠- قطف الأزهار في كشف الأسرار ، السيوطي ، ط ١ ، قطر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٤١٤
- ٥٥١- قواطع الأدلة في الأصول ، أبو المظفر السمعاني ، ط ١ ، بيروت : لبنان ١٤١٨
- ٥٥٢- القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد ، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ، ط ٣ ، الدمام : دار ابن القيم ، القاهرة : دار بن عفان ، ١٤٢٢

- ٥٥٣- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، شمس الدين الذهبي ، ط ١ ، جدة : دار القبلة للثقافة الاسلامية ، ١٤١٣
- ٥٥٤- الكامل في التاريخ ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين ابن الأثير ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٥
- ٥٥٥- الكامل في اللغة والأدب ، محمد بن يزيد المبرد ، ط ٣ ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٤١٧
- ٥٥٦- كبرى اليقينيّات الكونية ، وجود الخالق ووظيفة المخلوق ، محمد سعيد ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، تصوير عن الطبعة الثامنة ١٩٨٢
- ٥٥٧- تفسير القرآن الكريم ، ابن قيم الجوزية ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٤١٠
- ٥٥٨- كتاب الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين ، شرف الدين أبو الحسن علي بن المفضل المالكي ، ط ١ ، أضواء السلف .
- ٥٥٩- كتاب الأغذية ، إسحاق بن سليمان ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٤٠٦ ، مصور عن مخطوطة
- ٥٦٠- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب - عز وجل - ، أبو بكر بن خزيمة ، ط ١ ، الرياض : دار الرشد ، ١٤٠٨
- ٥٦١- كتاب الجيم ، أبو حمزة الشيباني ، ط ١ ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٤٠٣
- ٥٦٢- كتاب الغربيين غربي القرآن والحديث ، لأبي عبيد الهروي الماليني ، القاهرة ١٣٩٠
- ٥٦٣- كتاب الكليات ، أبو البقاء الكفوي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩
- ٥٦٤- كتاب النخل ، أبو بكر أحمد ابن وحشية النبطي ، تحقيق : إبراهيم السامرائي
- ٥٦٥- كتاب جمهرة الأمثال ، أبي الهلال العسكري ، ط ٢ ، دار الفكر ، ١٩٨٨
- ٥٦٦- كرامات أولياء الله _ عز وجل _ ، أبو القاسم الطبري اللالكائي ، ط ١ ، الرياض : دار طيبة ، ١٤١٢
- ٥٦٧- كشاف القناع عن متن الإقناع ، منصور بن يونس البهوتي ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٢

- ٥٦٨- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧
- ٥٦٩- كشف السرائر في معنى الوجوه والنظائر ، لابن العماد ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة .
- ٥٧٠- الكشف عن وجوه القراءات السبع ، مكّي بن أبي طالب ، ط ٣ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤
- ٥٧١- الكشف من مناهج الأدلة في عقائد الملة ، ط ١ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ ،
- ٥٧٢- الكشف والبيان ، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي ، ط ١ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢
- ٥٧٣- كشف جديدة من إعجاز القرآن الكريم ، عادل القلقيلي ، ط ١ ، عمان : دار عمار ، ١٤٠٥
- ٥٧٤- الكليات ، أبو البقاء الحسيني الكفوي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩ هـ
- ٥٧٥- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي بن حسام البرهان فوري ، ط ٥ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١
- ٥٧٦- الكون ، د. كارل ساغان ، إصدار : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، ١٩٢٣
- ٥٧٧- الكون في القرآن الكريم ، إسماعيل محمد قرني ، ط ١ ، عمان : دار دجلة _ ٢٠٠٩
- ٥٧٨- لا يرد القضاء إلا الدعاء ، محمد جبر ، ط ١ ، دار السلام ، ١٤١٤
- ٥٧٩- لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٩
- ٥٨٠- لباب التفسير من ابن كثير ، د . عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن آل الشيخ ، ط ١ ، ١٤١٤
- ٥٨١- لباب النقول في أسباب النزول ، جلال الدين السيوطي ، المطبوع مع تفسير الجلالين ، بيت الأفكار الدولية .

- ٥٨٢- الباب في علوم الكتاب ، ابن عادل الدمشقي الحنبلي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩
- ٥٨٣- لحظ الألاحظ ، ابن فهد ، دار إحياء التراث العربي .
- ٥٨٤- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، ط ١ ، بيروت : دار صادر
- ٥٨٥- لطائف الإشارات ، عبد الكريم بن هوازن القشيري ، مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب
- ٥٨٦- لماذا أنا مؤمن ؟ محمد الفندي ، لجنة الخبراء يصدرها مجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، الكتاب الثالث ١٣٨٥
- ٥٨٧- لمسات بيانية في القرآن الكريم ، فاضل السامرائي ، ط ١ ، الشارقة : مكتبة الصحابة ، عين شمس : مكتبة التابعين ، ١٤٢٩
- ٥٨٨- اللمة الشهية في نحو اللغة السريانية ، جمعها إقليميس يوسف داود الموصلبي السرياني ، طبع في الموصل في دير الدوسكيين ١٨٧٩
- ٥٨٩- الله جلّ جلاله ، سعيد حوى ، ط ٢ ، دار السلام ١٩٩٠
- ٥٩٠- الله في العقيدة الإسلامية ، أحمد بهجت ، ط ١ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤٠٦
- ٥٩١- الله كتابٌ في نشأة العقيدة الإلهية ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف ، ط ٩
- ٥٩٢- الله والكون ، د. محمد جمال الدين الفندي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
- ٥٩٣- الله يتجلى في عصر العلم ، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين ، بيروت : عالم المعرفة
- ٥٩٤- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ، شمس الدين السفاريني ، ط ٢ ، دمشق : مؤسسة الخافقين
- ٥٩٥- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، المنصورة : مكتبة الإيمان
- ٥٩٦- مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، ط ٣ ، مكتبة المعارف ، ١٤٢١
- ٥٩٧- المبدع شرح المقنع ، إبراهيم بن محمد بن مفلح ، الرياض : دار عالم الكتب ، ١٤٢٣
- ٥٩٨- المبسوط في القراءات العشر ، أبو بكر الأصبهاني ، طنطا : دار الصحابة ١٤٢٧
- ٥٩٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير ، القاهرة : دار نهضة مصر .
- ٦٠٠- مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ، ابن الجوزي ، ط ١ ، دار الراية ١٤١٥

- ٦٠١- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، القاهرة : مكتبة الخانجي
- ٦٠٢- مجاز القرآن ، لأبي محمد عز الدين بن عبد السلام ، ط ١ ، طرابلس : منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة المحافظة على التراث الإسلامي ، ١٤٠١
- ٦٠٣- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، عبد الحميد بن باديس ، ط ١ ، الجزائر : دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم ١٤٣٠
- ٦٠٤- مجلة الوعي الإسلامي ، رقم العدد ٥٣٢ ، تاريخ ٢٠١٠/٩/٣ ، مقالة للكاتب د. عبدالكريم حامدي _ الجزائر ، بعنوان : ضوابط التفكير المعرفي في التصور الإسلامي .
- ٦٠٥- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، بيروت : دار المعرفة
- ٦٠٦- مجمع الأمثال ، أبو الفضل الميداني ، ط ٢ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤٠٧
- ٦٠٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين الهيثمي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨
- ٦٠٨- مجمل اللغة لابن فارس ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٦
- ٦٠٩- المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين ، فتاوى العقيدة ، جمع وترتيب : فهد السليمان ، ط ١ ، ١٤١١
- ٦١٠- مجموع الفتاوى ، تقي الدين بن تيمية الحراني ، ط ٣ ، دار الوفاء ، ١٤٢٦
- ٦١١- المجموع القيم من كلام ابن القيم ، جمع : منصور المقرن ، ط ٢ ، الرياض : دار طيبة ، ١٤٢٨
- ٦١٢- المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث ، أبو موسى محمد الأصفهاني ، ط ١ ، دار المدني ، ١٤٠٦
- ٦١٣- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين ، دار الوطن - دار الثريا ، ١٤١٣
- ٦١٤- مجموعة التوحيد ، مجموعة رسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
- ٦١٥- مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ، ابن تيمية الحراني ، لجنة التراث العربي
- ٦١٦- المحاسن والأضداد ، الجاحظ ، بيروت : دار صعب ، ١٩٦٩
- ٦١٧- محاضرات في السنة ، عبدالعظيم عبدالسلام ، ط ٢ ، مصر : مطبعة دار التأليف ، ١٣٨٠

- ٦١٨- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان بن جنى ، وزارة الأوقاف : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٤٢٠
- ٦١٩- المحرر الوجيز ، أبو بكر غالب بن عطية الأندلسي ، بيروت : دارالكتب العلمية ، ١٤٢٢
- ٦٢٠- المحكم والمحيط الأعظم ، علي ابن سيده ، بيروت : دار الكتب العلمية ٢٠٠٠
- ٦٢١- محمد بن عبد الوهاب ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود
- ٦٢٢- محيط المحيط ، بطرس اللبناي ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٧
- ٦٢٣- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، بيروت : دار الكتب العربية
- ٦٢٤- المختار من تفسير القرآن العظيم ، محمد متولي الشعراوي ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة
- ٦٢٥- مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ، عبدالعزيز السلطان ، ط ١٠ ، ١٤٠٣
- ٦٢٦- مختصر الصواعق المرسله ، ابن القيم ، اختصره : محمد بن الموصلي ، الرياض : مكتبة الرياض الحديثة .
- ٦٢٧- المختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد ، عبدالرزاق البدر ، دار الإمام أحمد
- ٦٢٨- مختصر تذكرة الإمام السويدي في الطب ، القطب الصمداني عبدالوهاب الشعراي ، مصر: المطبعة الميمنية ، أحمد البابي الحلبي ، ١٣٠٨
- ٦٢٩- مختصر تفسير ابن كثير ، محمد الصابوني ، ط ٥ ، بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٠
- ٦٣٠- مختصر تفسير القرآن العظيم المسمى عمدة التفسير ، أحمد محمد شاكر ، ط ١ ، المنصورة: دار الوفاء ، دار طيبة ، ١٤٢٤
- ٦٣١- مختصر تفسير القرآن الكريم ، علاء الدين علي بن محمد الخازن ، بيروت : دار المسيرة ، ١٩٨٧
- ٦٣٢- المختصر في تفسير القرآن ، ابن صمادح التحيبي ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩
- ٦٣٣- مختصر منهاج القاصدين ، ابن قدامة المقدسي ، ط ٤ ، بيروت _ دمشق : المكتب الإسلامي ١٣٩٤

- ٦٣٤- مختصر منهاج القاصدين ، لابن قدامة المقدسي ، دمشق : مكتبة دار البيان ، بيروت : مؤسسة علوم القرآن : ١٣٩٨
- ٦٣٥- المخصص ، ابن سيده أبو الحسن الأندلسي ، ط ١ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٧
- ٦٣٦- مخطوطة الجمل ، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ، حسن عز الدين الجمل ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٤١٩
- ٦٣٧- مدارج السالكين ، ابن القيم الجوزية ، ط ٢ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣
- ٦٣٨- مدارك التنزيل ، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي ، بيروت : دار النفائس ، ٢٠٠٥
- ٦٣٩- المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ، إبراهيم بن محمد البريكان ، ط ١ ، دار ابن القيم ، دار ابن عفان ، ١٤٢٣
- ٦٤٠- المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية ، د. شعبان إسماعيل . ط ١ ، القاهرة : دار الأنصار ، ١٤٠٠
- ٦٤١- المدرسة القرآنية في المغرب ، عبد السلام الكنوني ، ط ١ ، الرباط : مكتبة المعارف ، ١٤٠١
- ٦٤٢- المدهش ، لأبي الفرج الجوزي المتوفي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠١
- ٦٤٣- مذكرة التوحيد ، عبدالرزاق عفيفي ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت : دمشق ، ١٤٠٣
- ٦٤٤- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ، محمد بن عمر نووي الجاوي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧
- ٦٤٥- مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، صفي الدين البغدادي ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٧٣
- ٦٤٦- مرويات أحمد بن حنبل ، جمع : حكمت بشير الياسين ، ط ١ ، المدينة المنورة : مكتبة المؤيد ، ١٤١٤
- ٦٤٧- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي ، بيروت : دار الجيل ، دار الفكر

- ٦٤٨- المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨
- ٦٤٩- مسائل الإيمان ، أبو يعلى ، ط ١ ، الرياض : دار العاصمة ١٤١٠
- ٦٥٠- مسائل الإيمان دراسة وتحقيقا ، أبو يعلى ، الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٠ .
- ٦٥١- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١١
- ٦٥٢- المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، ابن تيمية ، ط ١ ، ١٤١٨
- ٦٥٣- المستصفي من علم الأصول ، لأبي حامد الغزالي ، ط ١ ، دار صادر ، بولاق : المطبعة الأميرية ، ١٣٢٢
- ٦٥٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠
- ٦٥٥- مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار) ، أبو بكر أحمد البزار ، ط ١ ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٩٨٨
- ٦٥٦- المسند الصحيح المختصر من السنن ، مسلم بن الحجاج ، ط ٤ ، الرياض : دار السلام ، ١٤٢٩
- ٦٥٧- مشكاة المصابيح ، محمد بن عبد الله التبريزي ، ط ٣ ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥ .
- ٦٥٨- مشكل إعراب القرآن ، مكّي بن أبي طالب القيسي ، ط ٢ ، دمشق : دار المأمون للتراث
- ٦٥٩- المصباح في تفسير القرآن العظيم ، الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي ، إعداد : عبد الكريم الزهراني ، جامعة أم القرى ١٤٢١
- ٦٦٠- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، برهان الدين البقاعي ، ط ١ ، الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨
- ٦٦١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف : أحمد المقرئ الفيومي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، مكة المكرمة : دار الباز ، ١٣٩٨

- ٦٦٢- مع الأنبياء في القرآن الكريم ، عفيف طبارة ، ط ١٧ ، بيروت : دار العلم للملايين ،
١٩٨٩
- ٦٦٣- مع المصطفى ، عائشة عبدالرحمن بنت الشاطي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب العربي ،
١٣٩٢
- ٦٦٤- معارج الألباب في مناهج الحق والصواب ، حسين النعيمي ، ط ٣ ، الرياض : مكتبة
المعارف ١٤٠٥
- ٦٦٥- معارج التفكير ودقائق التدبير ، عبد الرحمن الميداني ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ، ١٤٢٠
- ٦٦٦- معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ حكيمي ، ط ١ ، الدمام : دار ابن القيم ،
١٤١٠ .
- ٦٦٧- معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ، محمد بن حسن الجيزاني ، ط ٥ ، دار ابن
الجوزي ، ١٤٢٧
- ٦٦٨- معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، ط ٤ ، دار طيبة ، ١٤١٧
- ٦٦٩- معالم الثقافة الإسلامية ، عبدالكريم عثمان ، ط ١٠ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣
- ٦٧٠- معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد ، أ. د. إبراهيم الدوسري ، ط ١ ، الرياض : دار
الحضارة للنشر والتوزيع ، ، ١٤٢٤
- ٦٧١- معاني القرآن ، أبو الحسن الأخفش الأوسط ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة الجانجي ، مطبعة
المدني ، ١٤١١
- ٦٧٢- معاني القرآن ، علي الكسائي ، القاهرة : دار قباء ١٩٩٨
- ٦٧٣- معاني القرآن الكريم ، أبو جعفر النحاس ، ط ١ ، ١٤١٠
- ٦٧٤- معاني القرآن للفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، مصر : دار الكتب المصرية
- ٦٧٥- معاني القرآن وإعرابه ، أبو إسحاق الزجاج ، ط ١ ، بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٨
- ٦٧٦- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٦٧٧- معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات ، محمد بن خليفة التميمي ، ط
١ ، الرياض : أضواء السلف ، ١٤١٩
- ٦٧٨- المعجزات القرآنية ، هارون يحيى .

٦٧٩- المعجزة الخضراء : التمثيل الضوئي ، هارون يحيى ، ترجمة مصطفى أنور ، مراجعة : مصطفى السيتي .

٦٨٠- المعجزة الكبرى القرآن ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .

٦٨١- معجزة النبات ، هارون يحيى ، مراجعة أورخان محمد علي .

٦٨٢- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ياقوت الحموي الرومي ، ط ١ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣

٦٨٣- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ط ٢ ، القاهرة : دار نصر ، دار الفكر العربي .

٦٨٤- معجم الأمثال العربية ، رياض عبد الحميد مراد ، ط ١ ، إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٤٠٧

٦٨٥- المعجم الأوسط ، أبو القاسم سليمان الطبراني القاهرة : دار الحرمين ، ١٤١٥

٦٨٦- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤

٦٨٧- المعجم الجامع ، مجموعة باحثين ، نابلس ٢٠٠١ ، ٢٠٠٣

٦٨٨- معجم الرائد ، جبران مسعود ، ط ٧ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٩٢

٦٨٩- معجم ألفاظ القرآن ، د . نشأت صلاح الدين ، حامد عبد الهادي ، مطبعة ديوان ديوان الوقف السني ، ١٤٢٧

٦٩٠- معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مصر ، مجمع اللغة العربية ، الإدارة العامة للمجمعات وإحياء التراث ١٤٠٩

٦٩١- معجم الفرائد ، إبراهيم السامرائي ، ط ١ ، لبنان : مكتبة لبنان ، ١٩٨٤

٦٩٢- معجم الفقهاء ، حياة الإمام أبي حنيفة ، السيد عفيفي ، المطبعة السلفية .

٦٩٣- المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد الطبراني ، ط ٢ ، الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٤

٦٩٤- المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم ، محمد بسام ، دمشق : دار الفكر ، بيروت : دار الفكر المعاصر ١٤١٧

٦٩٥- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة

- ٦٩٦- المعجم الوسيط ، أخرج هذه الطبعة : إبراهيم أنيس ، وآخرون ، ط ٢ ، مصر : دار المعارف ، ١٣٩٢
- ٦٩٧- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ
- ٦٩٨- معرفة الصحابة ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ط ١ ، الرياض : دار الوطن ، ١٤١٩
- ٦٩٩- معرفة الصحابة ، أبو نعيم الأصبهاني ، ط ١ ، المدينة المنورة : مكتبة الدار ، الرياض : مكتبة الحرمين ، ١٤٠٨
- ٧٠٠- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، محمد بن أحمد الذهبي ، ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤
- ٧٠١- المعرفة والتاريخ ، أبو يوسف يعقوب الفسوي ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٧٠٢- المعين على تدبر الكتاب المبين ، مجد مكّي ، ط ١ ، جدة : دار نور ، ١٤٢٧
- ٧٠٣- المغني في فقه الإمام أحمد ، عبد الله بن قدامة المقدسي ، ط ١ ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٥
- ٧٠٤- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، فخر الدين الرازي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي
- ٧٠٥- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، أحمد بن طولون الصالحي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٨
- ٧٠٦- مفتاح العلوم ، يوسف بن أبي بكر السكاكي ، مصر : المطبعة اليمنية .
- ٧٠٧- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ابن القيم الجوزية ، الرياض : من توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
- ٧٠٨- مفحمت الأقران في مبهمات القرآن ، السيوطي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق _ بيروت ، ١٤٠٣
- ٧٠٩- المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني ، بيروت : دار المعرفة
- ٧١٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ط ٤ ، دار الساقى ، ١٤٢٢
- ٧١١- مقاصد الشريعة عند ابن تيمية ، يوسف البدوي ، الأردن : دار النفائس .

- ٧١٢- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ، عبدالرحمن عبدالخالق ، ط ١ ، الكويت : مكتبة الصحوة الإسلامية ، ١٤٠٥
- ٧١٣- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ، يوسف العالم ، ط ٢ ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي و المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٥
- ٧١٤- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، أحمد الغرناطي ، دار الغرب الإسلامي .
- ٧١٥- الملل والنحل ، أبو الفتح الشهرستاني ، ط ٢ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٥
- ٧١٦- مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها ، حامد صادق قنبي ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٩ ، العدد الثالث .
- ٧١٧- من أسرار التنزيل ، فخر الدين الرازي ، مصر : دار المسلم .
- ٧١٨- من أسرار الحيوان في التعبير القرآني ، طالب إسماعيل ، جامعة درنة ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية .
- ٧١٩- من أسرار وإعجاز القرآن الكريم ، محمد النابلسي ، ط ١ ، دار الصفا ١٤٢٠
- ٧٢٠- من الدراسات القرآنية سورة المؤمنون والنور ، د . سعد شلي ، دار مصر للطباعة .
- ٧٢١- من آيات الإعجاز العلمي (٤-٥) النبات في القرآن الكريم ، زغلول النجار ، ط ٣ ، مكتبة الشروق الدولية ، ١٤٢٦
- ٧٢٢- من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ، ط ٢ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .
- ٧٢٣- من بلاغة سورة المؤمنون ، عائشة فريد ، دار قباء ٢٠٠٠
- ٧٢٤- من حقائق الكون في التعبير القرآني ، عمران فيتور ، طالب إسماعيل ، ط ١ ، طرابلس ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
- ٧٢٥- من عالم الطب القرآني ، عدنان الشريف ، ط ١ ، بيروت : دار العلم للملايين
- ٧٢٦- من كل سورة فائدة ، عبدالملك رمضاني ، الجزائر : منار السبيل ، الدار الأثرية ١٤٢٧
- ٧٢٧- من لطاف التفسير ، أحمد فرح عقيلان ، ط ٢ ، دار اليقين ، ١٤٢٩
- ٧٢٨- من هدي القرآن في شكر نعم الرحمن ، سيد لاشين ، ط ١ ، المدينة المنورة : دار الزمان،

- ٧٢٩- منافع النبات والثمار والبقول والفواكه والخضروات والرياحين ، ابن الوردي ، دمشق : دار الكتاب العربي
- ٧٣٠- مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ط ١ ، مصر : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٩ .
- ٧٣١- مناقب الإمام الشافعي ، لابن كثير الدمشقي ، ط ١ ، الرياض : مكتبة الإمام الشافعي ، ١٤١٢
- ٧٣٢- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، ط ٣ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه
- ٧٣٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ط ١ ، بيروت : دار صادر ، ١٣٥٧
- ٧٣٤- المنحول ، أبو حامد الغزالي ، ط ٣ ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، دمشق : دار الفكر ، ١٤١٩
- ٧٣٥- المنقول والمعقول في التفسير الكبير ، د . عارف المسعر ، ط ١ ، مركز الملك فيصل للأبحاث ، ١٤٢٦
- ٧٣٦- منهج السمين الحلبي في التفسير في كتابه الدر المصون ، د . عيسى بن ناصر الدريبي ، ط ١ ، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام ، ١٤٢٨
- ٧٣٧- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير عقيدة التوحيد ، إبراهيم البريكاني ، ط ١ ، الرياض : دار ابن القيم ، القاهرة : دار ابن عفان ، ١٤٢٥
- ٧٣٨- المنهزمون ، يوسف العظم ، دمشق ، ط ٣ ، بيروت : دار القلم ، ١٣٩٩
- ٧٣٩- مهارات التفكير التباعدي ، ، جيلفورد بلوم ، د. كمال محمد خليل ، ط ١ عمان : دار المناهج للنشر والتوزيع ، ١٤٢٧
- ٧٤٠- الموافقات ، الشاطبي إبراهيم بن موسى ، ط ١ ، دار ابن عفان ، ١٤١٧
- ٧٤١- المواهب الربانية من الآيات القرآنية ، ابن سعدي ، ط ٢ ، الدمام : رمادي للنشر ، ١٤١٧
- ٧٤٢- الموجز في قواعد اللغة العربية ، سعيد الأفغاني ، بيروت : دار الفكر ، ١٤٢٤

- ٧٤٣- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة أضخم موسوعة إسلامية في الإعجاز العلمي ، يوسف الحاج أحمد ، ط ٢ ، دمشق : مكتبة ابن حجر ، ١٤٢٤
- ٧٤٤- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، الإعجاز في المياه ، كتاب الكتروني .
- ٧٤٥- الموسوعة الأم للعلاج بالأعشاب والنباتات الطبية ، عبد الباسط محمد ، عبد الثواب عبد الله ، ط ١ ، دار ألفا للطباعة والنشر ، ١٤١٤
- ٧٤٦- موسوعة الشفاء بالعسل ، حسن زكي ، دمشق : التكوين ، ٢٠٠٧
- ٧٤٧- موسوعة الطب الشعبي والعلاج البديل ، أيمن الحسيني ، القاهرة : دار الطلائع ، مطابع العبور الحديثة
- ٧٤٨- الموسوعة القرآنية ، إبراهيم الإبياري ، مؤسسة سجل العرب ، ١٤٠٥
- ٧٤٩- الموسوعة الكونية الكبرى / آيات الله في النبات والثمار والأزهار والألوان ، مجموعة من العلماء .
- ٧٥٠- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة ، وليد الزبيدي وآخرون ، ط ١ ، بريطانيا : سلسلة إصدارات الحكمة ، ١٤٢٤
- ٧٥١- الموطأ ، مالك بن أنس ، ط ١ ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان ، ١٤٢٥
- ٧٥٢- المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، ط ٢ ، دار طيبة ، ١٤٢٠
- ٧٥٣- المؤلف : أبو بكر بن العربي المعافري المالكي ، ط ٢ ، بيروت : دار الجيل ، ١٤٠٧
- ٧٥٤- المؤلف : الإمام الحافظ / جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ١٤٠٨
- ٧٥٥- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم ، محمد دراز ، دار القلم ١٤٢٦
- ٧٥٦- نثر الدر ، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت: ١٤٢٤
- ٧٥٧- ندوة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، بأقلام مجموعة من العلماء ، عقدت في مقر الجمعية الخيرية الإسلامية بجده في ٢٣ ذو الحجة سنة ١٤٢٣
- ٧٥٨- النحلة تسبح الله بلغة العلم ولسان الواقع ، محمد الحمصي ، ط ٤ ، دمشق : دار الرشيد، ١٩٧٩
- ٧٥٩- النحو الوافي ، عباس حسن ، ط ١٥ ، دار المعارف

- ٧٦٠- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر
- ٧٦١- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لأبي بكر السجستاني المطبوع بهامش تفسير : تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهمامي ، طبع بمطبعة بولاق بمصر .
- ٧٦٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٥
- ٧٦٣- نظم العقيان في أعيان الزمان ، السيوطي ، نيويورك ، المطبعة السورية الأمريكية ، ١٣٤٧ .
- ٧٦٤- النظم القرآني في سورة الرعد ، محمد بن سعيد الدبل ، شبرا : عالم الكتب ، دار النصر للطباعة الإسلامية
- ٧٦٥- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨
- ٧٦٦- نفس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه ، أبو جعفر حمد بن عبدالصمد ، المغرب : وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ١٤١٤
- ٧٦٧- النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ، محمد بن علي الكرجي القصاب ، ط ١ ، دار القيم - دار ابن عفان ، ١٤٢٤
- ٧٦٨- النكت في القرآن الكريم ، أبو الحسن المَجَاشِعِي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٨
- ٧٦٩- النكت والعيون ، أبو الحسن علي الماوردي ، بيروت : دار الكتب العلمية
- ٧٧٠- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد النويري ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤
- ٧٧١- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدين الرازي ، ط ١ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٥
- ٧٧٢- النهاية في غريب الحديث والأثر ، أبو السعادات بن الأثير، بيت الأفكار الدولية .
- ٧٧٣- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر .

- ٧٧٤- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ، صديق حسن خان القنوجي البخاري ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٣
- ٧٧٥- الهادي إلى تفسير غريب القرآن ، محمد سالم محيسن ، مكتبة جعفر الحديثية ، دار الاتحاد العربي للطباعة
- ٧٧٦- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ابن قيم الجوزية ، المدينة المنورة : الجامعة الإسلامية
- ٧٧٧- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، مكى بن أبى طالب ، ط ١ ، جامعة الشارقة : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، ١٤٢٩
- ٧٧٨- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، مكى بن طالب ، ط ١ ، جامعة الشارقة : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ، ١٤٢٩
- ٧٧٩- هدية العارفين بأسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين ، إسماعيل البغدادي ، استانبول : وكالة المعارف ، ١٩٥٥
- ٧٨٠- الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ابن القيم الجوزية ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥
- ٧٨١- الواحدى ومنهجه في التفسير ، جودة محمد المهدي ، مصر : وزارة الأوقاف
- ٧٨٢- الوافي في شرح الأربعين النووية ، مصطفى البغا ، محيي الدين مستو ، ط ٣ ، دمشق ، بيروت : مؤسسة علوم القرآن ، ١٤٠٤
- ٧٨٣- واقعية المنهج القرآني ، توفيق محمد سبع ، القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٣
- ٧٨٤- وجوه البيان في أمثال القرآن ، سميرة عدلي محمد رزق ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٦ .
- ٧٨٥- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، هارون بن موسى القاري ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٤٠٩
- ٧٨٦- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله ، الحسين بن محمد الدامغاني ، بيروت : دار الكتب العلمية

٧٨٧- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، علي بن أحمد الواحدي ، ط ١ ، دمشق بيروت دار القلم ، الدار الشامية ١٤١٥

٧٨٨- الوجيز في علم الأجنة القرآني ، محمد علي البار ، ط ٢ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٧

٧٨٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن الواحدي النيسابوري ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية

٧٩٠- وضع البرهان في مشكلات القرآن ، محمود بن أبي الحسن بيان الحق النيسابوري ، ط ١ ، دمشق : دار القلم ، بيروت : الدار الشامية .

٧٩١- الوفا بأحوال المصطفى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المؤسسة السعيدية بالرياض

٧٩٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس بن خلكان ، بيروت : دار صادر

٧٩٣- وقفات في حياة الشيخ ابن عثيمين ، إحسان العتيبي ، ٢٠٠١

٧٩٤- والله الأسماء الحسنی فادعوه بها دراسة تربوية ، عبدالعزيز الجليل ، ط ٣ ، دار طيبة ، ١٤٣٠

٧٩٥- ومضات ، محمد الحمد ، ط ١ ، الرياض : دار ابن خزيمة ١٤٣١

٧٩٦- اليوم الآخر في ظلال القرآن ، جمع وإعداد : أحمد فائز ، ط ١٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٨_١٩٨٨

المجلات العلمية :

٧٩٧- الإعجاز البلاغي في رؤية الرماني ، د. محمد أبو موسى . مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، العدد السادس .

٧٩٨- الإعجاز العلمي في قوله تعالى وأنبئنا عليه شجرة من يقطين . مقال في موقع جامعة الإيمان إعداد : قسطاس إبراهيم النعيمي .

٧٩٩- بدائع البديع في ظلال آيات من الذكر الحكيم ، د. صالح الزهراني . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد ٢٥ ، عام ١٤٢٠

٨٠٠- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في عالم الأنعام ، د. عبدالكريم بن حسن العثمان ، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

٨٠١- من الطب العربي الشعبي . د. محمد مدحت ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، العدد السادس عام ١٤٠٣ .

٨٠٢- النخل في القرآن الكريم مجلة الدراسات القرآنية ، العدد الخامس ، ١٤٣٠ ، الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه .

٨٠٣- وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، د. سميرة عدلي . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد العاشر ، ١٤١٤ .

مواقع ومقالات من الشبكة العنكبوتية :

٨٠٤- أهمية التنوع الإحيائي النباتي في البيئة . مقال ل د. عبدالبديع حمزة زليلي موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

٨٠٥- آية الحدائق وعلاج الاكتئاب ، د. زهير رابع القدامي ، المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة : الطب والحياة . الموقع الرسمي للهيئة العالمية للإعجاز .

٨٠٦- الرقم سبعة يشهد على عظمة القرآن . مقال في موقع المهندس : عبد الدائم الكحيل أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

٨٠٧- الموقع الرسمي للشيخ عبدالرحمن بن سعدي .

٨٠٨- الموقع الرسمي للشيخ محمد الصالح العثيمين .

٨٠٩- النظام الزراعي في القرآن والسنة بين مظاهره الإعجازية وأشكاله التطبيقية . محمد بن الهادي الشيخ . الموقع الرسمي للدكتور : سيد مبارك .

٨١٠- وفي الأرض قطع متجاورات . مقال في الموقع الرسمي ل د. زغلول راغب النجار ، تاريخ المقالة ٢٠٠٢/١٢/١٦ .

٨١١- ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . مقال ل د. عبدالكريم بكار . موقع صيد الفوائد .

٨١٢- ونفضل بعضها على بعض في الأكل : رؤية جينية . مقال في الموقع الرسمي ل د. نظمي خليل أبو العطا ، تاريخ المقالة ٢٠١٠/١٢/٨

فهرس الموضوعات

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
المقدمة.....	١.
التمهيد.....	٩.
الفصل الأول :دلالات الشجر ، والثمر في حق الله - تعالى -.....	١٣.....
المبحث الأول : دلالاتها على التوحيد.....	١٥.....
المطلب الأول : دلالاتها على توحيد الربوبية.....	٢٢.....
معنى توحيد الربوبية.....	٢٢.....
الاستدلال بالفطرة.....	٢٥.....
الاستدلال بالعقل.....	٢٨.....
ضرب الأمثال.....	٣٣.....
الاستدلال بالكون.....	٣٩.....
أولاً _ الخلق والإيجاد.....	٤١.....
ثانياً _ دلالاتها على البعث والجزاء.....	٤٨.....
الاستدلال بالنبات على وحدانية الله _ تعالى _.....	٥٢.....
أولاً : دلالة الرزق.....	٥٣.....
ثانياً : دلالاتها على التسوية والإتقان والتقدير.....	٥٩.....
ثالثاً : دلالة النظام والتسخير والتدبير والحكمة.....	٦٦.....
المطلب الثاني : دلالاتها على توحيد الألوهية.....	٧٣.....
معنى توحيد الألوهية.....	٧٣.....
الآيات التي جاءت للاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.....	٨١.....
تعريف الخلق بخالقهم ، وآثاره ونعمه عليهم.....	٨١.....
انفراده سبحانه بصفات الربوبية.....	٩٣.....
تعجيز آلهتهم المزعومة.....	٩٧.....

- الاستدلال بالكون..... ١٠٥.
- وحدة النظام في الكون ١٠٥.
- عرض لبعض آيات القدرة والنعمة عليهم ١٠٨.
- تسخيرُ المخلوقاتِ لأداء وظائفها، والقيام بخصائصها..... ١١٥.
- أساليب أخرى استدل بها القرآن على توحيد الألوهية..... ١١٧.
- تذكيرهم بما حدث للأمم السابقة..... ١١٧.
- من هدايات الآيات..... ١٢٢.
- المطلب الثالث : سجودها لله - تعالى -**..... ١٢٦.
- معنى السجود..... ١٢٨.
- سجودها لله تعالى..... ١٢٩.
- سجودها مع عموم الكائنات..... ١٣١.
- ما نص القرآن على ذكر السجود منها..... ١٣٥.
- كيفية سجود ما نصت عليه الآية..... ١٣٨.
- تسبيحها لله تعالى وعبادتها له..... ١٤٢.
- من هدايات الآيات..... ١٤٥.
- المطلب الرابع : سياقها في عموم علم الله - تعالى -**..... ١٤٦.
- أثر الإيمان بعلم الله الشامل ١٥٧.
- من هدايات الآيات ١٦٠.
- المطلب الخامس : دلالتها على تقدير الخلق** ١٦٢.
- من هدايات الآيات ١٧٠.
- المبحث الثاني : دلالتها على البعث** ١٧١.
- معنى البعث ١٧١.
- حكم الإيمان به ١٧٢.
- الحكمة منه ١٧٣.
- المطلب الأول : قدرة الله - تعالى - على البعث**..... ١٧٦.

- المطلب الثاني : تقرير البعث بإحياء البذرة الميتة..... ١٨٦
- المطلب الثالث : تقرير البعث بإحياء الأرض ١٩٢
- من هدايات الآيات ٢٠٠
- الفصل الثاني : ٢٠٢
- دلالات الشجر والثمر في حق المخلوق : ٢٠٢
- المبحث الأول : الامتنان على الخلق : ٢٠٢
- المطلب الأول : الامتنان بإيجادها ٢٠٤
- ما جاء من الآيات بلفظ الإخراج ٢١١
- التعبير عن الامتنان بلفظ فأنبتنا ٢٢١
- الامتنان بلفظ " جعل " ٢٢٥
- الامتنان بلفظ " فأنشرنا " ٢٢٧
- الامتنان بلفظ " الإنشاء " ٢٢٩
- من هدايات الآيات ٢٣٢
- المطلب الثاني : الامتنان بتنوع النبات ، ومنافعه ٢٣٤
- استمرار ودوام نفع النبات ٢٣٦
- توفير رزق الإنسان والحيوان ٢٤١
- يساعد على تصنيفها وتمييزها ٢٤٩
- يوفر مأوى ومسكناً يلائم تنوع الكائنات الحية ٢٥٣
- تجديد الغلاف الجوي ٢٥٥
- تفتح باباً واسعاً للأجر ٢٥٥
- مصدر منافع متعددة ٢٥٦
- تأثيرها النفسي على الإنسان ٢٦٢
- من هداية الآيات ٢٧٣
- المطلب الثالث : الامتنان برعي الأنعام ٢٧٦
- فائدة الأنعام للإنسان ٢٧٦

٢٨٧. من هداية الآيات
- المطلب الرابع : الامتحان على موسى ، ويونس ، ومريم - عليهم السلام - ٢٨٨
٢٨٨. الامتحان على موسى - عليه السلام -
٢٩٩. من هدايات الآيات
- الامتحان على يونس - عليه السلام - ٣٠١.
٣٠١. قصة يونس مع قومه
٣٠٢. نبي الله يونس - عليه السلام - واليقطين
٣٠٤. توبة الله - سبحانه وتعالى - عليه
٣٠٦. حُب النبي - عليه الصلاة والسلام - لليقطين
٣٠٦. وقفة مع دعاء يونس - عليه السلام -
٣٠٨. من هداية الآيات
٣١١. امتنان الله - سبحانه - على مريم - عليها السلام -
٣١١. اصطفاء نسب مريم بنت عمران
٣١٣. نذر أمها لما في بطنها
٣١٥. رزق مريم - عليها السلام -
٣١٦. ماهية رزقها - عليها السلام -
٣١٩. حملها ببعيسى - عليهما السلام - وولادتها له
٣٣٠. من هداية الآيات
- المطلب الخامس : الامتحان على أهل مكة ٣٣٣.
٣٤٦. من هداية الآيات
- المطلب السادس : الامتحان بجعل الشجر والتمر جمال ، وزينة ٣٤٨.
- المطلب السابع : الامتحان بتزئُّن الأرض بالنبات ٣٥٥.
٣٥٧. من هداية الآيات .
- المبحث الثاني : دلالتها على التفكير : ٣٥٩.
- أهمية التفكير في مخلوقات الله : ٣٥٩.

- المطلب الأول : التفكير في الملكوت ، وما خلق الله من شيء..... ٣٦٣ .
- الأمر المباشر بالنظر ٣٦٦ .
- الاستفهام الإنكاري أو التقريري بعدم الرؤية ٣٧٠ .
- قسم الله - سبحانه وتعالى - ببعض المخلوقات ٣٧٢ .
- تسمية سور القرآن بأسماء الكائنات الحية ٣٧٢ .
- أسلوب التقرير ، والذم : ٣٧٢ .
- تكرار الكلمات المتعلقة بالعقل والنظر ونظائرها ٣٧٣ .
- المطلب الثاني : التفاضل في الأكل مع الاشتراك في الأصل** ٣٧٦ .
- المطلب الثالث : في كل النباتات زوجان اثنان** ٣٨٣ .
- المطلب الرابع : التفكير في تنوعها** ٣٩٤ .
- المطلب الخامس : من الشجر الأخضر نار** ٤٠٤ .
- المطلب السادس : شجرة تخرج في أصل الجحيم** ٤٠٨ .
- من هدايات الآيات ٤١٢ .
- المبحث الثالث : سياقها في مجال ضرب المثل** ٤١٦ .
- المراد بالأمثال ٤١٦ .
- أنواع الأمثال في القرآن ٤١٨ .
- فوائد الأمثال وأهميتها ٤١٩ .
- المطلب الأول : التمثيل بما للحث على الإنفاق في سبيل الله** ٤٢١ .
- تشبيهه عظم ثواب المنفق كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ٤٢١ .
- الثاني : تشبيه نفقة المؤمن بالجنة المثمرة ٤٢٤ .
- المطلب الثاني : التمثيل بما للزجر عن الرياء ، وما يحبط العمل** ٤٢٧ .
- تشبيهه نفقة الكفار والمبطلين صدقاتهم بالمن والأذى بالصفوان ٤٢٨ .
- تشبيهه نفقة المانين والمرائين بالجنة المليئة بالثمرات والتي دمرها إعصار ٤٢٩ .
- المطلب الثالث : التمثيل بما للحث على شكر النعمة ، وعدم كفرها** ٤٣٣ .
- المطلب الرابع : التمثيل بما لتقريب الأمر الغيبي** ٤٣٨ .

- المطلب الخامس : التمثيل بها للإشادة بالمدوح ٤٤١
- المطلب السادس : التمثيل بها لبيان حقيقة الدنيا ٤٤٥
- المطلب السابع : التمثيل بها للحث على الكلمة الطيبة ٤٥١
- من هدايات الآيات ٤٥٧
- المبحث الرابع : الابتلاء بالشجر والتمر ٤٦٣
- المطلب الأول : ابتلاء المؤمنين بنقص الثمرات ٤٦٥
- المطلب الثاني : عذاب الكفار بنقص الثمرات ٤٧٠
- المطلب الثالث : ابتلاء المؤمنين بركة الحبوب ٤٧٣
- المطلب الرابع : توظيفها في الترهيب من الذنوب ٤٨١
- سوء مآل آل فرعون ٤٨٢
- قوم عاد وثمود ٤٨٤
- قصة سبأ ٤٨٧
- قصة أصحاب الجنة ٤٨٩
- الترهيب من طعام أهل النار ٤٩١
- المطلب الخامس : ابتلاء آدم وحواء -عليهما السلام - ٤٩٣
- الخلاف في الجنة ٤٩٤
- الخلاف في نوع الشجرة وتحديدها ٤٩٦
- من هدايات الآيات ٤٩٨
- المبحث الخامس : الثمر في الجنة ٥٠١
- المطلب الأول : كثرة ثمر الجنة ٥٠٣
- المطلب الثاني : في الجنة ما تشتهي الأنفس من الثمر ٥١٣
- المطلب الثالث : دوام ثمر الجنة ٥١٥
- المطلب الرابع : تشابه المظهر واختلاف الحقيقة ٥١٧
- من هدايات الآيات ٥٢٣
- الخاتمة ٥٢٥

الفهارس العامة :

- ٥٢٨ فهرس الآيات الكريمة =
- ٥٣٥ فهرس الأحاديث الشريفة =
- ٥٣٨ فهرس الأعلام =
- ٥٤١ فهرس الأمم والفرق =
- ٥٤٢ فهرس الكلمات المشروحة =
- ٥٤٨ فهرس الأبيات الشعرية =
- ٥٤٩ فهرس الأماكن و البلدان =
- ٥٥٠ فهرس المصادر ، والمراجع =
- ٦٠٢ فهرس الموضوعات =